

الرجل

إلى مصر والسودان والحبشة

تصنيف الرحالة العثماني
أوليا چلبی

إشراف وتقديم
الدكتور محمد حرب

راجعها وأكمل مواقتها
الدكتورة ماجدة مخلوف

نقلها إلى العربية
الدكتور حسين مجيب المصري وآخرون

المجلد الأول



منتدى اقرأ الثقافي

www.iqra.ahlamontada.com

الرجل

إلى مصر والسودان والحبشة

تصنيف الرقالة العثماني
أوليا جلبي

إشراف وتقديم
الدكتور محمد حرب

راجعها وأكمل مواضعها
الدكتورة ماجدة مخلوف

نقلها إلى العربية
الدكتور حسين مجيب المصري وآخرون

المجلد الأول



جميع الحقوق محفوظة للنناشر



دار الآفاق العربية

نشر - توزيع - طباعة

٥٥ ش محمود طلعت من ش الطيران

مدينة نصر - القاهرة

تليفون : ٢٦١٧٣٣٩

تليفاكس : ٢٦١٠١٦٤

EMAIL: Daralafk@yahoo.com

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١٥٨٤١

الترقيم الدولي : 1 - 126 - 344 - 944

الطبعة الأولى

٢٠٠٦ م

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

٨٣٣٨٢٤٤ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٠ : ☎

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com

الإهداء

إلى الصديق البحريني
الدكتور سمير فخرو
أحد الأعمدة الأساس
في النهضة العربية المعاصرة

محمد حرب



تقديم

تعتبر رحلة الرحالة العثماني أوليا جلبي (توفي عام ١٠٩٥هـ / ١٦٨٤م) نموذجاً فريداً غير مسبوق في تاريخ الثقافة الإسلامية. إن فوائدها كثيرة خاصة في وصف البلدان، لقد تفوق أوليا جلبي الذي جاب ٣٣ دولة من الدول القائمة آنذاك في ثلاث قارات: أوروبا، وآسيا، وإفريقيا. وتحتاج هذه الدول معرفة هذه الرحلة لتكون أساساً في تاريخها. فقد اهتم أوليا جلبي في رحلته بوصف النظام الإداري في كل مكان ذهب إليه بدقة وتفصيل وقدم لنا معلومات عن مالية كل بلد يذهب إليه، وأخلاق أهل البلد ومدى قربهم أو بعدهم عن الدين. وصف المساجد بدقة وكذلك الكنائس والأديرة والمعابد اليهودية بإحصائيات دقيقة مع إيراد تواريخها. هذه الإحصائيات التي قدمها لأوليا جلبي تشد الانتباه وتخدم علماء الاجتماع وعلماء السكان أيضاً. كما تعد رحلة أوليا جلبي مصدراً هاماً للدراسة الجوانب التاريخية والحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر العثمانية يعتمد عليها كل من أراد دراسة مصر في القرن السابع عشر.

حدثني أستاذي بكير كوتوك أوغلو الأستاذ بجامعة استانبول، قبل ما يزيد على خمس وعشرين سنة، أنه كون لجنة لتحقيق رحلة أوليا جلبي، ففيها نقص كبير، وتواريخ متروكة، وفراغات، إذ مات الرحالة قبل أن يكتبها. وطلب بكير بك مني أن أشارك في هذه اللجنة لتحقيق الجزء الخاص بمصر في الرحلة. وحدثته عن ضرورة ترجمتها إلى العربية فرأى أن تحقق في لغتها الأصلية وتشكّل علمياً ثم يُنظر في أمر ترجمتها. ولم يتم مشروع لجنة التحقيق هذه.

ولأن ترجمة الرحلة إلى اللغة العربية ضرورة، فقد توفر عليها، أسماء كبارنا، ذلك الجليل القيم: محمد على عوني وقيل إنه ترجمها وسلمها إلى الدكتور عبد الوهاب عزام

ليراجعها وراجع بعضها وترك أغلبها ليراجها الدكتور أحمد السعيد وعدّل هذا فيها وبدّل فوجد نفسه في النهاية أمام ترجمة جديدة من صنعه ومن صياغته. وقيل إنه لم يسلمها لوزارة الثقافة المصرية، بل عهد بها إلى أحد أبنائه الأساتذة. كما قام كاتب هذا البحث بتكوين لجنة من الأساتذة الشبان المتخصصين في اللغة التركية ليرجموا هذه الرحلة تحت إشرافي وكنت وقتها رئيسا لوحدة البحوث بمركز بحوث الشرق الأوسط بجامعة عين شمس بالقاهرة عام ١٩٨٢م، لكن لم يتم أحد من هذه اللجنة عملها إلا الدكتور ماجدة مخلوف، وكانت وقتها مدرسا مساعدا.

وعندما تولينا - أي كاتب هذه السطور - رئاسة المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي والبلقان سنة ١٩٩٠م، عهدنا إلى أستاذنا الدكتور حسين مجيب المصري (عليه رحمة الله) بترجمة هذا العمل - أي رحلة أوليا جلبي، على ما في أصله العثماني من نقص، وعهدنا إلى مجموعة من الباحثين الشبان بمساعدته. وأنفق المركز على هذه الترجمة الشيء الكثير. وقد تطوعت الدكتور ماجدة مخلوف بمراجعتها وإكمال نواقصها. ولم نستطع نشر هذه الترجمة في حينها لأسباب متعددة رغم أنه لم يكن لنا أي مطالب مادية فيها، إلى أن اضطلعت دار الآفاق العربية بنشر هذه النسخة الورقية من الترجمة. على كل حال، يظل أوليا جلبي، رغم كل هذا، قمة أدب الرحلات عند المسلمين.

أوليا جلبي: حياته ومسار رحلته

تعتمد معرفتنا لحياة أوليا جلبي. على ما دونّه في كتابه الضخم ذي المجلدات العشر الذي سجل فيه رحلته.

غير معروف لنا اسمه الكامل والحقيقي، وربما يكون اسم أوليا جلبي نسبة إلى معلمه أوليا محمد أفندي. ارتحل أوليا جلبي داخل كل البلاد العثمانية وخارجها في رحلة استغرقت حوالى الأربعين عاما. وقد سجل رحلته هذه والتي تعتبر نموذجا فريداً غير مسبق في تاريخ الثقافة التركية ومازالت هذه الرحلة هامة حتى يومنا هذا.

ومن خلال ما جاء فى هذه الرحلة من معلومات، نقول أن أوليا جلبي ولد فى العاشر من المحرم عام ١٠٢٠هـ - الخامس والعشرين م مارس عام ١٦١١، فى حي (اون قايا) أحد أحياء استانبول. كان والده - كما ذكر فى بعض المواضع من رحلته - يدعى درويش محمد أغا، ابن درويش محمد ظلي أفندي، وكان هذا الأخير صانع ذهب. (قيومجي) فى القصر السلطاني. وقد مال أوليا جلبي إلى المبالغة كثيرا فى ما ذكره من أخبار فى ثنايا رحلته. ومن هذه (المبالغات) أنه كان يوجد فى بيوتهم عند مولده حوالي سبعين من العلماء والشيخوخ، وقد تمكن بمددهم المعنوي أن ينجو بيسر وسهولة من كل ما صادفه فى حياته من آلام وصعاب. وقد دون هذا كله ليذكر أن والده كان رجلا معروفا، وما يؤكد هذا التصور، ما ذكره من أن والده اشترك فى فتح جزيرة قبرص، وأنه قد مفاتيح ماغوسا. كما أنه صنع بنفسه ميزاب الكعبة فى زمن السلطان أحمد الأول، وحمله إلى الحجاز باعتباره أمينا للصرة. واشترك فى أعمال زخرقة باب ونوافذ مسجد السلطان أحمد، وأنه حظى بتقدير السلطان أحمد الأول لهذا السبب فرفع مكانته حتى أصبح (مصاحبا للسلطان). أما ما ذكره أوليا جلبي عن أجداده، فلا يبدو أن يكون معلومات غير منتظمة. ويتصل نسب عائلته بأبناء كرميان، ويذكر أنه ينحدر من نسل الشيخ أحمد يسوي. وأن أحد أجداده وكان يدعى ياووز أر، كان بيرقدار السلطان الفاتح. وأن ياووز أر هذا قد ابتني من مال الغزو مائة دكان أوقفها كلها، وكذلك البيت الذي ولد فيه أوليا جلبي.

ذكر أوليا جلبي أن أجداده عاشوا فى حي زره كان فى كوتاهية. ثم جاءوا بعد الفتح إلى استانبول واستقروا فيها. وكانت عائلته تمتلك - علاوة على البيوت التي تمتلكها فى كوتاهية-، منزلا فى حي اينه لك، وآخر فى بورصة، وفي مغنيسيا، ومزرعة فى صنديقا. وبعد استقرار عائلته فى استانبول، امتلكت بيتين ودكانا فى (اون قابان). وفى مدار حديث أوليا جلبي عن هذه الممتلكات، يذكر أن له حديقة فى قاضي كوي. أما أمه فكانت من الأباظه (الأبخار)، وذكر أنه تربطه صلة قرابة من ناحية أمه بكل من ملك أحمد باشا، ودفتردار زاده محمد، وإبشير مصطفى باشا. وأن له أخ يدعى

محمود، وأخت اسمها إينال، وقد تزوجت أخته هذه من الياس باشا الباليكسرى الذي تمرد في زمن السلطان مراد الرابع.

تلقي أوليا جلبي تعليمًا جيدًا، وواظب على تلقي العلم من خلال المدرسة لمدة سبع سنوات وذلك في مدرسة شيخ الإسلام حامد أفندي. وانكب على حفظ القرآن على يد أستاذه أوليا محمد أفندي. كما تعلم فن الخط على يد والده، ثم انتسب إلى القصر وواصل تعليمه داخل الأندرون. كما تعلم الموسيقى بسبب جمال صوته. واستعان في هذا بديرويش عمر أفندي واستفاد منه. وبعد فترة، قدمه إبراهيم أفندي الروزنامجي، والخطاط حسن باشا، إلى السلطان مراد الرابع، وفي هذه المقابلة رأى وللمرة الأولى «أمير كونه خان». وصار أوليا جلبي المسئول عن الكيلار الخاص بأمر من السلطان. وهناك أتم تعليمه وتلقى دروساً في الخط والموسيقى والنحو والتجويد، وغير ذلك من المعارف.

وحسب قبول أوليا جلبي نفسه، أنه كان كثير التواجد في مجلس السلطان مراد الرابع، وكان يقص عليه اللطائف. وكان السلطان يستدعيه لمجلسه إذا ما اعتراه الضيق. ولاشك أن الجو العام داخل القصر، لعب دوراً هاماً وإلى حد كبير في زيادة قدرته الأدبية، ومعارفه، وقدرته على الملاحظة. وكان أوليا جلبي يطمح إلى أن يقضي حياته في التعلم، ولهذا ترك عمله في الأندرون، بعد أربع سنوات فقط قضاهما ضمن السباهية براتب قدره أربعون أقة.

واعتملت لدى أوليا جلبي الرغبة في الرحلة للمرة الأولى، بسبب أحداث والده التي كان يتكلم فيها عن عمله لدى الباشوات منذ زمن القانوني حتى زمن السلطان إبراهيم ووقائع الرحلات المختلفة التي استمع إليها من أصدقاء والده. ولاشك أنه هذه الحكايات حركت لدى أوليا جلبي الرغبة في السفر. ويذكر أوليا جلبي في كتابه، أن قيامه بهذه الرحلات، كان بسبب رؤيا رآها في منامه، في ليلة عاشوراء من شهر المحرم سنة ١٠٤٠هـ (١٩ أغسطس ١٦٣٠) وفيها رأى الرسول عليه الصلاة والسلام في جماعة في مسجد أخيه جلبي بجوار يمش أسكله سي في استانبول، فاعتراه الانفعال

وهم يقبل يد رسول الله، وبدلاً من أن يقول الشفاعة يارسول الله، قال من فرط الانفعال «السياحة يارسول الله» فتبسم له النبي وبشره بالشفاعة والسياسة والزيارة (الحج) ودعا له الصحابة في هذه الجماعة، وتمني له سعد بن أبي وقاص أن يكتب ما يراه. وقال له الشيخ عبد الله دده شيخ «الملوي خان» في حي «قاسم باشا»، في تفسير هذه الرؤيا، «اتبع نصيحة سعد بن أبي وقاص، وابدأ بالكتابة عن استانبول». بناء على ذلك قرر التجول في المدينة التي ولد وعاش فيها أولاً، وكتابة كل ما يراه. تجول أولياً جلبي في استانبول وطاف بأحيائها واحداً تلو الآخر، وجالس الناس في المجالس على اختلافها، وفي المقاهي والحانات، وجمع المعلومات عنها. وكانت أول رحلة له خارج استانبول في عام ١٦٤٠، وكانت إلى بورصة. وقد ذهب إليها بغير إذن من والده، ولدى عودته منها، أذن له والده بالرحلة مرة أخرى، وأوصاه بكتابتها. وربما تمكن أولياء جلبي أثناء تجواله في استانبول، من القيام برحلات إلى كوتاهية ومغنيسيا، وإزميد، لكنها كانت رحلات قصيرة بسبب ارتباطه بعائلته.

كانت أول رحلة لأولياً جلبي إلى بلاد بعيدة، ظفر بها من خلال وجوده مع كته نجي عمر باشا والي طرابزون. فقد ذهب أولياً في معية الباشا إلى هناك عن طريق البحر، ومنها توجه إلى عنايه. وأثناء وجوده هناك، اشترك في الحملة التي قادها حسين باشا لاسترداد قلعة آزاق سنة ١٦٤١م. ولم تسفر الحملة عن شيء فتوجه إلى القرم وحل ضيفاً على بهادر خان. وقطع الشتاء في باغجه سراي. وفي الربيع. اشترك في فتح الآزاق، ثم رجع من القرم إلى استانبول عن طريق البحر. وتعرضت المركب التي يركبها لعاصفة قوية وكادت أن تغرق. وبعد رجوعه إلى استانبول توقف عن الرحلات لمدة أربع سنوات وربما كان هذا بسبب الخوف. ثم خرج للرحلة مرة أخرى في عام ١٦٤٥. وفي هذه المرة اشترك في الحملة على كريت مع يوسف باشا. وشاهد فتح قلعة قانيه، ثم عادة إلي استانبول. وفي العام التالي رافق دفتر دار راده محمد باشا إلى أرضروم لدى تعيينه أمير أمراء عليها، وصاحبه أولياً باعتباره مؤذن ومصاحب له. وصار ضمن رجاله. وأثناء الرحلة زار بعض مدن الأناضول، واشترك في حملته على شوشك،

ورافق رسول الصفويين لدى عودته إلى تبريز. وتجول في أذربيجان وكردستان، وطوّف بأنحاء باكو وتفليس وروان وكوموش خانة وطورطوف، وشارك في الحملات على كردستان. ثم نُقل دفتر زاده محمد أفندي الذي أقام علاقة مع الباشوات المتمردين في تلك القرى، من عمله هذا وعُيّن في قارص، لكنه لم يهذب إلى عمله الجديد، وعندما خرج للعودة إلى استانبول، كلف أوليا جلبي بنقل رسائله أثناء قيام أوليا جلبي بوظيفته هذه، تعرف برؤساء الجلالية مثل قره حيدر أوغلو ومد قاطرجي أوغلو محمد. كما عاصر تمرد إردار علي باشا، ويفسح في كتابه مكانا للحديث عن هزيمته على يد بشير مصطفى باشا، ومقتله. (سياحته ج ٢، ص ٤٤٨-٤٥٢).

ثم ذهب أوليا جلبي في شهر أغسطس من عام ١٦٤٨ إلى الشام بصحبة مرتضى باشا لدى تعيينه بـكلر بك هناك، ومن هناك تمكن نقل مرتضى باشا من الشام إلى سيواس، ذهب معه أوليا جلبي إلى سيواس، وتحاليل بوسائل شتى حتى تمكن من السياحة في مدن وسط وشرق الأناضول، ثم رجع إلى استانبول سنة ١٦٥٠.

وفي العام نفسه، وأثناء وجوده في استانبول اعتلى ملك محمد باشا منصب الصدارة وكانت تربط بينه وبين أوليا جلبي صلة قرابة ومعرفة وطيدة، فكان ذلك واحدة من أهم نقاط التحول في حياة أوليا جلبي. فصار واحدا من أقرب الرجال إلى الصدر الأعظم. لم يتردد في أن يسجل صراحة الوجه الآخر للأحداث التي شاهدها من خلال موقعه هذا. وسجل في كتابه أدوارهم في التمردات والمظالم التي وقعت. وكان قيام ملك محمد باشا بسك عملة مغشوشة للخروج من الأزمة المالية، سببا في تمرد أصحاب الحرف بتحريض أغوات الانكشارية، وبناء عليه تم عزله من الصدارة، وتم تعيينه بـكلر بك في أوزي، مما أتاح السبيل أمام أوليا جلبي للسياحة مرة أخرى. فذهب برفقة ملك باشا إلى هناك. وخلال ذلك شاهد روسجق وستره، وبابا داغي. واشترك في أعمال وكتابة وتحرير القرى والقصبات التي هناك. كما كان برفقة ملك أحمد باشا أثناء وتولية منصب بـكلر بك الروملي. ولكنه رجع إلى استانبول في يوليو ١٦٥٣ بعد عزل الباشا. وظل في استانبول لفترة طويلة. وذات مرة حمل رسالة إلى أبشير مصطفى باشا في

قونه. ثم عاد أوليا جلبي ليطوف مرة ثانية في دروب الأناضول بعد تكليف ملك أحمد باشا بمنصب بكلكر بك، وإن. وأثناء هذه الرحلة تمكن من التجول في كثير من الأماكن في شرق الأناضول كما تجول في أنحاء إيران وبغداد من خلال مهام مختلفة قام بها. عقب هذا، ذهب مع ملك أحمد باشا إل أوزي مرة أخرى بمناسبة تكليفه بمنصب بكلكر بك. وأثناء وجوده هناك، اشترك في الحملة المتجهة إلى راقو جزى، كما اشترك أيضا في الحملات التي شنّها محمد كيراي الرابع، خان القرم ضد الروس والقازاق.

وبعد أن أقام فترة في استانبول، خرج في شهر ديسمبر من عام ١٦٥٧، وتجول في بوسره وجناق قلعه وغالبيولي. وفي عام ١٦٥٩، أتيحت له الفرصة للسياحة مرة أخرى، وفي هذه المرة انضم إلى القافلة المتجهة إلى إقليم ستيفانيتزا من البغدان. واشترك في هجمات متعددة مع فرسان القرم وفي التحركات التي تمت لتأديب ميهنيان الثالث أمير الأفلاق المسترد. وعقب عودته إلى أدرنه مباشرة، اشترك في حملة كوسه على باشا إلى إراد. وبعد هذا التحق مرة أخرى بملك أحمد باشا أمير أمراء البوسنة، وطاف بولاية البوسنة. واشترك في كل التحركات العسكرية التي تمت في هذا الإقليم. ثم ذهب إلى صوفيا أيضا مع ملك أحمد باشا، وتجول في الروملي بسبب تكليفه بمهمة جمع الضرائب. وفي هذه الفترة، اشترك في حملة كوسه على باشا على الإردل في صحراء طمشوار. (١٦٦١). وهناك، جال في الإردل مع جنود القرم. ثم ذهب إلى بلجراد لقضاء فصل الشتاء وعقب ذلك كُلف بتحصيل المال في الأرنأووط (ألبانيا) عقب عودته إلى استانبول، كان أوليا جلبي يتحين الفرص للقيام بسياحة جديدة فاشترك في حملة فاضل أحمد باشا على النمسا في عام ١٦٦٣. واشترك في كل مراحل هذه الحملة. وعقب فتح قلعة أويوار، - وحسب روايته - تجول في ديار كثيرة من بوهيميا حتى بلغ السويد وهولندا. ولدى عودته إلى بلغراد، حمل رسالة إلى سوخ راب محمد باشا في الهرسك. وهناك اشترك في التحركات التي جرت على طول حدود البندقية. وبعد ذلك رجع إلى المجر، وحضر معركة رَعَب. وقد قدم معلومات مستفيضة عن هذه المعركة. (سياحته، ج٧، ص ٨١-١٢٠) وفي عام ١٦٦٤، ذهب إلى فيينا في

صحبة السفير قره محمد باشا وطاف معه على القلاع التي تم فتحها حديثا وذلك عقب معاهدة وارسوار، وكتب أوليا جلبي أنه التقى في فيينا بالإمبراطور ليوبولد الأول، والقائد مونته جوجوللي، وأنه ذهب إلى الدانمارك وهولند (١) وبراند نبرج بإذن من الإمبراطور، وقال أنه طاف ببلاد كثيرة، لكن هذا أمر مشكوك في صحته.

وبعد فترة ذهب أوليا إلى القوقاز سالكا طريق القرم، فوصل حتى شواطئ الفولجا، وقال أنه بعد أن طاف بهذه الأماكن انضم إلى قافلة ورجع إلى قلعة آراق، ثم ذهب من كفه إلى باغجه سراي، واشترك في بعض الحملات التي قام بها عادل كيراي. وفي مايو ١٦٦٨، رجع أوليا إلى استانبول. وفي شهر ديسمبر من العام نفسه طاف بمدن الروملي مثل أدرنه وكومولجنه وسلانيك. ثم ركب البحر من الأناضول إلى كريت وفي تلك الأثناء كانت قلعة قنديه في كريت مازالت تحت الحصار، فشاهد بنفسه كل صفحات هذه الحصار، وسجل أحداثه في رحلته، وكتب «فتحاته قنديه» وتجول أوليا في كريت وقدم معلومات مفصلة عنها. ثم رجع من هناك إلى المورة واشترك في التكتيل بتمرد في «فانبوت ثم ذهب إلى بلاد الأناطول (البانيا) وطارق بها، ثم رجع إلى استانبول في ديسمبر عام ١٦٧٠. ظل أوليا في استانبول بضعة شهور، ثم قرر أن يؤدي فريضة الحج الذي كان يتحرق شوقا إليه منذ أمد، فقرر الارتحال مرة أخرى. وارتبط خروجه للرحلة هذه المرة برؤيا رآها في ليلة القدر عقب عودته من زيارة قبر أبو أيوب الأنصاري، فقد رأي في منامه، والده، وشيخه محمد أفندي وأوصياه بالحج فخرج من استانبول لهذه الغاية برفقه صديقه سائلي جلبي، وثلاثة من الرفاق وسبعة من الخدم، وذلك في مايو من سنة ١٦٧١. وكانت هذه الرحلة هي الأولى التي يرتحل فيها في رحلة طويلة بدون أن يلتحق بقافلة، إنما خرج مع مجموعة محدودة من الرجال. لهذا اختلف مساره في الرحلة عن ذي قبل. فقد مر ببورصة وكوتاهية وافيون ومنها إلى إزمير، ومن هناك ذهب إلى جزر صاقيز وسيسام، ثم رجع ثانية إلى غرب الأناضول، فطاف بسواحل أيدين ومنتشا وجزر استان كوي ورودس، وكتب معلومات عنها استفاد فيها من دفتر خانة رودس. (سياحاته، ج ٩، ص ٢٥٦). ثم انتقل أوليا من رودس إلى الأناضول،

وزار مدن جنوب الأناضول التي لم يتمكن من زيارتها من قبل، وتجول في إطنه ومرعش وعيتاب وكليس ومنها ذهب إلى سوريا. وفي الشام التحق بقافلة أمير الأمراء حسين باشا وتوجه إلى الحج. وقد سجل في كتابه، على حده، مسار رحلته للحج. وبعد أدائه للفريضة، ذهب إلى مصر. وسنحت له الفرصة وهو في مصر ليطوف بالمنطقة كلها فذهب إلى السودان والحبشة. ولعله خص لهذه الديار الجزء العاشر والآخر من رحلته، والذي كتبه في مصر. وتبين منه أنه قضى في هذه المنطقة مدة تربو على عشر سنوات، وذكر أنه أثناء إقامته في مصر، انعقدت الصداقة بينه وبين الأمير أوبك بك، وقد احتوى الجزء العاشر محصلة هذا. لكن النسخ التي كتبها من هذا الجزء انتقلت إلى استانبول بعد إهدائها إلى الحاج بشير أغا، أغا البنات المشهور في زمن السلطان محمود الأول. ثم انتهى الجزء العاشر من رحلة أوليا جلبي بدون أن يكتمل، لهذا فإن التصور هو وفاة أوليا جلبي قبل أن يضع نهاية كتابه، وليست هناك معلومات مؤكدة عن مكان أو تاريخ وفاته. وقد ذكر جاويد بايصوص أنه بناء على المعلومات الواردة في نهايات الجزء العاشر من الرحلة، تكون وفاة أوليا جلبي في حوالي سنة ١٠٩٣-١٦٨٢م (دائر المعارف الإسلامية، ج ٤، ص ٤٠٦). لكن هذه المعلومة تم تصحيحها بعد ذلك حيث ومحتمل أنه كان على قيد الحياة عام ١٩٠٥هـ-١٦٨٤م، وأنه أدرك حصار فيينا للمرة الثانية. كما أن هناك أقوال بأن وفاته كانت بعد عودته من مصر إلى استانبول. ويقال أن قبره موجود في مدافن أسرته بجوار قبر (ميت زاده).

ثم يتزوج أوليا جلبي. وتبين من كتابه أنه كان ماهرا في الفروسية، ولعب الجريد، وكان دؤوبا نشيطا، عذب الصحبة، له في مجالسه لطائف يتوق الجالسون إلى سماعها، ورغم معرفته الجيدة برجال الدولة في عصره، إلا أنه لم يحرص على المناصب ولم يسع إليها. وأوقف حياته كلها على السياحة. وكان يجد في الوظائف التي شغلها كأن ينقل الرسائل أو يقوم بتحرير (=كتابة) القرى، ويجمع الضرائب عوناً له في القيام بهذه الرحلات، وكان في بعض الاوقات ينضم إلى موكب أحد السفراء ليرتحل ويجد في هذا فرصة للقيام برحلة مأمونه. وكان ثراء عائلته يؤمن له نفقات رحلاته الطويلة، فكان

يأخذ معه خدامه وعبيده بل وأصدقائه. وكانت العطايا التي يحصل عليها مقابل أدائه بعض الخدمات، والأموال التي تتوفر له من بيع غنائم الحملات التي اشترك فيها كل هذا كان يوفر له مصادر إضافية للمال. كما أن انضمامه إلى بعض الهيئات الرسمية كان يعفيه من نفقات بعض الرحلات.

ومثل ملك أحمد باشا دورا هاما في رحلات أوليا جلبي، سواء أثناء توليه منصب الصدارة أو أثناء شغله وظيفه أمير الأمراء في أوزى والبوسنة والروملي ووان وديار بكر، حيث أن أوليا جلبي لم يفارقه في أي منها. وبذلك تمكن من التجول في مناطق كثيرة من الأناضول والروملي. حتي أنهم وصفوه بلقب «المنسوب إلى ملك أحمد باشا». واكتسب أوليا جلبي من رحلته التي قاربت نصف قرن من الزمان، تجارب ومعارف لانهاية لها. فكان شاعرا وخطاطا، ومزخرفا وعارفا بالموسيقى. وقد أكد مواهبه في مواضع كثيرة. وقد قام بكتابة الخطوط التي على الحرم الهمايوني على النسق القره حصارى. كما أنه عبر في كتابه، عن الانبهار الذي شعر به أمام الكتب المذهبة وذات المنمنمات التي شاهدها في مناطق ترحاله. وكانت له روح رقيقة متصوفة يصف نفسه بأنه «أوليا بلاريا» (أولياي بي ريا) وبسبب تواضعه التف حول الكثر من الأصدقاء. فضمت حاشيته الولاة والقادة. لكنه لم يتراجع عن توضيح ما لمسه فيهم من نقاط للضعف. ويغلب علي أوليا جلبي في كتابته حسن التعبير. أما أسلوبه، يجذب القراء رغم ما يبدو فيه من أخطاء نحوية متناثرة. ونجد فيه بعض الأشكال التي لاتتواءم في فهمها مع لغة الكتابة. وقد أعطى أوليا جلبي أهمية خاصة لأشكال الحديث واللغة بين الناس في الأماكن التي طاف بها. وهو بعبارته البسيطة وتعبيراته الصادقة التي كتبها وكأنه يتكلم، ظهر وكأنه يخاطب بها كل إنسان. وقد رأي بعض الباحثين في سياحتامة هذه أنها مذكرات. وكان أوليا جلبي كثيرا مايدنو من الأحداث بصورة أخاذة. ولايتورع عن تقليد من يلتقي بهم من شخصيات. وكان أحيانا يروي حادثة أو خبر مصطنع لكي يجعل الشيء الذي ينقله أكثر إثارة (تلونا). كما يبدو وقد أفسح مكانا للغريب من الوقائع التي لاتتفق مع العقل بغرض جذب اهتمام القارئ. مثال ذلك أن القرية التي يمر

منها الافئال، تقوم النساء فيها بتوليد الافئال. والمغامرات التي تقص أنباء الغيب، والاطباء الذين يعالجون الأمراض التي لاعلاج لها، وما شابه ذلك. ويصيح كل هذه الاشياء غير العادية بأسلوبه وشرحه الجميل، حتى أنه يمكن القول إنه اجتهد بهذا النوع من الحكايات التي تثير اهتمام قطاع كبير من الناس، وأن يضيفي على كتابه مسحة شعبية. ودفعته رغبته في أن يترك أثره في الامكان التي يمر بها- إلى جانب تواضعه- إلى أن يكتب على جدران المنازل «الفاتحة على روح أوليا» فقد كان صاحب دعابة.

وحسبما نتبين من كتابه، كان أوليا جلبي يحب أوقات المرح، كما كان صاحب ذوق. ولاشك أنه لهذا تأثير فيما كتبه وذكره من وقائع غريبة ولطائف. وكان أثناء تجوله في كل شبر من استانبول، يخالط رواد المدارس والحانات ورواة المأثورات الشعبية، كما تعرف على أرباب الحرف فيها وصادقهم.

مسار رحلة أوليا جلبي

تضمن كتاب سياحته أوليا جلبي بمجلدته العشر، الاحداث التي شاهدها أوليا جلبي في الامكان التي تجول بها، ويعتبر بمثابة كتاب شامل وهام في تاريخ الثقافة التركية. . وهذا الكتاب المعروف باسم سياحته أوليا جلبي، وباسم أوليا جلبي سياحته سي، تحمل بعض النسخ منه اسم «تاريخ سياح». والجزء الأول منه يصور استانبول، والثاني يصور بورصة وإزميد، وبارطين، وأماصرا، وإينه بولو، وسينوب، بافرا، وصامصون، وكيره سون، وطرابزون. كما يقدم معلومات عن كرجستان وديار الاباظه، وحملة كريت وفتح قلعة خانسيه، ودوزجه، وبولو، وكرده، وأماسيا، ونيكسار، وأرضروم، وأرزنجان، وشبنقره وحصار، ومرزيفون، وجوروم. وفي الجزء الثالث يأخذ بالحديث عن اسكيشهر، وليكين، وقونيه، وأولوقيشله، وبياص، والإسكندرون، وأنطاكية، وحما، وحمص، والشام، ويافا، وبحر لوط، والرملة، ثم قيصري، وسيواس، وموش، وعرب كير، وخربوط، وبينكول، ومدن برغاز، وبروادي، وشومنو، هزارجراد، وروسجق، وركويي، ونيبولو، ثم يصف أطراف

أوزي، وكستانجه، وباباداغي، وزغره العتيقة، وقلبه، وتاتار بازارجق، وصوفيا، وجسر مصطفى باشا، وأدرنه. وفي المجلد الرابع يقدم معلومات عن ديار بكر، وماردين، بتليس، وان، ومن إيران رومية وتبريز، وهمدان، وكرمان شاه. في المجلد الخامس يبدأ أوليا جلبي بوصف ما رآه في مساره من إيران إلى بغداد، ومن هناك إلى سمرقند، ومروره بطوقاد أثناء عودته إلى استانبول. بالإضافة إلى أنه في هذا المجلد يصف الطريق إلى أوزي، ويصف وارنه، وإسماعيل، وآق كerman ويندر، وحملة لهستان (بولندا) التي اشترك فيها من هناك، وأوكرانيا، وبروت، كلبورن، ورحلة الأناضول التي خرج فيها مع السلطان محمد الرابع بعد عودته إلى استانبول، والوقائع المتعلقة بأبأظه حسن باشا رئيس الجلالين. والأماكن مثل القلعة السلطانية وبوزجعه، غاليولي، وبولاير، وكاشان، والقره، والبوسنه، واسكوب، ومناستر. وفي المجلد السادس يبدأ أوليا جلبي بذكر الحملة التي خرج فيها إلى الإردل برفقة كوسه على باشا، ويمر ببلاد الصرب، والمجر، ورومانيا. ويتكلم عن المدن التي في هذه البلاد. وفي المجلد السابع، يصف الذهاب إلى فيينا مع سفارة قره محمد باشا، ويصف قانيجه، واستريني، وبلجراد، فيينا وقلاعها، ثم الوصول إلى المجر وبودين، وطمشوار، وولايات الأفلاق والبغدان، والاقوام في ولاية القاراق، والقرم وداغستان، والقوقاز، ولغاتهم، وأعرافهم، وعاداتهم... وفي المجلد الثامن، ويصف العودة إلى استانبول من الآزاق عبر طريق كفه، وباغجه سراي، وقيل بورون، وآق كerman وإسماعيل، وبابا داغي، وخاص كوي، وأدرنه وديماطوقه، وكومولجينه، ودراما، وسلانيك، مرورا من الزوره وخانيه، كما يتكلم عن ما بعد اشتراكه في فتح قنديه، فيذهب إلى الأناطوط، ومن هناك يصف العودة إلى استانبول من فوق يانيه وتبه دالن، وبولونيا، ودراج، وايلباصان، واوهري، ورسنه، ومناستر، اشتيب، وجسر مصطفى باشا وأدرنه. وفي المجلد التاسع، يصف المدن الواقعة على الطريق الطويل الممتد من استانبول إلى مكة والمدينة، وغرب وجنوب الأناضول وسوريا. أما الجزء العاشر فكله خاص بمصر، وتناول فيه الأقاليم القريبة من مصر، وشواطئ النيل، والسودان وبلاد الحبشة.

مسار رحلة أوليا جلبي في مصر، كما وردت في رحلته

القاهرة - شبرا - بطن البقر - قنطرة الملك الطاهر - مصر - خيم - عفريت - تفاحية - مبهوم - شبرتين - زفتي - ميت غمر - سرسنه - منوف - سرسنه - طوخ - النصارى - طنطا - محلة مرحوم - ايار - نهاريه - بلدة القبيلة - بلدة الفرزدق - محلة صال (محلة قلبية) - محلة أبو على - بلدة المجنون - دسوق - مرقص - رحمانية - داودية - سنهور - دمنهور - حوش عيسى - مدينة العقاب - دمنهور - جبل قاسم بك - بصطيره - رزقون - زاوية الجزال - ناصرية - ستاويه - برسك - نحل - أبو خضر - قراوي - قافلة - دشوش - بُركه - رويجب - لقون - بُركه - جريون - مولُفسي - اقريش - البستلقون البيضاء - جنان - الإسكندرية - أبوقير - ادكو - رشيد - الإسكندرية - عزة المغدي - هدية - محلة الأمير - برمبال ديّه - ادفيئا - محلة مطوبس - جمشيره - فزاده - ديروط - سنديان - عاطف - فوه - شرف - شرمباي - مالك - شموخزاد رحمانية - إبراهيم الدسوقي - أبو على - مركز - دية البير - شبراخيش - شبريش - ميت جناح - كفر جديد - نقله - فرزدق - اسلميه - طاهريه - كفر الزيات - شيوخ - سلمون - كفر النحا - كفر جديد - أبو أحمد - البحيرة - زايره - طنوب - طيرنه - علقمة أبو الجاوي - طماليه - جزي - طراه - زاوية - أبو نشانه - إشمون - جريس - كفر شرکس - قوطه - أم دينار - شيراوي - دراري - بارودخانه - شبرا - الوراق - امبابه - بولاق - العزبه - عزة الحاج - البرلس - بلطيم - السنانية - دمياط - تينه - قَرص فارسكور - كفر السليمانية - شرباص - ميت أبو غالب - رأس الخليج - أبو عبد الله - طهرية - بُشاط - دنجي - مساط - شربين - بدوي - بتر - درمبال - دياسط - خياريه - قاش - المنصورة - المنزل - طلخا - الشيخ رمضان - ميت خميس - ميت الغرقى - ميت ويش - ميت عباس - ميت نورسي - ميت المنيا - سمنهود - أبو على قيطاس - أغا - محلة الكبير (المحلة الكبرى) - سمنود - أبو الحارث - أبوصير - ميت برقع - بريه - المنظره - ميت بدر - ميت دميس - ميت أنسا - سنباط - شرنجي - دنهور - غمار - رفتي - المعصرة - غريب - صهرج -

مسيد - صيد - عز - هارون - صفين - تغني - سندي - بري - أشمون - مويش - ملاو - بنها - بطاي - رمبلي - أبو الطوافتي - العطار - سيدي - خصر - عطف - طُخْلا (طلخا) - جوخ (طوخ) - عفيف - طنط - برشمس - برسوم - أبو شعره - قليوبية - شبرا - شروي - شبرا - القاهرة - البساتين - المعدية - مُحنط - قهوه خانه - دلي حسين باشا - الزاوية - كوم الدير - ميمونه بني سويف - الفشن - أبو جرجو - كليس (قيس) - سمندود سعيد - المنيا أشمونين - ملاوي - دار شيد - صنبو - منفلوط - أسيوط - شطوب - جبل الطير (طيلمان) - أبوتيج - الشيخ بن عابد - طما - الجزيرة - سوهاج - المنشية - جرجا - خالد - جمادي - مزار - بلابيش - فوحة - على - فنا - القصير - أنبوت - قوص - شمونين - طوت - سفارس - أم على - حجيزه ردسي - شبيكه - سلسلة - إدفو - كوم سياه - كوم امبو - سنباص - أسوان - الشلال الأول - علوي - باب النوبه - قلعة إريب - كنوزين - مهرية - كلابشه - أبوخور - سنيال - قشطامينه - كورد - وادي العرب - أزرق - إبريم - وادي حلفا - إبريم - سبع - كنور - طمانيس - رقبه - كرخ عرباني - حمام فرعون - باجه - إدفو - حجيزه - جعفري - كلخ - فرشوط - سمنهو - برديس - أسيوط - هرکه - قلمون - ألواح - البهنسا - - لاحون - الهواره - الفيوم - كاميا - خان القهوة - أطفيح - الجيزة - القاهرة - الإسكندرية - القاهرة - سبيل علام - المطرية - عين شمس الخنانكة - مشيره - دراعم بابيس - رني - قرين - ستاره - الصالحية - قرين - على - القاهرة - الإسكندرية.

مصادر رحلة أوليا جلبي

يقول أوليا جلبي في مقدمة رحلته في مصر :

«وبينما كنت أبحث عن أقدام تلك الأبنية ذات الطلاسم، وتلك القصور العالية

رجعت إلى ما لا يحده الحصر من التواريخ القيمة، وهذا بيان بعناوينها:

١- تاريخ المقريري وهو كتاب عظيم مشهود له بصحته التاريخية، وهو مستخدم من

كتب قبطية وسريانية، ودهلوية ومغولية ولاتينية ويونانية ويتقبله الخاص والعام بقبول حسن. ٢- تاريخ ابن جرير الطبري صاحب التفسير القديم وهو تاريخ نفيس. ٣- تاريخ الشيخ الإمام السيوطي، وهو تاريخ له ماله من عظيم قيمته. ٤- تاريخ صابئة. ٥- كتاب فتوحات مصر لابن عبد الحكم. ٦- كتاب فضائل مصر لابن الكندي. ٧- كتاب ابن زولا (فضائل مصر وأخبارها). ٨- كتاب خطط القضاة. ٩- كتاب إيقاظ المتغفل لتاج الدين محمد بن عبد الوهاب الزبيري. ١٠- كتاب مناهج الفكر ومنهج العبر. ١١- كتاب عوان عنوان السير. ١٢- كتاب المسالك لابن فضل الله. ١٣- كتاب الإصابات في معرفة الصحابة. ١٤- كتاب الرجال العشرة للحسيني. ١٥- كتاب طبقات الحفاظ للذهبي. ١٦- كتاب طبقات الشافعية للسبكي. ١٧- كتاب طبقات المالكية لابن فرحون. ١٨- كتاب طبقات الحنفية لابن دقماق. ١٩- كتاب مرآة الزمان لابن الجوزي. ٢٠- كتاب البداية والنهاية لابن كثير. ٢١- كتاب إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر. ٢٢- كتاب الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد. ٢٣- كتاب السكردان لابن حجلة. ٢٤- كتاب سجع النهرين في أوصاف نهر النيل. ٢٥- كتاب ثمار الأوراق لابن حجة. ٢٦- كتاب تواريخ الشهاب جلبي ترجمة لكتاب حسن المحاضرة للشيخ السيوطي. ٢٧- تاريخ محمد جلبي.

ثم يقول أوليا جلبي :

«علاوة على تلك الكتب السالف ذكرها قرأت كثرة من الكتب والدواوين في

مصر.

وهكذا يوضح أوليا جلبي للقارئ الكتب والمصادر التي اطلع عليها قبل زيارته لمصر ثم يوضح أن هناك كتباً أخرى استعان بها وقرأها في مصر.

أما عن طريق تعامل أوليا جلبي مع المصادر فقد اختلفت من مصدر لآخر، حيث أن هناك مصادر مفضلة بالنسبة له اعتمد عليها اعتماداً كبيراً في أغلب فقرات كتابه ولتوضيح ذلك على النحو التالي:

أولاً : يقول أوليا جلبي عن مصادره المفضلة.

«وليعلم من يطلعون عليها (يقصد رحلته) أن ما في رحلتنا هذه من أخبار وأحداث مستمدة من خرائط علوم الهيئة والأطلس والجغرافية وتواريخ القبط وتواريخ اليونان وعلم النجوم وبعض العلماء ذوي العقول الراجحة.

ومن أمثلة استعانتها بتلك المصادر التي ذكرها يقول :

وبناء على تواريخ اليونان أن مصر أول بلد عربي على وجه الأرض تميز بالعمائر العظيمة والآخرى بغداد والصين وعراق الداديين وهذه المدن الأربعة تشكل السوء الأعظم من العالم.

«وبناء من أمثلة اعتماده على تواريخ الصابئة وهي من المصادر الأساسية له خاصة في فترة التاريخ القديم منذ هبوط آدم، وأخبار وسير أبنائه يقول: «وجاء في تواريخ الصابئة أن إدريس كان له في علم الكتاب اليد الطولي والقدم الراسخة، وكانت له معرفة بكل ما في الوجود من شيء، ويحرز جميع الوقائع في يوميات ويحفظها في جبال الأهرام». أيضا اعتمد على تواريخ القبط فقال في إحدى فقراته التي نقلها عن هذه التواريخ وهي خاصة بدعاء سيدنا آدم عليه السلام لمصر يقول أوليا جليبي: «أما دعاؤه لمصر، الذي أخذت ترجمته عن التواريخ القبطية فسوق نكتبه في مجموعتنا تلك. دعاء سيدنا آدم عليه السلام صفي الله في حق مصر بلسان كلام الله العبري «صام اللهم طط رد لم يتم إيمانهم حوز جيرز باشيطا لأن صقله فلازريا قورتا ربني قورتا بني (مصرع ثاني) شوزم تراكن جملة ملكلرك طرز ولم شريزتنا بكا خدمت اتسلر.

وعن مصادر في المعلومات الجغرافية كان «بطليموس» هو المفضل له حيث يقول: «وعلى حد بطليموس الحكيم على وجه الأرض مثنى نهر عظيم وأربعة وأربعون ألف عين جارية».

هذا بالنسبة للتاريخ القديم، والنواحي الجغرافية، أما عن تاريخ مصر الإسلامية فإن أهم المصادر التي اعتمد عليها هو كتاب تاريخ المقرئزي والذي نقل عنه الكثير واستشهد به في كثير من مواضع كتابه، بل ومدحه قائلا:

«وقد اطلعت على كتب التاريخ ومنها كتاب المقرئزي القيم، إنه واسع العلم بالعربية والسريانية، والقبطية، واليونانية، وكأنه في كثرة سياحاته فيثاغورث وقد تحدث عن أول من بنى مصر القديمة وكان ما قاله صحيحا، وهو القائل إن آدم استوطن مصر ثم أمره

الله بالتوجه إلى الشام، وكان لثيث ولده اسمه (غرياب) وابنه نقراوش، وكان نقراوش هذا متضلعا في جميع العلوم، وقد أحب نقراوش هذا وسماه «مصريايم» وأمره بتعمير مصر ومضى آدم إلى الشام لزراعتها ومن أسرة «نقراوش» هذا سبعون عادروا الديار فرارا من ظلم قاييل...»

ويقول أوليا جلبي عن المقرئ في موضوع آخر من كتابه إنه مؤرخ العالم وهذه المبالغة في مدحه إنما لشدة إعجابه به وأخذ عنه فيقول:

«يقول مؤرخ العالم الشيخ المقرئ: إنه لا يخلو ذراع من أرض مصر من كنز قديم».

وهكذا تكرر استشهاد ونقل أوليا جلبي الكثير من تاريخ المقرئ. ومن المصادر التي اطلع عليها أوليا جلبي كتاب تذكرة داود، ويبدو أنه من الكتب التي اطلع عليها في مصر حيث إنه لم يذكره في المصادر التي ذكرها بداية كتابه يقول أوليا جلبي عن عصير العرقسوس: «وقد بذكر داود في تذكرته سبعين فائدة له، ومن أعظم فوائده أنه يظهر المثانة ويدر البول».

ومن المصادر التي اعتمد عليها أوليا جلبي خاصة في ذكر الفتح الإسلامي لمصر كتاب فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم وإن كان ما أخذه عنا ابن عبد الحكم قليل فهو لم يذكره كما يذكر المقرئ وقد أخذ عنه ما يلي:

وبناء على قول ابن عبد الحكم رحمه الله: إن جبل خليل الرحمن في القدس وجبل طور سيناء وجبل ينيع وعرفات وإلي ساحل نهر مراد والرها وحلب وريح ومن اللاذقية إلى ساحل البحر حتى مصر كل هذا أرض مقدسة، هذا قول ابن الحكم.

ويبدو أن أوليا جلبي لم يكن ينقل نقلا تاما عن هذه المصادر وإنما كان يصيغ ما يأخذه منها بأسلوبه، فقصة زيارة عمرو بن العاص لمصر في الجاهلية مقارنة بما جاء في رحلة أوليا جلبي فوجدته يتفق في المضمون مع ما جاء في كتابي فتوح مصر لابن عبد الحكم وما جاء في كتاب حسن المحاضرة للسيوطي ولكنها تختلف بعض الشيء في صيغتها كما أنها أكثر اختصارا في رحلة أوليا جلبي.

وما يؤخذ على أولياء جلبي أن سرده للجزء التاريخي المتعلق بفتح مصر في عهد عمر بن الخطاب يتسم بالسطحية حيث لم يأخذ عن ابن عبد الحكم إلا ما ذكرناه سالفا

مع العلم إن ابن عبد الحكم مرجع المؤرخين القدامى فى كتابه حسن المحاضرة. أيضا لم يحدد المصدر الذى رجع إليه فى الأحداث المتعلقة بهذه الفترة.

ومن المصادر الأخرى التى اطلع عليها وذكرها كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى، والذى نقل عنه كثيرا من المعلومات الخاصة بالطوفان ومصر، وأبناء نوح عليه السلام، وكتاب ابن ظهيرة الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة.

أيضا من المصادر التى اطلع عليها وذكرها فى ثنايا كتابه ولم يذكرها فى بداية كتابه عند ذكره للمصادر كتاب مروج الذهب للمسعودى، وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، وكتاب عبد الوهاب الشعرانى أحد أقطاب الصوفية فى مصر العثمانية، وقد اعتمد أوليا جلبي على كتابه لواقع الأنوار فى طبقات الأخيار أو مايعرف بالطبقات الكبرى، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير. أيضا اعتمد على كتب التفسير فاستخدم تفسير الطبرى، وتفسير ابن كثير، كما استخدم العديد من كتب الحديث كان أهمها كتاب الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م كذلك صحيح مسلم.

يؤخذ على أوليا جلبي قوله فى كثير من الفقرات التى ينقلها:

وبناء على قول كثير من المؤرخين أو بناء على قول كثير من المفسرين أو أجمع المؤرخون دون تحديد مصدر نقل عنه أو تحديد من هم هؤلاء المؤرخين أو المفسرين والأمثلة على ذلك كثيرة منها. قوله «وهذا مااجتمعت عليه كلمة جميع المؤرخين»، أيضا قوله «وبناء على قول جميع المفسرين والمؤرخين» وفى ص ٢٩ «أجمع المؤرخون على القول الصحيح وهو أن مصر دخلت فى حوزة أمة محمد عبد وفاة النبي (ﷺ) بشمانية عشر عاما».

وهكذا تكثر هذه المقولة فى كتابه أوليا جلبي وكان الافضل أن يذكر اسم كل مصر ينقل عنه.

ورغم ذلك نجد أوليا جلبي يتميز بتحليل ومناقشة آراء غيره ومقارنة بعضها ببعض فى كثير من مواضع كتابه مثل قوله: «ومن الخطأ قولهم إن القيوم من ألف يوم، وإن

وفى تفسير قوله تعالى «مثل جنة بربوة» يقول بعض المفسرين إن المقصود بالربوة مصر كما قال بعضهم الآخر المراد بها دمشق، غير إن جمهورهم قالت إن المقصود بها مصر».

ويقول فى موضع آخر مناقشا ومفندا آراء بعض المؤرخين:

«قال بعض المؤرخين إن حديقة إرم هى مدينة الإسكندرية، أما المقرئى صاحب الخطط فيقول: إن حديقة إرم فى أرض بجوار مصر تسمى «سبيل علام» وقد أخفاها الله حتى قيل إن جواهر وجدت فى سبيل علام، وقد رأيتها تباع بألف قرش، وبناء على قول بعض المؤرخين إن حديقة إرم بالقرب من دمشق أن أعرايا أنخ بعيره فرأى الجنة وذلك فى عصر بنى أمية، وملا مخلاة بثمار أشجارها وأحجارها وحملها إلى الخليفة فى دمشق وعرضها عليه، فعلم أن حديقة إرم بالقرب من دمشق، وقال كثر من أهل العلم أنها مصر لأن بانيها شداد بن عاد ووطنه الأصلية مدينة أسوان وقالوا إن حديقته إرم فى مصر على الأرجح» وعن نقده لآراء غيره يقول فى ذكره لمعركة مرج دابق بين السلطان سليم خان العثمانى والسلطان الغورى» ويقول بعض المؤرخين إن الغورى قتل فى هذه المعركة، ولكن هذا ليس بصحيح فمن المحقق أنه عاد إلى مصر وحشد جيشا. ويؤخذ عليه هنا أنه لم يأت بالأدلة والبراهين التى تؤكد على صحة ما قاله.

ومن أمثلة نقده وتحليله ما جاء بشأن مدينة القسطاط: يقول: «ويسمى القبط القسطاط، ولقد أصبحت مدينة معمورة عظيمة إلى عهد الطوفان، وهى الآن كذلك مدينة عتيقة، والأحجار التى فيها كبيرة كأنها أحجار الهرمين، وطول الحجر عشرون وعرضه خمسة عشر ذراعا، وفى الأبنية الأثرية حجارة كثيرة كأنها الهرمان، وكل حجر يبلغ فى الطول والعرض عشرين وخمسة عشر ذراعا، وقد رآها بعضهم، فقالوا إنها من بناء الجن، لأن بنى الإنسان لا يقدر على حمل هذه الأحجار، أما من يعارضون فى هذا فليس لديهم من خبر ولا علم، فما وجد بعد هبوط آدم من الناس من له مثل هذه القوة، وكان طول كل إنسان مائة ذراع، أما الآن فلا يتجاوز طول الإنسان ذراعين أو ثلاث أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفع جبلا، ويستطيع نقله من مكان

القوة، وكان طول كل إنسان مائة ذراع، أما الآن فلا يتجاوز طول الإنسان ذراعين أو ثلاث أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفع جبلا، ويستطيع نقله من مكان إلى آخر، ومن يعارض في ذلك لاعلم له ولاخبر لديه عن علم جر الأثقال وليعلم أيضا أن (رحمة الرجال تقلع الجبال).

أما عن مصادر أوليا جلبي الخاص بالإحصاءات والأعداد التي ذكرها في كتابه فيبدو أنه اطلع على سجلات خاصة بذلك وقد ذكر في كثير من مواضع رحلته أنه أخذ هذه الإحصاءات عن ما يسمى بسجلات الغزالي حيث يقول:

«بناء على ما سلف ذكره، وبناء على ما ذكره الغزالي عن مصر أم الدنيا ففي مصر ٧٤٠ حيا للمسلمين وفيها ٧٨ قصرا لسلطين السلف وأن اللسان ليعجز عن وصف كل منها فعلى شط بركة بركة القيل قصر السلطان قايتباي وفي قلعة الكبش قصر السلطان جاولي وأسفله قصر محمد بك، وقبالتة قصر نذير أغا وقصر رضوان بك أمير الحج وقصر يوسف بك أمير الحج الأسبق، وقصر الشيخ السادات وقصر ييقلى محمد بك وقصور نوالى بك... على هذه القصور (٢٢٠٠٠) بيت للمسلمين، أما القبط فلهم ٢٠ حارة و ٦٠٠ منزل وعددهم ٩٠٠٠ قبطى يدفعون الخراج ويحصله أمين البحرين، واثنان وعشرون جماعة يهودية تشكل حارة واحدة... وبيوتهم من خمسة أو ستة طوابق... وعدد اليهود ٦٠٦٠ نسمة يدفعون الخراج وهناك أربع حارات للأورام وحارتان للأرمن ومجموع سكان الروم والأرمن ٣٠٠٠ نسمة يدفعون الخراج، والنصارى من التابعين لبلدان أوربا أو الدولة العثمانية فيتراوح بين ٦٠٠٠-٧٠٠٠ نسمة، ولاوجود لغجر الأورام، أما جميع أهل مصر فهم قوم فرعون، وعلى حافة البركة حارة لنصارى أوربا وفيها مراكز لقناصل سبع دول أوربية بها ٣٠٠٠ من نصارى أوربا.

ويقول في موضع آخر: وطبقا لما ورد في كتب «الغزالي» فإن ذكر جميع المساجد أمر خارج عن طاقة البشر وهذا ما فيه الحاجة إلى مجلد خاص به».

أيضا عند ذكره لقرى مصر وإجمالى أكياس الخزائن وعددها ودراهمها والدوائق

ويبدو أن أوليا جلى استطاع الاطلاع على هذه السجلات حتى يتمكن من ذكر هذه الأرقام الكثيرة جدا والإحصاءات الدقيقة خاصة فيما يتعلق برواتب وطوائف الجند وما يتقاضونه كل شهر أو كل ثلاثة أشهر أيضا ما يتعلق بعوائد القرى والمدن والمحاكم وغيرها. فيقول أوليا جلى عن هذه السجلات:

«كما وجد رئيس المترجمين، وأمين السجلات، وهناك قبة أخرى من الحجر تراكت تحتها السجلات الشرعية منذ عهد الخليفة عمر رضى الله عنه وأصبحت وكأنها الجبال، وهذه السجلات تحت تصرف أمين السجلات ومعهم كتنخدا».

وبعلاقة أوليا جلى بالإدارة العثمانية فى مصر، وهى علاقة كانت لاشك وطيدة حيث كان مقربا من الكتنخدا وغيره، استطاع الاطلاع على هذه السجلات، وهذا الذى مكنه من رصد هذه الأرقام وهذه الإحصاءات.

يعد أوليا جلى الرحالة الوحيد من بين كل من سبقوه بالرحلة إلى مصر الذى حرص على إظهار الجوانب المضيئة للحضارة الإسلامية فى مصر فى فترة الحكم العثمانى، وهى الفترة التى نعتها كثير من المؤرخين والكتاب بأنها فترة تخلف وظلام، فجاءت رحلة أوليا جلى لتظهر هذه الجوانب وتبين ماكان فى مصر من مدارس ومساجد وكتاتيب، ودور للقراء، وتكايا، ومستشفيات ومحاكم، ومبرآت، كما بينت بالتفصيل صورة الحياة الاقتصادية فى مصر من خلال عرض ما كخا بها من حرف وصناعات ووكالات ودكاكين، ومستوى معيشة الناس وحالة الرغد والرفاهية التى شهدها أوليا جلى فى أثناء سياحته التى قام بها فى مصر.

أبرز أوليا جلى أهمية مصر، وعظمة مكانتها من خلال الحلفية التاريخية البسيطة التى بدأ بها رحلته والتى تناول فيها تاريخ مصر منذ هبوط آدم إلى الأرض وحتى الفتح العثمانى لها، ودعوة الانبياء لها، واستقرارهم بها، وذكرها فى كتاب الله وفى أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

جمعت رحلة أوليا جلى بين نمطين من الرحلات التى تمت لمصر، الأولى رحلات الأجانب الغير مسلمين والتى ركز أصحابها على إظهار صورة مصر الفرعونية والمسيحية من خلال آثارها، والنمط الآخر رحلات المسلمين أمثال بن جبير وابن بطوطة التى أظهرت بعض مظاهر الحضارة الإسلامية فى مصر من مدارس ومساجد وخانقاوات وغيرها، فجمع أوليا جلى بين النمطين فلم يهمل آثار الفراعنة بمصر من أهرام ومقابر وغيرها.

تميز أوليا جلى بالدقة فى الحصر، والاعتماد فى وصفه على مشاهداته الشخصية وليس على مشاهدات وآراء الغير والإتيان بإحصاءات غاية فى الأهمية لم يستطع غيره من السابقين الإتيان بها.

لم تقتصر سياحة أوليا جلى ومشاهداته على القاهرة أو مصر القديمة والإسكندرية كسابقه ولكنه زار وشاهد أغلب - إن لم يكن كل - مدن وقصبات مصر آنذاك حتى مدينة أسوان بل وزار بلاد السودان والحبشة وهذا ما لم يقم به غيره من الرحالة السابقين عليه.

عرض موجز لرحلة أوليا جلى فى مصر والسودان والحبشة

وتتناول رحلة أوليا جلى إلى مصر فى بدايته تاريخ مصر منذ بدء الخليقة وهبوط آدم إلى الأرض والدول التى تعاقبت على حكمها حتى الفتح العثمانى لها ونظم العثمانيين بها، ثم وصف للقاهرة أو مصر القديمة كما شاهدها أوليا جلى حيث قام بتصوير الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية بها، ومنشأتها من منازل وجوامع ومساجد وتكايا وأسبلة ومدارس وكتاتيب وحمامات ووكالات وخلصان وترع وزراعات وحيوانات وأضرحة وغيرها، ثم وصف لبقية رحلته من القاهرة إلى الإسكندرية ثم رشيد ودمياط ثم عودته للقاهرة واستئناف رحلته إلى بقية قصبات ومدن مصر إلى الصعيد فمزار الفيوم وبنى سويف وأسيوط وسوهاج وغيرها حتى وصل إلى أسوان وتوغل حتى بلاد السودان والحبشة ثم عاد إلى مصر مرة أخرى.

وقد جاءت رحلة أوليا جلبي في نحو ثلاثة وسبعين فصلا، بدأها بمقدمة حمد الله فيها وأثنى على رسوله الكريم، ثم تناول قصة خلق آدم وحواء وهبوطهما إلى الأرض وتنقلهما في الأرض حتى وصولها إلى مصر حيث صارت مستقرا لهما ولذريتهم.

ثم ذكر أوليا جلبي بداية دخوله مصر وإعجابه بها وبأبنيتها، والمصادر التي اطلع عليها وفي ذكر مصر فقال في تواضع جم يدل على رفعة نفسه وتدينه الشديد:

«دخلت أنا أوليا جلبي الحقيير سياح العالم ونديم آدم، مصر في السابع من صفر عام ثلاثة وثمانين وألف، فوجدت داخلها وخارجها وأعجبت له كل العجب ذلك أن ما فيها من عجائب وغرائب الابنية ليس له من وجود في ديار سواها، وبينما كنت أبحث عن أقام تلك الابنية ذات الطلاسم وتلك القصور العالية رجعت إلا ما ليحده الحصر من التواريخ القيمة».

وفي خاتمة شرح أوليا جلبي خط سير رحلته التي كتب مسوداتها في مدينة أبريم بالحبشة وهي آخر ما وصل إليه في رحلته حيث يقول في ذلك «واسترحنا في مدينة أبريم ثلاثة أيام، ووضعنا ما ثقل من أحمالنا في السفن وأرسلناها إلى جرجة ولقد كتبت مسودات رحلتي».

ثم عاد أوليا جلبي إلى مصر ولكنه سلك الضفة الغربية للنيل أثناء عودته حيث كان في ذهابه يسلك الضفة الشرقية وفي ذلك يقول:

«ومن مدينة أبريم ودعت خلانتي وأحبابي وركبت السفينة في النيل إلى الجانب المواجه لأن في ذهابي رلى فونجستان شاهدت الضفة الشرقية للنيل ولذلك شئت أن أشاهد الضفة الغربية».

ومر أوليا جلبي بعدد من المدن والقصبات أثناء عودته حتى وصل مدينة «الواح الكبرى» بولاية الواحات وبها بلغ كتابه نهايته، ووضع أوليا جلبي خاتمة التي شرح فيها خط سير رحلته ومشاهداته وطريقة كتابته لهذا الكتاب فيقول:

«ولله نحمد أن كتابنا هذا بلغ نهايته هنا، كما نحمد الله نشئ عليه الثناء كله على أننا أقمنا في ديار مصر القاهرة نادرة العصر وجعلنا أوراق كتاب رحلتنا هذه المستفرقة مثل

خرقة الدراويش ذات الألوان وكانت ألفاظها من بدايتها إلى نهايتها فى عصر وإلى مصر الباشا وأتمنا كتابنا فى ظل خيرة ورعايته، وإن كان هذا الكتاب فى رأى العقلاء والحكماء لا يخلو من نقص وعيب وذلك لكثرة تنقلنا بين البلاد ولم يهتم بكتابته بالفاظ جذلة، والمرجو منهم أن يفضوا النظر عن السهو الغلط عنه... فلقد حملت مسودات هذا الكتاب وأنا أسيع فى البلاد خمسين عاما ولكثرة سياحتى انزويت فى ركن العزلة، ولم يتيسر لى أن أتبع كل ما جاء فى التواريخ، ورأيت نهاية حدث من الأحداث، ولم أقيد فى كتابى نهاية حدث بالذات ولكن أستاذنا فى ديار مصر الشيخ على شمرلى ألقى إليه السمع وأخذت عنه التفاسير الشريفة والأحاديث النبوية والآيات الكريمة فأثبتها فى مواضعها، وبذلك جرات على كتابة هذه الأوراق (والعذر عند كرام الناس مقبول) وأنا أدعو الله له بالخير ولم أورد المثنويات فى خاتمة الكتاب وذكرت هذا التاريخ.

كتبه أضعف الكتاب الحاج محمد المعروف بحافظ القرآن المجيد من تلاميذ محمد راسم كاتب السراير لسنة خمس وستين ومائة وألف من هجرة من له السعادة والمجد والشرف.

منهج أوليا جلى فى كتابة رحلته

استهل أوليا جلى رحلته بموجز عن تاريخ مصر منذ بدء الخليقة، واستقرار أبناء آدم من الأنبياء بها، وحكام مصر قبل الطوفان وبعده حتى الفتح الإسلامى لها فى خلافة عمر بن الخطاب، وتعاقب الدول الإسلامية على حكمها حتى الفتح العثمانى لها. وقد كان هذا الموجز التاريخى من أسباب عظمة هذا الكتاب، حيث جعله عملا ثقافيا متكاملًا يمتع قارئه، فهو يجمع بين تاريخ مصر وجغرافيتها منذ أقدم العصور وحتى عصر هذه الرحالة وهو بذلك يختلف عن أسلوب سابقه من الرحالة فى هذا المجال.

وأفاض أوليا جلبي في ذكر الفتح العثماني لمصر، ودواوين العثمانيين بها ورسومهم، ومواكبهم، وجندهم ورواتبهم وملابسهم، وفرقهم وذلك من خلال صفحات الكتاب.

علاقة مصر والدولة العثمانية من خلال رحلة أوليا جلبي

من أهم مميزات هذا الكتاب هو توضيحه لموقف مصر من الدولة العثمانية قبل دخول العثمانيين إليها، ثم توضيح وإظهار الصورة المضيئة للعثمانيين في ظل حكمهم مصر. أما بالنسبة للنقطة الأولى والمتعلقة بموقف مصر من الدولة العثمانية قبل الفتح العثماني لها يبين أوليا أن دخول العثمانيين مصر كان بناء على رغبة أهلها وبموافقاتهم ولم يدخلوها عنوة حيث يقول:

وبسبب ظلم الشراكسة وطفانيهم، قدم من مصر كثير من أولياء الله إلى الشيخ أبو السعود الجارحي والشيخ مرزوق كفاي يشكون، كما تشاور العلماء والصلحاء في الأمر وقالوا: إذا مضينا من مصر إلى المغرب وجدنا قوم سوء وإذا مضينا إلى الهند كانت بلاد بعيدة، وإذا مضينا إلى العجم، وجدنا في مذهبهم شبهة، وإذا مضينا إلى الأكراد فدولتهم لا ثبات لها، فهلموا لنذهب إلى آل عثمان فإنهم مؤمنون موحدون، إنهم يحبون العلماء والصلحاء والمشايخ وهم أهل الشرع وأصحاب السيف، وحيثما مضوا كان النصر لهم، هلموا لنمض، إليهم، فتم اتفاقهم على ذلك وقرأوا الفاتحة، وهتف كل من الشيخ أبو الجارحي، والشيخ مرزوق كفاي قائلا: تعال يا سليم تعال يا سليم وكان السلطان سليم في مشتهه بأماسية مع وزراءه يتشاور، فقال الطواشي سنان باشا يونس باشا إننا سمعنا من قال يا سليم ثلاث مرات وقيلت صراحة، فقال السلطان سليم: عندما كنت في سياحتي بمصر مع حلیمی قال أبو السعود الجارحي ومرزوق كفاف بالملكاشفة: يا سليم روح اجلس على تخت أبوك وإذا ما دعوناك إلى مصر فاقدم هذا ماقالا.

ويقول أوليا جلبي عن بشریات فتح العثمانيين مصر:

«ومضى سليم إلى بورسة لزيارة أمير سلطان فقال السلام عليكم يا أهل القبور،

فسمع صوتا يقول: وعليكم السلام يا صاحب السيف والقلم، ادخلوا مصر إن شاء الله آمين وتردد هذا الصوت من القبر الشريف، فأخذ العجب مأخذه من جملة الحضور وفى الوقت عينه قال كمال باشا زاده للسلطان سليم، لقد بشرت يامولاي بفتح مصر.

عقد سليم نيته على غزو مصر، فتمنطق بالسيف فى ضريح أمير سلطان وقرأ كمال باشا زاده الفاتحة ومسح وجهه بيده ثم أدى الزيارة، ومضى سليم إلى قصره وهناك جمع جميع علماء الترك، وأهل الفتيا على المذاهب الأربعة، فطلب منهم أن يفتوه فى فتح مصر، وكان الطواش سنان باشا الصدر الأعظم آنثذ، وعرض أربعين فتوى كانت قد جاءت من مصر، وقرأ هذه الفتاوى علماء الترك، وتبينوا ما جاء فيها، وقالوا مادام علماء مصر وكبار أولياء الله فيها أفتوا بوجوب قتال الجراكسة فنحن أولى بهذا القتال.

وبعد ما ذكر أوليا جلى فى كتابه مضمون الفتوى قال:

فحمل سليم سند الفتوى وفى الحال بعث باثنى عشر رسولا إلى السلطان الغورى فدخل هؤلاء الرسل إلى ديوان السلطان الغورى، فقرأ السلطان الغورى رسالة السلطان سليم وفتاوى رسول الله ﷺ ثم قال: لقد سبق للسلطان سليم أن قتل علاء الدولة بن ذي القدر وسبعين من أبنائه وأرسلت إلينا أسرى مكبلين والآن دماؤكم فداء لهم، ولقد أرسلكم إلى بحجة أنكم رسل، وأمر بقتل عشرة منهم وأطلق سراح اثنين، وسلمهم خطاب الأمان، وفيها يقول: مادامت حيا لن أمكنك من دخول مصر وليكن اللقاء فى سهل مرج دابق عند حلب، وإن كنت رجلا تعال إلى ميلانى، وعندما تلطم سليم رسالة الغورى هذه استشاط غضبا، فقال علماء الترك: لم يقتل سفراء الكفرة قط على مر العصور وإذا ما قتل سفراء المسلمين، فقتل الغورى حلال، فانهض يامولانا لساعتك وخف إليه ولا ترفع يدك عنه.

وجهاز السلطان سليم جيشه وخاض معارك ضارية ونجح فى هزيمة الغورى وضم بلاد الشام. ثم اتجه إلى مصر ودارت بينه وبين الجراكسة حروبا شرسة حتى مكثه الله فى نهايتها من ضم مصر لحوزة العثمانيين.

وأما النقطة الثانية التى وضحها أوليا جلى ألا وهى الصورة المضيئة للعثمانيين فى

مصر فقد ظهرت منذ استقرار العثمانيين بها، فبعد أن مكّن الله السلطان سليم من فتح مصر ودانت له، يقول أوليا :

ويأذن من علماء مصر جميعا أدى صلاة الجمعة هو وكل أعضاء الديوان في جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، واجتمع هناك مائتا ألف رجل لأن في ذلك اليوم كان حضور الشيخ أبو السعود الجارحي والشيخ مرزوق كفا في وبأذنهما الشريف تلي الشيخ أبو العلا الخطبة باسم سلطان البرين وخاقان البحرين خدام الحرمين الشريفين سليم خان ابن بايزيد أيد الله سلطته إلى آخر الزمان. وبأذنهما الشريف سكّت العملة وكتب عليها «صاحب النصر، ضارب النصر غرو النصر في البر والبحر السلطان سليم خان بن بايزيد خان عز نصره سنة ٩٢٢» وبعد ذلك جمع سليم ذات يوم الديوان السلطان وحضره جميع أعضائه على تفاوتهم في السن والرتبة، ووضع سليم يده في يد خير بك وأجلسه على سرير الخلافة ووضع على رأسه العمامة المعروفة بسليمي وريشة نفيسة، وعلى ظهر خلعة فاخرة من السمور، وحول خصره منطقة مرصعة تعلق فيها خنجر مرصع وحرص سليم على أن يلبسه كل ذلك بنفسه، ورفع يده بالدعاء وقال: لقد جعلتك ياخير بك وزيرا ونائب في هذه الدولة وسأرى كيف تخدم الإسلام، فانا لارغبة لي في شئ من مصر، لقد ظفرت بلقب خدام الحرمين الشريفين وكفى.

ووقف جميع محاصيل مصر على النبي ﷺ فاشهدوا من الآن فصاعدا ياخير بك أنت مولى هذا الوقف فأحسن خدمته.

ثم وضع السلطان سليم قانونا تسيّر عليه الإدارة في مصر كان من أهم ما جاء فيه التالي :

جعل مائة من الأغوات بكوات الشراكسة، وأمر ألا يجتمع الديوان ثلاثة أيام في الأسبوع وأيام العطلة هي الجمعة والسبت والأربعاء، ويحضر قاضي العسكر الديوان خمسة أيام، ومن أجل الديوان في كل يوم كيسان من دنانير. ويقدم ثلاثة آلاف صحن من طعام، ويطعم كل أعضاء الديوان والخدم والآتون من بعيد وجعل سليم ذلك قانونا، ولشأوشية الديوان كل يوم خمسة خراف وأردب من أرز وكيلتان من العدس

والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأوقيتان من شمع العسل، كما أجرى على الإنمة والمؤذنين راتبا. . ولجميع أقاليم مصر ثمانون كشافا وفى دواوينهم يسط كل يوم سباط فى الصباح وسباط فى المساء وذلك من المال السلطانى، كما أن بكوات الشراكسة ومائة من رؤساء الفرق بعد سباطهم، يسطون الموائد للعوام والخواص، وفى كل وقت من أوقات الطعام تفرغ الطبول لئنه جميع الجياع. وجعل ذلك قانونا، ودامت هذه النعمة، وما كانت مثل هذه النعمة فى بلاد سلطان آخر، وبعد ذلك لم يصدر قانون سلطانى.

وهكذا يتبين مما سبق نبل وعظمة هدف العثمانيين من دخول مصر فحدده السلطان سليم بأنه لخدمة الإسلام حيث جعل كل خيراتها وفقا لله تعالى. وشهد الناس فى ظل حكمه عطف ورعاية لامثيل لها حيث نراه يأمر كاشفى الأقاليم بعمل أسمطة صباحا ومساء لإطعام الناس، ولجدية الأمر يأمر بأن تفرغ الطبول لئنه جميع الجياع.

ولم يقف الأمر عند ذلك الحد، بل إن مصر شهدت ازدهارا اقتصاديا فى ظل حكم العثمانيين كما يتبين لنا ذلك من الرحلة، وتبين ذلك أيضا من طبيعة النشاط الاقتصادى وكثرة الحرف والدكاكين والوكالات والصناعات.

كما شهد الناس نوعا من الرغد والرفاهية فالمستشفيات تعمل مجانا والمبرات توزع طعامها ليلا ونهارا مجانا، والاحتفالات كثيرة ومتعددة مما يدل على نوع من الراحة والاستقرار وإن كان ذلك فى الفترة التى عاشها أوليا جلى فى مصر. إلا أنها كشف عن الكثير من إيجابيات الحكم العثمانى فى مصر.

تقويم رحلة أوليا جلى

فى أوليا جلى كثير من الصفات الجلييلة أولها القدرة على تحمل المشاق والصبر عليها، وقد أوردنا جزءا يسيرا فى أمثلة سابقة من هذه المشاق، والرحلة بها غير هذه الأمثلة، عشرات الأمثلة.

ومن صفاته أيضا شجاعته، وإصراره على بلوغ هدفه وثقته بالله وإيمانه الشديد به سبحانه وتعالى :

مثال : أثناء عزمه زيارة فنجستان يقول :

«ولما عقدنا العزم على الرحيل قدم إلينا الشباب والشيخ وقالوا لنا إذا ذهبتم إلى فونجستان فإن جيادكم سوف تهلك من الحر والجوع، ولاتأمنون عادية اللصوص من الزنوج ويسطوا إلينا الرجاء ألا نمضى فقلت إن الخوف لا يدخلني مطلقا، لأن الله تعالى : (والحافظون لحدود الله)، وقد حفظت منذ أربعين عام، وقد ختمت القرآن الكريم في كل يوم جمعة منذ فجر شبابي، وبذلك كنت أختمه في كل عام ثمانية وأربعين مرة. وأنا مقتنع بذلك كل الاقتناع، وأنا لا أنشئ عن عزمي، وقالوا لى وإذا ما ذهبت إلى إبراهيم باشا، وأنت لتحمل هدية، فأنا لا أرد جوابا، وماذا أصنع بالهدايا التي للملك فونجستان، وفي الموضع الذي يصب فيه النيل عند دمياط ورشيد صليت ركعتي الحاجة، ودعيت الله، ودعيت الله قائلا أن يسر لى زيارة منابح النيل ومقابر الأولياء هناك، فالحمد لله تقبل دعائى، لقد جئت إلى بلدة صاى وعودتى إلى مصر غير محتملة، اللهم هبني رفيقا لأرحل، وألححت في الدعاء، فقالوا لاتسانا من دعواتك وكلفت أن أقدم إلى حاكم الفونج رسائل المودة.

ومن صفات أوليا جليبي أيضا الواضحة تماما في رحلته تدينه الشديد، وغلبة الروح الصوفية عليه، ويظهر ذلك في كثير من فقرات كتابه، وفي تناوله وذكره للأولياء خاصة، والمتصوفة. أيضا يظهر تدينه الشديد من كثرة استشهاده بالآيات القرآنية وأحاديث النبي ﷺ.

ما يؤخذ على أوليا جليبي في رحلته

يلاحظ القارئ لكتاب أوليا جليبي مبالغته في سرد بعض المشاهد والأحداث التي يرويها في مواضع متعددة من كتابه فعلى سبيل المثال، عند وصفه للتمساح، والحكايات التي أوردها عنه ذكر عجيبة من العجائب قائلا :

ومن عجب أن هذا التماسح يخرج إلى الجزيرة مع أنثاء وعند الجماع ترقد الأنثى فوق ظهرها، وبعض البدو بمن أصيبوا بالسيلان وأرادوا البرء منه أو استجابوا لأنفسهم بالإمارة بالسوء يختبئ الواحد منهم في الرمل، وقبل أن يجامع التماسح أنثاء وهى على ظهرها، يخرج من كمينه، ويطلق صيحة الية، فيجفل التماسح الذكر وي طرح نفسه فى النيل، إلا أن أنثاء تظل على ظهرها، لا تحرك ساكنا، فهى لا تستطيع أن تتحرك لأن أطرافها قصيرة، وهى تسبح فى الماء بفمها وذيلها، وحتى يتم الجماع يغطى الملعون الذى يريد الاتصال بأنثى التماسح قدميها الخلفيتين بالرمال ويغمر كذلك ذيلها بالرمل، ثم يشرع فى فعله الشنيع دون خوف ولا حياء.

ويقسم من يفعل هذا أنه وجد لذة عظيمة من ذلك، ويقول إن جماع أنثى التماسح الذى من جماع الفتاة البكر، وبه حرارة شديدة، ويقول إن الدم الأحمر يسيل من كل جماع بكر، وإذا ما جماع أنثى التماسح أسبوعا بدلا من الزوجة وجد رائحة المسك فى أنفه، ودام شذا هذا المسك أكثر من أسبوع.

ثم يروى حكاية أخرى طويلة عن نفس الموضوع نقلا عن أحد الأشخاص، ثم يقول فى سبب جماع الناس للتماسيح:

وسبب انتشار جماع الناس للتماسيح فى تلك البلاد هو أن أغلب رجالها مصابون بالسيلان لقصر حضورهم، ولكى يبرءوا منه يجامعون التماسيح، وإذا ما جامعوها تحقق لهم الشفاء، من هذا الداء، والبعض ممن لا يجامعون التماسيح يجامعون الجوارى الحبشيات السود، وبذلك يشفون، ولهّن حرارة شديدة تجذب ما فى جسم الإنسان من منى وغيره.

ولم تكن هذه هى المرة الواحدة فقط التى يذكر فيها أوليا جلبى ذلك عن التماسيح ولكنه عاد وذكرها فى مواضع أخرى، والحقيقة أن ذلك فيه نوع من المبالغة والاستفاضة فى موضوع ليس ذا أهمية. كما أنه مخالف للفطرة البشرية.

ومن المبالغات التى ذكرها أيضا تحت عنوان .. «لطيفة غريبة»:

«رأيت فى صحراء «هيهات» قوم القالموق أكلة لحوم البشر، إنهم يأكلون لحم موتاهم، وقد خنقوا بعض أسرارهم من النوعاى وأكلوا لحومهم إلا أنهم لم يذبحونهم حتى لا تتسرب دماؤهم فهم يخنقونهم ويطحنونهم ويأكلونهم، ويقولون أن ألد اللحم لحم البشر والثعابين والخنزير، كما يقولون أن إلية الخنزير وإلية البشر أذا ما يكون طعاما.

وواقع الأمر أن بين الترك من هم على مذهب القالمق، ويعرفون ذلك حق العرفة أما أنا فقد شاهدت ذات مرة أحدا يقبل حساء فدبت فيه الحياة وشعر بمزيد من السرور فأدرت من ذلك أن لحم البشر لذيق.

ومن المبالغات والمتناقضات لأوليا جلبي ما ذكره فى الفصل الثامن والخمسين قائلا «إن عدد المصابين بالرمد فى مصر مالا يعلمه إلا الله فى حين أنه لاوجود لكحال ماهر فيها، وجيادها كثيرة فى حين إنه لاوجود فيها لبيطار، ومرضاها كثير فى حين إنه لاوجود لطبيب يعالجهم، وكثير منهم تورمت خصيته حتى تمزقت ولايجد له جراحا، ورجالها كثير فى حين أنه لاوجود لحاكم يحكمهم، وما أكثر قضاتها فى حين أنه لا وجود لمن يقول الحق فيها، وما أكثر شهود الزور فيها، وما أكثر المعاندين فيها فى حين إنه لا وجود لمن يتفوه بكلمة طيبة، وجندها كثرة فى حين أنه ليس لهم ضابط، ويتملقون جندهم، وما أكثر القائمين على جباية الضرائب فى حين أنه لاوجود لمحاسب فى ضمير، وهذه العبارات أصبحت أمثالا تضرب فى مصر وهى تدور على ألسنة الناس.

والعجيب فى مقولة أوليا جلبي هذه أنها تتناقض بعض الشيء مع ما ذكره قبل ذلك فى رحلته، فبالنسبة للمرضى ذكر أن بها بيمارستانات وأنها تعالج المرضى مجانا، وعن قول الحق قال قبل ذلك أن مصر لا يضح فيها الحق «وأن بمصر إحقاقا للحق ليس له من وجود»، وأن بها جراحين لعملية ختان البنات والصبيان، كما أن كلامه ذلك كلام مطلق فليس من المعقول أنه لا يوجد واحد فقط يقول الحق أو واحد فقط يتكلم كلمة طيبة أو محاسب ذى ضمير، رغم أن أوليا جلبي ذكر فى فضائل أهل مصر ومحاسنهم كثيرا من الاخلاق الحميدة، التى أعجب هو بها وذكرها فى كتابه، مثل وقوفهم بجوار بعضهم البعض فى حالات الوفاة، والختان وغيرها من المناسبات الاجتماعية.

خاتمة

وخاتمة القول فى ذلك :

- ١- قدمت إلى المكتبة العربية شخصية رائدة فى مجال أدب الرحلات هو أوليا جلى، للمرة الأولى، ونشر هذا البحث معناه اهتمام الباحثين العرب به.
 - ٢- أوليا جلى: عالم ورحالة وأديب وصحفى وناقد. هذه نتيجة خرجت بها من دراسته. والمتداول عنه إنه مجرد رحالة.
 - ٣- كما أنه رجل إدارى.
 - ٤- أوليا جلى، مثل للثقافة الإسلامية بفروعها الثلاثة الأساس: العربية والفارسية والتركية العثمانية.
 - ٥- قدمت هذا البحث ليكون عوناً على دراسة رحالة أوليا جلى فى مصر التى تبلغ فى أصلها التركى ألف صفحة.
 - ٦- الشقة فى المؤرخ العثمانى الذى قدم لنا إحصائيات فاقت ما قدمه عظيم أدب الرحلات ابن بطوطة.
 - ٧- دراسة أوليا جلى، تؤدى بالضرورة، إلى الكشف عن عصر التنوير الإسلام فى مصر فى القرن السابع عشر الميلادى.
- والله الموفق

محمد حرب

الحمد لله وحده وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا ومولانا محمداً عبده وحييه ورسوله، وبعد..
 حمداً بلا حدٍّ ونساءً بلا عدٍّ، على الخلاق الباقي رب العباد، الذى أوجد كل ما فى هذا الوجود، وأنتم خلق كل ما فى السموات وما فى الأرض والليل والنهار مخاطباً إياها بقوله كن: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: ٣]، إن الله على كل شىء قدير.

خالق بلا نصب إله عظيم، خالق الأرض رب العرش العظيم.
 ذلك الصانع المصور القيوم، اقتضت حكمته الالهية وحسب علمه أن يأتى بحبيبه المصطفى إلى أديم هذه الأرض، وأن يُزَيِّن الأرض بينى آدم، وكما يزين الأرض بينى آدم، خلق من التراب بيد قدرته صفى البشر آدم، ونفخ فيه الروح من روحه، وجعله الكامل المكمل النبى وجعله حقيقاً بجواره وأدخله جنة الماوى، وآلف بينه وبين جميع الملائكة، ومثَّعه بالحرور والغلمان فشاهد جمال البارى دوغما واسطة وعلمه كلمات وكان له عند الله حسن القبول، وسجد لآدم جميع الملائكة المقربين ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وعلى حد قول المفسرين إنه سكن أرض الجنة العالية عامساً واحداً وعاش مع أمنا حواء أطيب العيش وفى نهاية الامر كان لا يُسئل عما يفعل، وبناء على مشيئة الله الالهية نهاه بتلك الآية الشريفة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وبعد النص القاطع صدر الامر القاطع لآدم فما ذاق آدم حبة من قمح سنين عدداً، ولكن بما أن العصيان مركور فى طبع الإنسان نسى ما أمره الله به وبإيعاز من أمنا حواء أكل حبة من قمح، فطرد آدم من مقره إلى الأرض فى جزيرة (سرنديل) من أرض الهند، أما أمنا حواء فاستبعدت إلى جدة، وبناء على قول المفسرين إن آدم وأمنا حواء بعد هبوطهما كانا يسيخان فى الأرض ويتجولان عريانين وعلى رأسهما التاج، وقد بلغ منهما الجوع مبلغه ومست حاجتهما إلى حبة قمح وهما يهيئان على وجهيهما.

- ٢ -

وبعد ذلك أهدت عصافير الجنة شعرة من لحية آدم إلى أمنا حواء، وأتت من شعر غدائر حواء لآدم عدة شعرات كالعنبر، فكانت طيور عصافير الجنة سبب لقائهما في عرفات، فتم التقاء آدم بحواء في عرفات، ولذلك سمي الجبل بـ «عرفات» وهو في اللغة العربية جبل (عرفه)، وباجتماعهما تم لهما الصفاء، ولذلك كان دعاؤهما لعصفور الجنة، فقال العصفور: حيال خدمتي لكما، لى عندكما رجاء، بما أن لحمي غاية في لذة طعمه، فإن كل الافاعي والدويات كثيرة الأرجل أعدائي، فلا أجد الذرية، لى رجاء أبسطه لديكما هو أن يكون عشي في داركما حيثما كستما، يا آدم أعطني من لحيتك شعرات، وعلى حواء كذلك أن تقدم عدة شعرات تمتزج بالطين وأصنع منها عشا في داركما ويسعد عيشي في ظلكما وتكون لى ذرية، فوقع رجاءه موقع القبول، فقدم آدم وحواء الشعرات إلى عصفور الجنة فخرمها في الطين وجعل العصفور عشه بناء صغيراً في دار آدم، وبسبب ذلك تعيش طيور عصافير الجنة في البيوت إلى يومنا هذا، والبيت الذي بناه آدم وحواء في أسفل جبل عرفات. ويسمون مطبخ آدم البيت الشريف، وهو الآن موضع يُزار، وقد عمر هذا البناء نوح - عليه السلام - بعد الطوفان، وهو مزار للحجيج.

وقد حملت أمنا حواء شتاء في عرفة، وقد أورد المؤرخون كثيراً من الروايات الأخرى، بينما كان آدم في عالم التجرد احتلم في منامه، فوقع منيّه على الأرض، وبعد عام ظهر منه (شيث) وأصبح مثل آدم مخلوق من التراب.

وفى قول أن وسط آدم انقبض فسقط منيّه على الأرض فخلق الله عشباً وانتشر هذا العشب في البنغال وإيرجيش وداوندو جبل الرهبان في بروسة وجبل البرز، إنه عشب من الجن منهم رجال ونساء وله شعر ولحية وهما من غريب خلق الخالق، وفى لسان العرب (بيروح الصنم وعبد السلام)، وبعض الأطباء يجعلون هذا العشب في المعاجين لتكون أدوية، إنه عشب مقو إلى حد بعيد.

ولما هبط آدم إلى الأرض نبت هذا العشب من منته، وإن قيل إنه ليس (شيث)، والقول الأرجح أنه هو، لأن شيث من آدم وحواء كما أن (شيث) لم يشترك مع بنت فى الرحم لأن آدم قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ {الاعراف: ٢٣}، باسطاً الرجاء إلى البارئ تعالى، طالباً لشيث حورية، وسرعان ما جاء جبريل الأمين بحورية لآدم، وقدمت زوجة (الشيث)، وفى ذلك العصر كان عقد النكاح كلمة (لا إله إلا الله آدم صفى الله)، ثم مضى (شيث) مع أنيسته إلى أرض حوران بالشام.

- ٣ -

وهناك مكث مدة من الزمن وهذه الحورية يخطئون فى تسميتها حوران، وهذا ما سلف ذكره فى مجلد سابق، وكان مقرهما الاول سرنديب والمقر الثانى جبل عرفات، أما مقرهما الثالث فمكة التى بلغاها بإذن من الله تعالى - واستوطناها.

ومن أجل ألفة وأنس آدم أنزل الله - تعالى - قصرًا من جنة المأوى إلى مكة واسم هذا القصر البيت المعمور، وفى رواية أنه كان من الياقوت الأحمر، وفى أخرى أنه كان من اللؤلؤ الأبيض، وبعد الطوفان بينما كان الله يرفعه إلى الجنة، انفصل عنه الحجر الأسود، وقيل إنه اسودّ من ماء الطوفان، وقيل فى إحدى الروايات، أنه اسودّ من مسح العصاة وجوههم عليه، ثم فرض رب العزة على آدم أن يطوف بالبيت المعمور هذا، وقد علّم جبريل الأمين آدم العبادة فيه ودام على تلك الحال طويلاً وهو يسكن مكة.

ويذهب المؤرخون إلى أن آدم كان له أربعون ألفًا من الولد وكان يطوّف فى كل عام أبناؤه حول البيت المعمور ويجعلهم يؤدون مناسك الحج، ولكن تأذت نفسه كثيراً لأن مكة أرض غير ذات ررع، فمضى إلى أرض مصر مؤتمراً بأمر الحق - تعالى - واستوطن شاطئ النيل، فمصر هى وطنه الرابع فاشتغل بالزراعة وتحصلت له وفرة من الغلال بحيث كان من كل حبة قمح مائة سنبله وفى كل سنبله مائة حبة. وفى البداية دعى آدم مع كل أبناؤه لمصر، ودعا لهم بلسان عبرى إذ إن آدم حين هبوطه من الجنة نسى لغته العربية التى كان يتحدث بها فى الجنة بسبب عصيانه، فعلمه جبريل الأمين كلمات

عبرية، أما دعاؤه لمصر والذي أخذته عن التواريخ القبطية فسوف نكتبه فى مجموعتنا تلك.

دعاء سيدنا آدم - عليه السلام - صلى الله فى حق مصر باللغة العبرية:
اللهم احفظ إيمانى من الشيطان ونجنى، ونجنى ولتكن جميع الملائكة فى خدمتى،
واعطنى القمح لاصنع الخبز. اللهم اجعل هذا البلد عامراً لابنائى بعد مماتى.
قال سيدنا آدم هذا الدعاء فى حق مصر بلسان عبرى على وزن مفتعلن مفتعلن،
ولقد أصبحت جميع الديار معمورة أبداً منذ ذلك اليوم وحتى الآن. والمدينة الواحدة
نصف الدنيا، وأصبحت مصر معمورة منذ أول الخلق وسوف نبين ولاية مصر وملوكها
منذ هبوط آدم وكيفية حكمهم وتصريفهم لأمورها حتى يومنا هذا ومدة حكمهم
وأعمارهم.

ذكر أوصاف أقدم البلاد وأعظم المدن

مصر المحروسة

نادرة الزمان أم الدنيا: القاهرة المعزية،

حفظها الله من الآفات السماوية والأرضية

دخلت أنا أوليا الحقير سياح العالم، وتديم آدم، مصر فى السابع من صفر عام ثلاثة
وثمانين وألف فوجدت داخلها وخارجها ما عجبت له كل العجب، ذلك أن ما فيها من
عجائب وغرائب الأبنية ليس له من وجود فى ديار سواها، وبينما كنت أبحث عن أقام
تلك الأبنية ذات الطلاسم وتلك القصور العالية رجعت إلى ما لا يحده الحصر من
التواريخ القيمة وهذا بيان بعناوينها:

- أسماء تواريخ مصر وغيرها من الكتب النادرة:

أولاً: تاريخ المقرئى: وهو كتاب عظيم القيمة مشهود له بصحته التاريخية وهو
مستمد من كتب قبطية وسريانية ودهلوية ومغولية ولاتينية ويونانية تلقاه الخاص والعام
بقبول حسن.

وتاريخ ابن جرير الطبرى، صاحب التفسير القديم: وهو تاريخ نفيس.

تاريخ الشيخ الإمام السيوطى: وهو تاريخ له ما له من عظيم قيمته.

وتاريخ صابية وكتاب فتوحات مصر لابن عبد الحليم.

وكتاب فضائل مصر لابن عبد الكندى.

وكتاب ابن زولا.

وكتاب خطط القضاة.

وكتاب إيقاض المتفضل وهو مختصر للشيخ نصر الدين الكرمانى.

وكتاب مباهج الفكر ومناهج العبر.

وكتاب عوان عنوان السير محمد بن عبد الملك الهمدانى.

وتاريخ الصحابة.

وتاريخ التجريد فى الصحابة للذهبي.

وكتاب المختصر للشيخ نصر الدين الكرمانى .
وكتاب الإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر .
وكتاب الرجال العشرة للحسينى .

وكتاب طبقات الحفاظ للذهبى ، وكتاب طبقات الشافعية لابن السبكى ، وكتاب طبقات المالكية لابن ترخون^(١) ، وكتاب طبقات الحنفية لابن دقماق ، وكتاب مرآة الزمان لابن الجوزى ، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير ، وكتاب إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر ، وكتاب الطالع السعيد فى تاريخ الصعيد لكمال الإدفوى ، وكتاب السكردان لابن حجلة ، وكتاب سجع النهر نيل فى أوصاف نهر النيل ، وكتاب ثمار الأوراق لابن حجة ، وتواريخ الشهاب جليى ترجمة لكتاب «حسن المحاضرة» للشيخ السيوطى ، وعلاوة على تلك الكتب السالف ذكرها ، قرأت كثرة من الكتب والدواوين فى مصر وأدرجت فى رحلتى هذه ما تنبغى معرفته من قواطع الأدلة وأوصاف الرواة والحوادث ، وقسمت تاريخ مصر منذ هبوط آدم إلى يومنا هذا ، وتجرأت على كتابة هذا «وبه نستعين وبالله التوفيق» .

(١) فى الأصل : مرحون .

الفصل الأول

فى وصف فسطاط مصر بالقرب من جبل المقطم

بعد هبوط آدم أبو البشر وصفى الله اهتدى إلى مصر ووطأها قدمه، وهى أول ما استوطن آدم أبو البشر وابنه شيث، وكذلك أبناؤه وقينان ومهلثل وهو النبى هود، وابنه اخنوخ وهو هرمس وفى العبرية اخنوخ، أى إدريس، وكان يقال عنه فى لغة أهل الجنة من الملائكة اخنوخ هرمس، وسموه بهذا الاسم لانه كان يدرس العلم لبنى آدم والملائكة فكان يقال إدريس النبى، أما مهلائل فكان كاهن العصر فى علم النجوم وقد بدأ ذبوع علم النجوم بفضلله، أما فى عهد (شيث) فكانوا يسكنون فى الكهوف ولقد شاهدت فى ديار مصر هذه الكهوف وهى تسع جند آل عثمان، أما فى عهد (شيث) فكانوا يسمون أرض مصر (ايلون) وفى مصر ولد اخنوخ وإدريس، وأصبح سياح العالم وتعلم علم النجوم على يد مهلائل، وتعلم علم الكتاب من جبريل وعلم الحياكة بتمامه، وفى الأربعين من عمره جاءت النبوة فى مدينة (أسوان)، وأصبح نبياً لقومه، وأقام على ساحل النيل مائة وأربعين مدينة وكانت له البراعة فى علم الهندسة، والمهارة فى علم النجوم وشاع عنه أنه يعرف كل غريب وعجيب فى جميع العلوم، والمدن التى أقامها إدريس النبى على شاطئ النيل هى الآن مدن عامرة، وفى أرض الجزيرة المواجهة لفسطاط مصر هرمان بناهما «سوريد» الحكيم بفضل علم إدريس وحفظ فى الهرمين جميع الكتب والكنوز لعلمه وقوع الطوفان، وبعد وفاة آدم وإدريس أصبح هذان الهرمان كعبة للنصابة يحجونها فى كل عام. وكان الرجال يحجونها من الجهة الشمالية أما الجهة الجنوبية فكانت خاصة بالنساء، ولما كان آدم - عليه السلام - على قيد الحياة كان جميع أبناؤه يمشون من مصر إلى البيت المعمور ويطوفون حول الكعبة الشريفة حجاً، كما كانوا حيناً يقدمون إلى مصر وحيناً آخر يمشون إلى الشام إلى موضع قريب من «حوران»، وهناك يسكنون وجاء فى تواريخ الصابئة أن إدريس كان له فى علم الكتاب اليد الطولى والقدم الراسخة، وكانت له معرفة بكل ما فى الوجود، ويحرر جميع الوقائع فى يوميات

ويحفظها في جبال الأهرام، واقتضت حكمة الله أن ينقضى زمان «ثيث» ويوافيه الأجل.

ويقال إن إدريس دفنه في جبل الأهرام، كما كان الملك «مصرام» والملك «بيطار» بن حام بن نوح - عليه السلام - وهما ملكان قديمان، مدفونين كذلك في الأهرام، وكان من أبناء «ثيث» الملك «نقراوش» كاهن العصر وقد شيد في مصر مدينة عظيمة سماها «أمسوس» وأمسوس في العبرية بمعنى المدينة الحديدية وسمى القبط هذه المدينة الفسطاط وقد عمرت ورمت بعد الطوفان وسميت «مصرام» ولذلك تسمى الآن مصر وفي اللغة اليونانية تسمى «مقدونية» وفي العبرية «زراييت» أما في العربية فاسمها «القاهرة المعزية»؛ ذلك أنه عام خمسمائة وخمسة وسبعين كان السلطان معز الدين ملكاً للمغرب، وكان سلطان مصر سلطان الإخشيديين واستأذن الملك معز الدين من ملك الإخشيديين في إقامة جامع في مصر، فأرسل من يسمى «قائد أزر» وهو مملوك عربي، ومال في ألف خزانة، وخمسين ألف نجار وبناء وعامل وحمال ومعهم العدة والعتاد، والعبد المسمى «أزر» تولى أمر بناء الأزر الذي تم بعد سبعة أعوام، وانطلق معز الدين سلطان المغرب إلى مصر وأغار عليها ليلاً، كما أن جنده ادعوا أنهم إنما قدموا من المغرب إلى مصر لبناء جامع الأزر، واستولوا على مصر من يد أحمد بن علي سلطان الإخشيديين جبراً وقهراً، وأقام مصر الحديثة، لذا يقال لمصر «مصر المعزية»، ولذلك فأهل مصر جميعاً يتسمون إما ب«قهار» أو ب«قايض» على أنهم ينقبضون على رجال الله، وتسمى مصر «أم الدنيا»^(١).

أما نقراوش، هو الذي عمر مصر أي «أمسوس» بعد آدم ويمتد عمرانها مسيرة ثلاثة أيام، و«نقراوش» هذا ملك مصر مائة وثمانين عاماً، ولما زایل الدنيا الفانية دفن في جبل الهرميين، وخلّفه ملكاً على مصر ابنه «نقراش»، وقد كان مثل جده سيادة وكمالاً وعلماً.

(١) يأتي سبب تسميتها بذلك في الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب.

وأقام بعض المدن فى الواحات، ولما مات دفن فى جبل الأهرام وكان مُلك مصر بعده لآخيه.. مصرايم بن نقراوش.. وكان حكيماً كاهناً ساحراً، ومن جملة علمه أنه كان يسخر الأسود، وكانت الجن والأسود يحملون سرير ملكه، ولما أدركه الموت دفن فى الأهرام.

وملك مصر بعده من يسمى «عبقام» وهو من ذوى قرياء، وقد أقام العدل فى الناس، وفى عهده رُفع إدريس فى أسوان إلى السماء، ولقد أخذ الحزن والألم الصابئة لعروج إدريس فى السماء فأظهروا الفرع والجزع وانتحبوا فكفوا عن العبادات والطاعات. وتمثل إبليس اللعين فى صورة إنسان وادعى للناس أن صورته من الله وقال لهم سائلاً: يا قوم ما لكم تبكون وتأخذكم شديد الأسى؟ وحكى قوم إدريس ما جرى من نقل إدريس، وفى التو قال إبليس: يا قوم لا تحزنوا سأحضر لكم صورة إدريس وعلى كل منكم أن يحتفظ بصورة فى داره، وفى كل يوم تشاهدون هذه الصورة كأنكم شاهدتم إدريس وهذا عزاء لكم. فصنع لهم صورة إدريس وحفظوها فى ديارهم، وكلما شاهدوها ذهب عنهم الحزن ونعموا بالسلى.

وبعد موت الصابئة رأى أحفاد أحفادهم صورة إدريس فى دارهم وقد توارثوها عنهم فزادت محبتهم لها، وشرعوا يعبدونها وهذا أول عهد الصابئة بعبادة الأصنام، وبقيت فيهم من قوم إدريس ومات كذلك الملك «عبقام» الذى كان فى عصر إدريس وخلفه «عرياق»، وكان هاروت وماروت مصلوبان من قدميهما على مدخل غار فى مدينة بابل وسماع قصتهما يثير الفزع، وأوصاف هذين الملكين مسطورة فى كتاب ابن جرير الطبرى، ثم كانت وفاة «عرياق» وأفضى الملك من بعده لابنه «الوخيم» وهو الذى أقام مدينة «شرق أخميم» شيد سبعمائة دير ومات.

وجاء بعده ابنه «خُصيليم» وعُمّر سبعمائة سنة وهو أول من أنشأ مدينة «أسوان» على شاطئ النيل، كما أنه أقام فى تلك المدينة أول مقياس وهذا يعنى أن مصر هى أيضاً أم علم القياس، وتأسيساً على علم الهندسة كذلك الترع فى جميع أراضى مصر، وأجرى ماء النيل إلى كل زقاق فى مصر، وروى أرض مصر فزادت محاصيلها وبطن كل الترع

بالرخام السَّمَاقَى والمرمر الخام، وأقام السدود على جانبي نهر النيل، وشيد المدن وأوصل النيل إلى بلاد النوبة، وأمر بحفر اثنتي عشرة عيناً، وأنشأ جسراً عظيماً وآثارها اليوم ظاهرة باهرة ووُلِدَ نوح - عليه السلام - في عهد الملك «حُصْلِيم» هذا، وتكاثر عدد الناس في هذا العهد حتى ازدحمت الأرض بهم إلى حد أنه لم يبق موضع فيها لزراعته، وأصاب الناس القحط واشتد الغلاء فعمد الناس جميعاً إلى صيد السمك من الأنهار والبحار، وبذلك عاشوا في كفاف. ومات «حُصْلِيم» وأصبح المُلْك من بعده للملك «ترسان ابن هوسال» ولما جاءت نوح النبوة وهو في الأربعين من عمره، آمن به «ترسان»، ثم جاء بعده الملك «شَرِيَّاق» ثم ولده الملك «شهلوق» ثم ابنه الملك «سوريد»، وكان جباراً في الأرض ظلوماً وهو أول من فرض الخراج على الرعية.

وبنى الأهرام الكبيرة الواقعة إلى جانب .. بنى سوف .. ولذا تسمى الأهرام أهرام سوريد، وفي حجر منها تاريخ مسطور بالعبرية، ثم جاء بعده ولده «افروس» ومات ودفن إلى جانب أبيه، ثم كان المُلْك لابن عمه «فرغان»، ووقع الطوفان في عصره وكان أول القيامة، وبطل كل علم السحر ومحيت كل العجائب والغرائب والطلاسم والمخطوطات العربية (١) تفجرت الجبال والتي تحمل المعادن والكنوز في داخلها عيون من الماء وتفجرت الأنهار من الجبال وتلاطمت الأمواج كأمواج البحر وصعد منها العجيج ودام الحال على ذلك أربعين يوماً وليلة فظهرت جميع المعادن والكنوز المخفية فتغير وجه الأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ {فاطر: ١}، وعند الطوفان كانت سفينة نوح راسية بجانب جبل الجودي بالقرب من الموصل، وبمناسبة نجاتهم يوم عاشوراء صنع قدراً ووضع فيها طعام عاشوراء فأصاب الناس جميعاً من هذا الطعام، فشكروا له، وإن طهو طعام عاشوراء هذا سنة لنوح وهو آدم الثاني، ويجب أن تكون موضع اعتبار، وثمة دليل قاطع على نجاة من الطوفان على هذا الجبل، فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ {هود: ٤٤}، وتلك آية نزلت على حبيب الرحمن، وبعد نجاة

(١) يياض في الاصل.

نوح بسفيته على جبل الجودي وهى أرض مباركة، سكن فيها، وبعد الطوفان شيد نوح مدينة الجودي وهى الآن بلدة صغيرة فى قمة جبل الجودي بالقرب من الموصل.

وبعد ذلك بعث ييظرى بن حام إلى مصر، وبنى مدينة العريش فى أرض حاسان القرية من مصر، ثم بنى مدينة بليس، وقد عمرت تلك المنطقة أيضاً بعد الطوفان ومعروف أنه دُفن فيها سبعة عشر نبياً، ثم بعد ذلك جاء ييظرى إلى مصر وأنشأ مدينة أمسوس القديمة التى هى مصر فصارت معمورة ثم بنى مدينة منوف، وقد بنى سام بن نوح الشام وفلسطين والقدس، وقد اطلعت على كتب التاريخ ومنها كتاب المقرزى القيم، إنه واسع العلم بالعربية والسريانية والقبطية واليونانية وكأنه فى كثرة سياحاته فيثاغورث، وقد تحدث عن أول من بنى مصر القديمة وكان ما قاله صحيحاً، وهو القائل إن آدم استوطن مصر ثم أمره الله بالتوجه إلى الشام، وكان «الشيث» ولد اسمه (غريب)، وابنه «نقراوش»، وكان نقراوش هذا من النجباء الراشدين متطوعاً فى جميع العلوم، وقد أحب آدم نقراوش هذا وسماه «مصريم»، وأمره بتعمير مصر، ومضى آدم إلى الشام، لزراعتها، ومن أسرة «نقراوش» هذا سبعون غادروا الديار فراراً من ظلم «قاييل»، وكما يجدوا لهم موطنًا قطعوا المراحل وطووا المنازل إلى أن بلغوا فى مصر جبل «غداس»، فطاب لهم هواؤه، فآلقوا عصى التسيار، واستوطنوا، ولأن جددهم آدم تجول كثيراً فى مصر إلا أنه لم يقم فيها أثراً له، وفى ذلك العهد كانوا يسكنون الاكواخ، أما «نقراوش» المسمى «مصريم» فكانت له فى مصر ذرية، فكان صاحب عشائر كثيرة وكان يشيد المدن والأبنية، وفى كل عام اعتاد أن يزور جده آدم فى الشام وحوران وبصرى ويدعو له، وسماه آدم ملك مصريم، وسماه الملك فى اللغة العبرية، وكان له الملك مائة وثمانية عشر عاماً، وحكم جميع العشائر، وقد عمر وكان جباراً عتياً، وتعلم من أخيه الأكبر «زرايل» من عجائب وغرائب العلوم، واستخرج من جوف الأرض كثيراً من الكنوز، وأمر قومه جميعاً أن يجمعوا من الجبال الأحجار، ومن هذه الأحجار بنى مدينة فى موضع الخيام تسمى «أمسوس» وهى الآن على ساحل النيل تعرف بمصر القديمة، ويسمىها القبط الفسطاط، ولقد أصبحت مدينة معمورة عظيمة إلى

عهد الطوفان، وهى الآن كذلك مدينة عتيقة والأحجار التى فيها كبيرة، كأنها أحجار الهرمين، وطول الحجر عشرون وعرضه خمسة عشر ذراعاً.

وفى الأبنية الأثرية حجارة كثيرة كأنها الهرمان، وكل حجر يبلغ فى الطول والعرض عشرين وخمسة عشر ذراعاً، وقد رأها بعضهم، فقالوا إنها من بناء الجن، لأن بنى الإنسان لا يقدر على حمل هذه الأحجار، أما من يعارضون فى هذا فليس لديهم من خبر ولا علم، فما وجد بعد هبوط آدم من الناس من له مثل هذه القوة، وكان طول كل إنسان مائة ذراع، أما الآن فلا يتجاوز طول الإنسان ذراعين أو ثلاثة أذرع، ولكن بواسطة آلات الرفع يستطيع أن يرفع جبل (بيستون) ويستطيع نقله من مكان إلى آخر، ومن يعارض فى ذلك لا علم له ولا خبر لديه عن علم جر الانتقال، ولعلم أيضاً أن (همة الرجال تقلع الجبال).

وفى مدينة (أمسوس) خلق كثير، وقد حشد الملك (مصرام) جيوشاً جرارة وأراد الانتقام من (قاييل)، فانطلق إلى الشام، كما أن (قاييل) جيشاً عظيماً إلى فلسطين وقد عسكر فى مدينة الرملة، وقد اجتمع الجيشان وخاضا حرباً ضروس، وقتل «هايل» من رجال «قاييل» مائة ألف إنسان، وإن قاييل هو الذى ناشب (مصرام) هذه الحرب وبما أن هذه الحرب وقعت فى صحراء الرملة. يسمونها فى العبرية فلسطين، وقد ألحق مصرام الهزيمة بقاييل وغنم أموالاً وغانم كثيرة وصلت مصر، وبهذه الأموال التى غنمها قسم النيل إلى فروع، وشق السرى والخلجان فروى الصحراء والحقول، وزرعها، وكان النيل يجرى وله فرع إلى بلاد النوبة، وآخر إلى بحر السويس، وفرع يجرى إلى المغرب فى أرض بنى هلال ويصب فى خليج (كبرت)، ولكن بفضل علم مصرام بالهندسة ارتفعت كل أرض فكانت تنقسم إلى خلجان وبذلك كان يجرى النيل إلى الأراضى التى يريد رباها.

* وبنى مصرام الهرمين التى فى مواجهة مصر، وأنشأ لنفسه مرقداً ومخزناً لكنوز الفرعون الكثيرة وبعد أن عمر مصرام سبعمائة وخمسة عشر عاماً انطوى كتاب عمره،

وجعل الهرمين مقبرة له، ودفنوا معه أمواله ومن عهد الطوفان إلى اليوم لم ينقطع نسله، وكان لذريته مُلك مصر، ومُلك مصر من ذرية نقراوش سبعون ملكًا.

وفى زمن الطوفان بناء على ما سلف ذكره كان للملك (لفرغان)، وإن نقراوش المذكور وهو من أبناء مصرام كان له كاهن يسمى (قليمون) وله طول الباع فى شتى العلوم، حتى إنه استطاع بغزارة علمه أن يتنبأ بوقوع الطوفان على أنه غضب من الله، وقبل الطوفان زایل جده وطنه مصر ومضى ليكون إلى جوار نوح فى الكوفة، فشفرف بالإيمان، وسكن العراق مع أهله وعشيرته.

وكان بعد ذلك لنوح ابن يسمى «حام»، وكان لحام ابن يسمى (بيطار)، وقد زوج قليمون الكاهن ابنته بيطار، وبذلك تمت القرابة بنوح، ولما حل زمان الطوفان، ركب نوح وجميع من معه السفينة، ونجى من الطوفان، واستوت على الجودى بعد أربعين يومًا، وبعد الطوفان عمر نوح مدينة الجودى، وهى الآن قصبة الجودى، وتلقى قليمون الكاهن وصهره بيطار الأمر من (نوح) بالتوجه إلى إسوس التى بناها جده مصرام، وهى مصر القديمة، وبعد قطع المنازل وطى المراحل كانت نجاتهما من الغرق، وجعل بيطار يبحث عن طريق، ونزلا بمكان بالقرب من مصر يسمى العريش وأقاما فيه، والعريش فى اللغة العبرية بمعنى المقر أو المستقر.

وكانت قد غرقت فى طوفان الغضب، وجلسا يستريحان فى ظل شجرة، واقتضت حكمة الله - تعالى - أن يكون لبيطار هذا من ابنة الكاهن قليمون التى تسمى (زوزة) ولد وسمى كذلك مصرام، وكان مصرام بن بيطار هو أول مولود ولد بعد الطوفان، وأقاموا الأفرح فى العريش، وبما أن ظل الشجرة موضع مبارك زينوا الشجرة بالثياب وانطلقا إلى بلييس واستطابا جوها ومكثا فيها، وقبل الطوفان كانت بلييس مدينة السحرة، ووجدوها خرابًا وبعد ذلك مضوا إلى أرض مصر ولكنهم لم يجدوا فى مدينة أمسوس التى بناها مصرام أثرًا بعد الطوفان إلا ما فى مواجهة النيل من أهرام بناها إدريس للتعليم، ولكى ينجوا من الطوفان دخلها ففرق كل متاعهما فقالا لنبحث لنا عن وطن آخر، فمضيا فى سفينة إلى منف ووجدا فيها مكانًا طيب الهواء، وبجانبيها

جزيرة جميلة فى النيل، فمكثنا هناك وسكننا أكواخًا وخيامًا، وعلى مر الأيام كانت لهما ذرية وتحصل لهما مال جزيل من الزراعة؛ وكان وطنًا كثير الخيرات والبركات، وهناك أقاما بليدة صغيرة، وسموها منوف، ومعنى منوف فى اللغة العبرية (مكان المتعة).

وكانت منوف هى القرية الثانية التى تم بناؤها بعد قرية الجودى التى بناها نوح - عليه السلام - على جبل الجودى بالقرب من الموصل حيث رست سفينته بعد الطوفان، وقد عاش فيها بيطار عمراً طويلاً، ومنوف مدينة عظيمة وبإيعاز من قليمون الكاهن صحب بيطار أهل بيته معه إلى «أمسوس» التى بناها جده وعمر قليمون مصر العتيقة التى بناها أجداده، وعمر قليمون الكاهن ألف سنة ودفن فى الهرمين إلى جانب مصرايم وكان قليمون هذا هو أول من مات بعد الطوفان، ودفن فى الهرمين إلى جانب مصرايم، وهو الذى أقام فى مصر مدينة الواح.

الفصل الثانى

بيان من ملوك مصر بعد الطوفان

بعد نجا بيطار بن حام بن نوح من الطوفان أذن له نوح بالذهاب إلى مصر بصحبة حماه الكاهن قليمون، فدعى نوح لبيطار بالآل ينقطع نسله وأن يكون ملك مصر له، وأن يعمر طويلاً، ويجد سعادة الدارين، فكان هذا دعاء له بالخير، وقدم بيطار أرض مصر وبني مدينة متوف، وجلس على العرش، ويطلق علماء التاريخ على بيطار هذا أبو القباطية، وكان له ثلاثون من الولد، ومصريايم أول من ولد له عندما قدم مصر فى العرش، وهو أعلم وأعقل أبناء بيطار الثلاثين، وعلمه جده قليمون الكاهن كثيراً من العلوم العجيبة، حتى أصبح فريد دهره، ودله قليمون على جميع الكنوز التى فى مصر، وعمر بيطار بعد والده مصريايم ثمانمائة وخمسين سنة ولما توفى دفنوه فى الهرم الكبير بجوار حماه قليمون الكاهن، وجعلوا الخلافة من بعده لمصريايم الذى ولد فى العرش، فاستقل بالملك، وبلغ إسنأ وأسوان والسودان وبلاد القوغة «فونجستان» وأصبح ملكاً نافذ الحكم، وورع ثلاثين من إخوته على أقاليم مصر، وحكم كل منهم إقليمًا وشيد فيه مدينة، ويفضل دعاء نوح كان لهذه المدن أسماء أبناء بيطار للذكرى، فمثلاً كان لبيطار ابن اسمه رشيد فسميت مدينة رشيد باسمه، وكذلك دمياط باسم دمياط، وكذلك اسكندر باسم اسكندر، كما أن منهم تينه وسيف الذى شيد مدينة بنى سويف، ومنهم من يسمى مينا الذى أقام مدينة المنيا، والشأن كذلك فى أشمون، وأسيوط، وجرجة، وقنا، وقوص، وإسنأ، وأسوان، وشلال وإبريم وصاى وحلفا وسنارة والسودان. فكل أمير من هؤلاء الأمراء شيد مدينة وإلى اليوم هذه المدن عامرة على ساحل النيل.

وكانت مهمتهم فى تلك المدن مهمة الحكام، أما أخوهم الأكبر مصريايم فهو ملك العالم وقد ولدته أمه فى العرش ومضت به إلى ظل شجرة وكسته من أوراق هذه الشجرة وزينت الأشجار بأحجار ثمينة، وجرياً على العادة عبدت الله تحت هذه الشجرة وبنت مدينة عظيمة بالقرب من تلك الشجرة واسمها (درسان) ومعناها فى العبرية (باب

الجنة)، وبينما كان مصرياً في طريقه من غزة إلى مصر ظهرت على يَمَنَة طريقه آثار كثير من الأبنية، وعندما هدم بخت نصر مصر انهدمت كذلك مدينة درسان. ومن الملوك الذين ملكوا مصر بعد ذلك يوسف صلاح الدين، والسلطان قايتباي، ولقد أقاما جامعاً وقلاعاً من أحجار ورخام درسان، وعمرا مصر، وابن مصرياً باني هذه المدينة مدفون في قبر على القبة، قبته غمس الفلك علواً، وقد تخربت هذه المدينة، أما سبب عمران هذه القبة فهو أن جميع القبط يزورونها ويعمرونها ويرمونها واسمه قبطم بن بيطار بن حام بن نوح - عليه السلام -، أما مصرياً فقد عُمر سبعمئة عام وبذل الجهد في إعمار مصر كأنها صرح شامخ، وكان له مائتان من الولد وكثرت لأولاده ولإخوتهم الثلاثين الذرية، حتى أصبح إقليم مصر بحراً من بني آدم، وكانوا جميعاً على دين جدهم نوح - عليه السلام -، وأولاد مصرياً هذا استقل كل منهم بحكم إقليم وبعد أن عاش مصرياً سبعمئة عام وقع تحت حكم قوله - تعالى -: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٨]، ودفن مصرياً مع أبيه بيطار في الهرمين إلى جانب سوريد بانيهما قبل الطوفان، وفي ذلك العهد كان يزور الهرمين عوام الناس وخواصهم لأن الملوك قاطبة كانوا يدفنون فيها، كما كانوا إلى عهد إبراهيم - عليه السلام - يطوفون حولها كالطواف حول الكعبة، ولكن أصبح الملك من بعد في مدينة درسان لقبطم، وهو من أم قبطية، وفي درسان التي أقامها أبوه مصرياً بدأ يعبد الله تحت الشجرة التي ولد في ظلها، وبدأت عبادة الشجرة بقبطم، وقد ارتد عن دين جده نوح، ووقعت الفقرة بين إخوته وعمومته الثلاثين، وابتدع كل منهم له مذهباً، وأخذ ابن مصرياً له مذهب عن قبطم، وذاعت له الشهرة وأصبح ملكاً عظيماً، وجميع القبط من نسله، وبقيت تواريخ القبط منه، ومن نسل إدريس عالم أحاط بكل العلوم وكتب تواريخ القبط (فليس لتواريخ القبط أصل ونشأة، لأنه بعد هبوط آدم وبفضل إدريس انتشر علم الكتابة وعلم الحساب وعلم النجوم، وقد تيسرت تلك العلوم لقوم القبابطة، إنهم لا يشبهون قوماً آخرين، والآن^(١) في مصر كل أرباب الدولة في حاجة إليهم، فليس لهم من نظير

(١) على عهد الكاتب.

فى علم الحساب والفراصة والتخطيط، حتى إن أعيان مصر يعتقدون أنهم أهلهم، وأن جميع حوائجهم ولوازمهم منهم، إنهم قوم يتقنون الحساب، فهم يحسبون كل (دائق) ينفق، ويقيدون، ولا وجود لهم إلا فى ديار مصر، ويقول هؤلاء القوم إن الملك قبطم (نبى)، وأما الآن فهم على دين المسيح - عليه السلام -، وهم قوم مدققون كثيراً فى أكلهم وشربهم، ويقولون فى جميع الأوقات نحن قبط.

وتقول تواريخ الصابئة إن سيدنا هود ولد فى عهد قبطم بمدينة (ثمود)، ومن عهد آدم إلى عهد قبطم كان الناس يتكلمون بالعبرية، ولكون قبطم متضلعا فى شتى العلوم شاعت فى عهده لغات مختلفة، وقد ألهم الله قبطم الفصاحة فى اللغة القبطية، وظل قبطم ملكا لمدة أربعمئة وثمانين عاما، وأدركه الموت ودفن فى جبل الهرمين إلى جانب أبيه مصرايم، ثم ملك بعده أخوه (أشمون)، وأشمونين مدينتان وهو بانيهما، وأشمون فى العبرية بمعنى ملك له صفة الثور حامل الأرض ولهذا السبب كانت الثيران غاية فى الكثرة بتلك المدينة، ومن المشهور بين عرب مصر أن الإنسان الأبله يشبه بثور أشمون، ويجرى هذا مجرى المثل، إلا أن هذه المدينة ليست عامرة، وفى وقتنا هذا قراها عامرة، ومات أشمون، فملك أخوه أتريب، ومات كذلك، وخلفه صاى وبينما كان يصيد فى بلاد الفونجة قتله فيل، وقد كان ملكا غاية فى النجدة والبسالة، وهو الذى شيد مدينة صاى الحالية^(١) وقلعتها على حدود مصر وبلاد الفونجة، وأفضى الملك من بعده إلى تدارس بن صاى، وولد صالح - عليه السلام - فى عهد تدارس هذا، ومات وتولى بعده ابنه مالىق، إلا أنه لم يعمر إلا مائتى سنة، ولم يعقب فكان الملك لآخيه (خربت) بن قبطم، وانقضى عمره.

فكان الملك لولده (كلكن)، ولم يعقب كذلك، فخلفه فى الملك أخوه (ملكباية) بن خربتا وقد شيد فى بلاد النوبة كثيرا من المدن، ولما فارق الدنيا أصبح ابنه طوطيس ملكا وكان طاغية جبارا.

(١) على عهد الكاتب.

● حكاية ●

قدم إبراهيم - عليه السلام - في عهد طوطيس إلى مصر مع أمنا سارة فَمَدَّ طوطيس يده إليها، فَجَعَت يده بأمر الله - تعالى -، ولكن دعا له إبراهيم ربه، فشفيت يده إلا أنه لم يستطع كبح جماح نفسه الأمارة ووضع يده على أمنا سارة فأصبحت يدها قديداً، ولكن إبراهيم عفا عنه ثانية ودعى له، فعادت يدها إلى ما كانت عليه من قبل، وفي التور رفع طوطيس أصبع الشهادة قائلاً: «لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله»، ودخل في الإسلام وزوج إبراهيم من أمنا هاجر وولد من هاجر القبطية سيدنا إسماعيل، وثم قدم طوطيس إلى إبراهيم ما لا يحصى كثرة من الهدايا، وأرسل إبراهيم إلى مدينة جدة على بحر السويس، ثم شق طوطيس الجبال الواقعة في مقابل مدينة بنى سويف لفرط محبته لإبراهيم، وأجرى النيل إلى بحر السويس بمقدار مسيرة ثلاثة أيام، فأرسل كثيراً من السفن في النيل إلى السويس، وكانت له مكة، وعاش مائتي عام ودام له الملك مائة وثمانين عاماً، وملك الدنيا من أقصاها إلى أقصاها، ودفنوه في الهرمين إلى جانب أبيه خريسا، وأصبحت ابنته (خرويا) ملكة من بعده (خرويا) بنت طوطيس هي الملكة الأولى على هذه الأرض، ودام الملك لها سبعين عاماً وهي على ملة إبراهيم، ثم ماتت ثم كان الملك من بعدها لابنة عمها (زآلقا)^(١)، إلا أنها تعاطت السحر كثيراً، ودفنت إلى جانب أبيها (مأموم)، ويقول القباضة الآن إنها زوجة نبي، وهذا اعتقاد باطل، ولها ضريح يزار في مدينة (بهنيا) واستخدمت السحر على أنها تصنع به المعجزات، وكتب عنها القبط في تواريخهم، ولكن لله من الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي وليس فيهم أحد من النساء، وامتد بزايقا العمر طويلاً، وكثر عدد القبط في عصرها إلى حد أنهم انتشروا في أقاليم مصر كلها، وإلى وقوع الطوفان، ومن يبطار بن حام بن نوح إلى عهد رليخة حكم مائتان وأربعون ألف ملك، ودامت دولهم ألفي عام وستة وفي عصر راليقا ظهر بنو (العمالقة)، وألحقوا الهزائم بجند مصر وكان لهم ملكها.

(١) وتاريخها: رليخة.

الفصل الثالث

فى ذكر أحوال أهل العمالة

(عَمَلَق) من أبناء العماليق، وكان وليد بن (إيدوس) أحد ملوكهم عنيذا ذا بأس وشدة، طمع فى الاستيلاء على مصر من حورة القباطة لعمرائها، فجيش جيشاً عظيماً كأنه موج البحر، اتجه به إلى مصر وخاض حرباً ضروساً مع جيش (رَأَلَقا) بنت (ماموم)، وفى النهاية لم يكن للقبط طاقة بالعمالة فلحقت بهم الكسرة، وانهزموا أمام جيش الوليد، وحكم وليد قرناً من الزمان، ووقف مصر على كنيسة آيا صوفيا، وكان حاكماً ظلوماً غشوماً، فسلط الله عليه أسداً هصره وأكله، فأمن أهل مصر شروره، وكان ضخماً الجسم يعبد الشجر، تزن سنّه ثمانية عشر رطلاً، وكان العمالة هكذا قومًا ضخام الأجسام.

وملك بعده ابنه رِيَّان، وفى تاريخ الصابئة أن رِيَّان هذا كان فرعون يوسف، ويسمى الكافر من الملوك فرعون، والجمع فراعنة، واختار رِيَّان ركن العزلة لنفسه، فخلفه فى الملك يوسف الصديق، وعُمّر مائة من الأعوام، وزان الدنيا بعدله وعمر مصر.

الفصل الرابع

بيان تشييد يوسف الصديق لمدينة الفيوم

وحضره لبحيرة يوسف بإذن الله . تعالى .

جاء فى تاريخ الشيخ السيوطى - رحمه الله - : أن يوسف كان عبداً مملوكاً لعزير مصر قبل أن يشب فتى يافعاً، وقيل افتراءً على يوسف أنه يعشق رليخة (امراة العزيز) وتعشفه، فألقى الملك ريان يوسف فى السجن بمدينة الجيزة، وقد نزلت هذه الآية الشريفة على الرسول الكريم ﷺ على سبيل القصص: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ﴾ [يوسف: ٣٦]، وهذا السجن يقع الآن فى منطقة الجيزة فى مواجهة مصر القديمة وبالقرب من جامع بوسير، وفى هذا الجامع يوجد كذلك الصندوق الذى وضعت فيه أم موسى ولدها من خشية فرعون وألقته فى النيل، وتخلص يوسف من هذا السجن ببركة صدقه، وآل إليه حكم مصر . وحكم يوسف مصر على سُنَّةِ إدريس ودعا الله قائلاً: «اللهم إنى غريب فحببها إلى وإلى كل غريب»، ولأجل دعاء يوسف هذا نعت طائفة العبيد، وغريبو الديار، بالعزة والسعادة .

ولقد أصبحت أنا الفقير الذليل الحقيقير قرير العين فى مصر وبركة دعاء يوسف - عليه السلام - حبا الله الأرض عَشْرَ نَعَمٍ اختص مصر بتسع منها، والعاشرة هى كل الدنيا، لأنها الإقليم الآخر وفيها كثير من المثلسمات والعجائب والمعادن الغريبة، ولقد جاءت النبوة إلى يوسف من قِبَلِ المولى جل وعلا وهو فى الأربعين من عمره، إلا أنه كان خليفة فى الأرض وله من العمر ثلاثون عاماً، ولما كانت مصر أرض الجبارين زايلها ومضى إلى وادى الفيوم، وطاب له جوها السَّجْسَجُ وشيد مدينة الفيوم فى ألف يوم، ومن الخطأ قولهم إن الفيوم من ألف يوم وإن كان التحقيق فى لسان العرب مقبول، وقد رفعت بالمعرفة باللام، ولذلك يقولون فيوم بمعنى المدينة التى بُنيت فى ألف يوم، ولقد حمل يوسف الصديق بنفسه تراب الخليج فى ذيله مؤثمراً بأمر جبريل الأمين؛ فقد قال الله - تعالى - لجبريل: «الحق يا جبريل بيوسف وأعنه»؛ فهبط جبريل من السماء إلى الأرض وكأنه برق خاطف؛ فضرب البحيرة بجناحه فتطاير التراب إلى السماء ونزل إلى القمر فى الثريا، وضرب الصعيد العالى بجناح فانشتت ترعة فجرى فيها ماء النيل إلى

بحيرة الفيوم، إنها فج عميق كم فيها من مخلوقات وحشرات البحر، وفي كل عام يطهرون الترع بالثيران، ولكن بما أن هذه التربة شقها جبريل فلن تجرف إلى انقضاء الزمن.

إن النيل يجري ولكن إذا دخل ماؤه البحيرة أصبح ملحاً أجاجاً، وعلى جوانب هذه البحيرة الأربعة ثلاثمائة وست وستون قرية كل واحدة منها تشبه «إرم ذات العماد»، وسوف نذكر أوصاف الفيوم في موضعها بمشيئة الله.

وحينما كان يوسف الصديق يسكن الفيوم لم يطق فراقه أبوه يعقوب، فقدم مصر من أرض كنعان مع أهله وعشيرته، وبينما كان الملك ريان في عزله منزوياً عن الدنيا مضى إلى يعقوب والتقى به ونال منه خير الدعاء له، وأكرمه كل الإكرام، ويث به إلى الفيوم، كما خرج يوسف الصديق مسافة ميلين خارج الفيوم لإستقبال (أبيه) لذا يطلقون على هذين الميادين اللذين تحف بهما البساتين اسم ميلى يوسف، وهناك التقى الابن بأبيه، والتقيا تعانقاً، وتبادلا القبل وقد غمرت البهجة نفس يعقوب بلقاء يوسف، ومع أن عينيه ابيضتا حزناً على يوسف وذهب بصرهما فإنهما أنارتا كنزجستين، فأعق يوسف تسعين عبداً له، فامتلا قلب يعقوب سروراً، ودعا الله ليوسف وسكن مصر ستة عشر عاماً. وكانت عيناه باصرتين إلى أن وافاه الأجل، وقبل أن يغمض يعقوب عينه عن الدنيا أوصى يوسف بأن يحمل نعشه إلى القدس ويدفن إلى جانب خليل الرحمن في جبل جبرون.

ذكر وفاة يوسف عليه السلام.

حين أدركت يوسف الوفاة كان ريان قد مات وملك بعده ابنه داوم في مملكة أسوان فسمع بموت يوسف فاستقل بالملك، وبناء على وصية يوسف ألقوا يوسف في صندوق من البرونز في النيل، وبقي هذا الصندوق في النيل إلى عهد سليمان عليه السلام، وقدم سليمان مع الإنسان والجن إلى شاطئ النيل، ومكثوا مدة، وأتت امرأة عجور إلى سليمان فقالت: «يا سليمان في هذا المكان ألقوا صندوقاً من البرونز فيه جثمان يوسف»، فتحين الفرصة لإخراجه، وفي التو أمر سليمان الجن بحمل الصندوق وبه جثمان يوسف الصديق، فحملوه إلى القدس الشريف حيث دفنوه بجانب أبيه يعقوب في جبل جبرون وهما الآن يرقدان في قبر عظيم الأتوار يُزار.



الفصل الخامس

فى بيان آل الريان وذكرهم

بعد وفاة يوسف الصديق أصبح الملك ريان جباراً فى الأرض، وكان من عبدة الأصنام، وقد غرق فى النيل، وأصبح (كاشم بن معدان) من بعده ملكاً، وأدركه الموت، وجاء بعده الفرعون ابن حريم بن كنور؛ بن زيد موسى واعتلى العرش فى منوف، وكان مقدم موسى عليه بعد عشرين عاماً، وعمر أربعمئة سنة، وكانت معظم أيامه حروباً مع موسى، وآخر الأمر بينما كان يناشب موسى القتال، غرق مع جنده، فى موضع من بحر القلزم يسمى خليج قلوندر، وهذا ثابت بقواطع الأدلة فى كل التفاسير، وكان الملك من بعده للملكة تسمى دلوكة بنت زيباكا، وقد شيدت معظم عمائر منوف من الحديد، وكست كل عمائرها بالرصااص، كما كفتت سطوحها بالنحاس الأصفر، وزينت أبوابها بالنحاس، وأنشأت سبعمئة حمام، فما كان فى أرض مصر مدينة مثل منوف.

وفى اللغة القبلية: منوف اسم عروس، أى أنها مدينة مزينة كأنها عروس الدنيا وأصبحت الملكة دلوكة رينة الدنيا بالسحر، إلا أنها حكمت عشرين عاماً، وماتت فى الستين بعد المائة من عمرها، وبعدها كان الملك «الدركون»، وبعد موته كان الملك لابنه «تودس»، وبعده الملك «لقاس»، ثم الملك «مرينا» ثم ابنه «اسمارس» الذى قتل وهو أول ملك يقتل لأنه كان ظالماً غداراً عاتياً، وملك بعده «بطولس بن ميكاكل»، وحكم أربعين عاماً وخلفه ابنه «بالوس»، ثم ملك «مياكل» وهو أخو بالوس، ودام حكمه مائة وعشرين عاماً، وقد خرب القدس وبيت المقدس، ولكن رَمَحَهُ^(١) الفرس الذى كان يركبه فهلك، وملك بعده ابنه «مرتشوس» وجاء بعده «مرمورة» وكان عادلاً منصفاً يرفع جانب رعيته، وعمر أرض القدس ومصر، وعاش ستين عاماً، وجاء بعده «لقاس»، وقتل فى الحرب، وجاء بعده «قويش»، وسافر فى البر والبحر وأغار على خمسين إقليم، وفى عهده خرج بُخْتَنْصَرُ من بلاد الاكراد يطلب دم يحيى النبى فجعل - حلب ودمشق وبليسر وطبرستان

(١) رَمَحَتِ الدابة فلاناً رَمَحًا: رَفَعَتْ.

ونابلس والقدس وعكة ورملة وصفد وغزة ومصر والإسكندرية - خرابًا يبابًا، والحاصل أنه دمر ألف وسبعمائة مدينة من المدن الإسرائيلية، وشوى الأسرى شيًا، ولقد ادعى أنه يطالب بدم (يحيى - عليه السلام) وكابن من يهودى قتله، وظلت مصر أربعين عامًا بالتمام خرابًا يبابًا، ووجد من الأنبياء اليا وأرميا، ودانيال فى مدينة (صَفَتْ) فأسرهم، وبينما كانوا فى سجن المدينة، تنزل الوحى، فلما شاهده بختنصر أطلق سراحهم من سجنهم وكان ذلك برجاء بسطه إليه هؤلاء الأنبياء الثلاثة، ورحل أهل مصر إلى مصر، وأمر بتعمير القدس، وفى هذا العصر غلب الروم بمدد من بختنصر على إسرائيل، وتسلطوا على جميع الشعوب المسيحية، حتى إنهم فى إيران أطلقوا ناقوسهم وأرغنهم^(١)، ونزلت على النبى ﷺ آية: ﴿الْم * غَلَبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: ١ - ٢]، فى هذا الشأن ولم تبق بقية من آل رِيَّان والعمالقة.

(١) الأرغن: آلة موسيقية نفخية بها منافخ جلدية وأنايب ومفاتيح لتنظيم الصوت.

الفصل السادس

ذكر من دخل مصر من الأنبياء العظام (عليهم السلام)

نزلت الصحف على قينان بن شيث بن آدم بعد نزولها على آدم وشيث، وكان لملائيل المعجزة في علم النجوم، ونزلت الصحف على أخنوخ ويلقب إدريس بهرمس ومعناها الشيخ في العبرية.

ولد في مصر وقد ساح في جزيرة مصر من أقصاها إلى أقصاها، والآن تعتبر أسماء إدريس وحمد وحمود وخنوخ وجرجيس وكفيل مقبولة في العديد من قرى مصر.

بعث إدريس في مصر لقوم الصابئة، وأقام مائة وأربعين مدينة، وله كل البراعة في علم الهندسة وعلم النجوم، وله المعجزات، ولكثرة ما علم الناس العلم سموه إدريس، ومن الدليل القاطع على عروجه في السماء قوله - تعالى -: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ولذلك يعرف في جنة المأوى بالخائك لأنه كان واسع العلم بالحياكة وعلم الكتابة، وإليه ينسب علم الحياكة وعلم الكتابة.

أتم سيدنا إبراهيم وإسماعيل بناء مكة، وقدم مصر في عهد الملك طوطيس، كما قدم يوسف الصديق مصر، وكذلك قَدِمَهَا يعقوب (عليه السلام) حين جاء لرؤية يوسف، قدمها مع أولاده الإثنا عشر وأكبرهم يهودا، وفي مقدمهم إلى مصر طرخوا يوسف في الجُبِّ قائلين إن الذئب أكله، وسامحهم يوسف، ولبثوا في مصر ستة عشر عامًا، وبعد وفاة أبيهم يعقوب مضوا جميعًا إلى مدينة صفت وهم مدفونون في غار (بيت الحزن)، أما ابن يامن ويوسف لما كانا لام واحدة بقيا في الفيوم، وولد ليوسف افرايم في الفيوم، وافرايم وابن يامن مدفونان في قبر بجوار قبر عمر بن الفارض، وما دفن في أرض مصر سواهما من أبناء الأنبياء، ولوط والاخوان موسى وهارون ولدا في مدينة أرمنت بالقرب من أسوان، ووضعت أم موسى موسى في صندوق من خشية فرعون وطرحت الصندوق في النيل، واقتضت حكمة الله - تعالى - أن يكون لفرعون قَصْرٌ على شاطئ النيل، وذات صباح فتحت السيدة (آسية) الصندوق ورأت عليه مخايل إلهية، فاحبته واحتفظت به وقامت على تربيته، ومن حكمة الله أن أبا موسى كان

بواباً لفرعون، كما كانت أمه من خواص حريمه، ودفعت آسيا موسى إلى أمه لتربيته، وقصة فرعون مع موسى مذكورة في كل كتب القصص، وسيدنا داود وسليمان والملك رحيم بن سليمان وهود وشعيب قدموا مصر، وسيدنا ثمود كان يزور مصر في كل مرة وفي مصر القديمة دير يُسميه قبط مصر دير ثمود وهم يزورونه، والخلاف قائم في نبوة سيدنا لقمان والخضر.

كان لقمان النبي في أرض مصر والسودان عالم تحرير أسمر اللون، ووقع مثل هذا الخلاف فيما يتعلق بالإسكندر ذو القرنين وقالوا إنه نبي، والبعض يرى أن الآية التي نزلت على نبينا ﷺ هي قوله - تعالى -: ﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَاجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ٩٤]، قد نزلت في شأن الإسكندر.

وفي الدنيا أربعة يُسمى كل منهم إسكندر، ومن قوم الروم فيلقوس ابن الإسكندر ذو القرنين اليوناني، أما في كتب التاريخ فهو الإسكندر بن مرزبة واسمه مرزبا، وكنيته الإسكندر؛ وكان يطلق القرن على اثنين وثلاثين عاماً، ولما كان الإسكندر قد ملك ستين عاماً لذلك يُسمى ذا القرنين، وفي رواية أن له قرنين من لحم ولذلك سمي بذى القرنين.

حكاية شرف نامه

يقول التبليسي صاحب شرف نامه في تاريخ أسلافه: «إن الإسكندر لم يسترح أبداً من آلام قرنيه فجمع زلفاً من الأطباء يستشيرهم، إلا أنهم لم يجدوا من دواء لوجعه، فساح في الأرض إلى أن بلغ ماء الحياة في الظلمات، إلا أنه لم يجد ماء الحياة، فمضى إلى أرض العراق وشرب من زلال شط العرب، فسكن وجع قرنيه ووجد الراحة، ورأى في منام من قال له: يا إسكندر وأنت تشرب ماء الحياة امض إلى الموصل واشرب من الماء المخلوط بماء شط العرب، إن ما رأيت فيه نفعاً وجدت راحة البرء منه، فامض إلى شاطئ هذا النهر، وسر حتى تبلغ منبعه، وأقم هناك أربعين يوماً، واشرب هذا الماء وسوف تشفى من آلم قرنيك، وهذا ما أجمع الحكماء جميعاً على القول به. فمضى الإسكندر صوب الموصل وعبر أنهاراً وأنهاراً، وشرب من ماء النهر الذي يأتي إلى

جزيرة العمر. فتجددت فيه روحه ونعم بالراحة، وقبل ذلك بينما كان يمضي إلى شاطئ النهر. انشق النهر شقين؛ فشرب من ماء الشق الأول قسراً، ومضى إلى ساحله، وبالقرب من قلعة «بتليس» انشق النهر شقين، وشرب من ماء النهر الآتي من (ماد)، وارتفع أنين الإسكندر، وبينما كان يشرب من النهر الآتي من بتليس غمر السرور نفسه، فعمطف بعنائه عن هذا المكان، وحينما قدم مدينة بتليس انشق النهر أسفل القلعة شقين، وشرب من النهر الآتي من داخل السوق، إلا أنه لم يجده طيباً، أما حين شرب من الماء الآتي من أسفل القلعة وجد حياة الخلود.

وفي تلك الأثناء سقط أحد قرنيه، وبقي القرن الآخر، فحمد الله، ولما مضى إلى ساحل هذا النهر رفع صخرة وأسكن عسكره في موضعها، وجعل يشرب من زلال هذا الينبوع أربعين يوماً، فسقط قرنه الآخر، وكان للإسكندر الخلاص من قرنيه ووجد البرء من وجعه، فشيّد قصرًا شامخًا على رأس هذا النهر جعله خانقاه، وفيها كان المتصوفة من الدراويش وأهل العرفان وأصحاب المواجيد يقيمون ناعمين، وهو الآن مكان نزه، وكان للإسكندر خازن يسمى «بتليس» وكان عاقلاً مديراً، فأمره أن يقيم قلعة حصينة عند منبع النهر أسماها بتليس على اسم خازنه، وفي عام ١٦٠٥ حيث وصل أفندينا ملك أحمد باشا بتليس وصفها على التفصيل، ولكن رأيت في التواريخ كلاماً عنها مؤداه أن الإسكندر أقام سدً ياجوج، وقلعة الإسكندرية في مصر، وقيل أنه الإسكندر هو ابن تارح بن يافث بن نوح - عليه السلام -، وفي قول أنه الإسكندر بن دلوّاب بن بهمن بن اسفنديار.

ومجمل القول أن الإسكندر مضى إلى مصر، وبني قلعة الإسكندرية، ولهذا السبب فالإسكندر هو الخضر، لأن الخضر كان في جند الإسكندر شيخاً محنكاً مُسنّاً، وكان مع الإسكندر في الظلمات، ويقولون الآن إنه على قيد الحياة ولكن وقع الخلاف كذلك في نبوته، ولكن مقدمه إلى مصر مثبت في القرآن الكريم، ومدة ملكه أربع وستون سنة، ومات في بابل وهو مدفون في الإسكندرية، وفي مدينة دمياط بمصر يختلط ماء النيل المبارك بماء البحر وقد بلغ موسى هذا الموضع الذي يُسمى «مرج البحرين»، وقد خرق

الخضر سفينة لتييم ففرقت، فلم يعجب ذلك منه موسى فكان الفراق بينهما: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ {الكهف: ٧٨}، وقد نزلت هذه الآية على المصطفى ﷺ، وتكفى هذه الآية دليلاً على أن موسى كان يسكن مصر وقد بلغ مصر رفيقاً للخضر في مرج البحرين؛ كما أن يوشع كان من الأنبياء الذين كانوا في مصر ومولده في مدينة الفسطاط وهي مصر القديمة، ويوشع بن نون ليس ذا النون المصري، وذو النون المصري ولد كذلك في مصر وكان حكيماً عظيماً من القباطة، وقد أرسل المقوقس إلى النبي ﷺ رسولاً معه ثلاث جوارى من القبط وسيفاً وبغلاً هدية منه، وبينما كان يسلم هذه الهدايا شرف بالدخول في الإسلام، وقد منح النبي ﷺ إحدى هذه الجوارى أبا بكر وسماها عين شمس، وولدت له حمد الأكبر، وأهدى جارية كذلك إلى حسان وسماها درةً ولدت له عبد الرحمن بن حسان، واحتفظ الرسول له بواحدة واسمها «مارية» وهي أم إبراهيم ابن الرسول ﷺ.

وحضر ذو النون هذا فتح مصر مع عمرو بن العاص، واستشهد كما استشهد الشيخ عقبة الجهنى العامري، وهو مدفون بجانب ذى النون، أما يوشع بن نون فهو نبي، وغادر مصر إلى طرابلس في الشام وهو مدفون هناك، وقد أسر باختصر سيدنا دانيال وأرميا وعندما قدم مصر لتخريبها أحضر هذين النبيين معه، ثم جاء بهما إلى بلاد الاكراد، وقد هاجرت السيدة مريم والدة المسيح عيسى - عليه السلام - من مدينة نابلس، وفي مصر سكنت المطرية أعواماً ثلاثة، وكانت تحت شجرة بليسان، ولم تشاهد هذه الشجرة على وجه الأرض حتى ظهرت في عصر دولة الاكراد. أما الآن فبقيت منها جذورها، كما حفر عيسى - عليه السلام - تحتها بئراً، وحينما كان الطين في النيل شرب عظماء وكبراء مصر الماء من بئر المطرية هذا وهو الآن مزار للمسيحيين، ومنها بلغ عيسى - عليه السلام - مدينة البهنسا وسكنها مع أمه ثلاثة أعوام، ومما يشير إلى دخول عيسى - عليه السلام - هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ذَاتِ قَوَارٍ وَمَعِينٍ﴾ {المؤمنون: ٥٠}، والمفسرون يشيرون بهذه الآية إلى دخول المسيح - عليه السلام - مصر، وبناء على قول جميع المفسرين والمؤرخين - وهو الصحيح - أن هؤلاء الأنبياء دخلوا

مصر، ولكن ليس في مصر نبي مدفون سوى اثنين من أبناء الأنبياء وهما يامن بن يعقوب، وافرايم بن يوسف الصديق، والسلام.

ذكر من دخل مصر من أهل بيت رسول

في البداية أمنا حواء، أمنا حوراء زوج شيث، وأمنا سارة زوج إبراهيم (عليه السلام) وأمنا آسية زوج فرعون، والتي استشهدت على يد فرعون، ويجدر بها أن تكون زوجة النبي ﷺ في الآخرة، وكذلك أم سيدنا موسى يوحينه، وأم سيدنا يهوذا بن يعقوب، والسيدة مريم أم المسيح عيسى، هذا ما اجتمعت عليه كلمة جميع المؤرخين.

ذكر من دخل مصر من قدماء الحكماء

أولهم إدريس الكاتب والحائك والحكيم، وكذلك لقمان، وفيثاغورث عالم التوحيد، وتيمون وفليسله، وإسلاوس، وكاوس، ويزدجرد، وبقرط، وسقراط، وأفلاطون، وإقليدس، وأرسططاليس وبطليموس العالم بالنجوم (الفلكي)، وإقليدس وفيلقوس وذو النون وأبو علي (بن) سينا وأبو الحارث، ولواء من قدماء الحكماء والآن يؤخذ بما جاء في مؤلفاتهم والسلام.

ففي مصر بعد هبوط آدم وبعد طوفان آدم الثاني نوح (عليه السلام) تناسل بنو آدم في أرجاء الأرض، وكم من نبي وملك قدموا مصر وكانت مصر في حوزتهم، ومن جملتهم (دائرة) الذي ادعى الملوك في زمن الجاهلية وهو كيومرس أحد أبناء نوح - عليه السلام -.

أما في زمن الضلالة قبل النبي ﷺ، كان الملوك منقسمين إلى طبقات أربعة: الطائفة الأولى أهل الأديان، والطائفة الثانية الإشكانيين، والطائفة الثالثة الكيانيون، والطائفة الرابعة أهل الساسانيين، ومعظم هؤلاء المذكورين حكموا أرض إيران وما وراء النهر وديار العراق ومصر.



الفصل السابع

ذكر فتح مصر على يد عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب

بفضل معجزات وبركات النبي ﷺ

أما سبب فتح مصر فهو أن الإسكندر اليوناني كان فاتحاً عظيماً فاستولى على الأقاليم السبعة، ثم دخلت مصر في حوزته فجعل للمقوقس القبطي رتبة الإمارة، ولكى يمضى إلى مكة والمدينة قطع طرق النيل قبالة بنى سويف، لما لم تصل السفن إلى السويس قحطت مكة والمدينة وغلّت الأسعار، ورغماً عن الكفار أرسل إلى القدس ثمانين ألف جندي وفتح عمر بنفسه القدس الشريف، وأمر خالد بن الوليد على جيش قوامه أربعين ألف مقاتل لفتح دمشق، وأثناء حصاره لدمشق جاءه مدد من أربعين ألف جندي، وفتح خالد بن الوليد بقوة ساعده دمشق واستخلصها من يد الملك خرقل العنيد، وأرسل ما غنم من غنائم إلى المدينة المنورة، وقد أسماه الرسول ﷺ سيف الله المسلول، وفي عصر النبي ﷺ كان خالد بن الوليد أول من خرج إلى الروم، ثم شق الروم في القدس عصا الطاعة، ففتحت في خلافة عمر، فاستاء الروم والقبط من خالد، وبينما كان جند الروم ينهزمون أمام جند العرب أرسل خرقل من قبل ملك أنطاكية مدداً قوامه أربعون ألف فارس، وأربعين ألفاً من المشاة الروم إلى قلعة الإسكندرية ومصر، فانشرح لذلك صدور الروم والقبط؛ وكان عمرو بن العاص في الجاهلية من أثرياء قريش، وفي كل عام يمضى إلى البصرة والقدس الشريف، وهناك كان يستظل بشجرة طلباً للراحة، واتفق أن ظهرت له أفعى كأنها تنين وهاجمت من كان في ظل الشجرة، فحمل عمرو قوساً ورشق الأفعى بها، فاستيقظ من كان نائماً في ظل الشجرة ورأى عمرو وهو يرشق الأفعى بالسهم، فسأل هذا الرجل عمراً ما هذا؟ فقال له: رشقت الأفعى بالسهم وقتلتها. فأكب الرجل على يد وقدم عمرو، فقال عمرو: أنا مسقط رأس مكة، وأنا من آل هاشم. فقال الرجل: أنا أخوك في الدنيا والآخرة، وتلك الأخوة جزاء إنقاذي من الأفعى، قال عمرو، إنما صنعت هذا حسبة لله، أنا أعيش من التجارة في كفاف وحاجتي ماسة إلى الله.

قال الرجل: يا أخى أنا كذلك تاجر عظيم فى الإسكندرية، أنا شماس واسع الثراء ولى أملاك كثيرة فى الإسكندرية، ولكنى قدمت إلى القدس للزيارة، والآن أنا غريب الديار، تعال معى إلى الإسكندرية، وسأعطيك سكة ذهبية وجواهر ثمينة وأقمشة فاخرة، وسأبعث بك إلى مكة فى قافلتين تحملان مالا جزيلا، قال ذلك راجيا، وأقر ذلك من سمعه، كما أن عمرو لم يعترض وقطع المنازل وطوى المراحل من القدس حتى دخل الإسكندرية بعد أيام عشرة، ونزل ضيقا على دار الشماس، ووفى الشماس بوعده وأعطى عمرو عشرة آلاف ذهباً ومضى به إلى متنزهات المدينة، وبينما كانا يشاهدان ما حولهما، اقتضت حكمة الله أن جاءت الكرة إلى الصولجان وخطر لعمرو رأى، وأخذ العجب مأخذه من جميع الحضور فى المجالس وكان بين أهل الإسكندرية عقيدة مؤداها أنه كل من كان على رأسه صولجان وكرة أصبح ملكا، وهزأ الناس جميعا من تلك الكرة التى على رأس عمرو، وقالوا: هذا العربى أيصح أن يكون ملكا علينا؟! وابتسموا، ومضى عمرو مع الشماس إلى داره وكان الشماس فريد عصره فى علم الإسطرلاب فنظر فى طالع عمرو فرأى أن له ملك مصر، ولما أصبح الصباح قدم إليه سبعين جملا تحمل المال، فأرسل عمروا إلى مصر ومكث عمرو فى مصر شهرا، ووقف على كل أحوال مصر، فمضى إلى مكة فى قافلة عظيمة، وقدم إلى جميع أهل مكة الهدايا، ومدح قلعة الإسكندرية ومصر أم الدنيا إلى حد أن جميع جند الإسلام دعوا الله أن يفتح عليهم مصر، ومثل عمرو فى حضرة الرسول ﷺ وعرض الهدايا وقبل الرسول من الهدايا، فرفع عمرو يده وشرف بالإسلام وألقى بزمرة الصحابة الكرام، ووصف للرسول ﷺ الإسكندرية ومصر على الحقيقة، فسرَّ ﷺ وقال: «اللهم يسرْ بالعمرين» وجعل يرغب الصحابة الكرام من يوم إلى يوم فى فتح مصر والقسطنطينية. وبلغته من المقوقس ملك مصر الهدايا والرسائل مرارا؛ وجاء فى إحدى الرسائل: «يا محمد لقد غلبنا وظلمنا من الروم وسلبوا مصر من يدنا»، وبعد نصر النبي ﷺ فى العام السادس للهجرة فى غزوة الحديبية أوفد الرسول ﷺ أبا الدرداء وحاطب بن أبى بلتعة برسالة إلى عظيم مصر (المقوقس)، وبلغا مصر سالمين لدعوة المقوقس إلى الدين

الحنيف، وفي هذا روايات مختلفة، في إحداها أن المقوقس وقع على الرسالة بأنه أسلم وأرسل المقوقس مع ذى النون ثلاث جوارٍ وبغلاً وسيّفاً، فقالوا:

يبعث نصر إلينا .: وحتى فتح الله علينا

ومن المحقق أن النبی طاب بذلك نفساً، ومن المؤكد المحقق أنه أحبه حباً جماً.

نقول والعهد على الراوى: إن أبا الدرداء مع ابن أبى بلتعة قدما من قبل المقوقس، ووصفا للنبي ﷺ طيب هواء مصر، وأنواع الزروع فيها، والمطعموم والمشروب بها، وحاصلاتها، فقال النبي ﷺ علة أحاديث خاصة بمصر، كما سيرد ذكره. وصرح بتفضيل القرآن الكريم لمصر وما ورد في ذلك الأمر على طريق القصص تلاء تصريحاً وتنبهاً بسمع ومشهد من الصحابة، وبذلك أقنعهم بغزو مصر.

* * *

الفصل الثامن

بيان بالآيات الكريمة التي ذكرت فيها مصر صراحة وكناية وتنبئها

قال - عز من قائل -: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾^(١) الآية، وذلك على الحكاية، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾^(٢)، وقال - تعالى - عن قصة يوسف الصديق: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾^(٣)، ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾^(٤) .

وقال في قصة فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾^(٥)، وعن قصة يوسف الصديق قال - عز من قائل -: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتَ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾^(٦)، ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾^(٧)، ﴿وَفَاصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾^(٨)، ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾^(٩)، كما قال - تعالى - فيما يختص بعيسى - عليه السلام - والسيدة مريم: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾^(١٠)، ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾^(١١)، ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾^(١٢)، ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾^(١٣)، ﴿إِنْ فِرْعَوْنُ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾^(١٤)، ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾^(١٥)، ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾^(١٦)، ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾^(١٧)، ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾^(١٨)، ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

- | | |
|--------------------------------------|----------------------------------|
| (٢) سورة يونس: الآية ٨٧ . | (١) سورة البقرة: الآية ٦١ . |
| (٤) سورة يوسف: الآية ٢١ . | (٣) سورة يوسف: الآية ٩٩ . |
| (٦) سورة يوسف: الآية ٣٠ . | (٥) سورة الزخرف: الآية ٥١ . |
| (٨) سورة القصص الآية ١٨ . | (٧) سورة القصص: الآية ١٥ . |
| (١٠) سورة المؤمنين: الآية ٥٠ . | (٩) سورة يس: الآية ٢٠ . |
| (١٢) سورة يوسف: الآية ٢١ . | (١١) سورة يوسف: الآية ٥٥ . |
| (١٤) سورة القصص: الآية ٤ . | (١٣) سورة يوسف: الآية ٨٠ . |
| (١٦) سورة الاعراف: الآية ١٢٨ . | (١٥) سورة القصص: الآية ١٩ . |
| (١٨) سورة الشعراء: الآية ٥٧ ، ٥٨ . | (١٧) سورة الاعراف: الآية ١١٠ . |

مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴿١﴾، ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ ﴿٢﴾، يقول بعض المفسرين أن المقصود بالربوة مصر، كما قال بعضهم الآخر المراد بها دمشق، غير أن جمهرتهم قالت إن المقصود بها مصر، ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ﴿٣﴾، ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ ﴿٤﴾، ﴿وَقَدَّرَ لَهَا أَقْوَاتَهَا﴾ ﴿٥﴾، ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ ﴿٦﴾.

قال بعض المؤرخين إن حديقة إرم هى مدينة الإسكندرية، أما المقريزى صاحب الخطط فيقول: إن حديقة إرم فى أرض بجوار مصر تسمى «سبيل علام»، وقد أخفاها الله حتى قيل أن جواهر وجدت فى سبيل علام وقد رأيتها تباع بالف قرش. وبناء على قول بعض المؤرخين أن حديقة إرم بالقرب من دمشق، أن أعرابياً أناخ بعيره فرأى الجنة وذلك فى عصر بنى أمية، وملاً مخلاة بثمار أشجارها وأحجارها وحملها إلى الخليفة فى دمشق وعرضها عليه، فَعَلِمَ أن حديقة إرم بالقرب من دمشق.

وقال كثير من أهل العلم أنها مصر لأن بانيها شداد بن عاد ووطنه الأصلية مدينة أسوان، وقالوا إن حديقة إرم فى مصر على الأرجح، وجاء عن مصر: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ ﴿٧﴾، وقوله - تعالى -: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٨﴾، ومن الحق أن من جند مصر كثيراً من الفاسقين والجبارين والعتاة، ﴿أَمَرَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿٩﴾، وجميع الرعايا والبرايا فيها من قوم الفراعنة، وهم جبارون بحكم جوها، ويتالفون من طائفتين، طائفة هايل وطائفة قابيل، فطائفة منهم أخيار والآخرى أشرار، فهم ليل نهار فى تشاجر وتناحر، والغالب يقرر بطن روجة المغلوب ويقتل جنيئها وهم على هذا النحو جبارين عتاة، وفرسهم الذى يشرب من ماء النيل

(١) سورة يونس: الآية ٩٣. (٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٥. (٣) سورة المائدة: الآية ٢١.

(٤) سورة السجدة: الآية ٢٧. (٥) سورة فصلت: الآية ١٠. (٦) سورة الفجر: الآية ٧، ٨.

(٧) سورة يوسف: الآية ١٠٠. (٨) سورة الاعراف: الآية ١٤٥. (٩) سورة هود: الآية ٥٩.

جموح، وقال الله عنهم كذلك: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْمُرُونَ﴾^(١)، ولكن ما ذكره الله - تعالى - خاص بالبلد القديم وما فيه من جبارين وفاسقين ما كان له دوام وفيه البلاء، كما أن الجراد كذلك لا يدوم له في مصر البقاء، وبحمد الله - تعالى - لا يصيب الجراد محاصيلها قسط، وفي عام ١٠٨٨ إذ كان عبد الرحمن باشا والياً على مصر هبط الجراد في مصر كالوابل، حتى ضؤل وهج الشمس، واسودت السماء ولم يشاهد وجهها، ولما هبط الجراد على الأرض بفضل الله احتفلت المدن والقرى والكبار والصغار بعيد الأضحى وطعموا وانمى الجراد ذات يوم وغرق في النيل.

وفي رواية أنه هلك بريح عظيم، وفي عهد الرسول ﷺ أصاب الجراد مكة ووادي فاطمة فقال أهل مكة: يا رسول الله إن الجراد أصاب مدينتنا فما عاقبة الأمر؟ ولما قالوا ذلك بسط ﷺ يده فدعى الله قائلاً: أرسل هذه الحشرات إلى مصر. فقال الصحابة الكرام: يا رسول الله إن كل أرواق أمتك في مكة والمدينة تأتي من مصر، فإذا ما وصل هذا الجراد إلى مصر أصاب الناس القحط وغلت الأسعار، فقال: إنه رجع عن رأيه. ومصر حمى الله وكثانة أرضه، وفي مصر نجباء يحرسونها وهم سبعون كلهم رجال الله وليس منهم فاسق ولا ظالم، وإذا ما بلغ الجراد مصر من مكة فهو هالك، ودعا الله قائلاً: كل من نظر إلى مصر بعين الحقارة حُقر وذل، ومن عدل سلم،

من عدل في مصر القديمة .: أعزته مصر بنعمها

وكم من آيات شريفة نزلت في شأن مصر ولكن بسبب قوة ذاكرتي ألهمت كتابة هذه الآيات الشريفة، وقد رغب المصطفى ﷺ صحابته الكرام في فتح مصر.

ذكر الأحاديث الشريفة التي ورد فيها ذكر مصر

قال رسول الله ﷺ: «افتحوا مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً»، فسيدينا إسماعيل بن إبراهيم - عليه السلام - ولد للسيدة هاجر من قبيلة مصر، والرسول ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم - عليه السلام -، وكانت أم النبي من

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

مصر، والحديث الآتى ذكر خاص بالسيدة هاجر ومصر، قال - عليه الصلاة والسلام -: «مستفتحون مصر وهى أرض تسمى القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً». وقال - عليه الصلاة والسلام: «استوصوا بالآدم الجعّد» والجعد بمعنى أسمر اللون، ويطلق على القبط. وقال ﷺ: «إن إبليس دخل العراق وقضى حاجته فيها، ثم دخل الشام فطرد حتى بلغ ميسان ثم دخل مصر فباض فيها وفرخ وبسط عبقرته».

وقال ﷺ الجزيرة روضة من رياض الجنة، ومصر خزائن الله فى أرضه، كما قال - عليه الصلاة والسلام -: «إن ولد مصر معاف من الفتن ومن يريدهم بسوء إلا صرعه ولا يريد أحداً إهلاكهم إلا أهلكه، من يقصده بسوء غير الله وجهه، ونهرها نهر العسل، ومادبة من الجنة وكفى بالعسل طعاماً وشراباً».

وكم من حديث شريف جاء فى شأن مصر، إلا أننى اكتفيت بهذا القدر من الأحاديث وكم من عالم وشيخ وشاعر نظم شعراً فى مصر.

وقال الشيخ الكندى - رحمه الله - لا يُعلم بلد فى أقطار الأرض أثنى عليه الله فى القرآن الكريم بمثل هذا الثناء ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير مصر. كما مدح الإمام الشافعى والإمام الليث وعمر بن الفارض لمصر كأنما مدحوا إرم ذات العماد.

وقد سلف ذكر الحديث الذى قاله ﷺ لأصحابه ترغيباً فى فتح مصر، ولكن فى عهد النبوة لم يسترح ﷺ من المغارى والسرايا، وقال: «الأمور مرهونة بأوقاتها» ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى وأكت الخلافة إلى أمير المؤمنين أبى بكر الصديق، وفى عهده وقعت الفرقة بين الصحابة وظهرت أحداث متباينة، فما استطاعوا إلى مصر التفاتاً، كما امتثل قول ربه: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾^(١)، وأفضت الخلافة إلى الفاروق عمر - رضى الله عنه -، فعقد النية على فتح مصر.

(١) سورة الفجر: الآية ٢٨.

الفصل التاسع

ذكر فتح مصر فى خلافة عمرو بن الخطاب

على يد عمرو بن العاص

أجمع المؤرخون على صحة القول بأن مصر دخلت فى حوزة أمة محمد بعد وفاة النبي ﷺ بثمانية عشر عامًا، وفى خلافة عمر استولى الملك هرقل اللعين على القدس الشريف، وأعاد عمر فتح القدس الشريف بجيش قوامه أربعين ألف مقاتل، ووجه عمرو بن العاص والأسود بن المقداد على رأس جيش من أربعين ألف مقاتل لفتح مصر، فاتجها إلى مكة المكرمة، ومن جانب جمع عمرو بن العاص جيشًا قوامه أربعة آلاف وخمسمائة من فرسان العرب وأربعة آلاف مختارين من خيرة العربان البواسل الأبطال مشاة، وبعد طى المنازل وقطع المراحل، بلغ عمرو بن العاص الرملة على مقربة من العريش وهناك مكث حينًا، وحين مقامه فيها جاءه رسول من قبل عمر بن الخطاب يحمل رسالة فحواها قوله له:

«إذا بلغت رسالتى وكانت قدمك قد وطأت أرض مصر. فاحمل على مصر، وسوف ييسر الله أمرك بمشيئته - تعالى -، أما إن كنت لم تدخل أرض مصر بعسكر الإسلام، وكانت غزوة عمان فى العراق ولزام أن تعود».

فجمع عمرو رجاله وأهل البلاد وتلا الرسالة ثم سألهم: العريش فى أرض مصر أم هى أرض فلسطين؟ فردوا عليه قائلين: يا عمرو إن العريش على منزلة داخل مصر، ولما شهدوا له على ذلك؛ أرسل إلى عمر يخبره هذا الخبر مع راكب الوجناء لسرعة سيرها، فقال عمرو بن العاص: توكلت على الله، وتوجه إلى مصر.

وكان المقوقس على الفسطاط وإلياً لليونان وهى الآن تسمى مصر القديمة، وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص رسائل فى الخفاء، ومن ناحية أخرى أرسل هرقل اللعين من أنطاكية وطرابلس وصيدا وعكا ألف سفينة تحمل ستين ألفًا من جنده إلى قلعة الإسكندرية. فحملوا جميعًا على جند الإسلام، واتجهوا إلى ساحة مدينة بليس للقتال، واختلط جند الفريقين فى ساحة الوغى وتراشقوا بالسهم، فكانا بحرين تلاطمت

أمواجهما ودام القتال شهراً بتمامه، والتقى الجمعان، جيش أهل لا إله إلا الله وجيش الكفر، ودخل جند المسلمين المعركة، فمنهم من قطع رأساً ومنهم من قطع رأسه. نزع سيفنا جوشنهم^(١) .: وودعت الأجساد أرواحها

فتغطت أرض حاسان بأكوام من أجساد القتلى ونصر البارى جنده نصرًا مبينًا، ولحقت هزيمة ماحقة بالروم، وفى تلك الحرب حمل «أشقف» القبطى من المقوقس رسائل، وقد حضر هذه الحرب ورأى الروم فى كسرتهم، فأخبر بذلك المقوقس، فجعل القبط يقاتلون الروم، وفى موضع يسمى «قواصر» أقام عسكر الإسلام خيامهم ومكثوا فيها، وقال القيابطة إن جند العرب جند شداد غلبوا ملكنا المقوقس وأوقعوه فى الأسر، وسبق أن هزمونا وأسرونا - قال هذا بعضهم لبعض - وكان يقول بعضهم أيضًا: إن هؤلاء العرب قوم أحبهم ملكنا المقوقس وهم جند محمد العربى وإذا انضممنا إليهم كانوا المظفرين وفى هذا الأمر تشاوروا.

فقاد جند المسلمين بليس وعسكروا فى موضع يسمى «أم دنين» بالقرب من مدينة الخانكة ومن هذه الجهة خرج جيش الروم وفى صحراء الخانكة اقتتل الجيشان ثانية وتقاتلوا سبع ساعات حتى المساء ثم تهاونوا عند الغروب، وفى هذا اليوم استشهد من الصحابة الكرام سبعون رجلاً - عليهم رحمة الله - ومن الغد فى الصباح وصل مدد من قبل عمر يتألف من أربعة آلاف رجل هم من خيرة الجند، فدبت فى جند المسلمين روح جديدة، وفى هذا اليوم حاصروا قلعة «ببليون» وهناك دار قتال ضار، وفى النهاية تولى القيادة الزبير بن العوام والأسود بن مقداد وشدوا من جانب القلعة التى دكت بالمنجنيق ففتحت وغنم المسلمون كثيرًا من الغنائم وفى موضع القلعة المفتوحة - بحمد الله - جاء مدد من أربعة آلاف جندى من خيرة الجند والفى جمل وسر عسكر الإسلام سرورًا عظيمًا وانخلعت قلوب من فى مصر من الروم رعبًا، وتشاور عمرو بن العاص فى الأمر وأقر الهجوم على مصر من جهاتها الأربع، ثم رأى جواز محاصرتها، ثم انطلقوا إلى الإسكندرية؛ وطووا المراحل فى أرض البحيرة وضربوا الحصار على قلعة

(١) الجوشن: الصدر، والدرع.

الإسكندرية، ووصل المدد تباعاً للروم. إلا أن عسكر الإسلام أحاطوا بداخل القلعة، وبعد أن دام الحصار تسعة أشهر بالتمام خرج القبط من القلعة آمنين ومضوا إلى مدينة حوش عيسى بالقرب من دمنهور، أما جند هرقل اللعين لم يقبلوا الصلح الذي اقترحه ملكهم وخرجوا للقتال، وفي آخر الأمر في العام التاسع عشر للهجرة مات هرقل اللعين في مدينة قيصرية فجزع الروم الموجودون في الإسكندرية لموته، وعرف عسكر الإسلام كذلك هذا الخبر، وأغارت جيوش الموحدون من نواحي القلعة التي دكها المنجنيق وفي يوم الجمعة في شهر المحرم من العام العشرين للهجرة فتحت قلعة الإسكندرية الحصينة وغادرها كل من فيها راكبين السفن ومضوا إلى عكا وصيدا ومنهم من اتجه إلى الرملة واستولى جيش المسلمين على قلعة الإسكندرية، وأقاموا أديرة ومساجد وتكايا، وبشر عمرو بن العاص عمر بن الخطاب بهذا النصر وأرسل له عشرة آلاف صندوق من الذهب كما أرسل إليه مائة ألف قطعة من السلاح ولما وصلت عمر أصدر أمراً يقول له فيه: «لا شك أنك مالك مصر، ولا تنظر إلى القلاع على ساحل البحر، إن الحفاظ عليها أمر عسير، فإذا ما قدم الروم في سفنهم استولوا عليها، أما إذا جاء الروم من ناحية البر انهزموا بمشيئة الله، وجاء بذلك رسالة مع خلعة فاخرة، لقد غنم جند المسلمين أموالاً كثيرة إلى حد أن خص كل منهم على الأقل مائة ألف دينار من ذهب، وفي زمن الجاهلية قدم عمرو بن العاص القائد الأعظم من القدس إلى الإسكندرية، ونزل ضيقاً على دار الشماس.

وفي ميدان اللعب بالصولجان وضع عمرو على رأسه كرة الصولجان، فتذكر عمرو هذا فمضى إلى الشماس فوجده مريضاً طريح الفراش، فذاواه أياماً عدة حتى عوفي الشماس من مرضه؛ فمنحه عمرو سبعين جملًا تحمل مال الخزان، ودعى الشماس إلى الإسلام، فشرفه الشماس بالدخول في الدين الحنيف توكلاً بلا تردد، وقدم الملك المقوقس إلى غزاة المسلمين في الإسكندرية من أطايب الطعام والشراب وكثيراً من الهدايا، وجعل عسكر الإسلام يغتنمون ولكن عسكر الروم كانوا محصورين في مصر القديمة لأنهم كانوا مجبرين على أن يكونوا في يد الروم وسوف نذكر أوصاف مدينة الإسكندرية فيما يلي بمشيئة الله.

وصف حصار عمرو بن العاص .رضى الله عنه .لمدينة القاهرة

فى العام الحادى والعشرين للهجرة حينما كانت الخلافة لعمر بن الخطاب أذن لعمرو بن العاص أن يضرب الحصار حول مدينة الفسطاط، وهى مصر القديمة، بجيش كموج البحر؛ وذلك بعد فتح القدس . وفى الحملة الرابعة على الشام وبالقرب من مدينة دمشق فى موضع يسمى (حابية) أنفذ عمر إلى عمرو بن العاص جيشاً قوامه أربعة آلاف مقاتل، وبينما كان فى طريقه من دمشق إلى مصر فتح فى البداية ديار عسقلان وقلعة يافا وقلعة تينة وقلعة دمياط وقلعة البرلس وقلعة رشيد وبعد ذلك فتح مدينة خوش وقلعة الفيوم وقلعة بهنيسا، وبعد ذلك أحاط بمصر القديمة، وبعد قتال دارت رحاه ثلاثة أشهر وفى المرة الثالثة جاء المدد وعلى رأسه الزبير بن العوام ومقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت، مضى المقوقس فى أمان مع من معه إلى خوش عيسى، ولم يستطع الروم الصمود للحصار؛ فسلموا قلعتهم صلحاً ومضوا فى النيل إلى دمياط، وأصبحت جميع الكنائس مساجد، وبلغت عمر بن الخطاب البشرى بفتح الفتوح هذا، وعبر جميع الصحابة الكرام وجميع أهل مكة والمدينة عن فرط ابتهاجهم بذلك، وقدم عمرو بن العاص والياً على مصر من قبل عمر بن الخطاب وبدأ عمرو بن العاص بإقامة العدل بين الناس وأولى عمران مصر اهتمامه، وفى العام الحادى والعشرين للهجرة أقام عمرو بن العاص فى موضع خيمته مسجداً عظيماً وحماماً وسموه حمام (الفأرة)، وأقام فى جانب مدينة الجيزة قلعة كما أقام قلعة فى جزيرة أم القياس وسماهما قلعة الروضة، واليوم تسمى هذه الجزيرة جزيرة الروضة، لأنها تشبه روضة من رياض الجنة وآثارها اليوم بادية للعيان.

ودانت بالطاعة لعمرو من قبائل العرب قبيلة بنى مالك وقبيلة بنى شكر التى سكنت جبل الكبش، وأقام فى موضع الخيام مدينة أسماها فسطاط شكر وكان اسمها من قبل مدينة جبل الكبش، فقد كان فيها فى عصر الكهنة كبش من النحاس الأصفر وهو طلسم عظيم، وإذا ما تشارك هذا الكبش مع الكباش زاد عدد الشيا، ولذلك سموه جبل الكبش، وقدمت قبيلة بنى حَجَر بنى سيف ونافع وهمدان وأطاعت عمرو بن العاص، واستوطنوا العرب المناطق الواقعة من الجزيرة إلى أرض المغرب إلى أوجله، كما

أطاعته قبيلة ابن همام وبنى جَوَّارة وبنى عابد واتخذوا من مصر العليا وطنًا وقدم الملك المقوقس إلى عمرو خزانة من ذهب وبسط إليه الرجاء أن يقيم على جبل المقطم وسفحه في الجانب القبلي من مصر، ولم يقبل عمرو ما قدم إليه المقوقس من ذهب، وعرض ذلك على عمر بن الخطاب في المدينة ولم يرض عمر بذلك وكتب إليه يقول: «إن هذه أرض مباركة وأقم لموتى المسلمين فيها مقبرة، لأن فيها سيدنا عامر أو مغافر وفي السفح دفن خمسة رجال وحذافة بن عبد الله السهمي وعبد الله بن حارث الزبيدي من زبيد وهي مدينة من مدن اليمن، كما دُفن فيها أبو نصر الغفاري وعامر بن عقبة الجهني، كما دفن فيها كثير من الأنبياء قبل الطوفان، وكم من أبناء الأنبياء دفنوا فيها بعد الطوفان، ولا تكون المقبرة إلا للمسلمين».

هذا ما كتبه عمر في رسالته إلى عمرو، فما أعطى عمرو هذا المكان للمقوقس إنه الآن المقبرة الكبرى، وفيها يدفن عظماء مصر وسوف نكتب عن هذا بمشيئة الله في موضعه.

وبناء على قول ابن الحكم - رحمه الله - إن جبل خليل الرحمن في القدس وجبل طور سيناء وجبل ينسج وعرفات وإلى ساحل نهر مراد والرها وحلب وريح ومن اللاذقية إلى ساحل البحر حتى مصر كل هذا أرض مقدسة، هذا قول ابن الحكم، ويذهب إلى هذا كذلك كعب الأحبار، ولكن بعض المفسرين والمحدثين والمؤرخين يقولون: «أرض حاسان هي مدينة بلبيس وما بعدها إلى مصر أرض غير مقدسة»؛ فافهم بقول صحيح..

أما في تواريخ القبط فمن يدفنون في جبل المقطم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهذا ما تبينه أحاديث سيدنا إدريس - عليه السلام - ودانيال والعزير والنبي قفاح.

وإذا ما دخل مصر من اشتد به العلة ورقد في ظل جبل المقطم سبعة أيام شفى بإذن الله، وعند طلوع الشمس من وراء هذا الجبل يمتد ظله إلى مصر القديمة الواقعة على ساحل النيل، وعلى حد قول وهب بن سفيان أن ما يقع عليه ظل هذا الجبل في مصر يعد أرضاً مقدسة، لأن في هذه المنطقة دفن أنبياء وبنوهم وما أكثرهم، والحق أنها جديرة بأن تكون أرضاً مقدسة ففي داخل مصر وخارجها دفن من الصحابة ثلاثمائة وأربعون.

وحينما فتح عمرو بن العاص مصر دفن فى أركان مصر الأربعة سبعة آلاف شهيد من الصحابة الكرام ومجمل القول أنه حينما حكم عمرو بن العاص مصر عمرت إلى حد أن أصبحت عروس الدنيا وأم الدنيا.

وفى زمن إبراهيم - عليه السلام - أجرى طوطيس ماء النيل إلى بحر السويس وبعد ذلك سمع أبو المقوقس بظهور النبى ﷺ فسَدَّ الخليج رَغْمًا عنه، فلم يجز النيل إلى السويس، لكن عمرو بن العاص جرف هذا الخليج مرة أخرى، فجرت فى النيل سفن تحمل الغلال إلى السويس ومنها مضت السفن إلى جدة وينبع، وعُصِمَت مكة والمدينة، لأن البارى فتح من الجنة على وجه الأرض أربعة أبواب: باب فتح على ميناء جدة، والثانى على ولاية عسقلان، والثالث على ولاية غزة، والرابع على ولاية الإسكندرية وهى ولايات مصر، والسلام.

وبعد ذلك توفى عمر فى المدينة، وآلت الخلافة إلى عثمان، وفى عهده مات عمرو ابن العاص فى مصر، وجعل عثمان الحكم فى مصر لمحمد الأكبر ابن أبى بكر الصديق، ولكن مروان كاتب عثمان وهو غير مروان الحمار، ما إن بلغ محمد الأكبر مصر حتى وجّه من قبل عثمان، إلى أهل مصر رسالة، وبحيلة من مروان الكاتب وهو يكتب كتب عبارة: إذا جاء الأمير فاقبلوه. وجعل القاف والباء بلا نقط وختمه بخاتم عثمان، ثم جعل فوق الباء غير المنقوطة نقطتين فأصبحت «فاقتلوه»، وأرسل مروان الكاتب هذه الرسالة إلى مصر واقتضت حكمة الله أنه حينما وصلت هذه الرسالة وقعت فى يد محمد الأكبر فردّها إلى المدينة المنورة، ولما أطلع أهل المدينة عثمان عليها قال: حاشا لله لا علم لى بهذا الخبر، وحجزه فى بَيْتِهِ وضرب أهل المدينة الحصار على بيت عثمان أربعين يومًا وبينما كان عثمان يتلو القرآن الكريم فى اليوم الحادى والأربعين قتلوه شهيدًا. وأوصاف المدينة المنورة مذكورة أعلاه.

ثم كانت الخلافة بعد عثمان لعلى بن أبى طالب، إلا أن دولته لم تكن وطيدة الأركان وظهرت فى مصر الفتنة والفساد إلى الغاية، فكانوا يولون كل يوم حاكمًا. وبقي حالها هكذا إلى زمان دولة العثمانيين.

الفصل العاشر

بيان من حكم مصر من أمة محمد إلى عهد آل عثمان

أى إلى عهد السلطان محمد الرابع،

ومن خرجوا إلى مصر ليكون لهم الملك فيها

واسماء هؤلاء والقابهم ومدة حكمهم

إن الباحث على تأليف هذا الكتاب هو عرض ما ذكر مؤرخو الروم وأهل العلم، ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾^(١)، وبناء على توجيه هذه الآية الكريمة، جعلت بداية الكلام فى ذكر أبى البشر آدم من لدن هبط على آدم هذه الأرض وانتشرت ذريته فيها، وقد استولى على الأرض أولاد آدم، ولكن وقع كثير من الخلاف فى مختلف الأمم وأسلاف الملوك؛ أما فيما يختص بأهل مصر وبلاد القيوم فالطوائف المتباينة فى هذا البلد شاء الحى القيوم أن يخلقها إظهاراً لقدرته - تعالى - وذلك قبل أن يخلقها ومن أجل أن يجعل من مصر موئلاً لأمة حبيبه محمد ﷺ وأمر بذلك أنبياءه. وما أكثر ما حكمها من ملوك إلى أن دخلت فى حوزة عمر خليفة النبى ﷺ فى العام الحادى والعشرين للهجرة، وكان فتحها على يد عمرو بن العاص الذى امتد حكمه فيها (٢) عاماً، وعُمِرَ (٣) عاماً، وفى عهده كانت جزيرة مصر مساحتها ثمانية آلاف ميل كجزيرة الإنجليز وهى أرض الغرب، وفى هذه الجزيرة كان الحكم لثمانية عشر ملكاً ضربت باسمهم السكَّةُ^(٤)، وقد خشوا جانب عمرو فاطاعوه وانقادوا له، إذ إن كثيراً منهم أغاروا على مصر بئد أنهم ارتدوا عنها منهزمين وانتهى بهم الأمر إلى أن يؤدوا الخراج وبذلك قر قرارهم، إذ إن عمرو بن العاص كان قائداً مغواراً بأسلاً.

وبعد أن انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى أفضى الأمر إلى الخلفاء الراشدين وهم أمراء المؤمنين، وانتهت خلافتهم بالإمام الحسين - رضى الله عنه - وقد انصرف الإمام

(٢، ٣) بياض بالأصل.

(١) سورة الصافات: الآية ١٦٤.

(٤) السكَّةُ: النقود.

الحسين عن الخلافة عن رضى وطواعية وتنازل عنها ليزيد بن معاوية، وبما أنه لم يبايع يزيد وجه يزيد بالآلاف من جنده إلى الكوفة لمحاربة الحسين، وفى العام الحادى والستين للهجرة استشهد الإمام الحسين واستقل يزيد بالشام ملكاً عليها، أما أبوه معاوية فكان من كتاب الوحى ومن ذوى قربى الرسول ﷺ، وكان ملكاً على الشام فى خلافة على - كرم الله وجهه -.

بنو أمية

إنهم أربعة عشر: أولهم معاوية، وأمه هند بنت عتبة^(١) بن عبد شمس، وقبل زواج أبى سفيان منها كانت روجة لأبى عمرو حفص بن المغيرة المخزومى، وقد ولد لها معاوية. وكان معاوية فى الثامنة والخمسين حين كانت له الخلافة، وتملك تسعة عشر عاماً وثلاثة أشهر، وعاش ثمانية وستين عاماً، وأفضت الخلافة من بعده إلى ولده يزيد بن معاوية وقد هلك عام ستين للهجرة وله من العمر تسعة وثلاثون عاماً وثلاثة أشهر، وقبره فى دمشق.

وفى رواية: أن تيمور نبش قبره ووجد جثته سليمة غضة فأضرم النار فيها. وكانت الخلافة بعد يزيد لولده معاوية، ثم خلفه مروان، ثم عبد الملك، ويعد الوليد بن عبد الملك، ثم سليمان، ثم عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد، ثم هشام، والوليد، وإبراهيم، ثم مروان الحمار، هؤلاء هم جميع خلفاء بنى أمية.

ولقد حارب مروان الحمار على شاطئ نهر الفرات ولحقت به الهزيمة، فانطلق إلى مصر هارباً وفى ديار مصر على الشاطئ الغربى لنهر النيل فى قرية أبو صير قبالة مصر القديمة قطع عنقه عامر بن الجرجانى وعبد الله بن مازن وأرسلت رأسه إلى أبى مسلم، وبذلك انقرضت دولة بنى أمية.

ودامت دولتهم إحدى وتسعين سنة وقد ملكوا عراق العرب وعراق العجم، ومصر وبلاد المغرب، ومائة بلد، وكان أبو أيوب الأنصارى قائد جيشهم إلى القسطنطينية، وامتلكوا نصف القسطنطينية، وقد كُتِبَتْ تفصيلاً عن ضريحه الشريف، وانتقلت الخلافة من بعد إلى بنى العباس، وتربعوا على العرش (٢) عاماً.

(٢) بياض فى الأصل.

(١) فى الأصل: عينية، والصواب ما أثبتناه.

أوصاف دولة بنى العباس

إنهم سبعة عشر: أولهم المستنصر بالله الذي كان له ملك مصر، وكان الملك في بغداد لعشرين من العباسيين، وثلاثون منهم سكنوا مصر، وانقرضوا بالمعتصم، وأولهم عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ومدة خلافتهم جميعاً خمسمائة وأربع وأربعين سنة، أما المنقرضون في مصر من آل العباس فانقرضوا بالمتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب، وفي عهد السلطان قلاوون دامت له الخلافة في مصر إحدى وأربعين سنة وشهرين وخمسة أيام، وفي عام سبعمائة وعشرة للهجرة لم يكن حكمه نافذاً، وقد عدم حياته، ولم يأت خليفة من العباسيين يشابهه في سفاهته وانتهى أمره بأن قتله أخته.

ولقد بلغ هولاء بغداد بإيعاز من نصير الدين الطوسي، وبعد أن استشهد المعتصم بالله كان المستنصر هذا في بادية العرب في صحراء بغداد، ولم يستطع بلوغ بغداد خشية التار، فهام على وجهه شريداً، ولكن دعاه الظاهر بيبرس إلى مصر، وفي عام ستمائة وتسعة وخمسين استقل بمنصب الخلافة في مصر، وبايعه الظاهر بيبرس وأعيان مصر قاطبة، وأصبح صاحب السكة والخطبة، ومضى إلى دمشق بجيش عظيم تحت إمرته، وحينما غادر دمشق إلى بغداد أسند حكم مصر إلى الظاهر بيبرس، وبلغ بغداد فابتهج العباسيون بمقدمه وأقام الحاكم بأمر الله العباسي مرة ثانية في قلعة الكيش في مصر خوفاً من بطش هولاءو خان. وعاش إحدى وأربعين سنة في مصر وله الخلافة فيها، وفي عام سبعمائة وتسعين ولد في مصر ولده المستكفي بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله، وسكن قلعة الكيش التي سكنها أبوه، وترجع على سرير الخلافة، إلا أن مقاليد الحكم كانت في يد الظاهر بيبرس، وجرى قضاء الله وحكمته أن تقع الجفوة بين المستكفي بالله بن الحاكم بأمر الله والظاهر بيبرس بسبب وقية؛ فرحله مع أسرته إلى مدينة قوص في الصعيد الأعلى، وهناك أدركته الوفاة في عام سبعمائة وسبعة وثلاثين للهجرة.

ولما كان الحاكم بأمر الله على قيد الحياة جعل الخلافة في ابنه محمد ولقبه المستمسك بالله، إلا أن ابنه هذا مات قبله؛ فأوصى الحاكم بالخلافة لابنه الأصغر أحمد المستكفي

بالله، إلا أن الملك الصالح لم يعمل بوصية الحاكم بأمر الله ورأى أن ابن أخيه إبراهيم هو بالخلافة أجدر، ولقبه الوائق بالله، إلا أنه كان صاحب لهو ولذلك نُفِيَ إلى قوص وأصبح ابنه محمد خليفة، وكان كذلك سفيهاً فنفى إلى قوص، وهؤلاء الخلفاء مدفونون في قوص.

ومن بعد أصبحت الخلافة في مصر ثلاث عشرة سنة لأحمد المستكفي بالله سليمان، وفي عهد الملك الصالح بن الملك الناصر مات بالطاعون عام سبعمائة وثلاثة وخمسين وهو مدفون بجوار السيدة نفيسة، ثم كانت الخلافة من بعده في مصر للمتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله أبي بكر.

وفي عام سبعمائة وثمانين كانت الخلافة لبرقوق من الجراكسة وطالب بالسلطنة فخلع المتوكل من الخلافة، فسجنه في قلعة الجبل وأقام في سجنه ستة أعوام ثم أطلق برقوق سراحه وجعله خليفة.

وفي عام ثمانمائة وسبعة وتسعين أرسل السلطان العثماني يلدريم با يزيد رسولاً إلى الخليفة المتوكل هذا، وطلب منه الإذن بالبيعة تبركاً، فدعى الخليفة الله للسلطان يلدريم بايزيد قائلاً: بارك الله في السلطان يلدريم، وأهدى إليه سجادة مع صحيفة. ودام سجن هذا الخليفة وخلافته وعزله خمسة وأربعين عاماً وتوفي في عهد السلطان فرج بن برقوق ودفن إلى جوار السيدة نفيسة. إلا أن أحوال مصر والشام اختلت في عهد الخليفة المتوكل هذا.

وفي عام ثمانمائة وستة عشر خربَ تيمور خان الشام، وانخفض منسوب النيل ولم يكن له فيضان، فأصاب الناس قحطاً عظيماً، فثارت الفتنة ووقع الفساد وآلت الخلافة بعد ذلك إلى الوائق بالله عمر بن إبراهيم بن المستمسك بالله ابن الحاكم بأمر الله، ووافاه الأجل عام سبعمائة وثمانية وثمانين للهجرة، وهو مدفون في ضريح السيدة نفيسة، ودامت الخلافة من بعده للمعتضد بالله داود ابن المتوكل على الله محمد اثنين وثلاثين سنة.

وفي عام ثمانمائة وخمسة وأربعين توفاه الله وشهد جنازته السلطان جيقيماق، ودفن بجوار السيدة نفيسة، وكانت الخلافة من بعده للمستكفي بالله سليمان، والمتوكل على

الله محمد، ولكنه ظل خليفة تسعة أشهر ليس إلا، وشهد جنازته السلطان جيقماق وأخوه المقتصد بالله مدفون فى ضريح السيدة نفيسة، وهو كذلك مدفون فى هذا الضريح، وأصبح الخليفة بعده القائم بأمر الله حمزة ابن المتوكل على الله محمد، وبعد خمسة أعوام غضب عليه سلطان مصر إينال فنفاه إلى الإسكندرية، وبها توفى سنة ثمانمائة وثلاث وستين، وأخوه المستعين بالله مدفون بجواره فى الإسكندرية، ودامت الخلافة للمستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله محمد خمسة وثلاثين عامًا.

وفى عام ثمانمائة وأربعة وثمانين شهد السلطان قايتباى جنازته، ودفن بجوار السيدة نفيسة فى مقبرة سائر الخلفاء العباسيين، ودامت الخلافة للمتوكل على الله عبد العزيز ابن يعقوب بن المتوكل على الله تسعة عشر عامًا، وتوفى عام تسعمائة وثلاثة فى عهد السلطان الناصر محمد قايتباى ودفن بجوار السيدة نفيسة.

ولقد عاصر المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب فاتح مصر ساكن الجنان السلطان سليم، ومضى مع السلطان سليم إلى اسطنبول وأعزه كثيرًا وأكرمه، وتوفى السلطان سليم، وبعده أكرمه وأجلَّهُ السلطان سليمان إلى أبعد غاية، وفى أول خلافته تقلد السيف منه فى جامع أبى أيوب الانصارى وتلقى منه البيعة وجلس سليمان على العرش وذلك لانه - أى الخليفة المتوكل - من خلفاء العباسيين القدامى.

ولحكمة الله حينما بلغ المتوكل نعى أبيه المستمسك قدم مصر معززًا مكرمًا بإذن من السلطان سليمان، وخلف أباه فى الخلافة. وكانت خلافته ثلاثة وعشرين عامًا، وتوفى عام تسعمائة وثمانية فى عهد ولاية داود باشا ودفن بجوار السيدة نفيسة، وبوفاته انقرض خلفاء بنى العباس فى مصر وهم سبعة عشر خليفة ودامت خلافتهم ستمائة واثنين وثلاثين عامًا.

وخلفاء بنى العباس فى مصر كانت لهم مرتبة شيخ الشيوخ، ولكن الحل والعقد والضبط والربط كان فى أيدي الجراكسة، والمنع والمنع وتذير الأمور فى يد الجراكسة منهم وكانوا يبايعون وحسب. ويُسمى الواحد منهم خليفة رسول الله ﷺ وبعدهم كانت:

الدولة الطاهرية

وهم فى خراسان خمسة :

أولهم طلحة الخليفة، والخليفة عبد الله، والخليفة على، والخليفة محمد، ومدة حكمهم ثمانية وتسعون عامًا، لم يملكوا مصر وجاءت بعدهم :

الدولة الصفارية

وكان فى حوزتهم ديار خراسان وبلخ والعراق وأصفهان، وهم تسعة، إنهم عبارون لهم الشهرة بالنجدة والبسالة، وحكموا اثنتين وخمسين سنة، لم يملكوا مصر، وبعدهم قامت :

الدولة السامانية

وهم تسعة أولهم إسماعيل السامانى، ثم أحمد، ثم نصر، ثم نوح ثم عبد الملك، ثم المنصور، ثم نوح، ثم منصور، ثم عبد الملك، وبدلاً من سلطان وخليفة يقال لهم سامان والجمع سامانيان (أى السامانيون)، وحكموا بلاد ما وراء النهر وخراسان والصين، وجاءت بعدهم :

دولة بنى آل زياد

وكان لهم ممالك خراسان، وجرجان، وطبرستان، والعراق، حتى إن أنو شيروان عزم على أن ينطلق من بغداد إلى مملكتهم فى اليمن، ولكن تبابعة اليمن يدينون لهم بالطاعة، إلا أنه انثنى عن عزمه، وهم ستة ويقول المؤرخون إنهم العدول : العادل مردوانج، والعادل شمكين والعادل بهسان، والعادل قابوس، والعادل منوجهر، والعادل أنو شيروان، دامت حكومتهم ()^(١) عامًا وقيل إنهم أقاموا العدل فى الناس مثل أنو شيروان العادل، وجاءوا فى عهد الكفرة، وكان عدلهم كعدل أنو شيروان، هذا ما يذكره الناس، إلا أننا لم نقع عليه فى كتب التاريخ وقد عُمر أنو شيروان هذا طويلاً، وجاءت بعدهم :

(١) بياض بالأصل.

الدولة البويهية

وهم سبعة عشر، دام الحكم لهم () (١) عامًا، وجاءت بعدهم:

الدولة السبكتكية

(دولة آل سبكتكين)

وهم أربعة عشر، حكموا مائة وستة وسبعين عامًا، وجاءت بعدهم دولة:

دولة آل غوره

وهم خمسة، دام الحكم لدولتهم () (٢) عامًا، ثم قامت:

الدولة الخوارزمية

وهم تسعة حكموا مائة وستة وثلاثين عامًا، حكموا ممالك (.....) (٣) ثم قامت بعدهم:

الدولة السلجوقية

وهم ثلاث طبقات: الطبقة الأولى منهم: ملكت إيران وما وراء النهر، وهم أربعة عشر، ودام ملكهم () (٤) سنة.
الطبقة الثانية: (دولة السلاجقة الثانية): وهم الذين ملكوا كرمان وعددهم أحد عشر، حكموا مائة وتسعة وخمسين عامًا.

دولة سلاجقة الروم

وهؤلاء أربعة عشر، جاءوا أول أمرهم من بلاد ما وراء النهر، وقدموا إلى ديار اليونانيين أي قره مان، وقونية وسواص - فملكوها، وهم كيانيو الروم لأن أسماءهم كيقباد وكيخسرو وكيارسلان، وهم سبب رفعة آل عثمان، وسنوضح ذلك في موضعه إن شاء الله، وجاءت بعدهم:

دولة تاج الدولة

وهم ستة، ولهم القاب الملوك آل تاجيان، ملكوا الشام والعراق ودامت دولتهم (١) عامًا. ثم قامت بعدها:

دولة الأتابكة

وهم ستة، حكموا في بلاد الشام ودمشق، حكموا (٢) عامًا، وجاءت بعدهم:

دولة آل عمريه

بعد مرور مائتي عام بعد الهجرة النبوية كان ظهورهم، فتحوا الموصل وجزيرة العمر وأمد وملاطيا، وأقام الأمير عمر ملاطيا حاضرة لدولتهم؛ وهم ثلاثة: أولهم الأمير زياد ثم ابنه الأمير لقمان، ثم ابنه الأمير عمر فاتح ملاطيا. ثم قامت:

دولة الأتابكة الكبرى

وهم ستة: أولهم نور الدين الشهيد، وبينما كان الكفار يدبرون لنش قبر النبي ﷺ كان نور الدين هذا سلطانًا، وقد رأى النبي ﷺ في المنام يقول له: هلم يا نور الدين وذد عن حرمة قبر رسول الله، واقتل الكفار. فأحاط نور الدين الشهيد الروضة المطهرة بصناديق مملوءة بالحديد والنحاس والرصاص، ونور الدين الشهيد بن آق سقّر البرسقي أول من أقام قلعة للمدينة المنورة.

وقد ملكوا الشام والعراق وأذربيجان والبصرة والحسا وبيس وترسوس وأطنه. وانقسم الأتابكيون ست فرق، كل فرقة تتألف من ستة عشر، وأولهم:

الصلاحيون

الذين لحقوا بخدمة نور الدين الشهيد، ولقد استولى فرنجة إسبانيا على دمياط ورشيد في مصر، وأغاروا وسلبوا ونهبوا، فاستجد المصريون بنور الدين الشهيد، وأمر نور الدين الشهيد الأمير أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على جيش قوامه مائة ألف مقاتل استخلص عسقلان ويافا ورشيد ودمياط من أيدي الكفار،

(١، ٢) بياض بالأصل.

وقد أعجب أهل مصر كل الإعجاب بنجدة وشجاعة صلاح الدين فحكم مصر، ولم يضرب السكة ولا قرأ الخطبة باسم سيده نور الدين، وبينما كان صلاح الدين يأمر بأن تقرأ الخطبة باسم الخليفة المتقى فى بغداد، مرّ ذلك بمسمع نور الدين الشهيد فى دمشق فأخذه شديد الأسى، فاستدعى يوسف صلاح الدين هذا إلى دمشق، إلا أن صلاح الدين خاف الذهاب إلى دمشق فانتحل المعاذير، وفى عام خمسماية واثنين وسبعين شيد القلعة الداخلية فى مصر بمال الغزو وأحاط القاهرة من جوانبها الأربعة بسور طوله تسعة وعشرون ألف وثلاثمائة ذراع وهو إلى الآن بادٍ للعيان، وبعد ذلك توفى نور الدين فى دمشق واستقل صلاح الدين يوسف هذا ملكاً بملك على مصر كما ملك دمشق وحلب، وجعل فى مصر من رعاياه سبعة عشر ملكاً، وفى زمان خلافة صلاح الدين وفى عام خمسماية واثنين وستين شن حرباً شعواء على الفرنجة فى مرج العيون، ولها أخبار فى جميع التواريخ، وأقام مدرسة عظيمة فى مصر بالإمام الشافعى بأموال الغزو. وطبقة أخرى من الأتابكة هى:

دولة آل أيوب بن شاذ الكردي

يقول بعض المؤرخين: إن صلاح الدين من الأيوبيين، وهم سبعة: منهم الملك الأشرف خليل بن قلاوون الذى حاصر قلعة عكا أربعة وأربعين يوماً، وفتحها بحرب ضروس، وحتى لا يستولى الكفار على عكة هدم قلعة عكا من أساسها، وسوف نكتب عنها من بعد، وبعده دفن الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين فى جامع صلاح الدين، وهو من آل أيوب، وبعده كانت الخلافة للملك الكامل، ثم أصبح الملك الأشرف خليفة، وفى زمنه استولى الفرنجة على جميع القلاع التى على ساحل البحر وسلم القدس للفرنجة صلحاً، وكان ذلك عام ستمائة وخمسة وثلاثين، فكان ذلك افتضاحاً، ومات من ألم فى رأسه وهو فى الستين من سنه، وجاء من بعده الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى دفن فى مصر. وبعده آل الأمر إلى الملكة شجرة الدر والمماليك البحرية، وهم ثمانية وثلاثون، دامت دولتهم مائة وستة وثلاثين عاماً. وجاء من بعدهم:

دولة الجراكسة

إن الملك المنصور سيف الدين قلاوون ولى نعمة الجراكسة والأباضية، والجراكسة يقال لهم المماليك البرجية، وبعده الملك الكامل محمد كامل، الذى توفى فى المنصورة وله من العمر ستون عاماً، وحُمل نعشهُ من المنصورة ليدفن فى جامعهِ فى القاهرة، وفى مصر بين القصرين شيد أربع مدارس للمذاهب الأربعة، كما شيد قلعة فى جزيرة الروضة وأثرها ما زال باقياً، وحينما توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب والد الملك المعظم توران شاه فى المنصورة، كان حسن كيقباد والياً على كردستان، وأمه شجرة الدر خاتون (وهى التى كست الكعبة حريراً أسود) وهى التى كتبت سر وفاة الملك الصالح فى المنصورة ثلاثة أشهر. وأرسلت إلى حسن كيقباد بن الملك المعظم رسولاً فى عجلة وخفية، ودخل الملك المعظم مصر بعد ثلاثة أشهر وترجع على سرير الخلافة، وفى عام ستمائة وثمانية وأربعين أعمل القتل فى جميع الفرنجة الذين استولوا على دمياط، وفتحها وقد تمرد على هذا الملك عبيده وقتلوه شهيداً. فانتقلت الخلافة إلى شجرة الدر والدته، فأمرت بأن تكسى الكعبة حريراً أسود وذلك خير عظيم لم يتيسر للملوك، وأصبح زوجها أى بك (أيك) وتلقب بالمعز، وكانت مصر بعد ذلك لدولة:

دولة التركمانيين (الكمانيان)^(١)

وعدهم ستة: وهم كذلك من طوائف الأتابكة، ثم غضب شجرة الدر على زوجها (أيك) التركمانى لأنه كان سبياً فى قتل ابنها معظم شاه، وتزوج أيك من ابنة أمير الموصل، فذلت شجرة الدر وحقرت وسقطت منزلتها، وبينما كان أيك يغتسل فى الحمام تحينت شجرة الدر الفرصة فأمرت جوارىها أن يحملن عليه بالسلاح، وحينما اقتحمت الجوارى الحمام يحملن أسلحتهن لم يكن أيك غافلاً، وكانت عورته بادية فوقف أمام الجوارى وقفة الأسد، وفى تلك اللحظة كانت شجرة الدر تنظر من ثقب فى قبة الحمام، وشاء الله أن تنهدم القبة وتسقط منها بجانب أيك التركمانى، وقد تهشمت عظامها، ولما رأى ذلك أيك ترك الجوارى وقتل شجرة الدر إلا أن الجوارى قتلن، وهما

(١) يياض بالأصل.

الآن دفينان في قبر في «زقاق الخلالين» بالقرب من السيدة نفيسة، وكذلك ولد شجرة الدر الشهيد معظم شاه مدفون فيها.

وانقرضت سلالة الأيوبيين بمعظم شاه هذا، وانتقلت سلطتهم إلى ممالكهم، ولكن في تلك الأونة كان لأبيك التركماني ولد من ابنة أمير الموصل في الخامسة من عمره، وقيل إن لقبه المنصور، ملك ثمانية أشهر، وفي عهد العباسيين استولى هولاكو التتري على بغداد واعتقلوا المستعصم خليفة العباسيين، ووضعوا السيف في سائر أبناء الخلفاء (١) وأرسل إلى مصر، وفي عام ستمائة وسبعة وثمانين فتح بلاد النوبة، وفي عام ستمائة وثمانية وثمانين استولى على طرابلس الشام من الفرنجية وفي شهر ذي القعدة من آخر عام ستمائة وتسعة وثمانين أدركته الوفاة؛ ودامت سلطنته أحد عشر عامًا وشهرين وعشرين يومًا، وخلفه ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل، واستولى على قلعة عكا من الفرنجية، وفي المرة الثالثة التي قدم فيها الملك الناصر محمد بن قلاوون أصبح السلطان ثانية وذلك في عام سبعمائة وثلاثة وثلاثين، وفي عهده عُثر على الحاكم بأمر الله في جبل جوشيد قتيلًا، ومن الأتابكة طائفة:

دولة الأكراد

ومن الأتابكة طائفة انشعبت عنهم دولة الأكراد وهم سبعة، وفي مصر كانت دولتهم غير وطيدة الأركان، وكانت مدة حكمهم (٢) عامًا، وكان أعظمهم السلطان محمد أكراد الذي أقام قبة على ضريح الإمام الشافعي وكساها بالرصااص الأزرق، وهم مدفونون مع أمهم عند قدم الإمام الشافعي.

وجاءت من بعدهم:

الدولة القره خاطينية

وهم ثمانية ومن الأتابكة، وحكومتهم في ولاية كرمان، ودام الحكم لدولتهم

() (١) عامًا، وجاءت من بعدهم:

دولة الأيوبيين

وهؤلاء حكموا اليمن، وهم سبعة، وقد عمروا أرض اليمن وأسلافهم مدفونون في مدينة مزيب باليمن، وكانت مدة سلطتهم () (٢) عامًا، ثم جاءت من بعدهم:

دولة آل ملاح

ثمانية وفي قول آخر إنهم اثنا عشر، حكموا في مدينة قوهستان، دام حكمهم مائة واثنين وثمانين عامًا، ومن بعدهم:

دولة بنى أرتق

حكمت حلب وملاطيا وديار بكر، وهم خمسة وعشرون، وكانت دولتهم قوية عظيمة، ومن ألقابهم رجل الكلام، وكانت مدة خلافتهم () (٣) عامًا، و:

دولة آل مروان

حكمت دولتهم ديار بكر والموصل والجزيرة، وهم سبعة حكموا () (٤) عامًا، و:

دولة بنى مرداس الكلابي

وحكمت دولتهم حلب وعيتاب ومرعش، وهم سبعة، ويسمون دولتهم دولة الأكراد، والآن الأكراد منهم، حكموا () (٥) عامًا.

وبعدهم جاءت:

دولة آل بنى أسد

وحكمت دولتهم الحلة وتكريت وشهرزور، وهم سبعة وفي كردستان يسمونهم آل شيران، وألقاب سلاطينهم يزدن شير عبد آل شير، ضياء الدين، دام ملكهم () (٦) عامًا، و:

دولة آل بنى حمدان

ملكوا موصل الحريز واردلان ورومية ودوم دمي، ودمبولي، وهم ستة، دام ملكهم

() (٢) عامًا.

دولة آل بنى عقيل بن أبى طالب

وهو أخو الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه -، وحكموا الموصل والحلة وتكريت وهم عشرة، ومدت خلافتهم () (٣) عامًا، وبعد ذلك زحفوا إلى مصر إلا أن الأمويين سدوا عليهم الطريق، وحاربوهم حربًا شعواء، ولحقت بهم الهزيمة.

دولة التركمانيين

وهم خمسة كل منهم يلقب بالأمير، أولهم الأمير كربوغا، وفي أنطاكية حارب الفرنجة ودارت عليه الدائرة، وذلك فى عام أربعمئة وخمسة وتسعين، ونجى بنفسه ومضى إلى أصفهان ودفن خارج مدينة (خوى)، حكموا () (٤) عامًا. وجاءت بعدهم:

دولة الدأشمنديين

ملكوا بلاد سيواس نيكسار وبافرة وأماسية وقيصرية، وهم سبعة ويسمى الواحد منهم الملك، أولهم الملك غازى الذى دفن فى قلعة نيكسار وهم أول من حاربوا الروم، وحكموا () (٥) عامًا، وجاء بعدهم:

دولة آل قره يوسفيين. أى: (دولة الشياه السوداء)

يسمونهم القره قيونليين، وكانوا ملوكًا عظامًا، وهم عشرة، وكانت لهم السيادة على ديار بكر وأذربيجان والعراق وفارس، تلقب الواحد منهم بالبيك. ومنهم أوزون حسن، ودان بالطاعة لتيemor، وكان يمشى بجانب ركاب تيمور، وبعد موت تيمور هزم حسن هذا أولاده واستولى على الملك، وأصبح ملكًا عظيم الشأن، وأقام قلعة فى أرض الروم سميت بقلعة حسن، وبعد ذلك حارب السلطان أبا الفتح محمد خان الغازى فى صحراء ترجان حربًا حامية الوطيس، وتعلق معظم جند حسن بأذيال الفرار أمام سيوف جند محمد، وبلغ أوزون حسن تبريز وفيها أدركه الموت كمدًا، وهو مدفون فى ساحة

مسجده، ومدت دولتهم () (١) عاماً، وجاءت بعدهم:

دولة آل آق قيونلین، أى: (دولة الشياه البيضاء)

وهؤلاء ملكوا كذلك ديار بكر وأذربيجان والعراق، إنهم تسعة ويسمون الواحد منهم (باى)، ولأنهم كانوا ملوكاً مترفين إلى أبعد غاية لقب الواحد منهم (باى)، ومدة خلافتهم () (٢) عاماً وكانوا طوال حكمهم ملوكاً صالحين عابدين زاهدين متقين؛ وسلالة من آل عثمان تنتهى إليهم، قدموا من ديار ماهان، وفى تاريخ محمد جلبى الأدرنوى أن أوزون حسن منهم، وقال بعضهم إنه من دولة الشاة السوداء، وأنا سميت الاثنين قيون، أى: الشاة، ومن بعدهم:

دولة شاه شاهان إيران توران

وقد أقام دولتهم فى أردبيل الشيخ صفى الأردبيلى، وأول أمرهم كانوا خلفاء فى بلاد العجم وكانت لهم الحكومة والقطبية (٣) الكبرى، وبعده الشيخ جنيد وكان هو الآخر قطب أقطاب الآفاق على الإطلاق، وابنه الشيخ إبراهيم خان ابن الشيخ خواجه على بن الشيخ حيدر موسى ابن الشيخ صفى الدين أبو إسحاق الأردبيلى الذى كان أول ملوكهم، وهم إلى عهد الشاه عباس خمسة، ويطلقون عليهم من ألقاب السلاطين لقب شاه، وهم إلى الآن (٤) يملكون أذربيجان وإيران، ويلقبون فى اللغة الفارسية خدا وندكار، شاه شاهان، وشه، وشاه، وشاهنشاه، وخسرو، وشهريار، وسرور، وتاجوار، وصاحب قران، وشاه إيران توران، وجاءت بعدهم:

دولة الدرینديين

وهم تسعة ويلقبونهم بالملوك المالكون، وكان تحت حكمهم كنجه وسيواس شماقى

(١)، (٢) يياض بالأصل.

(٣) القطب هو: الواحد الذى هو موضع نظر الله - تعالى - من العالم فى كل زمان، وهو على قلب إسرائيل - عليه السلام -.. والقطبية الكبرى هى مرتبة قطب الاقطاب، وهو باطن نبوة محمد ﷺ فلا يكون إلا لورثته؛ لاختصاصه - عليه السلام - بالاكملية. معجم اصطلاحات الصوفية لعبد الرزاق الكاشانى ص ١٦٢. تحقيق د. عبد العال شامى. القاهرة، دار المنار ١٤١٣ هـ.

(٤) يعنى إلى زمن المصنف.

وباكو وباب الأبواب، وهم سنيون متعصبون وهم من نسل أنو شيروان، وظلموا وانقرضت دولتهم، ويحكم أملاكهم تارة آل عثمان وتارة شاه جهان، وبعدهم جاءت:

دولة الشام خالين

وهم كذلك من نسل أنو شيروان وهم سنيون متعصبون، ويسمون ملوكهم الآن (شامخال) أو شامقال وهم فرقة من الأوغوز، ولهم الآن ثمانين ألف جندي، وهم يذكرون آل عثمان في الخطبة، ومنهم (الأكار) الذين يسكنون جانب شمال جبال البرز، ولهم هناك سبع إمارات: إمارات قره بوذاق ومدنهم طرخو، وقووز، واندرى، وطابيران وفي ناحيتهم الشمالية دميرقبو على ساحل بحر الخزر، وفي ناحيتهم الشرقية كنجة وشروان شماقي، وفي ناحيتهم الجنوبية (جهة القبلة) جورجيا، لا تزال سلطتهم قائمة للآن ومنهم تيمر خان وحارب (أيد الله دولته) العجم لأن أقاليم ولايتهم جبال صعبة المرتقى وهم غزاة بواسل، ومن بعدهم:

دولة الأوزبكين

والقابهم: «سلطان بلخ وبخارى وخراسان»، وقد دخلوا في الدين الحنيف برسالة من النبي ﷺ، وقد ظهر جميع أولياء الله من خراسان، إنهم الآن قوم مؤمنون موحدون، لم يملك أحد منهم مصر، لأنهم يقعون في الإقليم السادس والسابع، وكل أيامهم حروب مع العجم والهند، وبعدهم:

دولة الجنكيزيين

وفي تواريخ ميرخان أن جنكيز خان تربع على العرش عام خمسمائة وتسعة وسبعين، إنهم اثنتا عشرة فرقة من الملوك، وكل طائفة لهم خمسة عشر ملكاً وملكة، وفي القرم وداغستان طائفتين هما قومي وموغول وبغل وكل طائفة عشروات يملكون مائة ألف جندي، كما أن أقوام القزاق والأوربك ونوغان وهشوك وموسكو والصين وختا وختن وفغفور ولبقه وبادران الهند والسند والعجم والأتراك التركمان وآل عثمان من التتار المتفرقين. وقول تاريخ تحفة الدول تحفة تاريخية حقاً، وعلى حد قوله إن آدم له صفة التتار، فابتداء أمره حين هبط من السماء كان أول تتاري ازدانت به الأرض، ثم

ظهرت العرب بعد إسماعيل وإسماعيل أول من نطق بلسان العرب، وفي قول إن روجة شيث جاءت من الجنة وبما أنها كانت حورية كانت تتكلم بلسان الجنة العربى، وكان أبناء آدم يتكلمون العبرية حتى شاع اللسان العبرى لدى إسماعيل وبناء على ذلك لا وجود لكثير من الأقوام غير العرب والتار.

ولى كثير من سياحاتى فى القرم وداغستان وقالمق ونوغاى وهشداك ودشت وقبجاق (أى صحراء القبجاق) ولم أر قوماً أكثر من التار وهم موحدون عدا القالموق.

دولة أبناء جنكيز

ملوك إسلام يقطنون سبعمائة وخمسين ميلاً فى جزيرة القرم، ولهم من الجند مائة ألف ومن الخيل مئآت أضعاف هذا العدد، ولم تكن لهم عمائر عظيمة أما مالهم فهو الخيل والإبل والغنم، ولقبهم الخان، ووصفه الكيراي، مثال ذلك بهادر كيراي إسلام وغازى كيراي خان، وفى عهد طوخطمش خان كان الاستيلاء على القرم من كفار جنّويز، والوزير من أقارب اكان أو من إخوته ويسمونه قلعغا سلطان، وهم فى مدينة آق مسجد، ويسمون الوزير الايسر نور الدين سلطان، ويسمون وزيره الاوسط أغا، ويسمون رؤساء عشائهم شيرين ومنصور وسجوت واوولان، واوولان هو من ولد لبناتهم، ويسمون طوائفهم العسكرية قِراجى، ويسمون قوم القرم بارداق، وبعد ذلك فتح السلطان بايزيد من آل عثمان اق كرمان وقلعة كلى، وقدم إلى القرم فى البداية منكلى كيراي خان، ودان بالطاعة لآل عثمان، ووفى بعهده، وقدم العون لآل عثمان، وضرب سكتة باسمهم، وقرأت الخطبة أول الأمر باسم آل عثمان، ثم باسم كيراي خان، وهم إلى عهد السلطان محمد خان الرابع عشرون خاناً ولقد رأيت منهم كرماً وإحساناً أدام الله دولتهم.

دولة الجنكيزيين فى بلاد ما وراء النهر

وهم كذلك من ذرية الاوزبك، وهم اثنا عشر ملكاً، أدام الله دولتهم إلى الأبد،

وبينما كان هشام بن عبد الملك خليفة في دمشق أرسل إليهم رسالة فأسلموا، وسلطتهم الآن قائمة.

دولة الطبقة الثالثة للجنكيزيين

ملكوا إيران وتوران وصحراء قيقاق، والصين والختا والختن، وكانوا ثمانية عشر، وبإيعاز من نصير الدين الطوسي وخيانة السورير العلقي أغار هولكو خان التاري بمائة ألف مقاتل على بغداد عشر مرات، وقتل المستعصم بالله العباسي، وبينما كان أحد العباسيين في البرية فر إلى مصر، وفيها أصبح خليفة كشيخ، وكان هولكو خان يملك جيشاً عظيماً. وهم ثمانية عشر، ودامت دولتهم أربعمائة وخمسة عشر عاماً، ومن ألقابهم كذلك (خان).

دولة الطبقة الرابعة للجنكيزيين

آل تيمور الكوركاني (صاحب خروج جهان)

فتح تيمور خان إيران وتوران وصحراء قيقاق والهند والسند ومولتان والصين والماضين وختا وختن وموسكو والبلغار والقرم وداغستان وجورجيا والعراق العربي والعجمي وبلاد الروم والشام. وقد سار في ركابه أربعون ملكاً وكانوا تحت حكمه. ولقد أرسل تيمور رسالة إلى يلدريم با يزيد ليكون في طاعته، فطرده يلدريم با يزيد رسول تيمور، فتوجه إليه تيمور بجيش كموج البحر، ووقعت بينهما حرب شعواء، وبسوء تدبير وزراء يلدريم با يزيد دارت الدائرة عليه فتقهقر با يزيد أمام جيش التار، وسقط تحت فرسه، وتدرج على الأرض، وفي التو تجمع جند التار على رأس با يزيد فحارب مترجلاً ساعة وفي النهاية مضى إلى الصحراء ومثل في حضرة تيمور، وكلمه في جراحة ودار الحوار بينهما وكان يلدريم مستعليًا على الدوام، وشاء الله أن يصاب بالحمى المحرقة ويموت محمومًا، وحملت جثته إلى بروسة، ودفن في ساحة مسجده، ثم انطلق محمد بن با يزيد يلدريم إلى تيمور انتقامًا منه لأبيه وتعقبه، وفي سهل يسمى طاشق لحق تيمور وسلخت جلود جنود التار، وبما أنه مكث في هذا المكان سموه (طاشق اووسي) أي: سهل الخنصية، وهذا اسم خارج عن حدود الأدب، ثم تعلق تيمور بأذيال الفرار، واتخذ من قره باغ مشتي له.

وقبل ذلك فى الربيع كان قد فتح دمشق واستولى على ألف خزانة مال من خزائن مصر، وبلغ عِزَّة الهاشم، واستراح هو وجنوده فى ذلك المكان عدة أيام، ثم غادره وبلغ صحراء قطية وأم الحسن ولما بلغ هذا الموضع كان الإعياء قد بلغ مبلغه من عسكره وخيله، وجاء السلطان برقوق سلطان مصر من ناحية ومير فرج من ناحية أخرى من كُرْتَبَاى وأنفذوا إليهم الجنود الشجعان كأنهم ذئاب جائعة، وشد جند مصر عليهم شدة فنصبت عظامهم ظاهرة فى الصحراء إلى الآن. فما ملك تيمور مصر وفرَّ منهزمًا ودفن فى مدينة () (١) ومدة حكمه () (٢). وبعدهم:

دولة الطبقة الخامسة لآل جنكيزاى أولاد تيمور

استولوا على إيران وتوران وحمدان ونَخْشَوَان وأصفهان وكيلان وأذربيجان، وأبناء تيمور واحد وأربعون ملكًا، وكل منهم كان ملكًا على بلد، وهم ست طوائف. ولكن دبت الفرقة بينهم فتقاتلوا، وكان السلطان اورون حسن يمشى فى ركاب تيمور، فقتل عدة من أبناء تيمور انتقامًا منه، فأصبح ملكًا استقل بديار بكر والموصل والحلة وبغداد والبصرة والحسا وأذربيجان إلا أن أبناء تيمور المذكورين لم تطل أعمارهم وابنه الأكبر () (٣) أصبح ملكًا على الهند.

دولة الطبقة السادسة للجنكيزيين

أى: أبناء تيمور كُورْكَان ملك الهند والسند

دولتهم قديمة، دخلوا الإسلام برسالة من النبى ﷺ، وهم الآن على مذهب الحنفية، والآن هم ملوك عظام يملكون بلادًا عظيمة. وهم ملوك الهند وبعدهم آل عثمان، وإن كان ملك موسكو كذلك ملك عالمًا عظيمًا، ولكن معظم آل تلك الولايات لا يسكنون المدن لشدة برد الشتاء. والهند بلاد شديدة القَيْظ، ولكن لطيب جوها هى بلاد عظيمة العمران، ويقال لملوكها (راى). فمثلاً يقال لأكبر راى، أورتْكيزيب راى وبدلاً من أن يقول له الرعايا عند لقائه يا مليكى يقولون له يا (راى). تلك كانت ألقابهم، وفى الهند سبع عشرة مملكة وكل مملكة على مذهب.

دولة ملوك السند

يسمون ملوكهم موغان، مثل موغان سيد، موغان تاد، موغان راي، موغان سرشاد؛ لهم أسماء من هذا القبيل، إلا أنهم الآن يتبعون ملوك الهند وهم يعبدون النار.

دولة ملوك مونتان

وأسماءهم داد أو مونتان داد وهلاس مونتان. ورعاياهم كثيرة في الحبشة بسواكن وسهل خرق وموص ويلبسون بيض العمام، وهم جميعاً عبدة النار ويسمى ملوكهم مونتان وهم كذلك من أتباع ملك الهند، ودولتهم الآن ممتدة. وهم قوم يعبدون النار والبقرة والفيل والشمس والقمر والشجر، إلا أنهم يقرون بوجود الباري، وإذا ما أوردنا ما جاء عنهم في كتب التاريخ لطال بنا الكلام، ولا رغبة لي في أن أكتب شيئاً لا أعلمه في جزم ويقين ولكني كتبت ما كتبت بمقتضى سياق الكلام.

ذكر أحوال دولة خاقان الصين

وإن لم يكن لهم من الممالك ما للملك الهند إلا أن لهم اثنتي عشرة ألف مدينة على ساحل البحر المحيط، ويسمون ملوكهم الخاقان، إنهم لا يخشون الملوك، ورعية ملكهم كثيرة، وإذا ما قدم بحار من بلد إلى بلد قدم التجار سلعتهم هدية إلى الملك، ويقول هؤلاء التجار: نحن عبيد ملك الهند والعجم فيجدون السبيل إلى الثول بين يدي ملك الصين ويشرفون بالتحدث إليه وفي عودة هؤلاء التجار إلى بلادهم يجود عليهم السلطان بأكثر من قيمة سلعتهم أضعافاً مضاعفة، ويعود هؤلاء التجار إلى أوطانهم ودولتهم قائمة إلى الآن.

دولة سلطان فغفور

إن مملكة فغفور تمتد إلى عالم الظلام ويقال لكل ملك فغفور، وفي عام (١٠٣٠) ألف وثلاثين استولى قالمق على هذه المملكة، وفي أكثر من مرة قتل منهم مائة ألف فغفوري وأكله، حتى إنه طبخ الفغفور «حجنان» وأكله لأن قوم قالمق أكلة البشر، ومنذ هذا العهد انقرضت دولة الفغفور وهم الآن يحكمون مملكة قالمق.

ذكر أحوال دولة الديلم

لقب سلاطينهم قاشانيان وهم سبعة عشر على المذهب السنى ومدة حكمهم قرنان من الزمان، وبلادهم ديلم وكرمان وكاشان.

ذكر أحوال ملك بلخ

إنهم ملوك سنون يلقبون بدارا، وقد ألحق اليونان الهزيمة بملك هؤلاء الدارا بالقرب من الموصل فى موضع يُسمى (قره دره) واستولوا على إيران وأدى الإيرانيون الخراج لليونان، ودولتهم قائمة وهم ملوك سنون.

دولة الأنجوليين

أصبح ملك الأنجوليين ملكًا على المغول، ويسمى المغول ملكهم آنجور، وكان فى بلاد إيران، إنهم ثلاثة، وفى عام ٧٠٠ ثار المغول وقتلوا آنجور هذا وهم يسمونه حيدر آنجور واسد آنجور.

دولة آل المظفر

حكموا فارس والعراق وكرمان، وهم ثمانية يطلقون عليهم لقب مظفر، مثل جعفر المظفر وعلى المظفر. دام لهم الحكم مائة عام وخمسة، وهم كذلك من طوائف الملوك.

دولة آل الجويانيين

حكموا إيران وأذربيجان، وهم اثنا عشر، ويقال للواحد منهم الأمير، ومدة حكمهم (١١) عامًا.

دولة الإيلكانيين

حكموا أذربيجان وهم ستة ويقال للواحد منهم قامى، إنهم من طوائف الملوك وكانوا عدولا، ومدة حكمهم (٢) عامًا وبعدهم:

دولة آل كرتباى

وكانت الخطبة للملك كرتباى فى بلاد خراسان وغورستان، وكانوا ملوكًا سنين، وهم ثمانية، ومدة حكمهم ثمانية وثمانون عامًا.

دولة السرايداريين

حكموا سبزوان وخراسان والقابهم السرايداريون، وهم سبعة، ولكن لا نسب لهم ولا حسب، ولكنهم سرايداريون تغلياً، وهم كذلك من طوائف الملوك.

ذكر دولة العباسيين

كان لهم الحكم في بغداد والبصرة وحسة واليمن والمدينة ومصر أم الدنيا، ودمشق وحلب ومرعش وديار بكر وأرزروم وجورجيا، أما من حكم بغداد في سالف الدهر فكان يقال للملك منهم كسرى، والجمع أكاسرة، وبعد النبي ﷺ آلت بغداد للدولة بني العباس، وهم ثلاثون، حكموا خمسمائة وثلاثاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً ويوماً، والعباس عم النبي ﷺ، وهو العباس بن عبد المطلب إلا أنه يكبر النبي ﷺ بعامين، عاش خمساً وثمانين سنة، ومات بعد الهجرة باثنين وثلاثين عاماً، وقبره في المدينة المنورة، ومدفون في البقيع وأصبح ابنه السفاح خليفة بعده، وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر، وعاش خمسين عاماً، وقبره في الكوفة، وخلفه ابنه أبو جعفر، ثم ابنه أبو عبد الله محمد المهدي، ثم ابنه أبو محمد الهادي، ثم جعفر بن عبد الله وابنه كذلك أبو منصور هارون الرشيد وكانت الخلافة لأربعة من أبناء هارون الرشيد، منهم أبو عبد الله وأبو العباس عبد الله، وأبو إسحاق محمد المستعصم بالله، ومنهم الخليفة المأمون، وقدم المأمون هذا مصر بنفسه وسوف في مصر طويلاً وعرضاً وأخرج من الأهرام كنزاً عظيماً، واستولى منه اليونان على أطنه وسيس ومصص وقره كوركزي وطرسوس وهو مدفون في ركن مظلم بالجهة اليسرى من جامع النور، والخليفة المأمون مذموم لضعف في عقيدته، وضريحه لا يُزار، وكان الناس في عصر بني العباس يقرأون الخطبة وهم جلوس، ولكن أبا العباس عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله العباس كان يتلو الخطبة وهو واقف وأخذت هذه السنة عنهم، ويسمون في العربية بالخليفة وأمير المؤمنين والأمير، والسلطان، والملك والحاقان، والمؤيد من عند الله وبذلك يمدحون.

والحاصل أن الخلفاء العباسيين في بغداد أنابوا عنهم في مصر ثلاثين خليفة وحكموا مصر إلى أن أسقط هولاء دولة العباسيين بقتله للمستعصم، وفر أبناء المستعصم إلى

مصر، وشيّد منصور الدوانقى فى عام ثلاثمائة وخمسة مدينة ملاطيا وقدم مكة ووسع الحرم الشريف وأقام منارة، وفى عام ثمانمائة وواحد وخمسين توفى وله من العمر ثلاث وستون عامًا، وهو مدفون فى المحلة. وفى عهد خلافة العباسيين كان فى سائر البلاد اثنتا عشر طبقة من الملوك وكلهم من سلاطين الإسلام، تضرب السكة وتتلى الخطبة بأسمائهم.

دولة آل ساسان

تسعة، حكموا واحدًا وتسعين سنة ثم:

دولة الديلمة

وهم خمسة عشر، مدة حكمهم قرنان، ثم:

دولة السُفريين

وهم خمسة عشر ومدة حكمهم مائة عام وثلاثة أعوام. ثم استولى بعض خلفاء بنى العباس على كردستان وهم كذلك اثنتا عشرة طبقة:

أكراد دول آل عباس

الطبقة الأولى منهم تحكم جزيرة العُمر الواقعة بالقرب من مدينة الموصل ولهم عشرين ألف محارب من حملة البندقية.

والطبقة الثانية منهم عليها سيد خان الذى له من الجند أربعون ألفًا.

أما الطبقة الثالثة لها الحكم فى صوران ولها عشرون ألف مقاتل.

والطبقة الرابعة تحكم أردلان ولها عشرة آلاف مقاتل.

والطبقة الخامسة تحكم الحرير وعدة مقاتليها خمسة آلاف من حملة البندقية.

والطبقة السادسة لها الحكم فى يتيانشى وهم خمسة آلاف مقاتل.

والطبقة السابعة تحكم للمحمودى ولها ثمانية آلاف جندي.

والطبقة الثامنة تحكم حَكَارى ولها أكثر من أربعين ألف مقاتل من حملة البندقية،

وعشرة آلاف فارس، وفى عام ألف وستمائة وخمسة منح اشير باشا الملك أحمد باشا

مدينة وان، وبتكليف منه أحضرت خلعة الحكم إلى يزدن شير حاكم حَكَارى،

وشاهدت استعراض جنده ومن الحق القول إن الحكارين جند يطلقون النار بمهارة عظيمة.

أما الطبقة التاسعة فتحكم في هيزان ولهم عشرة آلاف جندي.

أما الطبقة العاشرة فتحكم تبليس ولهم عشرون ألف مقاتل، وتحت حكمها عشرون عشيرة. والطبقة الحادية عشرة فتحكم حصّو واليزيدية.

والطبقة الثانية عشرة تحكم باك ولهم عشرة آلاف مقاتل.

إن هذه الحكومات الاثني عشرة منذ قانون السلطان سليم لا يولون ولا يعزلون وهم يحكمون هم وذريتهم من قبل الوزراء وبأمر السلطان ويُرسَلُ إليهم أمرٌ سلطانيٌّ بذلك، وأهل الولايات يسمون الحاكم منهم الخان، ولكن هذه الطبقات السالف ذكرها من ذرية العباسيين، وغيرهم لهم في إقليم أرضروم وديار بكر ووان والموصل وشهرذل وولاية بغداد مائتان من رؤساء العشائر ويوليهم أو يعزلهم الوالي، ولهم مقاطعات مثل: أكيل، ميفارقين، كارني، هIRON، اسبير، دوزريقى، باركيرى، وملاذكرد، والله الحمد فقد سِحتُ في كردستان ذات الأرض الحجرية سبعة أعوام، وكتبت عن كردستان ما تحققت من صحته في كتاب قائم بذاته، ولولا وجود كردستان كسد بين آل عثمان والفرس لما تحقق الاستقرار لآل عثمان لأن الفرس خصم عتى شجاع، والأكرد الذين ملكوا مصر من أكرد العباسيين. ثم جاءت:

دولة الكيانيين

وهم عجم وحكم منهم أحد عشر ملكاً إيران وما وراء النهر، ودام الملك لهم () (١) عاماً، ثم:

دولة الاشكانيين

وهم سبعة، حكموا في همدان ودرگزین وأردبيل وحكموا ثمانية وسبعين عاماً، وكان أسلافهم ملوكاً قبل الإسلام، وبعد المأمون أصبح هؤلاء السبعة خلفاء وهم

(١) بياض بالأصل.

أشكانيون، ثم:

دولة آل قروانيين

سنة، حكموا () (١) عامًا، ثم:

دولة آل مانيانيين

عدهم () (٢) ومدة حكمهم () (٣) عامًا.

دولة آل ساسان

عدهم () (٤) ومدة حكمهم () (٥) عامًا.

دولة آل ماهانيين

ظهروا أول ما ظهروا فى بلاد ما وراء النهر، وغادروا ماهان خوفًا من الجنكيزيين، وفى ديار أخلاط كان السلطان أوحده الله وهو جد سلاطين تبليس وقد سكنوا إلى جوارهم، وهم قوم اشتهروا بشجاعتهم، فحمد الأهالى ذلك منهم، وولوهم حكمًا عليهم، ودامت حكومتهم فى أخلاط مائة وسبعين عامًا، وهجروا أخلاط كذلك خوفًا من الجنكيزيين، ودخلوا أرض السلاجقة، وبينما كان قائدهم سليمان شاه يغتسل فى ساحل نهر مراد بالقرب من قلعة جمبر غرق فى النهر، وتولى قيادتهم أرطغرل، وبينما كان أرطغرل فى صحراء قونية صعد جبلاً وبينما كان ينظر من قمته رأى حرباً تنشب، ورأى أن الغلبة كانت للستار على السلاجقة، فانطلق بسبعمائة مقاتل نحو الستار ورسقوهم بسهام كالطر، فتقهقر الستار، وبهذا النصر عادت الحياة إلى السلاجقة بعد موتهم، فاعزوا أرطغرل وأكرموه وأجلّوه وأقاموا على عتبة قبة هى قبة البك، وبذلوا له المال الجزيل، وقبل له كل مقاطعة تفتحها إلى جانب بروسة فهى لك وتحت تصرفك، وجعلوه قائداً عظيماً، وبأمر الله كان أرطغرل مظفرًا حيشما اتجه، ومع ما غنم من أموال غنم ديار السلطان السلجوقى، وأرطغرل هذا من الماهانيين أجداد العثمانيين.

والآن فى أخلاط فى عهد حكمهم اثنا عشر ضريحًا، وفيها موتاهم على عروشهم، ومعهم أسلحتهم وقد زرتها جميعها.

وقد حكم فى أخلاط من الماهانيين أجداد العثمانيين أربعة وأربعون حاكمًا، والآن ليكن الدوام إلى الأبد لدولة آل عثمان فهى من هذه السلالة الطاهرة، ولها الآن الحكم فى العراق وبغداد ومصر أم الدنيا ومكة والمدينة وبلاد المجر والروم والعرب والعجم وخاقانها سلطان البرين والبحرين، وجميع الخلفاء هم السلاطين المذكورون.

ذكر دولة آل بنى رسول

إنهم خمسة عشر ملكوا اليمن وعدن وصنعاء، ويسمون اليمن جزيرة العرب، واليمن من إقليم عُرْفِيَّة، ومن الشرق إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الغرب يحيط بها بحر القلزم^(١)، وبقيّة اليمن من ناحية البرية بحر الإحساء، وبحيرة اليمن ويفصل بين الشرق والغرب خط فاصل، أما معنى اليمن ففيه عدة أقوال، منها: أنه إذا انجبه أحد فى اليمن إلى ناحية الشرق فيما أن هذا الإقليم واقع على يمينته سُمى اليمن، وقيل: إن اليمن إنما سميت بذلك لوقوعها على يمين الكعبة الشريفة.

وكانوا يسمون ملوكها التابعة فى العصر الجاهلى، والواحد منهم تُبُع، ولكن قبل أن يحكم ساداتها كانوا يُسمون الملوك، والآن يُسمون الأئمة.

واستولى العثمانيون على اليمن فى عهد السلطان مراد الرابع، أما الآن فهى على مذهب الزيدية، وقد أشاعوا رواج المتعة؛ فالرجل يتزوج امرأة عدة أيام لقاء أجر، ولها أن تكون من بعده لسواه، وفى إقليم اليمن أربع حكومات وليس بينها وفاق، وساكنو الجبال من الأعراب الفقراء المعدمين، إلا أنهم يحسنون القتال بالبندقية، وأهل اليمن صلحاء أتقياء ومعظمهم شرفاء ومعظمهم من أبناء الصحابة الكرام، وفى عهد النبى ﷺ هاجر بعض الصحابة إلى اليمن، وظهرت كرامات لأولياء الله فيها.

دولة أشراف مكة. أى: دولة الهاشميين.

وفى حوزتهم الحجاز والطائف والعباس والمدينة ووادى القرى ومدينة ثمود، وقد اجتمع مرارًا الأشراف واليمن، وعقدوا العزم على أن يملكوا مصر، إلا أنهم لم يحققوا

(١) هو البحر الأحمر.

بغيتهم، وهم ثمانية وثلاثون وهم حسينيون لهم حسب ونسب، ومدة حكمهم (١) عاماً، ويسمونهم كذلك آل حيدر.

دولة إشراف مكة. أى دولة بنى قتادة.

سبعة وعشرون، ينتهى نسبهم إلى الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه -، وبناء على قول هؤلاء الأشراف - وهو صحيح - أنهم منذ عهد إسماعيل أبناء أنبياء، ويقولون إن أسلافهم بنى جرهم، وهى قبيلة هاجرت من اليمن وقدموا مكة واستوطنوها، وتزوج إسماعيل فتاة من بنى جرهم وولد له منها (٢) ولما بلغ الأربعين من عمره أنزلت عليه الصحف بالعربية، ودام البقاء للغة العربية على ما يقال، وهم يقولون هذا معلنين عن ذريتهم القديمة (٣).

وفى هذه الممالك المحروسة التى زناها، كثيراً ما رأينا مئات الألوف من العشائر والقبائل الساكنة الصحارى، كما كان يوجد فى صحاريها وجبالها أمراء ورؤساء لهذه العشائر وقد أمسكنا عن ذكرهم لأنهم لم تضرب لهم سكة ولم تقرأ باسمهم خطبة، ولأنهم كانوا أصحاب سيف وقلم أيد الله حكومتهم وأودعهم بطشاً وقوة فيؤدب بهم خليفة الله فى أرضه عبيده البغاة، ويأمن عباده المظلومين من ظلم الطغاة.

إذا غاب السلطان عند بلد فان بيوت المظلومين تكون طعماً للظالمين

وقد جعل الله تعالى نفحات الخليفة على عباده أكثر من نفع الغوث الأعظم ورجال الغيب، وإذا لم يكن فى الأرض خليفة، لم يُجر على وجه الأرض عبادات أو طاعات أو إسلام وإيمان واعتقاد وبذلك يختل الدين المبين. والآية الشريفة «لَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ» (الحج ٤٠). هى دليل قاطع على هذا نسال الله أن يديم الخلفاء فى الأرض. حديث (لولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضاً).

(١) بياض بالأصل.

(٢) أمسكنا عن ترجمة بضع سطور هنا لغرامة ما ورد فيها.

(٣) تحريم الآية (الحج ٤٠).

ذكر أحوال سلاطين مصر القاهرة المعزية

إن أول خلفاء على وجه الأرض منذ ظهور الإسلام هم الخلفاء الراشدون، وهم أبو بكر الصديق، وعمر، وعثمان، وعلى - رضى الله عنهم - ويقال للواحد منهم أمير المؤمنين فى اللغة العربية، كما يقال أمير المؤمنين للإمام الحسن والحسين والأمويين والعباسيين، وأول خليفة من الخلفاء الراشدين ملك مصر عمر بن الخطاب بعد فتح عمرو بن العاص لها، ثم ملكها الأمويون، ثم العباسيون، وهم كذلك طبقتان منهم طبقة فى بغداد أنابوا عنهم ولأه فى مصر، وطبقة أخرى بعد انقراض العباسيين بغارة هولاء، وكان أبناؤهم فى الصحراء لدى الأعراب، فجاء بهم الظاهر يبرس من الصحراء إلى مصر وأجلسهم على مسند الخلافة، وأصبحوا خلفاء مستقلين.

ديار مصر والإخشيديون

وهم () (١)، ومدة خلافتهم () (٢)، عامًا، بعد ذلك كان المعز لدين الله القاهر الفاطمى ملكًا عظيم الشأن فى بلاد المغرب، وأعطى أحد عماليكه - كان يدعى أزهر وهو عربى من الحبشة - عشرين ألف تَبَسًا، وحتى لا يُعارض فى مصر أمره أن يطلب الإذن من الإخشيديين فى إقامة جامع فى مصر، ووقع هذا موقع القبول من رجالها، فشرع فى بناء الجامع الأزهر، ومن أجل بناء هذا الجامع قدم مصر كل من كان فى بلاد المغرب من نَحَاتٍ وَبَنَاءٍ، ولقد أفاد الأزهر علماء مصر فائدة عظيمة، حتى إن بناء الأزهر قبل تمامه كان طلاب العلم يجتمعون فيه ولما قرب تمامه ذاع أن معز الدين الظاهر آتٍ إلى مصر، وحشد المعز لدين الله حشودًا من الجند وانتزعها من الإخشيديين، وصلى فى الجامع الأزهر، ويسمونها القاهرة لأن معز الدين القاهر قدم من المغرب وفتحها، وعددهم () (٣) ودامت دولتهم () (٤) عامًا.

دولة بنى البحرية

وهم ثمانية وعشرون ودامت دولتهم مائة وثلاثين عامًا، والمظفر بالله بن الحافظ لدين الله الفاطمي قتل مملوك مصر وأصبح بعده أبو القاسم عيسى بن الحافظ لدين الله ملكًا، ولما بلغ هذا الخبر بغداد وسمعه المتقى بالله العباسي ولّى من ورثاءه - نور الدين محمود بن زنكى - المُلْك، فقدم فى جيش عظيم واستولى على مصر، ثم حاصر قلعة دمشق وخليفة الشام بحير الدين طُقْتِكِين الذى كان محاصرًا فى القلعة، وسلم قلعة دمشق لنور الدين محمود صلحًا، وذلك فى عام خمسماية واثنين وستين (٥٦٢)، وجاءت بعد ذلك.

دولة الجراكسة

وأولهم برقوق وآخرهم طُومَان باى، ملكوا (١١) عامًا وأول من كان له ممالك الجراكسة نجم الدين الصالح أيوب، وجملتهم اثنا عشر فارس، كما كان له اثنا عشر ألف اشتراهم، وفى قول إن السلطان فرج هزم تيمور وأحضر جميع عبيده مع ما غنم منه من غنائم إلى مصر، وبقي فى مصر الجراكسة والأبخاز (الابازية) والجورجيون والروس منذ عهد السلطان فرج، وقد مرّ ذكر السلاطين الذين ولوا مصر على الترتيب،

أول من ملك مصر من آل عثمان

كان أول من ملك مصر من العثمانيين السلطان سليم، وإن شاء الله سوف نذكر فتح مصر وجميع ما وقع من أحداث.

أول من حكم مصر الفراعنة، ومن طبقاتهم من يعرف بالعزیز، كما قيل إن منهم القباطة والجمع أقباط، ولما فتح السلطان سليم مصر سُمى خدام الحرمين الشريفين، ومن سماه بهذا الاسم كمال باشا راده، وأبو السعود افندى، وعندما فتح السلطان سليمان المجر سموه صاحب قران الزمان، وفى عام ٩٢٩ تسعمائة وتسعة وعشرين فتح سليمان خان جزيرة رودس واستولى عليها من نصارى مالطة، وبعد هذا الفتح فتح فى

(١) يياض بالأصل.

البحر الأبيض سبعمائة وستين جزيرة فسماء كمال باشا زاده وأبو السعود أفندي سلطان البرين وخاقان البحرين، وفتح كذلك بغداد فسماء علماء الترك سيد العرب والعجم، ولما فتح طنجة في بلاد المغرب والجزائر وتونس وطرابلس سموه فاتح المغرب، ولما فتح سليمان باشا الطواشي (الخادم) بإذن من السلطان سليمان سبعة أقطار وسبعة من الموانئ في الهند سموه فاتح المغرب، وفي ثمانية وأربعين عاماً من خلافته فتح أقطاراً في سبعة أقاليم، وجعل لآل عثمان نصيباً من أقاليم الدنيا السبعة أما أول غزاة آل عثمان فهم الأمير عثمان والأمير أورخان والأمير يلدرم والأمير مراد حتى أبى الفتح، ويطلق عليهم جميع علماء الترك أولو الأمر، ولأن أبا الفتح كان يحب العلماء فقد كان يجمع العلماء والمشايخ حوله من الأقاليم السبعة، فقد كان سلطاناً عالماً فاضلاً كاملاً مجاهداً في سبيل الله، عندما اعتلى العرش العثماني، كان دائم الجلوس بالعمامة (العرفى) وكان يعقد الديوان بها، ولم يرتدى أى سلطان قبله تلك العمامة العرفى، بل كان الملوك من قبله يضعون تيجاناً يعجز اللسان عن وصفها، ولما فتح استانبول كان في معيته سبعون من كبار الأولياء وعلماء العرب والعجم من العراق وخراسان، وكان في معيته أيضاً الشيخ آق شمس الدين وأنصاره ده ده، والمولا جورانى وأمير البخارى وغيرهم من كبار العلماء وكان بعض علماء الترك المذكورين يطلقون على السلطان محمد الثانى لقب أبو الفتح محمد خان، أما علماء الروم فيطلقون عليه لقب السلطان، أما كل مشايخ العجم فيطلقون عليه لقب خنكار أى صاحب الخبز، نظراً لكثرة ما أنفق من خبز في هذا اليوم، وبعد فتح استانبول جمع محمد الفاتح كل الجند في ميدان الرماية (أوق ميدان) وأولم لهم الولائم العظيمة، وملاً ذيل ثوبه بالخبز، يقدم منه الطعام لجند الإسلام، ولأن العجم يطلقون على الخبز كلمة (خون) أطلق على الفاتح لقب خنكار.

وتذكر إحدى الروايات أن أبو الفتح السلطان محمد أنشأ أثناء حصار مدينة استانبول مائتي فرقاطة في مكان يسمى مزرعة اللوند، ولضيق ميدان الرماية قام جنود فرقة العزب بناء على رأى القبطان شاه قولى بفتح أشرعة تلك المراكب وأنزلوها إلى المياه بسحبها بركاً بالقرب من حديقة ترسخانه، ولا تزال آثار سحب تلك السفن على اليابسة واضحة للعيان في ميدان الرماية.

وعندما رأى الملك تكفور تلك السفن المشرعة قادمة إليه من البر من قصره الموجود فى مكان يسمى تكفور سراى انقطع أمله هو ومن معه من القسطنطينية، إذ جاء فى كتبهم أن ملكاً يدعى محمد من الأمة المحمدية يأتى على رأسه عمامة يمتطى بغلاً وكل بساطه من الجلد، يرتدى الصوف، ويتعل بحذاء أزرق، يسير السفن على اليابسة ويأخذ القسطنطينية، وهذا مسطور على المسلة الواقعة فى آت ميدان (ميدان الخيل).

وفور رؤية الكفار لمجيء السفن على اليابسة قالوا لنهيمُ أمراً آخر وجرت حكمة الله القادر القيوم بأن تظهر فى سراى بورنو اثنتا عشر سفينة للفرنسيين جاءت مدداً، لأن جميع الكفار كانوا مطمئنين من جهة البحر وقاتلو من جهة البر وكان ملكهم فى قصره الكائن فى اكرى قابى.

أما من ناحية البحر فكانت الطيور لا تستطيع الطيران من ناحيته، وذلك لأن ألف مدفع فى (سراى بورونو) ومائة مدفع فى (فيز قله سى)، وخمسمائة مدفع كانوا يقفون أمام دار المدفعية القديمة فى (غالاطة) والتي تسمى اليوم باسم (كرج قابى). وعندما كان الحقيقير فى صباه شاهد هذه المدافع أمام (كرج قابى) للاحتفال بالعيدين. ولما وجهه السلطان مراد الرابع حافظ أحمد باشا على رأس الجيش إلى بغداد، أفسد تلك المدافع وصب مدافع صغيرة، وأرسلها بالسفن إلى الإسكندرون حيث ظلت ثلاثة أيام فى قلعة بيره جيک، ثم أرسلها إلى بغداد بالقوارب عبر نهر الفرات.

ولذلك لم تكن الخشية من المدافع المنصوبة فى (سراى بورونو) ولما قدم المدد من سبعة عشر سفينة للروم من ناحية ميناء (بطريق خانة)، وفى موضع يسمى (فتار قبوسى) أطلقوا المدافع والبنادق، فأعلنوا شديد فرحهم، ثم ألحقوا مراسى السفن، ولما كانوا فى سيرهم إلى قرى النصارى، أنزل السلطان محمد من ناحية اليابسة مائتين من الفرقاطات تحت إمرة القبطان شاه قولى وكانت وكأنها التانين، ووصلوا إلى السفن كأنهم البرق الخاطف، وبأمر الله لم تطلق اثنتا عشرة سفينة المدافع والبنادق، وسحبوا هذه السفن الواحدة تلو الأخرى إلى حديقة ترسخانه.

فقال رجائنا إنا قدمنا لنستولى على ما فى حوزتكم من ممالك، وكانت هذه ثلثة فى صفوف الفرغجة أوقعتهم فى فزع ورعب، ونمى خبر الانتصار على هذه السفن إلى أبى

الفتح وكان فى حصار ادرنه قابى وركب رورقا فى ميناء (يا ودود) ورأى فى حديقة ترسخانه اثنا عشر سفينة تسمى جهنم الحمراء وهى تشبه أصل الجحيم محملة بالغنائم فأخرج منها العشر حسبما يقضى قانون الغنائم، ووزعوا بقية ذلك على الغزاة من المجاهدين.

وفى سفينة من تلك السفن كانت توجد ابنة ملك فرنسا وهى تشبه ضوء الشمس وكانت مخطوبة للملك استانبول، ومعها ألف فتاة من الفتيات الطاهرات من بنات أمة محمد، أخذهن الكفار عندما أغاروا على غزا وعكا والرملة ليكنّ جواري لهذه الفتاة وقد أودعن جميعهن أمانة لدى الشيخ آق شمس الدين، وفى نفس الوقت كان أبو الفتح مشغول بحصار القلعة، وفى شهر يوليو من عام ثمانمائة وسبعة وخمسين للهجرة، وفى اليوم الذى حدده الشيخ آق شمس الدين فُتحت القسطنطينية بمشيئة الله وهذا تاريخ مذكور فى تواريخ أخرى.

لطيفة صوفية

بعد ذلك مضى أبو الفتح إلى حديقة ترسخانه وخلع باب قلعة الروح وجعل فيها عسكر النفس، فتزوجها وكانت حكمة الله أن حملت فى تلك الليلة بابنه الأمير با يزيد وبعد أن قضى السلطان الفاتح ليته هذه مع ابنة ملك فرنسا اغتسل ثم توجه فى الصباح إلى الشيخ آق شمس الدين، لقد أسلت دماء فى تلك الليلة دلالة على زواجه بابنة ملك فرنسا وإنى لأرجو ألا تسفك الدماء إلا فى الحق، وأطعم غزاة المسلمين الذين شاركوا فى فتح استانبول، لتكون تسميتهم لك بخنكار فى موضعها، وقد أطلقوا على السلطان أبو الفتح السلطان محمد لقب خنكار لأنه أطعم غزاة المسلمين وأحسن عليهم بالتيارات والزعامات.

ولكل ملك ألقاب ولقب آل عثمان سلطان، وخادم الحرمين، وسلطان البر والبحر، وسيد العرب والعجم، وصاحب قران الشرق والغرب، وخنكار والسلام، ولكن أول ما فتح السلطان سليم مصر كان عرب مصر تقول: «الله ينصر السلطان سليم»، ويسمونه فى اللغة الفارسية سلطان بلاد قيصر، ويسمون ملوكهم سلطان بلاد إيران، ويسمون أمير الحج فى مصر سلطان البر.

وكان جيش العثمانيين يؤدي خدمة عظيمة لحجاج المسلمين ولما كان بين العرب أمراء للأقاليم نزل عليهم كثير من الرحالة ضيوفاً، ويُسمى العرب الواحد منهم سلطان البر أما عرب صحراء الشام فيسمون شيوخهم آل بنى رشيد وآل بنى عمر وآل بنى رباح وآل بنى رهد، أما الآن فيقال لوزراء مصر عزيز مصر والمتولى، ونظام الدولة وكافل مصر ووالى مصر ويسمون كذلك والى مصر (الصوباشى) وهذا المنصب تبقى من عهد الفراعنة وفرعون فى أول أمره كان صوباشيا إلى أن غيّر الملك ثوبه فصلبه فى سوق الصلية وبعد ذلك أصبح فرعون ملكاً مستقلاً وقال: «أنا ربكم الأعلى»، وبمرور الزمان قلّ لقب صوباشى إلى أن جاء الإمام الشافعى فما وجد فى مصر صوباشى.

حكاية غريبة

قدم الإمام الشافعى من بغداد، ولما وطأت قدمه مصر سرق اللصوص داره، إلا أن كل ما أخرج من مؤلفات لم يَضَعْ، وإن سرقوا مئات منها فاكْتَابَ لذلك الإمام الشافعى وأخذهُ مَرُّ الأسى لضَياع مؤلفاته النفيسة. ومضى إلى السلطان محمد سلطان الأكراد، وبسط رجاءه بأن يُعين صوباشياً على أن يكون شديداً فقبل رجاءه، فجعل هذا الرجل عالى مصر سافلها، وإن كان مذبذباً، وسديد الرأى، وصاحب فراسة.

واحتفل ذات ليلة فى منزله بالمولد الشريف، ودعا جميع علماء مصر إلى حضور هذا المولد، وأثناء الكلام قال الصوباشى:

لقد سمعتم بأن الإمام الشافعى تكرم علىّ بأن جعلنى صوباشياً، وهو الآن يطلب منا رشوة فهل يكون المذهب الشافعى حلالاً لنا؟. وأنتم بما أنكم علماء مصر هل ترون هذا الظلم جائز؟ وهل جميع علماء مصر على المذهب الشافعى؟ قال هذا وفى قلبه مرارة. فقال علماء مصر فى التسو: يا أيها الوالى خذ حذرَكَ ولا تقدم فلساً ونحن لا نقبل مذهبهُ وهو مذهب صاحب تفسير جرير، وقد شئنا أن نسرق كل ما لديه من كتب ونحرقها جميعاً بعد بضعة أيام كما نريد رحمه أو تنفيه إلى السودان.

وقد تلقى الصوباشى هذا بأدب وقال: يا أيها النقباء ويا أساتذتى أتموا المولد والآن خذوا صرتركم وعطيتكم. ومضى يتجول فى المدينة بحجة الحراسة، ثم انطلق إلى السلطان محمد سلطان الأكراد وعرض عليه كل ما قال العلماء، فامتطى فرسه وحبس

جميع العلماء فى بيت الصوباشى واقتحم بيوت العلماء وأخرج كل ما فيها من أموال وأوراق أمام الإمام الشافعى، وانعقد الديوان فى الصباح وسلم الإمام الشافعى الصوباشى كل ما أشار إليه، وقتل مائتين من مخالفى الإمام الشافعى من المتشيعين، كما أن مائتين آخرين تابوا وأنبأوا؛ فجدد الإمام الشافعى مذهبه، وبسبب من هذا ظهرت كتب الإمام الشافعى واسترد المذهب الشافعى اعتباره.

والآن فى مصر ثلاثمائة من الحراس يحملون الهراوات فى يدهم ومعهم اثنا عشر جلاداً يفتحون بيت الصوباشى كل صباح ويحضر جميع خدامه ويدعون للإمام الشافعى على أنه برهم وسبب رفعتهم، ثم يتجول ليل نهار لتعرف الأحوال، ولا شك أنهم يجدون اللصوص والنشالين، وكل لقطاع مصر مقيدون فى دفتر الصوباشى. وإذا كان الصوباشى يحكم حكماً مطلقاً فإنه بذلك يكون كالوالى، وكل المجرمين يخشونه. وسواء كانوا مذنبين أو أبرياء قتلهم.

وهكذا كان هذا الرجل يستحل القتل كوسيلة لإصلاح العالم، إذ لم يكن فى الإمكان السيطرة على الفلاحين فى مصر، وكذلك من يدعون الولاية من مكحول العين، ومن يحمل على رأسه سبحة، والواعظ الذى يحمل المسواك، مظهرهم هذا دليل بلههم، ومشجع على اللصوصية والفسوضى، والحاصل أن كل ما ليس شرعياً يرتكبه علماء مصر حتى إنهم يبيعون ما أوقف منذ تسعين عاماً على أن هذا الوقف يتوارث أباً عن جد، وهكذا تسرق جميع أوقاف الله، وكم من آلاف من دور القراء ودور الحديث والمدارس جعلوها بيوتاً وعليه فلا بد لمصر من حاكم جبار وإذا ما غلت الأسعار (١) فإن هذا يظل فى يد الحاكم وبناءً على قراره.

(١) يباىض بالاصل.

الفصل الحادى عشر

ذكر ثمانية وأربعين ملكاً وسلطاناً فى جزيرة مصر

من المتعارف المعلوم لدى سياح الترك أن البارى خلق فى الربع المسكون من الأرض فى بحر الاقيونوس والبحر المحيط والبحر الأبيض مائة ألف جزيرة، زينها ببنى آدم والعلم عند الله. وخلق اثنتى عشرة جزيرة فى بحر جزيرة الهند والصين وبلاد السند، وبسياحتى فى الهند لم أجر قلمى بالكتابة. أما فى البحر الأبيض سبعمائة وستون جزيرة كبيرة وصغيرة فى حوزة آل عثمان، وفى البحر الأسود جزيرة القرم، وفى البحر الأبيض جزيرة قبرص وجزيرة المورة وجزيرة كريت التى فتحت منذ زمن يسير. وهذه جزر تتراوح مساحتها بين سبعمائة وستين ميلاً وسبعمائة وسبعين ميلاً.

وعلى حد قول بطليموس المهندس وقول بادرا وقولون، أن جزر مدلى وإلمنى وصاقر واستانكوى ورودس من جزر العالم الجديد وكلها تقع الآن تحت حكم آل عثمان تتراوح مساحتها بين الثلاثمائة والأربعمائة ميل، ومحاصيلها كمحصول روضة الجنات، وفى البحر الأبيض كذلك جزيرة مسنة ومساحتها مائة وسبعون ميلاً، ومنذ عمرت لم تطأ أرضها قدم نائر ولا لص وهى الآن تحت حكم ملك إسبانيا، كما أن جزيرة ميورقة ومينورقة تبلغ مساحتهما سبعمائة ميل، وهما جزيرتان خصبتان غاصتان بالسكان، وهما تحت حكم أسبانيا وجزيرة قورسقه فى البحر الأبيض تبعد عن الجزائر بسبعمائة ميل، إنها جزيرة معمورة وقد دخلت حكم أسبانيا حيناً وحكم البرتغال حيناً آخر وهى إلى الآن لأسبانيا.

وعلى مسافة ألفي ميل فى إتجاه الغرب من مضيق سبته تقع جزيرة الإنكليز (الإنجليز) وهى جزيرة عظيمة محيطها ثمانية آلاف ميل وتقع فى الإقليمين الرابع والخامس.

وحاضرة ملك الإنكليز مدينة لوندرة الواقعة على ضفة نهر لوندرة، وهى مدينة عظيمة وعلاوة على هذه المدينة سبعمائة مدينة معمورة، وهذه المدن لها

واسع الشهرة لدى سياح الترك، وفي البحر المحيط كذلك جزيرتان إحداهما جزيرة (١) والأخرى جزيرة (٢) ومحيطها عشرون ميلاً، وهما تحت حكم الإنجليز في كل زمان إلا أنهما ليستا معمرتين ولا جميلتين مثل جزيرة الإنكليز.

مدح الجزيرة العظيمة أم الدنيا القديمة

مصر القاهرة المعزية

ولكن جزيرة مصر أكبر من جزيرة الإنكليز وكانت السياحة فيها لجميع مهندسي علماء السلف ألف مرة براً وبحراً، وكتبوا عن طول نهرها وأرضها وسكانها ومائها وهوائها. ومحيطها ثمانية عشر ألف ميل إنها جزيرة مصر أم الدنيا المربعة الشكل، وطرفها الشمالى يطل على البحر الأبيض ومن مضيق سبته إلى بحر العريش ألف ميل وفي تلك المساحة - التى تُعبرُ فى ثلاثة أشهر - على البحر الأبيض سبته وطنجة والجزائر وتونس وطرابلس وجربة وجزيرة كريت، وصحراء بنى هلال، وتنتهى بالإسكندرية ورشيد ودمياط وقلعة التينة وبحيرة العريش، وبعد يومين يكون الوصول إلى السويس وهى أرض يابسة، وعلى حسب ما سلف ذكره من حاجة قطع ملوك السلف هذه المساحة وسبق أن قلت إنها جزيرة حقاً، وعلى ساحل بحر السويس إلى أرض الصعيد العالى كثير من المدن وفى الساحل المقابل لبحر السويس طرف أرض الكعبة قلاع ازلم، ومويلح، وينبع، وجدة، ومن الجانب البرى لجزيرة مصر تقع أرض الحبشة وعلى ساحل بحر السويس ميناء بورغه والقصير وريده وأبراش وعجون ودنقلاّب وميناء آت وميناء مدينة سواكن وهى حاضرة باشا الحبشة، وميناء مدينة كيف وبعدها ميناء زيلع، وبعدها قلعة هندية، ثم ميناء طوزلة، ثم ميناء بهلولوة، ثم ميناء مدينة زيلع، ومن ميناء السويس إلى هذا الموضع ألف ميل.

إن هذه الموانىء الحبشية المذكورة معمورة وتقع على ساحل بحر السويس أى بحر القلزم، بعد ذلك على ساحل البحر المحيط فى جزيرة مصر من مضب النيل إلى مضيق سبته موانىء على مسافة قدرها أربعة عشر ألف ميل. وهذه الموانىء وغيرها من المدن

المعمورة جميعها فى حوزة ملك البرتغال، وليس الحكم فيها لأحد، وفى داخل جزيرة مصر هذه أحاطت البرتغال من ثلاثة جوانب بثمانية وأربعين ملكاً.

إن جزيرة مصر جزيرة عظيمة، يقسمها خط الاستواء بالقرب من الشلالات بعشرين مرحلة. وعندما دخلت هذه المنطقة كان ربع دائرة الليل والنهار متساويين، والإقليم الأول والثانى يقعان فى جزيرة مصر، أما الإقليم الثالث فيقع فى جزيرة مصر فى الإسكندرية ورشيد ودمياط وقلعة التينة.

إنها جزيرة متراحة الأرجاء، ويشق هذه الجزيرة نهر النيل المبارك إلى وسطها، وفى جنوب جزيرة مصر طريق بطول ثلاثة أشهر وهو صحراء قاحلة لا يسكنها أحد وفيها حيوانات سامية، وفى أرض وعرة من جبل القَمَر ينبع نهر النيل، وهناك تتجمع مياهه، ويصب فى بحيرة، ومن هناك يمتد طريقه بطول سبعة أشهر، وشعبة من النيل تمضى إلى رشيد وأخرى تمضى إلى دمياط، وعدة شعب من الترع أيضاً تصب فى البحر.

أما فرعا رشيد ودمياط فهما الفرعان الرئيسيان وفى المواضع التى يختلط فيها ماؤها بماء البحر الأبيض تسمى مرج البحرين يلتقيان، وتجعل ثلاثمائة ميل من ماء البحر المالح حلواً، وتجعل لون البحر ضارباً إلى الحمرة، وحينما تقترب سفن الترك من مصر ويريدون العلم بالاقتراب منها يتذوقون ماء البحر فإن كان عذباً أدركوا أنه لم يبق على بلوغ رشيد ودمياط إلا مائتان أو ثلاثمائة ميل وإذا كان الجو صحواً جعل ماء النيل لون ماء البحر ضارباً إلى الحمرة فيدركون أنهم اقتربوا من دمياط ورشيد، وللنيل فرع آخر من الناحية الغربية لمصر يجرى إلى السودان وفرع آخر فى أرض المغرب فى مقابلة جزيرة كريت، وفى بلاد بنى هلال كان يَصُبُّ فى البحر الأبيض.

والآن الأماكن التى كان يجرى فيها تبدو للعيان، ثم قطع سيف بن ذى يزن مضائق الشلالات فجرت كلها إلى نيل مصر، والنيل لا يجرى إلى أرض بنى هلال لقد عطل، وبعد أن خرج فرع آخر لنهر النيل من جبل القَمَر يجرى من الجانب الغربى إلى إقليم السودان وكان يصب فى البحر المحيط، وفى ديار مصر مئات الآلاف من الترع المتفرعة عن النيل إلا أنها ليست طبيعية وإنما من صنع البشر، وهى تجرى عند فيضان النيل، وسوف نتحدث عن الترع فى موضعه بمشيئة الله - تعالى - .

وفي الناحية الجنوبية وراء خط الاستواء كانت إقليمًا خاليًا ولشدة القيظ فيه والخوف من الحشرات السامة فيه لا يعد إقليمًا مسكونًا والآن يسكنه البرتغاليون ويسمونه بلاد الفونج وهذا ما حكاه القبطان حمداد.

والآن أكثر من نصف مصر في قبضة العثمانيين، وقد تحولت في ربوعها ما عدا جنوبها، وعرفتُ بسلاطينها وأصحاب السكة والخطبة وبالقاب غيرهم.

أولاً سلاطين أشراف الأدارسة

حكم ممالك المغرب خمسة أولهم إدريس؛ ولذلك سموا بالأدارسة، إن نسبهم يتصل بالإمام على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وكلهم حسينيون ومدة خلافتهم (١) عامًا، وبعدهم:

سلاطين آل حمود

حكم ممالك الأندلس سبعة أولهم الناصر لدين الله، وثانيهم المأمون بالله، دامت دولتهم (٢) عامًا وجاء بعدهم:

سلاطين آل الموحدين

وهم في بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ثلاثة عشر، وأول ظهورهم من الشام، وكان الدوام لدولتهم (٣) عامًا، وبعدهم:

سلاطين آل بنى طاش

وهم في ممالك فاس ومكناس سبعة ومدتهم (٤) عامًا ويسمى الواحد منهم كذلك ملكًا، وجاء بعدهم:

سلاطين آل مكثمين

وهم في ممالك المغرب والأندلس ستة، ولكن - على العموم - بقي حكم إقليم

الحبشة لجزيرة مصر، وأصلهم من اليمن من قبيلة حَمِير، حتى إنهم مضوا لغزو الشام في عهد عمر بن الخطاب، وبعد فتح الشام قدم عمرو بن العاص مع قبيلة المثلثين، وكان عمرو بن العاص والياً على مصر (.....)^(١) ثم سمع عمرو بن العاص بغارة الكفار على طنجة وجعل تحت إمرة موسى بن نصير جيشاً قوامه خمسون ألفاً من مصر، وكان المثلثون حكاماً على أوجله فمضوا إلى طنجة وحاصروا قلعتها وفتحوها بقوة سواعدهم، وسكن المثلثون هؤلاء قلعة طنجة وتناسلوا وأصبحوا خلفاء وخلافهم لهذا السبب، ودام ملكهم ()^(٢) عاماً.

سلاطين آل بنى حرين

وهم سبعة من ملوك فاس ومراكش، وبعد مائتين وثمانين عاماً دالت دولتهم، وانتقل ملكهم لغيرهم إلا أنهم كانوا قومًا غاية في نجدتهم وبسالتهم، وأغاروا على أسبانيا والبرتغال بألف سفينة وحصلوا منهم الخراج.

سلاطين أشراف آل الكاملين

وهم في فاس ومراكش والمغرب سبعة، ويسمون أشراف الكاملين، فمن أسمائهم مثلاً نصر الدين الكامل وسليمان الكامل، وقد أغار سُبُوعُ الكامل على مصر، ولما اقترب من مصر بجيش عظيم وفي أرض البحيرة في مصر بمدينة حوش عيسى هبت ريح عاتية عصفت بالجيش وأهلكته عن آخره، وانتهت دولة الكاملين بالشريف سُبُوعُ هذا.

دولة بنى الأغلب

حكام دولة إفريقية عشرة، ويسمون الأغلبين وكانوا على الدوام مع أسبانيا في قتال ونزال، دامت دولتهم ()^(٣) عاماً. والآن في أرض المغرب إذا كلم أحد آخر فخوراً متباهياً سأله قائلاً: أأنت من بنى الأغلب وهذا مثل سائر، ويأمر الله إذا شد عشرة منهم على عدو كانت لهم الغلبة عليه، ودامت دولتهم ()^(٤) عاماً، وبعدهم:

دولة بنى كلب

وهم تسعة فى جزيرة صقلية، لهم البراعة فى الملاحة، وهم بسفنهم يغيرون على الأعداء، دامت دولتهم () (١) عامًا، جاء بعدهم:

دولة آل باديس

إنهم فى أفريقيا ثمانية، دامت دولتهم () (٢) عامًا.

دولة آل بنى حفص

اثنان وعشرون حكموا ولاية تونس وأفريقية وفى عام ٦٠٣ ستمائة وثلاثة فتح عبد المؤمن الأموى هذه الديار بألف سفينة، وولاه بنو حفص حاكمًا، وأصبح خليفة وتسمى ذريته آل بنى حفص، وهم يتسبون إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب، وجاءت بعدهم:

دولة سلاطين فاس

فى المغرب مدينة عظيمة هى فاس وبما أن لهم عرشًا يسمون ملوك فاس ودولتهم مستمرة منذ عهد بنى العباس إلى يومنا هذا (٣).

وأسماءهم هى هارون فاس ومنصور فاس، ومملكتهم على ساحل المحيط إلا أن البرتغاليين أحيانًا ماكانوا يستولون على قلاعهم لأنها كانت مشاع مع فرنجة البرتغال.

دولة سلاطين مراנקش العظام

فى جزيرة مصر لا وجود لدولة أقدم منهم يملكون مليون من الجند، وهم على المذهب المالكي، وليس فى دولتهم ثغر، والآن وهب الله مال قارون الهند لبلاد مراנקش هذه، ويسمون ملكهم السلطان، وكلهم بيض البشرة، لكن لم يتيسر لى الوصول إلى ديارهم وبينهم وبين البرتغاليين حروب، وفى جنوب مملكتهم:

(١، ٢) يياض بالأصل.

(٣) يعنى زمن المؤلف.

دولة سلاطين السودان

وهم يسمون الملك من ملوكهم بدلاً من سلطان سودان، مثل محمد سودان وعبد الله سودان وهم على مذهب الإمام مالك، وهم أهل بحر، وإذا انتقلت الخلافة من أحدهم إلى الآخر دون موافقتهم لا يصبح خليفة ودولتهم منذ سبعمائة عام، ولهم جنود لا يحصون كثرة، ولهم الآن مائة حصن حصين وسد متين وقلاع، وهم على الدوام فى حرب مع البرتغاليين، إنهم أهل شجاعة ونخوة وقد اختلطت بهم كثيراً فى بلاد الفونج إنهم بيض الأجسام ضخام وعيونهم فى موضع حواجبهم، أكثرهم بحارة.

وصف دولة سلاطين فونجستان

هم قوم عرب سمر البشرة يسكنون ساحل النيل، ولهم جنوب خط الاستواء عشرون قُناق، وملكهم يسمى الملك، ويعتقدون فى أبناء الشيخ البكرى، إنهم ملوك أتقياء صلحاء، ليس لهم سكة ولكن فى الخطبة يذكرون ملكهم الملك عطاء الله، ويسمونه ماى أى السلطان، وفى الناحية الشمالية:

دولة ملك بربرستان

ويسمون مدنهم دنقلة وهى مدينة فى حجم البلدة على ساحل النيل، وهم جميعاً سمر البشرة إلا أنهم غاية فى الجمال، وليس لهم سكة، ولكن يذكرون فى الخطبة الملك إدريس والملك حمد والملك حسن، وسيأتى الحديث عنهم فى موضعه، وهؤلاء البربرستانيون أتقياء وعلى مذهب الإمام الشافعى ويطلقون على ملوكهم اسم دنقل مثل دنقل إدريس، ودنقل حميد ودنقل إلياس، ولسانهم هو اللسان العبرى، لأن إدريس بعث فى هذه الديار.

دولة آل قهرمانقة

يسمون ملكهم ققان، مثل عادى ققان، زوال ققان، إدريس ققان، إنهم مسلمون، ووجوههم ضاربة للحمرة، إذا أوقعوا فى أسرهم قومًا كافرين باعهم النخاسة فى مصر، وهم يتكلمون السريانية، وهى لغة صعبة.

دولة آل بغه ونسكى

يسمونهم بغه ونسكى، ومملكتهم فى الصحراء على الجهة الغربية، إنهم عراة عيونهم صفر وحمر، إلا أنهم لا يؤمنون جيرانهم، وليس لهم سكة، وفى الخطبة يسمون ملكهم عمران، أى السلطان، مثل ذلك على عمران، كمال عمران، ومهما كانت أسماؤهم يضيفون إليها كلمة عمران مثل الصَّهْب عمران، وقد استولى هؤلاء القوم على الحبشة وما بين النيل، إنهم عراة.

ويخافهم جيرانهم لما لديهم من أسلحة، وسلاحهم ينفذ فى الإنسان كأنه مبضع وهم يختلطون بالبرتغاليين فى الأغلب ويشترون منهم ويبيعون لهم، ومنهم من يعمر ألف عام، وسن الفيل وقرن الكركدن وجلد الزواحف والذهب والزباد غاية فى الكثرة عندهم ولا يفهم لغتهم سوى البرتغاليون أولاد الزنا، وهم يجعلون كلامهم بالإيماء والإشارة، ويستخدمون ذلك فى المعاملات والمهمات، أئمتهم فى الخطبة يوردون الآيات والأحاديث ويذكرون بالحشر والنشر، ويسمون لسانهم العمراتى، ولم أسمع لساناً مثله، وسوف أورد بعضاً من ألفاظه من بعد.

دولة ملوك ذى اليزن

يسمون ملوكهم ناصر يزان وقاسم يزان، وهى تخفيف ذى اليزن، يقولون قاسم يزدان أى إنهم ينتسبون إلى سيف ذى اليزن، إنهم مؤمنون موحدون على المذهب الشافعى، سود البشرة وليس لديهم سكة، ولديهم ذهب كثير ولكنهم لا يعرفون له قيمة، وقد رأيت فى فونجستان مدينة تسمى شولومقاي، وقد التقيت مع بعض من قوم ذى اليزن، إلا أن لغتهم صعبة، ولقد جئت برجل من أولاد فونج يعرف لغتهم ليرجم لى، وسألته فقال: نحن اثنا عشر ملكاً، وكل ملك منهم له ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف جندى، وقد أحطنا بديار الحبشة من الخلف، ولولانا لاستولى البرتغاليون على الحبشة. إلا أن قائل ذلك كان منهم والله أعلم، وإذا ما وقف قرد على قدميه ومشى أشبهه.

إن أفخاذهم كأرجل الجراد ويطونهم سود، وأجسامهم غاية فى النحول، وجميع بنى آدم يخافونهم، أما الأقوام الآخرون فهم لا يعرفون الكفر ولا الضلالة ولا الحشر والنشر

ولا الجنة والنار، وكأنهم حيوان ناطق، إلا أنى لم أرهم والله على ما أقول شهيد.

دولة بنى آل هلال

تقع دولتهم فى أرض المغرب بجانب أوجلة، ومدينة بنى هلال تقع قبالة جزيرة كريت، وكانت مدينة عظيمة فى الزمان الخالى، أغار عليهم الأسبان وقتلوا ملكهم، وكان بنو هلال هم هؤلاء الملوك وبذلك انقرضوا والآن من ذريتهم قوم بنى هلال، وهم مئات آلاف من العرب الرحل، وحيواناتهم كثيرة، ولما كنت فى عسكر الإسلام وجدت عندهم زيتاً له رائحة المسك وهم يحضرونه إلى مصر، وهو زيت غاية فى اللطف، وقديماً كانوا يطلقون على ملوكهم اسم هلال مثل نور الله هلال، صنع الله هلال، فضل الله هلال، وقد أقاموا فى صحراء بلاد المغرب.

دولة آل أفاريقة

إنهم جنود عظام وكثير من أثريائهم يسكنون المدن، ويحكمونها ويسمون أفريقه وفى الجمع أفاريقه.

دولة ماى بورنو

إنهم ملوك سُنِّيُون حَنْبَلِيُون، وقوم مسلمون موحدون، يسمون ملكهم ماى مثل ماى سنجال وماى عباس وماى صادق، وماى بمعنى سلطان، لا سكة لهم وبدلاً من النقود يستخدمون الخرز، ويرسلونه إلى مصر ويأخذون الذهب، وملوكهم ونساؤهم بدلاً من التزين باللؤلؤ يتزينون بالخرز، وفى كل عام يصل الحجاج فى ثمانية أشهر إلى مصر عن طريق صحراء الاشراف، إلا أنهم يستولون على الذهب المصرى، وقد تيسر لى أن ألتقى بالملك ماى سنجال الدين ولكى يمضى إلى الحج كان معه ألف جمل تحمل الذهب، وكان قد ستر وجهه كأنه امرأة محتشمة.

دولة أفنو

هم سبع قبائل قبيلة منهم مسلمة، ليس لديهم سكة، ولكن لهم خطبة، إنهم سمر

البشرة، وغيرهم لا يعرفون ما الضلال، وبما أنهم ليسوا على المذهب السنّي يأسرون غيرهم في الحرب ويبيعون أسراهم في أوجله ومصر، وفي هذه الجزيرة كثير من الملوك إلا أنني لم أشاهدهم ولكنني حسب ما اتصل بعلمي بقدر ما على وجه الأرض ممن يلبسون ثياباً في جزيرة مصر عرايا.

دولة ولاية الجزائر

كانوا ملوكاً أصحاب سكة تحت حكم الأسبان، وفي عام (١) فتح السلطان سليمان القانوني بلادهم على يد (٢) باشا وهي الآن ولاية ولها وزارة ولهم سكة وخطبة، ولهم اثنا عشر ألف جندي مسلحون بالبنادق.

دولة ولاية تونس

مملكة لها سكة وتحت حكم الأسبان، فتحها السلطان سليمان خان عام (٣) على يد دورقود باشا، وهي ولاية ذات وزارة والآن لها سكة وخطبة ولها عشرون ألف جندي.

دولة ولاية طرابلس المغرب

كانت كذلك تحت حكم أسبانيا، فتحها السلطان سليمان خان عام (٤) على يد (هالا) باشا، ولها عشرون ألف جندي يحاربون الكفار، ويمتصون دماءهم، ولديهم سكة وخطبة، ولما كانوا تحت حكم الأسبان كانت لهم كذلك مملكة وسكة، ومكتوب على سكتهم صاحب النصر صالح النصر ضارب النصر في البر والبحر السلطان ابن السلطان مراد بن أحمد خان عز نصره. ولهم دنائير بلون المسك لأن الذهب كثير في بلادهم، وتسمى إياهم المحلات، ومن عرب الصحراء من يسميها المحلات، وفي بعض المحلات يحتشد جند الجزائر وتونس وطرابلس ويخرج عرب المحلات للحرب لأن السلطان يفتدق عليهم من ماله.

ولو كنت على معرفة بشيوخ هؤلاء العرب لذكرت أوصافهم وأخرجت في ذلك

كتاباً. أما فى سكة غيرهم من السلاطين فبعد أن يكتبوا عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» يكتبون أسماء كل ملك من ملوكهم، وتحت حكم السلاطين السالف ذكرهم وهم: آفنو، وبورنو، وقرمانق، وبغه نسكى، وفونج، كان لكل منهم أسرى. ذلك أنهم إذا حاربوا أقواماً أوقعوا فى الأسر ذريتهم، ويخصّون صبيانهم وكان النحاسون يبيعونهم فى مصر.

وهكذا خلق الله فى هذه البلاد قوماً لهم هذا الشأن العجيب والسلام ولقد ذكرنا السلاطين الذين فى غرب مصر والآن نذكر السلاطين فى شرقها وإذا سأل سائل عن حدودها الشرقية والغربية، فإن النيل يجرى فى وسطها وغربها الجزائر وفاس ومرانكش والسودان. وفى شرقها الحبشة ودهلك وزيلع وبلاد الفونج.

دولة ملوك الدُمبِيَّة

الله أعلم بحدودها، إنهم قوم سمر البشرة، وهم عبدة النار، إن لهم مال قارون.

دولة آل حابية

وهم قوم كثير عددهم ويقال للملكهم (رداقاى) وهم من ذرية كنعان بن نوح المرتدين، وهم قوم سمر البشرة عبوس وجههم، يعبدون الشمس، والحاصل أن فى بلاد الحبشة سبعين ملكاً، وكل منهم على مذهب، وكلهم سمر البشرة، لأنهم يسكنون فى المنطقة الحارة، أما فى الناحية الغربية على شاطئ البحر يسكنها قوم بيض البشرة.

أوصاف دولة ملوك الحبشة

كانوا يسمون ملكهم فى الجاهلية نجاشى، ولما ملكوا عالماً واسعاً من بعد سموه سلطان، وفى عام ()^(١) فى عهد السلطان سليمان خان فتح اوردمير باشا وهو من بقية جند السلطان الغورى الشراكسة مع الطواشى سليمان باشا الحبشة بِمَدَدٍ تلقاه من

(١) يياض بالأصل.

السلطان سليمان، والآن^(١) كل عمائرهم وقلاعهم ومساجدهم من خيراته، وهي بلاد لها سكة وخطبة ووزارة، ونحت حكمهم أقوام مختلفة لغاتهم، ومنهم من ليسوا على الإسلام لأنهم كثيراً ما يختلطون بالبرتغال الكفار، كما أنهم تردوا في الضلالة، وبذلك يكون كل من في جزيرة مصر قد تم ذكرهم، وسوف يذكر هؤلاء الملوك منذ الأزل إلى عهد الملوك المسيحيين.

* * *

(١) يعني زمن المؤلف.

الفصل الثانى عشر

فى ذكر الملوك المشركين والضالين

الذين ساءت أحوالهم وأفعالهم

أول من كان له الملك على وجه هذه الأرض هو الملك كيومرث وهو من أبناء نوح - عليه السلام - الذين يعرفون بالعمالقة، والملوك الذين ظهروا فى عهد المسيح - عليه السلام - أربع طبقات وسلف ذكرهم، ومع كونه غير مناسب ذكروا، الطبقة الأولى الدارانين والطبقة الثانية الكيانيون والطبقة الثالثة الأشكانيون، أما الطبقة الرابعة فالساسانيون ولكن الدارانين لم تنقرض ذريتهم لأن النبی ﷺ دعى لهم بالدوام إلى يوم القيامة.

أولاً: دولة كسرى

من الدارانين وجمعهم الأكاسرة، كان تحت حكمهم بغداد والكوفة ومصر ولحسة والعجم وخراسان وإيران وتوران، وقد ولد النبی ﷺ فى عهد نوشروان العادل، ودعى له، وقد استولى الجنكيزيون على دولته، واستوطنوا جورجيا، والآن^(١) فيها.

آل داديان

فى جورجيا يدينون بالطاعة للعثمانيين، وعلى سبيل الهدية يقدمون مطبخ السلطان مائة ألف عنزة وصقر وفتيات حسان وفتيان، وهؤلاء الداديانيون كثرت ذريتهم للطف جوههم، وهؤلاء فى أرض جبلية كثيرة الغابات ينقسمون خمس طبقات:

الطبقة الأولى من آل الجورجيين

وهم يدينون بالطاعة لآل عثمان منذ حملة سفر باشا.

الطبقة الثانية آل أجق باش

وكانوا يطيعون حيناً ويستمددون حيناً آخر، وتعين أرض روم ولاتهم، وهم يسرقون الفتيات الحسان والشبان والأوانى الفضية الثمينة، ثم يتصلحون وهم قوم شجعان بوسائل.

(١) يعنى زمن المؤلف.

الطبقة الثالثة آل كوريل

وهم أيضاً أربعون ألفاً ومطيعون.

الطبقة الرابعة آل شوشاد

وكان لأنوشروان ولد يسمى شوشاد. إنهم جند كثيرون إلا أنهم مطيعون.

الطبقة الخامسة آل مكرول

تعوذهم الشجاعة ولا اعتبار لهم عند غيرهم من الشعوب، وهم رعية لا ملك لهم، وهم يسكنون المنطقة من قلعة قونية بالقرب من طرابزون إلى ساحل نهر جوروغ وساحل البحر الأسود، وهم جميعاً على الدين المسيحي، وإنجلييون، ولهم أقطار ذات قلاع ومدن، وإن شاء الله سوف أكتب عنهم تفصيلاً من خلال سياحتي في بلادهم عام ٥٦، ومنهم ابن لأنوشروان هو هورمز سكن سفح جبل البرز مع دادني العراق بعد استيلاء طوخطمش خان.

الطبقة السادسة: آل تاجدار. يعني قوم المجر.

بالقرب من أكره التي انتصر بجانبها السلطان محمد صحراء خرشتوش قلعة تسمى (تورك اوردي) بمعنى جيش الترك وفيها سكنوا، وعندما سألتهم قالوا إننا منجار، أي أربعة أشخاص، ومنجار هو ما يسمى به ملوك تلك الديار، هذا ما يخبرون به، ويقولون إن منجار خطأ والصواب منجار. بعد ذلك انتقل تاجهم إلى قيصر النمسا، وقد فتح السلطان سليمان خان بلادهم وقلعتهم فوجد التاج هناك واحتفظ به في خزانته، وبعد ذلك أهدى آل عثمان التاج إلى الملك فردينار وهو يشاهد الآن في ديوان قيصر النمسا.

وسياحتي في بلاد الألمان في عام ٧٤ (أربعة وسبعين) سلف ذكرها، وليُعلم أن أصل المجر جورجيون وجاءوا من بلاد العجم وأصبحوا المجر.

الطبقة السابعة ملك موسكو

وهم كذلك من أبناء أنو شيروان إلا أنهم أصبحوا يملكون دولة عظيمة إضافة إلى ما ملكوا في العالم المحصول.

وقد حكموا في إقليمين، إنهم إنجيليون، والآن إذا مات منهم ملك يحضرون من جورجيا من الدادانيين ولى العهد ويجعلونه ملكًا عليهم ويلقبوه بالملك. هذا ما قلناه عن ملوك التار عندما سافروا إلى بلادهم عام (١١) وذكرناه في موضعه، وفي ديار موسكو ثمانية وأربعون بان وثمانية عشر وزارة.

دولة بولندا

والبولنديون كذلك من ذرية الدادانيين وهم ستة أجناس وهم جميعًا إنجيليون ويسمون ملوكهم بان.

دولة جه

يسمون ملكهم جهدام، ولهم سكة وهم قوم أشداء.

دولة مجار أردل

ينحدر نسبهم من منوجهر، يسمون ملكهم يورام، كما يسمونه (بتلان غور) بمعنى الملك الأعظم، ولكن عوام الناس يسمونه قرال وهم يدينون بالطاعة لآل عثمان، ومملكتهم أربعة أقسام: قسم يسمى حايد أوشاخ، ومنهم أردل، منهم قوم صاز، ومنهم سيكل، ورعاياهم الأفلاق ولهم سكة، ويسكون عملتهم في قلعة (ازدر) ولهم ولايات معمورة وقد غزت هذه البلاد مرارًا وكتبت عنهم.

دولة المجر الوسطى

ينحدر نسبهم كذلك من منوجهر، إذ إن في لغتهم ألفاظ فارسية كثيرة، ولهم قلاع هي فُلك وسُضمندرة وكرمات وسجان، أقطارهم قليلة، لكنهم أبطال كفار وسكتهم تسمى زولطة. إنهم يتبعون النمسا ويسمون ملكهم بلطوش.

دولة إسفاح

قطر عظيم على ساحل البحر المحيط، أهله كفر، ورعاياهم مليون من التار المهاجرين، ولم يعترفوا بجند سوى جندهم، ولقب ملكهم (انبراسقان) و (انبرردال)،

لهم سكة وهم كفار شداد، ولا طاقة لقيصر النمسا بهم، وفي حقبة من الزمن هي مائة وعشرون عامًا حكمهم كثير من الملوك، وهم إلى الآن يخوضون الحروب.

بمعنى دولة هولندا العتيقة

يسمونها فلمنك العتيقة وفيامنك، وتقع في الجانب الشرقي من نهاية خليج متشعب من البحر المحيط، وعليهم ملك مملكته بلا نهاية، ولقب ملوكهم (مستردام) بمعنى أعلى الناس قدرًا، ولهم ثلاثة آلاف سفينة ولا وجود في بلادهم لأشجار كبيرة، ولذلك بنى الإنجليز لهم سفنهم ولهم سكة وعملتهم الذهب والريال الامبراطوري وحاضرة ملكهم امستردام وقد بلغناها عام ()^(١) وكتبنا عنها.

دولة الدانيمارك

يسمون ملكهم (انكور) وبلادهم كذلك على ساحل البحر المحيط، وجزيرة الإنجليز قبالتهم وأرضهم متراحبة الأرجاء، وهم سيع ممالك تبع النمسا. وسكتهم من الذهب والريال الألماني الإمبراطوري، وحاضرة ملكهم ()^(٢).

دولة دونقارقيز

لقب ملكهم (دونقارقه)، هذا اللقب خاص بالملوك وهو بمعنى سلطان، والإفكل ملك له اسمه وقد مضيت إليها في شهر رمضان من عام أربعة وسبعين، وملكهم يشترك في الحكم مع أختين، وحاضرة ملكهم مدينة لونغباط وهي بلد بها سبعة وزراء للملك لأن قبالتها جزيرة الإنجليز الكبرى، وميناء أمريكا والألمانيون فيها كثير، ويستوردون الذهب وشجر أمريكا وعظم السمك الذي يشبه قوس قزح ويدفع عليه ضريبة، وينال كل من الملوك السبعة نصيبه. ولونغباط مدينة لها مساحة اسطنبول، وحولها حدائق ولذلك تبدو مدينة كبيرة ولكنها ليست كاسطنبول تمامًا. وما أطيب جوها وقد سلف أن وصفتها بالتفصيل، وعلى سكتها صورة بتين إحداهما بجانب الأخرى، ولهم نوع من السفن تحوى سبعة طوابق من المخازن وثلاثة من مدافع من

البرونز، وثلاثة آلاف رجل وألف بحار ماهر ويبحرون إلى الهند والصين وأمريكا. ولدونقارقة سفن بها أسواق وطواحين تديرها الخيل، وحمامات، وفي مؤخرتها حديقة وهي تستحق المشاهدة.

دولة النمسا

ويسمونها ملك ألمانيا ولكن سائر ملوكها لهم ألقابهم الخاصة بهم ويسمونهم قيصر النمسا وإمبراطورها ومعنى ذلك ملك الملوك، وقد سلف ذكر ذلك، هم شعب كبير العدد ولهم جيش لا حد له وهم ملوك من ألف وسبعة أعوام ولهم ألف وسبعمائة قلعة لكل منها سد منيع.

وحاضرتهم (بيج، وبراق) وعلى سكتهم صورة ملوكهم الخاصة، وهم من نسل الملك «هوشنك» وكان تاجهم على الدوام فى قلعة (بوجن) ومنذ أن فتح العثمانيون قلعة (أويوار) جاءوا بالتاج من قلعة يوجن إلى قلعة براق، وقد أوردت أوصافهم عندما زرت بلادهم عام سبعة وأربعين.

دولة الإنجليز

من القاب ملكهم أيرلانده، وهو ملك عظيم صاحب سكة، إلا أنى لم أبلغ ولاياتهم، ولم يقوموا بثورة طوال تاريخهم، وهم يعيشون على التجارة، وكل حكومتهم ثلاث جزر عظيمة وحاضرة ملكهم لوندرة وهى مدينة عظيمة على نهر لوندرة، وتقع فى جزيرة مساحتها ثمانية آلاف ميل، ليس للإنجليز حكم فى شواطئ ألمانيا.

دولة المجر الصغرى

تتبع قيصر النمسا، ثاروا غير مرة على النمسا، وتبعوا العثمانيين ومعظم مملكتهم فى حوزة آل عثمان، وهى بورغه وقنزّه وأوسكّ والبوا، واوبجوى وشكلوس. وقد بقوا الآن فى ولاية مصلوون ويسمون حاضرة ملكهم الفرداجق، وجقه طورنه، ويسمون ملوكهم هرسك. إنهم سبع طبقات كفار، ويذكر كل منهم باسمه، أولهم زرّين أوغلى الذى سكن طورن ويكان أوغلى له ولاية (سلوون) و (نّياز أوغلى) وله

ولايات (صَمَآي)، و (شِوار أوغلي) وله مملكة (١) وحدود نهر رابه طريق شديدة الوعورة.

وفي عام أربعة وسبعين انهزمت مع الوزير أحمد باشا كوبرلي أوغلي وذلك بسبب سوء تدبير ودودوشقه أوغلي.

وسكتهم من البرونز وفي داخل ظادردآن وساحل خليج ونديك دودو شقستان أرض حجرية، أما في عام (٢) كان أحمد باشا قائدًا علينا ولقد كتبت أنه أغار على تلك الولاية بجيش قوامه ثمانون ألف مقاتل ولكن ثمة هرسك آخر غير أن قدمي لم تطأ ولايته لذلك لم أكتب عنه.

دولة البندقية وهي البلاء الأكبر

يسمون ملوكهم بج برم وهم أربعون عاهلاً، ومن هؤلاء الأربعين سبعة أمراء (بكوات) واحد منهم سلطان يحكم، وعاصمتهم البندقية فمعظم مدنها مع مدنا منفصات، ومصالحات، (.....) (٣) وإذا ما وقع أمر يتعارض مع الصلح جاءوا كأنهم الجرب الافرنجي وبقوا وتجولوا عشرين أو خمسة وعشرين عاماً، إنهم ملاعين وبقبول الصلح مع كوجيله يأتون بالطاعون الأكبر.

دولة دويره ونديك

اللقاب ملوكهم (جَارَنًا) وهم يستخدمون اللاتينية لغة، وعند ظهور الدولة العثمانية تنبأوا بأنهم سيفتحون الدنيا، وقدموا إلى السلطان أورخان غازي في بروسه وعقدوا الصلح معه بناء على صلح من سبعين بندًا وجملة هذا العهد مائة وأربعين بندًا، وهي تسجل كل ما في الأرض وجميع ما في السماء وما في البحر في دفاترهم.

وهم يبرزون ما لديهم من أوامر سلطانية وعهود ملكية لسبعين ألف ملك من القدماء. إلا أنهم لم ينكسوا عهدهم قط مع جميع الملوك في جميع الأزمنة وقلعة دويره وانه ديك تقع بالقرب من قلعة نووه في إقليم الهرسك، وهي ولاية صغيرة وقبالتهم خليج البندقية.

ولاية التفاحية الحمراء أو دولة البابا

ويسمون ملوكهم (بابا). وهم يتولون الفتيان نيابة عن عيسى - عليه السلام - في بلاد المسيحيين ويسجد لهم كل ما فى البلاد المسيحية ويجلونهم، والعجيب أن رياضة الامتناع عن الطعام عندهم هى القديد المحض الذى يسد الرمق ويمسك الروح على الجسد، وبما أنهم على ذلك فإن الواحد منهم يُعمر مائتى عام، والبابا الذى كان على عهد مراد الرابع ثبت أنه مات وله من العمر ثلاثمائة عام، «يا اسقأ له فقد بقى عاجزاً فى حباله الجهل». ولكن فى رأى ليس هذا مستبعداً، فقد رأينا فى صحراء القبحاق من الناس من عاش مائتين ومائتين وخمسين وثلاثمائة عام وهم يركبون الخيل وينزلون عنها، ومن لا يعرف رياضة الامتناع عن الطعام يعيش طويلاً هكذا.

دولة فرنسا

يسمون ملوكهم (الملك العظيم) وملكهم عظيم وهو يمت بصلة القرابة إلى آل عثمان وهو يحكم على ساحل البحر الأبيض، وما على ساحل البحر المحيط. وحاضرة ملكهم مدينة باريس، إنهم يملكون آلاف القلاع والسفن.

دولة جنوز

يسمون ملوكهم (جنوان) وولاياتهم قليلة، يعيشون على التجارة وهم كفار، والآن يعيشون فى سلام مع آل عثمان. وبينما كان فى اسطنبول سبعة سفراء للملوك أصبحوا به ثمانية.

دولة اغرا ندورقه

ملك آخر من الفرغة لشعب مسيحي يسكن ساحر البحر الأبيض، وعاصمتهم مدينة الاغورنه، ولا تبلغ دولتهم مبلغ فرنسا، ويعيشون على التجارة فى البر والبحر، ويسمون ملوكهم (اغرانودو) ولهم جيش وسفن.

دولة البرتغال

يسمون ملوكهم (.....)^(١) ولم يقبلوا الصلح مع أحد على طول الزمان، وهم متكبرون متجبرون كفر، إلا أنهم مسيحيون ومذهبهم لا كاثوليكي ولا بروتستانتى، وحاضرة ملكهم هى مدينة (.....)^(٢) بالقرب من مضيق سبته وساحل البحر المحيط كله فى حوزتهم، وقد ملكوا فى الهند سبعمائة جزيرة ووصلوا الصين والصين الكبرى وختا وختنه، وقد طاف البرتغال حول هذه الجزيرة آلاف المرات وأكثرهم من الكفار. دانت لهم الهند.

مملكة الأفلاق

كان لهم دولة عظيمة فى سالف الزمان، وخضعوا لآل عثمان وهم الآن يؤدون الخراج، ولاياتهم على ساحل نهر الطونة ولهم حاضرتين وهما مدن بوقرش وترقوش.

دولة بوغدان

كانت كذلك دولة عظيمة وقد استولى السلطان با يزيد ولى على آق كرمان وقلعة كلئ منهم فى بداية حكمه؛ فأدوا الخراج له وكم من ملك فى روملى بلاد الكفر، وانقرضت دولتهم بقيام الدولة العثمانية وضمت ولاياتهم إلى سائر الولايات الإسلامية مثل: اسلوون وقورول وطوت وكروات والصرب والبسغار واللاتين والهرسك، ووينق واللاز وحيلاز، وقزاق عاق وروس منحوس والبانيا ونابود، وروم والمورة ودوجاقونا روم ورومانيا ولازروم.

هذه الدول الحقيمة من الدول الملكية اضمحلت، وبقيت كل منهما فى ظل حماية ملك، ولكن حمداً لله فقد أصبحت الكروا والبسغار والصرب ووينوق والألبان من رعايا الدولة العثمانية.

(١ ، ٢) بياض بالأصل .

دولة بلاد الجركس

ليست دولة ملكية ولكن لهم أمراء فيما بينهم، ويقال لهم مرزه وكلهم رؤساء عشائر، أولاً الجركس فى جزيرة طمان: وهم يطيعون أميرهم وفى الطرف المقابل لنهر قوبان الجركس الشغا، وهم كذلك من الأتباع، بعدهم عصاة الشغا جركس الكبار، منهم كذلك جركس الزانا، ثم والية مامالوقه حاتوقاى وهم عصاة كذلك، ثم ولاية الجركس بولتقاى وهم عصاة كذلك، ثم ولاية الجركس البوزدوق عصاة متمردون، وولاية جراكسة بسنى عصاة، وهم جميعاً جنود شجعان، ثم ولاية جراكسة آدمى أعداء البشر، وولاية جراكسة تققو قوم شداد، وجراكسة ولاية فبارتى يسمون أميرهم طاوسطان، ويسمون بكواتهم مرزا ولهم أربعون ألف جندى، أما أنا ففى عام ألف وسبعة وسبعين مضيت مع محمد كراى خان أوغلى وسليمان كراى إلى مدينة (صهومة)، والحمد لله أنه فى هذا العام المبارك شرف كل جراكسة قبارتى بالإسلام، وأهلكوا كل ما لهم من خنازير وطرحوها فى نهر جَنَجَكه، ووسعوا المساجد وقد صَعَدَت أنا الأذان وأنا أول من أمّ المصلين، ولكن غير الجراكسة ليسوا مقيدين بمذهب خاص، وإذا قلت إنهم كفرة قتلوك وإذا قلت إنهم مسلمون فلا طاعة ولا عبادة لهم، إنهم قوم أمرهم عجاب وسوف يشرفون باعتناق الإسلام إن شاء الله.

وجراكسة ولاية طاوسطان من رعايا الملك شامخال خان ملك داغستان وهؤلاء القوم يسكنون سفح جبل البرز ومن القرم إلى هذه المحلة سبع وتسعون قناق. وفى الجانب الشمالى من بلاد الجركس فى صحراء القبجاق أربعة ملوك (من القالمق).

ذكر الحكام الذين سكنوا صحراء القبجاق وغيرها

دولة طيسى شاه

فى الجانب الشرقى من صحراء هيهات بجانب قلعة الترك عبر مليون من القلمق نهر ادبلى إلى القبجاق، وسكنوا هناك، وهم لا يعرفون الكفر والضلالة والخسر والنشر والآيات والأحاديث والجنة والنار ولا يكتروثن بالدنيا، إنهم يأكلون لحم كل ذى روح فى هذا العالم، ويلبسون الجلود ولا يشربون الماء وما أكلوا الخبز، ولا يصيهم الطاعون

وذات الجنب والحمى والأوجاع، ولا يعرفون الشيخوخة إنهم يشربون البوزة والقمز ولبن الفرس، ومنهم من يُعمر ثلاثمائة عام، ومائة ومائة وخمسون عامًا أدنى ما يعيشون. ولما عدت من داغستان كتبت عنها تفصيلاً.

دولة مونجاق شاه ابن طيسى شاه

إنهم كذلك مليون من القلَمَق، وهم كذلك لا يعرفون ما الإسلام وما الإيمان وما الكفر، إلا أنهم شجعان أشداء.

دولة قوبيا قلَمَق

إنهم مائة ألف أسرة من البدو يسكنون جانب نهر قوبان، وأُتيحت الفرصة لأرسلان بك ونوروز بك اللذين يسكنان بلاد الجركس للإغارة على النوغايين وأسروا منهم، والآن في قلَمَق خمسون ألف من مسلمى النوغاي في الأسر.

دولة جاقارقالمق

إنها في الطرف الآخر من نهر ادبلى، وهم خمسمائة ألف، إلا أنى لم أعبر نهر ادبلى إلى ناحيتهم ولم أر هذه الطائفة إلا أن القالمق يخافونهم كثيراً.

دولة كوك دلتن قالمق

كانوا خمسمائة ألف لعين وهم يسكنون المنطقة بين نهر ادبلى ونهر جايق، كانوا أكثر سحرًا من القالمق الآخرين.

دولة أورومبت قالمق

كانوا كذلك خمسمائة ألف لعين وكانوا يسكنون ساحل نهر ادبلى والناغايون فيهم لا يحصون كثرة ديو غيرى نوغاي نقل ايدرلر.

دولة صقارقالمق

ثمانمائة ألف لعين كانوا يسكنون القبجاق الكبرى، وهذه الطائفة جميعًا تسكن خيامًا على مركبات، وهذه الطائفة تسكن في كل يوم أرضًا معشوشبة ذات ماء، ولهؤلاء الملاعين سبعة عشر ملكًا وهؤلاء يعبرون إلى الصين والماصين والختا وختنه وفغفور والبلغار إلى العالم المظلم من أرضهم المستجمدة، وفي الجانب الآخر في زعمهم أنهم

يسكنون الدنيا البيضاء، وأن ماء الحياة فيها، ويقولون: نغضى إليها لنعيش أبدًا، وجميع أوصافهم مذكورة من قبل، وما لا ريب فيه أن بنى الأصفر منهم اللهم عافنا.

ذكر أحوال الأبخاز^(١) الضالين

يسكنون ساحل البحر الأسود، جميعهم ()^(٢)، إنهم عشائر متناحرة متحاربة، لا دين لهم ولا كتاب، ولا يعرفون ما الحشر ولا النشر وهم فى ذلك يشبهون الجراكسة ولهم منازل فى الشمال مع الجركس، وفى الاحيين يحاربون الجركس والمكرل، والمكرل يسكنون شرقهم ويفصل بينهم نهر فاشه وأصل هؤلاء الانجاز والجراكسة عرب، وقد ذكرناهم آنفًا، والجراكسة والانجاز فى مصر أصلهم من هذه الأرجاء الذين نذكرهم عشيرة عشيرة.

أولاً ولاية أبخاز الجاج المشاعة مع مكرلستان

يتكلمون اللغة المكرلية ويسمون أمراءهم جاجه، إنهم عشرة آلاف. ومنهم:

ولاية أبخاز ارلان

ميناؤهم لاجيفار، وهؤلاء عشرة آلاف شجاع. ومنهم:

ولاية أبخاز جندا

ميناؤهم قاقّر، ولهم أمراء، وهم خمسة عشر ألفًا، ولا وجود لحساء من النساء ولا وسيم من الرجال منهم، ويسمونهم (داغ جاندا السرى) أى جاندا لوال الجبل، وهم على مسيرة ثلاثة فئاق غربًا. ومنهم:

ولاية أبخاز جندا الكبار

إنهم خمس وعشرون قرية، وخمسة عشر ألف جندى، لهم ميناء وخلف جبال انجازيا منطقة يسكنها جراكسة المامشوخ، وكانوا يتحاربون مع الانجاز فى اتصال ودوام.

(١) الأبخاز هم: شعب الأباطة، أو الأباطية.

(٢) بياض بالأصل.

ولاية أبخاز كج

وهم قوم فى حدود الألفين، لهم عسكر كثير من الفرسان، وهم مشهورون لذلك بالفروسية.

ولاية أبخاز ارت

وهم ثلاثون ألفاً، ولرجالهم الشهرة باللصوصية، ويسمون ميناءهم كبوس ولهم ميناء لطيف، وكثيراً ما تشتو سفن اسطنبول هناك، وفى جبل ارتلر:

ولاية أبخاز صدشه

ليسوا جراكسة ولا من الانجار تماماً، إنهم عشرة آلاف وسيدى أحمد باشا وصل إلى ولايتهم. وإذا ما سألتهم أهم من الأبخاز؟ أقسموا أنهم من رجال الصدشه، وهم على مسيرة ثلاثة (قوناق) على الجانب الغربى لبحيرة أبى.

ولاية أبخاز قامش

لهم أمراء، وهم عشرة آلاف شجاع، وميناؤهم لا يستخدم كثيراً لأنهم عصاة عناة، إلا أن المسلمين الذين يأتون من مصر وبلاد الترك كثيرون وديارهم غنيمة وهى ثلاثة قوناق.

ولاية أبخاز سوجه

لهم أمراء. وعشرة آلاف جندى، وميناؤهم مستخدم كثيراً، وهى مواجهة لكفه على ٢ قوناق منها.

ولاية جراكسة البوزدوق

لهم أمراء وموانئ وهم عشرة آلاف، ولقد أخذ منكلى كيراي خان من هؤلاء القوم عشرة آلاف رجل لمحاربة ازدرخان، واستطونوا بلاد الجركس ومن ميناء البوزدوق حتى ساحل البحر الأسود ٢ قوناق.

ولاية عشيرة قوتاس الأبخاز

ولهم أمراء وموانئ وسبعة آلاف جندى، ومن ميناء أنابا بالقرب من طمان، قنق إلى الأبخاز، وهؤلاء القوم مشهورون بطاعتهم لأن فيهم على الدوام جند القرم وطمان، وفى هذا الموضع كذلك اثنا عشر قوماً من الأبخاز. حقاً إن نساؤهم حسان ورجالهم

مشهورون بالشجاعة، إنهم قوم شجعان وهم فى الأصل عرب، وفى عهد خلافة عمر بن الخطاب كانت هذه الديار لكفار الجنويز وقد أعلنوا العصيان على بلاد العرب، وقدموا إلى جنويز واتخذوها ملجأ، وسكنوا تلك الديار، وهم يتكلمون اللغة الأبخازية، لكن فى جبال الأبخاز اثنتى عشرة عشيرة ولكن لم يكن لنا فى بلادهم سياحة، إلا أننا سمعنا بأسمائهم واختلطنا برجالهم.

أولاً: عشيرة بوسوخو بالقرب من جبال مكرل، وكذلك عشيرة آج جبسى وعشيرة بَسَلَبْ ومكله، وعشيرة آيغا، وعشيرة والاقریش وعشيرة جما قورش، وعشيرة ماجا، وعشيرة بانجارش، وحكامهم كذلك أمراء، ولكل قبيلة بين عشرة واثنى عشرة، وخمسة عشر ألفاً من الجند، وبما أن أرضهم وعرة وكثيفة الغابات فهم لصوص ولا طاقة للأبخاز ولا الشركس بهم.

وبلاد الجركس هى التى تمد مصر بجنودها، إنهم من أهل الضلال وإن بدوا مسلمين، وإذا سألنا الواحد منهم: مَنْ أنت؟ ألح على قوله إنه مسلم. وانتسب إلى الإسلام، ولذلك من شرف منهم بالإسلام يعد مسلماً غالٍ، فإذا وجد فى الأبخاز والجركس كافر قتلوه، وهم على الدوام بغاة عتاة.

ذكر أحوال الروس المنحوسين

أى القزاق العققة

تحت حكم ملوك له وموسكو سبعون فرقة من الملاعين وهم قوم استولوا على العالم. وهم تارة يتبعون خان التار وتارة أخرى من موسكو إلى بولندا وثالثة من بولندا إلى ملوك قرائلق.

وأحياناً يشقون عصا الطاعة وهم بخمسمائة سفينة يغيرون على سواحل البحر الأسود الأربعة ناهيين ساليين، ثم يعودون بهذه السفن إلى بلادهم المنحوسة، أولاً فى جانب نهر اوزو قَطْمان قرداش قراق، ثم خطمان دور زنفه وخطمان سرکه، وخطمان إخْمِلْ نج، وخطْمَانْ بِرَابَاش وخطمان أُنْدِرِيَا وخطمان شَرَه مَتْ، وخطمان زابور وسقه، وخطمان خَرْنَسْتِيَان، وخطمان أومان، وخطمان كورلو، وخطمان جَهْرِل، وكم من

خطمان في تلك القبيلة الكفارة.

ولكن في عام واحد وخمسين أغار عليها كيراي خان واستباحها وحررها من الكفار.

وهؤلاء يتبعون بولندا أما من يتبعون موسكو فهم سبعون خطمان وهم على ساحل نهر تن الذي يجري تحت قلعة اراق.

أولاً: تن خطمانى هو رئيس سبعون خطمان، ويسمون قلاعهم بأسماء غيرهم، وجميع قلاعهم على ضفة نهر تن من الخشب وجركس كرم ومنجه كرم وسواكرمن واسوركرمن ومورق كرم وتوقاي كرم وبراص كرم والحاصل أنه من ساحل نهر تن إلى أراق بمسيرة ثلاثة أشهر سبعون خطمان، ويعرفون بالكرمنلر وهم القزاق العققة. وقد انتهى ذكر هؤلاء الملاعين في هذا الموضع.

أما كفار الروم واليهود والقبط فكل منهم رعية لمملكة، خاصة إن الروم والأرمن ليس لهم مستقر في بلاد العثمانيين، إنهم من المسيحيين، وكان لهم ملك في دمشق وحلب وأنطاكية.

دولة آل قيصر الروم

وجمع قيصر قياصرة، والمالك هرقل أطولهم عمراً، وقد استولى على مصر كذلك، لقد كتبنا ما يختص بذلك في تلك البلاد فالمسلمون والمسيحيون جميعاً يريدون القدس ومصر.

دولة القبط

كانت لهم ملك مصر ويسمون ملوكها قباطة، دامت دولتهم أربعمئة عام، من طبقاتهم طبقة تتألف من سبع وأربعين، ثم دالت دولتهم وانضمت دولتهم إلى دولة العمالة ثلاثمئة عام، ثم عادت دولة القباطة ودامت دولتهم الثانية مائة وثمانية وثمانين عاماً وعددهم (١).

أما في عهد المسيح عيسى ويحيى وركريا فكانت دولة:

(١) بياض بالأصل.

اليونان

اعتنقوا المسيحية ومنهم كذلك .

دولة البطالسة

ومنهم ثمانية من الحكماء ، ويسمون الواحد منهم بطليموس الحكيم ؛ ولذلك يُعرفون بالبطالسة وجملتهم أربعة عشر ملكاً إلا أنهم كانوا رجالاً لهم عقل أرسطو ، حكموا مائتين وسبعة أعوام وأفلاطون وأبقراط وسقراط وأرستطاليس وفيثاغورث وفيلقوس فيلسوف جميعهم من اليونانيين كما أن الإسكندر يوناني ، ويسمون الملك في عهده شهریار ، وفي ذلك الزمان ملك اليونانيون الدنيا وحكموا من المشرق إلى المغرب ، أما مَنْ حكموا الدنيا من أقصاها إلى أقصاها فأربعة ، اثنان منهم مسلمان والآخرا كافرين ، أما المسلمان فهما سليمان - عليه السلام - والإسكندر ، ومن اليونانيين ياتقو بن ماديان ويخت نصر ، وهذان ملكا الأرض من أقصاها إلى أقصاها . والآن من الكفار والمؤرخين من ذكروا أن الأرض على صورة ثور أسود ، وقالوا إن عدد الكفار ممن يلبسون القبعات السود عددهم بعدد الشعرات السود .

ولله الحمد فإن أمة محمد بفضل معجزاته وبركاته قد شئت شمل الكفار وأذهبت ريحهم ، وقد ظهر بعد ذلك سلاطين آل عثمان ، وبعدهما ذكرنا من شعوب النصارى ولهم مائة وأربعون دولة ومن كان لهم الملك فيها وبعد دولة الخطمانيين ظهر آل عثمان ، ونذكر كل من كان لهم الملك بعد هؤلاء الملوك .

الفصل الثالث عشر

ظهور دولة آل عثمان

ولقد ذكر المؤرخون الترك والجهابذة ما أسلفنا ذكره من دول وملوك سكنوا هذه الأرض، ووقع كثير من الخلاف بين الأمم، أما الترك ومن ملكوا أمرهم بأمر الله من ذرية عيص بن إسحاق ثم انتهوا إلى يافث ثم إلى نوح - عليه السلام - ومن أرومتهم الطاهرة ظهر السلاجقة أول من وطأت قدمهم بلاد الترك وفي عام ٤٤٧ أربعمئة وسبعة وأربعين اتحدوا مع أمراء الدانشمندية قلبًا وقالبًا واستولوا على ديار ملاطيا وقيصرية وعلائية وأنطاكية وقونية وأصبحوا ملوكًا مستقلين وظهروا من بلاد ما وراء النهر واقتضت مشيئة الله أن يغادر سليمان شاه وأرطغرل وهم أجداد العثمانيين بلدهم ماهان خوفًا من بطش المغول وقدموا إلى مدينة أخلاط وسكنوها، وفي عام (١١) ولما كانوا في اتجاههم غربًا إلى ساحل نهر مراد غرق رئيسهم سليمان شاه وهو يغتسل في النهر عند قلعة جعبر، وهناك دفن. وانطلق أرطغرل مع جميع رجاله إلى علاء الدين السلجوقي، وإذ هو في الطريق إليه صعد ربوة وبينما هو ينظر إلى سهل قونية وقعت عينه على جيشين كأنهما بحران يقتتلان، وكانت الغلبة لجيش التتار على جيش السلاجقة وعلى رؤوس رجاله بيض العمائم فقال أرطغرل: لنبذل لهم العون فما نحن من التتار. فرفع لواءًا محمديًا أبيض وتعقبه التتار بجميع جنودهم وأعد لهم كمينًا فتردوا فيه، فكان فرارهم بديلاً من قرارهم فعادت الحياة إلى السلاجقة. فلم ينج أحد من التتار، وقدم علاء الدين مدينة قونية مظفرًا فخلع على أرطغرل خلعًا فاخرًا ومنحه رتبة أمير الجناح الأيمن وولاه على بورسة، وقد غنم أرطغرل غنائم كثيرة من مناطق «بيله جك» و«إيلي باط» و«إينه كول» و«يلق ابادو» وغيرها من المناطق المجاورة لولاية بورسة، وقدم بهذه الغنائم إلى السلطان علاء الدين، كما غنم كثيرًا من الجند بمال الغزوات وأصبح علاء الدين على تعاقب الأيام ملكًا عظيمًا بعون من أرطغرل وكان السلاجقة يتلقبون بالسلطين، ولما قدم الكفار إلى أوسكار لم يستطيعوا رفع رأسهم

(١) بياض بالأصل.

لأنهم جميعاً تحت حكمه، وله سبعون من أصحاب الطبل والعلم و) (١) أمير لواء وجيشاً. أما أمراء اللواء الذين كانوا للسلطان علاء الدين فهم، آل ذو القادرية فى مرعش والرمضانية فى أدنه والملك الغازى الدانشمندى فى سيواس، وآل () (٢) فى قسطنطينى، وآل فرهاد فى أماسية وآل كرميان فى كوتاهية وآل سبحان فى أنقره وآل صادحان فى ولاية صارصان، وإمارة آل عماد فى يد العماد، وإمارة صونقور فى يد أمير صونقور وإمارة كسكن فى يد الكسكان، وآل تكة فى ولاية تكة والحميديين فى ولاية حميد وإمارة منتشة فى يد آل منتشه وآل قرمان فى ولاية ولارنده وإمارة آل أيدين فى حوزة آل أيدين والأمير أرطغرل فى يلق اباد وفى عام ٦٨١ فى مدينة قونية توفى سلطان العلماء بهاء الدين محمد بن حسن البلخى البكرى فى عهد السلطان علاء الدين، وخلفه ابنه مولانا جلال الدين الرومى، ولقد منح الأمراء السالف ذكرهم لقب سلطان العلماء وسوف يذكر كل منهم فى موضعه ومضى السلطان علاء الدين بجيش عظيم صوب أرض روم وفى موضع يسمى فناده أصبح حزيناً وبينما كان يرقد عليلاً دس السم له ابنه غياث الدين تهاكاً منه على طلب الدنيا، وفى هذا الموضع مزق الجند غياث الدين تمزيقاً، فحملوا نعشهما إلى قونية ودفنوهما داخل القلعة، ودالت دولة السلاجقة بعد ذلك ستة وعشرين عاماً وعدد سلاطينهم أربعة عشر، فاجتمع جميع علماء الروم وتشاوروا فى الأمر، فولوا الخلافة أرطغرل وبايغوه، ولما عاد من غزوة بورسة مات جريحاً ودفن فى قصبة تسمى سكوت. كما استشهد صاووجى بك ابن أورخان فى غزوة طومالج ودفن كذلك إلى جوار أرطغرل، وتشاور العلماء ثانية فجعلوا عثمان الصغير بن أرطغرل خليفة مستقلاً فى رأس شهر سبعة، وبايغوه السلاجقة من أعماق قلوبهم، كانت ولادته سنة ٦٥٦هـ، وتولى الحكم سنة ٦٩٩، ودامت سلطته ست وعشرين سنة وتوفى سنة ٧٢٦ وعمره ٦٩ عاماً. ثم أصبح أورخان بك خليفة بعده، ودامت له السلطنة خمساً وثلاثين سنة.

وسليمان باشا ابن أورخان، وقره مرسل بك، واجه يعقوب بك مع أربعين من الأعيان بالقرب من قبو داغى فى البحر الأبيض من موضع يسمى بابسكى خرجوا على رمثهم مع خيلهم صوب الروملى، ولما بلغوا (غاليبولى) ركبوا خيولهم وأغاروا عليها، وتقدم أفواج الجند يوماً بعد يوم ففتحت قلعة (غاليبولى) وضرب سليمان الغازى باب القلعة بيده، وكتب عليه بسم الله الرحمن الرحيم، فتحت فى عام سبعمائة وواحد وستين ٧٦١، وأصبحت القلعة فى يدهم وورعت الغنائم على غزاة المسلمين وتزوجوا ما أسروا من نساء، وولدن لهم.

وكان فى المنطقة المعروفة بالروملى من الكفار اثنتا عشرة ملة مثل الروم والبلغار وأفلاق الصرب وونيق والكروات واللاتين والبوشناق واللاز، وقد تخربت ديارهم ولم يستطيعوا فتح أعينهم وجمعوا من الغنائم ما جمعوا إلى أن وصلوا إلى نهر الطونه فغنموا الاموال الطائلة وأسروا منهم فتيات وفتية وأعملوا السيف فى آبانهم الكفار، وضيقوا عليهم الخناق فى ديارهم، وفتحوا آفاقاً من قراهم وقصباتهم ومدنهم. وفى موضع يسمى (بولايير) سقط سليمان باشا عن فرسه وتدرج على الأرض فرمحه الفرس فى رأسه؛ فمات. وهو مدفون فى قبر فى ذلك الموضع المسمى (بولايير)، وفى ذلك الموضع جامع وتكية ومبرة، وكانت وفاته عام (٧٦٠).

وأول من مضى إلى الروم هو سليمان باشا هذا وعاش أورخان ثلاثة وثمانين عاماً واعتلى العرش عام ٧٢٩ سبعمائة وتسعة وعشرين. أما مولده فكان فى عام ستمائة وثمانية وسبعين وتوفى عام سبعمائة وواحد وستين (٧٦١). وتلقب أخوه (خدا) وندكار غازى) بالبك، وعاش خمسة وستين عاماً، وكان مولده عام ٧٢٧ وحكم واحداً وثلاثين سنة، فتح أدرنة. وفى حرب قوسوفا قام من بين قتلى الكفار من طعنه بخنجر فاستشهد. كما قُتل قاتله فى الموضع نفسه، ثم نقل جثمان مراد خان إلى مدينة بروسة ودفن فى موضع يسمى (اسكى قبليجه)، ثم خلفه ابنه يلدرم خان الغازى فى عام (٧٩٢)، ومولده فى عام ٧٤٨ واعتلى العرش عام ٧٩٢، حكم ستة عشر عاماً. وكان شجاعاً مقداماً وفى عام واحد غادر بلاد الترك لقتال كفار الأفلاق وبغدان، ولذلك

سموه يلدریم خان أى الصاعقة، وإن كان عظیمًا إلا أنه عاش ستین عامًا، وكانت له السلطنة ستة عشر عامًا. أما سبب موته فهو انهزامه فى حربه مع تیمور، وبينما كان فى سجن تیمور مات محمولًا، فحملوا جثمانه إلى جامعته فى بروسة حيث دفن.

وآلت الخلافة من بعده إلى ابنه محمد خان جلیى فملك عام ٨٠٤، وكان مولده عام ٧٤٦ ومدة خلافته ثلاثون عامًا، وعُمّر (١) سنة.

وجاء بعده ابنه مراد بك، وكان ذلك عام ٨٢٣ وحكم واحدًا وثلاثين عامًا، وعاش تسعة وأربعين سنة وتوفى عام ٨٥٥.

آلت الخلافة من بعده إلى ابنه أبو الفتح سلطان محمد خان عام ٨٥٥، حكم واحدًا وثلاثين عامًا، وتوفى فى عام ٨٨٦.

وتولى ابنه با یزید خان الخلافة من بعده وكان مولده عام ٨٣٥ ودام حكمه إحدى وثلاثين سنة، ووفاته فى عام ٩٢٨ وعُمّر إحدى وتسعين سنة.

وجاء من بعده ولده سليم الاول الذى ولد عام ٨٧٣ وكان فى الثالثة والأربعين حينما اعتلى العرش، ومات سنة (٩٢٦) وحكم ثمانية أعوام، وعاش إحدى وخمسين سنة.

وكانت الخلافة من بعده لولده سليمان خان الذى ولد عام ٩٠٠، وحكم ثمانية وأربعين عامًا، عُمّر (٢)، ثم كان الملك من بعده لسليم الثانى الذى ولد عام ٩٢٩ وجلس على عرش الدولة عام ٩٧٣ وحكم ثمانية أعوام، عاش اثنتين وخمسين سنة، وكانت وفاته عام ٩٨٢، ثم أصبح ولده مراد الثالث سلطانًا وكان قد ولد عام ٩٥٣، واعتلى عرش الدولة عام ٩٨٢ ودام حكمه إحدى وعشرين سنة وتوفى عام (٣)، ثم أصبح ابنه محمد خان الثالث ملكًا من بعده الذى ولد عام ٩٧٦.

وكانت ولادته فى مغنيسا. واعتلى العرش عام ألف وثلاثة فى يوم الجمعة السادس عشر من شهر جمادى الأولى، حكم تسع سنين، وتوفى عام ألف واثنى عشر ١٠١٢، ثم كانت الخلافة من بعده لابنه أحمد خان وذلك فى عام ١٠١٢، ومولده فى مغنيسا،

وجلس على العرش في الرابعة من عمره، فحل محل جده العظيم، وكان ذلك في الثامن عشر من شهر رجب عام ألف وثلاثة عشر ١٠١٣، ووافاه الأجل عام ألف وستة وعشرين ١٠٢٦، حكم أربعة عشر سنة، عُمِّرَ (١) سنة.

وجاء بعده أخوه مصطفى خان عام ألف وستة وعشرين ١٠٢٦ وعزل في الثالث والعشرين من شهر ذي القعدة، ومدة حكمه سنة وأربعة أشهر، ثم خلفه السلطان عثمان عام ١٠٢٧، حكم خمس سنوات واستشهد في الثامن من شهر رجب عام ١٠٣١، ثم أصبح مصطفى خان خليفة في غرة ربيع الأول من عام ١٠٣١، ثم عزل.

ثم كانت الخلافة للسلطان مراد الرابع ابن أحمد خان سنة ١٠٣٢، ودام حكمه سبعة عشر عامًا، وعاش (٢) عامًا، ثم آلت السلطنة إلى إبراهيم خان بن أحمد خان عام ١٠٤٩، ودامت له السلطنة (٣) عامًا، واستشهد عام (٤)، وأصبح ابنه محمد الرابع سلطان آل عثمان عام ١٠٥٨، وحكم (٥) عامًا، وعاش (٦) عامًا، أدام الله سلطانه آمين يا معين.

وقد خص الله - تعالى - الدولة العثمانية برعايته. واستولوا على سبعين مملكة، وكان سببًا في تملك العثمانيين وكانت السبب في تلقبهم بخادم الحرمين الشريفين ومولانا ملك ملوك العرب والعجم وعلى رأس جميع الملوك والسلاطين السلطان سليم الأول فاتح مصر ابن با يزيد خان - رحمة الله عليه.

سبب غزو سليم لمصر

لا يخفى على مؤرخي العالم أن أبا الفتح السلطان محمد الفاتح بعد أن ألحق الهزيمة بأوزون حسن في صحراء «ترجان» عطف عنانه صوب طرابزون على ساحل البحر الأسود وحاصرها برًا وبحرًا، واستولى عليها بعد قلة من الأيام، وولى عليها الأمير با يزيد، فأقام العدل في الناس، ثم ولد سليم الأول وكان مسعود الطالع، وعلى تعاقب الأيام أصبح شمس الدنيا، ومن هذه البقعة خرج أبو الفتح ليحارب عصاة القره مانبيه، وفي موضع يسمى (مال تبه) على مقربة من اسكودار أدركته الوفاة، فانتقلت

السلطنة وتخت الخلافة إلى السلطان بايزيد ولى، وأصبح ابنه الأمير سليم والياً على طرابزون، وولاه عليها حاكماً مستقلاً ومعه عشرون ألفاً من جند الإسلام ممن قالوا «نحن لها». وأكد بايزيد أنه سوف يفتح أكناف الأرض واستقر على العرش فى الأستانة وهو يرعى أمور المسلمين، أما الأمير سليم فقد أغار على جورجيا ومكرلستان وداديان واتسع فى فتوحاته فى تلك البلاد، وبالتعاون مع ميراخان من أسرة أوزون حسن فتح سليم خان قلعة (جانخه) وجعل لها مفتاحاً من فضة. وأرسله مع ثلاثمائة قنطار من الأوانى الفضية إلى بايزيد، فأرسل بايزيد ولى إلى الأمير سليم خلعاً فاخرة، وجعل سليم خان (جانخه) حاضرة ملكه، وضم إليها آلاف من حملة البنادق الشجعان ويسمون الآن جانخه لأن فى سبعة مواضع منها مناجم للفضة تجرى كالأنهار، وشاء الله أن يظهر فى طالع الأمير سليم منجم للذهب. فصنع منه مائة ألف دينار ذهباً وأرسلها إلى أبيه كتب عليها: (السلطان بايزيد بن محمد خان عزّ نصره ضرب جانخه سنة ()^(١))، فقال له بايزيد لفرط سروره منه: لتكن المملكة حلالاً لك، لقد وهبتك ما فتحت من ديار والغيرة والحمية لك.

وأرسل بذلك منشوراً إليه، ولما بلغ هذا المنشور الأمير سليم حتى أصبح كأنه تنين ذو سبعة رؤوس وفى فترة قدرها سبع أو ثمانى سنوات أتم فتح خمس وأربعين مدينة وقرية وحصن حصين مثل: حصار، ونكسار، وبايبورط، وانسير، وطوزطوم وأرزنجان، وحينما مضى نصره الله نصرًا عزيزًا، إلا أن السلطان بايزيد ولى كان مشغولاً بمحاربة البنادقة فى أوروبا وفتح قلعتى مستون وقرون من ولاية المورة، وقد تعاون علاء الدولة بن ذى القدر مع القزلباش، والآق باش فى مرعش على قلب واحد وهدف واحد فبلغ القزلباش طوقاد وسيواس وأماسيه وعثمانجيق واستولوا عليها واستأسد العجم يوماً بعد يوم. وكان الأمير سليم يغير على مؤخرتهم وينال منهم ولكن ما العمل ولعجم عدد لا يُستهان به.

(١) بياض بالأصل.

وذات مرة قدم با يزيد على رأس جيش عظيم وتحارب مع العجم فى سهل طورحال وكانت الحرب حرباً ضروساً، ومن قبل علاء الدولة صاحب ذو القدرية أرسل سلطان مصر الغورى اثنى عشر ألف فارس دخلوا المعركة واشتبكوا مع جند با يزيد، فكانت سوقاً للسلاح لا قدرة للسان على وصفها، وفى وقت الغروب اتجه الأمير سليم بجنده إلى جبال جانخه، وفى جهة أخرى بقى العجم والتركمان وجند الغورى فى ميدان المعركة، أما الأمير سليم فكان يقول: تَبَا لَكُمْ أيها المصريون تَبَا لَكُمْ، إذا ما وهبني الله تعالى عرش آل عثمان، على عهد الله أن أغزو العجم، ثم ابن ذو القدر، ثم مصر، إن هؤلاء ملوك مسلمون إلا أنهم يؤازرون العجم، أما القزلباش فقطعوا رءوسهم وأرسلوها مع الرسائل من اسكودار إلى حكام سيواس وبناء على ذلك بدأ آل عثمان يؤدون الخراج للعجم، وبذلك ذل العثمانيون وحقروا، فأثر با يزيد ولى حياة الخلو والاعتكاف، وبدأ يقوم بالمجاهدات والرياضات ونفض يده من الدنيا، واستشار سليم أهل المشورة من ساكنى طرايزون إلى ساكنى الأستانة، وقالوا له: اظهر لنا فى شرزمة من الجند وسوف نسلمك العرش، قضى الأمر وحسبنا هذا ولا شك، ولما شاع هذا الخبر كان سليمان خان ابن سليم خان قد ولد فى مدينة طرايزون وكذلك سليم خان، ولذلك كتب الشاه إسماعيل رسالة مفعمة بالفحش سماه فيها ابن اللاز، كما كان الأمير سليمان ابن سليم شاباً كُفْتًا، كما رغب سليم إلى أبيه أن يسند ولاية (كفه) إلى سليمان، فتقبل منه هذا الرجاء، وقدم إليه خمسة آلاف جندي ممن قالوا (نحن لها) وبماتى سفينة بلغ (كفه) من طرايزون، واعتلى عرشها وبدأ يجمع الجند حوله، وعلى إثر ذلك أركب الأمير سليم عشرة آلاف جندي فى خمسمائة سفينة وبلغ ميناء كفه ودخل قلعتها والتقى بملك التار منكلى كراى خان وأطلعه على السر فقال خان التار على بركة الله، ومضى فى أربعين ألف جندي وجمع سليم عشرين ألفاً كذلك وقطعوا المنازل والمراحل وأقاموا فى موضع يُسمى «أوغراشى دره سى» فى منطقة تسمى برادادى ووافق جند الديوان السلطانى من أتباع السلطان با يزيد ولى على ملاقاته سليم، وشاور با يزيد أصحاب مشورته فقال أحدهم: إنه شاب سعود طالما يعتلى العرش سوف يقضى علينا فالأجدد بنا أن نحاربه،

وبذلك بدأوا فى القتال. أما سليم فلم يتحرك. فأطلقوا على جند سليم البنادق والمدافع، وفى وادى «أوغراش» واجه الفريقان كل منهما الآخر واختلط المتحاربون ودارت الدائرة على عسكر سليم وفرّ صوب الطونة واتصل بعلماء الصوفية وانهزم على ساحل البحر الأسود، وفى موضع يسمى واره ركب فى سفينة ثم انطلق إلى حاضرتة القديمة طرابيزون ولزم الصمت، أما نائبه (صارى قيايك) فكان الحاكم فى طرابيزون كما أن (على بك) قام بالحراسة وتولى الأمير سليمان شئون كفه.

سيرة السلطان سليم خان

إن سيرة السلطان سليم هذه أوردتها فى أمانة من أبى، انتقل والذى الدرويش محمد ظللى - رحمة الله عليه - من دار الفناء إلى دار البقاء وله من العمر مائة وسبعة عشر عاماً، وعلى ما تجولت سائحاً لم يتشرف أحد مثلى بمصاحبة ثلاثين سلطاناً من آل عثمان، ما عدا السلطان سليمان خان الذى صاحبه فى غزوة سيّدوار وكنت حاضراً حارضة فتح قبرص مع القائد مصطفى باشا وأرسلت مفاتيح قلعة (ماغوسه) إلى السلطان سليم الثانى ويعد ما أحسن وأنعم علىّ منحني رئاسة جوهرى الباب العالى، وأعطانى المنشورات الدائمة، وفى عهد السلطان أحمد صنع والذى الميزاب الذهبى للكعبة فى مكة، ووضع على سطح الكعبة ميزاب الرحمة مع خدمة أمانة الصرة. والغرض من هذا تبيان أنه كان شيخاً مجرباً خبيراً، وقزو على أغا الذى كان يسير فى ركاب السلطان سليمان خان، مات وله مائة ثمانية وأربعون سنة.

واجتمع عبدى افندى صاحب منزل برنجى زاده ومحمد افندى قره فروعرب، ويقدم هؤلاء الشيوخ سررتُ بهم، وبينما كانوا يتحدثون مع أبى دخل رجل نحيف يتوكأ على خدم وما إن ظهر من الباب حتى نهض جميع الجالسين مع أبى فقدموا لاستقباله فى إجلال وإعظام وأجلسوه على أريكة عالية ورحبوا به.

وكان رحيق البرش والقهوة مما يشرب على نطاق واسع وتحدثوا وانتشوا؛ فأمالوا قلائسهم، وجعلوا يهزون؛ فقال قزو على أغا الذى كان يسير فى ركاب السلطان سليمان: يا عزيزى حلیم جلی افندى بحق روح سيدك السلطان سليم الاول وكرامة

للسلطان سليمان حل مشكلتنا هذا؛ حين نحارب السلطان سليم ووالده السلطان با يزيدي في وادي أوغراش بالقرب من سوق حاجي أوغلو، ولحقت الهزيمة بسليم؛ فانطلق إلى طرابيزون وبذلك ثيابه وقال: حدثنا عما رأيت في سياحتك. وأمسك يد أبي من خلف، وقال: بينما كان سليم منزوياً في طرابيزون دعاني أنا وقره نديم إلى حضرته، وقال لنا: ما قولكما أيها الفتيان؟ هل لي من سياحة معكما، (فقرنا الفاتحة بعد البسملة، بدون أن نسأله عن وجهتنا في هذه السياحة)، وأخرج سليم مصحفاً من جيبه واستحلفنا عليه بأن تبقى هذه الأسرار طي السكتان، فأقسمنا على هذا عملاً بالقول: تطير رؤوسنا، ولا نفشي سرنا.

ودخلنا حجرة الخزانة فالبس كل واحد منا حرقه بكتاشيه وأعطى في يده بلطة مسلمية، وفي خصره مقلع داودي، وعلى رأسه عمامه واحديه وربطنا على حضورنا تنوة حمراء من الجلد اطمسك، واعطاء مجموعة عظيمة من التحف. ووضع على كتفنا فرواً وإحراماً؛ وأحضر لنا حماراً فحملنا الكتب والهدايا، وفي الصباح غادرنا طرابيزون في غفلة من العدو، وانطلقنا في طرثنا، أما سليم ده ده فكان فتى قوياً مهيباً، وشاباً عالي الجبهة، ولما كنت أنا وحليمي وقره نديم شاوين في العشرين وكأننا اثنان من ملاعبى القروء وطوال الطريق لم تتلکم في شئ من أمور الدولة وجعلنا نصيد في تلك الديار فصدنا كثيراً واتسعنا في الفتح، وقلنا لنمض إلى بلد آخر، وفي اليوم السابع صلينا في جوامع بديار قره بوداق خان بإقليم الملك شامخال ملك داغستان، ثم التقينا بقالقه شامخال خان، فقال: من أين جئتم أيها الدرويش، فقال إن سليم ده ده، إننا قادمون من بلاد الروم. فترلنا ضيوفاً لديه أيام عدة، ثم مضينا من هناك إلى مدينة (طرخو) ثم إلى مدينة (قوون) ثم إلى (دميرقبو) على حدود العجم. وتسلمنا رسائل من خان العجم. إلى قلعة (باكو) ومنها إلى كيلان وكنجه وشيروان، وبلغنا مازندران على ساحل بحر الخرز. وهناك مكثنا ثلاثة أيام وثلاث ليال ثم مضينا إلى (قم) ثم إلى (كاشان) ثم إلى جبل ذيلم وفي خراسان كان تجديد البيعة من مولانا الإمام () * وتجديد السكه. وخدمنا لديه مدة شهروحملنا الرسائل إلى أبناء (حاجي بكتاش ولي)

فى بلاد الروم وأذن لنا الشيخ بالمغادرة. ولما بلغنا أصفهان كنا قد طفنا بمائة وسبعين مدينة، فى ذلك المكان بلغنا أصفهان الذى شيدت فيه هذه المدينة المسماة بنصف الدنيا، وأقمنا فى خانقاه للقلندرية بأصفهان، واتجه كل منا إلى صوب ومضينا لمشاهدة المدينة، وفى المقامى اتسعت الشهرة لسليم ده ده، بمهارته فى لعب الشطرنج حتى أن أحداً من أساتذة اللعبة، لم يكن بمقدوره أن يرفع بيدقاً أمامه، وقد تملكه العجز أهل أصفهان وملأتهم الحيرة من لعب سليم ده ده وقالوا إذا لعب هذا الدرويش الشطرنج مع شاهنا الجميل فلن يسلم منه وسيغلبه وأقسموا بالله جهد أيمانهم. وقالوا للشاه عليك أن تلعب الشطرنج مع سليم ده ده هذا. فقال الشاه آتوا لى بهذا الدرويش فوراً فرأينا رجلاً على حمار أشهب يخرج من خانقاه القلندرية وسلم قائلاً السلام على عباد الله العاشقين. فقالوا رادكم الله عشقاً بكمال جمالك فلما قالوا تفضل الشاه يستدعيكم عندما وصلنا نحن الأصدقاء والظرفاء الثلاثة بخرقنا الفاخرة إلى حضرة الشاه أخرج سليم ده ده من خصره صوراً وتلى دعاء محمدياً ودعاءً لحيدر الكرار وهى تتألف من اثنتى عشر بنداً ترمز إلى الأئمة الاثنى عشر، وقال من أسماء الله الحسنى: يا واحد الفرد الواحد القادر المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى، كما تلى اثنتى عشر زمزمة وذكر الأسماء كذلك، وقال: ليس منى ركوع ولا منى قيام السلام عليكم، عليكم السلام وترنم بهذه الأبيات داعياً له:

إن الآفاق أيها الملك نور ونار
فكن للدهر مصباحاً مثل الشمس أنار
الصحراء والوادي لنا فجة عطر
وكن للروض زينة كالزهر
لم يخلق الله الدنيا إلا بك
وحشما كنت كن يا ملكى الملك

فلما أنشد سليم هذا الدعاء، وقف الشاه إسماعيل من فرط سعادته، وقرّبه إليه وقال له أهلاً وسهلاً بك، ولما قال له: من أين تحمل السلام، قال له: يا مولاي، أنا غرس يد حاجى بكتاش ولى فى أرض قيصر وزرت ديار القرم ثم مملكة شمشال، ثم مشهد سلطان خراسان فى بخارى وأخذت الرسائل من الشيخ، وجئت لرؤية جمال سلطانى لأسلمها إلى الشاه يدك بيد، ومن فرط سرور الشاه قال: أهلاً بك فى دارك، فقال سليم

ده ده: هو كذلك يا مولاي، وكان يعنى أنها ستصبح داره، وقرأ الشاه رسالة الشيخ ودلنا على ركن فى قصره الشامخ، فمكث فى أصفهان مدة مديدة فجعل الشاه إسماعيل سليم ده ده نديماً له وقاصاً يقص عليه الحكايات، وقد أنس به الشاه، وانعقدت بينهم أواصر اللفة. وذات يوم قال له الشاه: يقولون أنك بارع فى لعب الشطرنج، فقال له سليم: حقاً يا مولاي حقاً، فقال الشاه: هيا لنلعب سوياً من قبيل المحبة فإما العرش وإما الحظ، فقال له سليم ده ده: ومن يا مولاي بقادر على منازلة الشاه، إن منصب الشاهانية يمنع ذلك، فقال الشاه: دعك من هذا وافعل كل ما فى وسعك، وما هو الميدان لك وتدبر الأمر، فرأى سليم فى قول الشاه تواضعاً منه وقال: الله كريم، وعندما جعلاً يلعبان تفاعل سليم وقال فى نفسه: يا رب إذا ما تغلبت على هذا الشاه فإن بلاده سوف تهزم بسيفى والفرصة لى، وجرى قضاء الله أن يدخل الشاه فى خانة (مات) أى أنه هُزم فأنشد سليم هذا البيت:

عندما يشتبك الفيل بالفيل فالموت محقق

فاسحب الفيل من خاتنه فالملك قد مات

ولما غلب الشاه، غضب غضباً شديداً ولطم وجه سليم، فقال له سليم: لقد أخلفت وعدك عندما قلت لى دعك من الشاهانية وافعل ما بوسعك، فأنا لم أفعل بقدر ما أعرف، ومات الملك لكنى يا مولاي لست ممن يخلف عهده، ثم رمز قائلاً سنلعب مرة أخرى ذات يوم، وسأقول مات الملك أيضاً، إلا أن الشاه لم يفقه قوله، وقال الشاه لنلعب فى يوم آخر، ولعبا فى ذلك اليوم ثلاث مرات، وغلب الشاه فى تلك المرات الثلاث أيضاً، فقال له الشاه أيها الديوث أتغلبنى فى كل مرة، ولكن سليم وحقق بغيته، ونال من الشاه عطاء جزيل، وأذن له أيضاً فى زيارة ضريح الترك الأتراك الشيخ أحمد اليسوى شيخ حاجى بكتاش، وغادر أصفهان وشاهد مدناً كثيرة وزار كثيراً من أولياء الله ودعوا له بالخير، وبلغ تبريز، وهمدان، وأردبيل، ودركين، ودرتنك، ودرنه، وشهربان، وبغداد، حيث مكث فى الأخيرة أربعين يوماً زار فيها ضريح الإمام الأعظم، وعبد القادر الجيلانى والشيخ شهاب الدين السهروردى، وسلمان الفارسى، والإمام موسى الكاظم، ومعروف الكرخى والإمام الحسين والإمام على كرم الله وجهه، وكل أولياء الله، وعفر جبينه على عتباتهم، وطلب المدد من روحانيتهم.

«ذكر مجيء الأمير سليم من بغداد إلى الكعبة

في أول سياحة له

ثم مضى سليم مع حجاج بغداد إلى الكعبة في سبعة عشر يوماً، وحج البيت الشريف، كما قبل يد كبار أولياء الله الذين على قيد الحياة هناك، ودعوا الله له بالخير، ثم تابع زيارته فمضى إلى المدينة المنورة، في معية حجاج مصر، ثم زار قبر الرسول ﷺ وتضرع لرسول الله متعلقاً بسياج قبره، وصاح صيحة عالية وهو يقول: لقد انشقت ماراتنا يا رسول الله، رفعنا من شأن شرف الإسلام ويا له من شرف ولكن شراكة مصر الكفرة أضروا به، على عهد الله إذا توليت ويسر لى أمرى وفُتحت لى مصر فسوف أوقفها عليك وأجعلها مخزناً لاطعمة الحجاز، وسأرسل إلى أمتك منها فى كل عام الكسوة والصرة، وجعل سليم يردد هذا من قوله سبع مرات متتجاً: وإذا ما دعانى معدم بجوار ضريحك مستغيثاً بى قائلاً: يا سليم. كنت كفيلاً به مغنياً له. وأشار إلى أنه سوف يقيم العدل فى الرعية ويسيطر رعايته على علماء مصر، ثم حمد الله وأثنى عليه. وقدم سليم مصر مع فوج من حجاجها وبلغها بعد أربعين يوماً، ونزل ضيفاً على تكية الميمندى فى القرافة الكبرى وفى هذا الوقت وصل أسبابه بأسباب الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى؛ فقرأ عليهم السلام فردّ الشيخ أبو السعود الجارحى قائلاً: وعليكم السلام يا صاحب رسول الله ويا حاكم الحرمين الشريفين، ويا حاكم مصر سلامتك سلامتك، عجل بالرحيل إلى بلاد الترك.

وكان ذلك بالمكاشفة وعرف ذلك الشيخ مرزوق كفافى بالوسيلة نفسها، وكان يجيد اللغة التركية، وقال له: امض سريعاً إلى بلاد الترك واعتل عرش الدولة ثم انطلق إلى العجم وبعد ذلك حينما ندعوك تعال، ولكن لا تبق فى مصر. لقد أخرجونا مع كبار أولياء الله من مصر، ولكن ما رأيناه فى مصر من فسق وفجور وعصيان فى اثنى عشر يوماً لم نجد فى بلد آخر، فى تلك الفترة من الزمن أقام السلطان الغورى قناطر مياه القاهرة وعسف الناس عسفاً شديداً وأمر العلماء بحمل الأحجار، ولم تكن له سيطرة على جنوده، وقد رأينا من هؤلاء الجنود الظلم والعدوان.

فركب سليم على صهوة جواده بعد أن استأذن من المشايخ، وأرسل إلى خليل بن رمضان في (أذنه) حتى يكون في خدمته في العودة، فمضى من مصر وبلغ (أذنه) بعد عشرين يوماً، وبلغ بلاد الترك، وبعد أربعة أيام بلغ طرايزون، والتقى بأمه الرؤوم ودعت له بالخير، وسأل عن أبيه با يزيد ولى فأخبرته أنه مضى إلى ملك أردل وأفلاق وبوغدان الكفار، وكانوا قد شقوا عصا الطاعة جميعاً واتحدوا جميعاً، ودعت سليم، وقالت له مرحباً بمقدمك لقد فارقنا أميراً عظيماً ولا ذكر له منذ عامين، فهل استشهد في هذه الحرب، واستدعوا الأمير سليمان بن سليم من «كفّه»، وقالوا إذا أجلسناه على العرش لدبر الأمور يوماً بعد يوم، وفي التو وصلت رسائل الدرويش سليم إلى الأستانة؛ فقالت أمة محمد: إن الأمير سليم حى يرزق فى خير وعافية. ووصلت الرسائل من جميع الجهات والفرق العسكرية وكان القول فى الرسائل.. يا مولاي الأمير لا لزوم للعسكر حسينا عهدنا ولتأت. ولما بلغت الرسائل الأمير سليم فى طرايزون بعد سبعة أيام. وفى سبعماتة سفينة مضى سليم إلى «كفّه» فعانق الأمير سليمان، ورأى فيه بطلاً شجاعاً فقبل عيناه النرجسيتين، وأصبح سمر محمد كراى خان، فقدم كذلك واقترب من أدرنه فى جيش قوامه سبعون أو ثمانون ألف مقاتل، واقتضت مشيئة الله أن كفار المجر قاموا بتحركات عسكرية فأرسل سليم إلى بلغراد، ولما بلغ سليم (صوفيه) جاء عسكر الإسلام ببا يزيد خان إلى اسطنبول، فمر هذا الخبر بسمع سليم؛ فتراجع عن «صوفيه»، وفى سهل «چورلو» احتشد الجند وقالوا بحياة با يزيد وسقوط سليم. أما المنصفون فقالوا إن الدولة العثمانية ضاعت منا وتشاوروا فى الأمر، فقدم سليم فى جيش عظيم وخرج للقتال وبينما كان القتال يدور عزل السلطان با يزيد ولى وأصبح سليم سلطاناً فى سهل «چورلى»، فقال با يزيد ولى لسليم بعد أن عزله: لقد استوليت على سهل چورلى قهراً قبل أن تكون خليفة، وسوف تتركه قهراً جعلك الله قصير العمر وليكن سيفك حساماً وليكتب على جندك الانكشارية ألا يخلعوا حذائهم ولا ثوبهم، ولتصب الواحد منهم ثلاثة أفعة، ولتكن رواتب الجند جزيلة ولكنها عديمة البركة، ولتعلوا هيبتهم ولينقطع وجود جشهم فى الميدان وتذهب حماسهم للحرب، أما أرباب

الزعامة والتميز فلا كفوا عن نزاعهم وشجارهم وليتلى الابناء بما صنع الآباء. وبهذا من كلامه دعا الله على جند العثمانيين كافة. وبينما كان سليم يمضى به إلى «ديما دوقيا» أسلم با يزيد الروح فى مكان يسمى «هاوسه» ولا نعلم السن الذى مات فيها - رحمة الله عليه - وفى عام ٩١٨هـ استقل سليم بالسلطنة.

«استقلال الأمير سليم بالسلطنة عام ٩١٨هـ»

ولقد بويع سليم فى موضع يسمى «يكى باغچه»، فى استانبول وفى الوقت الشافى فى يوم مبايعته بالسلطنة بناء على تقرير حليمى جلبى لبس ثوب الدرويش فى القصر ثم زار مسجد أبى أيوب الانصارى ثم مسجد محمد الفاتح، ثم دخل حجرة تسمى «صولاقلر اوده سى» فى الحجرات القديمة، فقال كل من فى الغرفة من الأوده باشى مرحباً بك، وسألهم عن أحوالهم وتناول الإفطار وأثناء الكلام قال لهم هل تريدوننى سلطاناً محارباً أم معتكفاً متفرعاً للدعاء، فقال بهى ده ده ينبغى أن تقوم بحملة لكى يحلل الله العلوفة التى نأخذها. لقد أحاط بنا الكفار والعجم من جهاتنا الأربع، ولم تبق لنا ولاية وينبغى علينا القتال توأ. فقال سليم: إذا انشيتم عن هذا القرار فقد انشيتم عن الإيمان فأقسموا له وأقسم فمضى سليم ده ده ووصل أمام الباب السلطانى ونفخ فى النفير حسب القانون البكتاشى فأخذ صحاف النقود من البوايين وعند الباب الاوسط نفخ فى النفير مرة ثانية وحظى بإنعام من كتخدا البوايين، فلما بلغ باب الآق أغا نفخ فى النفير مرة ثالثة وتسلم منه منحة مالية، وأثناء وقوفه لاحت له الفرصة ليتقدم منها إلى خصيان الداخل بغير تكلف وذهب إلى أحدهم فلما رحب به تقدم سليم مباشرة نحو الغرفة الخاصة فالأسرة التى تربي فيها سليم أسرة عريقة وجلس على السلطنة وكأنه الشمس بين النجوم واستقر عليه كأنه سد الإسكندر، ورأى أحد أغوات الخاصة أن درويشاً تسلل إلى الداخل وجلس فوق العرش السامى، فقرع الناقوس الحديد فهرع أربعون من رجال الغرفة الخاصة يحملون البالطة وعندما هجموا عليه كشف سليم عن ذراعه. فلما شاهدوه عرفوا أنه الأمير سليم لأن كثيراً من الناس لم يشاهدوا سليماً قط، ولكن الخدم الذين يعرفونه شاهدوه، وقالوا: أيها الأمير سليم. وغفروا جيئتهم على

قدمه، وبإيعونه في حجرة (قرق خاص أوداسي) أي حجرة الأربعين الخاصة. جلوس السلطان سليم عليه الرحمة والغفران:

يا من ماتت قلوبهم إن وصال مولانا سليم
لقلوبهم السقيمة دواء

وبإيعه على هذا النحو أركان الدولة: شيخ الإسلام، وسبعة وزراء، والعلماء، وصلحاء وأعيان الدولة كافة، وعرف بالخبر من ينتظرون البيعة في (يكى باغچه) مقدم الناس زرافات زرافات وأثناء مبايعة السلطان سليم جاء دور فرقة الإنكشارية فأروا من في الحجرات القديمة أن من أكل معهم في حجراتهم وحل اليمين هو السلطان نفسه، فطاشت عقولهم، فقال لهم: أتوفون بعهدكم؟ فقالوا: نحن على عهدك يا مولانا. فلمض توكاً إلى أسكودار، ولنخرج من باب أدرنه فجددوا العهد.

وفي اليوم التالي تمنطق سليم بالسيف في مسجد أبي أيوب الأنصاري، وعاد إلى القصر في موكب عظيم، وقال إن لدى سبع حملات، وجعل المنادين يقولون بذلك، وكان الصدر الأعظم آتشد بيىرى باشا وأسس سرادقاً خارج أدرنه وآخر خارج نطاق أسكودار وأرسل الرسائل إلى جميع الملوك، وخشى الكفار وأهل الضلالة من سليم، فأرسلوا نفائس الهدايا مع السفراء وجددوا السلام.

كما كتب رسالة إلى الشاه إسماعيل قال له فيها: «لقد توفي أبي با يزيد (الصوفى) وأنا من غَلَبْتُكَ في أصفهان ثلاث مرات، ولقد عقدت العزم على أن أُغِيرَ عليك انتقاماً لتلك اللطمة التي لطمتني إياها».

ولما بلغت هذه الرسالة الشاه إسماعيل قال: «ياالله في العام الماضى لاعبنى الشطرنج سليم الدرويش وغلبنى. لقد كان سليم أمير آل عثمان. ومزق الرسالة قائلاً: واويلاه.

هذا ما نقلته أنا الفقير كثير الذنوب بمحضر من الشيوخ عن قوجه حليمى جلبي في سيرة سليم خان وهذا صحيح لأنه كان من أقران سليمان خان ومع والدى - رحمه الله - وقد وقف على تلك الأمور وقد استمعوا له ولم يعارضوه في شيء مما نقله.

ذكر حرب السلطان سليم

مع الشاه إسماعيل الصفوى فى چالديران

فى عام ٩٢٠ خرج السلطان سليم على رأس جيش عظيم لقتال الشاه فى إيران ووصل إلى صحراء چالدر، وهناك التقى الجيشان. وقبل بدء القتال أرسل ابن ذى القدر والسلطان الغورى مدداً من الجيش إلى الشاه إسماعيل، وقد فتح جند الشاه ثغرة فى جيش الإسلام، ودخلت السيوف ساقاً^(١) جيشنا. لان العجم ملاعبو السيوف، ولهم البراعة فى استخدامهما، وفى هذا الموضع كان الفريقان قد اتفقا على عدم إطلاق المدافع والبنادق فتذكر السلطان سليم، وقال: عندما كنت فى أصفهان لعبت الشطرنج مع الشاه بقطع النظر عن الملكية، ولما تغلبت عليه لم يف بالعهد، ولطم وجهى ناكثاً عهده، وهذا هو أوان نقض العهد وأمر بإطلاق المدافع وكان إياس باشا رئيساً للإنكشارية وسرعان ما دمرت المدافع القزلباش عن آخرهم، ودارت الدائرة عليهم كافة، وفى سبع ساعات لم يبق فى أرض إيران من الجند أحد، وبينما كان الشاه فى فراره مع سبعة فرسان رآه امرأته وقالت له: جُعِلْتُ فداك ياسليم لقد شئت شاهنا ودفعته للفرار فذلك بسبب من فراك. لكن الشاه أحسن الشاه إليها، وعفى عنها ولا حاجة لنا إلى وصف معركة جلديران لأنها مشهورة، وقد وقعت فى الأسر زوجته «تاجلى هانم» مع أكثر من مائتى جارية من جواريه الملاح. وعاد سليم إلى الأستانة بمال قارون.

وبعد ذلك اتخذ من أماسيه مشى له. إلا أنه لم يكن غافلاً عما أعده العجم من عدة فخرج ابن ذى القدر علاء الدين من مرعش على رأس جيش قوامه سبعون أو ثمانون ألفاً. ومضى به إلى مصيف كوكسن وعين السلطان سليم (٢) باشا قائداً. وانتشب قتال عظيم وقتل علاء الدولة مع أبنائه وحمل من أسرته سبعين أسرى مكبلين بالحديد وبينهم شقيق جدنا أحمد بك سالى بك وأرسلوا إلى السلطان الغورى فى مصر، وعندما رأى السلطان الغورى الأسرى على هذه الصورة، ورأى رأس علاء الدولة ورءوس

(١) الساق: المؤخرة.

(٢) بياض بالاصل.

أبنائه، أدرك أنه أمام عدو قدير وأن الدائرة ستدور عليه وأن العثمانيين يريدونه بالسوء. وأطلق سراح الأسرى كما أطلق سراح عمنا، ومضى إلى القدس الشريف، وصرف نظره عن رفع العلم ودق الطبل، ووجد فى القدس قبر (طور زيتا) فرمه.

وبسبب ظلم الجراكسة النحس وطغيانهم فى مصر فإن أذاهم لم يقتصر على الرعايا والعامه بل امتد ليشمل من يقال لهم فلان بن فلان وعيالهم ووكالاتهم ونالهم من الجند ذوى الشقاوة ما نالهم، وقدم من مصر كثير من أولياء الله إلى الشيخ أبى السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفاى يشكون، كما تشاور العلماء والصلحاء فى الأمر، وقالوا: إذا مضينا من مصر إلى المغرب وجدنا قوم سوء، وإذا مضينا إلى الهند كانت بلاداً بعيدة، وإذا مضينا إلى المعجم وجدنا فى مذهبهم شبهة، وإذا مضينا إلى الأكراد فدلوثهم لا ثبات لها، فهلما لنذهب إلى آل عثمان فإنهم مؤمنون موحدون، كما إنهم يحبون العلماء والصلحاء والمشايخ، وهم أهل الشرع وأصحاب السيف، وحيثما مضوا كان النصر لهم، هلما لنمض إليهم. فتم اتفاقهم على ذلك وقرأوا الفاتحة وهتف كل من الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفاى قائلاً: تعال يا سليم! تعال يا سليم! تعال يا سليم!

وكان السلطان سليم فى مشتاه بأماسيه مع وزرائه يتشاور، فقال الطواشى سنان باشا ويونس باشا: إننا سمعنا من قال تعال يا سليم ثلاث مرات وقيلت صراحة. فقال السلطان سليم: عندما كنت فى سياحتى بمصر مع حليمى قال أبو السعود الجارحى ومرزوق كفاى بالمكاشفة: يا سليم روح اجلس على تخت ابوك.. وإذا ما دعوناك إلى مصر فأقدم هذا ما قالاه. وهذا لصوت الذى وصل إلى مسامعكم هو كلامهم. هيا نعد العدة على وجه السرعة.

قتل السلطان سليم الأول لإخوته وأبناء أخوته

وبينما كانوا يعدون العدة لغزو مصر، جاء المستغيثون إلى سليم وقالوا: لقد شق أخوك قورقود من ناحية وأخوك أحمد عصا الطاعة من ناحية أخرى، وضاعت منك الولاية، فاتجه سليم نحو السلطان أحمد وفى بورسه بجوار يكى شهر^(١) حاربه، وفى

(١) تُقرأ بنى شهر.

هذه المعركة سقط الأمير أحمد عن فرسه وحُمِلَ إلى السلطان سليم أسيراً. ولكنه لم يعف عنه، فأمر بقتله خنقاً في حجرته، ودفن في بورسه إلى جوار السلطان مراد الثانى، وفر الأمير مراد ابن الأمير أحمد من هذه المعركة إلى أردبيل، وطلب اللجوء إلى الشاه إسماعيل، ومات في العام الثالث، وقبره في أردبيل، ومضى الابن الأكبر للأمير أحمد، والابن الأكبر للأمير علاء الدين إلى السلطان سليم. فشملمهم بعطفه وماتا الاثنان بالطاعون في اسطنبول وبها دُفِنَا، ولقد اعتقل السلطان سليم كلا من ابن أخيه الأمير محمد والأمير محمود وأبنائهما الكبار: الأمير موسى، والأمير أورخان، وعثمان ابن السلطان على شاه. كل هؤلاء اعتقلهم السلطان سليم أثناء حربه مع أخيه الأمير أحمد، وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم، ودفنوا جميعاً في بورسه بجوار أورخان غازى، لأن هؤلاء في عهد السلطان بايزيد ولى يعتبرون ملوك الطوائف، وكان لهم على مر الايام أوضاع وأعمال شاذة، وكانوا يتحاربون ويتناحرون، وكان الرعايا والبرايا أشتاتاً وفي أسوأ حال، وضاق الناس بذلك ذرعاً فاتَّجهوا إلى العجم وأصبحوا لهم أتباعاً.

ثم اتجه السلطان سليم لمحاربة الأمير قورقود؛ فقام قورقود وجمع حوله عدة آلاف من الرعايا والسفلة، إلا أنه انهزم آخر الأمر، فهرب مع نائبه ودخلا كهفاً في مقاطعة تكة. ولكن الجوع أجهدهم، فأعطوا رجلاً تركياً جواداً لبيعه ويشترى لهم خبزاً وشعيراً، وخرج الرجل بالجواد لبيعه إلا أنه قبض عليه وسأله من أين جاء بهذا الجواد؟ فقال: فى هذا الجبل سيدان باعاه لى ودلهم على الغار، وفى هذا الوقت قبض على قورقود ونائبه وأرسلوا مقيدين إلى سليم إلا أنه لم يعف عنهما وأمر بقتلها.

وحُمِلَ جثمان الأمير قورقود كذلك إلى بورسه ودفن إلى جوار أورخان غازى، وبعد ذلك أصبحت الدولة خالصة له.

واستقدم سليم الأمير سليمان من كَفَّه إلى أدرنه وأشركه فى الحكم، وقال له تدبر أمرك وأسند له تدبير أمور الدولة وولاه على أدرنه وفوّض إليه كل أمر، فقد كان الأمير سليمان رشيداً عاقلاً، وقال أحد أولياء الله: يا سليم إن إخورتك لا خير فيهم ولا جدوى منهم، وينبغى أن يخلّك سليمان على عرش الدولة.

وحقيقة الحال أن سليماً لم يعقب ولدًا سوى سليمان، ولقد ولد في طرابيزون كما ولد أبوه. ووالدته مدفونة الآن في جامع خنكار في بوزديه.

ولقد ولد الأمير سليمان عام ٩٠٠ على رأس المائة، وبذلك أصبح مرموق المنزلة؛ فقد قال النبي ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة برأس كل مائة عام من يجدد لها دينها».

ولذلك قتل سليم جميع أخوته لأنه رأى أن سليمان هو الأصحح للدولة. ومضى سليم إلى بورسه لزيارة «أمير سلطان» فقال: السلام عليكم يا آل القبور. فسمع صوتاً يقول: «و عليكم السلام يا صاحب السيف والقلم.. ادخلوا مصر إن شاء الله آمين».. وتردد هذا الصوت من القبر الشريف. فأخذ العجب مأخذه من جملة الحضور، وفي الوقت عينه قال كمال باشا زاده للسلطان سليم: لقد بُشرت يا مولاي بفتح مصر.

ذكر حرب السلطان سليم الأول مع السلطان الغوري

في طريقه لفتح مصر

عقد سليم نيته على غزو مصر، فتمنطق بالسيف في ضريح أمير سلطان في الأستانة، وقرأ كمال باشا زاده الفاتحة ومسح وجهه بيده ثم أدى الزيارة، ومضى سليم إلى قصره، وهناك جمع جميع علماء الترك وأهل الفتيا على المذاهب الأربعة وطلب منهم أن يفتوه في فتح مصر وكان الطواشي سنان باشا الصدر الأعظم آنئذ، وعرض أربعين فتوى كانت قد جاءت من مصر، وقرأ هذه الفتاوى علماء الترك وبيّنوا ما جاء فيها؛ وقالوا: ما دام علماء مصر وكبار أولياء الله فيها أفتوا بوجوب قتال الجراكسة فنحن أولى بهذا القتال.

أما مضمون الفتوى التي أصدروها فهو:

ما الواجب فعله تجاه من يدّعي أنه من ملوك الإسلام، وأنه خادم الحرمين الشريفين ومكة والمدينة، ومع ذلك يتنضم إلى القزلباش الذين يسبون الخلفاء الراشدين، وحينما يحاربهم من يريد منع هذا السب عن الخلفاء الراشدين يؤازرهم صاحب مكة والمدينة ويرسل العون إلى القزلباش، وينبغي منع هذا السب واللعن، وأن يحمل بالسيف على مثل هذا السلطان الذي يمنع هذا السب فقتاله فرض ويجب أن يخلع لأن مثل تلك

الإمامات غير جائزة، ومن يتابع الروافض على ذلك ينبغي إهدار دمه والإغارة على مملكته، وينبغي قتله لا أسره، ويحرم الزواج من نسائه، ولا يجب اتخاذهن جواري وينبغي محاربتهم كما ينبغي تقويض ملكه.

فحمل سليم سند الفتوى وفي الحال بعث باثني عشر رسولا إلى السلطان الغورى بمصر؛ فدخل هؤلاء الرسل إلى ديوان السلطان الغورى، فقرأ السلطان الغورى رسالة السلطان سليم وفتاوى رسول الله ﷺ ثم قال: لقد سبق للسلطان سليم أن قتل علاء الدولة بن ذو القدر وسبعين من ابنائه، وأرسل إلينا أسرى مكبلين والآن دماؤكم فداء لهم، ولقد أرسلكم إلى بحجة أنكم رسل، وأمر بقتل عشرة منهم وأطلق سراح اثنين، وسلمهم خطاب الأمان وفيها يقول: ما دمت حيّا لن أمكنك من دخول مصر وليكن اللقاء في سهل مرج دابق عند حلب، وإن كنت رجلاً تعال إلى ميداني.

وعندما تسلّم سليم رسالة الغورى هذه استشاط غضباً، فقال علماء الترك: لم يقتل سفراء الكفرة قط على مر العصور، وإنما قُتل سفراء المسلمين فقتل الغورى حلال. فانهض يا مولانا لساعتك وخف إليه ولا ترفع يدك عنه.

ووكّل السلطان سليم تدبير أمور الدولة إلى قره بيرى باشا فى اسطنبول وأمر بأن تكون إمارة الجيش للأمير سليمان. ومضى بالجيش من بروسه بطوى المراحل الواحدة تلو الأخرى، وفى قونية عَفَّرَ جيئنه على عتبة سلطان العلماء ومولانا جلال الدين الرومى، وطلب المدد من روحانيتهما، ثم بلغ دولة الرضانية فى أذنه وهناك أقام، وبناء على رسالة من الشيخ أبى السعود الجارحى نزل ضيقاً على خليل بك الرضانى، وقال له: «إن قَدَّرَ الله أن تكون مصر لى أبقيت على دولتك»، وقد قدم سليم هذه المرة بجيش عظيم ومنح آل رمضان جميع أوقاف وكل ما يملكون ومالهم من أقاليم ما عدا إقليم طرسوس، وجعل ابن رمضان طليعة جيشه وجعل فى مقدمة جيشه عشرين ألف جندى من صفوة الجند، وإلى طرسوس وصل من اسطنبول أكثر من ثلاثمائة سفينة مما يعرف بـ «بدرغه» ومائتا سفينة مما يعرف بـ «شايقه» و«قره مُرْسَل»، و«غليون» مع قدر

عظيم من الجند والعدة والعتاد، وبلغ نبأ ذلك السلطان سليم فسر سروراً ما بعده سرور؛ فدعا الله بالخير ليرى باشا الذى فوض إليه النظر فى أمور الدولة بالاستانة ووصل الخبر من أحد رؤساء بوابى الباب العالى إلى الريان مصطفى بلاق باشا. ولما وصلت الأوامر إليه بالآ يفارق ساحل البحر هذا فقام من طرسوس وبلغ ميناء الإسكندرونة، وهناك ألقى مرساة سفاته. كما تحرك سليم من أدرنه على رأس جيش يتألف من ثمانين ألف جندى من خيرة الجند، ودخل حدود مصر، ذلك أن أدرنه كانت فى ذلك العصر حدود مصر، وغادرها إلى سهل مرج دابق بالقرب من موضع يسمى كلس وهناك أقام. فقدم عليه درويش وقال له: إذا شئت لنفسك أن تكون شجاعاً مظفراً فاعلم أن داود بأمر الله حارب جالوت فى سهل مرج دابق هذا، وفى الموضع الذى اتهم فيه جالوت ضريح النبى داود - عليه السلام -، وقبل أن يقدم الغورى وك هذا الضريح ظهر حتى تشاهد صنع الله، ففى هذا الموضع تعلق نظر الله - تعالى - وأنزل الله على حبيبه قوله: ﴿وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فانطلق لِيَتَوَكَّ يا سليم لهذا الموضع وكن سد الإسكندر. وغاب الدرويش عن النظر، وسرعان ما قام سليم من هذا الموضع وعسكر عند مقام داود فى مرج دابق وأوقف الحراس فى الجهات الأربع ثم راح فى ثبات عظيم.

أول هزيمة لحقت بالغورى على يد السلطان سليم الأول

وفى صباح اليوم التالى قدم الغورى بجيش عظيم ووقف لملاقاة العثمانيين، وقام بترتيب سبع فرق من الجنود، وكان جيشه مؤلفاً من عشرين ألف جندى من حملة العصى وعشرين ألفاً من مقيعى الخيام وعشرين ألف سائى وعشرين ألف فلاح من الحُرَّاس حاملى العصى، واثنى عشر ألف فارس من خيرة الفرسان، وأربعين ألف فارس وثمانين ألفاً من أغوات الميرميران وأمراء الشراكسة، وعلى حد قول تواريخ الشهاب، وعلاوة على سائر الرعا مائتين من حاملى السيوف. وواجه الغورى بهؤلاء الجند السلطان سليم فى مرج دابق. أما العثمانيون فكانت عدتهم سبعة وثمانين ألف جندى.

كَأَن قَمَرِ يَوْسُفَ صَعَدَ إِلَى بَرَجِ الْمِيزَانِ
وَقَدْ كَشَفَتْ زَلِيخَةُ فِي السَّحَرِ عَنِ الْكَنْزِ لِلْعِيَانِ
وَمِنَ السَّحَرِ ظَهَرَتْ الْأَنْوَارُ الْإِلَهِيَّةُ
وَمِنَ الْقُبَّةِ الزَّمْرَدِيَّةِ قُلْنَسُوءُ ذَهَبِيَّةُ
وَامْتَطَى جَمِيعُ الْمُلُوكِ صَهْوَةً فَرَسَهُمْ
وَامْتَطَى الشُّجْعَانُ بَبْرَهُمْ^(١) وَغَرَّهُمْ

وقد اصطفت الصفوف وأعد كل كمين والتحم الفريقان، ودام القتال سبع ساعات على نحو لم يكن في هذا السهل قتال مثله لداود مع جالوت، ولا تُطِيلُ في القول فقد هَبَّ نَسِيمُ النَّصْرِ صَوْبَ سَلِيمٍ، وقد كان جميع جند الغوري حصاد السيف، أما البقية الباقية منهم فتعلقوا بأذيال الفرار مع الغوري قائلين (عينك يا مصر) ويقول بعض المؤرخين: إن الغوري قتل في هذه المعركة ولكن هذا ليس بصحيح فمن المحقق أنه عاد إلى مصر وحشد جيشاً. ومكث سليم الأول في سهل مرج دابق عشرين يوماً وجمع الأموال والغنائم، وكان الجمالة والحمار يلهقون بخدمته ويتلقون أجرتهم؛ فأنشروا من كثرة ما كانوا يتلقون من أموال من السلطان سليم. ودفن جنود الغوري وأرزاقهم في الأرض قائلين أن الصباح أم المعارك، وجاء جند آل عثمان واستخرجوها بعد قتل أصحابها، وأصبح جميع المتسولين في غنية عن التسول.

ثم توجه السلطان سليم إلى قلعة عزز وأقام فيها، وقال جند الإسلام إن لدى الجراكسة أموال كثيرة فبحث جند سليم على جند الغوري وقتلوه، وأخذوا أموالهم، وعلى هذه الصورة فإن وزير الغوري السابق للشام سينال وكُرتبای وقوده باى ووزير الشام الحالى جان بردى ملأوا حياتهم وفروا هاربين، وفر خيرة بك الحاكم السابق حلب، فر منها ومسح وجهه بالركاب السلطاني لسليم وأصبح عبداً مطيعاً للسلطان

(١) الْبَبْرُ: النَّيْرُ.

سليم فأقسم له سليم كذلك أنه إن صدقت في خدمته وقدر الله لسليم فتح مصر جعله حاكماً مستقلاً وأعطاه جنداً بقدر ما يطلب وسوف ينظر في هذا الأمر وأغراه بذلك وأغراه وأغذق عليه العطاء وأنعم عليه بإقليم كُستنديل في بلاد الترك وقدم خيرة بك عظيمًا من الخدمات إلى السلطان سليم أثناء توقفه في حلب الشهباء في طريقه لفتح مصر وأقنع علماء حلب وصلحاءها وأئمتها وخطباءها ومشايخها وجنودها قاطبة بأن يسلموا مفاتيحها إلى السلطان سليم، ونالوا جميعاً نوال السلطان، وفي عام ٩٣١ قُتحت حلب صلحاً وإيالتها أُسندت إلى قره جه باشا ومولويتها إلى جوملكجي زاده كمال جلبي.

ومكث السلطان سليم في قصر الحاكم بحلب مع جيشه العظيم المظفر، وزار ضريح النبي زكريا في الجامع الكبير وأضرحة باقي كبار أولياء الله والتمس المدد من روحانيتهم، وبعث برسائله إلى الولايات في جميع الجهات لاستمالة الناس إلى جانبه فجاء له بمفاتيح القلاع وأعلن أهالي الولايات طاعتهم وولاءهم له وهذه الولايات هي:

مرعش، وعيشتاب، وريحانية، والمصرة، وروحه، وبيره جيك، وحران، وكلس، وعزز، وحلب، وحماء، وحمص، ومدق وشجر، وانتاكية، ولازقية وجبلية ومارقاب وحصين، وطرابلس، وبيروت وصيدا، وعكة، وصفد، والرملة، وزيدانية، وبعليكة، شقف وطربية، وفلسطين، وبلجون، وعجلون، ونابلس، والقدس، وغزت الهاشم. وقد فتحت هذه القلاع الحصينة - وهي قريب من مائة وأربعين - صلحاً، وانقاد أهلها وأطاعوا، كما خضع له بدو الصحراء مثل آل بني سلامة، وآل رشيد، وآل وحيدات، وآل بني عموري، وآل بني زهد، وآل بني رباح، وآل بني ترابي، وآل بني سالم، وهم سبعون قبيلة. كما خضع له جميع الدروز والشيمانية واليزيدية والمروانية والهوبارية والمعروفية والأقلية والقرظلية، والشهابية، والشهابية، والنصيرية، والتاتكية وجميع القلاع الواقعة في جبال بيروت وصيدا والتي كانت في حوزة الفرق الضالة وهؤلاء جميعاً مسحوا جيبنهم على حافر فرس السلطان سليم.

وبدا سليم يتلو قوله - تعالى - : ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ {الشعراء: ٨٩}، ثم غادر السلطان سليم مدينة حلب ومضى إلى خانتيمان ثم أسند قلعة المعرة إلى أمير اللواء الغنى عطا، واستقبله أهل حماه - حماها الله - وقدموا له فروض الطاعة، وسلموه القلعة وعين عليها أمير اللواء طورخان بك، ثم استقبله أهل قلعة حمص قاطبة بالهدايا، وأنعم بها على أمير اللواء إحيَمَان زاده ومنحت طرابلس الشام إلى قاسم باشا وصدر الأمر للأسطول العثماني بالقدوم إلى طرابلس فمضى سليم إلى دمشق ولما اقترب منها قدم خيرة بك وجان برّدى وزير الغورى على دمشق وأهل دمشق فروض الطاعة للسلطان سليم وأصدر عفوه عما فرط منهم، وأسند ولاية دمشق ثانية إلى جان برّدى وتصدق على شيخ المولوية على مُنْلا ودخل سليم دمشق فى موكب عظيم وبسطوا الدباج والمزركش فى كل ما مر به من طرق.

فتح قلعة دمشق

فُتِحَتْ قلعة دمشق فى عام ٩٣١ ونادى الدلالون بذلك، وأصدر سليم فرماناً بإقامة القلعة الداخلية لدمشق. وحينما كان سليم أميراً ترك التاج والعرش فى طرابيزون وخرج للسياحة واستخلف عليها مير اللواء صارى أرسلان، وأمره بإقامة قلعة حصينة لدمشق، وبعد أن فتح سليم مصر، غادرها إلى دمشق، ووجد أن القلعة تم بناؤها؛ سماها باسم بانيتها صارى أرسلان، والقلعة الداخلية فى دمشق هى قلعة سليم التى بناها صارى أرسلان، أما القلعة الخارجية فهى لمعاوية بن أبى سفيان.

وجاء الحمام الزاجل من مصر إلى دمشق حاملاً الرسائل، وعندما وصل إلى جان بردى أخذ ما يحمله من رسائل وتوجه بها إلى السلطان سليم وبقراءتها جاء فيها أن السلطان الغورى لحقته الهزيمة فى مرج دابق وجميع الفارين من المعركة نفقت جمالهم وخيولهم ظمأ فى صحراء قطية وأم الحسن، أما الناجون منهم فقد قتلهم البدو، وتأتى للغورى أن يعود إلى مصر فى ستين من جنده وأسند قيادة الجيش إلى طومان باى. ولما قال جان بردى: أن الجند كتبوا هذه الرسالة صباحاً ووصلت الشام وقت العصر

أخذ العجب مأخذه من السلطان سليم، والآن يطير الحمام من ميناء إلى آخر في مصر حاملاً الرسائل. ثم حشد سليم جنده وعدته وعتاده وكان تفقده لهم يوماً بعد يوم.

في بيان قبر محيي الدين بن عربي

واقتضت حكمة الله أن كان السلطان سليم في مشناه في دمشق وبينما كان يتصفح كتاباً مع كمال باشا زاده وجد في رسائل محيي الدين بن عربي عبارة (إذا جاء السين دخل الشين ظهر بمرقد الميم) وهذه عبارة ألفاظها من الدرر والمقصود بالسين السلطان سليم ودخول الشين بمعنى دخوله الشام أي دمشق، والمقصود بالظهور بمرقد الميم هو ظهور قبر محيي الدين بن عربي، هذا ما استتجاء من العبارة.

وانكر سليم أن تكون هذه الرموز بحساب الجفر^(١)، ومضى في الحال إلى زيارة محيي الدين بن عربي، وقال لنكشف عن قبره ليبدو للعيان فسأل ذوى السن من رجال دمشق إلا أنهم لم يقتدروا على أن يوردوا خبراً في ذلك. وقال بعضهم: يفهم من هذه الرموز أن قبره في أطراف دمشق ولما كان قبره غير معلوم حزن السلطان سليم حزناً لا مزيد عليه، وفي تلك الليلة رأى في منامه أن محيي الدين بن عربي قدم عليه وقال له: كنت في انتظار مجيئك إلى الشام، مرحباً بك لقد تيسر لك فتح مصر وأنا أرف إليك البشري بذلك، فامتط صهوة فرس أسود في الصبح وابتعث عني وارف عني تراب المذلة وأقم لي ضريحاً في الصالحية ومقاماً وجامعاً ومبرة ومدرسة ومكتب صبيان وحماماً وتكية ومحكمة وبيت للحاكم وأسواقاً صغيرة ونبعاً، وأجلب الماء في جداول وعمر الصالحية فامض فإن الله يسر لك.

وهب سليم من نومه وطلب أن يسرّج له فرساً أسود سريع العدو ولكن قيل له ليس في الحظيرة فرس أسود، فقال: يجب أن تبحثوا وتجدوا هذا الفرس، وألح في طلبه، وأخيراً وجدوا برزون جموح أجرب فالتف حوله الخدم وروضوه ليكن ثم أسرجوه.

(١) الجفر: علم يبحث فيه عن الحروف من حيث دلالتها على أحداث العالم.

وامتطى صهوته سليم دون أن يكون له لجسام، وصهل واشتد عدوه وبلغ بالسلطان الصالحية واعتلى كومة من القمامة وجعل يصهل إلى حد لم يطق سليم صهيله، فنزل عنه وظهر له نمش حجري كبير فكفَّ البرزون عن الصهيل كأنما أتم خدمته ومضى نحو سليم وظل صامتاً ولسان حاله يقول هذا قبر محيي الدين فنظر سليم في النعش الحجري، فإذا به كتابة بالخط الكوفي هذا قبر محيي الدين.

وفى قديم الزمان لم يدرك المنكرون مزايا مؤلفات الصوفية فكفروه وكوموا على قبره مزيلة من تراب المذلة، فظل قبره مجهولاً، فجمع السلطان سليم في الحال كل ما استطاع سبيلاً إلى جمعه من المعمارين والبنائين ولكي يشرف بخدمة الشيخ حمل بنفسه ما في المزيله من أحجار كما حملها جميع جنده، وفى طرفه عين طهروها وبناء على ما سلف ذكره ورآه سليم فى منامه أقام خانات مغطاة بالرصاص وجامعاً ومبرةً ومدرسة ومكتباً للصبيان وضريحاً ومحكمة ودار ضيافة ومستشفى على نحو ما ذكر تفصيلاً فى وصف دمشق. وبينما كان السلطان سليم فى مشاه فى دمشق اشتغل بعلم الجفر وأُرس بن لهم علم به، وفى حديث له معهم ذات يوم سأل الشيخ ناصر الطرسوسى قائلاً:

أيتيسر لى فتح مصر؟ فأجابه الشيخ الطرسوسى قائلاً: بشراك يا مولاي. . . لقد شهد الإمام على - كرم الله وجهه - أنك سوف تملك مصر فقد قال: لا بد من سليم آل عثمان يملك الروم والعجم ثم يملك جزيرة العرب. . . وهو يقصد بجزيرة العرب جزيرة مصر بكلامه الذى كالدبر النفيس. ومصر تسمى جزيرة لأن أحد ملوك القبايطية وهو طوطيس أجرى مياه النيل إلى بحر السويس فأصبحت مصر جزيرة. ولذلك تسمى مصر الجزيرة، وإن شاء الله سوف تفتح مصر بناء على كلام على - كرم الله وجهه - وستكون أول خادم للحرمين الشريفين من آل عثمان، وبهذا بشره ناصر الطرسوسى بفتح مصر، كما أن عالمًا قال: إن القرآن أعلن أنك ستفتح مصر، وهذا ما استنتجه الإمام على - كرم الله وجهه - وبلغه للإمام الحسين قبله الإمام الحسين إلى زين العابدين، وبعد ذلك بلغه إلى السرى السقطى، ومنه إلى الجنيد، وإن كلام القرآن الكريم له الدوام إلى يوم القيامة.

ولمقدمك إشارات ورموز ﴿مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وأهل الذكر مآذونون بإعلان هذا وليست فيه رخصة، والآية الشريفة هي: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. فللفظ «ولقد» يساوي مائة وأربعين وكذلك عدد لفظ سليم وهو إشارة إلى سليم.

ولفظ «ذكر» يساوي تسعمائة وعشريناً و«من بعد الذكر» أى بعد تسعمائة سوف تكون فاتح مصر. «أن الأرض يرثها» ولفظ أرض بدون تعريفه باللام عندما يذكر يشير إلى أرض مصر، كما أن «أرض» بـ ال تفيد الإرادة: أى أن هذا المعنى يتقرر بناء على قاعدة علم الجفر.

«عبادى الصالحون» يعنى أن الله أعدك من عباده الصالحين، وسترث مصر وحبك هذه البشرى، امض راشداً إن مصر لك. ودعى الله أن يعينه وينصره. فقال سليم ثانية: إلى كم تدوم سلطتى؟ فرد قائلاً: لا أعرف سوى لفظ جداً. لا يعلم الغيب إلا الله. وقرأ الفاتحة ومسح وجهه بكفه.

ولو أن لفظ (جدا) يساوي ثمانية. فإن فتحه لمصر ووصوله إلى اسطنبول سلطته قد دامت ثمانية أعوام، وهكذا علم الجفر علم خفى وصحة هذا الخبر: أن سليم أمضى الشتاء فى الشام بمشقة وبدأ ماء الرحمة فى الجريان، وترك جند قوجه بيدرمان فى الشام بجانب جان بردى وكوز لجة قاسم باشا وقطع المنازل وطوى المراحل حتى بلغ غزة بعسكر الإسلام، ومن الجنوب وصل سليم إلى نابلس ومنها إلى القدس، وزار الأنبياء وطلب المدد من روحانيتهم وغلب على جبل الخليل وزار جميع الأنبياء.

فتح قلعة غزّة الهاشم صلحاً

ثم استراح فيها سبعة أيام، وخضع جميع البدو له ودانوا له بالطاعة، وقبّل قدمه بنوزهد وآل عمور وآل رشيد وآل رباح وآل معان وآل شهاب وآل ترأبسى وآل خرفوش وآل حبش وآل سعيد وبنو إبراهيم وبنو السوالم وبنو عطية وبنو عمران وبنو حوالم وبنو جوران وبنو البُصرى وبنو جعفر ومشايخ نابلس وصفد وعكة والرملة وفلسطين وغزة

والقدس والخليل والكرك والعقبة وصقّر وأتباعهم ونال كل منهم نصيباً من إحسانه، ودانت له بالطاعة جميع العشائر والقبائل، وتعهدوا جميعاً بأن تطيب أنفسهم بخدمته، ولكى يجتاز صحراء أم الحسن وقطيّة أمدوه بأربعمئة ألف جمل يحمل ماء، ولما غادر غزة ووطأت قدمه صحراء مصر والعظمة لله، فقد هطلت غيث الرحمة، وإن من تخوفوا من الظما في الصحراء ساءهم أن يهطل المطر كأنه سيل فأصبحت أرض الصحراء من طين.

ولما وصل سليم خان يونس قتل يونس باشا وبنى بماله قلعة خان يونس، وطوى الجند الأرض طياً ووصل العريش وفى ذلك الموضع تقدم الصدر الأعظم سنان باشا وخليل الرمضانى بك وخيرة بك الشركسى وعبروا صحراء قطيّة وأم الحسن وبلغوا الصالحية فظهر رعاى الشراكسة فى حدائق النخيل إلا أن السيوف حصدتهم حصداً وأحضر البدو أكثر من ألف شركسى وأعملوا فيهم السيف بعد أن سلموا أسلحتهم لبدو الصحراء، ثم مضوا إلى أم القرين وأرسلوا دليل الجراكسة إلى حضرة السلطان سليم فقال: هل لسلطاننا الغورى طاقة لكم فى صحراء بلبس، لا تغفل عن هذا.. فأطلق سراح الأدلاء.

حرب سليم مع الغورى وعاقبة أمر الغورى

والتقى الجمعان فى القرين بالقرب من بلبس ولم يستطع الجيش أن يرى الجيش الآخر الذى يقاتله من دوى المدافع والبنادق. واتفق أن هب نسيم فآثار غباراً كان حجاباً بين الجيشين، ورأوا أن جنود الغورى صاروا فلولاً متفرقة وأصبحوا من قبيلة «موتوا بأمر الله» فتحين الجنود العثمانيون الفرصة وشدوا عليهم وانقض عليهم طومان باى من جانب كما ينقض الذئب الجائع على الغنم، ودارت رحى الحرب من وقت الزوال إلى وقت الغروب، وما أشبهت هذه الحرب حرب، وقرع الطبول، والتحم جند الفريقين فى معركة حامية الوطيس، والتفت الساق بالساق وانحلت الدروع. وفى هذه الليلة دفن من العثمانيين سبعة آلاف. وقد استبسل فى القتال خيرة بك والذى جاء مذكراً للجيش العثمانى فى هذه المعركة، وهذا وارد فى تواريخ مصر، وعرفوا أن خيرة بك حليف العثمانيين، وفى صباح اليوم التالى دقت طبول الحرب وكأنها تقول: أين من يحتسى

كأس الحمام في هذه الحرب، واتفق أن حمل جميع جند الغورى على العثمانيين كأنهم بلاء أسود وكأنهم قضاء مبرم، ودخل بينهم جند العثمانيين بكل أسلحتهم وأطلق الإنكشارية البنادق من ناحيتهم ويقوا في نار النمرود، فألقت المدافع ثلاثمائة وستين قذيفة فاسودت السماء والأرض بالبارود، ورأوا أن جند الغورى تقهقروا وقيل إنها خدعة منهم.

ورأوا أن قرار الجراكسة تبدل فراراً، وأصبح سهل بلييس كحديقة للزهر الأحمر مما جرى فيه من دماء، وإلى وقت الغروب كانوا كقصاص يعود إلى كبشه وجعلوا يتلون آيات الذكر الحكيم ويدهم وسيفهم ملطخ بالدماء وهم عراة الأجسام، ومضوا إلى مقر سليم ونالوا منه العطاء، وظل غزاة المسلمين في مواضعهم مطمئنين وقالوا لسليم: لنحاصر مصر ولنغادر هذا المكان، إلا أن خيرة بك لم يقبل منهم ذلك وقال:

يا مولاي السلطان إن الجند الآن متعبون، لقد ألحقوا الهزيمة بالعدو مرتين، لا شك أن فتنة تثور في قلوبهم، وبذلك نثى سليماً عن عزم الحملة على مصر؛ واستراح عسكر الإسلام في بلييس ثلاثة أيام وشاء الله أن في هذا اليوم من أيام الحرب مات الغورى في جانب من ذلك السهل على سجادة وهو متوجه إلى القبلة. وقطع عنقه أحد الجراكسة كى لا يكون ذلك بيد عثمانى ولف جثته في سجادة ومضى بها إلى السلطان سليم واستقدم خيرة بك الجراكسة فقالوا: إنها جثة الغورى، ولم يتعرف عليه بعضهم لأن الجثة كانت بلا رأس؛ فقالوا: إنها ليست جثته.

ولكن بعد مرور سبعة عشر عاماً أوصى معلم مكتب في بلييس بأن يكتب على قبره «أنا الغورى»، وأدركه الموت والخاتم الذى فى إصبعه وجرح السيف فى ذراعه يثبتان أنه الغورى. وجملة القول أن الغورى فقد فى معركة بلييس هذه. وقال خيرة بك فى الجند إنه بلا رأس ولا عنق وآخر الأمر ولو العرش ابنه السلطان محمد إلا أن البعض لم يقر ذلك، وقالوا: إذا ولينا فتى غريباً ناقص التجربة مثله فماذا تكون عاقبة الأمر؟ وماذا يستطيع أن يفعله تجاه العثمانيين يجدر بنا أن نختار طومان باى خليفة. هذا ما قالوه. ودارت الحرب بينهم شهراً فى مصر وكان النصر لآنصار طومان باى واستخلف طومان

باى دويدار ولقب بالملك الأشرف وفى ذلك اليوم خرج الناس جميعاً للصلاة ونشبت معركة ضارية مع السلطان سليم بالقرب من الخانكة.

إلا أن الجراكسة لحقت بهم الهزيمة ثانية، وتجدد القتال فى صباح الغد فى الخانكة ودام إلى العصر وأرسلوا إلى السلطان سليم قائلين: نحن لا نحاربكم بالدافع والبنادق فإن هذه الحرب بإطلاق النار خاصة بالكفار، وذلك لأن الجراكسة لم تكن لهم طاقة بالمدفع والبندقية أما إذا كان السيف يستخدم فى القتال فلا يمكن مواجهة المصريين لأنهم حقاً كالعجم فرسان يحسنون القتال بالسيف وبالرمح. والحاصل أنه منذ مجيء سليم إلى مصر خاض مع الجراكسة أحد عشر معركة من بليس إلى أقصى مصر.

وفى نهاية الأمر نشب القتال فى وادى الريدانية أى فى سهل سبيل علام وكانت حرباً لا يشبهها حتى حرب على - كرم الله وجهه - وقالوا: لقد تحاربنا طويلاً مع هذا العثماني ودارت الدائرة علينا، فلنقتل سليم وعاهدوا الله على ذلك، وبينما كانت الحرب دائرة الرحى فى سبيل علام بلغ طومان باى وكُرتباى و (١) باى معسكر الإسلام وظن طومان باى أن الصدر الأعظم خادم سنان باشا هو السلطان سليم ورشقه برمح فسقط عن جواده فقد كان سنان باشا بلا لحية كالسلطان سليم، وكان السلطان سليم يركب فرسه وعليه ثياب كتياب سنان باشا.

وظن كُرتباى أنه وزير آخر للسلطان فأسقطه عن فرسه، وظن الثلاثة أنهم أسقطوا الوزير عن فرسه، فسلك ثلاثة وزراء الطريق إلى سليم وأصبح (٢) باشا صدر أعظم.

وقامت معركة فى وقت الغروب ومكث العثمانيون فى العادلية، ودخل المصريون جميعاً مصر وتحصنوا فيها، وضرب العثمانيون عليهم الحصار ودان لهم بالطاعة جميع رؤساء قبائل العرب ولم يحضروا حبة من غلال وأحاط جند من العرب بالمدينة من جوانبها الأربعة وفى ذلك اليوم قدم ابن خبيير وابن بنى سيف وابن عوار وابن ايد وابن حمادة وهم من شيوخ العرب المقيمين قبالة شاطئ النيل ومسحوا وجوههم بحافر فرس سليم، وقد طيب خاطرهم بما لا مزيد عليه ورجع كل منهم إلى قبيلته وعليه خلع (١، ٢) بياض بالاصل.

فاخرة وجمعوا جميع جنودهم على الشاطئ الغربي للنيل، وقاموا بالحراسة إلى حد أن الطير لم يكن يطير من هذا الجانب، وفي البداية حاصر جند الإسلام القلعة الداخلية وبدأ كورلجه قاسم باشا قَصَفَ القلعة بآلئى عشر مدفعاً واقتحمها من جبل الجوشى، ودخل عسكر الترك جامع السلطان حسن وتحصَّنوا بالحواجز، ويسمون ذلك باب الوزير، وتحصن الوزير الاعظم (١) باشا وراء الحواجز عند جامع النظامية ودارت رحى المعارك ليل نهار. وبينما كان كل طوائف الجند تنحدر من القلعة اتفق أن أخبر بوابو القلعة الداخلية الذين يسمون أبناء الالواح أخبروا السلطان سليم، وفتحوا باب المطبخ وبينما كان السلطان سليم يدخل القلعة الداخلية وفي معيته أغوات الداخل وحراس الباب وسبعة من وزراء القبة، كان رجل أعمى يستظرهم عند الباب منذ أربعين عاماً، وكان يقول «شوى شوى سلطان سليم»، وبينما كان سليم يدخل القلعة التصق هذا الأعمى بركاب فرس سليم ورقد وأسلم الروح وهو يقول: «شوى شوى يا سليم»، وتحسب بحساب الجمل، وهذا الأعمى مدفون فى نهاية باب المطبخ، والآن أحفاده لهم معاش دائم، وبينما كان السلطان سليم تحت سُلْم ديوان قيتباى انطلقت قذيفة مدفع من القلعة وأصابت طرف قمة رأس سليم ثم قام السلطان سليم ومكث فى بناء حصين أسفل حجرات العيارين، وبيّضوا قصر القلعة وزينوه بالاعلام ومن هذا الموضع رأى أهل المدينة أن القلعة الداخلية للقاهرة قد فُتحت؛ فرحب أهل القاهرة جميعاً بجند العثمانيين، وقامت كذلك حرب شعواء رهيبة، وكان للغورى فى الميدان الأسود اثنا عشر ألف جندى زنجى من العرب.

ولذلك يسمون الميدان قره ميدان أى الميدان الأسود، ودخل جند الروملى هذا الميدان واشتبكوا معهم وقاتلوهم ونصبوا جثثهم السود فى الميدان، ولذلك سُمى قره ميدان أى الميدان الأسود.

(١) يياض بالأصل.

فتح قلعة القاهرة عام ٩٢٢ بعد معركة طاحنة

وقال كمال باشا زاده فتح ممالك العرب سنة ٩٢٢ وقال الشيخ نصر الله سلطان سليم شوى شوى ٩٢٢ وفتح ممالك العرب سنة ٩٢٣.

فتح سليم القلعة الداخلية وخلع على كل من دخل القلعة من وزراء ووكلاء وأعيان خلعة على حسب رتبة كل منهم وبمضمون (الكريم إذا عهد وفا) ولى مصر ووزارتها خيرة بك، ومنح كمال باشا زاده أحمد أفندى قاضى عسكر الروملى مولويتها، وفى اليوم التالى وهو يوم الجمعة - أدى جند الإسلام صلاة الجمعة فى جامع قلاوون وتلى الخطبة كمال باشا زاده، وذكر فيها خدام الحرمين الشريفين السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان، فسجد سليم سجدة الشكر وسمع كل الجراكسة تحت القلعة بأن خيرة بك عيّن وزيراً لمصر فأوصدوا جميع بواباتهم وجعلوا أسلحتهم وماءهم فى بيوتهم ودامت الحرب ثمانية بينهم وبين جند الإسلام سبعين يوماً فى الأسطح والسراديب وفى المنارات ليل نهار.

وهتف جميع أهل القاهرة قائلين: «الله ينصر السلطان طومان باى» وكانت الخطبة فى الصعيد تتلى باسم السلطان طومان باى سبعين يوماً.

وبناء على ذلك قدّم طومان باى وكرتباى و (١) باى المدد إلى مدن الصعيد ثمانى وسبعين مرة، ونشبت المعارك وسدّ كل بيت بباب من حديد، وقذفت النساء من أسطحهن وكوّتهن غزاة الإسلام بالحجارة والماء الحار والقاذورات.

وآخر الأمر أمر السلطان سليم لنساء مصر بعلوفة - أى رواتب - وفتح الصعيد، وبقيت رواتب الجوارى فى مصر منذ عهد السلطان سليم، وآخر الأمر استوجب سليم من خيرة بك القضاء على طومان باى ووعد خيرة بك ابن خبيسر خيراً، والتزم بذلك، وجاء الخبر بأن طومان باى فى قلعة حصينة فى الفيوم، فأخبر سليم هذا الخبر، فأرسل سليم مصطفى باشا رئيس بكوات الروملى، ومضى مع خبير أوغلى إلى مكمن طومان باى وكان طومان باى نائماً، ورأى فى منامه النبى ﷺ فقال له: يا طومان باى لا بد أن

(١) بياض بالأصل.

تغار على عرضك. لقد أديت ما يستوجه الشرف، أمض إلى سليم سوف أجعله يأتي بك. وليأتني سليم الغازي كذلك قريباً؛ فلفظ سليم الغازي يساوي العدد (١٤٦٣) وحققاً بلغ سليم اسطنبول وبعد ألف وأربعمائة وثلاثة وستين يوماً وافاه الأجل بمقتضى قوله - تعالى -: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفجر: ٢٨] رحمة الله عليه.

وهب طومان باي من نومه وتوضاً في التو، وصلى ركعتين ثم سلم، وامتنى صهوة فرسه وبينما كان في سيره ظهر أمامه مصطفى باشا فحملة إلى سليم مقيداً، كما أن سليم رأى فيما يرى النائم أن الرسول ﷺ جاءه، وقال له: «ابعث إلى طومان باي واسع في جنازته وأعهده أن أجعل مصر لك، وإذا ما بلغت اسطنبول فجنني أنت الآخر. فقال سليم: يا رسول الله لمن أترك مصر؟ فقال رسول الله ﷺ: إن مصر في حمى الله يا سليم، وستبقى في حوزة المسلمين إلى آخر الزمان فلا تحزن وفسى تاريخها أنها ستكون للملك كعب الرابع ابن إبراهيم، من ذريتك»، ولفظ (غم يمه) أي لا تحزن يساوي العدد ١٠٠٣ وفي هذا العام سوف تقوم ثورة في مصر.

ولفظ كعب من ذريتك يساوي ٩٢ ومحمد كذلك يساوي ٩٢ أي أن محمد الرابع ابن إبراهيم في هذا التاريخ ستكون مصر في حوزته. فهب سليم من نومه مضطرباً، وبينما كان يصلى قيل له يا مولاي قدم طومان باي.

الحوار الذي دار بين طومان باي والسلطان سليم

وقتل طومان باي

وبمجرد أن فرغ سليم من صلاته خرج وقال:

مرحباً بك يا أخى طومان باي، فقال طومان باي توأ: لقد قبلت الأخوة وطبق الفتوة الأولى وقد أخذت ما في يدنا من أموال وجعلت منا نحن الجراكسة كفار سلاعين، والآن تقول يا أخى، وإذا كنت أخاك الكافر فمن تكون؟ عليك أن تختار أحسنهما، فقال سليم: هذا يكون في سبيل الملك.

فقال طومان باى هل الملك الذى ورثته عن والدك أن تقتل هذا القدر من عباد الله بسبب طمع الدنيا، من سيجيب عن سؤالهم يوم الحساب.

فقال السلطان سليم: لقد ساعدت العجم لذا فأنت تستحق القتل، فقال طومان باى: حاشا لله، ما كان منا عون. إن عَلَى الدولة أَلَيْسَ فرقةً من أشراف التركمان سراويل حمراً وسماهم بأسماء مصرية، وقال: إن هذا هو المدد من مصر، وحاشا أن تكون قطعت عنق عَلَى الدولة وأرسلت رأسه إلى الغورى فانتقمتم أنت، وماذا تطلب غير ذلك. فقال سليم: إنك قتلت رسلنا. فقال طومان باى: إنهم بسطوا لسانهم بالفحش فى حضرة الغورى ولذا قتل منهم عشرة، أما الاثنان الباقيان فلم ينطقا ببنت شفة فأطلق سراحهما.

قال سليم: لماذا حاربتنى كل هذه الحروب؟
قال طومان باى: ما دمت قد أغرت على أهلى وعيالى وجئت لتقاتلنى فأنا مقاتلك إلى يوم الدين.

قال سليم: لماذا مثلت فى حضرتنا؟
رد طومان باى: إن الرسول ﷺ هو الذى أرسلنى، وهذا ما أقدمنى عليك.
وفى النهاية ألقى سليم أن كل كلامه هو الحق.

فقال سليم: ولماذا قالوا: «الله ينصر السلطان طومان باى..؟» قال: إننى أقمت العدل فى الفقراء، ولم أنسهم وهم الآن يحاربون فى الصعيد فاعدل أنت كذلك، وكف عن الحرب، وهم يتبعونك وعندما قال ذلك أمر سليم خيرة بك بصلب طومان باى على باب زويلة ويظل سبع ساعات ثم ينزل. وسار السلطان سليم فى جنازته من باب النصر حتى بلغت العادلية كما حمل نعشه على كتفه، لأن السلطان طومان باى كان يحفظ القرآن ومن أهل العدل والعلم، حتى إن بناء العادلية منسوب إليه وهو مدفون فيه وقد كُتِبَ حول ضريحه تاريخ (تسعمائة) ^(١) وأقيم على ضريحه قبة عالية وأقيم كذلك جامع، وكان الضيوف يجيئون ويروحون فى جوانبه الأربعة، ولهم منازل ينزلون فيها، كما أقيم قصر شامخ يستريح فيه وزراء مصر أول مقدمهم وبعد

(١) بياض بالأصل.

ثلاثة أيام وثلاث ليال يدخلون القاهرة فى موكب عظيم. وجميع موالى مصر ووزرائها المعزولين يمكثون فى قبر طومان باى طالين المدد من روحه الشريفة، ويمضون إلى هذا القبر قبل خروجهم إلى أى مكان، إن هذا القبر مزار عام، ويسمونه العادلية، إنه حديقة كحديقة إرم.

أمر السلطان سليم بصلب طومان باى ودفنه، إلا أن الناس لم يهدأ لهم بال فى القاهرة، فكانت مناوشات تقع لأن دولة طومان باى والغورى كانت دولة عظيمة، وقد حزن خيرة بك على الغورى وهو الذى كان دليل العثمانيين إلى مصر.

ولما تولى الحكم نكث الشراكسة جميعاً عهدهم وتحصنوا فى المدينة، وقاتلوا، وأمر خيرة بك العرب بأن تقول «الله ينصر السلطان طومان باى»، وأسمع ذلك السلطان سليم، وكان خيرة بك هو السبب فى قتل طومان باى، وهذا ما أغضب المصريين منه. وأجبر العرب أن يتعاهدوا وجند الأروام، كما أن جنود العثمانيين فتحوا مصر فى سبعة أشهر بعد إلحاق الهزيمة بجندوها، واستقل خيرة بك بالوزارة فى مصر، فاطمان السلطان سليم وتلقى الأسطول العثمانى هذا الخبر وقدم إلى الإسكندرية سبعمائة سفينة ونزل الجند بلا خشية ووصلت بشرى فتح الإسكندرية إلى سليم وقد أقيمت الاحتفالات ودامت سبعة أيام لفتح القاهرة ودمياط والإسكندرية ورشيد وآل الملك فى مكة والمدينة لآل عثمان، وأرسل السلطان سليم إلى أشراف مكة وتبابعة اليمن ونجاشى الحبشة وققان فونجستان وملوك الفور ودنقله وأقنو بورنو وسلاطين السودان، وفاس ومراكش وسلاطين بلاد المغرب، والبيت العباسى فى بغداد وملك الهند والشاه إسماعيل شاه المعجم وحكام البصرة ولحسه وعُمان أى جميع السلاطين والملوك رسائل المحبة يقول فيها: «أنا فاتح مصر خادم الحرمين الشريفين».

واستقل السلطان سليم بملك مصر وشغل نفسه بالزم ما يلزم مصر وقام شُغْبُ فى قصر قيتباى فى الصباح ولم يبد شىء ولكن وجد فى جانب من القصر أوهاق طول الواحد منها خمسين باعاً، ورآها سليم فسخط على القاهرة. فانتقل إلى قصر عين القبة وهى الآن تكية للبكتاشية وبما أنه درويش نزل عدة ليال ضيقاً عليهم ومقصورتهم باقية هناك فغادرها، وحقاً إن الروضة روضة من رياض الجنة.

خبر السلطان سليم الأول مع الفدائي كرتباي

فى قصر دام القياس،

نزل السلطان سليم ضيقاً على جوسق المأمون فى جزيرة أم القياس خمس أو عشر ليال، وكان ينعم بالإقامة فيه، وكان يقوم بحراسته خدام حجرته إلا أنهم ظلوا عاجزين عن حراسته، وطراً على السلطان سليم وهم طارئ بحيث عزّ عليه المنام.

وحكى حليمى جلبى الذى كان مرافقاً له يقول: كان السلطان سليم فى أم القياس فى تلك الليلة إلى منتصفها على خير ما يرام، وعندما حان وقت النوم وارتدينا ملابسه لم يكن أحد من الاغيار يعلم أن عدواً تسلل إلى القصر وعندما صاح السلطان سليم على أحد الغلمان، خرج أمامه رجلاً عارياً فى يده سيف خرج بجانب السلطان وعلى بعد ستين ذراعاً من القصر طرح نفسه فى النيل واختفى عن النظر، ورأينا سفينة ترسو بالقرب من القصر ولعل هذا الفدائي قد هبط منها ولكن قصر أم القياس شامخ فى النيل يرتفع مائه ذراع، فاشتد غضب السلطان سليم على جميع خدامه وأمر بحراس حجرته تلك الليلة أن يركعوا لقتلهم.

وكان برويز آغا فى ذلك الوقت وهو من صلحاء الامة يلزم ركاب السلطان، فقال للسلطان: يا مولاي عليك فى البداية أن تستجوبنا ولك بعد ذلك أن تأمر بقتلنا. لقد عجزنا عن حراستك منذ أن فتحت مصر، ولما قلنا لنتنظر سلطاننا تلك الليلة لحراسته ظهر لنا النبى ﷺ من الباب ولم نكن نعرفه ورفع عن وجهه نقاباً أصفر، فكشف عما لوجهه من جمال، وكان عليه خِلمة من ليف النخيل، وفى قدميه نعلان صفراوان وعلى رأسه الشريف عمامة كأنها حمل بعير، وعلى جانبيه العمامة طيلسانان فسلم ورددنا عليه السلام.

وأراد رفاقنا أن يطردوه ولكنى قلت لهم لنتحدث معه، فسألناه من أين جئت إلى هنا؟ فقال: أنا رسول الله ولدى عهد مع سليم إلى يوم الدين على أن يخدمنى وأنا فى خدمته وذريته فى حمايتى إلى يوم الدين، لتطمئن نفوسكم وإذا وقع شئ فانا أوقظ سليماً من نومه فلا تقلقوا، ونزل من السلم وما كان من وجود لاحد. إن هذه حكمة

عجيبة وهذا ما أوقعه في الحيرة والعجب وبينما كنا نتشاور في هذا مع رفيقنا معنا كما نام أصحاب الكهف وبعد مدة من الزمن رأينا سلطاننا يحمل السيف ويصيح ورأينا من يطرح نفسه في السيم ويغيب عن النظر. هو ذا ما قد وقع. وإن الامر لمولانا السلطان، وعندئذ قال سليم: هذا ما رأيته في المنام مع الرسول ﷺ، وقال لى: لقد نبهتُ خدامك إلى أن يستريحوا في طمأنينة فلا تغضب منهم، وخذ حذرَكَ ولكن لا تخف لن يلحق بك من ذلك ضرر، وقال لى: انهض، فاستيقظت فرأيت رجلاً أمامي وقد طرح سيفه بالقرب من قمة رأسى. فأخبرت الناس بذلك وكان الجميع نياماً.

وقال: إن رؤياكم هى الواقع ولقد أطلقت سراحكم وعفوت عن الخدام الملاحقين بحجرتى. وأجزل سليم لهم العطاء وجعلهم أمراء على مصر، ومنح كلاً منهم قصراً شامخاً وكثرة من الجوارى.

ثم مضى سليم إلى القصر ثانية وجعل المتادين ينادون قاتلين: فليات من قدم تلك الليلة لقتلى فى قصر أم القياس له منى أمان وعهد آل عثمان، فليحضرُ دون أن يخاف وله منى الأمان.

وعندما كان المنادون ينادون بذلك قدم بطل شركسى صنيدي يُسمى كرتباى وقال: السلام عليك يا سليم، وكان رابط الجأش، فقال سليم: آئت من قدم تلك الليلة ليقتلنى؟ فقال: نعم أنا هو. فقال سليم: لماذا فعلت هذا؟ فقال كرتباى لماذا لا أفعل ذلك لقد جئت غازياً بلادنا، واستوليت على أهلى وعيالى، وأهلك ما أهلك من عباد الله، واستشهد فى الحروب معك سبعة من أبنائى واستوليت على كل ما أملك وفرقت بينى وبين أقرانى الشجعان وأولياء نعمتى مثل طومان باى حافظ كلام الله المجيد التقى الشجاع. فقلتُ ينبغى أن أقتل سليماً هذا وطلبت الإذن من رسول الله ﷺ فإن متاع الدنيا متاع الغرور، ورضاء الله خير وأبقى، لقد نزع الملك من الشراكة وآل الملك إلى آل عثمان فلا تؤذه..

وفى هذه الليلة قلت يا رسول الله لم يقر لى قرار فلأنتقم من سليم ولذلك مضيت إليك فى تلك الليلة لأقتلك. فقال ﷺ: «إذا ما ذهبت فسوف أوقظ سليماً».

وفى النهاية لم أطق فراق أبنائى وأحبائى، فجئت لأضع رأسى فى رمسى . فاستيقظت ولست أدرى ما الذى أفزعنى فطرحتُ نفسى فى السيم، إلا ما استطعت أن أرتد عن خمسين رجلاً فى محاولتى تلك، ولكن ماذا كان حالى فى تلك الليلة، لقد مررت فى سُبْحى بجزيرة وبلغت قارباً فنجوت . وبما أنك أعطيتنى الأمان قَدِمْتُ، وهذا أمر الله .

فَرَّ السلطان سليم وضحك قائلاً: جنداً أنت من عدو جميل الوجه صادق القول . من الآن فصاعداً لا تبق فى مصرى، امض إلى الجحيم، وقال كرتباى فوراً: وما شأنك بمصر إن هذه الدنيا متاع الغرور ليست ملكاً لأحد إن كنت عاقلاً فغادر مصر وأمضِ إلى الجحيم أنا لم أستطع قتلِكَ ولكن فى مصر كم ممن يسخط عليك وسوف يقتلك واحد منهم فى يوم من الأيام وتسوء سمعتك . فَرَّ سليم من كلامه وأجزل له العطاء حتى إنه سحب غازى كرتباى إلى اسطنبول، ثم فَوَّض السلطان سليم كل الامور إلى خيرة بك .

الفصل الرابع عشر

ذهاب السلطان سليم إلى دمياط ورشيد والإسكندرية

بلغت مائتا سفينة من الأسطول العثماني بولاق بمصر، وكان الاحتفال بذلك عظيمًا ورينت كل السفن، واستقل سليم السفن في عشرة آلاف جندي فأطلقوا المدافع والبنادق ابتهاجًا. وبينما كانوا في نزهتهم يشاهدون مائتي مدينة على شاطئ النيل جهة دمياط بلغوا ميناء دمياط، وهو على بعد خمسمائة ميل. وهناك بالقرب من الشيخ أبي الفتح نزل السلطان سليم، وأهدى الأعيان عشر خزائن إلى السلطان سليم فوزعها صدقات على الناس جميعًا، وأطلقت المدافع طلقة من قلعة دمياط، وبلغ سليم مَرَج البحرين؛ فنوضاً وصلى في الموضع الذي التقى فيه موسى - عليه السلام - بالخضر، ثم مضى إلى دمياط ثانية، وزار جميع أولياء الله، وطلب المدد من بركاتهم. وفي اليوم الذي وصل فيه رشيد بطريق البحر المالح أطلقت المدافع تحية وابتهاجًا من قلعة التينة، وأقام سليم في مدينة رشيد؛ فتقدم إليه جميع الأعيان بالهدايا، وسلموه مفاتيح القلعة، وقام بزيارة كوم أفرح، وزار جميع كبار أولياء الله، ودخل حَمَام عباد الله، واغتسل فيه، وخلوته الحالية موصدة وإذا ما فتحت لمريض شفاه الله. ومن هناك ركب هو ومن معه الزوارق وشرب من مرج البحرين في رشيد، ولما دخل ميناء الإسكندرية وهى على بعد ستين ميلاً (العظمة لله) أطلقت المدافع من خمس قلاع، ومن سبعمائة سفينة من الأسطول العثماني، وبقيت قلعة الإسكندرية كأنها نار النمرود.

وبين المينائين اتخذ سليم لنفسه مقرًا، وقَدَّم له جميع الأعيان مفاتيح خمس قلاع وهدايا لا تدخل تحت حصر. ونال كل منهم منح سلطانية.

ذكر خزائن السلطان الغورى في قلعة الإسكندرية

حينما سمع الغورى بظهور أمر السلطان سليم سأل المنجمين في مصر أن يحسبوا له طالعه وطالع السلطان سليم.

فقال كل المنجمين والرَّمَّالين وقارئى الكف وعلماء الجفر: إن ما فكرت فيه يريدك بالسوء وإلحاق المضرة بك.

هذا ما قاله جميع المنجمين وعلماء الجفر للسلطان الغورى، فهيا الغورى نفسه لمواجهة هذا الامر؛ فوضع كل خزائنه ونفائسه فى خزائن قلعة الإسكندرية، وكان فى ميناء الإسكندرية على الدوام خمسون سفينة حربية، وتأخى الغورى مع السلطان يعقوب فى بلاد المغرب؛ فاستقر رأى على أن الغورى إذا ما هزمه سليم فرّ إلى المغرب بهذه السفن ومعه كل أمواله وبعد ذلك يعود لغزو مصر، وبناء على ذلك كانت كل خزائنه ونفائسه فى الإسكندرية ولكن العبد يدبر والله يقدر.

وقبل أن يمضى سليم إلى مصر جعل وزيره پيرى باشا والياً على اسطنبول وأمره أن يضرب الحصار على الإسكندرية بسبعمائة سفينة شراعية وبعد أن قطع سليم المراحل مرحلة تلو الأخرى اشتبك مع الغورى فى القتال بالقرب من مصر، وغاب الغورى عن حومة الوغى، وبقيت كل أمواله فى الإسكندرية، ومضى سليم إلى الإسكندرية وفتح أبواب الخزائن وفى أول معركة أخرج سبعة وخمسين ألف كيس من مال مصر، واستولى على اثنى عشر كيساً من الذهب الخالص، وفى البداية هزم الغورى فى سهل مرج دابق بالقرب من حلب، وبينما كان يتعلق بأذيال الفرار وقع علم النبى ﷺ فى يد السلطان سليم؛ فتفاهل بذلك وحمل العلم على بعير سبعة أيام. وتسلمه جندى يُسمى الحاج على، وبذلك أصبح حمل علم الرسول ﷺ تقليداً مرعياً؛ كما أخذ من قلعة الإسكندرية علم أحمر عليه صورة أسد وعبارة «نصر من الله»؛ كما استولى السلطان سليم على صندوق مرصع بالجواهر به السنّة الشريفة التى سقطت من أسنانه ﷺ فى غزوة أحد، وشعرات من شاربه ولحيته الشريفة، ومكحله ومروده، وقطعة من حصير وأبريق وضوئه، وسبحته، وقطعة من نعله، وعصاة من الخيزران وخفه، وخرقتان شريقتان له من ليف النخيل يقترب لونها إلى الصفرة، والأخرى من القطن الأبيض، وسرج، وسيف، وغطاء حمل جمل، وعمامة الشريفة، وقلنسوة بيضاء، وكلها طبقة فوق طبقة فى ذهب على ذهب، وذلك كله فى صرة مزركشة، وقد كتب عليها هذه مخلفات رسول الله ﷺ، فمسح سليم بكل هذه المخلفات وجهه تبركاً وقال: شفاعة يا رسول الله. كما أنه وضع عمامة يوسف الصديق على رأسه التماساً للبركة ثم حفظها

فى الصندوق المرصع بالجواهر، كما رأى مديّة كان يوسف الصديق يخط بها على الجدار فى سجنه ليتعرف بها مواقيت الصلاة، والبساط الذى كان يصلى عليه.

وأيام خلافته كان يلبس عمامة يوسف، ثم ابتكر العمامة التى تُسمى سليمي، وسميت باسمه، لأن السلطان أبو الفتح وولده با يزيد ولى كانا يلبسان العمامة العُرفى، أما هو فكان يلبس عمامة يوسف والسليمي، إلا أنهم وجدوا فى خزانة الإسكندرية عمامة قلاوى ولعل اسمها مستمد من السلطان قلاوون لأنها بقيت من عهده، ووجد كذلك سيوف الخلفاء الراشدين وثياب ملوك السلف وأسلحتهم وخمسين ألف بندقية مرصعة وعشرون ألف سيف مصرى، وعشرة آلاف درع، وعشرين ألف قوس، وسهام لا تدخل تحت حصر، وكنائن ودروع الفرس وأربعون ألف ترس حلبى ومثل عددها من التروس الدمشقية وعشرة آلاف نيزك، وعدد لا يحصى من الطبر الدمشقى وعشرون ألف درع وثلاثون ألف خوذة وعشرة آلاف طبق من الخزف المرتبانى من صنع الغورى نفسه، وما كان هذا النوع من الخزف فى أى بلد سوى مصر، وكان كلما نظر إلى ولى من أولياء الله يصنع هذه الأطباق المرتبانى وكان يقدم هذه الأطباق الخزفية هدية إلى الأعيان، وكان هؤلاء الأعيان يردون على ذلك بإهداء الذهب إليه على قدر ما يهدى إليهم من هذه الأطباق، وكان الغورى يصنعها طمعاً فى الحصول منهم على هذا الذهب، كما أخرج سليم من خزانة الإسكندرية أشياء شتى لا يتسع المقام لذكرها، وقد ملأت بها السفن العثمانية وأرسلت إلى الأستانة، وكان السلطان سليم فى الإسكندرية يزور من الأولياء مَنْ بقوا على وجه الحياة ويدعون له بالخير، وكان يطلب المدد من أرواح الموتى منهم، كما قدم مصر هو وسفنه من العقبة واحتفل بهذا القدوم، وفى ذلك الأسبوع كان الاحتفال بوفاء النيل فى قصر أم القياس، وهذا الاحتفال مذكور فى تواريخ مصر، وقد شاهد هذا الاحتفال السلطان سليم. أراد سليم أن يتخذ من مصر حاضرة له، غير أن أعيان الدولة وعلماءها لم يؤيدوه فى هذا.



الفصل الخامس عشر

قوانين مصر فى دولة السلطان سليم بن با يزيد

نور الله مضجعهما بأنوار الغفران .

قدم سليم من الإسكندرية وبإذن من علماء مصر جميعاً أدى صلاة الجمعة هو وكل أعضاء الديوان فى جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة، واجتمع هناك مائتا ألف رجل لأن فى ذلك اليوم كان حضور الشيخ أبو السعود الجارحى والشيخ مرزوق كفافى وبإذنهما الشريف تلى الشيخ أبو العلا الخطبة باسم سلطان البرين وخاقان البحرين خادم الحرمين الشريفين سليم خان بن با يزيد خان أيد الله سلطته إلى آخر الزمان. وبإذنهما الشريف سكت العملة وكتب عليها «صاحب النصر ضارب النصر عز والنصر فى البر والبحر السلطان بن السلطان سليم خان بن با يزيد خان - عز نصره - مصر سنة ٩٢٢هـ».

وبعد ذلك جمع سليم ذات يوم الديوان السلطانى، وحضره جميع أعضائه على تفاوتهم فى السن والرتبة، ووضع سليم يده فى يد خيرة بك، وأجلسه على سرير النيابة والخلافة، ووضع على رأسه العمامة المعروفة بسليمى وريشة نفيسة، وعلى ظهره خلعة فاخرة من السمور، وحول خصره منطقة مرصعة تعلق فيها خنجر مرصع، وحرص سليم على أن يلبسه كل ذلك بنفسه، ورفع يده بالدعاء، وقال: لقد جعلتك يا خير بك وزيراً ونائبى فى هذه الدولة وسأرى كيف تخدم الإسلام فانا لا رغبة لى فى شئ من مصر، لقد ظفرتُ بلقب خادم الحرمين الشريفين وكفى، ووقفت جميع محاصيل مصر على النبى ﷺ فاشهد ومن الآن فصاعداً يا خير بك أنت مولى هذا الوقف؛ فأحسن خدمته.

ومنح من يتبعون موكبه اثنى عشر ألف دينار ذهباً كما منح خدام القصر ثلاثمائة منطقة مرصعة، كما منح اثنى عشر سرجاً مزيئاً بالجواهر واثنتى عشرة جعبة للقائمين على سياسة الخيل وسبع قسي خسروانية، كما منح خياماً ذات ثلاثة أعمدة ومظلة، وجعل لأربعين من خدام القصر طوغين لكل منهم، كما جعلهم أمراء على مصر.

وجعل مائة من الأغوات بكوات من الشراكسة، وأمر بأن يُعطل الديوان ثلاثة أيام في الأسبوع وأيام العطلة هي الجمعة والسبت والأربعاء ويحضر قاضي العسكر الديوان خمسة أيام ويقدم للديوان في كل يوم كيسان من دنانير (١) ، ويُقدم ثلاثة آلاف صحف من طعام، ويطعم كل أعضاء الديوان والخدم والآتون من بعيد (.....) (٢)، وجعل سليم ذلك قانوناً لجاوشية الديوان كل يوم خمسة خراف وأردب من أرز وكيلتان من العدس والحمص وعشرة أحمال من الحطب وأوقيتان من شمع العسل، كما أجرى على الأئمة والمؤذنين راتباً، ولجميع أقاليم مصر ثمانون كشاقاً، وفي دواوينهم ييسط كل يوم سباط في الصباح وسباط في المساء، وذلك من المال السلطاني، كما أن بكوات الشراكسة ومائة من رؤساء الفرق بعد سباطهم ييسطون الموائد للعوام والخواص، وفي كل وقت من أوقات الطعام تفرع الطبول لينبه جميع الجياع، وجعل ذلك قانوناً، ودامت هذه النعمة وما كانت مثل هذه النعمة في بلاد سلطان آخر، وبعد ذلك لم يصدر قانون سلطاني، ويقدم من قبل السلطان لخاصته اثنا عشر حملاً وسبع وأربعون ألف أقبه وكان ولاية مصر وبغداد والحبشة واليمن والعراق يضعون ريشة على عمائمهم المعروفة بسليمي، وكان هناك خان التتار يحكم في بلاده ويأتي بعده في الترتيب وإلى مصر، ثم ولاية العراق فتبابعة اليمن، وأخيراً بُودُم وهؤلاء الوزراء الخمسة يُتَبَوَّنُ عن السلطان في الحكم ولهم صفته.

وبما أنهم كانوا يضعون الريشة على رؤوسهم كانت لهم الدرجة على من سواهم من الوزراء. ووزير مصر طبقاً للخاصة السلطانية إذا ما عين قائداً على الحبشة أو اليمن أو العراق فإنه يلزم عليه أن يمضي به هو وجنوده و (٣) إلى هذه المناطق، وبهذا صدر قانون سليمي. أما في الوقت الحاضر بما أن الغلبة لجند مصر فإن جميع الأقاليم يسرى عليها قانون سليم ولا يبقى شيء تابعاً للوالي إلا أنه يسكن النقلعة الداخلية مع ألف من جنوده، وأغواته جميعاً يعيشون على ما يصرف لهم من مرتبات طبق القانون، كما يوجد أربعة وعشرون رئيساً للموانئ وهم يعيشون على الكفاف. وللباشا ثلاثمائة

من الاغوات وخيامهم، وفى كل عام تُوزَع عليهم الاقمشة والثياب والقمصان والنعال كما يتم كساء كعبة الله بالكسوة السوداء من وقف السيدة شجرة الدر قانونًا مرعيًا. لان شجرة الدر وهى من ملوك السلف كانت تدفع مرتبًا سنويًا لاغوات الخارج وأغوات الداخل التابعين لها؛ وقد أحصى السلطان سليم أوقاف شجرة الدر هذه وقال: إن شجرة الدر وهى امرأة كست الكعبة بالحرير الأسود، وقد أصبحت الآن سلطان مكة والمدينة وعلى أن أكسو الكعبة الشريفة من أعلاها إلى أسفلها بالديباج والقماش المزركش وبالذهب واللؤلؤ إلا أن علماء مصر جميعًا وشيوخ المذاهب الأربعة والشيخ أبو السعود الجارحى لم يقرروه على ذلك فيما سلف ذكره، وقالوا إن كسوة شجرة الدر لم يتيسر لأحد غيرها، إلا أن الله قدرها على ذلك، والآن هذا الوقف وقفها، وشرط الواقف كنص الشارع. فغبطها سليم على ذلك وقال: مضت المرأة، فما أعظم ما عملت من خير لم يتيسر لغيرها من الملوك.

وماذا يمكننا أن نصنع نحن فى مكة والمدينة، فقام بعمل كسوة باب الكعبة الشريفة بالحرير الأخضر. ومزركشة بالذهب، وجدد بناء مقام إبراهيم - عليه السلام - وجعل الصندوق الشريف مكسوفًا بالذهب وستارة باب منبر الحرم الشريف مزركشة بالذهب وعمرَ ورَمَمَ الحرم الشريف. أما البيت الذى ولدته فيه السيدة أمينة - رضى الله عنها - فقد جُددت قبته وكُسيَت بالرصاَص. وبنى فى مكة مائة أثر للسلطان وتُليَت الخطبة لسليم أول ما تليت لآل عثمان فيها، وجعل على قبره الشريف ﷺ من الجواهر ما يبهر العيون ووزع الصدقات فى المدينة بلا حساب وجعل كمال باشا زاده قاضى مصر يقوم بمسح ألف قرية وقصبة وبلدة فى مصر. والحاصل أنه أمره بأن يسجل كل ما يطير فى الجو من طائر وما يدب على الأرض من دابة وما يسبح فى البحر من سمكة، ووزع المقاطعات على الملتزمين والامناء. ووقف كل ذلك على الحرمين الشريفين. ودُونت جميع قرى ولاية مصر وعددها () (١) قرية، وهى منقسمة أربعة أقسام: والقسم الأول () (٢) قرية وهى جميعًا من أوقاف ملوك السلف، وقدر الوقف

بعدد أفدنته ووكل به ناظر يدير شتونه ويحصل إيراده فيعطى منه رواتب جملة الأئمة والمشايخ والمسّاحين. والمعرفين، أما ما يتبقى من ذلك فيرد إلى المال الأميرى وسُنَّ بذلك قانون خاص.

أما القسم الثاني فهو قرى الكشوفية، وهم (١) قرية على كل منها كاشف وهى خاصة بالباشا ويعاونه فى جميع تحركاته مائة أو مائتا جندى، ويحصل الباشا أموال الكشوفية وقدرها مائتا كيس فى العام، أما فى زماننا إذا أصبح البلد عاطلاً عجز الملتزم عن دفع ما عليه من أموال ويغادر القرية وتؤول إلى الباشا وتصبح قرية كشوفية ويجمع الباشا الرعايا ويخطرهم بذلك، ويزرعها ويحصل منها المال، وإذا كان لها من يطلبها أعطاه الباشا إياها لأنه عمرها بنفسه.

وقسم ثالث هو أراض خاصة بالسلطان فيها كشافون لهم رتبة البك، وعددها سبع عشرة وجملتها (٢) ألف قرية تحت إدارة الكاشف، وكل كاشف يقدم له مائة رجل من السبع فرق، ويُطعم الكاشف كذلك خمسمائة أو ستمائة من السكبان (٣)، ويحصل المال السلطاني من ولايته والثلث الأول والثلث الثانى والثلث الثالث والمال الصفى والشتوى وما إلى ذلك من أموال يجمعها بمعاونة العسكر ويدفع منها رواتب الجند ونصيب خزانة السلطان، وثمة ضريبة من خمسمائة أو ستمائة أو ألف كيس من القروش تدفع من كيس السلطان لمن يطوف الولايات من أفراد الفرق السبع ولم يقنع الجورباجية (٤) بخمسة أكياس فأطلقوا بعض المجرمين من سلاسل الكاشف.

والقسم الرابع إذا كان الملتزم فى شدة آلت قريته للدولة ويبيعها الباشا فى المزاد بأربعين كيساً أو خمسين إلى مائة كيس وكل رعاياه وتركاته تصبح مزاداً سلطانياً.

ومن قانون سليم أن يأخذ الباشا ثمن ما يبيع ويلتزم من اشترى للبلد حين التسجيل إذا أخذ (٥) عليه تسديد كل عام المرتبات وصرّة مكة والمدينة وكل ما فاض سواء كان كيساً أو مائة كيس كان مالاً له، ويُعمر القرية ويكون له حق التصرف فى

(٣) السكبان: نوع من المشاء.

(١، ٢) يياض فى الأصل.

(٥) يياض فى الأصل.

(٤) الجورباجية: قسم من الضباط فى فرقة الانكشارية.

تلك القرية مدى حياته، ولا تؤول إلى أبنائه بعد وفاته بل تصبح ملكاً للدولة، وسُنَّ بذلك قانون.

وقد أقام سليم في مصر عام، ثم اتجه إلى رشيد والإسكندرية سنة، ووصل إلى إستانبول عام ٩٢٣هـ وتوفي عام ٩٢٦هـ وخلفه ابنه سليمان الملقب بسليمان الأصفر.

القسم الخامس: ما يدفعه كل ما في مصر من الكفرة واليهود والقبط والأرمن والفرنجية بناء على شريعة النبي ﷺ وحاصل الكلام أن أمين الجوالى حاكم آخر ويسلم مائة (١) إلى الدفتردار في الديوان السلطاني، ويرسل الصرة إلى مكة والمدينة كل عام مع أمير الحاج.

والقسم السادس كل معمور من القرى في مصر يرسل ريعه إلى آغا دار السعادة* باسطنبول، وإذا مات الأغوات يسجل الباشا جميع قراهم ومخلفاتهم وهذا طبق قانون سليم وفي عهد (٢) وإبراهيم باشا صدر فرمان يقضى بتعيين آغا أميناً لبيت المال من قبل أغوات القرى، وبناء على أمر (٣) حفظ كل جزئي وكل كلى، ويعين الباشا كذلك آغا مباشراً ويوقع جميع (٤) عليها؛ ويعرض الباشا على السلطان ويأتى من الأستانة رئيس البوايين أو (٥) والأموال والقرى المذكورة تمنح لعبد أو تُباع (٦) وعلى ذلك فإن الأغوات السود يؤدون مال قراهم إلى السلطان، ومهما كان قدر ما يتبقى فإنهم يتصرفون فيه على أنه خاص بهم.

أما القسم السابع فبموجب قانون سليم يُسجل الباشا ما يتقاضاه الانكشارية والعزب والمتفرقة، والمتطوعة، والجند حملة البنادق، والأيتام، والجوالين وجميع طوائف الجند، ولكن منذ عام ١٠٧٠ تغلبت فرقة المستحفظان أو الانكشارية وفرقة العزب واستولوا على بيت المال لأنفسهم، وهم عدة آلاف من الفلاحين من المواطنين استولوا على بيت المال وإذا ما أمروا بالحرب فإنهم يحصلون على نفقاتهم من بيت المال. وإذا ما اعتنق كافر الإسلام واتفق له أن وصل إلى بابهم يكسوه، كما يقدمون للغريب الغذاء والكساء

(١ : ٦) يياض في الأصل.

* آغا دار السعادة: رئيس الأغوات العاملين في القسم الداخلي من القصر العثماني الذي يعيش فيه السلطان مع نسائه وهو المشول الأول عن تنظيم العلاقة بين هذا القسم والعالم الخارجي. ويتمتع بدرجة رفيعة من البروتوكول العثماني، كما أنه المشول عن أوقاف الحرمين الشريفين.

وإذا ما وقع أحد مواطنهم أو زملاؤهم في أسر الكفار يدفعون له فدية قدرها عشرة آلاف قرش ويخلصونه من أسره.

ومنذ ذلك التاريخ لم يستطع الباشا أن يسيطر على بيت المال ولكنه يسيطر على بيت مال الغير من العامة والخاصة، ويكلفون جاویشية الفرق السبع وقاضى العسكر يكلفون القسّامين بتدوين المال، وبإذن أغا الباشا يودعون المال فى خزانة الباشا، لأن على الباشا التزاماً يرضاه، وتوزع الرواتب من المال المحصل، وإذا ما ظهر وارث لتوفى واستطاع إثبات ذلك فإنه يطلب مال قريبه المتوفى من الباشا بموجب دفاتر جاویشية الفرق السبع ودفتر القسّام؛ وينال الوارث حقه.

القسم الثامن: القرى الموقوفة على مكة والمدينة فى أقاليم مصر يرسل منها مصروفات قدرها اثنان وستون ألف كيس مع خمسة وستين ألف دينار من ذهب فى الصرة وتسلم الصرة إلى أحد أغوات الباشا وسبعمئة جندى من السبع فرق، ويسلمونها أمين الصرة فى الشام الشريف، وعليه إحضارها إلى المدينة ولذلك قانون مرعى، ومن قبل كان السلطان سليم يرسلها من اسطنبول وكان قانوناً سليماً، كذلك يرسل من مصر ستمائة كيس من ستة آلاف وقف وكان يمضى بها أمير الحج المصرى لتسليمها إلى جميع الأشراف والمشايع والمجاورين فى مكة والمدينة.

أما القسم التاسع: فهو أن ما يتحصل من أقاليم مصر وقراها وعددها سبعمئة قرية وقصبة مثل مطويس طاروط الشريف وصنبو وجملته (١) أردب من الغلال تشحن فى سفن تسمى السفن المحمدية إلى مكة والمدينة وسوف تذكر القوانين الأخرى فى موضعها.

(١) بياض فى الاصل.

الفصل السادس عشر

ذكر كل من فى إيالة مصر من خليفة وأمير لواء وأمير سنجق وكاشف
ومرتباتهم طبق قانون السلطان سليم

يكون سلطان البرين أمير الحج فى مصر وهو أحد بكواتها ويقال: لبعضهم متصرف، ولبعضهم طوغان، ومقره فى السويس بناء على القانون، وجميع العرب المقيمين على طريق الكعبة يسمون أمير الحج سلطان البر، وله الرئاسة على أربعين ألف حاج فى كل عام.

والنيابة الثانية فى مصر: لأمير السويس ومهمته إرسال اثنى عشر سفينة كل عام محملة بالغلال وما لا يحصى كثرة من الحجاج إلى جده وينبع عن طريق بحر السويس، وهو يتقاضى فى العام اثنى عشر كيساً وله من مخزن يوسف فى كل عام (١) أردب من القمح، ويطعم جنوده وربانيه والذين يقومون بالتجديف فى سفنه وهو يبحر، وفى سفنه التى تحمل الفوانيس، والعلم الذهبى الأصفر ويسمونه سلطان البحر.

والنيابة الثالثة: هى حكومة ميناء جده وفيها باشا مستقل، وأحياناً يُمنح طوغين لأن له الحق فى السيطرة على الأشراف، ويسميه العرب وكيل السلطان، وسلطنته عظيمة لأن جميع ملوك الهند والسند واليمن والحبشة وسواكن يرجعون إليه، ولأنهم يعدونه وكيل السلطان ودائماً تأتيه الرسائل من ملك الهند مصحوبة بالهدايا.

والنيابة الرابعة فى مصر: هى منصب شريف مكة المكرمة ويسمون القائم عليها سلطان الأشراف، ويذكر اسمه فى الخطبة بعد ذكر آل عثمان وله الحكم النافذ حتى بغداد والبصرة ولحسة* واليمن وإذا شاء جمع أربعين أو خمسين ألفاً من الفرسان.

أما النيابة الخامسة فى مصر: فهى على اليمن وكانت حكومة اليمن تحت حكم مصر حتى عهد السلطان مراد الرابع أى إلى عام ١٠٣٣ هـ وفى هذا العام استولى الأتمة الزيدية على اليمن وحكموها.

(١) بياض فى الأصل.

* تعرف الآن باسم الإحساء.

والنيابة السادسة فى مصر: هى الحبشة وهى الآن تحت تصرف وزراء آل عثمان، وهى سلطنة عظيمة. - مصراع: «سلطان الحبش كأنه طفل أسود». والنيابة السابعة: هى بلاد الفونج* وملوكهم الآن يدينون بالطاعة إلى وزراء مصر. والنيابة الثامنة: هى طرابلس. والتاسعة: تونس.

والعاشرة: الجزائر. وهذه الحكومات الثلاث تابعة لمصر الآن وما رالت لكل منها سكتها (عُمَلتها) وفى كل عام يذهب أحد الأغوات من قبل وزراء مصر لكل من ولاية هذه الولايات العشرة لاستمالتهم ويصلهم منها هدايا تصل إلى وزراء مصر، وفى مصر مير لواءات عن لهم طوغان وطبل وأربعون علمًا، أما فى رماننا فيقرع الطبل فى اثنين وعشرين موضعًا ويمد السباط المحمدى ويوجد الأمراء ولكل منهم وظيفة، فهناك أمير مسئول عن إيصال الخزانة إلى اسطنبول مع خمسمائة رجل، وأمير آخر يحمل خاتم السلطان حتى إذا ما توجه قائد من قبل السلطان للحرب أمر بالحرب بخاتم أمير الخاتم هذا، ومنهم أمير بولاق وله خمسمائة فارس، ومنهم أمير على مصر القديمة وله أيضًا خمسمائة فارس ومنهم أمير الإمام الشافعى وله خمسمائة فارس وآخر لسبيل علام وله خمسمائة فارس وهم يستقدمون ويرحلون المسافرين والزائرين.

وثمة أمير آخر وظيفته نقل الحجاج وقوافلهم إلى ميناء السويس وذلك بمعاونة خمسمائة رجل. أما الآن فرائد القافلة بدلاً من الأغا. وكذلك أمير ومعه خمسمائة رجل يبعث ويأتى بالتجّار والحجاج، وكذلك بك أو أمير معه خمسمائة رجل على أهبة الاستعداد حتى إذا ما وقع على مصر عدوان كانت مهمة هذا البك المضى لمواجهة هؤلاء المجرمين بأمر من الوزير.

وثمة أمير آخر معه خمسمائة رجل يقومون على الكلار العامرة لآل عثمان وكل عام يقوم بتحصيل (١) و ٣٣ كيسًا، كما يقوم بتحصيل (٢) أردب

(١، ٢) يياض فى الأصل.

* أى بلاد النوبة حاليًا.

من الأرز و) (١) قنطاراً من السكر و) (٢) وسبعين رزمة من البن و) (٣) أردب من العدس، وذلك من مدن دمياط وفراسكور ورشيد، ويتزلون هذا إلى ميناء رشيد وتحمل فى زوارق وتوضع فى المخازن بمدينة الإسكندرية، وعلى ذلك الأمير إرسال هذا كله إلى الأستانة فى أيام مناسبة.

وأمر «أوبك» كذلك هو دفتر دار البلد، وهو يرأس غيره من البكوات وكلهم فى حاجة إليه، وطبقاً لقانون السلطان سليم كان يوجد أربعون من بكوات الشراكسة، أما الآن فهم عشرون، ولكل مائة منهم رجل، والبكوات الآخرين (٤) يحضرون من شهر إلى شهر وهم مُتأهبون على الدوام مع فرقة الموسيقى العسكرية وجميع هؤلاء البكوات لقاء خدمتهم، يتقاضون (٥) سنوياً عشرة أو اثنى عشر كياً و) (٦) أردب من الغلال و) (٧) من اللحوم.

فى ذكر من هم على منصب

أمير الأمراء فى مصر

أولاً أنعم السلطان على (٨) بطوغين، ويتقاضى فى العام ستة أكياس من ديوان مصر، وله كذلك ستة أكياس من دمياط، وله من المدينة ستة أكياس أخرى تأتية بلا وجه ظاهر ونظير هذه الأكياس الثمانية عشر التى يتقاضاها لقاء عمله، وكان يبحر بسفينتين من نوع القادرغة مرتين مع قبودان باشا لمدة ستة أشهر، وفى شهر نوفمبر ترسو سفنه على ميناء دمياط منصور ومظفرة. ورشيد إقليم إدارى كذلك وجميع سلياته مثل أمير دمياط والواحد منهم يسافر فى البحر الأبيض بسفينتين من نوع القادرغة. وكذلك سنجق الإسكندرية وهو مثل دمياط ورشيد يتقاضى مرتبات سنوية (سليانه) من ديوان مصر وسنجق الإسكندرية عظيم، وأميرها يرأس أمير سنجق رشيد، وأمير سنجق دمياط، فىكون بفتحهم الست من نوع القادرغة مكلفين مع الاسطول السلطانى بمرافقة سفن التجار ذهاباً وإياباً. والسنجق الرابع فى مصر هو سنجق الشرقية، والخامس الغربية، والسادس المنوفية، والسابع الجيزة.

(١ : ٨) بياض فى الأصل. ويفهم من النص أنه «أمير دمياط».

ومنذ فتح السلطان سليم لمصر ظهر في بلاد المغرب تبر الذهب الذي سُمي «أوجيلة» وصارت «أوجيلة» كشوفية عظيمة، وعلى عهد السلطان إبراهيم، وفي أيام مقصود باشا وزير مصر استولى مقصود باشا هذا على طرابلس وبها كشوفية أوجيلة الموجود بها المعدن النفيس، وهى إلى الآن فى حوزته ويستمد منها الذهب. أما السنجق الثامن فهو المنصورة والتاسع القليوبية والعاشر جيزة يوسف، والحادى عشر بنى سويف، والثانى عشر فيوم يوسف، والثالث عشر المنيا، والرابع عشر منفلوط، والخامس عشر جرجا، والسادس عشر الواحات، والسابع عشر ابريم، وكل هذه السناجق والأقاليم وأمرائها تجرى حساباتها بالحساب القبطى من عام إلى عام وما تبقى فى الذمة يقدم إلى دفتر دار السلطان، وهذا ما يودع خزانة السلطان، وفى كل سنجق ثلاثمائة أو أربعمئة قرية وبلدة معمورة وأعظم هؤلاء البكوات بك جرجا فهو يحكم بلاد الفونج وبلاد البربر والسودان وأوجيله والمغرب، وله خمسة آلاف من الجند ويمنح بعض البكوات طوغان^(٢)، ويتحصل من مصر القديمة فى كل عام مائة ألف أردب من الغلال، ويقدم إلى جند مصر العلف والخبز. كما تعطى من المال السلطانى مائتا كيس ويقدم إلى إدارة الباشا ثمانون كيساً ولجند جرجا راتب قدره مائة كيس وهى محسوبة عليه، ومن إقليم الصعيد يرسل بك جرجا أربعمئة ألف أردب من الغلال ويتبقى له فى العام مائتا كيس وبعد المصاريف يُسمى الصعيد العالى، وهو صعيد مصر، وهذا ما خص به الله الصعيد وهذا ما سوف يذكر فى موضعه بإذن الله.

وديوان باشا جرجا هذه يشبه ديوان باشا مصر تماماً حيث يجتمع فيه أعضاء الديوان ويكثر فيه الأخذ والرد والتسليم والتوقيع والعقد والحل. وهو ديوان يعجز اللسان عن وصفه. وتحت إدارة حاكم جرجا أربعة وعشرون كشوفية وهو يخلق على هؤلاء الكشافين الخِلق. وهؤلاء الكشافين هم من نتحدث عنهم حسب ما جاء فى القانون.

(٢) الطوغ: ذوابه، أو خصلة تصنع من شعر الخيول تستخدم شعاراً مميزاً. لمزيد من التفصيل انظر: معجم الدولة العثمانية ص ٨٦ - ٨٧.

أولاً الداخلون فى هذا القانون كاشف منفلوط، ثم كاشف المنيا، وكاشف شرق إدفو، وكاشف شرق أخميم وأبو تيج، وكاشف وكشافو تختة والواحات، وكاشف المنشية وكشافو بلاش وفوه العليا، وكشوفية فنا وقوص، وكشوفية القصرين وهم فى غرب النيل بالقرب من كشوفية جرجا وكشوفية نما فى الجهة الغربية وكشوفية أسيوط فى الغرب. وابن ريان العابد كانت تسمى كشوفية شيخ العرب، وكشوفية سليم فى الشرق وكاشف المريج وبهجور وفرشوط والقصاص وكشوفية إسنا فى الغرب وكشوفية سنهود غرب النيل، وكشوفية قصير بهانس فى الغرب، وكشوفية برديس بعد جرجا وكشوفية الجزيرة فى الغرب.

وطبقا لقانون الكاشفية كانت ولاية إيسرم تحتوى على أربعة وعشرين كاشفاً من أصحاب الطبل^(١) وعلاوة على ذلك كان بها ستة كشافين ملحقين على كشوفياتها. كما ينضم إليهم بعض مشايخ العرب ممن لا طبل لهم فتصبح جملتهم أربعة وأربعين كاشفاً ومهمتهم إرسال الغلال إلى جند مصر.

(١) أصحاب الطبل: أمراء الطبلخاناه، رتبة فى الجيش كانت تسمح لحاملها بحياة أربعين فارساً.

الفصل السابع عشر

قوانين ديوان مصر في عهد السلطان سليم

فاتح مصر نادرة العصر

ديوان مصر هو دار السلطان الغورى الواسعة التى تسع خمسة آلاف شخص وعلى جانبيه قمریات ويجلس فيه كبة الأقلام والمحاسبون مع الخليفة يفحصون الدفاتر. وفى وسط حجرة الديوان موضع مرصوف بالرخام يجتمع فيه أصحاب الحاجات خمس مرات فى الأسبوع ويخرج عليهم الباشا وعلى يمينه الدفتردار والبكوات، وقد اختلفت هيئة عمائمهم، وعلى يسره يجلس رؤساء الباهية والطوعة والانكشارية والطوبجية وكذلك رئيس فرقة العزب، ويطعمون ثلاثة آلاف صحف، إلا أن كتخدا الجاوشية ورئيس المستفرقة ورئيس الجبه جيه ورئيس المعماريين والصوباشى وجاوشية العزب والانكشارية لا يجلسون على تلك المائدة ويتناول أعضاء الديوان الطعام على حسب الأصول المرعية، وترفع الصحون ويأتى الخدام بالأباريق والقذور ويغسل الجميع أيديهم ويدعو القائم على الدعاء فى الديوان، وحينما يذكر رسول الله ﷺ يقفون مرتين إجلالاً وتعظيماً، كما يقفون مرة إذا ذكر السلطان العثمانى، ثم يفرق الناس بعد الدعاء ويبقى أصحاب الحاجات ويسأل كتخدا الجاوشية فى صوت مرتفع: هل من شاك؟

فإذا وجد شاك بُتْ فى أمره وفصل فى خصومته، ويمضى الباشا إلى حجرة الكرسى ويبقى كتخدا الباشا والدفتردار ورئيس المستفرقة وكتخدا الجاوشية. وإذا ما وُجدت قرى آلت إلى المال الأميرى وهى خالية نادى الدلالون عليها بالمرزاد وتباع، وبعد ذلك يتسلم الدفتردار والروزنامجى بقية المال الأميرى، ويمضى الجاوشية هنا وهناك لتحصيل هذا المال. أما المعاجزون عن تحصيل المال من الملتزمين فيحضره الجاوشية إلى وسط الديوان حيث يوجد مكان لشنتهم، وفى هذا الموضع حبال غلاظ والملتزم المقصر تُربط ذراعه فى بكرة ويقوم أربعون أو خمسون جلاداً قساة بتجريده من ثيابه ويضربونه بالسياط بعد أن يرفعوه على عود بين الأعيان، ويرتفع صراخ المسكين إلى عنان السماء ولا يستطيع أحد أن يشفع له؛ لأن من يقومون بالشفاعة يطلبون على ذلك رواتب أول كل شهر أو كل

ثلاثة أشهر، ويقولون له: حصل المال وسلمه لنا ونحن نرى ذلك عياناً، ولا يشفع الأب لابنه ولا الابن لأبيه. وهذا ما يعرفه أعيان مصر ولهذا لا يشفعون لأحد وإن كان لهذا المسكين مال قدمه وينام على حصير وإذا لم يك ذا مال رجوا به فى سجن ضيق جهنم إراته أعراف. وإذا عاش فيه الإنسان ليلة مات. ثم تباع قرينه وممتلكاته وبذلك يكون خلاصه. وفى هذا المقام يكون الحكم للدفتردار الباشا لأن جراديتنا تحصل مرتباتهم من الدفتردار وكتخدا الجاوشية ورئيس المتفرقة، والدفتردار أعظم بكوات مصر كفاءة ويوليه السلطان منصبه بمنحة طوعين وهو يحصل كل عام من أقاليم مصر أربعمائة ألف وخمسمائة كيس و ()^(١) بارة، وفى كل كيس خمس وعشرون أوقية وكل كيس فيه النقود المصرية، كل قرش فيه يعدل ثلاثين بارة وبذلك يكون ما فى كل كيس مصرى ٨٣٣ قرشاً، وهذه المبالغ فى يد الدفتردار وفى العام تبلغ ستة وعشرين ألف كيس وتحت يد ()^(٢) ثلاثة آلاف من الخدم، وخزائن هذه الأموال عليها خاتم الديوان وهى اثنتا عشرة خزينة ()^(٣) ويضاف إلى ذلك خزيتان وبذلك يجتمع لمصر أربع وعشرون خزانة وفى كل خزانة ألف ومائتى كيس. وسوف نتحدث عنها فى موضعه بإذن الله، ولهذا الدفتردار مكان فى ديوان مصر، وليس لغيره من البكوات.

وفى ولاية مصر لكل ()^(٤) باب للكتخدا وصرافين، ويقوم الصيارفة بإحصاء المال الوارد إلى الخزانة وإذا ما نقص أكمله «كتخدا قبوسى» أى نائب الباب. وتحت يد هذا الدفتردار رئيس للصيارفة يهودى وتحت يده كذلك ثلاثمائة صراف يهودى، ولكل ملتزم صراف يهودى، وهم يخدمون فى الأقاليم. وفى جميع الأرمنة كان اليهود شياطين ملاعين إلا أنهم فى مصر أحسن سيرة منهم فى غيرها وإذا ما تلقى أحد عملة نحاسية رائفة فى مرتبه وقابل صرافاً قدمها إليه فأبدله غيرها.

دار سك العملة فى مصر

ودار سك العملة هى عرض السلطان ويتولى شئونها الدفتردار، وعدد خدام دار سك

(١ : ٤) يياض فى الاصل.

العملة خمسمائة رجل وكلهم يتبعون الدفتردار، أما أمين دار سك العملة فهو أغا الباشا. أما صاحب الكلمة فصاحب العيار، والدفتردار يتبعه. ولأن صاحب العيار مسئول عن السكة وعن العيار إذا وُجدت عملة مزيفة قُطعت يد صاحب العيار، وجميع خدام دار سك العملة تحت رياسته، وله خمسون سمساراً يهودى وخمسون نحاساً وخمسون صائغاً وعشرة (هدفكار) وعشرة وزانين وخمسون (كهله دار) وعشرون دقافاً وعشرون سكاكاً وعشرة من الدولابجية وعشرة حلائن ووزان وسكاك وعشرون حارساً وليس لهؤلاء عمل آخر غير ذلك وكل من جاء من بيته خلع ما عليه من ثياب ولا يلبس إلا الثياب الرسمية الخاصة بدار سك العملة والحراس يفتشون الخدام القائمين على العمل فى هذه الدار، ربما كان فى ملابسهم شيء مزيف وإذا ما وجد فى ثيابهم شيء فإن الحراس يرقبونه. وكل شيء يقدم ويأخذ بالوزن وبعد سك العملة تترك ثانية على النار وإذا ما خرجت الأقحجة من النار سوداء جرى بصاحب العيار فى دار الضرب وتقطع يدها بقطع النظر عن كونه بك أو باشا، ولرئيس دار سك العملة مرتب يومية وهو محجوز فى حجرته على الدوام ويسلم ما سَك من عملة لصاحب العيار ويختم عليه فى الخزانة وللخزانة خمسون حارساً وهذا عمل شاق. ومن رأى دار سك العملة فى مصر كان فى غنى عن رؤيتها فى غيرها لأن الذهب جميعه يأتى من خزانة مصر وفى دار سك العملة هذه يصهر الذهب ليلاً ونهاراً، ويذاب خامه ويحول إلى أسلاك تقطع، ثم تدق، ثم يسك بمحله، ويصقل، وعندما يخرج من دار السكة وتداولته مائة وسبعون يداً أصبح بلاء عظيمًا ولكنه بلاء حلو كالجماع، ولكنه حلو كذلك لاهله أما لغير اهله سم أقتل من سم الأفعى وحينما كان الذهب يتكوم فى مصر كالجبال ضاع كأنه طيف خيال كما أنه وهم خيال كذلك لمن يصدون عن دنياهم، وغرضنا من هذا التفصيل هو التحقيق وإلا فله الحمد على قناعتنا.

أوصاف حكام مصر وسادة ديوانها

وفى مصر تيك كتحدا الجاوشية دفتردار الباشا، وهو بك بمقتضى القانون وله علاوة

على أتباعه ماتا جاويش وجميع جاويشية الديوان يضعون على رؤوسهم العمامة المعروفة بالمجوزة، ويحصل بواقى المال السلطاني بفرمان من الدفتردار، ويتلوه فى الحكومة رئيس المتفرقة وهو مسئول عن أموال الكشوفية والمال الصيفى والشتوى، وله من الأتباع مائتان، ويليه فى الحكومة ترجمان باشى أى رئيس المترجمين يتلقى شكاوى الشاكين ويمضى بها إلى مجلس الباشا. وإذا ما استدعى المدعى والمدعى عليه قام بالترجمة. وبمقتضى القانون يتلوه رئيس المتفرقة وله خمسون من الأتباع.

ورؤساء الجاويشية من فرقة الانكشارية ورؤساء الجاويشية من فرقة العزب يحضرون الدواوين الخمسة وإذا كان لأحد من زملائه فى فرقته شكوى ينظر فيها بمعرفة هؤلاء الرؤساء ومصيرهم إلى إمارة الحج أو رئاسة الخزانة، ثم يصبح «قول كتخداسى» أى وكيل، وبعده سنجق بك أى أمير الإقليم.

والروزنامجى حاكم عظيم كذلك فى مصر وهو ركن مصر الأعظم وكل ما يطير فى السماء وما يسبح فى البحر وما يمشى على الأرض مقيد فى دفتر الروزنامجى وإذا ما شاء جعل الباشا مفلساً حين عزله، وإذا ما شاء جعله ثرياً مستوراً، ومقامه يعادل مقام الدفتردار. وتحت الروزنامجى الكبير روزنامجى صغير، وتتبعه بعض الإدارات وأنبار يوسف ومن أجل مراقبة الروزنامجى الكبير فإن وزراء مصر يعينون روزنامجى صغيراً ممن يتوسمون فيه الكفاءة والنجابة ويجب أن يكون كذلك لأنه شرف الباشا حين عزله وعلى الجوانب الأربعة للروزنامجى خمسون يخلفونه ويمسكون دفاتر الروزنامه، وكل منهم مكلف بدفتر ولاية من الولايات، وكل منهم مأمور بالنظر فى دفتر إقليمه، وكانوا يتواجدون فى أقاليمهم الخاصة بهم، ويتلوههم رئيس الديوان المعروف به مقابله جى أفندى وهو يقيد رواتب الفرق السبع وترقياتهم والمنضمين إليهم والمرحجن منهم. وهذا الرجل موضع ثقة وزير مصر الذى يعتمد عليه. إنه ليس مصرى ويتقاضى فى العام أربعين كيساً وتحت إدارته خمسون، وإذا أهمل أحد النظر فى القائمة التى بين يديه منهم وأحيلت هذه القائمة على غيره قدر له مرتب شهر ويأخذ المقابله جى نصف هذا المرتب وما عدا ذلك يُمنح لدرائش القلندرية. . وثمة إيرادات كثيرة أخرى. إلا أن هؤلاء

المقابلية يسكنون مع خلفائهم ولكن جان بولاد زاده حسين باشا أصدر فرمًا بإقامة المقابلي الخاص به في الديوان. كما كان يسكن مع سائر خلفائه ويجلس في ديوان الباشا بمصر وله دخل سنوي قدره اثنان وعشرون كيسًا من الكشوفية إضافة إلى الهدايا التي يتلقاها.

وثمة موظف آخر في الديوان له الوقوف على جميع الأمور وهو يضطلع بوكالة الديوان، وهذا الموظف يقيد - وفق القانون - كل الأوامر الصادرة من مصر. وينال شيئًا من كل ضريبة ويتقاضى هذا الموظف كسبين.

وفي أحد أركان الديوان كذلك أمين الدفتر، وهو من قبل الباشا. وكاتب الشواغر الخارجية و(طشره محلل كاتبي)، وأمين الرسائل الخارجية وأمين الخزانة والمقابله جي أقندي، والمحاسبه جي أفندي، وكاتب الأيتام أفندي، وكاتب الانكشارية، وكاتب العزب، وهؤلاء بعد الديوان يبقون في إداراتهم الحكومية. كما أن كتبة الفرق السبع يبقون في إداراتهم الحكومية، وهؤلاء يرتدون أحسن الخلع ويجلسون مع معاونيهم.

ذكر الموظفين الذين يبقون في الديوان بلا خلعة، وأتباع الباشا

ووظائف المتقاعدين منهم

أولاً إدارة المشاء وهي إدارتان وتعنى إدارة المقابلة والإدارة الثالثة منظمة والرابعة إدارة المتقاعدين والخامسة إدارة الشراكسة والسادسة أقلام السباهية والسابعة إدارات الأيتام والثامنة إدارات الخصيان والتاسعة إدارات (١) والعاشرة إدارات الجواليان والحادي عشر إدارات الأمناء، وثاني عشر إدارات الملتزمين، ثالث عشر إدارات (٢) رابع عشر إدارات الخزانة العامة، وخامس عشر إدارات صرة مكة والمدينة، وسامن عشر إدارات انبار سيدنا يوسف الصديق أي أكلة الخبز، تسامع عشر إدارات المتفرقة، وعشرون إدارات الجاويشية، وحادي وعشرون إدارات المطوعة، ثاني وعشرون إدارات التفكجية أي حملة البنادق، وثالث وعشرون إدارات البحرين، ورابع

وعشرون إدارات جماعة المشاة و (١) السويس. وعددهم خمسة وعشرون وخامس وعشرون إدارات رجال المدفعية والجبه جيان والعربيه جيان وصانعو الذخائر وكل هؤلاء نقلوا إلى مشاة المستحفظات. وإدارات الروزنامجه الكبرى، وفلاحو المدن، ومقاطعة جى الإدارات الشرقية، والغربية ومقاطعة جى المدينة، ومقاطعة جى إيراد الغلال ومقاطعه جى مصرف الغلال، وإدارات ديششة صغرى، وإدارات المحمدى وإدارات المرادية وإدارات الخاصكية، وإدارات كاتب محلول.

ذكر الإدارات المضحكة لأمين البحرين

وعدد خزائن مصر نادرة العصر

والمستخلص مما ذكر أعلاه أن هذه الإدارات سبعون إدارة، وهؤلاء السادة طبقاً لقانون سليم يعملون فى ديوان مصر حسب درجاتهم. ولا وجود فى ديوان مصر لدفتردار الزعامة أو التيمار وأمين الدفتر كالثان فى غيرها من الولايات. وبناء على قانون سليم فلا وجود فى مصر لشيء يتعلق بالتيمار ولا الزعامة لأن جميع أقاليم مصر عند تدوينها دُوِّنت على أنها قرى ملك للدولة وما سمع بأرباب التيمار والزعماء ورئيس الجند وأمير اللواء.

ومما سلف ذكره عن الكتاب إدارات تعرف به خورده أقلام وهى إدارات غريبة وعجيبة وقد ذكرنا قبل غيرها.

أولاً: كل ما فى مصر من الحواه ولاعبى الصراخى، والمصارعين، واللاعبين، بالكؤوس، ومربى الطيور، واللاعبين على الحبال، واللاعبين بالنار، واللاعبين بالكيزان، واللاعبين بالاطباق، واللاعبين بالصواني، واللاعبين بالكرة الحديدية، ومحركى العرائس، واللاعبين بالصاجات، ولاعبى القمار، واللاعبين بالقصعة، واللاعبين بالووق، واللاعبين بالمرابا، والرياضيين، واللاعبين على الحبال، واللاعبين بالطيور، واللاعبين بالخرز، والحماة ومروضى الثعابين، واللاعبين بالقضبان، واللاعبين بالمطارق، والفردانية، وعارضى خيال الظل، ومصارعة الديكة وأصحاب السيميا،

(١) بياض فى الاصل.

واللاعين بالفقران ومروضى الدية، والقاصين وقشمرآن، ومربي النحل، والحاصل كل هؤلاء من أصحاب الحرف المضحكة والنحالين وباتعى الأشياء العتيقة، هؤلاء جميعاً تحت حكم أمين الخورده ول هؤلاء كثير من الامثال، ويرد على الخزانة الأميرية فى كل عام (١) كيس وتوضع فى خزينة مصر، وفى ولاية مصر ثمانون خزانة ويقدم فى ولاية مصر إلى الجند كل عام مئة تسعة خزائن والخزانة العاشرة لأشراف مكة والمدينة وخزانة للبasha وأخرى لأغواته. أما الخزانة الثالثة عشر فلأمير الحج المصرى والخزانة الرابعة عشر فتذهب إلى مصاريف أهالى العقبة وأزلم أثناء عودة الحجاج.

والخزانة الخامسة عشر ينفق منها على تعمير وترميم مكة والمدينة وزينتها وشراء الشمع الكافورى وعودها وعنبرها وما يجرى هذا المجرى. ومن الخزانة السادسة عشر تمضى من مصر الصرة إلى دمشق ومنها إلى مكة والمدينة، والسابعة عشر ينفق منها على المطبخ السلطانى ويشتري بها الأرز والسكر والأشربة العطرة والقهوة والفظائر المختلفة.

أما الخزانة الثامنة عشر فهى لفقهاء مصر ومقسى التركات ولقضاة مصر. والتاسعة عشر حسب ما جاء فى دفتر الغزالي كان لمصر سبعة وسبعون ألف وقف طبقاً لما سجله كمال باشا زاده فى بداية حديثه عن مصر، والآن اثنا عشر ألف منها معمور وموجود، وكل قادم إلى مصر يأخذ منه فقهاؤها ديناراً ذهبياً للأوقاف وثمة أوقاف تنال أربعين أو خمسين أو مائة دينار ذهبى ويحصل لهذه الأوقاف، ومن العقارات والأفدنة خزيتان، تُقدم إلى المرتزقة والضيوف.

والخزانة العشرون تكون من نصيب كشافى مصر ويحصل الخزانة الحادية والعشرين أمناء مصر وملتزموها وهم ينفقونها. والخزانة الثانية والعشرون يحصلها مشايخ قرى مصر، والثالثة والعشرون يحصلها الرعايا والفلاحون، والرابعة والعشرون يُتصدق بها على من يقدم مصر من تجار الأقاليم السبعة، أما الخزانة الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون والسابعة والعشرون تُحصى هذه الخزائن الثلاث.

(١) بياض فى الأصل.

وكل عام تمتلئ أنبار يوسف بالغلل ويقدم منها الخبز والعلف إلى الجند، والحاصل أنه - على حد قول رجال الأعمال في مصر، وهو صحيح - أنه في كل عام يتحصل لمصر ثلاثون خزانة وفى كل خزانة منها ألف ومائتا كيس وسوف نكتب عن كل خزانة فى موضعها ولكن أشير إلى هذه المواضع طبق الفهرس، ولكن يا عزيزى هذه الخزائن يصيب منها كل ما يطير فى الجو ويدب على الأرض ويسبح فى الماء فمن إذن الفقير.

ذكر مقياس النيل المبارك وكثرة الناس

وانواع الحيوانات ووفرة الحمارين

لقد أفاض الله على مصر البركات بالنيل، فيجمع المال السلطاني، فإذا ارتفع ماء النيل فى المقياس بمقدار ثمانية عشر ذراعاً يتحصل المال السلطاني، فإذا ارتفع ماء النيل فى المقياس عشرين ذراعاً يكون للبasha وللأمراء والمتزمين والكاشفين والرعايا نصيب ويحتفظون بالمال، وما لم يرتفع إلى ثمانية عشر ذراعاً اللهم عافنا يستحيل رى البلاد ويقع القحط والغلاء ويفلس جميع الأمناء والمتزمين ولا يتحصل خراج للسلطان. وإذا لم تكتمل الخزانة اضطر البasha إلى تكميلها من ماله ويدفع رواتب الجند من صلب ماله، ويطلب ثلاثمائة ألف وخمسون إمام يحملون البراءة والخطباء والعلماء والصلحاء ومشايخ السادات وجميع سكان البلاد يطلبون من متولى وناظرى أوقافهم الطعام والمرتبات، ولمصر خزانتان للمال وإذا لم تدفع الرواتب ثارت الخواطر ولكن إذا ما عم مصر الرخاء نالوا طعامهم ورواتبهم ويدعون للبasha والسلطان وأصحاب الخير.

ولكن بناء على ما كتب محى الدين بن عربى من جفر: «إذا استوى الماء وتجاوز الحشبة من الجبل إلى الجبل وزاد على ثلاثة أذرع فلا شك فى غرق القاهرة، حقاً إن هذا كذلك.

ولما كان إبراهيم باشا كتخدًا والياً على مصر فاضت مياه النيل من عتبة دميرقبر أى باب الحديد وأمام تكية إبراهيم الكلشنى بدا النيل وكأنه سهل كفى أهل مصر. وجملة القول أنه ليس تحت قبة السماء وليس فى البلاد الخاضعة لآل عثمان ولا غيرها بلاد مزدحمة بالسكان، خصبة وافرة المحاصيل مثل مصر أم الدنيا.

أما سبب تسمية مصر أم الدنيا فهو أنه إذا وقع القحط في جميع بلاد الدنيا فإن مصر قادرة على إطعام هذه الدنيا. لقد منحها الله هذه الخيرات والبركات؛ ولكن إذا أقمطت مصر يوماً - لا قدر الله - فمحصول ألف بلد بل محاصيل الدنيا بأسرها لا تكفيها يوماً ولا تحقق الرخاء فيها لأن مصر بحر من الناس. فقد قدمت عام ١٠٨٢ وبينما كنت أبحر في مدينة مصر مات فيها ثمانمائة ألف إنسان بالطاعون وهذا مقيد في سجلات المذاهب الأربعة حتى إن إبراهيم باشا باع قرية خالية في شهرين لتسعة رجال كل قرية بعشرين كيساً ومع ذلك أصبحت خالية مرة أخرى وبينما كانت كذلك كان يستحيل المرور في أسواقها لشدة ازدحامها. وما كان في مصر من دواب مثل الحصان والبغل والجمل والعجل والجاموس والشاة والعنزة كانت تمر قطعاناً قطعاناً في الأسواق، وقد كثرت الحمير في القاهرة ولا ينقطع نهيقها في جميع جنبات شوارعها ويقول الحمارة «طريق يا سيدى طريق» ويسمون البَّله من الترك بالحمار، وفي مصر أول ابتهاج في مقام السيكا نهيق الحمارة فإذا ما نهق الحمارة مرة. «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» وفي منتصف الليل إذا ما نهق الحمارة في حظيرته ساعتين متعاقبتين والعظيمة لله اضطرب الناس وانزعجوا ظناً منهم أن الوقت حان لخروج الدجال وهو من علامات الساعة، فجميع أعيان وأشراف ونساء مصر يركبون الحمير وهم فرسان الحمير فإذا ما وصل النساء إلى الأوزبكية والصلبية ومصر القديمة وبولاق وقايتباي لعين الجريد وهن على حمير سروجها منفضة ومزركشة قائلين «هسك» وتنزهن على ظهور الحمير وليس هذا ما يعيب الناس في مصر لأن كل تنقلاتهم بها. وكان لعلى بك الجرجاوى أربعين ألف حمار، فكان يشتري لها غللاً بعشرات البارات، وهذا عنه في مصر مشهور.

كما أن لأمير الحاج رضوان بك أربعين ألف جمل، والآن لا يمر في مصر جمال ولا حمير تحمل الماء، وفي مصر اثنا عشر عيداً في العام وسوف نتحدث عنها في موضعها، وفي هذه الأيام لا يمكن المرور في الأسواق لازدحامها بالناس والحمارة والجمالة.

الفصل الثامن عشر

بيان قوانين السلطان سليم

فيما يتعلق بجند الفرق السبع ورواتبهم

عندما فتح مصر سليم تشرف ثلاثة آلاف وثلاثمائة جندي من جنود العزب بتغدير وجوههم بتراب فيرسه وصاروا عبيداً له، ودعى سليم الله لهؤلاء الجند بالخير، وجعل لهم ما كان لهم في السابق من رواتب ومأكولات ومشروبات. لأنهم أول جيش إسلامي يأتي إلى مصر مع عمرو ابن العاص من قبل الخليفة عمر، وكانوا مطيعين على مر الزمان.

أما متفرقة مصر فيبلغ عددهم ألفين وسبعمائة وخمسة وأربعين جندي يأتي بعد ذلك جاويشية مصر، وهم ألف وأربعمائة وتسعة وأربعون، أما عدد الجنود المعروفين بالتوفنكجيان بمعنى حملة البنادق ألف وثمانية وثمانون ثم الكوكليان أي المطوعة وعددهم ألف وثلاثمائة وخمسة وستون ثم عسكر المستحفظات وعددهم سبعة آلاف وستمائة وثمانية وأربعون، وهم ينقسمون إلى مائة وثمانٍ وثلاثين فرقة أخرى. على حين أن جند المتفرقة والمستحفظات يشكلون فرقة واحدة من هذه الفرق السبع، وهم مائة رجل.

ثم من بعدهم فرقة الطوبجية أي المدفعية وهم عشر رجال (١) ولجند العزب فرق يتألف كل منها مائة رجل ثم فرقة خزانة القلعة وهم مائة، ثم فرقة جند الملازمين وعدد أفرادها (٢) أما فرقة متقاعدي القلعة فعدد هذه الفرقة مائتان. أما فرقة جبه جيان مصر فعددهم (٣)، ثم فرقة الفشنكيان وهم (٤) أما فرقة المهتر أي الموسيقات العسكرية فهم خمسون ويتقاضون المرتبات كالانكشارية وهم مقيدون في دفاترهم. أما جند الجراكسة في مصر فعددهم ألف وتسعمائة وفي ميناء السويس عدد جند العزب مائة وخمسة وستون. وبناء على قانون السلطان سليم يكون قد تشكل في مصر جيشاً قوامه عشرون أو خمسة وعشرون ألف جندي ونحن

(١ : ٤) بياض في الاصل.

نسجل ذلك بناء على ما نشاهده في يومنا. أما السلطان سليم فقد أمر وزيره إبراهيم باشا أن يجعل كتخدا الجند في مصر والسنجق بك رئيساً للانكشارية، وأقام أربع وأربعين حجرة للانكشارية، وهذه الحجرات لا زالت إلى اليوم في القلعة التي شيدها يوسف صلاح الدين بجوار سيدي الشيخ ساري بالقلعة. إلا أن بعضها مهجور وبنى أغواتها إدارة أخرى. وهي غاية في الأهمية والجمال.

إنها رئاسة عظيمة لها الآن مائة من الأتباع. وفي الديوان السلطاني يرتدى جميع البكوات وكل رؤساء الفرق العسكرية السبع الخلع الفاخرة ولهم مكانهم في الديوان، ويجلس جميع الأغوات على الأرض، ولكن لهم منزلة ووقار، ويتلو رئيس الانكشارية الكتخدا ولا مكان له في الديوان أصلاً، وهم في إدارتهم يعملون، وعلى رؤوسهم العمامة المعروفة بالقلاوى وفي قدمهم خُفٌ أحمر، وعليهم فرو السّمور وعباءات من الحرير وهم يلبسون هذا قانوناً والحكم من بعد لرؤساء جاویشتهم. وكذلك قد يلبسون عباءة وقفطاناً من الحرير وعلى رؤوسهم العمامة المعروفة بالقلاوى وحذاء أحمر وخف أحمر وكانهم من قبل الباشا أغا المحضر وهم تحت رئاسة موظف بيت المال، وهو يلبس القفطان والعمامة المسماة قلاوى، ولكن جاویشة الوسط والجاویشة الصغار وجاویشة الموكب والصره وأمين الصره جميعاً يَتمنَطُقُون بالمناطق وعمامة مثل القلاوى وخف أحمر. إلا أنهم لا يحملون سكيناً وإذا أصبح موظفاً في بيت المال خلع ثوبه الأسود ولبس قفطاناً من الجوخ. وإذا ما دخل مصر مصر أو عزل عنها وغادرها معزراً أو خرج مع أمير الحج والمحل فإن الانكشارية وجميع جند مصر على السواء يشكلون موكباً منقطع النظير تعظيماً للباشا وحُجَّاجه عند سفرهم.

الفصل التاسع عشر^(١)

ذكر موكب عسكر مصر

عند قدوم الباشا للمرة الأولى إلى مصر يخرج أهلها لاستقباله تعظيماً له وترحيباً به، ويصطفون أمام إدارة العادلية، وفي البداية يرسل الباشا جنوده إلى المدينة ويلزم كل بيته ويلبسون أحسن ثيابهم ويواجهون الموكب، ويقوم الصوباشى مع ثلاثمائة من الحراس وخمسون جلاداً بتمهيد الطريق من باب النصر وهم يفسحون الطريق وينظفونه حتى يعبروا.

ويمر الفرسان مع رجال بريد الباشا وفرسانه ثم يمر موكب الولاة والمطوعة حاملين أنواع الاعلام وعليهم ثياب من جلد النمر والفرو وتاج من فرو السمور، ويمر بعد ذلك موكب الجاشنكير^(٢) والكلاجان أى المسئولين عن المخازن معاً ويسيران جنباً إلى جنب وبعد ذلك يمر موسيقو الخيمة و (السراجين) ثم جنود المتفرقة حاملين أسلحتهم وعلى رؤوسهم الخفاف من عمائمهم وكل موكب يمر يحمل ما لديه من أسلحة، وبعد ذلك يتوقف مرور جند الباشا وبعد ذلك يمر موكب جاوشية مصر. والجميع يلبسون فرو السمور وعلى رؤوسهم العمامة المعروفة بالمجورة وفي أيديهم عمد من الفضة الخالصة وعلى خيولهم المطهمة والسروج الفضية والغدادة ويمرون وعلى رؤوس جيادهم الزينة ثم بعد ذلك يمر جنود المطوعة بعمائمهم المزركشة وفي أيديهم الاعلام الحمر ومعهم صبيانهم من حملة الصاجات ويقرعون الطبول أمام أغواتهم، ثم بعد ذلك حملة البنادق ويمرون، ثم موكب ()^(٣) وأفراده جميعاً يحملون كل أسلحتهم ويرتدون أفضل ثيابهم. وفي أيديهم اعلامهم يرفعونها. وحملة الصاجات على جيادهم وهم يقرعون طبولهم، ويأتى الدور على موكب جنود المتفرقة وهم فى فاخر ثيابهم ويتقدمهم عشرون أو ثلاثون ممن يلبسون الجبة ذات الفرو والجوشن^(٤) قارعين الطبول. ثم يمر أغوات الفرق متحازين. ثم يمر أغا الانكشارية مع رئيس العزب ثم يمر مرتدى الثياب الصوف

(١) هكذا فى الأصل.

(٢) الجاشنكير: فرقة من الجنود مكلفون بمهمة مراقبة جودة الطعام.

(٣) بياض فى الأصل.

(٤) الجوشن: الدرع.

السوداء متحازين ثم يمر موكب بكوات الشراكسة متحازين مثنى مثنى وقد لبسوا ثيابهم الفاخرة وعليهم فرو السمور وخلع المخمل. غير أنهم لا طبول لهم. ويمر موكب بكوات أمراء اللواء وهؤلاء كذلك يلبسون فاخر ثيابهم وأمامهم فرقة الموسيقى العسكرية وخلفهم أغوات الداخل عازفين الموسيقى العسكرية ويمرون مثنى مثنى.

ويعد ذلك موكب مشاة العزب ويمرون رافعين أعلامهم وهم غزاة مسلحون بالبنادق يلبسون جلد النمر وعلى قلائسهم طُرّة مزدانة بالجواهر. ورؤسائهم القدامى يلبسون حول طرايشهم عمامة. ثم يمضي موكب الجاويشية وسطهم ويتمنطقون بالأحزمة وسود الثياب. ورؤساء هؤلاء الأفراد من السباهية. ويمر أغا الانكشارية أو كتخدا الجاويشية ورؤساء كتبتهم ورؤساء جاويشيتهم متحازين. ومن عهد عمر وهم اثنتان وسبعون فرقة. وكلهم ثمانية عشر من الجورباجية يسمونهم الرؤساء وهم اثنتان وسبعون إدارة في السكنات ولكل إدارة رئيس على حدة. إلا أنهم ليسوا عزابًا ويحاربون وإدارتهم بالأقدمية وكلهم متزوجون ورؤساء الجاويشية وجاويشية الموكب والجاويشية المتوسطون وصغار الجاويشية والذين يسرون بجانب طبول الأغا والكتخدا جميعهم كجاويشية الانكشارية يلبسون (جبة سوداء) وعمامة تسمى (بريشاني) ولا يركبون في مرورهم. ثم يمر جميع الجورباجية يمتطون صهوة الجياد ويلبسون فراجة مثل المسئول عن بيت المال ولا يلبسون (جبة سوداء). ولكن ليس لديهم طبول ولا فرقة موسيقى عسكرية. لكن مائة رجل يذكرون عمر ويرفعون الابطهالات المحمدية قائلين: الله الله، لأنهم جند (طيون) وعددهم ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة عشر جندي من حَمَلَة البنادق ومقامهم داخل إدارة العزب وهو مقام عمر الفاروق. وهو عبارة عن اثنين وسبعين بيتاً غرفها تطل على قره ميدان. وهم يرفعون أصول الأدب في مرورهم ويظهرون أعلام الانكشارية. ويأتى الدور على موكب مشاة المستحفظان ويمضون مثنى مثنى ومعهم البنادق ثم ثم حملة الطبول و(ثم الدلاء) ثم يمر رؤسائهم وكلهم يحملون السلاح ويلبسون (جبة من الجوخ الأحمر) ويمضون أربعين أربعين أو خمسين خمسين ويمضون بينادقهم وعلى رؤسهم اللباد ويلبسون جلد النمر وفي أقدامهم الخف اليمنى الأحمر. وفي وسط موكبهم ستة من الجاويشية على رؤسهم عُرْفية من اللباد ويرتدون (جبة سوداء) ومن يمهّد طريقهم ثم شيوخ بلحاهم التى نالها الشيب ويمضون مرتدين جلد النمر وعلى رؤسهم عُرْفية من

اللباد. ويمر رؤساء مائة وثمان وثلاثين فرقة وغيرهم من شيوخهم ثم جميع المشاة لابسين جلد النمر والفان تروسهم مذهبة.

يقولون إنهم مائة وثمانية وثلاثون جوراباجيا. وهم أكثر من مائتين. ويمرون عشرة أو خمسة عشر يحملون أسلحتهم ويركبون صهوة جيادهم متحازين. كما يمر سبعون أو ثمانون من جند الكتخدا ورؤساء الجاوشية والمتقاعدین من رؤساء الفرق على جيادهم وخلفهم أربعون أو خمسون من خدامهم. إلا أن هؤلاء لا يرتدون السراويل المصرية الخاصة بالسباهية والمتفرقة والجاوشية وهذه الطائفة من الانكشارية تمر بلا موسيقى عسكرية ولا طبول. ويمضون وهم يبتهلون ويلوحون. ويمر الكتخدا ورئيس الانكشارية وإمام الفرقة وسائر كتبتهم متحازين.

وهذه طائفة عسكرية عظيمة العدد. عدد أفرادها سبعة آلاف ومائتان وثمانية وثلاثون. وليس في جيش آل عثمان طائفة تشبههم في الزينة. كما أن رؤساء فرقهم ليسوا عزابا، وجميعهم مترفون ومن شارك منهم في كثير من المعارك وتقدم به العمر وكان لديه الاستعداد فينضم إلى لابسى الـ (الجنة السوداء) ويصبح كتخدا وإذا ما مر عام وهو في هذا المنصب يتحصل له ألف كيس من المال وبمجرد أن يفرغوا من موكبهم يأتى الدور على موكب ملازمى الانكشارية وهم من الانكشارية إلا أنهم يلبسون على رؤسهم عُرْفية من اللباد ويجعلون (الطوغ) في وسطهم. وعندما يمر موكبهم كموكب الصولاق الذين يسرون بجانب فرس السلطان ويتقدمهم اطواغ الباشا وبوابوه ورئيس فرقهم وستون أو سبعون من طائفة اللوند* المسلحين ويسرون جنباً إلى جنب إلى جانب (رئيس المنازل)** ورئيس المؤذنين، ثم يمر رؤساء البوابين مثنى مثنى مع خمسة عشر أو عشرين من الغلمان فى أبهى ثيابهم. ثم كتخدا البوابين الأمير آخور^(١) مع تسعة ممن يسوقون الجياد وهم فى أبهى زينة وكل منهم على فرس وعلى رأسه العمامة المجوزة. ويمر ملازمو الانكشارية على الجانبين ثم رئيس التراجمة ورئيس المتفرقة متحازين. ويمر بعدهم كتخدا الجاوشية والروزنامجى، ثم يمر حراس الباشا فى ثيابهم المزركشة، ثم يمضى الباشا وعلى قبائه فرو السمر وله السراويل المخملية وعلى وسطه المنطقة الذهبية التى يتدلّى منها سيفه المكفت

* اللوند : عساكر البحرية العثمانية. ** قناجى باشي: المسئول عن تهينة المنازل أثناء السفر.

(١) أمير آخور: مسئول الحظيرة السلطانية.

بالذهب، وعلى رأسه ريشتان مشعبتان وهو على فرس فاره وعلى جانبيه من يحملون البنادق ومن يسقون القافلة، وخلفه من يحملون على رؤسهم حمر القلائس من المسلحين والخدم. وبعدهم يمر كتخدا الباشا والخزينة دار وعشرون من صفوة أغوات الداخل ومائتان أو ثلاثمائة من أغوات الداخل وهم يحملون السلاح ومائة ممن يحملون البنادق وأعضاء فرقة الموسيقى العسكرية. وبعد ذلك يمر أمام الباشا ورئيس الديوان مع أتباعه. ثم يمر من يحملون علم النسي ^{عليه السلام} الأخضر ومن يحملون الأعلام الحمر ورجال فرق الموسيقى العسكرية بطبقاتهم التسع، وكذلك فراشو وسقاؤو وأغوات الداخل. وجميع هؤلاء الجند مع موكب الباشا يطلقون مائتى طلقة من مدافعهم، وتعزف الموسيقى العسكرية ويعم السرور. ثم ينال الجند منحة الموكب من الباشا وقدرها خمسة أكياس. ثم يمد سباط عظيم وبعد تناول الطعام يرفع من الطاعمين الدعاء ويعقد الديوان السلطاني طبقاً لقانون السلطان سليم خان. ويتلى الأمر السلطاني وتنفذ أوامره في هذا الديوان. وإذا ما كان في مصر حاكم له إدارة خاصة فيأتي من الأستانة جاويش الانكشارية ويصبح أغا. وجميع موظفي الباب العالي لهم المراكز في بيت المال، ووفقوا في الأخذ على يد المجرمين. وحضورهم إلى الموكب أو الديوان ليس قانون، وإذا مست الحاجة استحضروا إلى الديوان. أما إذا رغب وزير مصر وقال ينبغي للموكب أن يخرج. ويجب عليه أن يحضر الديوان وبذلك اشتهر (قبر قولي) في مصر. وثمة حاكم آخر هو الصوباشي أي رئيس الشرطة وهو يستطيع أن يأمر بالقتل إذا حصل على أمر مطلق من السلطان. وبذلك يستتب النظام. وفي إحدى إدارات هذا الصوباشي رئيس عسس انكشارية مصر ينوب عنه في أداء مهمته.

وفضلاً عما ذكر من الشراكة وحاملى البنادق والجند المطوعة والجاوشية وكل من يرتدون السراويل الحمر عبيد. ويستطيعون إنجاز مهامهم الصعبة. وفضلاً عن هؤلاء فهناك انكشارية أهل مصر وعزب (١) وهم يلبسون ثياباً من الجوخ وقباء يسمى حوراني وعلى رؤسهم عمامة ويتمنطقون بمنطقة مختومة، ويحملون مدينة كردية،

(١) بياض بالأصل.

ويعلقون فى خواصرهم بسكين كبيرة. ولهؤلاء الانكشارية والعزب منزلة مرموقة فى مصر. وكثير من أغوات السباهية والمتفرقة ينضمون إليهم ويصبحون انكشارية وعزب على نحو ما رأيت.

أما محافظ القلعة فى مصر وجند الأبراج وأفراد فرق الموسيقى العسكرية والمتقاعدون لا يستطيعون أن يرحوا أماكنهم ويخرجون إلى الموكب. ففى القلعة آلاف مؤلفة من أكياس المال السلطانية، وهم على الدوام يقومون بحراستها. أما رئيس البارودجية فله مصنع كذلك فى ميدان القصر ويحرسون خزانة البارود التى نصفها فى القلعة الداخلية ونصفها الآخر فى القصر. ولأنهم محبسون على الدوام لهم رواتب سخية.

وأعضاء فرقة الموسيقى العسكرية لا يستطيعون الخروج إلى جهة أخرى. فبعد العشاء تعزف فرقة الموسيقى العسكرية مقطوعة لا يستطيع أحد أن يعزف مثلها. ولأن كل رئيس من رؤساء فرق الموسيقى العسكرية ملحق بخدمة وزير فإنه يبقى عنده ولكل منهم مرتب جزيل. وهم على الدوام صيفًا وشتاء حتى طلوع الفجر بساعتين يعزفون دون أن يشعر بهم من حولهم. وهم بنغمة العشاق يجرحون قلوب العشاق. إلا أنها حكمة عجيبة فهم يتفقون مع مؤذنى مصر ولهم معهم ساعات. فبعد أن يرفع آلاف من مؤذنى الجوامع فى مصر الأذان ويكون الفراغ من أداء صلاة الصبح تبدأ جوقة الموسيقى العسكرية فى العزف. وكان ذلك دأب لهم على الدوام وهو ظاهرة عجيبة.

بيان بجملته رواتب ما سلف ذكرهم من طوائف الجند

وما يتقاضونه كل شهر أو كل ثلاثة أشهر

يقضى قانون السلطان سليم بأن يكون فى كل شهر مرتب يتقاضاه فرق المتفرقة والجوايشية وحملة البنادق والجند المطوعة والشراسة والأيتام والجوالى. ورواتب فى كل ثلاثة أشهر لطوائف الانكشارية والعزب والقائمين على مخازن السلاح وسائقى المركبات وفرق الموسيقى العسكرية.

وعلى النحو التالي نبين مقدار ما يتقاضونه بالاقبحة أو أكياس المال فى كل عام:

أولاً: فرقة المتفرقة وعدد أفرادها ٢٧٤٥ وراتبهم اليومي ٤٤٦٢٦ باره يخرجون منها ٧٦-٧٨٩٨ باره، ومعنى هذه الإخراجات أن بعضهم يخرج لحراسة الكشافين والقلاع ويتقاضون راتباً على ذلك وإخراجاتهم وبقيتها ٧٧٠٥٤٤١ وما يستحقونه سنوياً يختلف الفارق بينه فقط ٣٠٨ كيساً وكسورها ٥٤٤١ والفارق ١٩٢٥٣٥ باره وهذا الفارق هو أنه حين إعطاء المرتب تخصم باره واحدة على كل أربعين باره، ويضاف هذا إلى المقيّد فى الخزّانة. والمقيّدون فى دفتر الجاويشية عددهم ١٤٤٩ وراتبهم اليومي ٢٥٠٥٥ وإخراجاتهم ٤٤٢٤٧٢٠ والباقي لهم ٤٢٢٦٥٥٨ و ١٧٣ كيساً والكسور ١٥٥٧ والتفاوت ١٠٨١٦٢.

وجند التوفنكجيان أى حملة البنادق عددهم ١٠٨٧ ويتقاضون فى اليوم ٩٧٠٩ وإخراجاتهم ١٧١٨٤٨٨ وبقيتهم ١٦٧٦٦٦٥، و ٢٧ كيساً والكسور ١٦٦٥ والتفاوت ٤١٨٣٣.

وجند الكوكليان أى المطوعة عددهم ١٣٦٥ ويتقاضون فى اليوم ١٢٥٧٥ معها إخراجات قدرها ٢٢٢٥٧٧٢ والبقية ٢١٧١٤٨٧ و ٨٦ كيساً والتفاوت ٥٤٢٨٥.

أما دفتر جند الشراكة فالأفراد عددهم ١٠٩٠ يتقاضون فى اليوم ١٣٨٤٨ وفى السنة ١٧٥٩٤٦٤ والبقية ١٧١٦٥٥١ و ٢٨ كيساً والكسور ١٦٥٥١ والتفاوت ٤٢٩١٣. دفتر العزب القدماء وعددهم ٣٢١٢ ويتقاضون فى اليوم ١٣٨٤٨ معه إخراجات قدرها ٣٤٥٠٨٣٦ والبقية ٢٣٩١٠٦١ و ٩٥ كيساً والكسور ١٦٠٦١ والتفاوت (١) (١).

أما دفتر عزب السويس فعددهم ١٢٥ ويتقاضون فى اليوم ٢٦٧ وفى السنة ٤٧٤٢٦ والبقية ٤٦٢٨٠ كيساً والكسور ٢١٢٨٠ والتفاوت ١١٥٦.

ثم دفتر المستحفظان وعددهم ٧٣٣٨ ويوميتهم ٦٣٧١٦ ويتقاضون فى اليوم ١١٢٧٨ والبقية ١١٠٠٢٧٩ و ٤٤٠ كسًا والكسور ٢٧٩٠ والتفاوت ٢٧٥٠٦٩ باره . ومجموع طوائف المستحفظان ١٣٨ . كما أن لهم فرقة من المتفرقة خاصة بهم تتكون من ٧ بلوكات وعدد أفرادها مائة وعدد أفراد فرقة مدفعية القلعة ٥٠٠ وطائفة جند المركبات الفرقة الواحدة منها ١٠٠٠ وفرقة جند خزانة القلعة ٢٠٠ وفرقة متقاعدى القلعة ٢٥ ، ورجال فرقة الموسيقى بالقلعة الداخلية ٦٠ ، أفراد فرقة جبه جيان (١) . ومرتبات هؤلاء المستحفظان ومن يتبعهم يحصلون عليها . وإجمالى المرتبات السنوية السالف ذكرها والتي يتقاضاها جند الإسلام من الفرق السبع ١٢٤٠ وكسورها ٢٢١٦٧ باره والسلام .

(١) يياض فى الاصل .

الفصل العشرون

ذكر قاضى مصر وحكم حكومته وعوائد الفوائد

وجميع محاكمه والقضاة فى أقاليم مصر

عندما فتح السلطان سليم الأول مصر كان كمال باشا أحمد افندى يشغل منصب قاضى عسكر الروملى، فأنعم عليه بمولوية^(١) مصر، وأمر بأن تكون إمارة مصر للغزالى جان بردى وكمال باشا زاده وأصدر بذلك مرسوماً، وجاء فيه أن قاضى مصر يتقاضى مائتى كيس عدلاً وإنصافاً. وكان يكفيه مائة من الخدم. وتولى مهام الحكم.

وكان فى الديوان أربعة فقهاء للمذاهب الأربعة، وكان لهم مسجلون ومقيدون وشهود ومحضرون، كما كان لهم مائة من الخدام وكانت إحدى فرق الانكشارية مع الجورابجية يعينون للقيام بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، وهذه الفرقة من الانكشارية تسمى (الملازم)، وكانوا جميعاً يلبسون قباء وقلنسوة مزركشة.

وكان هناك رئيس المترجمين وأمين السجلات. وهناك قبة أخرى من الحجر تراكت تحتها السجلات الشرعية منذ عهد الخليفة عمر - رضى الله عنه -، وأصبحت وكأنها الجبال، وهذه السجلات تحت تصرف أمين السجلات ومعهم كتخدا الذى كان يد الرشوة.

كما كان يوجد نائب الإدارة ونائب المدينة. وكذلك رجل محنك من رؤساء بوابى الباب العالى يشغل منصب رئيس المحضرين وتحت رياسته ثلاثمائة محضر، ويتقاضى فى العام خمسة أكياس. وفى حالة انعقاد الديوان السلطانى خمسة أيام فى الأسبوع يرتدى هذا المحضر الرئيس قلنسوة مزركشة، ويرتدى الكتخدا افندى على رأسه قلنسوة البريشان وأمامهم المحضرون وجميعهم من حملة العصى. ويمر الانكشارية مثنى مثنى وعلى رؤوسهم القلائس المزركشة. ويمر القاضى وعلى رأسه كذلك العمامة التى تعرف (بالعرفى) وعلى جانبيه خدم الانكشارية والذى يعرف الواحد منهم باسم المستول عن التسوق، وعشرون أو ثلاثون من صرّاجى المشاة، وأحياناً يمرون ومعهم أكياس الديوان الحمر. وعلى هذا النظام يصلون إلى الديوان وعلى هذا النسق يتنقى عن

(١) مولوية: واحدة من الرتب الخاصة بالعلماء.

القاضى اختصاصه بإقليم دون الآخر - ويطلقون على القاضى فى مصر لقب قاضى عسكر افندى، لأن فى بداية فتح مصر كان كمال باشا زاده يشغل منصب قاضى العسكر، ولذلك فمنذ ذلك الوقت يسمون القاضى قاضى العسكر، وهو يقيم فى قصر شامخ وهو القصر الذى أقامه السلطان معز الدين القاهر المغربى الفاطمى قديماً. وفى ديوان القاضى يوجد قسّام عسكر القاضى وهو معين من قبل قاضى عسكر الأناضول فى الاستانة وتحرر جميع تركات جنده بإذن منه. ويأخذ منها ()^(١) ويسجل الباشا هذه التركات. ويحضر إلى جانب الباشا فى ديوان مصر على الدوام نائب القاضى وشهوده ومحضره فى كل يوم وليلة لربما ظهر شيء بعد العشاء يكون الحكم فيه للشريعة ولذلك يحضر نائب الديوان.

وللقاضى فى مصر أربع وعشرون محكمة، فى كل واحدة منها نائب للترك وقضاة المذاهب الأربعة، وهذه المحاكم هى: محكمة باب النصر، ومحكمة باب الخرق^(٢)، ومحكمة المشهد الحسينى، ومحكمة باب ()^(٣)، والمحكمة القيسونية ومحكمة ميدان الروملى الجديدة، والمحكمة الطولونية ومحكمة باب الشرعية، ومحكمة درب الجماميز، ومحكمة سويقة الدالين القديمة، ومحكمة باب الحديد ومحكمة مصر العتيقة، ومحكمة جامع الصالحية ومحكمة باب الحديد، ومحكمة خارج السور، ومحكمة بولاق، ومحكمة قضاء شرق اتفيه وجملة القول إنها أربع وعشرون محكمة وتصل محصولاتها إلى الموظفين أسبوعاً بأسبوع.

وهناك نائب آخر يتجول مع المحتسب فى الأسواق. إلا أنه تحت الرقابة. وهم لا يستطيعون تطبيق التسعيرة السلطانية؛ لأنهم جميعاً تحت الحماية وفى أقاليم مصر يوجد كذلك نواب النواحي ويوجد نيابات مثل بلدة شبرا والبساتين وقايتباى.

ذكر الأقضية التابعة للقاضى فى مصر

أولاً قضاء الغربية: أى المحكمة العليا وهى أولى المحاكم الست. وتحصل هذه المحكمة على أربعين كيساً فى العام، وهو قضاء معمور وأكثر من مرة تأنيهم منحة من

(١) بياض فى الأصل.

(٢) وهى ما يعرف الآن باسم باب الخلق. (٣) بياض فى الأصل.

المولوية قدرها خمسمائة أقة.

وبعد ذلك قضاء دمياط ويحصل ثلاثين كيساً. ثم قضاء مزاحمتين.

ثم قضاء رشيد ويحصل ثلاثين كيساً، وهو قضاء شريف.

وبعدها قضاء الإسكندرية: ولها أربعون كيساً.

ثم قضاء المنصورة ولها عشرون أو ثلاثون كيساً.

ثم قضاء منية التين: ولها كذلك خمسة وعشرون كيساً.

وهذه الأفضية تسمى الستة الأول وهي أعلى من غيرها، ثم يليها:

قضاء المنوفية، ثم قضاء البحرية، فقضاء البرلس، وبعدها قضاء فووة، وبعدها قضاء سنديون، ثم قضاء محلة أبى على، ثم قضاء ابيار، ثم قضاء النهارية، ثم قضاء محلة المرحوم، وقضاء بلبيس، وقضاء ميت غمر، ثم قضاء زفته، وقضاء الشرقية، وقضاء الشيخ سلمون، وقضاء الخانكة، وقضاء الجيزة التي تولى القضاء فيها شيخ الإسلام بولوى مصطفى افندى، وقضاء الفيوم، وقضاء بنى سيف، وقضاء ترمين، وقضاء بهنسا، وقضاء فيشنا، وقضاء ملوى، وقضاء منفوط، وقضاء أسبوط، وقضاء أبى تيج، وقضاء نحتة، وقضاء أقطعه، وقضاء أشمونين، وقضاء صنبوط التي كان يرأس القضاء فيها شيوخ الساداتية، وقضاء الجزيرة، وقضاء سوهاج، وقضاء المنشية، وقضاء الواحات، وقضاء جرجا، وقضاء فرشوط، وقضاء شرق بويت، وقضاء إسناء. ولا وجود لأفضية أخرى على الجانب الغربى للنيل وكلها قرى الأقاليم، وهي تمتد إلى بلاد السودان.

وعلى الجانب الشرقى للنيل أفضية أسمانى صاى وتقع على حدود مصر، وقضاء إبريم، وقضاء أسوان، وقضاء قوص، وقضاء قنا، وقضاء فو، وقضاء شرق احميم، وقضاء السويس.

وبذا يكون عدد الأفضية فى أقاليم مصر ستة وسبعين قضاء. وثمة بضعة أفضية، إلا أنهم ليسوا بالمشاهير ويسمونهم «المضافات» وهؤلاء القضاء جميعاً يعينهم قاضى عسكر الأناضول من قبل السلطان فى الاستانة، وقضاء إدارات مصر قضاء آخرون، وليس

لاقضية الأناضول سيطرة عليهم. إلا أن قضاة مصر ممن تولوا القضاء فى المحاكم الست العليا مثل الغربية ودمياط ورشيد واسكندرية والمنصورة بمنحون منصب المولية فى الأناضول والروملى وذلك بناء على قانون السلطان سليم. وتتهى مناصبهم فى مصر إلا أنهم شبكة عظيمة. وفى قانون مصر القديم كان يوجد شيوخ للإسلام على المذاهب الأربعة. وفى زماننا بما أن بولوى مصطفى افندى لم يصدر الفتوى بقتل قائد جزيرة كريت غارى دلى حسين باشا ويقدمها إلى كوبرلى محمد باشا نفى إلى مصر فمنح قضاء الجيزة على أن ذلك معاش يتقاضاه، وكان شيخ الإسلام الحنفى. ولكن لم يكن أحد فى حاجة إلى فتواه، لأن أصحاب الحاجة كانوا يمضون إلى الأزهر. وإذا ما أعطى أحد العلماء «منقرين» أو ثلاثة استصدر منه الفتوى حسبما يريد، ثم يأتى خصمه ويستصدر هو الآخر لنفسه فتوى بقول ضعيف ويكون الحكم لإثنين، ثم يتم الصلح والصلح سيد الأحكام ولا يحكم بأن الحق لأحد الطرفين، ويضطر الطرفان إلى الصلح.

وخلاصة القول أن فى مصر إحقاق الحق ليس له من وجود، لأن أحد الطرفين يلج طويلاً أو يكون محمياً فيكون الحكم له بغير حق وفى مصر علماء لهم عشرون ألف فتوى، وفيها كثير من المسائل والمشاكل.

ومن فى حاجة لمعرفة مصر وهى من البلاد العجيبة والغريبة فليرجع إلى علماء مصر وفضلاتها الذين يعرفون شتى العجائب والغرائب. وحكماؤها منقطعوا النظير وهم أذكاء ألباء بطبعهم. وصبيانهم لهم فكر وقاد، ومنهم سبع وخمسون ألفاً يحفظون القرآن الكريم وجميعهم يتلون القرآن الكريم فى الحوانيت وعلى مفترق الطرق وعلى أبواب معظم الحمامات وميدان الروملى. ومنهم عريان يحفظون القرآن الكريم وكلهم مائة وأربعة وسبعون ألفاً من العلماء والقضاة والمعلمين.

وعلم التفسير والحديث خاص بمصر، وفيها أكثر من عشرة آلاف إمام وخطيب وعشرة آلاف من كبار المشايخ. وفى أروقة الجامع الأزهر اثنا عشر ألفاً من كبار العلماء.

ذكر ما يدرس في مدينة مصر من علوم

جاء في الحديث الشريف أن: «العلم علمان الأول علم الأبدان والثاني علم الأديان» فالعلوم هي علم الطب وعلم الفرائض وعلم التفسير، وعلم الفقه، وعلم الحديث، وعلم التفسير، وعلم التجويد، وعلم التوحيد، والعلم اللدني، وعلم البيان، وعلم الكلام، وعلم الكمال، وعلم الصرف، وعلم النحو، وعلم المنطق واللغة، والعروض، والخط، والنجوم، والجفر، والكاف، والكف، وعلم القاف، وعلم السيماء والكيمياء، والهيئة، والحكمة، والزيج، وعلم دانيال، وعلم القول والقال، وجر الاثقال، وعلم الرمل، والوقف، وعلم الأسماء، وعلم التسخير، والدعوة، والفلسفة، وعلم الادوار، وعلم الزيرجه، وعلم الاضطراب، وعلم الحروف، والنارنجات، وعلم طي المكان، وعلم الإخفاء، وعلم التعبير، وعلم الفراسة، ولكن لا وجود لعلم الأدب.

بيان توزيع الخزائن السابق ذكرها التي تصرف على جميع جنود مصر وغيرهم من العلماء والدعاة الصالحين، وكذا خزائن مصر الأخرى التي تبذل

على غير ذلك من المصروفات، وجميع الإيرادات التي

يجمعها الكتخدا إبراهيم باشا

للخزينة بموجب الخط الشريف، وصورة الدفتر الهمايوني

المجمل الذي يودع خزنة القلعة

كان سبب تحرير هذا الكتاب، والتسطير صحيح النصاب، هو تحرير وبيان تلك المسائل جليلة الشأن، وهي أنه في الحضور العالي لحضرة مدبر أمور الجمهور، باعث الوقار بسند لطفه، ومجلى كل قانون خفي، مشيد بنيان العدل، هادم أساس الظلم والفساد، حافظ معالم الإسلام، ناصر ضعاف الأيام، معين الرعايا، باسط العدالة، حامى حجاب الدين والدولة، ماحى آثار الظلم والبدعة، الوزير المكرم والدستور المحترم صاحب السعادة والدولة إبراهيم باشا، وفقه الله تعالى لما يرضاه ويشاء، عقد في حضوره مجلس الشرع الشريف، شامخ العماد المحمدي، وطرح المحفل المنيف، رايح الأوباد الأحمدي، ملجأ ظلال الرايات السلطانية، ومرتقى أرائك الإمارات الخاقانية،

ومن الأمراء المصريين، أوزبك بك أمير الحاج ومقدم ركب الحجيج والبيت العتيق، ومحمد بك النوه لى مقدم جيش الأمراء، وحسن بك وقانصوه بك ومصطفى بك ويوسف بك هم من شغلوا منصب الدفتر دارية سابقا، ومن حكام إيالة جرجا السابقين؛ محمد بك وعلى بك ومحمد بك الجندى وعبد الله بك وعمر بك، ومن أغواث الفرق السبع محمد أغا رئيس الكوكلليه، ومصطفى أغا رئيس الجراكسة، ومصطفى أغا.

رئيس المستحفظان، وجعفر أغا رئيس العزب، وسليمان أغا كتخدا الجاوشية خدام الديوان المصرى المحصلين، ومصطفى أغا ترجمان الديوان العالى، ومحمد أغا رئيس المتفرقة، وجعفر أغا رئيس الجبجية وكتخداوات البلوكات السبعة ورؤساء جاوشياتها، ومن أرباب الأقالام المصرية إيواز بك دفتردار الخزينة المصرية، وعبد الرحمن أفندى الرونامجى، وأحمد أفندى نائبه الأول، وعلى أفندى نائبه الثانى، والمحاسب يوسف أفندى، ومن نوابه مصطفى أفندى وصالح أفندى، ومحمد أفندى المسئول عن مقاطعة الشرقية، ونوابه على أفندى ومحمد أفندى، وعن مقاطعة الغربية حسن أفندى ونائبه أحمد أفندى وإبراهيم أفندى، وعن مقاطعة المدينة محمد أفندى، ونائبه شعبان أفندى ومحمد أفندى، والمسئول عن مقاطعة إيراد الغلال مرتضى أفندى ونائبه مصطفى أفندى ومحمد أفندى، وعن مقاطعة مصرف الغلال رضوان أفندى، ونائبه فضلى أفندى وعثمان أفندى، وكاتب الجاوشية () أفندى، وكاتب المتفرقة () أفندى، وكاتب الحوالة () أفندى، وكاتب الانكشارية () أفندى، وكاتب العزب () أفندى، وكاتب الكوكلليه () أفندى، وكاتب التفنكجية () أفندى، وكاتب سباهية اليمين واليسار () أفندى، وكاتب الجبجية رجب أفندى، وكاتب الأيتام إبراهيم أفندى، وعثمان أفندى الملقب كاتب الأرزاق، وكاتب الإنكشارية سليمان أفندى الصغير، خلاصة القول إنه فى حضور جميع أرباب الديوان صغارا وكبارا، وسائر الأعيان، عندما عرض على هذا الوزير المكرم بتولى أمر إيالة مصر نادرة العصر من قبل السلطان وظل الله فى أرضه إجمال المدون والمصون والمصحح من الإيراد والمصرف

السوى على الوجه المضبوط والمحفوظ بمفرداته فى الدفاتر والتى هى عبارة عن الحصيلة الداخلية رلى الخزينة من قلم الروزنامة والمحاسبة وسائر المقاطعات ومن خراج الزراضى وسائر الأقلام المتفرقة، عندما أشرق على ديوان مصر العالى فى أسعد الساعات والاقوات، تبين أن عدم كفاية الأموال المحصلة لتفقات الإدارة المصرية، ناشئ عن الاضطرايات فى زمن الوزراء السابقين، إلى تاريخ تصدر ديوان مصر العالى، لذا كانت النفقات السنوية تزيد على الإيرادات، مما أدى إلى نقص الأموال المقرر إرسالها إلى الآستانة، بمقدار أربعمائة وأربعين كيسا وسبعة عشر ألفا ومائة وثلاثون بارة فى كل عام، عن المبلغ المقرر ومقداره ألفا ومائتى كيس مصرى. كذلك نقص الذخائر السلطانية وغيرها من اللوازم الضرورية المعتاد إرسالها إلى خزائن القصور العامرة فى الآستانة، مقدار واحد وأربعين كيسا وثلاثة وعشرين ألفا ومائة وخمسا وثلاثين بارة، بحيث لزم لإتمام الخزينة كل سنة مبلغ أربعمائة وأربعة وثمانين كيسا مصرىا وخمسة آلاف ومائتين وثمان وثمانين بارة.

لذا عمد الوزير المذكور (اسبح الله تعالى نعمه عليه) إلى إعمال صائب الفكر وضبط الاراضى المحلولة والتى خلت من أربابها فى زمانه الآمن، وجمع الأموال الضائعة، فلما غطت الأموال المتحصلة بالمصاريف اللازمة فى زمنه السعيد، أرسل الباقي بموجب الدفاتر التى تم تحريرها مجددا فى الأقلام بالتفاصيل إلى الآستانة السعيدة، مشفوعا بتخليص عن أحوال البلد فصارت موضع نظر القبول السلطاني والالتفات الهمايوني لحضرة السلطان ظل الله، كما أن الدفتر والتى رفعت إلى العتبة السنية، جاءت مفرونة بالخط الشريف الهمايوني، وجاء مضمونها المقرون بالسعادة على النحو التالى «فليكن معلوما لديك ياوزيرنا أبو الخير إبراهيم باشا فى محافظة مصر نادرة العصر التى هى باب الحرمين الشريفين حينما يبلغك خطنا الشريف أنه قد ورد إلى عتبتنا السنية دفتر خزينة مصر وكتابها الخاص، فالفينا الإيرادات والمصروفات قد نظمت وفقا لصلاح الدين والدولة ونظام أحوال المملكة بشكل لائق ومناسب، إذ تم تصحيح ماكان يبدو فيها حتى تلك اللحظة من خلل، وقد ألقينا نظرنا الهمايوني على الكشف الإجمالية

والتخليصات، وقد حازت قبولنا المملوكى، أطال الله فى عمرك ومتعك بسعادة الدارين، وحلال عليك نعمنا السلطانية، وإذا قد عرضت على عتبتا السنية، فإن الأمر يتطلب تنبيهاتنا الهمايونية فى بعض المواد، التى ضمنهاها رسالة التنبيه السلطانية التى ذكرها، وتنص على أنه اعتبارا من اليوم، لايجوز البدء بمنح مخصصات سنوية وموجب أو بدل علق أو فدادين محلولة من خزينة مصر المحروسة، مهما كانت قليلة، وإذا ورد أمر صادر من بابنا الهمايوني بمنحها، فينبغى عدم قيده فى السجل المخصص لذلك ويعرض على أعتابنا مع توضيح مخالفته للقانون.

وعند عزل وال من ولاية مصر، فيجب على أمير اللواء المعين فى منصب قائمقام من قبل والى الجديد، ودفتردار المال والروزنامجى والمقاطعة جى وسائر الكتاب الذين لهم صلة بشئون الخزينة وخدماتها أن يبادروا بحاسبة ذلك والى المعزول بموجب السجلات على وجه الحق والعدل وألا يتدخل فى ذلك من لادخل لهم فى هذه القضية ولا علاقة لهم بشئون الخزينة.

ولايجوز إعطاء المحلولات التى تحدث فى أثناء تولى القائمقام نيابة عن والى، لاحد من الطالبين، ويجب حفظ الطلبات المقدمة من قبل إدارة الأيتام بإشغال تلك المحلولات وتوقيعها حتى يحضر والى الجديد. ولايؤجل مال الإيراد السنوى بالترك والإهمال بل يعجل بتحصيله بدون تأخير أو إهمال. إن كان هناك ما يقتضى التنزيل من الإيراد من مقاطعة أو قرية عاطلة - سواء أكانت قرية مال أو قرية غلال، فلإن الباقى بعد التنزيل يبقى فى الخزانة ولاتنقص بعد ذلك من الإيرادات حبة ولا أقجه، ما لم يوجد مايقتضى ذلك أو يوجه.

يجب على والى مصر ومعه الدفتردار والروزنامجى ومدير الحسابات، فتح دفاتر حسابات الخزينة وأنبار يوسف فى شهر توت من كل عام إخراج ما يخص الخزينة من الاجمالات الواردة بأمرى الهمايوني، والقيام بمراجعة إيرادات الخزينة ومصاريفها وإعادتها إلى أماكنها إن وجدت الإيرادات متعادلة مع النفقات، وإكمال والى ما فى الإيرادات من النقص بما يحصل من المال من المحلولات، ثم قيده بمعرفة الدفتردار فى

السجلات كى يعلم ما بالخزانة من نقص وزيادة، ثم تسليم ذلك الإجمال إلى البك، أمين إرسالية مصر لتوصيله الآستانة وتسليمه إلينا مع الخزانة.

ينبغى أن تنفذ المواد المبنية على وجهه المشروح، وأن يعمل حكام الإيالة المصرية ومحكوموها بما فى أمرنا الصادر فى هذا الباب من الاحكام.

وأنت أيها الوزير، عليك أن تقوم بتنفيذ المواد المذكورة على هذا المنوال فى عهد حكومتك، وأن تتجنب العمل على خلاف ذلك مباشرة أو بالواسطة، ولأجل أن يكون هذا الفرمان دستور العمل مدى الدهر عليك بحفظه فى حصن خزينة مصر وإبقائه فيه. وذلك إخراج كل سنة فى أول توت وإمعان النظر فيه عند عمل الإجمال من الحسابات، وفحص الإيرادات والمصاريف، حتى يمكن رفع الخلافات التى تكون قد ارتكبت فى أثناء السنة، حسب النصائح والتشبيهاة الهمايونية الواردة فى فرماننا الهمايونى هذا. وحيث أنه قد صار فرماننا الشريف الجارى بقضائنا السلطاني وأمرنا العالى الواجب الاتباع بتنفيذ كل ذلك بالدقة والاهتمام حسب ما سبق شرحه، حتى إذا طبق ما يحصله أرباب الأقالام من الاموال إلى ما دون من المفردات فى دفاتر الخزينة التى وضعت حديثا تبين أن بالأراضى الخراجية للقرى التابعة لقلم الشرقية ١٠٨٤ كيسا مصريا و١٢٣٩٤ بارة ومن الزراضى الخراجية للقرى التابعة لقلم الغربية ١٠٥٧ كيسا و٧٠٥٧ بارة. ومن الأراضى والقرى الخراجية التابعة لقلم الروزنامية ١٦٧ كيسا و ٩٥٣١ بارة، ومن الأراضى والقرى الخراجية التابعة لقلم مقاطعة إيراد الغلال ٢٦ كيسا و ١٧٧٢٠ بارة.

وخلاصة الكلام أن حاصلات أقلام مصر السبعة والسبعين الناتجة من الرسوم المفروضة على كل ما يطير فى السماء أو يسبح فى الماء أو يمشى على الأرض كلها أمانة، حيث تنطق دفاتر الروزنامجى بأن النفقات تبلغ ٢٦٥٢ كيسا مصريا و٥٠٤٣ بارة، ومن هذا المبلغ ٥٦٤ كيسا و ١٠٠٠٠ بارة من الكشوفية الكبيرة، و٥٤٧ كيسا و ٩٠٦٥ بارة من مقطوعية الشجر، و ١٠٠ كيس و ٥٥٤٨ بارة من أموال متفرقة متحصلة من قلم المحاسبة، و ٤٠ كيسا من المال يقدمه والى مصر مقطوعا كل عام لتكملة الخزينة المطلوبة عن قرى الحلوان المحلولة، و ٢٢ كيسا و ١٥٠٧٠ بارة أموال متحصلة من القرى التى

أوقفها الملكة شجرة الدر على كسوة الكعبة الشريفة، و ٥٥ كيسة و ١٢٥٠٠ بارة سنويا من المال الناتج عن خصم بارة من كل ٤١ بارة، المعتاد خصمها منذ القدم من عموم مصاريف ديوان مصر باسم التفاوت. وعندما بلغ مجموع الأموال التي يجرى تحصيلها في زمانكم الشريف أيها الوزير المكرم اعتبارا من أول توت إلى آخره، من أراضي الخراج والكشوفيات وقرى الحلوان وعدد سبع من الموائى وسائر المقاطعات والأموال المستفرقة وغيرها من الأقالام المذكورة ٣٩٨١ كيسة و ٢٤٨٤٤ بارة، كانت المصاريف عن سنة كاملة اعتبارا من توت إلى آخره وهى المصاريف السنوية للأمراء المصرية وموجب العساكر المنصورة وغيرها ٢١٤٢ كيسة و ٧٩٤ بارة، وبلغت المواجهات وأموال الحرمين الشريفين ٣٤٧ كيسة و ١٧٩٢٥ بارة. ومخرجات الإرسالية إلى العتبة العلية ٩٧ كيسة مال و ١٠٥٦٥ بارة، والمصروف السنوى فى ديوان مصر المحروسة المسمى باسم مخرجات المقاطعات السائر ١٧ كيسة و ٢٣٧٤ بارة سنويا، وعدد ٦٣ كيسة و ٥٧٢٨ بارة تسلم إلى كشاف الولايات لصيانة الجسور السلطانية ومهماتى وتجريف الترع فى ولاية مصر، والفدادين التى تصرف التى تصرف حسب ما كان معتادا قديما على الزوايا والأضرحة فى مصر، وعلى العلماء العظام والمشايخ الكرام، وعلماء ثغر الإسكندرية، وكذا مال مراعى الأمراء المصريين والجنود المنصورين وأموال جميع العلماء مبلغا قدره ١٨١ كيسة و ٥٠٠ بارة فى العام.

وبما أن أثمان ما يلزم شراؤه من الأشياء للجنود القائمين على خدمة الحجاج والكسوة وغيرهم ممن يرأسون الأعمال ويقومون بها حسب الوارد فى دفاتر الروزنامة، هو مبلغ ٣٣ كيسة و ٢٤٢٤ بارة، حيث يكون ذلك مع مجموع رواتب العلماء والأمراء وأثمان الخلع، مبلغا قدره ٢٧٨١ كيسة و ٢٤٨٤٤ بارة. ولما كان ما يرسل إلى الخزانة العامة حسب المعتاد منذ عهد السلطان يبلغ ١٢٠٠ كيسة مصرية، فيكون المجموع الكلى ٣٩٨١ كيسة و ٢٤٨٤٤ بارة سنويا حسبما هو مقيد فى الدفاتر وبذلك صار الإيراد السنوى مساويا للمصروف السنوى.

ثم أن دفاتر الروزنامة والمقاطعات وأقالام المستفرقة تدل على أن الباشا الوزير حصل بفضل عنايته وسعيه من يوم توليه حتى تاريخ الكتاب، مبلغا للخزانة العامة قدره ٣٣ كيسة و ٢٠٠٠٠ بارة زيادة على المبلغ الذى أرسله إلى الأستانة.

وحينما عرض الباشا الوالى هذا الأمر على الحاضرين فى المجلس طالباً آراءهم فيه، أفادوا بما يأتى: إنه حسبما هو مقيد فى السجلات، يبلغ مجموع ما ورد إلى الديوان المصرى من المال مبلغاً قدره ٣٩٨١ كيساً و ٢٤٨٤٤ بارة فى العام، وأن المصاريف السنوية حسب ما ورد فى دفاتر الروزنامة وسائر الأقاليم، ومع ١٢٠٠ كيس من المال المعتاد إراسله إلى الأستانة يبلغ ٣٩٨١ كيساً و ٢٤٨٤٤ بارة، وعلى هذا يصير الإيراد السنوى معادلات للمصاريف السنوية.

وبعد اعتراف المذكورين وإقرارهم واقتراحه بالأمر الهاميونى الكريم، واتخاذ الدفاتر المذكورة دستوراً للعمل، بادر الدفتردار وسائر الموظفين إلى التعهد بأداء ما وقع من العجز والنقص من أموال الخزينة العامة، وسائر الإيرادات والمصروفات فى عهد القائمة، وقام الوزير المكرم الذى صار مظهرها لنص الآية الكريمة (قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم) بامثال الأمر السلطانى وإطاعة ظل الله فى أرضه حسب قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم). وبما أنك أيها الوزير عليم بأن طاعة أولى الأمر وامثال أوامر من يتولى أمور الدين والدولة، فرض وواجب، وأن مخالفة ذلك مخالفة للشرع، فعليك من الآن فصاعداً اجتناب التغيير والتبديل والتحريف والتأويل فى الأمور المذكورة، وإياك وعدم الانصياع لقبول فحوى الآية الكريم (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم)، فى شأن صرف المرتبات والإنعامات الممنوحة من الاعتبار السلطانية السامية لفقراء الحرمين الشريفين والمشايخ الكبار... أموال مصر المحروسة التى هى مطبخ زراق الالم ومنبع معاش بنى آدم مدى الدهور والأمان، فإن تلك الرواتب والمخصصات صدقة لاتنقطع.

وبموجب فرمان العالى والأمر السلطانى واتفاق آراء الوزير المكرم والأمراء الذين ورت أسماؤهم فى هذا الكتاب وسائر أمراء مصر المشهورين وأعيان الديوان وأغواته، قد أودعت دفتر إيرادات الأقالام المصرية ومصروفاتها مع هذا الكتاب برج الخزينة لكى تكون دستوراً صالحاً للعمل، يرجع رليه لدى الحاجة... (إلى أن قال باللغة العربية).

تحريرا فى اليوم الخامس من شهر شوال سنة ١٠٨٢ اثنين وثمانين وألف بعد الهجرة
الأحملىة عليه السلام.

صورة إمضاء مولى مصر أعنى حضرة أبو المال اسحق زادة أفندى الشهير . مافيه من
تكميل خزانة المال وختمها بخاتم التصديق من عدول الرجال . وقع عنه العبد المنكسر
البال ، الفقير إلى ربه ذى الجلال ، أبو الفلاح محمد الصالح بن اسحق القاضى بمصر
المحروسة دامت دار الامالى والامان ، عفى عنهما ربهما يوم الحساب والسؤال . تم هذا
المكتوب فى شهر شوال .

فى بيان لهجة المصريين الخاصة

من المعلوم أن لأعيان وأشراف مصر اصطلاحات وعبارات مختلفة . ولكن
أغلب أهل مصر من الشراكسة الهاشميين والابخاز القرشيين ، وقوم الصدشة
والجورجين والمكرل وداديان ، والاجقباش والروس ، وأقوام أخرى لممالك
مختلفة .

وشاء الله أن يأتى إلى مصر هؤلاء الذين سلف ذكرهم وتوافدوا عليها بعضهم إثر
بعض . وقد يبعوا فى مصر كما بيع يوسف الصديق . وكل منهم آل إلى أسرة حاكمة .
وتعلموا ، ومنهم من تبوا منزلة رفيعة وأصبح عزيز مصر . وبما أن مصر بلاد العرب ترك
كل منهم لهجته الخاصة وتكلم العربية . ولكن بما أن لغة الابخاز والشراكسة لغة صعبة
كانت لهم اصطلاحات وعبارات تمتزج فيها العربية والتركية ، ولكن عباراتهم
واصطلاحاتهم هذه لا تستخدم فى ديار أخرى ولكنها تستخدم بين أهل مصر ، لا
يستخدمها سواهم من أهل البلاد الأخرى . إنها اصطلاحات خاصة بأهل مصر وهذا
بيانها :

أولاً : (رغيف) بمعنى الخبز ، و(حدَّ الله) يعنى الله الواحد ، و (الله ستر ايده) بمعنى
حفظ الله ، (فطور ايده لم) بمعنى لتناول طعام الفطور ، و(بيورك غدوه ايده لم) بمعنى
لتنناول طعام الغذاء . و(عشوه ايده لم) بمعنى لتناول طعام العشاء ، و(أبرار اولدى)

بمعنى صعد الأذان في أول ليلة من ليالي رمضان. و(سلام أولدى) بمعنى أذن للفجر.
 و(نيل وفا ابتدى) بمعنى فاض النيل على ما يرام. و(نيل وفا ائدى) بمعنى لم يفيض
 النيل. (غشيم) بمعنى ناقص التجربة. و(دويدار) بمعنى نائب أحد رؤساء الشرطة
 و(وجندى) بمعنى سيد. و(سجان) بمعنى السجان، (موقع ديوان كاتبى عرفات) بمعنى
 عالم بقواعد الديوان، و(فراش) بمعنى كناس البيوت، و(ربال) بمعنى كناس الشوارع،
 و(حمار)، و(جمال) بمعناهما في العربية وكذلك (طباخ)، و(كاشف) بمعنى حاكم،
 و(والى) بمعنى رئيس الشرطة، و(حاجب) بمعنى بواب، و(قواس) بمعنى خادم يحمل
 القوس، و(مقدم) من يتقدم الحاكم في سيره، و(نايب غيه) من يرعى أمور الوافدين
 من الخارج، و(قلجدار) بمعنى من يحمل السيف ويمشى أمام الحكام، و(روشنبا) بمعنى
 رئيس النواب. وهى صحيحة لغة. و(ركابدار) بمعنى يركب جواد الحاكم ويسير فى
 ركابه ويخدم فى سباطه، (استدار) بمعنى من يذوق طعام السلطان. (حاصل باشى)
 بمعنى رئيس الطهارة، (حاصل) بمعنى مخزن الأطعمة. (مرشد) بمعنى حاكم القرية،
 (شيخ البلد) هو حاكم فلاحى القرية. (فلاح) بمعنى مزارع، (غفير) بمعنى حارس،
 (تخطير) بمعنى نثر البذور، (عاطل) بمعنى قرية لا محصول لها. (شراقى) بمعنى قرية
 أرضها يابسة لا تروى، (راى اولش) بمعنى قرية مروية. (كفردن فائض كلى) بمعنى
 ورد مال من القرية. (شومنه) بمعنى مخزن القمح (جرافا) هو الصندوق الذى تجره
 الثيران لجرف التراب. (نورج) هو نصال المحراث التى يدك بها القمح فى السيدر.
 (جورون) بمعنى بيدل القمح، (غلال) بمعنى القمح والشعير والبقول. (حنطة) بمعنى
 القمح. (رزقه يرى) الموضع الذى تلقى فيه البذور أى الحقل. (تمح) بمعناه فى العربية.
 (عليق) الوجبة من الشعير. (جرايه) بمعنى وجبة القمح. (فدان يرى) بمعنى الأرض ذات
 الكلا. (محتكر) بمعنى خازن السلع للغلاء يعنى القحط. (مُسبب) بمعنى مريح. (فود)
 ابتدى) بمعنى اتم وأخجز. (غلق ابتدى) بمعنى أغلق. (ارق خانه) بمعنى سجن المدنيين.
 (ديلم) السجن الخاص بقاضى العسكر (والى ديلمى) بمعنى سجن رئيس الشرطة.
 (شبال) بمعنى الحمال. (نشال يان) بمعنى من يقطع الجيوب للنشل. (نصّاب) بمعنى

محتال. (مَمْلُوك) بمعنى عبد. (مَمَالِيك) بمعنى حرس الحدود. (طواشى) بمعنى خادم القصر، (وكالة) بمعنى مكان مبيت الغرباء. (رَاب) بمعنى حجرات المتزوجين، (سَطُوح) بمعنى سطح المنازل. (مواليس) بمعنى المتافق. (خورده) بمعنى إدارة الرسومات أى الجمرك. (غَيَّالَه) بمعنى القيلولة أى النوم فى وقت الظهيرة. (كحك) تعنى الكعك. (بُقَصْمَاط) بمعنى البقسماط. (قَرَايش) بمعنى غريبة تصنع بالسمن. (مُطَبَّق) نوع من الرقاق يصنع بالسمن (بنى بهتيل ايتدى) بمعنى ضربى ضرباً مبرحاً. (بنى وتاه ايتدى) بمعنى جرحنى. (بن أووزميسم) بمعنى: أحتاج إليه. (يا حضرى) بمعنى يا مولاي السلطان. (يا نظرى) بمعنى يا عينى. (توت) بمعنى رأس السنة القبطية. (خماسين) بمعنى أيام القيظ الشديد فى مصر. (مُلاقه) ما بين قرية وأخرى. (لَمْلُوم) بمعنى العاصى الذى كون له أتباعاً. (بُوغ ايتدى) بمعنى سلخ جلد أحد، وحشاه تبنًا وأرسله إلى ديوان (شرانى اتدر) بمعنى جواد جموح. (بَطْرَان اتدر) بمعنى جواد كسلان أو بطىء (طرعه جرف ايتدى) بمعنى جرف التربة. (قمين) بمعنى هطول البرد. (عمال) بمعنى عمال. (بنا) بمعنى بناء. (غَرامه) بمعنى ما يدفع تغريماً أى غرامة، (شَرْمُوط) قطعة من شىء قديم. (ماى بالى) بمعنى هكذا الأمر فلا تحزن. (ما له أوطور دى) بمعنى تعهد أن يسد دينه، () (١) من رجل إلى رجل. (بَرْطِيل) بمعنى رشوة، (باشمزه شبكه اولدى) بمعنى بلاء لحق بنا. (استحالدرد) بمعنى كوفئ. (كلفه وردى) بمعنى عين النفقة.

أوصاف العلماء السادات الكرام نقباء الأشراف

إن السيد برهان الدين الرومى هو سيد نقباء الأشراف. إنه من العرق الطاهر لسيد برهان الدين فى مدينة «اكردر» بإقليم حميد. وكم لأجداده الكرام من معجزات وكرامات ظاهرة وباطنة. وقد سكن مصر سبعين عاماً وهو صاحب أسرة غاية فى الكرم. ورحالة العرب والفرس والترك، والذين قدموا من الهند والسند وسمرقند وبخارى كانوا ينزلون ضيوفاً على داره أو شرفوا بصحبته والتحدث إليه. وأصابوا من

(١) يياض فى الأصل.

نعمه، ونالوا من الإحسان والإنعام. وقرر لهم أنواعاً من الخرقه يلبسونها. وكان منهم من يقيمون في ضيافته العام والعامين دون أن يستقل منهم ضيافته. وكان على الدوام يردد هذا المصراع من الشعر: «تعال إلى دار أمك دون كلفة».

وكان في مجالسه على الدوام يبحث المسائل الشرعية والحقائق العلمية وكان له نواب عنه في سبعين جهة. أما إيراده الذي كان يصله من شهر إلى شهر فكان ينفقه صدقة على أنه مرتبة عدا قضاء الخانقاه فكان له. وكان له مدرستان وسبع نظارات. كما كان له قرى تدر محصولاً وفيراً. وكان تحت رياسته في مصر ستة وأربعون ألف من ذوى الحسب والنسب. وفي أيام الموكب كان يخرج لاستقبال الباشا هو وأتباعه ويرفعون علم رسول الله ﷺ وتحتهم عمامتهم الخضراء وبذلك الطريق أشبه شىء بأرض مخضوضرة. ومن شعشة النور الحمدي كان هذا العلم يتموج. وكان جميع السادات يحيطون بجيادهم متحازين مراعين الأحكام المحمدية.

ولقد ذكرنا على وجه الإجمال طوائف جند مصر وعلماءها وأمناءها وإدارات الملتزمين والكشافين. ولكن سوف نتحدث عنهم في موضعه على وجه أفضل. سكن السلطان سليم عليه الرحمة والغفران مدينة مصر ودمياط ورشيد والإسكندرية تسعة أشهر بتمامها. وقد ذكرنا هذا آنفاً على ما ينبغي أن يكون. وتحدثنا عن الجند والعلماء والصلحاء وذلك طبق قانون السلطان سليم في كل تفاصيله. وقد ضيف العلماء وكبار أولياء الله وأحسن إليهم، وشرف بدعائهم له وسمح لهم بالسفر إلى بلاد الترك، كما زار أضرحة الأولياء. وأمر بختم القرآن الكريم مائة مرة في مشهد الإمام الحسين في يوم واحد. وكان يطلب المدد من أرواح جميع الأنبياء والأولياء.

بعد تسعة أشهر خرج السلطان سليم من مدينة مصر إلى العادلية في موكب عظيم وأولم وليمة عظيمة لجملة أعيان مصر في الديوان، وجعل كمال باشا زاده على يمينه والوزير المكرم خيرة بك باشا على يساره وأمر أن يقبل كل منهم الآخر، ثم قال: «لقد جعلتكم أخوين في الدنيا والآخرة، وجعلتكم حاكمين على مصر وفوضت أمرها إلى الله. وملكتكم أنتم وأعيان مصر أمانة الله». وسلم كمال باشا زاده لأشراف وعلماء

مصر، وسلم خيرة بك لأعضاء الديوان وقرأ الفاتحة وفوض كل الأمور إلى خيرة بك. وفى شهر المحرم من عام ٩٣٣ غادر مصر إلى الأستانة. وكان خيرة بك على نية الخروج معه إلى غزة فقال له السلطان سليم: يا وزيرى خيرة بك إذا كنت ترى فى مصر خيراً فعد من العادلية. لمن تترك الديار المصرية التى فتحت حديثاً؟ افتح عينك ولطمه! فعاد خيرة بك. وفى الطريق الذى سلكه السلطان سليم إلى الشام فرش خيرة بك الحزير تحت قدميه مرحلة بعد مرحلة وبذل المطعوم والمشروب وقدم الهدايا. وفى الوقت الذى وصل فيه سليم خان إلى الأستانة أصبح خيرة بك يتولى الحكم.

ولقد فرق خيرة بك ما عين السلطان من محافظين وكذلك كل ما فى مدينة مصر من جند الروملى والأناضول. وحتى لا تقع الفتنة ومن صالح مصر حشد جند الإسلام فى قلعة قره ميدان وطوابق القلعة الداخلية السبعة. فعم الاستقرار والطمأنينة مصر. ولم يستطع أى شخص أن يتجاوز حده. وقد أقام خيرة بك العدل فى مصر وحكم بالحكمة والرأى الصواب. وتوثقت الألفة بينه وبين المصريين، وكانوا جميعاً يقولون: «الله ينصر السلطان خيرة بك». وحقيقة الأمر أنهم إذا سموا وزير مصر سلطاناً فلهذا وجهه وسببه ولكن شريطة أن يكون فعله عين قوله. وإذا ما عزل وزير مصر فى النهاية وخرج سالماً فهذا هو الملك بتمام معناه. وسوف نذكر شروط مغادرة العمل بسلام فى موضعه بإذن الله.

وأقام خيرة بك جامعاً عظيماً على الطريق العام عند باب الوزير. ولا يزال الآن قائماً يسترعى النظر بجماله. ولقد وُزِّرَ خمس سنين وشهرين، وأدركته الوفاة فى عهد السلطان سليمان. وهو مدفون أمام محراب جامعته. وطبقاً للقانون نظارة الجامع لوزير مصر. وفى مصر الآن يبنى جميع وزراء آل عثمان جوامعاً تحت نظارتهم. وسوف نتحدث عن جميع مبراتهم ومؤسساتهم الخيرية فى موضعه بإذن الله.

الفصل الحادى والعشرون

ذكر أول من بنى قلعة مصر المحروسة

وجميع من أقام المبرات وكل الأبنية العظيمة فيها

إن أوصاف مصر - عمرها الله - مدونة فى الآلاف من كتب التاريخ ولكنى أنا أوليا الرحالة قليل البضاعة وكثير السياحة دونتها فى اختصار. ففى هذه الدنيا الفانية كم من دول بقيت، ومصر قدر ضئيل منها. وأول من بناها هو نقراوش بن غرباب بن شيث بن آدم وبعد الطوفان أعاد بناءها سيدنا حام بن نوح وابنه يطر. وما بنى فى ذلك العصر هو مصر القديمة. وإن كانت مصر اسم جميع البلاد إلا أن اسم مصر أصبح علمًا لأن أحد بناتها نقراوش وقد سماه سيدنا آدم مصرايم ولذلك سميت مصر. أما اسمها الأول فى اللغة العبرية «مقدونيا»، وفى اللغة السريانية «افسوس»، وفى اليونانية «الفسطاط»، وفى اللغة القبطية تسمى «مصرايم»، واسمها بين الناس «أم الدنيا»، وفى اللغة العربية تسمى «القاهرة المعزية» لأن المعز لدين الله القاهر خرج من بلاد المغرب واستولى عليها عنوة قهرًا من أيدي الإخشيديين عام ٣٥٨. وكانت هذه المدينة فى الزمان الحالى عامرة وكان عمارها على شاطئ النيل بقدر مسيرة ثلاثة أيام. وقد اغتر فرعون بامتلاكه مصر وقال: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ {التارعات: ٢٤} حاشا وكلا. وقد حارب سيدنا موسى عند موضع من بحر السويس يسمى مضيق «قولوندر» وقد غرق هناك وقد عصفت ريح قهر ببلاده وعرشه فى مدينة منوف ولهذا سميت القاهرة. وجاء بعده كثير من الملوك والسلاطين وعقدوا العزم على تعميرها وأعادوا بناء عرش فرعون فى منوف وهى مدينة صغيرة فى حجم القصة.

وقد عمر الملك «طوطيس» وهو من أجداد الملك المقوقس مصر القديمة أى مدينة الفسطاط. ولما كانت فى حورة القبط تحالف اليونان والفرنجية فى عام ٢١ وأثناء فيضان النيل المبارك استطاعوا دخول مصر فى ألفى سفينة شرعية من مضيق رشيد ودمياط وأغاروا على مدينة المنصورة حتى وصلوا إلى مصر القديمة ناهيين ساليين واستولوا على

عدة مئات من خزائن مصر، وساقوا القبط جماعات جماعات من الأسرى وكانهم بحر وبسطوا سيطرتهم على مصر القديمة، وجعلوا مصر وقفًا على كنيسة آيا صوفيا، وأدى القبط الجزية للروم.

وفي الجانب الشرقى لمصر القديمة على بعد ساعة من جبل المقطم جبل الجوشى^(١) وجبل بجاييم وجبل تقاطع والجبل الشرقى وجبل المقطب^(٢) أى جبل قطب الاقطاب وجبل لوقان وجبل حجان. أما الناحية الأخرى من النيل فجبال الجبل الغربى وجبل جزام وجبال الهرمين. وبين هذه الجبال المذكورة إلى بلاد الفونج والبربر والنوبة فطرفا النيل ضيقان. وبعض أراضى النيل فى صعيد مصر واسعة وفيها تجرى مياهه التى تاتى من جبال القمر فى الجنوب.

وعندما يصب النيل فى البحر الأبيض عند الجهة الشمالية فى فرع رشيد وفرع دمياط توجد كثير من الصحارى الواسعة وبها جبال لا تحصى كثرة.

ولكن الجبال الواقعة فى شرق مصر ومنها جبل المقطم وجبال الجوشى يصدان عن مصر ريح الصبا. وهذا الجبل حينما تكون الشمس فى الافق يصد نورها عن مصر وبذلك تصبح مصر كأنها سرداب مظلم بعد طلوع الشمس بساعتين ولذلك أقام القبط فى هذين الجبلين مغارات سكنوها ثم بدأوا بعد ذلك فى تشييد مصر الحديثة ثم جاء إلى مصر ملوك الإسلام. وبعد عمرو بن العاص جاء بنو أمية وبنو العباس والفاطميون. وجملة القول أنه جاء إليها الملوك السالف ذكرهم ولم يرغبوا فى الإقامة فى مصر القديمة وقد عمروا جميعاً مصر.

أما أنا فقد أقيمت اثنين وثلاثين عاماً فى بلاد سبعة عشر من الملوك وطوفت فى جبالها وتلالها، وكانت المملكة الثامنة عشرة والثى قدمتها هى بلاد الكعبة الشريفة وهى مقصد الناس كافة، ولله الحمد فى عام ١٠٨٢ حججت وطوفت. ثم قدمت مصر وكانت الدولة التاسعة عشرة ولله الحمد فقد أصاب سهم رغبتى غرضه، ودخلت القاهرة وذات يوم أردت أن أغير الجو وأستروح فأمسكت على عنان اختيارى وامتنيت

(١) وهو ما يُعرف باسم جبل الجيوشى.
(٢) أى: جبل المقطم.

المطايا وشاهدت مصر القديمة التي تسمى القسطنطينية ومقدونيا ومصرام وأم الدنيا والقاهرة المعزية وهي شوق الملوك وكانت قصتها في الزمان الغابر حديث الأصدقاء وطبقت شهرة آثارها الآفاق.

حكاية مناسبة

وفي ذلك العصر سأل رحالة شخصاً قائلاً: يا أخى من أى بلد أنت؟ فقال الرجل خفيف الظل له: أنا مصرى، فقال: من أى حى فى مصر؟ فرد قائلاً: أنا من حى بغداد، فقال السائل: أيها الظريف إن بين مصر وبغداد صحراء تمتد مسيرة ثلاثة أشهر. فقال الرجل إن ما ذكرته هو الدنيا بل إن مصر أم الدنيا. وإن ولايات بغداد والبصرة واليمن وعدن والصعيد وأسوان والسودان كل منها حى على أطراف مصر. حقاً إن ما قاله الرجل هراء.

فما يروى أن خليفة بغداد كان يستمع إلى تاريخ مصر وعندما علم أن فرعون مصر ادعى الربوبية فقال: إن فرعون الذى يحكم مصر وهى فى حجم البلدة ادعى الألوهية ترى ماذا كان سيدعى لو أنه ملك بغداد التى هى جنة فى الأرض وقال إن مصر تعد حياً من أحياء بغداد.

وبناء على تواريخ اليونان فإن مصر أول بلد على وجه الأرض تميز بالعمائر العظيمة والأخرى بغداد والصين وعراق الداديين. وهذه المدن الأربعة تشكل السواد الأعظم من العالم ولكن مصر لوقوعها فى وسط الدنيا كانت عظيمة العمران. والآن ليس لها من نظير على وجه الأرض. إلا أنه فى عام ٩١٢ فى عهد الشراكسة بسبب عصيان جنودهم وطفغانهم وتمردهم سمحوا لهم أن يتجاوزوا الحد فى ظلمهم وأن يخربوا عمائرهم وأسواقها فأصبحت مصر خرائب وتراب ورمال هنا وهناك. وأصبحت مصر القديمة مأوى للبوم والوطايط. وبمرور الأيام والقرون أصبحت المدينة كأنها شيخ فى السبعين. ولسان حالها يتحدث عنها وكانت على نقىض ذلك من قبل فى غابر الأزمنة. وعلى شاطئ النيل وعلى مجرى السيل مدينة القسطنطينية المسماة بمصر القديمة وكانت هناك قلعة عظيمة. وكانت مدينة هى نادرة الدهر وكما كان بها من خانات وحمامات تخربت

وانتقلت من يد إلى يد. وهى مدينة قديمة لها أخبار وحكايات لا تنتهى. وأراضيها فى خارجها وداخلها مكتظة بالغرائب والمجائب والطلاسم والكنوز والرموز وهى أحسن إقليم، وهى كثيرة الخيرات والقرى وحدودها الجنوبية تنتهى عند قلعة صاى بعد أسوان على مسيرة عشرين مرحلة وهى مشاع مع سلطان بلاد الفونج وتنتهى حدودها الشمالية بقلعة الإسكندرية على ساحل البحر. وتنتهى حدودها من ناحية القبلة عند الكعبة. ويحدها من الغرب اوجله وهكذا هى بلاد تقع فى إقليمين.

وفى أرض مصر هذه كنوز ودفائن عظيمة وخبايا كثيرة. ولقد جاء فى بعض الروايات أن موضع فيها لا يخلو من كنز خفى. ولأن مذهب أهل مصر أرضى فهم يدفنون كل أموالهم فى الأرض. وبما أنى مواطن والى مصر كتبخدا إبراهيم باشا، سكنت مع أغوات الباشا فى برج واقع فى مكان يسمى «مرتع السفلى» وخرجت من مسكنى فى السحر ووقعت فتنة وشغب أمام مبنى الجاوشية جرح فيها عدة خدام. وسالت عن سبب ذلك فقبل لى ربما عثروا هذه الليلة فى هذا المكان على كنز وبينما كانوا يحملون الكنز سقط منه ذهب كثير على الأرض. وتصادف مرور خدام التار (ناقلوا البريد)، والحمار ولم ينالوا نصيبهم من الكنز فكان ذلك سبب العراك الذى وقع بينهم. وبمجرد أن وصلت فماليكى كالذئب الجائعة جعلوا يبحثون بين الناس فوجدوا مائة وسبعين ديناراً من ذهب. وعدنا إلى مسكننا. ورأينا الكنز فى الصباح فوجدنا حفرة الكنز تتسع لخمسة رجال وكان الكنز كنزاً عظيماً. ومن الحق قولنا أن ليس فى مصر موضع يخلو من كنز. وهذا الكنز كان من الذهب الخالص. وكان كل دينار منه يزن ثلاثة مثاقيل وكتب فى طرف الديار الصلاة الشريفة وكلمة الشهادة. وفى أحد جوانبه كتب اسم الخليفة المأمون - عز نصره - ضرب فى مصر.

وفى الجانب الغربى لمصر بعد النيل جبال جالوت وفيها المنارات التى تقاتل فيها داود مع جالوت، وتسمى هذه الجبال كذلك جبل التقاطع وكذلك يسمونها جبل الجوشى. لأن الشيخ الجوشى مدفون فى مسجد فى ذروة ذلك الجبل. أما سبب تسميتها بجبل التقاطع أن هذه الجبال تقطع القلعة الداخلية لمصر من داخلها ولهذا سميت بجبل

التقاطع. وتسمى كذلك جبل بجاميم وكان يسكنه في الزمان الخالي قوم بجميم وهذا الجبل يمتد من مصر إلى طرفها الجنوبي على بعد مسيرة أربعين مرحلة من أسوان وتمتد سلسلة من الجبال بين جبال الأهرام وجبل المقطم ويمر من بين هذه الجبال نهر النيل.

إقامة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب شادى الكردى

قلعة مصر

فى عام ٥٧٢ كان يوسف صلاح الدين وزيراً للخليفة نور الدين الشهيد فى دمشق. ودخل الأسبان الملاعين مصر من مضيق دمياط فى وقت فيضان النيل بألف سفينة، واستولوا على المنصورة وبدأوا فى نهب وسلب جوانبها الأربعة. فتظلم خلفاء العباسيين من مصر نور الدين الشهيد فأمر نور الدين صلاح الدين يوسف على ثمانين ألف جندى ليدخل مصر ولما بلغ مصر أباد الكفار جميعاً. ولأنه انتصر فى المنصورة سميت المدينة بالمنصورة وكان اسمها قبل ذلك «ريحان» ثم خلص دمياط وقلعة «التينة» من المغيرين. ولما قدموا مدينة مصر ساملين غائمين كانت الثورة تعم مصر ولما كان صلاح الدين رجلاً مسعوداً مدبراً جعلوه خليفة عليهم. وسمع بذلك نور الدين فاستعدى صلاح الدين إلى دمشق فاختلف صلاح الدين مختلف المعازير فلم يمض إلى دمشق. ولم يضرب السكة ولم يذكر اسمه ولا اسم سيده فى دمشق فى الخطبة بل جعل الخطبة تتلى باسم العباسيين. وفى تلك المرة اشتد استياء نور الدين من صلاح الدين وهذا ما عرفه صلاح الدين ولشدة مخافته منه أقام قلعته الداخلية حول القاهرة فوق جبل المقطم، أحاط جوانب المدينة الأربعة بسور طوله تسعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة ذراع. وأنشأ مدرسة بالقرب من ضريح الإمام الشافعى. وحارب كفار الفرنجة ثانية فى مرج العيون وانتصر عليهم. وفى ذلك الوقت توفى نور الدين الشهيد فى دمشق فأغار عليها من مرج العيون واستولى على جميع خزائنها وكنوزها وضم دمشق إلى ملكه واستقل بمصر ملكاً عليها وانصرفت همته إلى تعمير مصر. حتى أصبحت مصر أم الدنيا كأنها عروس. وجاء بعد صلاح الدين سبعون ملكاً كذلك وكل منهم عمّر مصر وهى الآن شوق الملوك.

وأنا أجرى على مصر أوصافها بناء على علمى بها والله المستعان.

أولاً: وصف قلعة مصر الداخلية

تقع القلعة الداخلية لمصر فى الجهة الشمالية من أنف جبل المقطم وهى قلعة جميلة على ربوة منتصبة. ومن جبل الجوشى إلى القلعة موضع للمدافع وما بينهما واد من مائتى ذراع فيه حفر وأحجار. وجميع من ينحتون فى الولايات ينحتونها مثل فرهاد ويحفرون الخنادق. وبين القلعة وجبل الجوشى أرض كثيرة الحجارة وعند حصارها لا يمكن اختراق حواجزها. وهذه القلعة الداخلية قلعة شامخة تبعد عن الجانب الشرقى للنيل ألف وخمسمائة قدماً. (وجوانبها الأربعة شديدة الانحدار ذات صخور بيضاء) وباب جدارها ثقليل وبنائها يرتفع ثمانين ذراعاً. وهذه القلعة التى أقامها صلاح الدين هى حصنه الحصين وسده الثين تسمى «زَرَّ أَبَاد» أى منجم الذهب. ويرجع السبب فى تسميتها بهذا الاسم إلى أنه حينما شرع صلاح الدين فى حفر أساسها رَغِبَ إليه المنجمون أن يثر الذهب فى أساسها وأن يثر الذهب كذلك فى برجها.

وهذا ما ظهر لهم فى الطالع الميمون ولما نشروا الذهب فى أساسها عند بنائها سموها قلعة «زر اباد» بمعنى «منجم الذهب» وهذا ما ذكره جميع المؤرخين. لأن مصر منجم الذهب. ولقد بنيت القلعة على شكل مخمس بناء على ما أشار به علماء الفلك. ولأن الشكل المثلث لا يخلو من الفتنة والفساد لأنه يجلب النحس. لذلك بنيت القلعة على شكل مخمس ولكن العبد يدبر والله يقدر، وشاء الله أن يكون بناؤها على شكل مخمس ولكن طالعتها كان نحساً. فما سكنت فيها الحروب والفتن فى كل عام. ومن باب مطبخها إلى برج آغا الانكشارية (يوجد خندق كأنه بئر). وأساسها بتمامه قائم على الصخر. ويحيط بالقلعة اثنا عشر برجاً وهذه الأبراج هى البرج الشرقى والبرج الغربى وبرج الآغا وبرج الباب والبرج المسطح وبرج الفرنجة وبرج صلاح الدين وبرج المعمار، وهذه الأبراج بديعة الزينة والزخرفة وكل منها يتألف من ثلاثة طوابق ويتسع كل منها لألف رجل. وكل برج من هذه الأبراج حصن قائم بذاته يتألف من ثلاثة طوابق، وفى أحد هذه الطوابق حجرات الانكشارية عند باب الشيخ سارى. وعددها

أربع وأربعون حجرة ولا وجود لشيء آخر ولها باب يطل على الغرب. وحجم هذه القلعة ستمائة قدم وعدد أسوارها ألفان وستون ويتصل بها قلعة داخلية أخرى. ويتوسط هذه القلعة جامع الشيخ سارى ومسجد الشيخ وزاوية الجاوش وزاوية الكتخدا وإدارة الأغا ومخزن البارود خانة ودار الضرب والطوبخانه ومصنع المركبات وحمام القلعة وثمائمائة بيت صغير قديم وسبعون دكاناً. ولهذه القلعة ثلاثة أبواب إحداها فى الجانب الغربى. وهناك بابان من طبقتين من حديد بين برجى القلعة، وفى الوجه الداخلى لهذه الأبواب مدافع من حديد طول الواحد منها ثلاثون شبراً. وفى نهاية مصنع المركبات مدفع آخر. ويتصل بدار الضرب جدولان للماء وكل من فى القلعة فى حاجة إليهما. ولهذه القلعة باب يفضى إلى ميدان أغا الانكشارية ويطل على الناحية الغربية. ودويان جميع الانكشارية أمام هذا الباب، وله عتبة من القيشانى الصينى. وثمة باب آخر هو باب صلاح الدين وبينما كان يفتح فى الصباح كان يحضر جميع نوابه وبيت «المالجي» أى القائم على أمر بيت المال وجاوشيته الستة وجميع بوابيه وبعد دعائهم له يفتحون الباب، إنه يتألف من ثلاث طبقات من الحديد. وعند دخول القلعة بين هذين البابين على الجدار فى الجانب الأيمن، تواريخ الملوك السابقين على أربعة ألواح من الرخام والتاريخ فى أعلاها هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أمر بتجديد القلعة المباركة سيدنا ومولانا السلطان مالك الملك العادل صاحب الدنيا المصرية والبلاد النامية والقلاع السواحلية والأقطار الحجازية سلطان الأرض الحاكم طولها والعرض القائم بالسنة والفرض المجاهد المؤيد المنصور صاحب السيف والقلم والسد والعلم السلطان الملك العادل أبو النصر طومان باى عز نصره سنة ست وتسعمائة).

وعلى لوحة رخامية أخرى تاريخ قايتباى. وعلى لوحة أخرى من الرخام تاريخ برقوق الذى دون سنة خمسمائة وستين. إن هذه القلاع الثلاثة المنفصلة قلاع صلاح الدين.

ولكن فى عهد السلطان سليم وُزِّر أول ما وُزِّر خيرِه بك وكان ذلك عام ٩٢٣ وقد دام حكم خيرِه بك خمس سنون وشهرين واثنين وعشرين يوماً وتوفى فى عهد السلطان سليمان وأسندت الوزارة إلى «بلاق مصطفى باشا» ثم أسندت إلى أحمد باشا الخائن. ولما شغل السلطان سليمان بحرب المجر اغتتم أحمد باشا الفرصة وفكر فى الاستقلال بحكم مصر وحشد حوله جميع الشراكسة الذين نجوا من حرب السلطان سليم وشق عصى الطاعة وأعلن التمرد والعصيان. ولما غشى الخبر إلى السلطان سليمان بعث إليه بجيش فى البر والبحر كما أرسل الوزير الأعظم إبراهيم باشا «المقتول» فى ثلاثمائة من سفن الأسطول العثمانى. ولكن جرى قضاء الله بالألا يكون الحظ موافقاً فاشتد عصف الرياح فاضطر الوزير الأعظم إبراهيم باشا إلى الناحية البرية وحشد عتاده من جديد وعندما قدم مصر فى جيش عظيم أقام العدل فى الناس وأخذ على يد الظالمين. وعمت الثورة أعيان الديوان فى مصر وكذلك الأشراف وكبار الأعيان وقالوا: يكفيننا ما أصابنا من بلاء فى حرب السلطان سليم ولا يجب أن نحارب من أجل خيانة أحمد باشا هذا. نحن لا نريده. وقبضوا على أحمد باشا الخائن وصلبوه على باب زويلة وعاد الاستقرار والطمانينة إلى مصر.

أوصاف قلعة نازن والقلاع الأخرى

قدم إبراهيم باشا مصر وقد قال جلالى مصطفى جلى تاريخاً: هو وزير عادل عمر مصر، لكنه حكم سنة واحدة عام ٩٣١، وأقام قلعة إضافة إلى القلعة الداخلية. وهى الآن تسمى قلعة السلطان سليمان. والقلعة التى أقامها إبراهيم باشا تتوسط قلعة صلاح الدين وهى قلعة فخمة جميلة على شكل مربع، تزدهن بها المدينة وهى تضيف للقلعة المناعة ومحيطها ثمانمائة قدم. وهناك برجان يطلان على الناحية الغربية وبينهما باب حديدى من طبقتين وفى ركن منها بنى برج شامخ من عشرة طوابق يشبه برج «عَلَطَه» ولا يستطيع مهندس آخر أن يبنيه، وهذا البرج كثير الزخارف وفى أركانه مزاعل، وقبته عظيمة الارتفاع مكسوة بالرصاص الأزرق ولا وجود فى هذا البرج إلا لمال السلطان وكله تحت الأرض. وما يحصله الدفتردار من مال يضعه فى هذا البرج.

وخارج القلعة لا وجود إلا لسور محافظ القلعة والكتخدا والإمام والمؤذن وراوية ومخزن وصهاريج الماء ومقر محافظ القلعة من طائفة الانكشارية وهو فيها ليل نهار. وخارج خزانة البرج هذه بنى سور ركين للقلعة من طابق أمام جامع قلاوون. كما أقام على جانبيه برجين شامخين، وثمة برج عظيم هو برج المِهْتَرَخَانَة، وهو من عشرة طوابق، ويقيم بداخله جميع أفراد المِهْتَرَخَانَة، وثمة برج آخر يطل على قصر إبراهيم باشا، وهو يسمى باسمه وهو برج متين ركين وطوله ألفا قدم. وثمة برج آخر هو برج المخزن وهو كذلك مواجه للقصر. وبرج آخر سدس الشكل فوق بشر يوسف، وهو كذلك مواجه لقصر الباشا.

وجملة القول أنها سبعة أبراج قبابها مكسوة بالرصاص ولكل منها أربعون أو خمسون مدفعاً وكلها تطل على قصر الباشا حتى إذا أعلن أحد العصيان عليه أوردته مدافع القصر موارد الهلاك.

وبناء على هذا الإحصاء ينتهى الحديث عن القلاع المنفصلة ذات الثلاثة طوابق فى مصر.

ولقد حشد إبراهيم باشا فى هذه القلعة الداخلية ثمانية آلاف جندى انكشارى ورمم وأصلح حجراتها ودبر أمور مكة والمدينة وأحصى جميع أوقاف الله وأنفق المال السلطاني فى وجوهه وأسند وزارة مصر إلى «كوزلجَة قاسم باشا» ومضى إلى الأستانة. وكان بين باب الوزير والقلعتين مسافة أقام فيها «كوزلجَة قاسم باشا» سوراً وأنشأ باب قلعة ولذلك يسمون هذا الموضع «باب الوزير» وصنع باباً حديدياً يصعد ويهبط بمائة قدم ويسمى «دَمِر قَهْو» أى الباب الحديدى. وعلى اليمين باب قلعة منفصلة من طابق واحد، والصعود والنزول يكون من بين أسوار القلعتين... وثمة باب قلعة من طابقين من الحديد. يفضى هذا الباب إلى ميدان سوق القلعة. إنه ميدان واسع وتقف فى هذا الميدان خيول أعضاء السديوان. وفى جوانبه الأربعة دكاكين وفى هذا الموضع سور قلعة من طابق واحد. إنه سور مزين مزخرف وله باب حديدى متين من طبقتين ويسمونه «طوب اتان باشا قبوسى» أى باب الباشا الذى يطلق المدفع. وهناك سور قلعة متين يقع بين برج «المِهْتَرَخَانَة» وجامع قلاوون ومنه تطل جميع المدافع السلطانية على الميدان.

وثمة قلعة من طابق واحد بها مقر أغوات الباشا ولا يسكنه أحد سواهم ولهذه القلعة طريقان رئيسيان أحدهما فى ناحية «كسوه قبوسى» أى باب الكسوه والآخر عند ديوان قلاوون ولا طريق سواهما.

والقلعة ذات الطابقين لها أبواب حديدية كل منها من طبقتين عند عتبة العزب منها باب كبير يطل على «ميدان الروملى»* وجميع البوابين يقومون بالحراسة عليه. وما بين البابين مزين بالأسلحة والدروع.

ذكر قصر قره ميدان وطول وعرض قره ميدان

عندما كان خيريه بك وزيراً لمصر أحاط «قره ميدان» من جوانبه الأربعة بسور. . وأنشأ فيه حديقة خاصة بالباشوات ولكن فى قديم الأيام كان قصر «قره ميدان» خاصاً بالسلطان قايتباى وهو الآن بستان من الأزهار والأشجار والتخيل. وكان الباشوات فى كل مرة ينزلون به ويلعبون الجريد وهو ميدان طوله ثمانمائة قدم وفى نهايته حجرات مرشدى الباشا. ولهذه القلعة كذلك من جوانبها الأربعة أبواب حديدية، والسلام. وبذلك ينتهى الكلام جملة وتفصيلاً عن القلعة الداخلية. وعلى نحو ما أسلفت يكون للقلعة الداخلية بمصر ثلاث عشرة قلعة منفصلة. وعدد أبواب هذه القلاع المنفصلة تسعة عشر باباً والسلام.

ذكر تالاسم القلعة الداخلية

إن قلعة مصر الداخلية سامقة دروتها فى الأفلاك وفيها مكان مرتفع يسمى «مرتج المفلسين» وفيه برج عال يطل على مقر العزب. وقد سكنت هذه القلعة سبعة أعوام وكانت لى حجرة أعزل فيها وأرى منها الدنيا. وتمت كوتى كانت توجد سجادة عليها كتابة وفى وسط هذه الكتابة صورة لطائر بقدر قدمين، وقد بسط جناحيه وله رأسان. وفيما كانت حجرتى ترمم ذات مرة خرجت من النافذة وجلست على ألواح الخشب (السقالة) ورأيت تمثالاً من الرخام لطائر لا يستطيع مثال غير صانع التمثال أن يصنعه، وقيل إن تاريخ هذا التمثال يرجع إلى ألف عام. ومع ذلك فحجر التمثال ما زال أبيض اللون وقد لونه المثل فاضفى عليه جمالاً وكان التمثال ذو روح وله رأسان يلتفت

* يقصد ميدان الرملة.

أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب، وصورة هذا الطائر على عملة فضية بولندية. ولا فرق بين الصورتين إلا أن الصنعة هى السحر المين، وللطائر لسانان، فإذا عصفت ريح الشمال، خرج صوت حزين من لسانه فى رأسه الملتفت إلى الشرق وهذا صوت مخيف وهو صوت نسر. وإذا ما اشتد عصفها خرج من لسان الطائر الملتفت إلى الغرب صوت يثير الرعب وهو صوت اللقلق. أما اللسانان فى هذين الرأسين فأحدهما من النحاس والآخر من الصلب وقد نظرت فيهما وأمعنت النظر فوجدت أن طرف هذين اللسانين من الداخل يشبه السكين، فإذا عصفت الريح حركت اللسانين وكلا اللسانين يطلقان الصوت على هذا النحو فى الريح وفى غير ذلك من الرياح فصوته كصوت العقق والعقاب. وتحت كل جناح من جناحيه ثقب وإذا ما أدخل الإصبع فيه خرج صوت مخيف ويطن الطائر كبطن رجل بدين وكأن تحت ريشه ثقبًا يتسع لليد. وفيه ورق يحمل خائفاً يحمل صورة لجندب البحر. وإذا هبت رياح الشمال صدر منه صوت مهلك.

وبعض الأصدقاء سموا هذا الطائر «أوليا جليى الطائر الذى حط». إنه على الدوام طائر مطلسم عجيب يستحق المشاهدة وهو ظاهر للغادى والرائح من باب العزب وهو معروف لدى أهل مصر جميعاً. وعلى رأس هذا الطائر كتابة من ثلاثة أسطر ولم أر مثل هذا الخط فى بلد من البلاد إلا فى بلغراد عند نهر الطونة على حافة حوض متروك فى خندق قلعتها ويقرر علماء مصر أن مثل هذا الطائر له صغير خاص لا عهد لهم به فى طيور مصر. إنه ليس طائر اللقلق فى مصر ما فى ذلك شك وليس البومة ولا الصقصقان ولا غيرها. . ويا لها من حكمة عجيبة.

طلسم العقرب

وفى القلعة التى سلف ذكرها عقرب إلا أنها إذا لدغت أحداً لم يصبه أذى وبعد عدة ساعات يشفى من ألمه وهى طلسم ديوان السلطان قلاوون العتيق ويقع فى نهاية أربعة وأربعين عموداً ولعلها كانت فى أسوان فى الربع المسكون وهذا الطلسم طلسم هذه الأعمدة.

وهو فى عمود على طرف مقر التتار وفى نهايته طوق حديدى وفى هذا الطوق الحديدى صورة عقرب من النحاس وهى معلقة من ذيلها وواقفة وهى الآن ظاهرة.

طلسم الثعبان

وأمام هذا العمود الذى يحمل طلسم العقرب عمود آخر عليه صورة ثعبان وعلى هذا العمود كذلك سطران من طلسم. إنه طلسم ثعبان ولا وجود لطلسم الثعبان الموجود فى القلعة الداخلية الخربة فى مصر فى قلعة شاه ماران. لكنه لا يصيب أحداً بأذى بإذن الله - إنه حيوان مخيف.

طلسم الحية

وثمة عمود آخر فيه طلسم حية. وعليه كتابة مطلسمه من سطرين والآن لا أذى يصيب الإنسان من تلك الحية.

طلسم الحمى

حمداً لله فما كان فى تلك القلعة الداخلية فى أى زمان حمى الربع أو الحمى المحرقة. وإذا ما سكن هذه القلعة محموم من بلاد أخرى ثلاثة أيام شفى بإذن الله. وفى نهاية باب «وفقى حلواجى محمد أغا» عمود عليه كتابة مطلسمه من ثلاثة أسطر.

طلسم القوئنج

وهو مكتوب على عمود.

طلسم الطاعون

ينسبونه إلى ابن سينا. إنه رحمة داخل القلعة الداخلية لمصر وهو ليس خاصاً ببلد معين. فلا إصابة بالأمراض المختلفة مثل الإسهال وذات الجنب واللقوة والخراج. والطلاسم الموجودة الآن مستمرة المفعول والله الحمد. . والاعمدة سالفة الذكر لكل منها عالم مطلع على أسرارها. ففى العمود الأصفر للقلعة طلسم للعبد الأبق. وآخر للص الهارب وطلسم آخر يشل يد العبد الذى يغدر بسيده. وثمة طلسم فى عمود لكى لا تزنى المرأة. وطلسم يحمى مدينة مصر من الحريق والله الحمد فهذا الطلسم الأخير مستمر المفعول.

وطلسم على عمود به يهطل المطر أربع مرات في الشهر، وطلسم لتسلم عيون الصبيان من الرمد.

وجملة القول أن لهذه الطلاسم طلاسم أخرى كثيرة تشبهها على كل عمود ولكي يتعرف بعض الملاعين من المغاربة والهنود والمجوس الباحثين عن الكنوز على موضعها من تلك الطلاسم التي على الأعمدة يبحثون عنها ويجذبون بعض الأعمدة بالوهق ويطرحونها على الأرض ويحكون هذه الخطوط أو الطلاسم بملح البارود والزئبق ويطلقون مفعولها فلا تظهر الكنوز ولا مال الدفائن وينسحبون خاسرين وقد نزلت بهم المحن والشدائد.

والآن منذ ذلك الزمان والبراغيث والقمل والبقي يشوى أهل مصر اللهم عافنا ولا وجود في بلد قمل إلا في مصر، وأهلها يكتبون رسائل استغاثة من القمل من بلاد إلى بلاد حتى أنا نفسي كتبت إحدى هذه الرسائل.

طلسم الكلبين الكلبين

وفي مدينة مصر بين قنطرة الحسين وقنطرة الموسكى على الطريق الرئيسي حمام صغير يسمى «حمام الكلب». وفي أساس هذا الحمام قبة صغيرة بها تمثال لكلين من النحاس وهما ليل نهار يعض أحدهما الآخر. ولا يسمع في مدينة مصر أن فيها كلبًا كلبًا رآه أحد. ولذلك يعرف هذا الحمام بحمام الكلب وذلك مدون في تواريخ القبط.

أوصاف قصر وزراء مصر

هذه القلعة كذلك متصلة بالقلعة الداخلية إلا أن أبوابها تختلف ومفاتيحها في يد الباشا. ولقد أقام هذه القلعة والقصر يوسف صلاح الدين وكم من ملوك أضافوا إليها ملحقات فصارت قصرًا عاليًا كأنها قصر آل عثمان.

وأول أبواب الديوان باب «عَرْضَ حَاجِلِيلِر» أي متلقو الشكاوى ويدخل فيه بقدر خمسين قدمًا فنجد دكاكين الخياطين على الجانبين، وبعد باب السيل يدخل فيه بقدر خمسين قدمًا فنجد بايين وعلى الجانب الأيمن في الطريق الخاص بمحافظ المدينة باب صغير وعلى جانبه الأيسر الباب الكبير للديوان. وبعد خمسين قدمًا في ارتفاع

وانخفاض باب من طبقة واحدة بعده بعشرة أقدام باب آخر من طبقة واحدة وبعبور باب ذى طبقتين يكون الخروج إلى ميدان القصر وهو سهل واسع وهو ميدان محيطه ألف قدم وفى جوانب هذا الميدان الأربعة حجرات أغوات الباشا وجامع «دُهَيْشَة» فى هذا الميدان. وقصر رئيس الديوان وقصر «رئيس الذواقة» و«رئيس الخزنة» كل هذه القصور جميعاً تطل على هذا الميدان. كما أن ديوان قايتباى وديوان الغورى وقصر «المُقابَلَة جى افندى»* و«البارودخان» وقصر كَتَخْدَا البوابين والشطّار وحملة البنادق تطل على ميدان القصر هذا. . ويطل على هذا الميدان كذلك باب المطبخ المكشوف وبالدخول منه نواجه بقلة من طابق واحد هى مطبخ «كِيكَاوس» وبالمروء من الباب الكائن فى ميدان على قنطرة وتحت منارة يتم الوصول إلى قصر المُطَوَّعة وهذا الموضع قلعة أخرى قائمة بذاتها. أما المطبخ فهو قلعة حصينة ولها ثلاثة أبواب وقد فتح البوابون هذا المطبخ للسلطان سليم. وبما أن السلطان سليم ورجاله دخلوا من هذا الباب سُمى «باب السليمة».

ومنذ أربعين عاماً دفن أعرابى أعمى تحت هذا المطبخ وكان يقول: «سلطان سليم شوى شوى» وكان ذلك عام ٩٢٣ ولأبناؤه راتب من الدولة وطعام دائم من مطبخ القصر، حقاً إن هذا لتاريخ عجب ويقول البعض إن هذا التاريخ جَفَر.

ولكن باب سليم هذا لا يستعمل إلا إذا مر الباشا إلى هذا الجانب أو أن يموت أحد الأغوات أو إذا جد أمر سرى فإنه يفتح. . إنه باب عظيم متين من الحديد، وفى قلعة هذا المطبخ مائة وخمسون مقراً للطهارة وحمامات صغيرة خاصة وفى زواياهم أئمة مؤذنون. وما فى مطبخ الخليل هذا من النعم ما لم يشاهده بلد آخر. وجرياً على العادة يطبخ فى ثلاث قدور عظيمة ليل نهار الحساء وهو حساء العدس والأرز والقمح وتوزع على جميع الفقراء عدة آلاف علبة وقصعة من هذه النعم صباح مساء، إلا أن ذلك خاص بالفقراء وحدهم. وفى المطبخ مائتا موقد ويطهى عليها فى الأسبوع خمسة عشر ألف صحن. وهذه نعمة عظيمة تمنح فى ديوان الغورى للخواص والعوام ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾

* الموظف المشلول عن مطابقة المسودات والبيضات فى المحررات أى المراجع.

فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴿٦﴾ (مرد: ٦) وكأنها مصنع عظيم به مائة طاهى . وإذا شاهدها الإنسان أخذ منه العجب كل مأخذ . ويتصل بهذا المطبخ خارج ميدان القصر مدافع البارودخانه التي تجرها الجياد وعددها أربعون من مدافع الهاون . وهى تعمل ليل نهار . والبارود المصرى أشد من البارود الإنجليزي . وفى الركن القبلى من ميدان القصر مخبز عظيم وله خمسون خادماً ويصرف كل يوم عشرة آلاف رغيف تعييناً .

وثمة قلعة منفصلة أخرى ناحية محافظ المدينة فى ميدان القصر ، ولها ثلاثة أبواب وهذه الأبواب الثلاثة تحت السواقى . وثمة باب تحت مقر «الشُّطَار» وباب آخر تحت مقر محافظ المدينة . وهذه الأبواب الخمسة أبواب حديدية متينة ذات سلاسل . وبين هذه الأبواب مقر وكيل الخرج وكاتب المصروفات وعدة دكاكين للخياطين والخلالين والسراجين . وناحية مقر الكتخدا منازل متصلة ببعضها البعض إلا أن ليس بها أسوار كأسوار القلعة إلا أنها تقع على سور قلعة قصر الباشا وهى قصر شامخ ولها حمامات وأحواض وشاذروانات وحجرات من القيشانى وحجرات للحريم . ويطل على ميدان القصر القاعة ذات الخزف الخاصة بإسماعيل أغا كَتَّخْدَا جَانْ بُولَادْ زاده حسين باشا ولا نظير لنافورتها وحوضها .

أوصاف قصر وزير مصر

إنها دار للضيافة بقيت من عدة دول وهى مسكن لكل وزير بقدر ما يقدر له الله وكأنها هى عش للحمام . والقصر يقع على صخور منتصبة وهى أبنية مشيدة على سد عال متين يرتفع عن الأرض ، وكل حجر فى بنائها فى حجم الفيل ، وهذه الصخور أَمَرُ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وزيره قَرَأُوشُ بإحضارها من جبل الأهرام بالجيزة وقد بنى بهذه الأحجار قصر القلعة وقناطر الجيزة وكان ذلك عام (١١) (١) وبدلاً من أسوار قلعة القصر تقع طُنْفُ وَكَوَاتْ ومقصورات وقاعات وكل خاناته تطل على الإمام الشافعى وجبل الجوشى وهذا الموضع الذى يسمى «القرافة الكبرى» وهى مقبرة عظيمة .

ويتألف القصر من ثلاثمائة وستين حجرة متعددة مزخرفة وكل منها أثر لوزير أو ملك أو سلطان. وإذا ما وصفنا كلاً منها طال بنا الكلام. ويتوسط القصر ساحة واسعة وفيها يتدرب أغوات الداخل على التحطيب والفروسية والطعن بالحراوب والمبارزة والرمي بالسهم وإطلاق البنادق واستخدام التروس والحراوب. وعلى الجوانب الأربعة لهذه الساحة تقع حجرات أغوات الداخل وهي تتألف من طابقين أو ثلاثة. وكل كواتها تطل على الفناء. وتحت هذه الحجرات حظيرة خيل خاصة بالبasha ويقام في هذه الحظيرة أغوات الداخل من القائمين على رعاية خيل البasha وعددهم عشرون من أصحاب المراتب. ويقام في هذه الحجرات كذلك الخزينه دار والمهردار، وفي الداخل كذلك حجرة عرض البasha وهي بناء قديم. أما البناء الذى هو ذهب فى ذهب فللقايتباى ونوافذه تطل على الإمام الشافعى وحجرة الخزانة متصلة بحجرة العرض هذه وبالقرب منها قصران للكتخدا إبراهيم باشا وهما يطلان على ميدان أغوات الداخل وهذان القصران يعجز عنهما الوصف أركانهما الأربعة من البللور والزجاج المعروف بالموراثو وهما يشبهان قصر الخورنق، وقد أرخ هو الحقيق لهذا القصر الصغير، بهذا التاريخ: «قال أوليا تاريخه لهذا القصر، بلغ القصر المتيف تمامه سنة ١٠٨٣».

كما أرخ رسمى داعى قائلاً: عندما رآه رسمى داعى لقصرجها منها قال: «إن تاريخ الانتهاء من قصر إبراهيم باشا عام ١٠٨٣»، وكان رسمى داعى من أغوات الداخل وهو شخصية عظيمة غزير العلم صائب الرأى متبحراً فى العلوم والفنون.

ولما أنشأ سيدنا محمد بك بن إبراهيم باشا مقصورة صغيرة خاصة به لكى يتلو فيها الدوس، أرخت أن الحقيق لهذا قائلاً: «لقد أرخ أوليا لهذا القصر، أن ثم بناء. هذا القصر العالى سنة ١٠٨١. وفوق هذا القصر قصر غازى باشا المعروف باسم جهان غا وهو مظل على جميع بلاد مصر «أى ضواحي القاهرة».

وبالدخول فى حجرة العرض نواجه بقاعة عظيمة يتناول فيها أغوات الداخل طعامهم والجوانب الأربعة لهذه القاعة مزينة الجدران من أعلى إلى أسفل بالقيشانى. وفى أعلى عتبة الباب لوحة رخامية مكتوبة بخط جلى مذهب تحمل تاريخاً هو:

(قد بنى هذا المكان العالى جناب العظيم صاحب العز والأمثال سلطان سلاطين جهان حضرت سليمان خان عن سلاطين آل عثمان فى ولاية مصر القاهرة والانتظار

الحجازية محمد باشا بن أحمد باشا أدام الله إجلاله إلى وقع التاريخ البنيان هو خير المكان سنة ٩٢٢).

وداخل هذه القاعة أمر سيدى جان يولاد زاده حسين باشا بإنشاء قاعة مزينة على الطراز الرومى تطل على الحديقة الداخلية. ولا نظير لهذه القاعة فى مصر. ولقد كتب الشيخ أحمد المالكى لها طلسمًا فلا يدخلها ذبابة ولا بعوضة، ويتوسط هذه القاعة حوض لطيف بداخله شادروان. حقًا إنها موئل فى قصر مصر.

وخارجها قاعة بيرام باشا وهى قاعة عجيبة فى تصميمها وكتب تاريخها على بابها بخط التعليق وهو:

إن حضرة بيرام باشا هذا . . . زينة قصر الملك والدين

وفى مدة قصيرة صاحب الكرم هذا . . . أقام هذا القصر اللطيف منقطع النظر

اقرأ الفاتحة لإتمامه . . . ادخلوها بسلام آمين ١٠٣٧

وفى ظهر الباب الذى كتب عليه هذا التاريخ تاريخ هو:

قال أحد عبيده تاريخ جميل تعالى الله حبذا هذا الطاق المفرح سنة (١٠٣٧).

وتحت حجرة بيرام باشا، ميدان واسع وفيه يتدرب أغوات الداخل على استعمال السلاح، وبالدخول من هذا الميدان نواجه بقاعة السلطان قايتباى. إنها قبة عظيمة الارتفاع وكل كَوَاتها تطل على الإمام الشافعى، ودخلها حرم بداخله حجرات وحمام وشادروانات داخل هذا القصر حمامان علويان أحدهما خاص بالبasha وبه حوض جميل والآخر خاص بأغوات الداخل، ودكانا حلاق، ولاغوات الداخل رئيس للحلاقين.

وفى الجهة الداخلية من ميدان أغوات الداخل حديقة تمتلئ بالأزهار وفيها أشجار السرو والبنق والليمون والتارنج والسفرجل وأغصان عديدة من العنب على عروش وداخل هذه الحديقة الرائعة حوض عظيم للسلطان قايتباى يبلغ فى الطول مائة وخمسين قدمًا وعرضه ثمانون قدمًا. إنه حوض عظيم كأنه البحر الخضم. وعلى حافة هذا الحوض مقصورة صغيرة أنشأها إبراهيم باشا لستريح فيها. وكان يضع فى الحوض من يودهم ويشتر عليهم الدنانير.

وثمة حديقة أخرى تحت حجرة بيرام باشا وأصلها كان مزيلة فى ارتفاع المنارة ثم حوله إبراهيم باشا إلى حديقة كأنها بستان فى بلاد العجم أو إرم ذات العماد. ويبلغ طولها خمسمائة قدم وعرضها مائتا قدم وفى داخل هذه الحديقة مجلس تحت قمرية يتوسطها حوض عظيم. ومن هذا الحوض يتدفق الماء فى قناتين إلى حوض آخر وخيرير ماء الحوض يصيب الإنسان بالرهبة. ومن الفسوة يتصاعد الماء إلى ارتفاع منارة. وعنب هذه الحديقة ليس كمثله عنب فى مصر.

وكان تحت قصر آخر بناء إبراهيم باشا حديثاً موضع للقمامة تحول إلى حديقة، وكى لا يبقى أثر لهذه القمامة جمع كل من فى مصر من ربالين وحمارة وحمالة وعمال أجراء فحملوا منها مرتين فى أسبوع مائة ألف حمل جمل وحمار، وأقيم أمام هذا الموضع سد عظيم ومهد سهل وأمر سبعة آلاف وستمائة بستانى فى مصر بأن يزرع كل منهم شجرة، وفى ثلاثة أيام أنشأت روضة كأنها روضة مدينة أصفهان نصف الدنيا وإليها تدفقت المياه من الاحواض فأصبحت حديقة إرم ذات العماد تحيط بقصر مصر من جهاته الأربع. وتحت مخدع بيرام باشا سلم يخترق سور القلعة ويهبط إلى الحديقة ويبلغ طول هذا السلم مائة وخمسين قدماً وهو من الحجر. وكان بيرام باشا فى شهر رمضان يتناول طعام الإفطار فى تلك الحديقة. ثم شقّ منها طريق وأنشأت مقصورة فى ركن من أركان الحديقة تطل على ميدان «فواق» وكان جميع الجنود يسىرون فى هذا الطريق. وكان يكافئ من يطلق الرصاص أو يرمى السهام القرع. وميدان فواق هذا يبلغ فى الطول سبعمائة قدم وهو مفروش بالرمال. وقد ركز فى وسطه صارى سفينة وهو عال ضارب فى السماء وفى قمته كرة مذهبة وكان جميع الجنود يصوبون إلى هذه الكرة.

إنه موضع للفرجة ويطل على هذا الميدان قصر لمقصود باشا. والآن أقام «جان بولاد زاده حسين باشا» فى هذا الموضع عدة حجرات منقوشة وحماماً لطيفاً، وجعلها داراً للضيافة للقدامين والذاهبين إلى «الاستانة» وبيت الضيافة هذا مذهب.

أوصاف قاعة ديوان السلطان الغورى

إنها قاعة علوية للديوان تسع لعشرة آلاف شخص. وقد كان بين السلطان الغورى والعجم مودة وألفة، وقد أرسل الشاه الخيىث النية إلى الغورى رسولا واستمع إليه الغورى، لإكرامه جميع كل علماء مصر وتم بناء هذا الديوان فى ثلاثة أيام بلياليها، وحقاً إن هذا ليس فى قدرة البشر.

وجميع أبواب هذه القاعة وجدرانها مكسوة بالرخام. كما أن سقوفها تحوى رسوماً ونقوشاً وهى ذات ألوان مختلفة، وأرضها مفروشة بالرخام، وطولها مائة وخمسة وثمانون قدماً وعرضها خمسة وخمسون قدماً. وفى جوانبها الأربعة ثلاثة وثلثون شباكاً من النحاس وست وعشرون بلورة من الزجاج وثلثون صارياً تصنع روافد عليها سقف من الخشب وليس قبة من الحجر. إنه سقف كثير النقوش الذهبية يبهى النظر. وللقاعة ثلاثة أبواب، وباب يفضى إلى الباشا، والثانى يهبط إلى الفناء بسلم حجرى من عشرين درجة، أما الباب الثالث فيفضى إلى قاعة الضيافة. ومنها يهبط بسلم حجرى ومن أحد جوانبها دهليز يطل على ميدان القصر وجميع (أقلام خليفه لرى) أى خلفاء الأقلام يجلسون فيه أيام انعقاد الديوان، ولفتح هذا الديوان أربع كوات وفى كل منها جبل غليظ فى بكرة. والجلادون يعلقون المدينين للدولة من الأمناء والملتزمين من أذرعهم ويضربونهم بالسياط حتى يردوا ما عليهم. إن هذا مكان مخيف للعقاب اللهم عافنا.

ونصف هذا الديوان مفروش بالبسط الحريرية وعلى البسط فرش الجلد الروسى ويتكوم على هذه البسط الدنانير الذهبية فى أيام انعقاد الديوان ويحصيها الصيارفة من اليهود. وفى نهاية هذا البساط على يسرة موضع السلطان سليم مجلس الوزير وفوق هذه الصفة بارتفاع قدمين لوحة تتضمن طغراء السلطان مراد الرابع فاتح بغداد وهى مكتوبة بخط جلى مذهب وهو توقيع المبارك وتسعة من تروس صنعت من خشب شجرة التين مع مدرة وهذه ما تتعلق بها هذه اللوحة. وعلى طرف رأس الباشا كتب

بخط غليظ قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۖ (٥٤) فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]. وهناك عدة خطوط علوية وسفلية متنوعة على رخام الجدران التي على يمين ويسرة قاعة ديوان الغورى هذه.

وعلى لوح رخامى فى الأركان على يمين ويسرة صفة الباشا خط كوفى بعلم الجفر لإخفائه عن السلطان الغورى ويشير هذا الخط إلى أن السلطان سليم سوف يقدم إلى هذا الديوان. وكان ذلك سحر مبین وقد أطلعت على هذا الخط عدة مثات من أهل العلم فما استطاع أحد منهم أن يقرأ منه شيئاً لأن هذا الخط إنما يقرأ بالرموز. وفى المربع الذى على يسرة الباشا كتب على الرخام: «عزّ لمولانا السلطان» وعلى المربع الذى على يمينه كتب على الرخام: «سليم شاه خلّد ملكه» وهذا من العجائب.

وخارج هذه القاعة حجرة العرش، والباشا يسكنها أيام انعقاد الديوان ويلقى السمع إلى الشكاوى المرفوعة إليه. ولهذه الحجرة كوتان تطلان على ميدان القصر كما تطل كوتان أخريان لهذه الحجرة على قاعة ديوان الغورى.

مدح قاعة ديوان السلطان قايتباى

وخارج حجرة العرش هذه قاعة ديوان قديمة أقامها السلطان قايتباى وأرضها مرصوفة بالرخام الخالص ولها سقف ذو نقوش ذهبية يقوم على خمسة أعمدة من الرخام ودخول هذه القاعة من ميدان القصر يتم من خلال سلم حجرى من خمس وعشرين درجة. وفى هذه القاعة أكثر السلطان سليم من عقد الديوان وفى موضعه الآن لوح رخامى أخضر اللون على الجدار. وعلى الجدار كتب بخط غاية فى الغلظ: ﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]. وعلى الجدار المواجه لهذا الخط كتب قوله - تعالى - : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الاعراف: ٨٩]. إلا أن هذه القاعة أصغر من قاعة ديوان الغورى فطولها ثلاثون قدماً وعرضها خمسة عشر قدماً. وعلى نوافذها الثلاث وبابها تاريخ مكتوب هو:

(تم فى شعبان المبارك سنة ستين وثمانمائة). وجملة القول أنها قصر سلطانى عظيم

يعجز اللسان عن مدح صفاتها. ولديوان السلطان قايتباي مخزن للأطعمة يمتلئ بالمؤن ويصرف منه الوجبات لجميع الأغوات. وباب هذا المخزن كان مدخل باب الديوان في عهد السلطان قايتباي.

ويدخل إلى هذا الديوان بسلم حجري من ()^(١) درجة إلا أن طريقه مظلم إنه الباب القديم ويسمونه الآن باب الكلار أى باب مخزن الأطعمة. وعلى يمينه ويسرة هذا الباب تواريخ مكتوبة هي:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا المكان المبارك للعبد فضل من الله تعالى وعزته عطايا بدوام مولانا السلطان ملك الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين على العدل فى العالمين السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي خلّد ملكه بتاريخ شهر المحرم سنة سبع وسبعين وثمانمائة).

وعلى يسرة هذا الباب مقصورة خضراء داخلها مجلس السلطان سليم وعندما دخل السلطان سليم من باب المطبخ وبينما كان يجلس فى ذلك الموضع أطلقوا ثلاث قذائف من مدافع القلعة الداخلية نحو السلطان سليم وكادت تصيب رأسه ومكانها ظاهر إلى الآن. وبالقرب من مواضع علامات هذه القذائف كتب فى دوائر ثلاث (مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي عز نصره). وبعد أن خاف السلطان سليم من قصف المدافع جلس تحت أعمدة مقر «الشاطر» - أى من يتبعون ركاب السلطان - أسفل الباب الكبير لميدان القصر حتى ينجو من قصف المدافع وصلى ركعتين حمدًا لله. ومنذ ذلك الوقت والديوان يفتح فى ذلك الموضع. وجميع وزراء مصر قبل الذهاب لأداء صلاة العيدين يعقدون الديوان فى هذا الموضع طبقًا لما جاء فى قانون السلطان سليم. وكل وزير لمصر قبل أى شىء يأتى إلى هذا القصر، وبعد أن يترجل يجلس فى الموضع الذى جلس فيه السلطان سليم حينما سقطت عليه القذائف ويدعو الله. وكذلك يدعو الله فى أيام انعقاد الديوان فى الأعياد. ثم يهبط سلمًا من خمسة وعشرين درجة يفسى إلى قاعة ديوان قايتباي وهناك يدعو الله كذلك وعند انعقاد الديوان يبدأ وزير مصر بمعاينة

(١) يباشر فى العمل.

دفا تر ما يرسل إلى الحرمين من صرة وغلل لأنه خادم الحرمين الشريفين والسلام.

وفى ديوان الغورى سبع وستون أو سبع وسبعون إدارة لها دفا ترها المفصلة والموجزة وهى محفوظة فى الخزائن. ومن بين هذه الدفا تر دفتر «الرؤنأمة» وكذلك أكياس المرتبات التى يوزعها الدفتردار. وعندما يغادر الباشا القلعة أو القصر ينزل جاو يش مركب الانكشارية إلى تلك الخزانة لحراستها ليل نهار ويتناوب على تلك الحراسة خمسمائة أو ستمائة رجل كما يحرسون كذلك جميع حجات الباشا وأغواته ولذا يسمى انكشارية مصر «المستحفظان». وفى الجوانب الأربعة لميدان القصر هذا خمسة أبواب، واحداً للمطبخ والثانى للديوان الكبير وهما أبواب من الحديد المتين ذو الطبقتين. وأمرأ هذه الأبواب هم «آل ألواح» الذين سلموا مفاتيحها للسلطان سليم، والثالث باب محافظ المدينة. وكذلك باب «الكتخدا» وهو باب ذو سلاسل ويقع هذا الباب تجاه سجن «ارق خانه» وباب آخر بالقرب منه يهبط منه إلى الميدان وهو من الحديد. وباب آخر يفضى إلى «قره ميدان» وهو طريق حجرى فى ارتفاع وانخفاض وعلاوة على تلك الباب باب يسمى «باب الطلسم» وقد وادعى «دلى حسين باشا» أن تحته كنزاً وأطلق عليه المدافع وتركت فيه آثارها إلا أنها لم تلحق به ضرراً.

وثمة باب حديدى آخر يدخل منه وعلى بعد مائة قدم فى طريق يرتفع ثم مائة قدم أخرى فى طريق ينخفض يصل إلى «باب السراج خانه» وجميع سراجى الباشا وأغواته وقائدى الجنائب يسكنون داخل هذا الباب فى ثمانين حجرة للعمال. ويتوسط هذه الحجرات ميدان واسع. وبعد باب السراج خانه بمقدار مائة قدم فى أسفل باب الاسطبل «حجرة الهندى» بها نخلة سامقة وبعدها بخمسين قدم باب الاسطبل الكبير وفى هذا الاسطبل خيل الباشا وأغوات الداخل. وبعده بمائة قدم قلعة منفصلة يسكنها رؤساء الاسطبل والصراجون. وخارج هذه القلعة قلعة الميدان. أما قلعة الانكشارية الداخلية وقلعة قصر الباشا وقلعة قره ميدان فمحيطها ثمانية آلاف وخمسمائة قدم ولا وجود لخنق يحيط بها ولكن ثمة خندق محفور فى الصخر طوله سبعمائة قدم بجانب «باب المطبخ». وفوق هذه القلعة الداخلية وقصر الباشا سبعون برجاً، ولكن قلعة «قره ميدان»

ليس لها أبراج ولكن لها أربعة أبواب. ويفضى إلى ميدان الروملى باب كبير مكشوف يدخل كل مرة بسلسلة وهذا الباب متجه إلى النجم وبجانبه باب صغير، الفارس يجتازه بصعوبة وثمة باب آخر أسفل باب القصر هو «باب الإسطبل» وهو باب حديدى متجه إلى الغرب، وباب حديدى آخر فى أسفل مقر المرشدين هو «باب الزاوية» وهو متجه إلى القبلة، وعلى بعد عشرين قدماً من هذا الباب يقع باب «القرافة» وهو باب حديدى مكشوف متجه إلى الشرق وفى هذا الموضع أكون قد أكملت الحديث عن القلعة الداخلية وقلعة قصر الباشا وقلعة «قره ميدان» ويكون عدد القلاع التى أحصيتها ثمانى عشرة قلعة قائمة بذاتها وعدد الأبواب طبق ما ذكرت سبعون باباً من كبير وصغير، وهى موصدة فى كل ليلة ولا يمر منها الطير فى طيرانه. ومفاتيح القلعة الداخلية للانكشارية تظل مع رئيسهم، ومفاتيح أبواب العزب مع رئيسهم كذلك، وجميع مفاتيح قصر الباشا تبقى مع بوابى وكتبخدا الباشا، وقد ذكرت جميع قلاع مصر الداخلية وسوف أتحدث عن مياه عباد الله والدواب فى القلعة الواقعة على الجبل المنتصب.

أوصاف سواقى بثر يوسف وغيرها من الآبار الأخرى

عندما بدأ يوسف صلاح الدين فى بناء هذه القلعة كانت الحاجة ماسة إلى المياه ولذلك جمع جميع المهندسين وحفارى الجبال وقال لهم: ينبغى أن نجد منبعاً للماء فى هذا الجبل. وتشاورا فى الأمر وأجمعوا على رأى وهو لا مناص من بثر لهذه القلعة، وجاء الخبر بظهور ماء على عمق مائتى باع. وألح صلاح الدين عليهم إذا لم يستخرج الماء إلى هذه القلعة على أية حال فسوف يقتلهم كما يقتل من أجروا فاجتمعوا وحفروا بثراً لا نظير لمثلها على وجه الأرض. وبدأوا بحفر بثر مربعة وتم حفرها فى سبعة أعوام ومساحتها مائة وخمسون ذراعاً مكياً، وليس لها جبل ولا من يقدر على جذب الماء منها. . وحفر جميع الحفارين الأرض وجعلوا ما حول البثر أشبه شئ بالقبور، وجوانبها الأربعة طريق وفى كل طرف فتحو نافذة ويدخل النور من هذه النوافذ إلى البثر وهذا الطريق يشبه الطريق الذى يصعد منه إلى طوابق جامع آيا صوفيا باسطنبول حيث يستطيع ستة أشخاص أن يصعدوها وينزلوها فى سهولة ويسر. وينزل إلى هذه

البئر ثلاثة آلاف قدم حتى يكون الوصول إلى مقر الشياطين. والجزء الأدنى مكان مظلم مخيف ولا ينبغي أن يبلغ هذا المكان الرجل الوهم. ثم جعل صانع ماهر هذه البئر ثلاثة طوابق وجعل الطبقة السفلى منها ستين باعاً وشق مغارات في أحد جوانب البئر، وفيها أقام دواليب، وروجان من الثيران يسحبان الماء من القاع بالدواليب فتصب مياه كمياء البحر عند هذا الموضع في حوض كبير من الصخر. كما حفر مغارات في جانب آخر من البئر في الطبقة الوسطى والعلوية. وتقوم أزواج من الثيران بسحب الماء من الحوض السفلى بالدواليب وتصب المياه في الطبقة الوسطى، وفي أعلى أربعة أزواج من الثيران تقوم بسحب الماء من الطبقة الثانية من انخفاض ثمانين باعاً بالدواليب وتصب الماء في حوض الطبقة العليا فيتوزع على المدينة ويصل الماء إلى معسكر الانكشارية، وحمام الطواشي سليمان باشا، والأحواض وبعض البيوت، إنها بئر تثير تذكّر العبرة يسمونها بئر يوسف الصديق ولكن هذا خطأ لأنها منسوبة إلى السلطان صلاح الدين يوسف وليست منسوبة إلى يوسف الصديق، إن من يمحزون لمشاهدتها يحملون الفوانيس والشموع وينزلون إلى نهايتها في ساعة من الزمن. ولها مائة ثور، ولكل طبقة مغارات للثيران، والثيران التي في نهايتها تعودت على البقاء في الظلام وغيرها لا يتحمل ذلك لأنها لا تستطيع أن تنسم الهواء في كل وقت. أما الثيران التي في الطبقة العليا فيسهل عليها أن تنفس.

ويسكن الفلاحون الذين يديرون هذه السواقي في طبقات هذه البئر الثلاث ويتسلمون رواتبهم من أمين الساقية. ومرتب الذين يعملون في الطبقة السفلى أكثر من مرتب بقية الذين يعملون في الطبقتين الآخرين، وثيرانهم كثيرة. وهذه الدواليب تدور ليل نهار ومن ينظر من أسفل البئر إلى أعلى فوهتها يرى أن الدواليب تدور كأنها الفلك.

وخلاصة القول أن من يسبح في هذه الدنيا ولا يشاهد بئر يوسف لا يعرف ما في الدنيا من صنعة ولا يعرف كيف أن الإنسان هو أشرف مخلوقات الله وكيف يستطيع عمل ما يشبه المعجزات، وعندما يشاهدها العارف بالله يقول: «إن همة الرجال تقلع الجبال». إن هذا الأثر يسمو إلى مرتبة الكرامة وهذا في الحق ليس في قدرة البشر. إن

ماءها أميل إلى الملوحة وأثناء محاصرة الغورى كان جميع منفى القلعة الداخلية يشربون منها. والآن بعض الناس يشربون من بشر يوسف ولكن لا حاجة إلى ذلك. ففى أسفل القلعة الوسطى سبيل ويستقى منه اثنى عشر ألف سقاء. كما يوجد سبيل على باب الاغا ومنه يستقى الماء أربعون ألف سقاء. وفى الشيخ «سارى» كذلك فى سوق القلعة الداخلية صهريج «اكور محمد باشا» ويغترف منه الماء بمقدار عشرين ألف حمل جمل. إنه وقف عظيم وفى كل عام تحمل هذه المياه على ظهور الجمال وتمتلئ الصهاريج والحمام وصهريج فى وسط القلعة يقوم على مائة عمود وهو صهريج عظيم كأنه البحر. وعند الحصار يأتى من بئر يوسف والنيل مائة ألف حمل من الماء محملة على الجمال عدة مرات.

قناطر السلطان الغورى فى مصر القديمة وأعدادها

لم يكتف السلطان الغورى - رحمه الله - ببئر يوسف. وفى عام ٩٠٠ بذل همه فى توفير الماء لاهل القلعة الداخلية والقاهرة. ورصد من صُلب ماله ألف كيس من الدنانير حصة لله، وأقام ساقية أمام جزيرة الروضة كأنها القلعة ويبلغ طولها ثمانين ذراعاً، ويسحبون الماء من الأرض إلى قمتها بالخيول، وتقوم الثيران بإدارة دواليبها من خمس جهات لتستمد الماء من النيل، ويصل الماء إلى الأحواض خلال القناطر ويبلغ سواقي القلعة الداخلية وتمر فى ثلاثمائة وثلاث عشر قنطرة ومن هذه القناطر ما تنخفض بمقدار ثمانين باعاً، ومنها قناطر يبلغ طولها خمسين باعاً فى بعض أجزائها. وفى أراضى منخفضة حوالى مائة قنطرة مسدودة الفوهات.

عدد دواليب ساقية قلعة قصر الباشا

يتدفق ماء النيل أسفل القلعة الداخلية من خلال هذه القناطر ويملا الآبار العظيمة ثم تسحب السواقي الماء فى الآبار الكاتنة أسفل قصر الباشا. ولقصر الباشا عدة سواقي أخرى، وهى كذلك تسحب الماء. ويتدفق الماء من ساقية الباشا إلى الينابيع وحديقة أغوات الداخل والأحواض والينابيع الأسواق وعيون القلعة الداخلية. ولقصر الباشا ثلاث سواقي تجلب الماء له من النيل. وفى قلعة القصر ساقيتين للنيل. إحدهما ساقية تحت

جوسق إبراهيم باشا والأخرى تجاه مقر محافظ المدينة. أما هذه الساقية ذات العيون الأربع فتجربها ثمانية ثيران، أما الماء الذى تحسبه سواقي الطبقة الوسطى فيتدفق إلى إدارة العزب والاسطبلات وبعض الينابيع. أما السواقي السفلية فمأواها أجاج ومأواها يفضى إلى بعض الجهات وتوجد ساقية خلف مقر مرشدى الباشا فى قره ميدان أى الميدان الأسود وفى حى رؤساء الإسطل وعند جامع عمرو بن العاص، لكنها أعمق من السواقي الأخرى، هى ملك للحكومة. كما أن بئر يوسف، وجميع السواقي الكبرى ذات العيون الخمس، وسواقي مقر العزب، والطبقة الوسطى، وساقية قصر العزب التى يصل مأواها إلى أساس جامع السلطان حسن ملك للحكومة كذلك. والحاصل أن عدد دواليب جميع السواقي ستة وثلاثون دولاياً وجميعها فى إحدى عشرة محلة. ولكن أكبرها فى مصر القديمة وقلعة الباشا.

وكل هذه الخيرات للسلطان الغورى وينفق عليها فى العام مائتا كيس ولها مائتان وخمسون ثوراً، ومائتا خادم وأمين ساقية وموظف جورياجى من فرقة الانكشارية، إنها خيرات عظيمة فليس فى مصر أعز من الماء لأن النيل يبعد عن القاهرة بمسيرة ساعة. ولكن لا نفع لمصر السفلى من مياه قناطر الغورى فجميع مياهها تذهب إلى القلعة الداخلية ولكن لا حاجة بمصر السفلى إلى مياه تلك القناطر لأن مصر السفلى تقع فى أرض منخفضة فتكثر الآبار فى كل منزل وسوق وقصر عالٍ.

بيان بجميع الآبار فى مصر السفلى

بينما كان بيرام باشا والياً على مصر حتى عهد السلطان مراد الرابع عام ١٠٣٧ أرسل السلطان فرمائاً إلى بيرام باشا وعلى بك الجرجاوى ورضوان بك أمير الحج أمرهم فيه على عمل إحصائية عن مصر. وبناء على إحصاء كمال باشا زاده ودفتر الغزالى قاموا بإحصاء كل ما فى مصر من عمائر وجوامع ومساجد ومدارس، وبعد أن عرضوا هذا الإحصاء أشاروا إلى قلة الماء وأفادوا أن فى القاهرة وبولاق ومصر القديمة ٢١٧٤٠٠٠ بئر ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] ومأواها جميعاً مالح وماء جميع

حماماتنا مالح - ولكن بثر الحمام القيسوني أسفل المدينة وسبعة آبار أخرى ماؤها هو ماء الحياة. هذا ما ذكره في تقريرهم وإحصائهم.

وحقيقة الحال أن مدينة مصر تقع على شاطئ النيل ذى الماء العذب، وأن يكون ماء جميع الآبار ملوحاً أمر عجب وله حكمة غريبة «يفعل الله ما يشاء بقدرته ويحكم ما يريد بعزته».

والجو فى القلعة الداخلية يهب الروح والحياة لأنها مصيف وفيها تعصف الريح. ومياهاها فى وقت الخماسين غاية فى البرودة. وإذا ما أراد بعض المرضى البرء من مرضهم غيروا مكانهم فجاءوا بهم إلى القلعة العليا فتصح أجسامهم بإذن الله فى عدة أيام. وللطف الجو تصبح عيون أولادهم مكحلة كعيون الغزلان، أما عيون أهل مصر السفلى فتشبه عيون الغول. تلك حكمة لله عجيبة.

الفصل الثالث والعشرون^(١)

بيان بمحيط قلعة مصر السفلى وجميع أبوابها وأبراجها

تسلحت أنا الحقيق وغلما من لى ولبسنا أحذيتنا وخرجنا فى وقت السحر من باب الوزير وهو أحد أبواب القلعة الداخلية. وصعدنا أكمة فى الجانب الشرقى وهبطنا خمسمائة قدم وهناك «باب النظامية» وهو باب خشبى يتجه ناحية الشرق. وتقدمنا خمسمائة قدم صوب الشمال وهناك «باب جقور قرافة» - أى باب القرافة - وهو من الخشب ويتجه إلى جهة الجنوب. ومشينا ألف قدم فى رملة جانب سور القلعة فواجهنا «باب الدرب الأحمر» وهو باب خشبى من طبقتين متجه إلى الشرق. وفى هذا الموضع تغطى الرمال أسوار القلعة إلا أن داود باشا أقام سوراً من طبقة واحدة للقلعة، وعبرنا هذا الموضع وتقدمنا خمسمائة قدم فواجهنا «باب خوه المغرب» الذى كان قرافة للمغاربة فى عهد المعز لدين الله. وهو باب خشبى صغير يتجه إلى الناحية القبلية. وقد جددت أسواره حديثاً ومقبرته كلها داخل أسوار القلعة القديمة. وخارج هذا الباب مشينا إلى نهاية سور القلعة القديمة فواجهنا على بعد ألف قدم «قله كوم» أى برج الرمال وهذا البرج زاوية من قلعة مصر تطل على الناحية الشرقية. ومضينا فى اتجاه النجم ألف قدم أخرى من ركن جدار القلعة فواجهنا «باب الناصر» وهو باب حديدى من طبقتين يبلغ حجمه عشرين ذراعاً وفى عتبه العالية كتب بخط الجفر تاريخ صلاح الدين، وموكب جميع الحجاج والوزراء يدخل ويخرج من هذا الباب، وهو باب الطريق الرئيسى المتجه إلى الشرق. ومن أسفل سور القلعة باتجاه النجم والريح مشينا خمسمائة قدم فوصلنا إلى «باب الفتوح» وهو باب حديدى مكشوف من طبقتين ويبلغ طوله عشرين ذراعاً. وهو باب يزدهم الداخلون والخارجون فيه. وتقدمنا ألف قدم من أسفل سور القلعة صوب الغرب فواجهنا «باب البحر» وهو كذلك باب حديدى من طبقتين متجه إلى الغرب وارتفاعه عشرة أذرع. وفى هذا الموضع تختفى المنازل والحدائق وراء أسوار القلعة. وخطونا نحو حافة المدينة ولكن وجدنا أبواباً كذلك فى محلة أطراف المدينة

(١) هكذا فى الاصل.

وعليها أسوار قلعة ومزاغل ويوابون ومفاتيحها مع أئمة الحارة، ومضيئا ألف قدم من «باب البحر» على جانب الحدائق فواجهنا «باب اللوق» وهو باب خشبي يتجه إلى الغرب وأمامه بيوت الدعارة والمواخير والمقاهى. ومن خارج باب اللوق مضيئا جنوباً مائتا قدم فواجهنا «باب عبادة» وهو باب خشبي يتجه إلى الغرب وأسفله جامع ولد عبادة وهو جامع مقام على أربعين عموداً وله منارة ويقع بالقرب من بركة النيل على جسر الليمون وهو جامع يستحق المشاهدة، فى فنائه شجرة نبق عظيمة لا نظير لها فى مصر، ومضيئا مائتى قدم صوب الجنوب على ضفة البركة وعبرنا حديقة العجم وبلغنا «باب قنطرة الدكة» وهو على بعد سبعمائة قدم منها وأسفل هذه القنطرة جامع سيدى الشيخ حسن الشاذلى وهو مدفون فيه. وتحت هذه القنطرة تتدفق مياه بركة الأوزيكية وإلى الجنوب منها مضيئا مائتا قدم فبلغنا «باب سكيته» وهناك جامع سكيته وهو جميل، ثم مضيئا عبر الحدائق واتجهنا نحو الجنوب ألف قدم فبلغنا «باب الدباغين» وهو باب خشبي متجه نحو الغرب وعليه أسوار القلعة، وأمام الباب جسر، ومشينا فى البساتين صوب الجنوب خمسمائة قدم فواجهنا «باب الصقائية» وهو باب خشبي يتجه نحو الغرب ودخلنا هذا الباب وعبرنا من الحارة مائتا قدم حتى بلغنا جامع الجيبة وفى طريق بولاق سرتنا سبعمائة قدم فبلغنا «باب الاصمعى» وسوق النصرية فى هذه الحارة وكذلك جامع «أميرا خور» وهو جامع بديع. ثم مضيئا جنوباً ستمائة قدم ومررنا «بقنطرة السبوع» فواجهنا «الباب الجديد» وهو على الطريق الرئيسى وعلى عتبه العالية أسوار ومزاغل. ثم عبرنا من أمام ضريح السيدة رقية بنت الإمام على، وتقدمنا نحو الجنوب أربعمائة قدم فواجهنا «باب عز الدين»، وهناك جامع جمال الدين وهو باب خشبي متجه إلى الغرب، ثم اتجهنا جنوباً خمسمائة قدم فى الرملة فبلغنا «باب حارة النصارى» وهو باب من الخشب متجه إلى الغرب. وعليه أسوار ومزاغل وراء هذا الباب جميع الحانات والبغايا والصبيان. وتقدمنا ثمانمائة قدم أسفل سور القلعة فواجهنا «باب ست نفيسة» وهناك جامع السلطان خير الأم وهو باب خشبي مكشوف يطل على ضريح السيدة نفيسة. ثم تجولنا خارج حى السيدة نفيسة وتقدمنا مائتى قدم صوب الشمال

فبلغنا «باب القرافة الوسطى» ومضينا أمام قبر الطويل وتقدمنا خمسمائة قدم صوب الجنوب فبلغنا «باب القرافة الكبرى» وهو باب خشبي كبير متجه إلى الشرق ومنه يكون المضى إلى الإمام الشافعى وعمرو بن العاص، ثم مضينا خمسمائة قدم أسفل أسوار القلعة المسماة قره ميدان فبلغنا «باب الفارض» وهو كذلك باب خشبي يتجه إلى الشرق، ثم مضينا خمسمائة قدم صوب الشرق فبلغنا «باب الجمالين» وهو باب خشبي يتجه نحو الشرق وهو أسفل قصر الباشا بالقرب من ميدان قواق، وبهذا الباب يكون قد تم عدد الأبواب الموجودة فى جهات القاهرة الأربع.

وقد أدركنا التعب ومع ذلك مضينا من أسفل أسوار قلعة قره ميدان وصعدنا الأكمة من «باب المطبخ» وخطونا من خندق القلعة وتجولنا داخل القلعة الداخلية وهى حجرات الانكشارية. حتى إذا بلغنا «باب النظامية» نكون قد خطونا ألفى قدم. وعندما اقترب وقت الغروب دخلنا باب النظامية وعُدنا إلى مسكننا وقد خارت قوانا.

وعلى هذا يكون طول أسوار ضواحي القلعة لمصر السفلى خمسة عشر ألفاً وخمسمائة قدم. وواحد وعشرون باب قلعة، وعدد أبراجها ثلاثمائة وأربعون برجاً وسبعة آلاف متراس. أما أبواب القلعة التى بلا أسوار فعددها سبعون باباً من الخشب عليها أسوار ومزاغل.

وفى الصباح تسلحنا وبلغنا «باب الناصر» على صهوة جيادنا وهناك ترجلنا ثم خرجنا من باب الناصر وباب الفتوح حتى وصلنا إلى جانب قيون ومنها بلغنا جامع الظاهر بيبرس وبعد ذلك بلغنا قنطرة الاوزبكية ثم قنطرة الليمون. وبذلك نكون قد قطعنا ضاحية عظيمة يبلغ طولها عشرة آلاف قدم.

وجملة القول أن مناطق القلعة ذات الأسوار وأبواب ضواحي القلعة التى بلا أسوار وإبتعادنا عن القلعة بعشرة آلاف قدم يكون محيط عمائر مدينة القاهرة ٤٣٠٠٠ قدم وانتهينا من ذلك فى يوم واحد بعد الظهر. واستغرق سيرنا سبع عشرة ساعة. أما ما ذكر سلفاً عن القلاع الداخلية وقلعة الباشا فمما يدخل فى هذا الإحصاء. ويخرج من هذا الإحصاء مدينة بولاق ومصر عتيقة ومصيف السلطان قايتباى وحى الإمام الشافعى

والإمام الليث وعمرو بن الفارض وأبو السعد الجارحي لأنها أحياء متباعدة عن مصر. كما أن باب الخرق وباب الشعرية وهما من الأبواب العالية من بناء أمير الجيوش بدر الجمالي وبذلك يكون محيط مصر المحروسة ٤٣٠٠٠ ألف قدم والسلام.

أما ضواحي مصر الجنوبية والشرقية والشمالية فقد أصبحت أسوار القلعة فيها خندقاً لتراكم القمامة. لقد كانت قلعة معمورة في عهد صلاح الدين لكن في بعض مواضعها بدلاً من الخنادق في أطراف المدينة كانت البرك تجري فيها مياهها مثل بركة الأوزبكية والناصرية، وكانت البرك بمثابة الخنادق. وعلى حافة هذه البرك كانت هناك الأبواب سالفة الذكر، وفي كل ليلة كان يتجول فيها الحراس والبوابون والصوباشية ومحافظو القلعة والقواسون وهم يوصدون جميع الأبواب. ففي مصر من الفلاحين واللصوص وأتباعهم والمجرمين ما لا وجود لمثلهم في بلد آخر.

بيان البوابات في مدينة مصر السفلى

ومن شرور هؤلاء اللصوص أقيمت أبواب من طبقة أو طبقتين في أركان مدينة مصر وأقام أعيان مصر الطَّنْفُ^(١) على الأبواب وكانت كواتها مطلة على الطريق ومن هذه النوافذ يطلقون السهام والرصاص على اللصوص. وفي كل زاوية باب مقام وبوابو هذه الأبواب جميعاً يخضعون للصوباشي ويوجب دفتره فإن عدد الأبواب التي يقفون حراساً عليها ستة وعشرون ألف باب. ويدخل في هذا الإحصاء أبواب مدينة بولاق ومصر القديمة. وهذه الأبواب كلها توصل بعد العشاء ولا يستطيع أحد أن يخرج منها. ومفتاح هذه الأبواب يبقى أمانة عند شيوخ الحارات. والبوابون يستندون إلى عصيهم الطوال الغلاظ خلف هذه الأبواب ويتناوبون على حراستها ذلك أنه إذا ضاع شيء من هذه الحارة يسأل عنه البواب ويوقع عليه العقاب ونظير هذه الحراسة يتقاضى البواب راتباً من أهالي الحارة.

(١) السَّقِيفَةُ تشرع وتبنى فوق باب الدار ونحوها للوقاية من المطر. والجمع: أَطْنَفٌ، وطَّنُفٌ.

الفصل الرابع والعشرون

أوصاف الأحياء والقصور العالية وغير ذلك من البيوت

بناء على ما سلف ذكره، وبناء على ما ذكره الغزالي عن مصر أم الدنيا ففى مصر ٧٤٠ حيًا للمسلمين، وفيها ٧٨ قصرًا لسلطين السلف، وإن اللسان ليعجز عن وصف كل منها؛ فعلى شط بركة الفيل قصر السلطان قايتباى، وفى قلعة الكباش قصر السلطان جاولى. وأسفله قصر محمد بك، وقبائه قصر نذير أغا وقصر رضوان بك أمير الحج، وقصر يوسف بك أمير الحج الأسبق، وقصر الشيخ السادات، وقصر بيقلى محمد بك، وقصور نوالى محمد بك، وعباس أغا وبلتاجى محمد أغا، ورمضان أغا، وشعبان باشا رئيس المتفرقة، وبكر افندى قائد الانكشارية، وكنعان بك، والشيخ البكرى، وحاجى باشا، واوزيك بك، ومسعود أغا، وعلاوة على هذه القصور ٣٢٠٠٠ بيت للمسلمين. أما القبط فلهم ٢٠ حارة و ٦٠٠ منزل وعددهم ٩٠٠٠ قبطى يدفعون الخراج ويحصله أمين البحرين.

واثنان وعشرون جماعة يهودية تشكل حارة واحدة، وشوارع اليهود ضيقة مما يجعل من المتعذر مرور جمل منها أو فرس، وهم يهود معتزلون ويوتهم من خمسة أو ستة طوابق، وعلى بعد خمسين قدمًا من حارة اليهود أبواب عليها حراسة وجمله أسواق اليهود فى حاراتهم ولا حاجة بهم إلى مكان آخر، وتقوم فرقة من الانكشارية بمراقبة اليهود فى حاراتهم على الدوام. وعدد اليهود ٦٠٦٠ نسمة يدفعون الخراج.

وهناك أربع حارات للأروام وحارتان للأرمن ومجموع سكان الروم والأرمن ٣٠٠٠ نسمة يدفعون الخراج. والنصارى من التابعين لبلدان أوربا أو الدولة العثمانية فيتراوح بين ٦٠٠٠ - ٧٠٠٠ نسمة، ولا وجود لفجر الأروام. أما جميع أهل مصر فهم قوم فرعون، وعلى حافة البركة حارة لنصارى أوربا، وفيها مراكز لقناصل سبع دول أوربية بها ٣٠٠٠ من نصارى أوربا ولا يؤدى واحد منهم حبة قمح من الخراج.

وجملة القول أن هناك اثنتان وسبعون ملة، ومائة وأربعون لغة تدور على الألسنة وإضافة إلى وجود عشرين ملة للنصارى فى مدينة مصر فإن هناك أجناس أخر كثيرة مثل المغرب، والأندلس، وافنو، ودونقلا، والبربر، والفونج، وقمرانقة، وبغه نسكى،

والحبشة وماى بورن، والنوبة ولغات هذه الأجناس منطوقة وليست مكتوبة. وسوف أكتب بإذن الله عن جميع أجناس الناس وأحوالهم فى مصر فى حينه.

باب زويلة

فى عام ٤٨١ عندما وَّزَّ حسين القائد مجدد عمائر مصر ابن المعز لدين الله الفاطمى بعد أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالى وزير المستنصر بالله العباسى، انهدم الجانب الجنوى للقلعة التى أقامها جوهر القائد؛ فألحق بها قلعة ركيته، وبقيت تلك الأسوار مطمورة فى الرمال ناحية قايتباى. وباب زويلة من بناء أمير الجيوش بدر الجمالى سالف الذكر فى ذلك العصر وإلى كتابتى هذا التاريخ كان قد مر عليه إحدى وخمسون سنة، ولم أر فى سياحاتى باباً متقن الصنع مثله.

وعندما كان أمير الجيوش يبنى هذا الباب كتب طلسمًا عظيمًا فلم يصنع له مصاريع قط، وكان يبقى على الدوام مفتوحًا. ومن الحجر الأسود الموجود فى عتبه إذا ما دخل مدينة مصر أحد ماشيًا أو راكبًا للسرقة أو القتل أو الثورة بحكم هذا الطلسم ذلت حوافر فرسه وسقط على عرفه وهلك وإلا أخرج جواده من الباب وهو حرن ولذلك لم يحتمل دخول لصوص أو باغ ولا نائر وعلاوة على ذلك الطلسم فإن موسى - عليه السلام - التقى بالخضر فى هذا الموضع المثلسم. والآن هو مزار يسمى «قرقر مقامى» أى مزار الأربعين. وحتى عهد خلافة الملك الكامل ناصر الدين محمد كان طلسم باب زويلة نافذ الأثر، وذات يوم أراد الملك الكامل أن يقهر المجرمين فى الجامع الأزهر داخل القاهرة وبينما كان يدخل من باب زويلة حرن فرسه ولما حثه سقط على عرفه وسقط فى الرمال فدخله شديد الغضب، فأمر بإراقة دماء مائة كبش على عتبة باب زويلة، وبذلك أفسد الطلسم ونزع الحجر الأسود من عتبه وجعل للباب مصراعين وأصبح يفتح ويغلق مثل سائر الأبواب، وهو الآن ذو مصراعين من حديد.

وفى المرة الثالثة عام ٥٦٦ بنى السلطان يوسف صلاح الدين القلعة الداخلية والقلعة العليا، وفى عام ٥٦٦ كان بهاء الدين قره مونلى الأسدى أميرًا طواشيًا عظيمًا وخشى سلاطين دمشق فوسع للمرة الرابعة بناء القلعة حتى بلغت ٣٩٣٠٠٠ ذراعًا هاشميًا.



الفصل الخامس والعشرون

جوامع مصر المحروسة التى شيدها السلاطين

وغيرها من الجوامع الكبرى التى يستجاب فيها الدعاء

فى القاهرة مائة وستة وخمسون مسجداً لسلاطين السلف من الترك والعرب والعجم ولا وجود لمثل هذا فى جميع الممالك الإسلامية. وإن ما أقيم من هذه الجوامع ليست جوامع ولكنها جنات وسوف أكتب عن هذه الجوامع بالترتيب على حسب ما زرتها وأقدم هذه الجوامع وأعرقها:

جامع عمرو بن العاص

وهو فى مصر العتيقة مسجد عتيق عظيم يستجاب فيه دعاء الفقراء، وهو كعبة الضعفاء، وبنى هذا الجامع عمرو بن العاص فاتح مصر. أما سبب بناء هذا الجامع أنه عندما حاصر عمرو بن العاص مصر القديمة أى مدينة الفسطاط ضرب جند الإسلام خيامهم فى موضع هذا الجامع وحفروا خندقاً حولهم وقامت الحرب ودامت أياماً وكان المسلمون يدفنون شهداءهم فى هذا الموضع وقضى الله أن تفتح القلعة فخلعوا خيامهم ولما اقتضى الأمر أن يتقلوا إلى المدينة رأوا أن حمامة اعتشت على رأس خيمة عمرو ورآها عمرو، وقال: لا تخلصوا هذه الخيمة إن هذه الحمامة فى بيتنا وإكرامها واجب علينا وإذا ما أفرخت وطار صغارها فلتطر إلى مقرنا وهى وصغارها فى حمانا من الوحوش والناس.

وأفرخت هذه الحمامة وطارت من عشها وكانت فى كل مرة تأتى أمامه وتحط عليه وأنست به وألفته. لكن عمرو فيما بعد خلع الخيمة وكان ديران كبيران فى هذا الموضع أحدهما للقطب والآخر للروم فهذهما وأقام جامعاً، ولكن هذه الحمامة اعتشت ثانية فى ذلك الجامع ولذلك سمي هذا الجامع «قطاس».

وقد أنجز بناء هذا الجامع أربعون ألف من جند الإسلام، وكانوا يصلون فيه على الدوام؛ ولذلك فهو أقدم جامع في القاهرة، وله كثير من المحامد والمحسن ولكن لتوجز القول في وصفه:

الجامع الآن مربع الشكل أسواره كأسوار القلعة، ومساحته مائة وثمانون قدماً طولاً وعرضاً، ومن ناحية بابيه إلى القبلة مائتا عمود من الرخام الأبيض، وعلى يمينه ويسرة حرمه كذلك مائتان وأربعون عموداً أبيض. وعند بدء البناء فيه لم يكن حوله جدران وبني كله على أعمدة والآن رهوس بعض أعمدته ظاهرة في بعض المواضع، وفيه كذلك ثلاثمائة عمود. ومكان المؤذن على ثمانية أعمدة. وبناء على هذا الإحصاء فيه ثمانمائة وعشرون عموداً تنتهي بطاقات كأنها قوس.

وبعد ذلك قال لهم عمرو: ينبغي أن يكون الجامع متيناً رصيناً وينبغي بناء جدران حوله كأسوار القلعة. ومنبره ومحرابه من الطراز القديم، ومنبره من الخشب المنقوش. ومن يصلي ركعتين في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان في هذا الجامع يتحقق له كل ما يتمناه في دنياه وأخراه. وقد رصفت مساحته بالحجر فكانها سهل منبسط. ومن محرابه إلى وسطه حجرات علوية، وقد سكن فيها سيدي الشيخ علاء الدين الطائي، والآن يسكنها صاحب السلوك الشيخ يوسف الشناوي، وحول هذا الجامع مئات من الأركان المظلمة وفي كل ركن يسكن عارف من العارفين، وهم يفطرون في الأسبوع مرة، ومنهم الشيخ على الفارضي، والشيخ رمضان خليفة القيصرى وهما من أصحاب الكرامات. وإذا ما قرأوا علم الموسيقى على الشيخ على الفارضي رغبهم فيه. إنهما سلطانان عظيمان، وفي الجمعة الأخيرة من شهر رمضان يحتشد في هذا الجامع عدة آلاف من الناس ويصبح داخل الجامع وخارجه بحر من الناس وهم يصلون. ولا شك أن أرواح الانبياء والاولياء تحضر في هذا الوقت على ما يقال.

ولهذا الجامع سبعة أبواب وأربع منائر وفي كل ركن من أركانه منارة إلا أنها منارات صغار قديمة الطراز. وفي الركن الايمن لهذا الجامع قفص وهو مصلى الوزراء وثمة كلام مكتوب بخط سيدنا عمر وعثمان على رق الغزال، وهو خط كوفي. وبالقرب منه مقام

الشهداء وقد دفن فيه سبعة آلاف صحابي، وهذا ثابت. وفي الجانب الأيسر من هذا الجامع موضع زيارة مربع يسمى «مقام الأوتاد» وله محراب آخر وبالقرب من المحراب على لوح من الرخام الأبيض المربع مساحته ثلاثة أشبار تاريخ مكتوب بخط جلى وهو: أما بنى السمام المكان الشريف سنة ثلاثة وثمانين عمّر العبد الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن عمر المجلى لتاج أكابر تاج الحوض الشريعة عفى الله عنه الجامع عمرو بن العاص - رضى الله عنه - البروق سبع بوابل بيع لوجه الله غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين صلى الله عليه وعلى سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين).

وقد رمم هذا الجامع بيرام باشا حينما كان والياً على مصر. وكتب على لوحة نحاسية على يمين المنبر تاريخ يتألف من خمسة وأربعين بيتاً. والمصرع الذى يحمل تاريخ ذلك هو: بينما كان اثنان يسيران قالاً إحياء أثر الأصحاب الراشدين سنة ١٠٣٢.

عجائب جامع عمرو بن العاص

وفى داخل هذا الجامع عجائب وغرائب. ففى داخل باب القبلة أمام المنبر عمودان من رخام ويزعم الناس أن العاصى النجس إذا شاء أن يمر بين هذين العمودين لم يمر. أما إذا كان تقياً مر. وبعض ضخام الجسم يمرون من بين هذين العمودين كالصاعقة وبعض من نحت أجسامهم لا يمرون.

ويحكى حاجب الجامع أنه ذات يوم أراد خادم لأحد بكوات القاهرة أن يمر إلا أنه تنحسر بين العمودين ولم يمر وحيتئذ أمسك جميع الحاضرين بذراعه وهم يصيحون وعتلاً أخرجه ثانية عجبوا لحاله ولا يعلم أحد ماذا حدث وخرج الرجل خارج الجامع وغسلوه فى طرقة عين داخل الجامع وبعد صلاة الجمعة صلى عليه صلاة الجنائز مئاة آلاف من المصلين. يا لها من حكمة عجيبة.

إن هذا الجامع ليس مزخرفاً كالجامع الأخرى وله أكثر من مائتى خادم وفى جوانبه الأربعة ثمانية وسبعون رواقاً للفقراء. وحوله أرض خربة.

جامع أزهر القائد - أى الجامع الأزهر

بناه السلطان المعز لدين الله المغربى الفاطمى عام ٣٥٨ وذلك بيد المملوك المسمى

أزهر الذى جاء من بلاد المغرب بآلاف الأكياس من المال واستأذن من الخليفة الإخشيدى فى طرح أساس هذا الجامع ، وكان جملة خدامه يزيدون على عشرة آلاف وكلهم من المغاربة . ولما اقترب بناء الجامع من التمام قدم المعز لدين الله من المغرب غازياً ودخل مصر بغتة وتسليح كذلك المغاربة الذين قدموا بحجة بناء الجامع الأزهر . وانتزع المعز لدين الله الفاطمى مصر من يد الإخشيديين وأصبح ملكاً مستقلاً عليها .

وعمر المعز لدين الله الفاطمى الجامع الأزهر بحيث جمع فيه علماء الدنيا بأسرها وكان يقدم فيه الطعام لبناً وتمراً وسكراً . وإلى هذا الوقت لم يكن فى القاهرة وقف عظيم كهذا . ولقد سُمى الجامع الأزهر باسم مَنْ بَنَاهُ وهو هذا المملوك أزهر . إلا أنه بنى من صلب مال المعز لدين الله ولهذا السبب ملك مصر . وليس فى القاهرة جامع يؤمه كثرة من المصلين كالجامع الأزهر ويرجع السبب فى ذلك إلى وقوع الجامع فى قلب القاهرة حيث لا يخلو موضع فيه ليل نهار من ساجد فقيه ليل نهار اثنا عشر ألف طالب علم ، ولهم دوى كدوى خلية النحل يبعث فى النفوس الرهبة ، وكلهم مشغولون بمداينة العلم ، ولا يحرم من معرفة أصول الدين أحد يقف موقف التلميذ أمام أستاذه فيه . إنه جامع مبارك وبين الباب والباب مائة وسبعون قدماً . ويدخل من باب المجلدين ويمر من الحرم الصغير ومنه الدخول إلى الحرم الكبير ، وحتى بلوغ المحراب تبلغ المسافة مائة وخمسين قدماً وداخل الجامع مائة وعشرون عموداً من الرخام وعشرون عموداً منها لها قواعد مزخرفة وتقع هذه الأعمدة بين الجامع والحرم . إلا أن هذه الأعمدة صغار وكلها على أربعمائة رافد وكلها تحمل سقفاً خشبياً أخضر اللون وليس للسقف قبة . وهو بنيان شاق ليس من نوع بنيان سائر الجوامع الأخرى . ومن دخل هذا الجامع وجد روحانية لا يريد معها أن يخرج منها . وللجامع أربعة محاريب للمذاهب الأربعة ، وعلى المحراب الحنفى كتب قوله - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ [الحج : ٧٧] . ومنبره من خشب كتب عليه بخط أبيض الآية القرآنية الشريفة : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَكِّلَنَّكَ قَبِيلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ [البقرة : ١٤٤] . وفى هذا الجامع ألفا دولار ، وعرض الدولار منها قدمان

وارتفاعه ستة وسبعة أقدام. وبناء على هذا الإحصاء يكون الدواليب تسعة آلاف دولاب وهى مكتظة بالكتب وفيها حاجيات طلاب العلم من مأكول ومشروب وغير ذلك. ولا يخلو هذا الجامع من اثنين أو ثلاثة آلاف ضرير من حفظة القرآن الكريم، ولهم فى مباحثهم فى العلم أصوات تلقى فى القلب الخشوع.

وخارج الحرم ماحة مرصوفة بالبلاط الأبيض ومساحتها طولاً وعرضاً مائة وخمسون قدماً والحرم مرصوف بالرخام الأبيض المصقول والحجر المجلو. وإذا ما هطل غيث الرحمة فلإنه يملئ الصهاريج الموجودة أسفل هذا الحرم وتمتلئ هذه الصهاريج من ماء النيل بما يحمل أربعون ألف جمل، وذلك ضمن أوقاف الجامع. وداخل الحرم فى ثلاثة مواضع فوهات آبار وكان هذا الصهريج بحر من الماء الزلال.

وعلى جوانب الجامع أربعة وخمسون رواقاً أى مقر لخمسين قوماً من بلاد مختلفة وحقيقة الأمر أن فى كل رواق من أروقتها جمع من العلماء المسلمين من بلد إسلامى ولا علم لسكان أى رواق بلغة أهل الأروقة الأخرى ولا أحوالهم فكل منهم مشغول بالخاص من شأنه. أما فى وقت الصلاة فكان اليوم يوم الحشر والعظمة لله. وهم يحملون حاجياتهم ويجددون وضوءهم ويؤدون الصلاة ثم يعودون إلى الاشتغال بالعلم وحتى الآن لم أسمع فى الأزهر كلاماً بذيقاً. وكلما وجدت فى الأزهر نسيب علائق الدنيا ودخلت فى حال آخر وطابت نفسى. والأزهر تمتلئ بعلماء مصر وفى مائة وسبعين موضعاً يلقى العلماء دروسهم.

ورواق الأتراك نظيف ويسكنه جميع الأتراك وجميع من يسكنون الأروقة يميلون إلى رواق الأتراك وله أوقاف عظيمة، ورواق العراقيين ورواق المغاربة غير نظيف. وفى أروقة الأندلس والفونجستان والكرديستان وأروقة التار وداغستان والعجم وغيرها من الأروقة الخمسين طلاب العلم. وهم يدرسون جميع العلوم الغريبة والعجبة كل يوم. وما يسمى بالأروقة فى الجوانب الأربعة من الجامع مائتان وخمسون عموداً من الرخام الأبيض. وبناء على هذا الإحصاء فهذه الأعمدة أربعمائة عمود. وفى داخل الجامع وخارجه اثنا عشر ألف قنديل تثار كل ليلة ولا تمس حاجة الطلبة إلى الشمع. وعندما

كان أزهري القائد يبنى هذا الجامع كتب طلسمًا وبذلك لا يدخل الجامع من الطيور اللقلق والصقور والحمامة ولا تتعش فيه وهذا طلسم عجيب.

وخلف باب المحراب تقوم منارتان وكل منهما من خمس طبقات وللجامع سبعة أبواب وهي جميلة الصنع من النحاس الأصفر. وعلى الجانب الأيسر للحرم حوض شافعي ومساحته عشرة أقدام في مثلها. وفي الجوانب الأربعة للجامع في سبعة مواضع متصلة مدارس ودور للحديث ودور للقراء وكلها في أطراف الحرم الكبير للجامع وكلها مكتظة بالمدرسين والطلاب وفضلاً عن هذه الأروقة يتصل بالجامع ربوع إذا دخل الإنسان حجرات واحد منها تَوَهَّته وهذه الحجرات غاصة بالأعيان والعلماء والصلحاء.

وخلاصة القول أن في الأزهر اثني عشر ألف إنسان. وإذا أعلن علماء الأزهر ثورتهم خرج من الجامع منهم سبعمائة رافعين العلم اللهم عافنا إن ثورتهم غاية في شدتها. وإذا ما دخل الجامع الأزهر مجرم أو لص وتاب وأناب لم يستطع الحاكم أن يأخذه بالعقاب. وفي كل يوم يختم القرآن أكثر من ألف مرة. وإذا أراد أحد أن يختم القرآن على روح أبيه أو ولي نعمته دفع لمن يتلو القرآن ثلاثين باره ولو دفع أكثر أخذوها مع كيسه غضبًا. ويختم القرآن من يتلوه في سبع ساعات والحفاظ كثيرون. وفي الصباح والمساء يوزع على الفقراء من مطبخ نعمة الله حساء الأرز والعدس مع رغيف. وفي ليالي الجمعة يوزع أرز الزردة واليخنى ويبدو الجامع ليل نهار كان فيه صاعقة لشدة ارتفاع أصوات من فيه من الناس. وللمذاهب الأربعة فيه من لهم الرياسة عليها. فلمصطفى أفندي الرياسة على رواق الأتراك وكم من مجرم أصبح عبرة لمن يعتبر.

ولرسوخ الاعتقاد في الجامع الأزهر تبذل له الصدقات والنذور والصرر والعطايا وذلك من أهل القاهرة وغيرها من البلاد. إن له أوقافًا عظيمة وإن اللسان عن مدحه لعاجز.

جامع السلطان أحمد بن طولون

في عام ()^(١) قدم السلطان أحمد بن طولون الإخشيدى من بلاد المغرب ورأى

(١) يياض في الأصل.

النبي ﷺ في المنام. فكان ذلك سبباً في إقامته لهذا الجامع. ومن يشاهد هذا الجامع يظن أنه قلعة لأن جدران أركانه الأربعة وجدرانه ومئاتها ليست لقلعة من القلاع. إنه جامع عظيم مربع الشكل يرتفع جداره أربعين ذراعاً وكأنما في حجم الكعبة الشريفة. ومحرابه طبق ما أمر به الرسول ﷺ ولذلك أصبح قبلة، وهي قبلة مساوية لكل المواقيت، وبما أنه موضع نظر الرسول ﷺ فله روحانية خاصة. وهو كعبة الفقراء لأنه معبد قديم. وقد جاءت أوصافه في تواريخ القبط. ويسمون أرضه في التواريخ القديمة «الأرض الحمراء القصوى» ويسمون جبله «جبل الكباش» ولكن حينما ضرب عمرو بن العاص - رضى الله عنه - الحصار على مدينة الفسطاط وأقام بنو يشكر خيامهم في هذا الموضع المسمى بالفسطاط فسمى هذا الجبل «جبل يشكر» وكان اسمه من قبل «جبل الكباش» ولما شيد أحمد بن طولون قلعة غلبه عرفت بقلعة الكباش. ذلك أنه في أيام القباضة كان ثمة طلسم من نحاس لكباش وكان وجه هذا الكباش متجهاً نحو جبل الأهرام بالجيزة. ولما كانت سوق الغنم في هذا الموضع سمي الجبل «جبل الكباش» وهذه السوق باقية إلى اليوم في ذلك الموضع. ولما كان موسى عليه السلام راعياً كان يرعى غنمه في ذلك الموضع وفي الموضع الذي كان يصلى فيه محراب هذا الجامع. كما كان فيه كذلك مقام موسى عليه السلام والخضر.

وقد رأى أحمد بن طولون النبي ﷺ في المنام وهو يقول له:

«يا أحمد أقم جامعاً في موضع مقام أخى موسى»، ونزولاً على أمره ﷺ في الموضع الذي كان موسى يناجى فيه ربه فوق جبل يشكر وهى أثر قدم موسى عليه السلام بنى أحمد بن طولون جامع. إنه معبد قديم وفي محرابه وقت الصلاة يستجاب دعاء الدنيا والآخرة. ومن باب قبلة هذا الجامع حتى باب الغربى مائة وعشرون قدماً أما عرضه فمائتا قدم. وداخل الجامع من ناحية القبلة تسعون عموداً عليها قباب حجرية ذات روافد منعلاها إلى أسفلها. وفي الجوانب الأربعة للحرم العظيم عقود حولها مائة عمود وبين الروافد مائة وستون لوحاً رجاجياً. وللجامع ستة أبواب ومن باب القبلة الكبير يصعد بسلم له ثمانى عشرة درجة. وكانت مياه بركة الفيل تنصب في أصل هذا

السلم وكانوا يتوضئون بمائها، وآثارها ظاهرة الآن للعيان ومن الحرم العظيم إلى القبة التي تتوسطه تشبه الكعبة وتحت تلك القبة حوض شافعي وعلى يسرة هذا الحوض نخلة عظيمة لا نظير لها في أرض مصر. وبأمر رسول الله ﷺ حينما جنى تمر المدينة لوحظ أن تمرها من هذا التمر.

وحرم الجامع مرصوف بالرخام الأبيض من أوله إلى آخره. وللحرم كذلك مقصورتان وله منارة عجيبة بديعة لا وجود لها في بلاد الإسلام وهي مربعة الشكل ومن ثلاث طبقات وهي في الجهة الشمالية للجامع تطل على الطريق. والصعود في جميع المنارات من داخلها أما هذه المنارة فتصعد من الخارج وذلك بفضل براعة المعمارى الذى بناها. والمؤذنون يصعدون إليها من الخارج وهي من ثلاث طبقات وارتفاعها مائتا قدم. حتى إن فارساً من فرسان رضوان بك أمير الحج صعداها على جواده وهي ليست غليظة إلى هذا الحد ولكنها من عمل معمارى ماهر.

كيف يكون السماع كالمشاهدة ؟

إن الوصف يعجز عنها وينبغى مشاهدتها، وهي أعلى من كل المنارات وفي ذروتها بدل العلم علم من النحاس على هيئة القارب يقولون إنه طلسم ويقول بعض أهل العلم إن النيل طغى ماؤه حتى بلغ هذه المنارة، وهذا أمارة على غرق مصر على ما يزعمون. إنها الآن عجيبة تشاهد.

وعلى يسرة جدار الحرم كتبت البسملة وطولها أربعون قدماً وخطها بديع وكل ألف فيها بطول ثمانية أذرع وذيل حروف تلك البسملة مرتفع وهو سحر مبین وهي على الجدار مصقولة مجلوة وتبدو كأنها كتبت لشيء وقد كتبها (الفقيه أحمد القره حصارى) عام ٩٤١. وجامع ابن طولون وبسملة التي كتبها «قره حصارى» لهما الشهرة بين الرحالة من العرب والترك والعجم.

وفي الجدار للجوار لهذه البسملة كتبت (و) كلمة (والله) بقلم غليظ اتساع ثلاثة أشبار وهي (و) مستديرة طولها عشرة أذرع وهذا قلم له إعجاز السحر. وعلى يمين باب قبلة الحرم بسملة أخرى وهي كذلك مثل البسملة الأولى إلا أنها مكتوبة بخط أبيض

وهى كذلك طولها أربعون قدماً ولكنها بخط «حسن جلبى القره حصارى» وفى جدار قبلة هذا الجامع بابان يفتحان على سوق المغاربة، وفى ركن الباب الأيمن منارة من طبقتين، وفى ركن الباب الواقع على الناحية اليسرى منارة من طبقتين. وخلاصة القول أنها ثلاث منارات بديعة الصنع. كما أن للجامع منبر خشبى وقد نجر فكان كالسحر الحلال يحار عقل من يشاهده. . ومحرا به كذلك من الرخام المحلّى بالصدف وهو سحر إعجاز.

جامع الحاكم بأمر الله

كان أميراً من بنى العباس وبعد غارة هولاء على بغداد فر منها إلى مصر، وكان ساكناً فى قلعة الكيش. وظل خليفة إحدى وأربعين سنة وأقام هذا الجامع، إنه جامع عظيم كأنه القلعة يقع بين باب الناصر وباب الفتوح. مساحته طولاً وعرضاً مائتا قدم. وللجامع سقف كثير النقوش يقوم على مائة وخمسين عموداً أبيض وليست له قباب حجرية، وله حرم واسع كأنه سهل، وفى منتصف هذا الحرم جدار مربع، ويدخله حديقة، وفيها الورد والريحان والتب، وفيها نخيل. ومنبره خشبى مزخرف، ومحرا به من الطراز القديم، ولكنه متقن الصنع وله ثلاثة أبواب: أولها باب القبلة وهو متجه إلى باب الناصر. والآخر يتجه إلى باب الفتوح، أما الثالث فيتجه إلى اليمين. وله ثلاث منارات، أما المنارة التى تتوسط المحراب ضيقة بحيث لا يستطيع رجل أن يصعدا ويمكن أن يصعدا طفل، ومنارتان كأنهما برجان ركينان، طبقاتها السفلى تتسع لخمسائة رجل يعلوها (شريفة) بديعة الصنع وفوقها طبقة أخرى أصغر وهى كذلك مزخرفة، وهذه المنارات تشبه عمامة البكتاشية طبقة طبقة.

جملة القول أنها منارات رائعة. ولقد بنى الحاكم بأمر الله هذا الجامع ورتب للقائمين عليه اللبن والتمر والسكر. ومع ذلك لم يكن الناس يأتون إلى جامعهم وفى النهاية ملا الجامع الأزهر بالقمامة وبذلك ملا جامعهم بالناس ونسى جميع العلماء أنهم لا يجدون فيه الملائكة التى يجدونها فى الأزهر. وفى النهاية فروا من جامعهم الواحد تلو الآخر. وكانوا يتلون القرآن فى الأزهر على الزيل وكانوا يحملون القمامة من الأزهر على

ظهورهم ويخرجونها منه . ودامت الحال على ذلك مدة من الزمن وذات يوم من عام ٧١٧ قتل الحاكم بأمر الله ووجد الناس الخلاص من شروره . لقد تحدثوا كثيراً عن سفاهة الحاكم بأمر الله وقالوا إنه فى مذهبه متأثر بالمعتزلة وعند بعض المؤرخين أنه لم يكن على أى مذهب كان . لذلك لا يصلى فى هذا الجامع كثير من الناس . ولقد أصبحت ساحته محكمة ولذلك كان فى وسطه طريق يقطعونه من باب النصر إلى باب الفتوح .

جامع الظاهر بيبرس

ملوك للعباسيين وأحد خلفائهم ، وجامعه فى الجهة الشمالية للقاهرة على أطراف المدينة وهو كذلك جامع كانه القلعة وفى عهد الظاهر بيبرس أعمل السيف فى الصليبيين فى بيت المقدس ، وبعد أن فتحه بنى هذا الجامع من مال الغنائم . وليس فى القاهرة جامع مثله فى زخرفته وإتقان بنائه . ومساحته مائة وخمسة وثمانون قدماً طولاً وعرضاً . وناحية محرابه مائة وسبعون عموداً من الحجر الصماقى الأحمر والبرقانى والزنبورى والرخام الأبيض . وكل عمود منها يعدل ما يؤديه الروم من خراج . ويتوسط المحراب قبة عالية يحملها اثنا عشر عموداً رخامياً غليظاً وهى ترتفع إلى الأفلاك التسعة . وهى مزينة بالزجاج مختلف الألوان . والجدران فى طرف هذه القبة مكسوة من أسفلها إلى أعلاها بالرخام ، وأعلى هذا الرخام صورة لشجرة طوبى وكَلستان على صفحة من الميناء ، وتحار العيون بمشاهدتها . وفى حرمه عدة أشجار نبق . وله ثلاث منارات صغيرة يبدو أنها ناقصة البناء ، والله أعلم . ولهذا الجامع ثلاثة أبواب . والمصلون فى هذا الجامع قلال . وقبة المحراب مكسوة بالرصاص . وفى القاهرة ثلاث قباب مثله مكسوة بالرصاص ولا وجود لسواهم . ويخترق هذا الجامع طريق أصبح طريقاً عاماً . وعلى الأعمدة سقف منقوش بالسيلو واللازورد . وليس له قبة حجرية . وفى جوانبه الأربعة زجاج منقوش . ودقة الصنع فى منبره ومحرابه ومكان مؤذنه لا وجود لها فى جامع آخر . والصنعة المعمارية فى باب قبلة حرمه لا مثيل لها فى ديار أخرى . إنه حقاً جامع جدير بالمشاهدة .

جامع خای آتابك

من وزراء السلطان حسن. وهو جامع يقع بالقرب من جامع السلطان حسن وعلى صف حمام الدفتردار وأمام دار عوض بك. يصعد إليه بسلم من ثمان درجات. وجميع جدرانه من الأحجار الحمر والبيض المنقرشة. ولا وجود لأعمدة داخل الجامع وله سقف مذهب قائم على روافد. ومنبر محرابه بديع الصنع. وله بابان أحدهما باب الميضاة وهو على الجهة اليمنى. ولوقوع الجامع على الطريق العام الرئيسى فليس له حرم. وباب قبلته مفتوح على الطريق العام، وقد كتب على يمينه ويسرة هذا الباب بخط جلى (بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) وبعد هذه الآية الشريفة كتب على يسرة الباب (أمر بإنشاء هذا الجامع المدرسة المباركة المقر الأشرف العالى المولوى أمير النعمى الخاى آتابك العساكر المنصورة الملك الأشرف أعز الله نصره بتاريخ سنة أربع وسبعين وسبعمائة). وعند باب الحديد يقع:

جامع السلطان المؤيد

وهو سلطان (١) رفيع النسب، وهو الذى بنى هذا الجامع منقطع النظر. إنه جامع معلق، أسفله طوابق أرضية ودكاكين وله ثلاثة أبواب ويصعد إليه بسلم حجري من خمس عشرة درجة. وعلى جانبيه سبعون نافذة كلها تطل على السوق السلطانية. ولازدحام الناس فيه فهو أكثر المساجد ازدحاماً بعد الجامع الأزهر. إنه جامع يسرى فيه النسيم ويشرح الصدر. مساحته مائة وستون قدماً فى مثلثها. وناحية محرابه أربعة وثلاثون عموداً تحمل سقفاً منقوشاً. ولا وجود فيه للقباب. والعقود التى حول حرمه يحيط بها خمسة وتسعون عموداً.

وبناء على هذا الإحصاء يكون له مائة وثلاثون عموداً من الرخام تحمل سقفاً. وطرف جدار محرابه مكسو بالرخام وحرمه الواسع الذى يشبه السهل مرصوف بالرخام الأبيض المصقول ولا وجود لنظيره فى أم الدنيا. وهو مجلو على الدوام ولأن هذا

(١) بياض فى الأصل.

الجامع معلق فإن أرضه يابسة وجدرانه الأربعة من الرخام المجلول، وفيه يبدو وجوه الساجدين في ركوعهم وسجودهم. وبما أن أوقافه كثيرة فخدامه كثير، وهم على الدوام ينظفون الجامع. ويتوسط حرمه حوض عظيم تعلوه قبة عالية مرفوعة على ثمانية أعمدة بديعة من الرخام، وشادرواناتها دائمة الجريان ومنها يجدد المصلون وضوءهم.

وللجامع منارتان وعلى جانبي بابه الحديدي منارتان عاليتان ذات ثلاث طبقات ولكن كل منهما قريبة من الأخرى وغاية في دقة البناء، وثمة منارة أخرى في الركن الواقع على يسرة المحراب. والمحراب غاية في الجمال ومنبره من الخشب المزخرف. كما توجد مقصورة هي مقر المؤذنين مبنية على ثمانية أعمدة رقيقة بديعة. وله سبعون نافذة لها قفص نحاسي ولها مائة وعشرون لوحًا من رجاج.

وخلاصة القول أنه جامع يشرح قلب من يشاهده، وفيه من الثريات ما لا وجود لثلثها في جامع سواء. وفي محرابه فانوس من النحاس الأصفر. وللجامع ألفا قنديل وكأنه مصباح منير. وهذا الجامع ركن البناء كالقلعة.

وفي عام ١٠٧٢ حينما كان عمر باشا واليًا على مصر أعلن مماليكه العصيان فتحصنوا في هذا الجامع، ودام القتال بينه وبينهم ثلاثة أيام بلياليها. وقد حاول استمالتهم فأصدر عفوه عنهم وأمنهم. إلا أنهم استمروا في تمردهم عليه واستأنفوا القتال وأغاروا على أرجاء المدينة هنا وهناك؛ فأخرج عمر باشا العلم النبوي المبارك وجعل المنادين ينادون في المدينة يرددون أنه ليأت من يدينون للسلطان تحت هذا العلم، وأن قتل هؤلاء العصاة حلال، وأموالهم كذلك غنيمة للسلطان. ثم غنطق عمر باشا بسيف الفاروق عمر وأحضر ما يقرب من خمسة مدافع من طراز «بال يمز» وأقام الحواجز عند حمام الصوباشي ونشب القتال من نوافذ وأسطح المنازل، وأطلق عمر باشا عدة قذائف فأصاب بعضها جامع المؤيد؛ فألقت الرعب في صدور العصاة فتبدلوا من قرارهم بفرارهم، وتبعوهم من شارع إلى شارع وأعملوا فيهم السيف. وبحسن تدبير عمر باشا دخل القلعة مظفرًا منصورًا ووجد فلولهم فقتلهم.

وبذلك استتب الأمن فى القاهرة. حقًا إن له شجاعة وعدل عمر. ولا تزال آثار
قذائف المدافع ماثلة إلى الآن فى بعض مواضع الجامع.

جامع السلطان حسن بن محمد بن قلاوون

كان سلطانًا من عظماء الأتراك وفى النهاية ثار عليه مماليكه واغتاله من يسمى يلبغا
الذى قتله الملك الأشرف من أبناء السلطان قلاوون ومزق جسده إربًا إربًا، ونال يلبغا
جزاءه. وكان ليلبغا مملوك شركسى يسمى برقوق ويسمونه كذلك برقوق العثماني لأنه
لحق بخدمة السلطان الغارى «خدا وندكار» العثماني. ولكى يثار برقوق وجميع الأبخاز
والشراكسة من مصر، وبلغوا السلطان طاهر سيف الدين أبا سعيد فى دمشق ووزر له
برقوق. ومن أجل روح سيده يلبغا وعمارة مسجد السلطان حسن أرسل خزانة من
الدنانير الذهبية، وبذلك جعل من جامع السلطان حسن فى ميدان الروملى جامعًا عظيمًا
وحوله إلى قلعة حصينة. وليس فى بنيانه خشب قط ولا يتصل بالجامع أى بناء آخر.
وعلى الجوانب الأربعة للجامع طريق عام، وأساس جدرانه حجارة ضخمة فى حجم
الفيل. ومحيطه من الخارج ألفا قدم حتى إنه قيل إن السلطان سليم فاتح مصر عند
مقدمه من العادلية رأى هذا الجامع فقال: ما هذه القلعة التى لها منارتان؟

ويسمونه جامع السلطان حسن، ويقال إن السلطان الغورى قد تحصن فيه وهو يقاتل
وذلك وإن دل على شىء فإنما يدل على أنه إلى هذا الحد فى متانة القلعة الحصينة، وهو
أكثر متانة من قلعة مصر. حتى إنه فى عام (١١) ثار المماليك وتحصنوا بهذا
الجامع، وأطلقت المدافع من برج العزب على الجامع إلا أنهم لم يلحقوا به الدمار.
والصدور إلى الآن ظاهرة فيه.

وجدران هذا الجامع الأربعة عليها نوافذ المدرسة ذات الطبقات العشر. وهى حجرات
طوابق المدرسة. وارتفاع جدرانها الأربعة مائة ذراع وهى جدران عظيمة الارتفاع.

(١) يياض فى الأصل.

وللجامع بابان أحدهما فى الناحية الشرقية يفتح على سوق السباهية، وهذا الجامع معلق يصعد إليه بسلم حجرى من عشرين درجة من كلا البابين. وعلى الباب روافد على هيئة المحراب وقد صنعها معمارى ماهر فاحسن أيما إحسان وكأنما صنع السحر.

وارتفاع روافد الباب ثمانون ذراعاً. ومصرعا الباب من النحاس الأصفر دقيق الصنع. ويبلغ طول المصراع عشرين ذراعاً. وعلى جانبى هذا الباب كتب بخط كوفى على لوحة سمكة طولها ثلاثة أقدام الشهادة وقد كتبت بالرخام الأبيض والأسود ولم يظهر فيها أثر للبللى منذ ذلك الزمان. وداخل هذا الباب طريق ضيق وهو مرصوف كذلك بالرخام الخالص. ويكون الوصول إلى باب الحرم بالتقدم مائة قدم فى هذا الطريق. وللحرم كذلك بابان أحدهما يفتح على ميدان الروملى فى طريق يمتد مائة قدم مرصوف بالرخام. وباب آخر يفتح على سوق السباهية وهو باب مرتفع متقن الصنع. وداخله باب للحرم كتب عليه: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان المرحوم الشهيد الملك الناصر حسن ابن مولانا الشهيد المرحوم الناصر محمد بن قلاوون ذلك فى شهر سنة ٧٦٤).

وتبلغ مساحة هذا الجامع مائة وثمانين قدماً طولاً وعرضاً. وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحرم العظيم عقود وكل منها كأنها جامع. وليس فى هذا الجامع أعمدة كغيره من الجوامع ولكنه مبنى على روافد. وفوقه وعلى جوانبه الأربعة سبعمائة حجرة للدرس. والآن يقوم على خدمة هذا الجامع خدام متزوجون وفى وسط هذا الحرم العظيم حوض جميل مشمن الشكل، وعلى جوانبه الثمانية أعمدة تقوم عليها قبة عالية. إلا أن مياه هذا الحوض جيرية وقبته دقيقة الصنع.

وجاء فى تاريخ فضائل مصر أنه حينما أرسل يزيد بن معاوية رأس الحسين إلى مصر سنة إحدى وستين للهجرة رغماً عن أهلها تركت فى موضع جامع السلطان حسن. وكم من يزيدى ركل رأس الحسين وكم من أرجل لهم تورمت وأصبحت كالقربة ومن ذريتهم الآن آلاف لهم أرجل كالقرب. ولكى يحفظ الله هذا الرأس الشريف أظهر بحيرة حوله فلم يستطع اليزيديون ركله، وبعد ذلك أقدمت امرأة من محبى أهل بيت الرسول ﷺ

على ذبح ولدها ليلاً وأخذت رأس الحسين ووضعت مكانه رأس ولدها. وإلى الآن رأسه محفوظ في مشهده. وفي عهد الخلفاء العباسيين عمر هذا المشهد.

وبعد عام ٧٦٤ أقام السلطان حسن هذا الجامع وأنشأ حوضاً عظيماً على حافة البحيرة التي ظهرت حول رأس الحسين تبركاً. ولقد ثار ممالك السلطان حسن عليه وضربوا عنقه عند حافة الحوض الذي فيه رأس الحسين وسال دم السلطان حسن في الموضع الذي كان فيه رأس الحسين.

وفي ذلك الوقت جف ماء الحوض فأنشأ أولاد السلطان حسن في هذا الموضع ساقية والآن يتلئ حوض الجامع من ماء الساقية. والآن حوض السلطان حسن مقام رأس الإمام الحسين، ولذا فإن الناس يتوضئون من ماء هذا الحوض ويدعون بالخير للحسن والحسين وموضع المؤذنين في ذلك الجامع مقام على ثمانية أعمدة رفيعة في رافد المحراب ولا وجود لمثله في مصر.

وزخرفة المحراب محلاة بالصدف وطرزها فوق طاقة البشر. والمنبر جدير بالمشاهدة وهو منبر ينتهي بالرخام ولذلك فهو منقطع النظير وزخارفه بديعة وكأنه منبر معلق لأن الناس يمرون تحته ذاهبين عائدين. والأطراف الثلاثة لجدار رافد هذا المنبر رخام طوله ثلاثة أقدام، وهذا الرخام مكسو بالواح الحجر الصماقي الأحمر والرخام. وأمام هذا المحراب دفن السلطان حسن تحت قبة بيضاء عالية. لقد اغتاله مماليكه والله أعلم. ولا وجود في الدنيا لمثل هذا القبر فعلاوة على النقوش مختلفة الألوان فيه كتب قيمة وبسط منسوجة بخيوط الذهب ومصاحف وثريات نفيسة وعدة مئآت من القناديل المرصعة بالجواهر وشمعدانات ومباخر وأوعية لماء الورد. وكان هذا الضريح ضريح النبي ﷺ. وعلى يمينه المحراب ويسرته نافذتان تطلان على قبر السلطان حسن ولهما قضبان من النحاس إحدهما تبدو وكأنها باب يدخل منه إلى الضريح. ولها تين النافذتين مصاريع يبلغ طول الواحد منها ثلاثة أقدام، وعرضه باعان. إنها مصاريع مكسوة بالذهب والفضة، ومرصعة بالسيلو واللازورد. وكل مصراع منها يقدر بقيمة خزانة مصرية وهذا حق ولا يستطيع صانع أن يكسرها بمطرقة ولا أن يبردها بمبرد.

رأينا جوامع الدنيا جميعاً ولكن ما رأينا مثل هذا الجامع

وفوق جدران المحراب منارتان عاليتان، وقد انهدمت المنارة اليسرى فى عهد الدفتردار إبراهيم باشا فأقاموا منارة أخرى على أساسها، إلا أنها منارة قصيرة من طبقتين. أما المنارة اليمنى فهي عالية من خمس طبقات تضاء بالقناديل. ولا وجود فى مصر لمنارة أعلى من هذه المنارة. وعند الصعود من داخل الجامع إلى سطحه عبر باب المنارة يكون الارتفاع تسعون قدماً ومن داخل المنارة إلى أعلاها يكون الارتفاع تسعون قدماً كذلك. وبذلك يكون الارتفاع بتمامه مائة وثمانون قدماً. ولقد صعدتها فتعبت ركبتاى ثلاثة أيام. إنها منارة عالية وطبقتها الوسطى تتساوى فى الارتفاع مع باب القلعة الداخلية مع عتبه. وبناء على هذا القياس يبدو كيف أن القلعة الداخلية بناء عالٍ طيب النسيم.

وتحت هذا الجامع طريق على جانبيه خمسون دكاناً وميضأة وأحواض شافعية ودار للضيافة وسواق. إنه بناء ركين له أوقاف عظيمة ونظارة هذه الأوقاف لرؤساء خزنة وزير مصر، ويتقاضى الواحد منهم ثلاثة أكياس فى العام.

وأمام محراب جامع السلطان حسن طريق يؤدى إلى:

جامع محمود باشا

من وزراء السلطان سليمان. وقد شيد هذا الجامع عندما كان والياً على مصر وفى ليلة أول جمعة أدى صلاتها فيه رأى فيما يرى النائم أن السلطان تربيع على العرش وعقد الديوان وجمع علماء مصر قاطبة وقال لهم: لى مع محمود باشا نزاع شرعى لماذا أقام جامعاً فى حدودى لقد سرق المصلين من مسجدى. وما الذى يتخذ تجاه هذا التصرف منه؟ وعندئذ قال العلماء جميعاً: ينبغى أن تخلع عليه خلعاً لأنه أقام جامعاً أملاً فى رحمة الله به وسرق هذه الرحمة. فغضب السلطان حسن وقال: ينبغى أن أقتل محمود هذا وأستدعى الجلاديين، وطلب إلى أن أجتر وضرب عنقى. وقص محمود باشا هذه الرؤيا على إمامه وطلب منه أن يفسرها له. فقال الإمام: خيراً. وفى اليوم التالى بينما كان محمود باشا فى موكبه يمر أمام جامع السلطان حسن أطلق أحد الجنود الرصاص

عليه وفر القاتل. إلا أن رجال محمود باشا أسقطوا القاتل عن جواده ودفعوا به على جثة محمود باشا وبينما كانوا يضربون عنقه أصاب السيف جثة محمود باشا ففصل رأسه عن جسده وقتلوا القاتل كذلك بجانب جثة محمود باشا. وهو الآن مدفون في قبر مرتفع أمام محراب جامعه.

وسبب استشهاد هذا المصراع الذي أصبح تاريخاً لوفاته: كانت خاتمة محمود سنة ٩٧٥.

وهذا الجامع جامع لطيف معلق على الطراز التركي ويصعد إليه بسلم حجري من اثنتي عشرة درجة. إنه جامع صغير لطيف وله منارة على الطراز الاسطنبولي. وعلى يسرة جامع محمود باشا طريق يقضى إلى:

جامع ميرآخور الكبير

إنه كذلك جامع معلق صغير جميل، كل جدرانه مزخرفة. وعلى يمينه باب يصعد إليه بسلم حجري من ست عشرة درجة. وعلى رافد بابه كتب بالمرمر الأبيض بخط جلى هذه الآية الشريفة: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ {الإسراء: ٨٠}. وعلى يمينه ويسرة هذا الباب كتب على الرخام بخط جلى: (إنشاء أيام هذه المدرسة المباركة من فضل الله المعز الأشرف العالى المولى الوالى لسنفى فأنالى أمير آخور الكبير أعزه الله تعالى).

ويعلو بابه منارة رشيقة مربعة من أربع طبقات.

إن هذان الجامعان ليسا من جوامع السلاطين ولكنهما ملتصقان بجامع السلطان حسن ولذا ذكرتهما.

جامع السلطان الغورى

إنه قريب العهد لأنه بنى عام ٩١٦. وبما أنه بنى بعد كل الجوامع الأخرى فقد سرق مهندسُه تصميمه من تلك الجوامع. ومن يتعرف إلى جامع الغورى يدرك أن مهندسَه له اليد الطولى. إنه أقام جداره من رخام وسماق ملون ومزج الرخام بالصماق بحيث لم يكن بين هذا وذاك موضع لرجل بعوضة. كما مزج رخام أرضيته بحيث يظن من يراها أن الأرضية من حجر واحد. والرخام الذى فيه كالذى فى قصر الغورى. ولوجود هذا الجامع فى سوق الغورى يؤمّه كثير من المصلين.

وبعد أداء الصلوات توعد أبوابه لأن خلاص الجامع من الفلاحين فى مصر غير ممكن لأن هذا الجامع طيب النسيم وكأنه قصر. فإذا فتح على الدوام أعدوه داراً للضيافة والاستراحة. إنه جامع معلق يصعد إليه من السوق السلطانية بسلم حجري من تسع درجات وذلك من ناحيتين. وله باب خلف باب القبلة (تاقه جيلر ايجنه مكشوفدر) ويصعد إليه بسلم حجري من عشر درجات. وله محراب بديع الصنع يعجز صناع الهند عن صنعه. إلا أن منبره صغير وهو منبر خال من الزخارف لأنه مصنوع من خشب العود. وجوانب هذا الجامع الأربعة لها قباب ذات روافد ولا وجود لأعمدة فيه وهو يزdan بثريات نفيسة مختلفة، ونوافذه تطل على السوق السلطانية وفيها زجاج بديع تنفذ نور الشمس فيجعل الجامع نوراً على نور. وفى جامع السلیمانیة فى اسطنبول زجاج مثل هذا. ولأن الجامع مبنى فى مكان ضيق ليس له حرم وكأنه قصر عالٍ. وعلى محرابه قبة زرقاء عالية مكسوة من أسفلها إلى أعلاها بالقيشاني اللازوردى. وللجامع منارة من أربع طبقات متشعبة من أسفلها إلى أعلاها وأمام هذا الجامع طريق يقضى إلى:

ضريح السلطان الغورى

ضريح مرتفع إلى عنان السماء وهو مكسو باللازورد بدلاً من الرصاص. إنه الآن زاوية يؤمها المصلون. ولها خدام. وهذا الضريح علوى كذلك يصعد إليه بسلم حجري من عشر درجات وكأنه قصر ملكى. وفى جوانبه الأربعة كوات تطل على السوق

السلطانية. وهذا الضريح عليه نقوش ذهبية مختلفة الألوان وكأنما بنى بقدرة إلهية وكأنه قصر من قصور إرم ذات العماد. إن اللسان ليعجز عن وصفه ولقد شاء السلطان الغورى - رحمه الله - أن يجعل هذا الضريح له فأمر بتذهيبه وزخرفته، ولكن «العبد يدبر والله يقدر» وفقد الغورى فى حربه مع السلطان سليم فأصبح هذا الضريح زاوية. وفى هذه الزاوية منشفة وضوء النبى ﷺ ومكحلتة ومروده وشعرات من لحية الشريفة، وهى محفوظة فى صندوق مرصع بالجواهر وهذا الدولاب مغلق. وبعض الأعيان يأتون لمشاهدته تبركًا. وعندما قدمت من بلاد الفرغة عشت عيناى من شدة الحر، وجرت على أن أكحل عيني من مكحلة النبى ﷺ فقوى بصرى ووجدت الفائدة من اكتحالى. وفى هذا الضريح والجامع المقابل له طلسم له خاصية عجيبة فليس بهما بعوض ولا ذباب ولا بق. وإذا ما داوم على المجيء إليه رجل مقمل لم يبق قمل فى رأسه. إنه طلسم عجيب غريب. ولقد عرفت عدم وجود البعوض والذباب فيه وكنت أداوم على المضى إليه وداومت على أن أنام كأصحاب الكهف لأنه مكان طيب النسيم ولا وجود فيه لعذاب البعوض. وطالما اجتمع فيه ظرفاء القاهرة. إنه جامع يستحق المشاهدة والسلام. ولقد أعيد بناؤه عام ٧٧٧.

جامع السلطان برقوق

مجاهد فى سبيل الله من صفوة الشراكسة. وكان فى أول أمره مملوكًا لمن يسمى يلبيغا الذى قتل السلطان حسن صاحب الجامع. وكان برقوق فتى شركسيًا شجاعًا من قبيلة بسنى الشركسية. وحينما هم الملك الأشرف بالثار من يلبيغا لقتله السلطان حسن وتمكن من قتله ألف برقوق جيشًا من أربعين أو خمسين ألفًا من الشراكسة والأبخاز وثاروا مطالبين بالثار لسيدهم يلبيغا إلا أنهم انهزموا فى النهاية وأبعد برقوق وجميع من معه من الشراكسة والأبخاز إلى الشام. وهناك أصبح سلطانًا عظيم الشأن وفتح عكا وصيدا وبيروت وطرابلس الشام، ثم عاد إلى مصر سلطانًا عظيمًا على رأس جيش جرار. وكان اسمه يذكر فى الخطبة على أنه «الملك الطاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق العثماني».

وفى عام ٨٠٠ أصبح برقوق هذا أول سلطان من الشراكسة. وقد أقام هذا الجامع من أموال الغزو فى السوق السلطانية. ويؤم هذا الجامع كثير من المصلين. وهو جامع معلق يصعد إليه بسلم حجرى من ثمانى درجات. إنه بناء عظيم على الطراز القديم. ومساحته مائة وسبعون قدمًا فى مثلها. وفى جوانب حرمه الأربعة أربعة عقود ذات روافد. ويتوسط حرمه حوض عظيم ومنبر محرابه من الطراز القديم وله مثذنتان وهما لا تشابهان، بناهما معمارى بارع بذل قصاره فى بنائهما فصنع مثذنتين بديعتين وكل منهما من ثلاث طبقات. وليس للجامع باب يطل على السوق. وطاقاته ومصاريع بابه النحاسية يعجز عنها الوصف. وهو مشهور بين جميع الرحالة بباب «البرقوقية». وكتب على محراب هذا الجامع قوله - تعالى -: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ (١). وتحت هذه الآية تاريخ هو: (أمر بعمارت فى أيام مولانا السلطان برقوق سنة سبع وسبعين وسبعمائه. ولا وجود لاعمدة داخل هذا الجامع، وكله بناء ذو روافد والرخام الذى فيه لا وجود له فى سواء ويتصل بهذا الجامع:

جامع الملك الكامل محمد

كان السلطان الكامل سلطانًا شجاعًا مشهورًا تقياً من صفوة سلاطين الأيوبيين، وهو الذى بنى هذا الجامع وطرازه هو عين طراز جامع السلطان برقوق، ولا فرق بينهما البتة. وإن كان بينهما فرق فهو فى المنارة التى تختلف فى طرازها عن منارة جامع برقوق. كما أن قبة هذا الجامع أكثر ارتفاعاً من قبة جامع برقوق إلا أنها قبة مستديرة من الخشب. وله قبة أخرى مكسوة بالرصاص، فالفرق بينهما فى المنارة والقبة ليس إلا. والسلام.

وعلى جانب جامع البرقوقية:

(١) الآية الكريمة ٥٠ من سورة الروم.

جامع السلطان ناصر الدين

سلطان غازى حبيب النسب من سلاطين الأيوبيين، وهذا ما يبدو من آثاره. وله جامع عظيم يشبه جامع السلطان حسن. وداخله مصمم على نفس الغرار. وله أربعة عقود. وهو بناء ذو روافد ولا أعمدة بداخله. ومساحته مائة وخمسون قدمًا فى مثلها. ومنارته كأنها برج مزخرف يعجز عنها الوصف. ويتوسطه حوض شافعى مساحته عشرة أقدام فى مثلها. وعلى باب الحرم تاريخ مكتوب هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع والمدرسة المباركة السلطان العادل ناصر الدين بن محمد بن السلطان سيف الدين بن السلطان قلاوون الصالحى) ومقابل هذا الجامع:

جامع السلطان الطاهر

إنه جامع معلق كذلك يصعد إليه بسلم حجرى من بضع درجات. وهو جامع عتيق ومساحته مائة وسبعون قدمًا فى مثلها. وعلى جوانب حرمه الأربعة أربعة عقود عليها روافد. وفى حرمه حوض ومنبره قديم الطراز. ومنارته من ثلاث طبقات ورخام حرمه ليس متقن الصنع إلى حد بعيد. ولكن فى هذا الجامع روحانية. وتجاه هذا الجامع طريق يفضى إلى:

جامع السلطان قلاوون الصالحى

سلطان عظيم الشأن من آل ()^(١). إنه جامع معلق فى السوق. ويصعد إليه بسلم حجرى من خمس درجات. وله باب مزخرف عليه تاريخ مكتوب هو: (أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك فى أيام مولانا السلطان الأعظم الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى، وكان ابتداء عمارة ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٨٣). وفى أطراف حرمه العظيم أربعة صفوف من العقود. ثلاثة منها روافد أما فى العقد الذى فى جهة المحراب سقف منقوش مقام على ثمانية أعمدة من الرخام ومحراجه مزين بالصدف بديع الصنع. أما منبره فمزخرف بالرسوم النباتية. ويتوسط حرمه أربعة عشر

(١) بياض فى الأصل.

عمودًا دقيقًا من الرخام، عليها قبة عالية ذات سقف وتحتها حوض شافعي مساحته عشرة أقدام في مثلها. ونافورته تندفق كأنها السلسيل. وعلى الطريق بعيدًا عن الجامع منارة من ثلاث طبقات كأنها برج قلعة وهي مرتفعة للغاية. ويؤم الجامع كثير من المصلين لأن به مستشفى قلاوون والمبرات السلطانية. ولهم مؤسسات خيرية وأوقاف كثيرة. ويتصدق على خمسة أو عشرة آلاف غريب في كل يوم على الدوام. وسوف أتحدث عن مستشفاه ومبراته في موضعهما بمشيئة الله.

جامع السلطان الصالح

أحد سلاطين الأكراد. دبر الأمور في مصر، وألحق الهزيمة بالصليبيين في المنصورة ورشيد. ولقد أقام هذا الجامع من مال الغزو. إنه يوسف صلاح الدين بن أيوب الكردي. وهذا الجامع على الطراز القديم إلا أن فيه روحانية وجهة المحراب وخلفه باب، على جوانبه روافد وعقود. وعلى جانبي الحرم ثمانية أعمدة من الرخام. فوقها حجرات المدرسة. ونوافذها تطل على حرم الجامع ومحاربه ومنبره على الطراز القديم. ويتوسط حرمه حوض شافعي. وله منارة وباب، وعلى يسرة الحرم «سبيل خان» وخلفه قبر عالٍ دفن فيه السلطان الصالح. إنه ملك غاية في عظمته. ومن أبنائه سبعة سلاطين. كما أن سبعة من أحفاده خلفاء. وأوقافه معمورة إلى الآن. وعلى محرابه تاريخ تعمير هذا الجامع وترميمه وهو:

أنحف الله مصرنا بوزير قد تسمى باسمه الجليل الكريم، ثم تجديده سعد تاريخ نجم أشراف أحمد المرحوم سنة ١٠٦٣. وكان هذا الجامع بناء قديمًا ثم أصبح بناء جديدًا، وأصبح جامعًا هو نور على نور. إنه جامع عتيق. وعلى الطريق العام قبالة هذا الجامع يقع:

جامع السلطان الأشرف

آخر سلاطين الأيوبيين. وهذا الجامع معلق. يصعد إليه بسلم حجري من ست درجات إنه جامع بديع وكأنما بناه معمارى لتوه. وهو جامع تنشرح له الصدور وهو يشبه جامع السلطان الصالح في وجود عقود ذات روافد ناحية محرابه، ولا وجود

لعقود فى جوانبه . ولكن له جدران . ووسطه مكشوف ولا حرم له - وكل جوانبه الأربعة مكسوة بالرخام بسمك قدم . ولوقوع هذا الجامع فى السوق السلطانية يؤمه كثير من المصلين . وله منارة من ثلاث طبقات .

وهذه الجوامع السلطانية السبعة سالفة الذكر تقاربت جدرانها ومناراتها ومعظم الجوامع فى القاهرة على هذه الصفة .

جامع السلطان جان بولاد زاده

إنه جامع معلق يصعد إليه بسلم حجرى من عشر درجات . وسلم هذا الجامع خارج القلعة . ولقد أقيم هذا الجامع على أسوار القلعة وهو متصل بباب الناصر . إنه جامع صغير لا حرم له وهو منقطع النظير ليس فى القاهرة وحدها بل فى جميع بلاد المسلمين التى ررتها . وله قبتان عاليتان وهما مربعتان مديبتان ، وقد بنيتا على حجر طوله ذراع وليس لهما من نظير فى بلد آخر . وهما ليستا مكسوتان بالحص ولا بالرخام . ولكنهما من حجر وهذا الحجر معروف فى مصر وحدها وفى مناطق أخرى قباب من الحجر مثل هذه القباب إلا أنها على غرار هاتين القبتين . وكان للبناء قواعد وأصول روعيت منذ الزمان الغابر فى مصر وكان بناء كل قبة على نسق خاص ، ولذلك لم يكن بين هذه القباب تشابه .

كما أن المنارات فى القاهرة كان رخارف كل منها تختلف عن رخارف الأخرى ، وكل منها أقيم على طار خاص . مما أضفى على المدينة زينة . ولجامع جان بولاد زاده هذا منارة رشيقة من ثلاث طبقات وهى منارة غاية فى جمالها . وعند عودة أمير الحج المصرى من مكة إلى مصر فى اليوم السادس من شهر صفر الخير يأتى مع المحمل الشريف إلى هذا الجامع ويحتشد فيه العلماء والصلحاء ويقضون ليلة فى تلاوة المولد وذكر الله وتوحيده . وفى صباح اليوم التالى يمضى أمير الحج بالمحمل فى موكب عظيم إلى الباشا لتسليمه إليه . فجامع جان بولاد زاده جامع مبارك .

وبالدخول من باب الناصر وبالقرب من وكالة جعفر يواجه :

جامع السلطان بيبرس

أحد ممالك بني العباس. وليس هذا الجامع كبيراً. ولكنه بني بمال الغزو ولذا له روحانية. ولا وجود لأعمدة بداخله. وعلى جوانبه الأربعة صفات عقود. والجدران التي حوله مكسوة بأحجار مختلفة وحجارته الأخرى رخام وكل حجر منها في حجم السجادة. ومحرابه ومنبره من الطراز القديم ومنارته من ثلاث طبقات وهي من طراز آخر. وعند باب الصوباشي وأمام الباب الحديدي يقع:

جامع السلطان صالح حاجي

آخر سلاطين البحرية ويحتمل أن يكون هذا الجامع للسلطان يوسف صلاح الدين والله أعلم؛ لأنه جامع عتيق ولكنه ليس كبيراً. إنه مقام على أربعين عموداً ومحرابه ومنبره لا دقة في صنعهما. وفي حرمه شجرة نبق عظيمة ولهذا الجامع ثلاثة أبواب من حديد. والباب الذي من ناحية قصر الصوباشي موصد. إنه جامع معلق والجزء السفلي منه تحت الأرض وفي المكان الذي يسمى ديلم سجن للصوباشي وكأنه الجحيم ويسجن فيه المجرمون والمستحقون القتل. ولهذا الجامع منارة عتيقة من طبقتين وعند الباب القبلي لهذا الجامع محكمة «مبين شرع الرسول». وبالقرب من جامع النظامية:

جامع السلطان قان باي الجركسي

عزل سبعة سلاطين من التركمان في يوم واحد وثمل عين بعضهم. وهؤلاء السبعة مدفونون أمام محراب هذا الجامع. والسلطان «چيقماق» مدفون بين هؤلاء السلاطين السبعة. ولهذا الجامع باب مفتوح على الناحية القبليّة وعلى طرفي هذا الباب تاريخ مكتوب بخط جلي على الرخام وهو قوله: (بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إلى آخر الآية [التوبة: ١٨]). ثم (بتاريخ شهر ربيع سنة ٨٨٤).

إنه جامع معلق صغير جدًا. له منارة منخفضة منطقتين. وقباب هذا الجامع من الحجر ويؤمه قليل من المصلين وهو واقع فى موضع طيب النسيم. وبعد باب الوزير يواجه جامع «أم الحسن» وداخله قرافة المجاورين وبداخلها باب متروك أمامه:

جامع أرسلان قاي

له سلم يتألف من ست درجات. وهو جامع معلق بديع ولكنه صغير. وليس له حرم وله منارة من طبقتين. وفى المهدان الذى يطل عليه باب قبلته سوق الغلال وهذا الجامع متصل بأسوار القلعة. ولكن الرمال غطت أسوار القلعة وأهالى هذا الجامع يخشون عادية اللصوص. وفى القلعة الداخلية يقع:

جامع السلطان قلاوون

أحد سلاطين آل أيوب. إنه جامع من طابق واحد عظيم كأنه القلعة ومساحته مائة وخمسون قدمًا فى مثلها. وناحية محرابه ثمانية وثلاثون عمودًا تحمل سقفًا. وعلى محرابه قبة عالية مغطاة بالجلص الأبيض. إلا أنها قبة من نور، وداخلها محلى بنقوش ذهبية «للهزاد» وقد أقيمت هذه القبة على عشرة أعمدة عالية من الحجر الصماقى الأحمر. والمحراب من الحجر. ومنبره منبر صغير منخفض من الرخام الأبيض. وكتب على باب منبره الآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الاحزاب: ٥٦]. وعلى يمين المنبر قفص حديدي مربع وداخله مصلّى خاص بالباشاوات. وهو قفص مشبك متقن الصنع بديع الشكل وكانما صنع حديده داود - عليه السلام -. ومثل هذا القفص فى المدينة المنورة وهو شبكة رسول الله ﷺ. وفى أطراف هذا الجامع صفات عليها ستة وثلاثون عمودًا من الرخام الأبيض عليها عقود وفوقها سقف منقوش مزين بالسلو واللارورد وجرم الألوان، والسقف من أوله إلى آخره ثقب ثمانية الزوايا وهذه الثقب على هيئة الأطباق ذلك أن السلطان قلاوون فى سباطه المسمى على الدوام كان يقدم الطعام فى ثلاثة آلاف طبق من الخزف المرتبى الأخضر ورمزًا إلى هذه الأطباق زين السقف بثلاثة آلاف وحدة زخرفية على هيئتها. ومساحة كيل وحدة زخرفية تسع لآنيان. وجدران هذا الجامع محلاة من أعلاها إلى

أسفلها بالصدف كما أن بعض المواضع في جدرانها من الرخام. وليس في القاهرة جامع كل جدرانها مكسوة بالرخام المزخرف.

وللجامع بابان. ولقد أوصد «طوب اتان باشا» الباب القبلي. أما أبوابه الجانبية فمصنوعة من النحاس. وموضع مؤذنه فوق ستة عشر عموداً رقيقاً من الرخام الأبيض فكأنه مقصورة «إرم ذات العماد». وللجامع باب آخر هو باب الميضأة ويقع هذا الباب في الركن الأيسر للمحراب. وفي طرف حوض هذه الميضأة منارة رشيقة من طبقتين مكسوة بالقيشاني الأخضر كذلك. وحرم الجامع مرصوف بالرخام الأبيض من أوله إلى آخره. ولهذا الجامع أوقاف عظيمة. وهو يطل على مقر رئاسة جاويزية معسكر الانكشارية. ولا وجود لمؤذنين في الجوامع الأخرى لهم حسن صوت مؤذني هذا الجامع. والباشا يستمع إلى تواسيحهم وابتهالاتهم في كل ليلة. ويؤدي الباشاوات صلاة الجمعة غالباً في ذلك الجامع. وقد صنع صانع ماهر ساعة شمسية لمعرفة مواقيت الصلاة الثلاثة في حرم الجامع وكأنها ساعة على قوشجي. وثمة جامع آخر في ميدان قصر الباشا وهو:

جامع السلطان الملك الناصر فرج

يسمى جامع دهيشة وسبب تسميته بذلك الاسم أنه كان ديراً في عصر القبط لفتاة قبطية تسمى «دهيشة» ولكن السلطان فرج هو الذي بناه. ويصعد إليه بسلم من ست درجات وهو جامع علوي وله بابان جانبيان وليس له باب للقبلة. وأعمدة هذا الجامع أعمدة مربعة ذات قواعد يبلغ عددها (١١) عموداً عليها سقف خشبي أخضر وعلى يمينه ويسرة بابه الكبير تاريخ السلطان فرج. وكواته تطل على ميدان القصر. إنه جامع صغير لا حرم له. له منارة منخفضة من طبقة واحدة. وقد مال محرابه نحو أحد الأركان والحقيقة أنه كان ديراً في ماضي الزمان. وله مؤذنان رخيم صوتهما وخطيب من صلحاء الأمة. وبالقرب من بركة الأوزبكية يقع:

جامع السلطان أوزيك

من سلاطين آل ()^(١). وهو جامع علوى يرتفع ستة أقدام. ومساحته مائة قدم طولاً وعرضاً. وله سقف أزرق اللون مرفوع على ثمانية وثلاثين عموداً من الرخام. ومنبره ومحرابه من الطراز القديم. وله بابان جانبيان وباب للقبلة ومئذنة رشيقة جميلة من ثلاث طبقات.

وفى الدرب الأحمر يقع:

جامع أم السلطان حسن

جامع معلق يصعد إليه من باب مظل على الطريق بسلم حجري من ثمانى درجات وله مئذنة رشيقة من أربع طبقات. إنه جامع غاية فى الجمال إلا أنه بلا حرم وكواته تطل على الطريق العام. ولا أعمدة بداخله. وسقفه منقوش مقام على عقود ومحرابه ومنبره خاليان من الزخارف. وعلى نفس الطريق يقع:

جامع السلطان مردان

من تجار الأكراد. وكان قصاباً فيما مضى. وكانت تأتى إليه امرأة على الدوام وتشتري من مردان هذا خروفاً. واتفق ذات يوم أن تعقبها مردان هذا ليعلم إلى أى مكان تضى بهذا الخروف فتابع السير فى أثرها. فرأى أنها دخلت جوف مغارة فى جبل الجوشى بهذا الخروف. وكان فى هذه المغارة دب مخيف فوضعت الخروف أمام الدب. وبعد أن التهم الدب الخروف بأثر هذه المرأة. فرأى مردان القصاب هذا من أمر المرأة فبلغ منه العجب مبلغه. فظن أن فى الغار كنز أو مقبرة للمجوس. وعاد مردان القصاب إلى دكانه. وفى صباح اليوم التالى اشترت المرأة خروفاً ومضت إلى المغارة فتتمنطق مردان بالساطور فى شجاعة ومضى إلى المغارة. ورأى المرأة مع الدب فصاح قائلاً: الله وقتل الدب. واستجوب المرأة فقالت: والله إن هذا الدب كان موكلأً بهذا الكنز. وكلفنى والذى بهذا الأمر فكنت آخذ من هذا المال واشترى خروفاً فى كل يوم وأطعم الدب الذى يجامعنى. وهنا أنت خلصتني من ذلك الأمر. لذا أصبح ذلك المال الجزيل

(١) بياض فى الأصل.

من حقل. وإذا ما شئت فالأمر كذلك. فأخذ مردان هذا المال الجزيل ومضى بالمرأة إلى السلطان وقص كل منهما الخبر عليه. فقال السلطان: يا مردان أعطنا عشر هذا المال. وتصرف كيفما شئت فيه.

فكره مردان أن يحمل المال وورعه على فقراء القاهرة. ومن هذا الكثر أقام مسجداً، ومات السلطان فنصبوا مرداناً سلطاناً مستقلاً.

إنه جامع معلق مزخرف جميل له سقف منقوش يقوم على ستين عموداً من الرخام. وله حرم واسع. وله بابان جانبيين وباب للقبلة. ومنارته من ثلاث طبقات ومنبره من الخشب المنقوش وهو غاية في جماله. ومحرابه محلى بالصدف. والجامع مزين بالثريات النفيسة، وله فوانيس نحاسية داخلها آلاف من القناديل. كما أن بسطه الحريرية لا وجود لها في جامع آخر. وأغلب المصلين فيه من الترك. وله خدام كثيرون. كما أن أوقافه عظيمة.

وبالقرب من السيدة نفيسة:

جامع السلطان خير الأم

إنه جامع عتيق. ولكن المصلين فيه قليل. وفنونه الزخرفية قديمة الطراز يعجز اللسان والقلم عن وصفها. وقد بليت منارته وضاعت أوقافه. وبالقرب من هذا الجامع يقع:

جامع السلطان عبد العزيز

من سلاطين العباسيين. إنه جامع صغير. له سقف يحمله اثنا عشر عموداً من الرخام. ومحرابه خال من النقوش. ومنبره من الخشب المزخرف. وله منارة رشيقة جميلة. ولأن السيدة نفيسة مدفونة أمام محراب هذا الجامع سمي بجامع السيدة نفيسة. وفي أسفل المدينة في حارة صانعي العمام يقع:

جامع بيك خانة

إنه جامع أرضى يؤمه كثير من المصلين.

وفي حارة الوزانين يقع:

جامع عصام الدين

إنه جامع غاية فى صفه.

وتجاه قصر رضوان بك طريق يفضى إلى:

جامع محمود بك

وهو على رأس حارة صانعى الخفاف. إنه جامع صغير لا حرم له ولكنه جامع نظيف بديع. ومحرا به مزين بالأحجار. وعلى جانبيه أعمدة فى غلظ الذراع وكأنما يثر الجوهر. والمصابون باليرقان إذا داوموا ثلاثة أسابيع على لعق أعمدته شفوا من هذا المرض بإذن الله. ولهذا الجامع منارة جميلة.

وفى هذه السوق تقع «الصراج خانه» وبها:

جامع جانم بهلوان

جامع معلق يصعد إليه بسلم من ست درجات. إنه غاية فى الجمال. له منارة رشيقة من ثلاث طبقات. وبالقرب منه:

جامع ()^(١)

جامع معلق كذلك وهو يكتظ بالمصلين. وله منارة رشيقة عالية من ثلاث طبقات وعلى رأس حى «الحيامة»:

جامع جان بكيه

كتب على بابه قوله - تعالى -: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا﴾ [فصلت: ٣٠]، كما كتب بعد هذه الآية تاريخ هو (سنة اثنين وثمانمائة). إنه جامع معلق يصعد إليه من طرفه بسلم من خمس درجات. وهو جامع منير. إلا أنه صغير وبالقرب من سوق الصليية:

جامع أمير الماس حاجب سلطانى

إنه جامع صغير أرضى. ولكنه نظيف للغاية، وفيه روحانية، ولا ينقطع عنه المصلون، وقد بنى من مال الزكاة، لذلك يسكن فيه الصوفية. وإذا ما وجد أحد فى

(١) بياض فى الأصل.

نفسه ألكا وصلى فيه زال عنه ألمه وطاب نفساً. وله ثمانية وعشرون عموداً تحمل سقفاً مذهباً. وفي حرمه شجرة نبق وثمارها فى حجم الجوزة. وعلى أربعة أعمدة صغيرة من الرخام يرتفع عليها قبة صغيرة تحتها صنادير. ومحرا به من الطراز القديم. ومنبره من الرخام الأبيض. وعلى بابهِ تاريخ مكتوب هو:

(أمر بإنشاء هذا المكان المبارك الفقير أمير الماس حاجب فى شهر سنة سبع وعشرين وسبعمائة وكماله سنة ثلاثين من الهجرة النبوية المحمدية) وهو جامع ذو منارة.

وفى سوق الصلية:

جامع الشيخونية

من وزراء السلطان حسن. ولأنه كردى الأصل فهو شجاع مقدام. وله سيرة عمر كما أن اسمه عمر. وله عمائر شيدها منها مبرتان متشابهتان. إلا أن الجامع الذى شيده على الجانب الأيسر من الطريق العام جامع مرتفع منير. وكل منهما يرتفع بمقدار سبعة أقدام. ومساحته مائة وستون قدماً فى مثلها. وجعله أعمدته خمسة وأربعون عموداً من رخام عليها سقف منقوش. وله باب وحرمه مرصوف بالرخام من أوله إلى آخره. ولأن له أوقافاً عظيمة خدامه كثير، وهم يعنون بتنظيفه إلى أبعد حد. وله منبر خشبى مزخرف. ومحرا به مزين بحجارة ذات ألوان. وعلى الجدار الواقع على يسرة المحراب لوحة عظيمة، رسم عليها رسام بارع صورة للكعبة كتلك الكعبة التى فى مكة المكرمة تماماً. والتكية الشيخونية الواقعة قبالة هذا الجامع مثله تماماً. وهى تكية للقادرية وسوف توصف هذه التكايا فى موضعه.

وبعد الشيخونية أثناء الذهاب إلى ميدان الروملى يقع على الجانب الأيمن:

الجامع المحمدى

جامع صغير معلق وله منارة شاهقة. إلا أنى لم أدخله ولم أصل فيه.

جامع ألتى برماق افندى

يصعد إليه بسلم حجرى من ست درجات. إنه جامع جميل. وواعظه الناصح وجميع المصلين فيه من الترك. وله باب وسقف خال من النقوش يقوم على أعمدة. ولكن ليس له حرم. ولأنه جامع علوى تحته ستة دكاكين. وله منارة منخفضة. وأمام محرابه دفن «ألتى بارمق افندى» صاحب السيرة النبوية. وقبالة هذا الجامع أسفل السهل يقع:

جامع المرزبانية

إنه جامع جميل ينشرح له صدر من يشاهده. له سقف منقوش يقوم على عشرين عموداً جميلاً. ومحرابه ومنبره غاية فى جمال الصنع. وفى حرمه نخلة عظيمة.

جامع الداودية

من وزراء السلطان سليمان. كانت له الولاية على مصر بعد سليمان باشا الطواشى، وهو الذى بنى هذا الجامع. حقاً إنه صنيع الوزراء. فأقام هذا الجامع الذى لا يشبهه جامع أقامه وزير. ويصعد إليه بسلم حجرى من عشرين درجة من ثلاثة أبواب. إنه مرتفع البنيان. وقد أقيم على ستين عموداً. وفى جهة محرابه وحرمه ستون قبة مستديرة من الحجر، وهى مكسوة بالجص الأبيض. وعلى كل قبة علم من الرخام. وحرمه واسع مرصوف بالرخام. ومحرابه ومنبره ومنازله ذات الطبقة الواحدة على الطراز التركى. وعلاوة على حرمه العلوى له حرم سفلى. والجامع فى جدرانه يشبه قلعة صغيرة. ولا يتصل بأى بناء آخر. والجامع يؤمه عدد غفير من المصلين.

جامع اسكندر باشا

كانت له ولاية مصر بعد «دوقه كين محمد باشا». وهو كذلك من وزراء السلطان سليمان. ومن الحق قولنا إنه جامع منقطع النظير. وهو يشبه جامع رستم باشا فى اسطنبول الذى يؤمه المصلون ليل نهار. إنه جامع منور. وبداخله ثمانية أعمدة وكواته تطل على الطريق الرئيسى. ومحرابه ومنبره خاليان من الزخارف. إلا أنهما جميلان.

وليس له حرم لأنه واقع في حارة ضيقة. وتجري بركة مصر خلفه ومنارته كالمئذنة التركية من طبقة واحدة لها ستة أبواب.

جامع منجك اليوسفي

من وزراء السلطان حسن، وهو صاحب جوسق منجك الواقع في ميدان «كوك» في دمشق. إنه جامع عتيق مقام على صخرة واطئة تحت جامع النظامية. وله منارة.

جامع الشيخ نظامي الأصفهاني

إنه جامع يقع خارج باب الوزير. وهو جامع جميل يقوم على ربوة. إنه أكمل الجوامع في مدينة القاهرة. ولا وجود لأعمدة بداخله. وله سقف لطيف منقوش وله منارة رشيقة عالية من ثلاث طبقات. إنه تكية عظيمة للخلوتية، وسوف تذكر عند حديثنا عن التكايا. وقد بنى هذا الجامع سيدى نظامي الأصفهاني في خلافة السلطان محمد بن السلطان قلاوون الصالحى بماله الحلال. وتم بناؤه عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة. وسيدى الشيخ الأصفهاني مدفون في هذا الجامع قدس سره العزيز. وداخل باب العزب يقع:

جامع العزب

إنه جامع صغير. ولوقوعه أمام عتبة العزب يؤمه كثير من المصلين. لكن ليس للجامع حرم. وقد شيد إبراهيم كتحدا له منارة رشيقة جميلة على الطراز التركى. وبعد هذا الجامع سور القلعة وعليه عطفة بداخلها يقع:

جامع السلطان المؤيد

يقع هذا الجامع في نهاية باب الوزير. وهو الآن مغلق وموضعه ظاهر، إنه جامع مرتفع. وله نوافذ تطل على سور القلعة على طريق الوزير. ولا أعمدة بداخله. إنه صغير ولا حرم له. وله منارة قصيرة تفى بالغرض. وبعد جامع المؤيد فى القلعة الداخلية:

جامع سليمان باشا

كان يدعى «طواشى سليمان باشا الأبيض». وقد وُزّر في مصر مرتين. مضى إلى الهند من السويس بمائتى سفينة. وفتح مدن «بنلوديوى» و «شهريندر صورتى» وسبع

مدن أخرى وقضى على البرتغاليين هناك. وقد فتح اليمن كذلك بأموال الفنائم وجعل «أوردمير بك» قائدًا للحجشة وفتحها. وقد بنى هذا الجامع بأموال الغزو. وليس فى الجامع أخشاب وكله أبنية من الحجر. وله قبة مستديرة زرقاء أسفلها مكو بالرخام. ومحرابه من الحجر بديع الصنعة. وعلى جانبيه الحرم شمعدانات مذهبة يبلغ طول الواحد منها قدمًا. ويوضع فيها فى كل ليلة شمع العسل بطول قدمين. وهذه الشمعدانات ليست خاصة بجامع فى القاهرة. والمنبر من الرخام بديع الصنع. وفى الجامع عدة آلاف من الثريات المعلقة. وأمام محرابه أربعون آية من آيات الذكر الحكيم. وكل منها كتر، وبسطه رائعة. وللجامع بابان جانيبان وباب للقبلة. وهو جامع صغير مساحته مائة وعشرون قدمًا فى مثلها ولكنه درّ يتييم. وحرمه الخارجى تبلغ مساحته مائة قدم فى مثلها. وعلى صفاته الجانبية عشرة أعمدة من الرخام تحمل قبابًا صغيرة مستديرة. والقباب الكبيرة والصغيرة مكسوة بالقيشانى اللازوردى. وباب المحراب محلى بالزخارف وكأنه السحر المين. وجدران صُفّات هذا الحرم مكسوة بالرخام والحجر الصماقى بسمك قدم.

وعلى الرخام كتب خطاط بارع بالخط الكوفى آية الكرسي ولا يشبهه خط كوفى ويأتى الرحالة لمشاهدته. والحرم مرصوف بالرخام الأبيض من أوله إلى آخره. وهو نظيف مجلو بحيث يبدو فيه وجه الإنسان ولونه كأنه مرآة. ولهذا الحرم ثلاثة أبواب وله بابان جانيبان أحدهما باب القبلة. وسيدى الشيخ «سارية» وهو من الصحابة الكرام مدفون فى قبر بداخله.

إنه سارية الذى أُمّرهُ الفاروق عمر على مدينة نهاوند فى بلاد العجم. وسينما كان يحارب فى بلاد العجم وبينما كان عمر يخطب المسلمين خطبة الجمعة فى المدينة المنورة رأى بعين قلبه أنّ سارية يهزم فى بلاد العجم، فصاح قائلًا: «يا سارية إلى الجبل إلى الجبل». فأخذ العجب من الناس كل مأخذ فسمع سارية - وعدد من جنوده فى نهاوند - صيحة عمر فولوا ظهرهم الجبل. فكان لهم النصر على العجم بإذن الله. وعندما رجع سارية إلى المدينة مظفرًا سمع أن عمر صاح قائلًا: «يا سارية إلى الجبل إلى الجبل»

فى يوم جمعة . وبذلك زاد المؤرخون محبة لعمر . وها هو الصحابى الجليل يدفن فى غار وعلى هذا الغار أقيمت تكية وضريح . وعلى باب قبلة هذا الجامع تاريخ مكتوب هو :

(قد بنى عمر السلطان الجنب العالى مملوك السلطان سليمان خان بن سليم خان من آل عثمان أدام الله دولته إلى يوم الدين وهو أمير الأمراء لمصر القاهرة سليمان باشا جعل اللهم من الفائزين مسجداً لوجه الله الملك المعين وطلباً لرضاء رب العالمين ليعبد فيه عباد الله الصالحين وكان تاريخه فاركعوا لله مع الراكعين سنة ٩٣٥).

وعلى المصراع الايمن لباب القبلة هذا كتب بخط مذهب (بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ {الزمر: ٧٣}).
وكتب على المصراع الايسر من هذا الباب قوله - تعالى - : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ صدق الله العظيم {الزمر: ٧٣}.

إنه باب عالى . ولهذا الجامع حرم آخر شرق قبلته . وفيه حوض وشادروان جار . وللحوض صنادير كثيرة يتوضأ منها كثير من المصلين . وقبة هذا الجامع ليست مكسوة بالجص كغيرها من قباب الجوامع الأخرى فى مدينة القاهرة . وهى من أعلاها إلى أسفلها مكسوة بالقيشاني اللاوردى . ومن شاهدها من بعيد خالها مكسوة بالرصاص . ولهذا الجامع منارة تتألف من طبقتين . وهى أعلى من كل ما فى القاهرة من منائر . وقد بنيت على طراز منائر اسطنبول . ومحراب هذا الجامع يقع تحت نصف قبة . وتطل نوافذ هذا المحراب على بستان . وبذلك يتسم المصلون فى هذا الجامع أزهار ذلك البستان . وناظر وقف هذا الجامع من أغاوات الانكشارية . ولذلك أوقافه عظيمة . وبما أن رئيس الانكشارية يداوم على أداء الصلوات الخمس فيه فهو نظيف على الدوام .
وفى داخل باب اللوق يقع :

أوصاف جامع البرمشتي

إنه جامع معمور مزين يؤمه كثير من المصلين . ومنارته رشيقة مزخرفة عالية من ثلاث طبقات . وفى الدرب الأحمر على رأس شارعين :

أوصاف جامع القشماش

أى جامع القأجامازية. إنه جامع معلق ونحته دكاكين. ويصعد إليه بسلم حجرى من ثمانى درجات. إنه صغير ولكنه لطيف مزين. يؤمه كثير من المصلين. ولكن لا حرم له. ومن جوانبه الأربعة طريق يمر. وهو واقع فى أرض ضيقة. وبعد هذا الجامع فى نهاية وكالة محمد الحبشى كتخدا:

أوصاف مسجد الميماندارية

يصعد إليه بسلم من خمس درجات. وهو على الطراز القديم. وليس كثير الزخارف. ولكن لسوقه فى السوق السلطانية يكثر فيه المصلون. وكوات هذا الجامع تطل على الطريق العام وله منارة من طبقتين. وفى الدرب الأحمر كذلك:

جامع إبراهيم أغا

ولقرب عهد مشيد هذا الجامع برئاسة الانكشارية كان هذا الجامع جديداً كأنما كان الفراغ من بنائه فى التو. وهو جامع معلق. وإذا حاولنا وصفاً لمحرابه ومنبره عجز اللسان ومنارته جميلة عالية تتألف من ثلاث طبقات. وبالقرب منه:

جامع خيرة بك المحمدى

كان وزيراً للسلطان الغورى. ولقد أشاح عن الغورى وانضم إلى السلطان سليم. وبتاء على رأيه وتدبيره فتح سليم مصر. وأسندت أول وزارة لـ «خيرة بك» هذا، وكانت له ولاية مصر خمسة أعوام ونصفاً بنى فيها هذا الجامع. وبعد خيرة بك أسندت وزارة مصر إلى «لاله مصطفى باشا» وبعد عام أصبح الوزير الأعظم فى الدولة، وحل محله «قاسم باشا» ثم أحمد باشا الخائن الذى صلب.

وهذا الجامع نور محض. وكل أبوابه وجدرانه مكسوة بالرخام واليشم الحرقانى والصماقى. ومنبره ومحرابه سحر مبین. ولكنه ليس مبنياً على عقود. وكله سقف. وفى حرمه مواسير للماء وعدة نخلات. وخيرة بك مدفون فى قبر عال على الطريق العام. وله منارة منقوشة عالية من ثلاث طبقات.

وعند مرور الشراكسة من أمام هذا الجامع لا ينظرون إليه ولا إلى الضريح . لأنهم حاقدون على خيرة بك هذا لأنه كان عميلاً للعثمانيين . وهو الذى جاء بهم إلى مصر وأخرجها من حوزة الشراكسة . وليس فى القاهرة جامع له ما لهذا الجامع من خدام وأوقاف ونظافة . وعلى طريق باب النصر :

جامع مرزوق كفاى

إنه جامع صغير معلق مقام على أربعة أعمدة تحمل سقفاً . إنه تكية سيدى الشيخ مرزوق كفاى . وله منارة جميلة . وعلى طريق باب الناصر وبالقرب من هذا الجامع :

جامع جمال الدين

إنه جامع معلق صغير ذو منارة . ولكن ليس له حرم . وبالقرب من هذا الجامع عند خان ذى الفقار كتخدا طريق يفضى إلى :

جامع السلطان سونقور

إنه جامع علوى من الطراز القديم . وله منارة مربعة . وحرمة مرصوف بالرخام المصقول وفى تجاهه طريق يفضى إلى :

جامع الخانقاه

إنه جامع أرضى عتيق له سقف منقوش يقوم على أربعة أعمدة . ومنبره ومحرابه من الطراز القديم . وله حرم واسع . ومنارته من طبقة واحدة خالية من الزخارف . إنه جامع جد وسيع . وداخل باب اللوق :

جامع ولد عبادة

وهو جامع علوى على ضفة الخليج . وفى حرمة شجرة نبق عظيمة . وبالقرب منه :

جامع (١)

إنه جامع أرضى عظيم الاتساع يقوم على عشرين عموداً من الرخام . وله منارة منخفضة من طبقة واحدة . وفى حرمة شجرة نبق عتيقة . إلا أنها كثيرة الثمر . وبالقرب من هذا الجامع :

(١) يباصر فى الأصل .

جامع الأصمعي

إنه جامع عتيق كثير الزخارف، وفي حرمه أشجار جميز ضخمة. ولكن المصلين فيه قليل وبابه مغلق على الدوام. وبالقرب منه:

جامع مير اخور

وهو معلق تحته دكاكين.

وداخل قنطرة البكري:

جامع الأبيض

جامع معلق على ضفة الخليج. له سقف منقوش على عشرين عموداً من الرخام الأبيض. وله حرم ومنارة. وحوله حدائق كأنها حدائق إرم. ولوقوع هذا الجامع على ضفة الخليج فهو موضع يستحق الزيارة للمشاهدة.

جامع خان باي

جامع جميل ذو منارة صغيرة. يؤمه كثير من المصلين كلهم من الحضر. وفي أركان هذا الجامع كثير من المعتكفين.

جامع عبد القادر الطشطوشى

إنه جامع واسع الوسط، لا حرم له، ومنارته من ثلاث طبقات. له أربعة محاريب للمذاهب الأربعة. ومنبره من الخشب. وداخل الباب الجديد:

جامع المغارب

إنه جامع يقوم على عشرين عموداً. وهو مكشوف الوسط. مساحته خمسون قدماً في مثلها.

وداخل باب الشعرية في السوق السلطانية:

جامع العمري

له سقف منقوش يقوم على واحد وثلاثين عموداً. ليس له حرم. ومنارته من ثلاث طبقات.

جامع عابدين بك

جامع معلق يُصعد إليه بسلم من عشرين درجة. وتحت دكاكين. وله سقف يقوم على أربعة وعشرين عموداً من الرخام الأبيض. وله منارة عالية من طابق واحد على الطراز الاسطنبولي. ولا وجود لمنارة رشيقة مزخرفة مثلها ليس في القاهرة وحدها بل في جميع ديار المسلمين.

وأسفل الباب الجديد:

جامع مرّده بك إينالى

إنه جامع معلق على ضفة الخليج له سقف منقوش على أعمدة عالية. ولكن ليس له حرم. ونوافذه تطل على الطريق الرئيسى وعلى الخليج. وفي الجامع محكمة. وله منارة من ثلاث طبقات. وبينما كان القاضى منصور افتدى صهر الشيخ على الشمرلى ناظرًا لهذا الجامع عمره ورممه وجعله نوراً محضاً. حقاً إنه جامع بديع. ولهذا الجامع بابان. وبابه الأيسر له قنطرة خشبية على الخليج.

وتجاه هذا الجامع سوق الدالين. وفي هذه السوق:

جامع الجندى

إنه جامع صغير ومنارته منخفضة.

وكذلك في السوق:

جامع الداودية الكبير

وهو معلق يُصعد إليه بسلم حجري من تسع درجات. إنه مزخرف. له منارة رشيقة من ثلاث طبقات. ومحرايه محلى بالصدف.

وعلى باب منبره الرخامى الآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وعلى باب الجامع كتب بخط جلى أبيات هي تاريخ:

بناء على اسم داود صديق، وفي سبيل الهدى قد جد سيرا، حمد ثناء فور خنا بناه، هو حمدا جزا لله خيرا سنة ٩٥٤.

وخارج باب الفتوح:

جامع المطهر

إنه جامع على الطراز القديم وبنائه عظيم ويؤمه كثير من المصلين، وله منارة ولكن لم يتيسر لى دخوله، وهو جامع معلق.

جامع البندقانى

جامع معلق جميل، لم يتيسر لى دخوله. وله باب مزين ومنارة منقوشة من ثلاث طبقات.

وبالقرب منه على طريق البندقانى:

جامع حبشلى محمد كتحدا

يصعد إليه بسلم من خمس درجات. إنه جامع جديد. وله سقف يقوم على أربعين عموداً. وهو سقف غاية فى روعة نقوشه. وله باب يطل على الناحية القبلية ومنارة تركية الطراز.

جامع القيسونى

وهو بالقرب من جامع الداودية الكبير، أمام منزل المرحوم مصطفى افندى أغا الانكشارية:

جامع الشيخ كريم الدين الدبوشرى وجامع الهندى

وجامع الهندى جامع معلق صغير على طريق باب الخرق على ضفة الخليج، وله باب على الطريق العام يصعد إليه من ثمانى درجات. وتحت دكاكين. وله منارة مزخرفة ونوافذه تطل على السوق. وسقفه منقوش. ويؤم الجامع كثير من المصلين. إنه جامع بالقرب من بركة الفيل. ومساحة الجامع بحرمه مائة وستون قدماً فى مثلها. وداخل الجامع وخارجه وتحت موضع المؤذن عشرة أعمدة من الرخام الأبيض. وعلى هذا يكون للجامع مائة عمود يقوم عليها سقف منقوش ومحراب من الرخام والحجر.

ومنبه من الخشب المكسو بالجنس ولكنه جميل الصنع. وله أبواب ثلاثة. وفى أسفل عتبة تصاوير متنوعة على الحجر الزنورى. ويتوسط حرم هذا الجامع الذى يشبه السهل جدار مربع منخفض داخله حديقة يُنْفَعُ منها عيبر مسكى. وبها نخلات عظيمة وبجانب

باب القبلة منارة مكسوة بالقيشاني الأخضر كأنها زمردة. إنها منارة عظيمة الارتفاع. وعلى يمين باب القبلة كتب قوله - تعالى -: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨]، وعلى يسره كتب:

(أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله - تعالى - قوصون الباقي).

ويصلى في هذا الجامع أعيان وأشرف الترك ولذلك يهتم خدامه اهتماماً عظيماً بتنظيفه. وله خطيب مكرم عندما يتلو آيات الله البيّنات تشرح قلوب من يلقون السمع إليه. إنه رجل من صلحاء الأمة. ولأنه من تلامذة أستاذنا الشيخ على شمرلسي فهو زميل لي. ولا وجود في مصر لمن له رخامة صوته الحزين.

ولذلك يأتي حشد كبير من الناس يوم الجمعة لسماع خطبته. ولا يبقى في الجامع موضع لأحد قبل الخطبة بساعة.

وعلى ضفة بركة الفيل بالقرب من قنطرة الستور على شاطئ الخليج:

جامع كاتب السر الشيخ إبراهيم

يقع هذا الجامع على الطريق العام، ويصعد إليه بسلم واحد من ست درجات. وعلى يمين ويسرة هذا الباب كتب على لوح من الرخام قوله - تعالى -: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٨]، ولكن لا تاريخ له. إنه جامع بديع صغير له منارة من ثلاث طبقات ونوافذه القبلية تطل على الطريق الرئيسي. أما نوافذه البحرية فتطل على الخليج. إنه تحفة معمارية.

جامع الحبانية

جامع مقام على عشرين عموداً. ويصعد إليه بسلم من ست درجات. إنه صغير إلا أنه متين ركين. وعلى بابه منارة من ثلاث طبقات. وناظر هذا الجامع سليم جاوش، ولذلك أبدع في بنائه.

وفي باب الشعرية:

جامع الشيخ الشعراوي

يُصعد إليه بسلم من إحدى عشرة درجة. إنه جامع معلق وتحت دكاكين. وليس متسعاً. ولا حرم له لأن الخليج عند طرفه في المدينة. وله سقف يقوم على اثني عشر عموداً. ومحرا به ومنبره صغيران. وله منارة جميلة من ثلاث طبقات. وسيدى الشيخ الشعراوي مدفون في هذا الجامع. وله مؤلفات في ثلاثمائة مجلد.

وعلى الضفة المقابلة للخليج وعلى الساحل مباشرة:

جامع الشيخ الخلوتى

جامع له عشرون عموداً تحمل سقفاً منقوشاً. وليست له قبة من حجر. ومحرا به ومنبره خاليان من الزخارف. ونوافذه تطل على الخليج. وفي حرمه حديقة صغيرة بها شجرة نبق عظيمة، ونبقها لذيذ للغاية. وفي زاوية الشيخ محراب من الصماقى الأخضر، ولا وجود لثله فى مصر؛ ولكن يوجد مثله فى القدس الشريف. وله منارة من ثلاث طبقات. وفي الجوانب الأربعة للتكية الخلوتية ثمان وسبعون حجرة للمتصوفة. وسوف نتحدث عنها فى حينه.

وبالقرب من درب الجماميز:

جامع بَشَك

وهو من الجراكسة، وفى عام ٨١٣ لجأ إلى تيمورلنك بدمشق. إنه جامع جميل ومزين ومجموع أعمدته ستة عشر عموداً تحمل سقفاً. وفي حرمه نخلات وهو جامع جميل. وله منارة رشيقة من ثلاث طبقات.

جامع نقيب الجيش

يقع بالقرب من جامع قَرَّة قُوجَه. إنه جميل أو عتيق. وعند قنطرة الجماميز:

جامع قَرَّة قُوجَه

إنه جامع صغير ولكن يؤمه كثير من المصلين. وفى درب الجماميز تجاه قنطرة العمر:

جامع كتكوت

جامع صغير على الطريق، ومنارته رائعة، وهو كذلك من الجوامع كثيرة الزخارف وفي طريق الباب الجديد أسفل قلعة الكباش:

جامع الأمير لاجين

إنه جامع جميل يصعد إليه بسلم من خمس درجات. ومنارته نحيلة مرتفعة ومزخرفة وكواته تطل على الطريق العام. وله أربعة عشر عموداً من الرخام تحمل سقفاً منقوشاً إنه وزير السلطان الطاهر. وعلى أسوار قلعة الكباش:

جامع السلطان الجوى

تمكنت من دخوله. له زاوية تشبه الجامع. وله منارة مربعة من ثلاث طبقات. وفي الحارة التي بعد جامع طيلون:

جامع الأمير يوسف أوزيك

إنه جامع جميل على مفرق الطريق. وله سقف مزين يقوم على أربعة عقود. ومحاربه مرصع. ومنبره خشبي مقررّص. وموضع مؤذنه جميل. وجدرانها الأربعة مكسوة بالأحجار الملونة. وله منارة من ثلاث طبقات. إنه جامع يشرح الصدر. ولكن لا حرم له.

وإذا ما تصديت لذكر ما في القاهرة من جوامع لاقتضى ذلك كتابة مجلد قائم بذاته أما أسماء الجوامع الأخرى فمنها:

جامع الإمام الحسين، وجامع مسيح باشا في طريق الإمام الشافعي. وعلى مقربة منه جامع القيسوني، وإلى جواره جامع أم السلطان حسن. وبالقرب من القبر الطويل جامع السيد بدر الدين. وبالقرب منه جامع الخاتونية. ويتصل به جامع الأشرفية. وبالقرب منه في حارة الخلالين جامع شجرة الدر. وهي شجرة الدر التي كست الكعبة بالحريز الأسود، وجامع الزينية بالقرب من قطرة الموسيقى. وهو جامع صغير ذو منارة. وفي آخر باب الوزير على الطريق العام جامع ايتموس وزير الظاهر بيبرس. وهو جامع متين

ركبن له قبة ومنارة. وجامع الشيخ شمس الدين الحنفى وهو جامع معمور وخانقاه قديمة للعبادة. ويؤمه كثير من المصلين. وفى حرمة شجرة نبق مشمرة. وله منارة.

وعلاوة على هذه الجوامع آلاف الأوقاف فى مصر المحروسة، وجميعها مقيدة فى دفتر قاضى عسكر أفندى؛ لأنه ينال من كل منها على الأقل ديناراً ذهبياً أو خمسة أو عشرة أو خمسين أو مائة. إنها أوقاف جدٌ عظيمة. والقاضى عسكر هو ناظر نظار الأوقاف وهو القائم على التفتيش عليهم وجميع الأوقاف مقيدة فى دفتره.

* * *

الفصل السادس والعشرون

المساجد الكبرى المشهورة في مصر المحروسة

نزل في شأنها آية كريمة: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]، كما أن ثمة آية أخرى نزلت في شأن المسلمين الذين يعمرّون مساجد الله. يقول - عز من قائل -: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]، إلى آخره.

وليعلم أولو الالباب أن مصر على عهد الأيوبيين والتركمان كان بها مائة وسبعة وسبعون ألف محراب. والآن في قايتبای والقرافات عدة آلاف من المساجد متلاصقة الجدران متجاورة المنارات وهي قديمة مهجورة. أما الآن فهناك ستة وأربعون ألف مسجد معمور. لبعضها منارات وبعضها الآخر خال منها.

ذكر المساجد على حد علمنا:

في القلعة الداخلية مسجد آشجی باشی ومسجد قلاوون ومسجد السوق ومسجد جاوش أغا ومسجد الباب ومسجد ناران ومسجد حجرات العزب ومسجد صراج خانة ومسجد قره ميدان ومسجد بائع الخفاف ومسجد الكلشنی ومسجد الخراطین ومسجد إبراهيم أغا ومسجد قنطرة الليمون ومسجد حسن الشاذلی ومسجد باب الحرق ومسجد الجماميز ومسجد ريحان أفندی ومسجد سيد على ومسجد الشيخ العبّارى ومسجد مهمّاندار بالقرب من جامع قچمّازية.

وطبقا لما ورد في كتب الغزالی فإن ذكر جميع المساجد أمر خارج عن طاقة البشر. وهذا ما فيه الحاجة إلي مجلد خاص بذلك.

الفصل السابع والعشرون

المدارس فى مدينة القاهرة

منذ فتح مصر فى عهد خلافة عمر - رضى الله عنه - إلى الفتح العثمانى لها حكم مصر من الأمويين والإخشيديين والفاطميين والأكراد والتركمان والنشراكسة حتى العثمانيين سبع عشرة دولة . ملوكها ثلاثمائة وأربعون . وقد بنى كل منهم مدرسة . وكان لهؤلاء منات الوزراء والوكلاء وكبار الأعيان الذين عمروا القاهرة ، وكان فى القاهرة ثلاث آلاف وستمئة مدرسة . إلا أن أوقافها تخربت على مر الأيام فتخربت هذه المدارس ولم يبق منها إلا جوامع السلطان حسن والسلطان قلاوون والسلطان الصالح والسلطان برقوق والسلطان فرج والسلطان قايتباى والسلطان جيقمق والسلطان إينال والسلطان الأشرف والسلطان سيف الدين والسلطان أيك التركمانى ، والحاصل أن كل ما فى مدينة القاهرة من جوامع السلاطين وأبناء السلاطين وكل من هذه الجوامع به مدرسة عامرة . وكان لها منائر هى الأخرى من شاهدها ظننها جوامع إلا أنها ليست جوامع . إنها جميعاً مدارس .

وبالقرب من باب الحرق «مدرسة اسكندر باشا» وحجراتها على الطراز الروحى . وفى حرمها حوض وشادروان جار . وتلقى فى هذه المدرسة الدروس السعامة . ومدرسة الداودية ومدرسة السلطان صرغتمش ولها منارة كمنارة الجامع من ثلاث طبقات ، ولها ناظر وحجرات كثيرة . وفى حرمها حوض عظيم ولها محراب . وبالقرب من جامع الشيخ مرزوق مدرسة القرافية وهى مدرسة قديمة علوية . ومدرسة سليمان باشا وتقع فى السراج خانة وجميع حجراتها على الطراز التركى . ولها قبة من حجر . وفى حرمها ميضأة عظيمة . إنها مدرسة معمورة مزينة وقد بناها سليمان باشا الطواشى صاحب الجامع الكائن بالشيخ سارية بالقلعة الداخلية . وناظر هذه المدرسة من رؤساء الانكشارية .

و«المدرسة الباسطية» وهى تتألف من ثلاث مدارس ملكية . وهناك المدرسة القيسونية فى الطريق إلى عمر بن الفارض . إنها مدرسة عظيمة البناء . لها منارة من ثلاث

طبقات ومن شاهدها ظنها جامعاً عظيماً. وقد كتب على جانب بابها قوله - تعالى -: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ {التوبة: ١٨}، ونحت هذه الآية تاريخ هو: (سنة أربعين وسبعمائة من الهجرة النبوية).

ومدرسة الحسابة وهى مدرسة معمورة. ومدرسة الملك الكامل فى مدينة القاهرة، وقد بنيت هذه المدرسة فى أول الأمر على أنها دار للحديث. ومدرسة الملك الكامل فى الإمام الشافعى. وأمام باب ضريح الإمام الشافعى كذلك حوض شافعى وسبيل عظيم يستمد ماء النيل عن طريق قنطرة مياه من بركة الحيش عند قرية البساتين. والملك الأفضل هو صاحب هذا الخير العظيم. كما له فى مدينة دمياط خيرات لا تحصى. وبعد أن انتهت دولته خلفه ابنه الملك العادل عام ٦٣٥.

ومدرسة السلطان صلاح الدين التى بناها عام ٥٧٥ بالقرب من الإمام الشافعى. وبنى كذلك القلعة الداخلية للقاهرة عام ٥٧٦.

الفصل الثامن والعشرون

دور الحديث التى بناها سلاطين السلف فى القاهرة

فى القاهرة ثمانمائة وستون داراً للحديث . ولا يدرس فيها إلا علوم الحديث وفى نواحى الجامع الأزهر أربعون داراً للحديث . ويتلى صحيح مسلم والبخارى فى جامع المؤيد ويقرأ صحيح البخارى فى دار الحديث الأجرية .

وإذا ما ذكرنا جميع دور الحديث لاقتضى ذلك كتاباً خاصاً بها .

وخلاصة القول أن القاهرة هى منبع علم الحديث وبها أكثر من خمسين ألف محدث وهم يحفظون أكثر من عشرين ألف حديث بسلاسلها . ولهم شهرة حفاظ القرآن الكريم ، ولهم ملفاتهم وجمعوا أربعين ألف حديث . وهم يتلون صحيح مسلم والبخارى . وقد سجلوا الأحاديث الموضوعة وغير الموضوعة . ولا يقتدر أحد من العلماء أن يقول شيئاً بجانبهم .

وعلماء الحديث فى مصر أعظم من سائر العلماء فى أى بلد آخر . وهم يلقون كل احترام وتقدير . ولكن أى حكمة فى أن كل من اشتغل بعلم الحديث أشرق وجهه بالنور . وفى جميع دور الحديث هذه محاريب وحجرات للفقراء ومدرسون . إنهم يجتمعون ثلاث مرات فى الأسبوع ويمضى المحدثون إلى دروس الحديث زرافات زرافات .

الفصل التاسع والعشرون

دور القراء فى القاهرة

فى القاهرة سبعون وثلاثمائة دار للقراء. وفى معظم الجوامع كان سلاطين السلف يعينون أئمة وخطباء ومؤذنين لقراءة أجزاء من القرآن الكريم كما كانوا يعينون فى كل جامع شيخًا للقراء. كما أن كبار الاعيان فى مناطق أخرى أقاموا أضرحة خاصة بهم إلى جانب دار القراء.

ويوصى جميع مشايخ القرآن تلاميذهم بقراءة هذه الايات من كتاب الجزرى:

والأخذ بالتجويد حتم لازم من لم يجد القرآن آثم

وبعد أن يعرفوا أصول نطق حروف التجويد يختمون قولهم بهذا البيت:

إذا واجب عليهم محتم قبل الشروع أولاً أن يعلم

وبعد أن ينتهوا من حفظ اجلزرى وابن كثير يسجلون جميع المآخذ طبقاً لما ورد فى كتاب الجزرية والشاطبية، ثم يكملون علمهم بقراءة ابن كثير ثم القراءات السبعة ثم القراءات العشرة وأخيراً القراءات التقريبية.

وبعض الأئمة فى القاهرة يقرأون القرآن فى المساجد على سبع عشرة رواية حسب ما يقتضيه الناس. وغالبًا ما يقبل الناس القراءة على رواية قالون وأبى عمرو.

أما الترك فيقبلون رواية حفص. وهذه القراءات منعت فى خلافة عمر - رضى الله عنه - وبعده قامت ابنته حفصة بجمع القرآن هى وعثمان. ولأن هذه القراءة مأخوذة عن رواية حفصة سميت باسمها. وعلاوة على قراءة حفصة فى بلاد الترك هناك قراءات ابن كثير والقراءات السبع، ولكنها لم تشتهر. إلا أن شيخنا أوليا افندى مضى إلى اسطنبول وفى معيته سيدى الشيخ أحمد وعكف جميع علماء الترك على علوم الحفظ فشاغ علم القراءة. وتوفى الشيخ أحمد وأصبح أوليا افندى شيخ القراء، واشتهرت قراءات ابن كثير والقراءات السبع والقراءات العشر والقراءات التقريبية.

أما فى سائر البلاد لا يستطيعون نطق الحروف كما ينطقها الترك، إن الترك قوم راشدون لحبائه وهم يعنون عناية خاصة بمخارج الحروف بمقتضى هذين البيتين:

وهو أيضا حلبة التلاوة وزينة الأداء والقراءة
وهو إعطاء الحروف حقها من صفة لها ومستحقها

أما في مصر فيكثرون من اللحن الجلى والخفى، وهم فى الأعم الأغلب يميلون إلى ترقيق الحروف وتسهيلها. ولكن فيهم من يحفظ القرآن بسرعة وهم كثرة، خصوصاً من فى عصرنا مثل الشيخ سلامة والشيخ عبد الحق والشيخ الغمزاوى والشيخ حمد الله السيوطى ولهم فصاحة اللسان وبديع البيان، وهم من أصحاب القراءات العشر والتقريبية، وأمثالهم سبعمائة من شيوخ القراء، وعندما كنت أتلو القرآن أقسموا على أنى من قراء دمشق، وجميع حفاظ القرآن فى مصر موضع إجلال وتقدير.

* * *

الفصل الثلاثون

ذكر ما في مصرام الدنيا من مكاتب الصبيان لتعليم القراءة

في القاهرة ألفان وخمسة عشر مكتب للصبيان أوقافها دائمة، بالإضافة إلى ألفا مكتب لتعليم الحساب إلا أن أوقافها معطلة، وقد أقام مائة وستة وخمسون سلطاناً على أسبلة جوامعهم مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم، ولسائر الوزراء والوكلاء والأثرياء وأصحاب الخيرات أربعة آلاف سبيل، وفوق كل سبيل مكتب منقوش ذو كوات وكأنه قصر يوسف. وهذا دأب أهل مصر، فكل مكاتبها مقامة فوق الأسبلة، وكلها مكسوة بقماش زنبوري، وفي هذه المكاتب يتلو جميع الصبيان آيات الذكر الحكيم.

وطبق هذا الإحصاء يوجد في مصر كلها ستة آلاف ومائة وستة وسبعون مكتباً، وأغلبها تابعة لجوامع السلاطين.

وفي النصف من شهر رمضان يجتمع مدرسو مكاتب السلطان الغوري والسلطان حسن والسلطان قلاوون والسلطان الأشرف والسلطان المؤيد وغيرها من مكاتب السلاطين والوزراء وحولهم الصبيان من الفقراء والمعوزين ويتقسمون طائفتين: طائفة تقول: (يا حنان)، وطائفة أخرى تقول: (يا منان) وقد تشابكت أيديهم وتعالّت أصواتهم ومروا في وسط السوق وقد تبعهم شيوخهم وانطلق الجميع إلى مكتب الناظر. وينال جميع الصبيان من الوقف قماشاً من حرير مصر والخلع والقلانس الحريرية ويلبسونها، ويتقاضون مرتباتهم وهي من أربعين أو خمسين باره مصرية، ثم يمضون في طريقهم فرحين قائلين: «يا حنان يا منان» وتدوم الحال على ذلك في القاهرة من منتصف رمضان حتى يوم عرفة، وتموج مكاتب الصبيان بهم ويمضون زرافات زرافات إلى نظارهم.

حقاً إنها لأوقاف عظيمة، وفي وقت الظهر والعصر يصعد المؤذنون الأذان من منائر جميع جوامع السلاطين وبذلك تغمر عظمة الله تعالى كل أرجاء القاهرة.

وفي المكاتب التي على الأسبلة يترنم أربعون أو خمسون صبيّاً رخيم الصوت بمنظومة المحمدية، ويدوم الأذان في القاهرة مدة ساعة بنغمات حجاز وسيكاه وحسيني، ومثل هذا الأذان في مكاتب الصبيان لا وجود له في بلاد أخرى.

وبعد الصلاة يجتمع الصبيان جميعاً فى مكان ويتلون على العموم سورة الملك، ثم يصلون صلوات طويلة، ويدعون بخير لصاحب الثواب. وهذه العادة غير معروفة كذلك فى بلد آخر.

وفى هذه المكاتب يتنافس الصبيان فى تصعيد الأذان بأصوات رخيمة، وأنفاس طويلة، وهذا ما تُشَنَّفُ به الأسماع وتشرح به الصدور. وإذا ما مر موكب بعض الأعيان أو الوزراء وشربوا من الأسبلة التى تعلوها مكاتب الصبيان رفع الصبيان جميعاً أصواتهم بقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] فيكرمهم بعض أهل الكرم. وهذا هو النظام المرعى فى مكاتب الصبيان فى مصر.

أما مكاتب صبيان الترك فصبغون، ولكنها ليست مكاتب مقامة فوق الأسبلة، وكأنها القصور، ففى الحارات وبالقرب من تكية سيدى الكلشنى يتولى التدريس معلمون وخطاطون فى دكاكينهم لسبعين أو ثمانين طفلاً تركياً، ويدرسون علم الحساب وعلم الكتاب وعلم القراءة، وليس بينهم أبناء الفلاحين ولا أبناء الحضر، وجميع معلمى هذه المكاتب من الترك الذين يسكنون فى هذه الحارات.



الفصل الحادى والثلاثون

ذكر ما فى قاهرة المعز من تكايا الدراويش

فى القاهرة ثلاثمائة وستون طريقة صوفية وعلى رأس هذه الطرق طريقة العلماء والصلحاء وأهل الشريعة وأهل المعرفة وأهل الحقيقة المحمدية، وثمة طريقة أخرى هى الطريقة «النَّقْشَبَنْدِيَّة» وهى طريقة أبى بكر الصديق رضى الله عنه أول رفيق فى الغار، ويسمونها طريقة «خُوجَه كان» وقد بلغت هذه الطريقة بلخ وبخارى وخراسان وبلاد الترك وكردستان، وقد انشعبت عن هذه الطريقة اثنتا عشر طريقة وكلها تنتهى بنقشبند، والطريقة الثانية هى طريقة الإمام على كرم الله وجهه، وأصبحت الطريقة الخُلُوتِيَّة وانشعبت هذه الطريقة إلى ثلاثمائة طريقة مثل الطريقة الجُلُوتِيَّة، وكلها تنتهى إلى الطريقة الخُلُوتِيَّة.

ثم طريقة الإمام الأعظم والتى أصبحت سراجاً منيراً إلى جميع الطرق، ثم الطريقة الشافعية فالمالكية فالحنبلية، فالقادرية والسعدية والبدوية والرفاعية والراعية والدسوقية والبرهانية والواحدية واليسوية والكميلية والعباسية والأدهمية والبكرية والساداتية والويسية والعلوية والحيدرية والمولوية والعشاقية والفنائية والبكتاشية والقلندرية والصمودية والبيرامية والحمزاية والإدرسية والعُمرُ رُوشِيَّة والإبراهيمية والكلشنية والسنانية والزينية والنعمة اللهية والنوربخشية والمطوعية والشناوية والفارضية.

وفضلاً عن هذه الطرق الثلاثمائة والستين ثمة عدة آلاف من شيوخ الطرق. ولكن ليس يخفى على أولى الأبصار الذين ينظرون فى الكتب أن سلسلة المشايخ الكرام انشعبت طرقهم حسب مشاربهم إلى عدة طرق أخرى وكل منها اتخذت لها موطنًا فى بقعة من البقاع.

تكايا سيد أحمد البدوى

ماتت تكية، وطبق ما فى دفتر الخلفاء فى ولاية مصر أن بها ألفين وستين تكية بدوية، وفى كل عام يأتى خلفاؤه إلى مولده الكبير لتجديد البيعة، وأهل مصر جميعاً لهم عقيدة راسخة فى السيد البدوى، فإذا تعقد أمر من الأمور قالوا: «يا لله يا سيد أحمد

البدوى، وفى المحكمة إذا وجب الحل كان الحلف برأس البدوى أو رأس أبى اليتامى، وللبدوى فى مصر تكايا وأوقاف عظيمة، وله ثلاثمائة ألف درويش مكحل العين أحمر الخرق، والتكية الرئيسية تقع فى شمال القاهرة على بعد مرحلتين فى إقليم الغربية بوسط طنطا.

تكية الشيخ مرزوق كفافى

ولكن أعظم تكية للبدوى فى القاهرة تقع بالقرب من قصر قاضى العسكر افندى على الطريق العام وهى تكة الشيخ مرزوق كفافى خليفة البدوى. وكان كشافى هذا مع الشيخ الجارحى حين قال للسلطان سليم: «تعال واجلس المصر»، وتكيته داخل الجامع وبها خمس وأربعون حجرة للدراويش توزع عليهم الصدقات والأطعمة، وشيخهم أحمد الخليفة.

تكية الشيخ الرفاعى

إنها تكية كبيرة فى نهاية جامع السلطان حسن، وهى للطريقة البرهانية وفيها مائة ألف درويش، وأتباع هذه الطريقة فى مصر كثير، وفى أيام موكب المحمل الشريف يزينون الطرق بخمسمائة علم أبيض، ونشأتهم من الشيخ إبراهيم الدسوقى البرهانى، وكان معاصراً للسيد أحمد البدوى، وإبراهيم الدسوقى ابن أخى السيد البدوى، وكثير من أهل مصر لهم فيه معتقد راسخ هو الآخر؛ فهم لو حلفوا فيما بينهم حلفوا برأس المولى النحاس أى إبراهيم الدسوقى الذى يعبد العلم النحاس، وإذا ما كانت ستظهر علامة عظيمة عاد العلم النحاس فوق قبر الدسوقى قبلها بعدة أيام ويبدأ فى الحركة فيعلمون أن علامة تظهر.

ولإبراهيم الدسوقى البرهانى مائة ألف درويش، وله تكية بالقرب من رشيد على شاطئ النيل وستذكر فى موضعها بإذن الله.

تكية الإمام الشافعى

تكية عظيمة للغاية، ويجتمع فيها كل ليلة سبت خمسة أو ستة آلاف من الدراويش ويسهرون حتى مطلع الفجر ويختمون القرآن مائتين أو ثلاثمائة مرة، وتوزع الأطعمة

على دراويش هذه التكية من الوقف، وفي مولد الشافعى يأتى عشرة آلاف رجل بأطعمتهم لإحياء هذا المولد، ويقال إن روح المصطفى ﷺ تحضر فى تلك الليلة.

تكية الإمام أبى الليث

وهى تكية عظيمة كذلك، وهى فى حى آخر، ويسكنها جميع دراويشها ويعرفون بالليثيين، وتوزع عليهم الأطعمة من أوقافها.

تكية أبى السعود الجارحى

فى محلة أخرى، وهى موضع للنظر فى جنوب القاهرة خارج المدينة، وعاش كذلك فى عهد السلطان سليم وهو الذى قال له: «تعال واملك مصر». وله عدة آلاف من الحكرامات الظاهرة والباطنة، ودراويش هذه التكية يعرفون بالسعوديين، إنهم أهل استقامة وورع وتكيتهم تكية عظيمة.

تكية السادات

وقف عليه نصف أوقاف القاهرة، وعندما جاء من المغرب لم يفض النيل ثلاثة أعوام، وعم القحط والغلاء، وتقدم أهل مصر إليه أن يأمر النيل بالفيضان، فأمره وفى التوفيق. وقال المصريون عن بكرة أبيهم: «يا الله يا سادات»، إنها تكية عظيمة ودراويشها كثرة.

تكية عمر بن الفارض

تقع فى سفح جبل الجوشى، وفيها يجتمع خمسة أو ستة آلاف كل يوم جمعة بعد الصلاة ويتلون سورة الكهف، وبعد قراءة الأوراد والأذكار يوحدون الله ويبداون فى تلاوة العشر الشريف، ومن يتلونه ذوو صوت رخيم، وهم من حفظة القرآن مما يشيع البهجة فى نفوس الحضور، ثم يقومون بتلاوة «ثانية الفارض» بصوت حزين بنغمات الحجاز والعشاق فيغيب الجميع فى نشوة الجذب فاقدن الوعي، وفى هذا اليوم فى هذا الجمع الحاشد عشاق صادقون وبدلاء وأمناء ونجباء ونقباء ومجادبون وملاهيون، وفيهم عشاق لهم قدر ومنزلة تأتى لهم رؤية الرسول ﷺ مرئياً فى تلك الغيبوبة، ويقال إن روح الرسول ﷺ تحضر فى كل يوم جمعة ولذلك تغض التكية بالناس حتى إذا ما

جلس أحد على كتف من يجاوره لم يغضب منه، فهم جميعاً فى نشوة السرور. يا لها من حكمة عجيبة، وليس فى هذه التكية أميراً ولا شحاذاً، إنهم جميعاً ركوع ولهذه التكية ستمائة درويش، وطعامهم حساء العدس، وتبسط الموائد لجميع الحضور.

تكية الشيخ شاهين

حقاً إنها تكية تشبه صخرة الشاهين، فهى تقع فوق صخرة بحيث تبدو مدينة القاهرة تحت القدم، ولهذه التكية منارة وفيها يجتمع كذلك المتصوفة لعقد حلقات الذكر، ولهذه التكية مائتا درويش.

تكية الشيخ الجوشى

إنها تكية عظيمة على جبل المقطم مطلة على القلعة الداخلية لمصر، وتبدو القاهرة تحتها وهى تكية طيبة النسيم بها جامع وأربعون أو خمسون درويشاً، والماء العذب يأتيها من جنوب القاهرة على ظهور الجمال بأمر من كتخدا الباشا. وجنوب هذه التكية فى القرافة:

تكية الشيخ عقبة بن عامر الجهنى

من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وفى عام ١٠٦٣ جدد خاصكى محمد باشا جامعهم وتكيته، وأصلح منارته فأصبحت هذه التكية وكأنها القلعة يعجز عنها الوصف، ولهذه التكية سبعون أو ثمانون درويشاً.

تكية البساتين

إنها تكية إرم ذات العماد، لها حوض وشادروان، تقع فى بلدة بالقرب من النيل، وهى تحت إدارة نقيب الأشراف، ودرويشها شرفاء، وبها عدة مقاصير ومطابخ.

تكية رماة السهام

تكية متصلة بأثر النبى، يأتى إليها جميع حاملى القسى والرماة بالسهام لينعموا بنسيمها الطيب، ولها مطابخ وبيوت وأسواق، ولكل بطل أهداف من الحجارة ويتصل بها أثر النبى ﷺ. وكل هذه الخيرات لإبراهيم باشا الدفتردار، وسوف نتحدث عن هذا الأثر عند حديثنا عن المنتزهات بمشيتة الله تعالى.

تكية السيدة نفيسة

تكية عظيمة على أطراف المدينة، و دراويشها يزيدون على مائتين، ولها ناظر وقائم عليها، وأطعمتها مبدولة للفقادى والرائح.

تكية الشيخ نور الله البدوى

تقع بالقرب من القبر الطويل، لها مائتا درويش.

تكية سيدى زين العابدين

توجد بالقرب من قناطر الغورى، إنها تكية كالقلمة، بها أربعون أو خمسون درويشاً، ولكن ليس لها أطعمة تورعها، وكان لها من قبل أوقاف عظيمة.

تكية الشيخ (١)

لها جامع ذو منارة على الطراز القديم، وفى ساحتها يبيع فقراء المسلمين الغلال، وتقع هذه التكية داخل القاهرة بالقرب من حارة السقائين.

تكية الشيخ الخلوتى

توجد فى القاهرة بالقرب من قنطرة السنقر على ضفة الخليج، إنها تكية عظيمة وفيها عدة صوامع للدراويش، وفيها محراب من الحجر الصماقى الأخضر يعجز اللسان عن وصفه، وقد لف سيدى عزيز عبد الرحمن افندى عِمَامَةً على السَّوداء حول رأسه، ووحد الله وسبح له مع عدة آلاف من الدراويش فى هذا المحراب الأخضر، وتؤدى صلاة الجمعة فى هذه التكية، ولهذه التكية جامع وقد اشتهرت المدينة بأنها مدينة جامع الخلوتى إنه جامع أرضى وفى حرمه حديقة تتصل بها بئر طَيِّبٌ ماؤها، ومن مطبخها تورع الاطعمة على الدراويش.

تكية الشيخ الشعراوى

وهو اليوم حى يرزق، ويعكف جليبي افندى مع عدة مئات من الدراويش على إقامة حلقات الذكر والتوحيد فى هذه التكية ليل نهار، ويورع الطعام من مطبخها على الدراويش.

(١) بياض فى الأصل.

تكية شمس الدين الحنفى

تكية عظيمة بالقرب من الخليج، وبها جامع ودراويشها مائة وخمسون يوحدون الله ويسبحون له، وبها عدة حجرات. ويصيب من طعامها الغادى والرائح.

تكية الشيخونية

تقع فى سوق الصليية، وهو وزير السلطان حسن، وهى تكية للشيخ عبد القادر الجيلانى، ولها سقف منقوش مقام على ستة عشر عموداً، يتوسط حرمها حوض عظيم تعلوه قبة بيضاء على ثمانية أعمدة، والحرم من أوله إلى آخره مرصوف بالرخام الأبيض، وفى الركن الأيمن لهذه التكية باب يفضى إلى ساحة مسقوفة الوسط وفى أطرافها حجرات للقادرية، وفى هذه الساحة ينعم الدراويش بإلقاء السمع إلى التوحيد. وعدد هم يربو على مائتين، وهم أصحاب الفقر والمجاهدات، والنور يبدو فى وجوههم. وهذه التكية مجمع لدراويش وعلماء القادرية، ولها أوقاف عظيمة، وتوزع الأطعمة على الغادى والرائح وناظرها إمام ولاية مصر، ويتقاضى إمام الخلوتية تسعة آلاف باره فى السنة، وعلى باب هذه التكية المظل على الطريق الرئيسى منارة عالية من ثلاث طبقات، وفى مواجهة هذه التكية جامع الشيخونية وقد بنيت التكية والجامع على طراز واحد، ونوافذها مطلية على الطريق الرئيسى، وشيخ هذه التكية أمير جلبي، إنه سيد كريم حميد السجاي، وفى القاهرة أربع تكايا للقادرية فى أربع جهات متفرقة إلا أنها جميعاً تابعة لهذه التكية.

تكية الشيخ العبارى

توجد تكيته بالقرب من تكية الشيخونية فى سوق الصليية، وهو الآن على قيد الحياة وهو صاحب كرامات، إنه لا يغادر داره قط ويعتكف فيها صائماً قائماً، وفطره على رغيف من خبز الشعير يزن عشرين درهماً وكوب من اللبن وغداؤه كذلك، إنه عالم عامل فاضل مستجاب الدعوة تقى ورع صاحب رياضات ومجاهدات.

• مناقبه :

كنت فى حضرة الشيخ العبارى قبل أن أذهب إلى نزل أحمد باشا الدفتردار بثلاثة أيام، وأثناء الكلام سألتى الشيخ: ماذا يعمل الباشا؟
فقلت: إنه يقوم على خدمة مكة والمدينة ويدعو لك بالخير.
فقال الشيخ مكاشفاً: ربما مر بعد ثلاثة أيام بزاويتنا ويسأل عنها.
فأخذ حضار المجلس بإشارات الشيخ، وقال بعض الدراويش: إن الباشا لا يحب الدراويش، وبسطوا ألسنتهم فى مذمته.

فقال الشيخ: كل أمر من الله، وبأمر الله لا بقاء للجراد فى مصر ولا بقاء للمسىء بين الناس ولن يعمر كذلك من يعيث فى الأرض ساداً ليل نهار.

وهذا من كلام الشيخ فيه ما فيه من إشارات واقتضت حكمة الله أن يجتمع الجند بعد ثلاثة أيام فى ميدان الروملى مدججين بالسلاح وأعلنوا ثورتهم، وساد الهرج والمرج. وأمام باب العزب أسقطوا من يسمى عبد الفتاح كاتب مخازن يوسف عن جواده ومزقوه إرباً إرباً ونادوا بإسقاط الباشا وعزلوه فى النهاية بلا سبب.

ومر الباشا مع أتباعه من سوق الصلية ووقف خدام الشيخ العبارى لتحية الباشا وسأل الباشا الشيخ عن حاله ثم ذهب إلى قصر حاجى باشا فى موكب حيث نزل ضيقاً وتذكرت ما تنبأ به الشيخ للباشا من أنه سوف يمر بعد ثلاثة أيام فى موكب وقد تحقق ذلك، إن هذا من الكرامات.

ولم يدخل يد الشيخ ولا يد آله قط درهم حرام ولا حلال، إلا أنه كان يقبل الهدايا من أرز وعسل وسمن وقمح وما أشبه، وثيابه من الهدايا كذلك. إنه سلطان المتصوفة، وجملة الدراويش فى تكيته يقنعون بلقمة الكفاف والسلام.

تكية خوجكان

تقع هذه التكية فى نهاية الجهة الشرقية من ميدان الروملى، إنها معدن الدراويش ويسكنها جميع دراويش الأوزبك وبخارى وبلخ. ولأن أوقافها قليلة فإنها تعتمد على التذور. وعندما غادر السلطان سليم اسطنبول متجهاً إلى مصر حمل درويش نقشبندى

عموداً ثقيلاً من الحجر السماقى يزن أربعمائة أوقية فوق كتفه ومضى به إلى مصر مع السلطان سليم وبعد الفتح أقام له السلطان سليم هذه التكية وهو الآن مدفون إلى جوارها. والعمود المذكور معلق بالسلاسل على باب التكية ويراه الغادى والرائح وهو من حجر سماقى كأنه حمل جمل، حقاً إنها لكرامة.

تكية الأوزبك

تقع على مقربة من تكية خوجكان فى مستشفى السلطان المؤيد، إنها تكية صغيرة لا أوقاف لها ومن فيها يعيشون على لقمة الكفاف وهم جماعة من الدراويش الأوزبك والهنود والبلخيين والبنكاليين والسليمانيين والمغول، ولهم زاوية ولان شيخهم صاحب كرامات يلتف حوله جميع الدراويش كما تلتف القراشة حول الشمعة.

التكية النظامية

فى عام ٧٣٣ أصبح سيدى الشيخ نظام الدين قطباً صوفياً عظيماً للطريقة الخلوتية وبما أنه أقام تكيته من صلب ماله لكى تصيح مقراً للدراويش أذن له السلطان محمد بن قلاوون فى إقامة تكية خارج باب الوزير ليس لها فى مصر من نظير وبها جامع لطيف ونحو مائتى حجرة للدراويش وحجرات للمتزوجين منهم وحجرات أخرى لغير المتزوجين. وهم يعقدون حلقات الذكر فى ساحة علوية مرصوفة بالرخام الأبيض، ومطبخ هذه التكية ينال منه الغادى والرائح، وكنت ناظراً لهذه التكية مدة عام على عهد سيدى جان بولاد زاده حسين باشا. وينفق على الجامع وتكيته كيس من فائض الوقف، والطعام فيها يقدم فى وقتين، ودخلها فى العام سبعة أكياس ونفقتها أربعة أكياس ولها أوقاف عظيمة.

حتى إن المرحوم عمر افندى المصرى الذى توفى فى اسطنبول سكن هذه التكية أربعين عاماً، وكان متضلعا من شتى العلوم والفنون، إنها تكية روحانية وقد دفن فيها سيدى الشيخ نظام الدين الاصفهانى.

تكية الواحدى

تقع فى نهاية جامع السلطان حسن، يسكنها جميع الهنود ولها ساحات صيفية وأخرى شتوية وعدة حجرات، لم تكن لها أوقاف، وقد رصد إبراهيم چلبى القائم على

خزانة جان بولاد زاده حسين باشا مبلغين، وأقام على سطحها عشرة دكاكين، وفيها من الهندود من لم يتكلموا منذ أربعين سنة كأنهم صم بكم عاكفون على العبادة ليل نهار وبعضهم يظل واقفاً ثلاثة أشهر متعبداً.

تكية الإمام الحسين

أقامها () (١) العباسي عام () (٢)، إنها جامع كبير والاعمدة التي بهذا الجامع في حجم الكعبة ولذلك يحضرون كسوة الكعبة إلى هذا الجامع بعد أن يعاينها الباشا وتلف حول هذه الأعمدة وفي كل عام تعلق عليها كسوة الكعبة، ولهذه التكية دراويش وخدام للأضرحة ونفقاتهم تكفيهم وحدهم، ولأنها تكية كبيرة تأتيها النذور وصنوف الأطعمة والأشربة من كل جهة.

تكية الشيخ إبراهيم الكلشنى

تقع بالقرب من الباب الحديد وقد بناها سيدى الشيخ الكلشنى من صلب ماله فى عام ٩٤٠ على عهد السلطان سليمان، إنها تكية عظيمة على الطريق المحمدى العام، ويصعد إليها من باب حرمها بسلم حجري من عشرين درجة، وبداخلها ثلاثة أبواب منفصلة، وعلى يمين الباب الكبير منها والمطل على الطريق العام كتب قوله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ {فصلت: ٣٣}.

وبين هذا الباب والباب الأوسط كتب أبيات من الشعر على لوح بخط جلى وهى:

تكية الكلشنى المفعمة بالذوق والصفاء

تقام فيها شعائر المصطفى

أيها الزاهد عن تكية الكلشنى لا تبتعد

إنما يهدى الخلق كل من فيها زهد

وعند مدخل هذا الباب يوجد سبيل الدراويش، والقائم على هذا السبيل يخبره بالعود والعنبر ويوزع منه الماء العذب، وبعد تجاوزه يصعد إلى الحرم الشريف بسلم ذى

سبع درجات، وهى ساحة بيضاء مرصوفة بالرخام الأبيض المصقول، وفى هذه الساحة محراب جميل كتب عليه بخط جلى على الرخام قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤]، وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحرم حجرات الدراويش وتحت كل حجرة فسقية، وعندما يموت صاحب الحجرة يدفن تحت أرض الفسقية وتباع مخلفاته إن وجدت ويوقف ماله على المصاحف ويتلو كل الدراويش القرآن على روحه وينطق الداعى باسم المرحوم، ولا وجود لتكية فيها من الخيرات ما فى تلك التكية، كما لا وجود لتكية مثلها تحت كل حجرة من حجراتها قبر. إنها تكية عجيبة الطراز والآن بها أكثر من ثلاثمائة من دراويش الكلشنية وقد صفت أرواحهم وكل منهم فى زاوية يتعبد وهم عاكفون على الرياضات والمجاهدات.

وفى كل ليلة جمعة تبسط السجاجيد النفيسة فى هذا الحرم وتؤدى صلاة العشاء وبعد تلاوة سورة الملك يحضر جميع المصتوفة، وبعد إتمام الأذكار والأوراد يشرعون فى التوحيد السلطاني وتتماسك أيديهم وأذرعهم جميعاً ويدورون ويؤدون السماع ويوحدون الله فتصبح التكية الكلشنية كأنها حديقة إرم ذات العماد ويتغنون بأصوات كأصوات العندليب، وبنغمات العشاق يروح هؤلاء المتصوفة فى نشوة الجذب ويتفننون فى النغمات، ومنهم من يحرقون البخور ويشرون ماء الورد على وجوه الزوار ويقدمون لهم الشراب، وأثناء تلاوة التوحيد سبع أو ثمانى ساعات يترنم الذاكرون الشاكرون بصوت رخيم بألحان من مقامين وأربع وعشرين شعبة، ويقراون الأدوار والتقاسيم بصوت حزين وبذلك يدخل الدراويش فيما يعرف بحال السكر، وبعد أن يكمل أحد الذاكرين الترنم يقرأ بصوت داودى بيتين أو خمسة لفضولى أو روحى أو عارفى أو الحيام، وذلك للترويح عن الدراويش ويغيب الدراويش جميعاً عن وعيهم وترنمون بالألحان ويدومون على التوحيد بهذه الكيفية إلى ما شاء الله أن يداوموا.

وجميع المترددين على هذه التكية من علماء وأعيان الترك ولا يمكن أن يدخل هذه التكية أحد من أبناء العرب.

ويتوسط حرم هذه التكية قبر ذو قبة عالية هو مثنوى لسيدى الشيخ إبراهيم الكلشنى وأولاده وأحفاده.

وفي الجانب الشمالي لهذه التكية باب متقن الصنع مزخرف بالكتابات، ومكسو بالفضة، وعلى عتبة العالية كتب قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، وفوق هذه الكتابة كتابة أخرى بخط جلي لم تتأثر بشدة الحر ولا الأمطار وخطها بديع وتاريخها هو: مات قطب الزمان إبراهيم الكلشنى سنة ٩٤٠. وعندما يدخل الزوار من هذا الباب تتعقد الستهم ويقعون فى الحيرة، وفى هذا القبر ما فيه من زينات بديعة وثريرات نفيسة، من أمعن النظر فيها أخذته الدهشة، فهو مزين بأكثر من ألف قنديل فضى، وقناديل بللورية، وثريرات، وحولاً لنعش الشريف شمعدانات ومباخر وأوانٍ لماء الورد.

ولقد أرسل السلطان تقي الدين سلطان خراسان مصباحين وشمعداتين ومن شاهدتهم ظنهم من ذهب، إلا أنها من النحاس الأصفر ولا يستطيع مهرة الصناع فى يومنا هذا أن يصنعوا مثلها وكل منها بقدر قامة الإنسان وقضاء كل ليلة بشمع الكافور.

وهذه التكية مفروشة ببسط مخيطة بخيوط الذهب وسيدى الكلشنى مدفون تحت تلك المقبة، وفى جوانبها الأربعة آيات الذكر الحكيم بخط ياقوت المستعصى والقره حصارى ومحمد الدرويش وعبد الله القرمى، وهؤلاء من خدام السلطان سليم وابنه سليمان، وكل منهم يعمل خزانة مصرية. وكم من مئات الكتب والمجلدات وكتب التصوف والدواوين التى نظمها الشيخ وكتبها بخطه الشريف موجودة كذلك. وهو مدفون بعمامته الخضراء عند جدار قبلة القبّة، ولقبره غاية المهابة.

والى جوار الشيخ إبراهيم الكلشنى دفن كذلك أبناؤه وهم الشيخ إبراهيم اقلنى ابن الشيخ على صفوتى بن أحمد خيالى بن حسن خيالى ابن سيدى إبراهيم الكلشنى قلس سره العزيز، والى جواره الشيخ أحمد الخيالى الذى توفى عام ٩٧٧، والى جواره الشيخ على الصفوتى ابن الشيخ أحمد الخيالى حفيد الكلشنى الذى توفى عام ١٠٠٥ والى جانبه كذلك الشيخ حسن بن سيد الخيالى المتوفى عام ١٠١٢ وخلفه صهره الشيخ محمد اسندى المتوفى عام ١٠١٤ ولا وجود لنعش داخل هذا الضريح إلا أنه مدفون فيه، وأسفل هذا الضريح ذى القبّة (سماع خانه) ذات حرم تتوسطه فواره تحت الأرض دفن فيها جميع مشايخ وأعيان الكلشنية والروشنية.

وإبراهيم الكلشنى هذا قدم بلغ وخراسان وبائع سيد عمر الرُّوشنى، كما أن عمر كذلك نال الإذن من سيد يحيى الشروانى وتنتهى سلسلة نسه إلى على الكرار.

إنها تكية وطريقة عظيمة ولا وجود لتكية لدى الترك ولا العرب والعجم لها مثل أوقافها، وتوزع منها الصدقات وأشهى الأطعمة على المترددين عليها، ولا وجود فى مصر لتكية لها ما لهذه التكية من روحانية، و دراويش هذه التكية عارفون بالله متضلعون من شتى العلوم، وكل منهم عالم نظير عبد الله الفارابى و غلام الناصرى و غلام الشادى وفيثاغورث التوحيدى.

وإذا ما تحدثنا عن هذه التكية على قدر وقوفنا على أسرارها لطال بنا الحديث.

تكية القصر العينى

وهى تكية حاجى بكتاش ولى قدس سره العزيز، وقصر العينى مكان نزه فى الجهة الغربية من القاهرة على ساحل النيل فى حديقة كأنها حديقة إرم، وكان هذا القصر موضع عناية كثير من سلاطين السلف، أما أول من بناء فهو السلطان الطاهر، وأضاف إليه كل فاعل خير قاعات ومقاصير وحجرات عديدة وأحواض وشادروانات، ويأتى إليه جميع أعيان مصر ويقيمون فى حجراته للمتعة والاستجمام.

ويتوسط هذه الحديقة التى تشبه حديقة إرم قبة عظيمة مكسوة بالجلص الأبيض، وهى قبة تكية البكتاشية، وهى تتسع لآلف إنسان، ولها ساحة عظيمة مرصوفة من أولها إلى آخرها بالرخام الأبيض، والجوانب الأربعة لهذه التكية مفروشة بفراء الأضاحى.

وفى أسفل المحراب الشيخ محمد دده، وإلى جواره الخليفة الرئيس، ثم الإمام، فالؤذن، والداعى، وصاحب الشريعة، وصاحب الطريقة، وصاحب العصا، وصاحب العلم، والمضيف، ورئيس الطهارة ورئيس الخبازين. وجملة القول أن جميع الدراويش جالسون على الفراء، وكل منهم فى عمله منهمك فيه، ومنهم من يدرس ومنهم من يتلو القرآن، ومنهم من يتلقى أصول وتعاليم التصوف.

إنهم طائفة من أهل السنة والجماعة يقومون على خدمة المترددين عليهم، ويرحبون بهم، وهم على أهبة الاستعداد لأن يكونوا فداء لضيوفهم. وفي الجوانب الأربعة لهذه القبة نوافذ قضبانها من النحاس تطل على حديقة كأنها إرم ذات العماد. وقد دفن فيها بعض شيوخ البكتاشية.

وأطراف المحراب مزينة بالأعلام والشمعدانات المذهبة والقناديل والمصابيح المختلفة والنفيسة. وعندما قَدِمَ سليم مصر سائحًا نزل ضيفًا عدة ليالٍ على هذه التكية، وبعد الفتح وَفَى بوعدِهِ وجاء إلى هذا القصر وفي معيته خدامه، وحل ضيفًا فيها سبع ليالٍ وسماه القصر العيني:

سمى القصر العيني كما قال سليم

وإن كان هذا التشبيه مجازًا فهو الحقيقة

حقًا إنه مكان نزهة للسلطين. وقد أقيمت مقصورة في الركن الأيمن الذي نام فيه السلطان سليم، ولا يجلس أحد في تلك المقصورة، وفيها تحفظ دفاتر وقف التكية. وفي المطبخ الحيدري لهذه التكية أناس تركوا التجريد، ونفضوا أيديهم من كل شيء سوى الله وملكوا خزائن السر في ركن العزلة. فكل منهم مأمور بإنجاز عمل، والخبازون في فرنهم وقد صفت أرواحهم وخبزوا الخبز الأبيض ليقدمونه لل دراويش. وفي المطبخ الخليلي تبسط الموائد في الصباح والمساء للغادين والرائحين والمتصوفة، وفي بعض الأحيان يتوافد على هذه التكية بعض الأعيان ويسطون الرجاء إلى الدده افندى بان يأمر دراويشه بإنشاد بعض أشعارهم، فينظر الدده افندى إلى سر چشمه دده وشيدا دده وطاهر دده وعاشق دده وقربان دده وطلبكار دده ورجعى دده وغواص دده وجوان مست دده ومدهوش دده ويقول لهم: إن ضيوفكم يطلبون سماع أشعاركم فتكرموا بإنشاد الأشعار فيردون عليه: سمعًا وطاعة. ويمضون إلى ساحة المنافسة الشريفة مثنى مثنى وقد حمل كل منهم قضيبًا في يده وصفحات ربطها على خصره ودخل ميدان الشعر وعند البدء يخرج شيخ من أحد الأركان ويصلى على جمال وكمال المصطفى عليه السلام ويقول الشعراء كذلك:

أيها الحبيب إن هذا العالم ليس له من أساس
إن الشعر من ذؤابة النبی صلوات الله عليه

وينشد المتبارون فنون الشعر من المثنى والمثلث والرابع والخمس والمسدس والمسبح
والثمن والعشر، والقصائد، والترجيع بند، والمراثي، والرباعيات ورد العجز على
الصدر، والغزليات، وما قيل في بحر الطويل، وغير ذلك من مشكلات، وكان كل
واحد منهم حسان وامرؤ القيس.

ثم تظهر مجموعة من صفار الدراويش الذين اتسموا بالوسامة والبداية وقد
حفيت أرجلهم وانكشفت رءوسهم بمسكون بما لديهم من الطير والقضبان الحديدية
ويكشفون عن رقابهم وأذرعهم البيض وهي كشمع العسل ويدخلون حومة المحبة
ويذكرون ما قاله المتصوفة من اللطائف والأمثال الشيقة المستطرفة، ويمزحون وكل منهم
له مقبرته، ويدخلون السرور على نفوس الحضور، كما يذكرون النوادر الخاصة بمن
يتعاطون المخدرات، ويغيب الحضور عن وعيهم من الضحك كمن تعاطوا المخدرات.

وكل من يزور هذه التكية من العلماء يقرض الشعر عنها. حتى إنه في عام ١٠٨١
عندما أقام إبراهيم باشا والى مصر قصرًا شامخًا في أحد أركان القصر العيني يطل على
ميدان الجريد نظمت هذه الأبيات وهي تاريخ القصر العيني:

تعالى الله حبذا هذا من قصر عظيم
أقيم عرشا على شاطئ النيل
إنه خاص بطريقة حاجي بكتاش وفي تكية
وكانما هو جنة المأوى
لقد طوفت في الأقاليم السبعة ولم أجد له نظيرا
وكانما صمم بنائه استناد الأزل
وبقى هذا القصر اسمًا لقصر إرم وقصر يوسف
ولقد أقام قصر الخورنق هذا إبراهيم باشا

أنا سائح العالم طوفت في الدنيا من أقصاها إلى أقصاها
إن لم يكن في الأرض مثله فهو قصر السعادة
وبما يورع فيه من طعام هو أب أم الدنيا
لقد رأي النجم دارته لاسكندر دارا
اللهم احفظ مقام الكُلُشَنى هذا من كل سوء
وليسلم بدعائى له وختمى لآيات القرآن
وليكن لهذا القصر البقاء كبقاء الأرض

سنة ١٠٨٢

وأصبح هذا القصر قصرًا سلطانيًا يضافى الرواء والبهاء على القصر العيني، وثمة
تكية بكتاشية أخرى في وسط حجرات العزب وهى:

تكية حسن بابا البكتاشية

وهو حامل لواء الرسول ﷺ إلا أنه بنى قبة صغيرة أصبحت تكية للبكتاشية وفيها ما
يقرب من عشرين درويشًا من أهل الحال، ولهم طعام يصرف لهم من حجرات العزب.

تكية قيغيسر بابا البكتاشية

إنها تكية صغيرة مظلمة بالقرب من باب قاضى العسكر فى حارة بالقرب من بين
القصرين، إنها ليست واسعة ولا أوقاف لها، ولها عشرون درويشًا مسنًا يعيشون فى
زهد ولها ساحة صغيرة وتربة منورة. وفى كل يوم جمعة بعد أداء الصلاة يعين لكل
قادم صحن من الأرز المخلوط بالماست وقد اشتهرت التكية بذلك. لقد وهبهم الله هذا
من خزائن الغيب.

تكية عبد الله الأنصارى

توجد فى القصر المواجه للقلعة الداخلية، وهو من الصحابة الكرام إلا أن هذه التكية
خاصة ببعض دراويش البكتاشية ولها أوقاف كثيرة.
وبالقرب من قصر الكتخدا أسفل زاوية الملك الطاهر تكية هى:

تكية سيدى عبد القادر الجيلانى

وقد دفن فيها أخ لآبى أيوب الانصارى وسيدى الشيخ سارية، إنها تكية صغيرة يسكنها عشرة من الدراويش. والباشا يقدم إليهم الخبز واللحم. وفى كل ليلة جمعة يأتى إليها دراويش الشيخونية وفيها يقيمون حلقات الذكر والتوحيد، ولقرب هذه التكية من مسكنى كنت أذهب إليها ليلة الجمعة وهناك أنعم بالذكر.

تكية قره قيا باشا فى قره ميدان

إنها تكية ضيقة للشيخ عبد القادر وفيها ما لا يقل عن ستة أو ثمانية دراويش وطعامهم يأتهم من مبرة الشيخونية.

تكية مصلى سبيل المؤمنين فى ميدان الروملى

بناها السلطان الغورى عام تسعمائة واثنى عشر، ويصعد إليها بسلم من اثنتى عشرة درجة، وعلى عقود القبة كتب على الرخام الابيض تاريخ هو:
(بسم الله الرحمن الرحيم فى أيام أبى النصر عبد الله قانصوه الغورى شهر جمادى الاولى فى سنة اثنا عشرة وتسعمائة من الهجرة النبوية).

وكل من يقتل شرعاً فى ميدان الروملى ومن يتوفى من الاعيان فى القاهرة تقام عليهم فى هذه التكية ويشارك فيها آلاف المصلين، إن هذه التكية مصلى للمسلمين، وفى جوانبها حجرات وسبيل، ولكن لا مطبخ لها، وقبة هذه التكية تقوم على أربعة أعمدة، ويجتمع فيها دراويش الطريقة المطاوعية فى كل يوم جمعة، وبعد صلاة الجمعة يعقدون مجالس التوحيد، ولا تستطيع واحدة من الطرق الثلاثمائة والستين أن تؤدى التوحيد مثلهم فهم حينما ينتفسون يسمع صدى كلمة اللهم.

ولكن حينما يدخلون فى حالالوجد يحمل بعضهم على بعض كمن امتطوا الخيل وحملوا السيف فى يدهم أو من حملوا القسى ورموا بالسهام، ويضرب بعضهم البعض فيبدو الزبد فى أفواههم ويتهاوون على الأرض، ويبدو بعضهم كمن يرشقون العدو بسهامهم فتمتلئ عيونهم بالدم كمن تصيد، ويسيل اللعاب من فمهم كأنه الصمغ الهندى وهم يصرخون، ويحمل بعضهم على بعضهم الآخر ويتفق أن يحجز الشيوخ

بين اثنين منهم وبذلك ينجوان. ويهجم بعضهم على بعضهم الآخر وكأنهم الأسود الضواري فيخاف بعضهم ونتحى بعيداً وبعضهم يبدو وهو يصيح كالقط والكلب، ويبدأ في التمرغ على الأرض، وبعضهم يبدو كالتنين له سبعة رموس يهاجم من يهاجمه، ويرفعون أصواتهم بالصباح إلى حد تنشق مرارة من يسمعونه فيتواري الخائف خلف الشيوخ والدراويش ويلزم الصمت.

وقسماً بالقرآن الكريم أن هذه التكية فيها أحوال وأسرار إلهية من يقف عليها يغيب عن وعيه مندهشاً، وتمس حاجته إلى الانخراط في الطريقة المطاوعية، ومن لم يكن له علم اليقين وعين اليقين لا يقتدر على أن يبلغها لأن من رأى ليس كمن قرأ أو سمع. وفي جامع الحاكم بأمر الله كذلك يقام التوحيد على الطريقة المطاوعية في عشرة مواضع يوم الجمعة، وهذا ما يعجز عن وصفه اللسان والقلم جميعاً.

تكية الكُشْنَى

في بولاق، إنها تكية سلطانية على ساحل النيل، إلا أنها ليست واسعة وفيها ما يقرب من ثلاثين درويشاً من العلماء والاطهار أصحاب السلوك، ولهذه التكية أوقاف عظيمة ولذلك تقدم فيها الاطعمة لكل متردد عليها. وفي الايام التي تبحر فيها سفن السيد البدوي يقدم إلى هذه التكية كل من في القاهرة من أهل العلم والصلاح لإقامة مولد عظيم مرة في العام.

تكية الشيخ فرج الله

في بولاق كذلك، وهي تكية صغيرة على ساحل النيل وشيخها رجل عظيم صاحب كرامة. وتأتيها النذور من كل الجهات ويعيش عليها خمسة وأربعون درويشاً، وطريقتهم يمنية، وكل أبنيتها تحت ظلال أشجار الجميز والنبق، ولذلك لا تؤثر فيها الشمس، وكل من يتردد عليها يقدم له فنجان من القهوة اليمنية، أما هذه القهوة فكانها ماء الورد ولا يحتمل أن تصنع مثل هذه القهوة في قصر أحد الاعيان، ولا يحتمل أن تقدم في قصور الاثرياء، إنها بركة شاذلية عجيبة.

ودفن سيدى الشيخ فرج في هذه التكية وهي من روحانياته، وإن له بركات الخليل وكم من تكية في مدينة بولاق، ولكننا اكتفينا بذكر هذه التكايا، وعدد التكايا في مدينة بولاق خمس وأربعون تكية.

تكية الملك الأشرف

فى مصيف السلطان قايتباى، لها قبة عالية مكسوة بالجلص الأبيض وكأنها تكية القصر العينى، إنها قبة سلطانية تتسع لآلاف إنسان، وقد أقيمت للطريقة الخلوتية، ولأن لها أوقاف عظيمة يربو عدد دراويشها على المائة ولكل منهم حجرة مستقلة وما يكفيهم من طعام.

تكية السلطان قايتباى

إنها تكية عظيمة للطريقة البدوية وتقع قبالة جامع قايتباى، ويقام فيها المولد مرة فى كل عام. وفى هذه التكية ثلاثمائة من الدراويش المتزوجين، وطعامهم من مبرة قايتباى، وفى قايتباى عشر تكايا.

تكية السلطان طومانباى

فى العادلية وبها ما يقرب من عشرين درويشًا خلوتيًا.

تكية مولوى خانه

إنها تكية كبيرة فى القاهرة بالقرب من سوق الصليية، بها ساحة عظيمة للسمع ودراويش يقرأون المتنوى. حتى إن حسن افندى ترك منصب قاضى قضاة القاهرة وقنع بالفقر واعتكف فى خلوته فيها، كما أن آدم افندى شيخ البيت المولوى فى باب البرج باسطنبول قدم من مكة إلى مصر، ودفن فى هذه التكية، وتاريخ وفاته هو: «مضى شيخنا آدم إلى الجنان سنة ()»^(١)، ويطلقون على المكان الذى بنيت فيه تكية جامع الطيلونية قلعة الكباش وجبل الشكر، وفى هذا الموضع وجه موسى عليه السلام إلى الله كلمات وكلمات، ولهذا لم تتحمل الصخور جمال التجلى فتفتت قطعة قطعة. والآن الدعاء فى هذا الموضع يستجاب. ودراويش هذه التكية معظمهم من المغاربة وشيخهم عزيز نصر الله، وهو شيخ مستجاب الدعاء، وهو على الدوام يصوم صيام داود سلمه الله.

(١) يياض فى الاصل.

وهذه التكية من خيرات السلطان قايتباي. وقبتها منقوشة باللوان مختلفة ويصعد إليها بسلم من خمس عشرة درجة. وما فيها من نقوش لا وجود لها في بلد آخر، والقبة مطلية من الداخل باللزورد والسليو وفيها رسومات نباتية تبهر عين من يشاهدها إنها قبة ذات سحر معجز. إنها مكسوة من الخارج بالجلس الأبيض وليست مكسوة بالرصاص الأزرق. وأشغال الصدف في محرابها، وأشغال الجص في جدرانها الأربعة المبنية بحجر البشم الحرقاني لا وجود لها في مبنى آخر في مصر.

وقد أقيمت هذه التكية للطريقة الأحمدية ودراويشها يربو عددهم على ثلاثمائة درويش ويكفيهم ما يجري عليهم من الأوقاف.

إنها تكية كأنها القلعة وجميع الدراويش يسكنونها، ويقام فيها مولد عظيم مرة كل عام ويدوم ثلاثة أيام بلياليها. وفي الطرف القبلي لهذه التكية نخلات وحديقة ذات أزهار.

تكية الطوبخانه

تقع في الجانب الشرقي خارج مدينة القاهرة على بعد ربع ساعة منها.

تكية تيمور طاش

بالقرب من تكية الطوبخانه أقيمت لدراويش الخلوتية. إنها تكية ذات قبة عظيمة، وفي كل ليلة جمعة يتوافد عليها آلاف المتصوفة وتقام المراسم الحيدرية وهي تكية ذات حدائق وحجرات للدراويش وساحة للسمع. وهذه التكية خاصة بالدراويش ذوى الشأن والمنزلة.

تكية السلطان الغورى

إنها على بعد ساعة من القاهرة في الجانب الشرقي منها. وقد أقيمت للطريقة البدوية وأرضها مرصوفة بالرخام يعجز عنها الوصف. وفي هذه التكية محراب ومنبر وتقام فيها صلاة الجمعة [الغورية] حتى لاسواق الغورى الصغير^(١) وفي هذه التكية ما يقرب من ألف درويش على الطريقة البدوية. وأوقافها قليلة لذا يعيش من فيها على الكفاف. وشيخ طريقتها من صلحاء الأمة، ويقام فيها المولد مرة كل عام وتلى التوحيد السلطاني.

(١) هذه العبارة مقعنة في هذا الموضع؛ وربما ذكرها تمييزاً لِيُعرف أن تكية الغورى شيء، والغورية شيء آخر.

تكية قدم النبي عليه السلام

فى عام ١٠٧٤ أقام إبراهيم باشا الدفتردار من فرط محبته للرسول ﷺ قبة شامخة تناطح الجوزاء أنفق عليها خمسين كيسان من صلب ماله لقدم النبي ﷺ كما أقام بجوارها جامعاً عظيماً يعجز اللسان عن وصفه. كما أقام قصرًا عاليًا يطل على ميدان الجريد. إنها تكية عظيمة مزينة بالصفّات وجامعها الجميل له سقف منقوش مربع يقوم على ستة أعمدة من الرخام الأبيض، ومحرابه جميل خال من الزخرفة ومنبره من الخشب الأحمر المنقوش. وأرض الجامع مفروشة بالبسط الحريرية النفيسة، كما يزدان الجامع بالثريات الفاخرة الجميلة. وأمام المحراب حديقة ذات أزهار أما مساحته فمائة قدم فى مثلها. وعلى باب قبلته لوح ذهبى عليه تاريخ بخط التعليق باللون الأزرق وهو:

(أصبح الجامع كالجنة، تم بناؤه عام ١٠٧٧ وأصبح جامع إبراهيم باشا دار سلام).

وفى الجانب الأيمن داخل الجامع باب يفضى إلى قبة قدم النبي ﷺ فى صيوان ودخله ماء الورد وجميع الزوار يمرغون وجوههم على أثر قدمه ﷺ على الحجر:

تعال إن روضة النبوة أثر هذه القدم

مرغ وجهك على قدمه

والقبة من الداخل مكسوة من أولها إلى آخرها بالقيشاني وفيها خطوط مختلفة لمهرة الخطاطين ولى أنا كذلك خط كتبه وقد نقش إبراهيم باشا كذلك طفراء على لوح منقوب وكأنها سحر مبین، وفى الصواوين نفائس عظيمة وعلى باب القبة تاريخ هو:

فى هذا المقام الرائع أثر قدم المصطفى صلى الله عليه وسلم

وغيرها كحل لميون الكائنات

كل من مرغ وجهه على تلك القدم مخلصاً

كان النور منه فى ظاهره وباطنه

ولقد أرضى هاتف الغيب وينلك أصبح تاريخه

حقاً إن أثر قدم المصطفى يشرح الصدور

سنة ١٠٧٧

وعلى يسرة المحراب لوحة تحمل تاريخاً مكتوباً بخط النسخ وهو:

لقد أرخ إبراهيم باشا لأثر قدم النبي

سنة ١٠٧٤

وثمة تاريخ آخر مسطور على باب القبة بخط التعليق وهو:

لما شارف التمام ذكر الهاتف تاريخه

أصبح إرم الفردوس سنة ١٠٧٤

وكذلك على الباب الخارجي للقبلة كتب تاريخ آخر بخط التعليق على لوحة

باللازورد وهو:

مولانا السلطان محمد الغازي

غمر الله بالخير جسده الطاهر

دعا الله قائلاً تاريخه الطهور

أرسى أساس هذا الجامع سنة ١٠٧٤

وعلى الصواوين تاريخ مسطور هو:

أقام هذا البناء على أثر قدم النبي

إبراهيم باشا أمد الله في عمره

وضمن الكتابات الموجودة في القصر العالي على شاطئ النيل تاريخ مكتوب بخط

التعليق هو:

قال إن تاريخ هذا القصر

هو عام ١٠٧٧

ولهذا الجامع منارة رشيقة من طبقة واحدة على الطراز التركي وكأنها شجرة سرو،

ولهذه التكية مطبخ عظيم وكأنه مطبخ كيكافوس. وشيخها هو محمد جلبي الخلوتي وهو

من أهل التقوى والصلاح.

ويبعد عن هذه التكية حديقة غناء تزدان بصنوف الليمون والنانج وسبعة أنواع من

العنب. وفي هذا الموضع ساقية وحوض وشادروان تجري مياهها وزاوية ذات محراب

عليه تاريخ على اللازورد مكتوب بخط جلبي بطراز قره حصارى وهو:

سميت الساقية باسم السلطان محمد
كما أنشئ سبيل بجانب الساقية
ولما قارب التمام ذكر الهاتف تاريخه
كان هذا مشوية جارية لروح السلطان محمد
سنة ١٠٧٧

وحاصل الكلام أن هذا المزار تكية مشهورة لدى عوام الناس وخواصهم.
وفى القاهرة مئات التكايا إلا أن أكبرها وأشهرها هى التى سلف ذكرها وبما أن فى
كل هذه التكايا جوامع وزوايا فقد صنفت طبق ما فيها من مساجد وجوامع ومدارس
ودور للحديث والقراء ومكاتب صبيان.

وفى ماضى الزمان كان بالقراقة الكبرى ٣٦٦ تكية عامرة ذات أوقاف جارية. وإذا ما
قدم القاهرة درويش زائر وأراد أن يحل ضيفاً حل فى كل ليلة ضيفاً بإحدى التكايا،
وتحكرم وفادة هذا الضيف مصداقاً لقولهم: «أكرموا الضيف»، وكان شيخ التكية يدفع
له كل صباح أجرة الحمام باره مصرية. وإذا ما طلب هذا الضيف الإقامة سنة فى التكية
أجيب إلى طلبه، ويجرى عليه راتب فى كل يوم من الوقف. وفى رأس كل سنة كان
يقدم لكل ضيف خرقة.

وبعض الدراويش يحلون ضيوفاً كل ليلة على التكية ويرصد لكل منهم مبلغ من
المال وعلى هذه الكيفية كان بالقراقة الكبرى ثلاثمائة وست وستون تكية.
وداخل مدينة القاهرة ما لا يقع تحت حصر من التكايا والزوايا أدام الله ما فيها
من نعم.

الفصل الثانى والثلاثون

ذكر ما فى القاهرة من مَبَرَّات توزع طعامها على الفنى والفقير

فضلا عما فى مصر - أم الدنيا - من مبرات ملحقة بالتكايافى كل جامع من جوامع سلاطين السلف وعددها سبعمائة جامع ميرة وعلى مر الأيام تخربت أوقافها وضمت أفدنتها وأرزاتها إلى المال الأميرى فخربت الكثرة الكاثرة منها. وتبقى من عهد الجراكسة مائة وخمسون جامعًا ذات مصابيح ولكن لا يقدم فيها الطعام مرتين فى اليوم على الدوام كما هو الشأن فى مبرات اسطنبول.

وفى ليلالى الجمعة وأيام المواسم تقدم آلاف الصحن. وفى القاهرة مبرات جارية النعم وأكبر هذه المبرات ميرة قصر الباشا وهى ذات مطبخ سلطانى عظيم ويقدم فيها ثلاثة قدور من الحساء صباحًا ومثلها بعد العصر ويصيب منها جميع الناس شهابًا وشيوخًا أغنياء وفقراء.

ميرة السلطان قلاوون

تمد فيها الموائد للعوام والخواص والمعوذين فى اتصال ودوام: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ {هود: ٦}. وبعد أن تقدم آلاف الصحن إلى جميع المرتزقة تقدم عدة آلاف من قصاص العدس والحنطة إلى جميع الفقراء.

وفى ليلالى الجمعة يوزع اللحم والأرز على الفقراء. ومع أن طعام الأئمة والخطباء والمشايخ يختلف عن طعام الفقراء إلا أن طعام الفقراء دائم، فعلى باب المطبخ كتبت آية كريمة هى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ {الذاريات: ٥٨}.

وفى هذا المطبخ أربعون طاهيًا وأربعون عاملًا فى مخزن الأطعمة. وإذا ما توافد بعض الأعيان على هذه الميرة لمشاهدتها أحضر الطهاة الصحن القلاوونية والصينيّات المنقوشة والأباريق لإكرام هؤلاء الضيوف. إنها خيرات عظيمة رحم الله صاحبها. وغيره من السلاطين ليست لهم مثل هذه النعم الجارية.

وعندما خرب الظالمون أوقاف المبرات أصبح المولد يقام مرة واحدة فى العام فى كل جوامع السلاطين، ويوزع فيه الأطعمة، إلا أن نظارها كانوا يعينون لخدام الجوامع أثمان اللحم والخبز والشمع ويحسبونها من صدقات الأوقاف.

الفصل الثالث والثلاثون

ذكر الحمامات في مصر نادرة العصر

إن ما سلف ذكره من آلاف الأوقاف كانت خاصة بالجوامع والمساجد والحمامات الأولى في مدينة القاهرة ذو الماء الجارى يقع فى القلعة الداخلية وهو:

حمام سليمان باشا الطواشى

إنه حمام صغير به ثلاث خلوات وحوض شافسى وهو حمام بديعى التصميم وماؤه من بئر يوسف وهو أميل إلى الملوحة، ولأن رواده من جميع طوائف العسكر فجميع أثوابه وعماله ودلاكوه فى غاية النظافة، ولكن بعد الظهر يتردد على الحمام جميع الامهات والاخوات. وفى منتصف الليل يقوم عمال الحمام بتطهير أحواضه وملئها بالماء الصافى.

وفى سوق السباهية وبالقرب من جامع السلطان حسن:

حمام مصطفى باشا

إنه حمام كبير، ولا حمام فى القاهرة يشبهه فى كبره، ومائه الساخن وجريان ماء حوضه وشادروانه. وفى كل خلوة من خلواته الخمس صنوبر. وأرضيته مرصوفة كلها بالرخام الملون ويزدان هذا الحمام بزجاج وثريرات وبللورات مختلفة الالوان.

وحمام «قنطرة الموسكى»

لل سيدات والرجال.

وحمام «جى جى على بك»

بما أنه قريب من حارة اليهود يتردد عليه اليهود جميعاً وهو للسيدات والرجال.

وحمام «الكلب»

فى مكان منخفض وهو قذر ويدخله الرجال والنساء مجاناً. وعند بنائه قديماً ظهر فى أساسه تمثالان من النحاس لكليين يستهزان ولم يظن بانى الحمام إلى أن هذين الكليين مسمران وإلا لحفر له أساساً فى موضع آخر. ولوجود هذين التمثالين لا وجود فى القاهرة لكلب مسمر يصيب أحداً بأذى ولذلك يسمون هذا الحمام «حمام الكلب».

وَحَمَام «الخرونفيس»

فى حارة الخرونفيس، وهو حَمَام غير مزدوج ولكنه طيب النسيم.

وَحَمَام «البندقانى»

غير مزدوج وهو شديد الزحام.

وَحَمَام «مهدية سلطان»

وهو للرجال والسيدات.

وَحَمَام «باب الخرق»

وهو حمام غير مزدوج.

وَحَمَام «الشيخ البكرى»

فى الأوزبكية

وَحَمَام «القبودان»

وهو للسيدات والرجال، وجَوَّة لطيف إلى أبعد حد وزجاجة صاف لامع.

وَحَمَام «تحت الربيع»

غير مزدوج.

وَحَمَام «عابدين بك»

فى حارة عابدين وهو للسيدات والرجال.

وَحَمَام «قنطرة السنقور»

غير مزدوج.

وَحَمَام «سوق الدلال»

وزجاجة ينقذ منه النور وشادروانه يندفق الماء الحار الذى يبلغ قبته. وفى هذا الحمام حوض يسبح فيه السمك أما فوارته فتدفق الماء إلى قبته. أما دلاكوه فهم ولدان صباح الوجوه عيونهم كعيون الأطباء وكلامهم عذب مستملح وهم يخدمون من يستحمون فى الحمام وقد لفوا حول خصورهم مناشف زرقا، وكل ثيابهم من الحرير، ومناشفهم فضفاضة. إنه حمام طيب النسيم نظيف وهو للسيدات والرجال. وثمة حمام آخر هو:

حَمَام «بشتك»

وهو للسيدات والرجال، وهو نظيف إلى أبعد حد.

وحَمَام «قيصريه لى إبراهيم كتخدا»

بالقرب من جامع أَلْتِي بَرَمَاق.

وحَمَام «الدرب الأحمر»

وهو للسيدات والرجال إلا أنه صغير.

وحَمَام «الصوباشى»

وهو حَمَام لطيف للرجال والسيدات.

وحَمَام «بائعى السكر»

وهو أنظف من جميع الحمامات، إذ لا يدخله القبط واليهود. وهذا ما اشترطه من أنشأه، ولذا يتردد عليه أهل التقوى والصلاح، وجَوْهٌ لطيف. وثمة حَمَام آخر هو:

«حَمَام الخرابية»

وهو لضيقه شديد الزحام، وهو خاص بالرجال.

وحَمَام «بقرجى باشا»

وماؤه حار، وجَوْهٌ لطيف.

وحَمَام «السقا»

وهو خاص بالرجال.

وحَمَام «قاضى العسكر»

وهو للسيدات والرجال.

وحَمَام «مرزوق»

داخل الباب الجديد، وهو غير مزدوج.

وحَمَام «النساء»

بالقرب من سيدى الهندى.

وَحَمَام (١)

بالقرب من سوق الخضار.

وَحَمَام «طيلون»

وهذه الحمامات الثلاثة متقاربة وجوها لطيف إلى حد بعيد، وجميع المغاربة يترددون عليها.

وَحَمَام «الصلبية»

وهو حَمَام قديم للسيدات والرجال، وجَوّه لا يسبب الصداع.

وَحَمَام «الدود»

وَحَمَام «القيسونية»

وهو للسيدات والرجال، وقد بناه الحكيم القيسوني وهو طيب الماء والهواء.

وَحَمَام «باب الوزير»

وهو غير مزدوج.

وَحَمَام «محكمة الصالحية»

على مقربة من ضريح الحسين، وهو حَمَام قديم.

وَحَمَام «قنطرة الليمون»

غير مزدوج.

وهذه الحَمَامات المذكورة واحد وأربعون حماماً دخلتها وهناك أربعة عشر حَمَاماً أخرى لم أدخلها. وبناء على هذا الإحصاء فإن في القاهرة خمسة وخمسين حَمَاماً خاصاً وعماماً، إضافة إلى ما في قصور السلاطين والأمراء والأعيان والشيوخ والعلماء. وفي بعض هذه القصور حَمَامان ولكن قصور رضوان بك أمير الحج وقيطاس بك وعلى بك الجرجاوى وذو الفقار بك وأبى الشوارب بك وغيرها من القصور تضم أربعة حمامات أو أكثر في القصر الواحد.

(١) يباض في الأصل.

وبناء على هذا الإحصاء فإن حَمَامَات القصور سالفة الذكر تقدر بستين ألف حَمَام في القاهرة. وهذا ما عرض على السلطان مراد. ولكن مياه هذه الحَمَامَات إلى الملوحة أميل وذلك لحكمة يعلمها الله. ولكن إنا ما فاض النيل وجرت مياه الخلدجان في المدينة أصبحت مياه الحَمَامَات القرية من هذه الخلدجان مياه عذبة، فماء حَمَام «القيسونى» مثلاً ماء عذب.

ويقول الأطباء إن الماء المالح ماء مفيد وبه تصح الأبدان، ولكل حَمَام فسقية وحوض ولأن أهل القاهرة جميعاً - عدا النصارى - على المذهب الشافعى. وإذا لم ينزلوا إلى الحوض الشافعى لم ينظفوا. ولها جو يناسب جو مصر ولا وجود لمواقد تحت حمامات القاهرة، كما أن ما وراء جدرانها الأربعة ليس خالياً، إنها جدران صلبة وبما أن سخانات الحمامات تجعل المياه شديدة الحرارة فإن ماء الشادروانات تشتد حرارته كذلك. وقدور الماء الساخن فى أركان الحَمَام تتجمع مياهها على رخام الحمام وليس للحَمَام بالوعة ولشدة حرارة هذه المياه تشتد حرارة الحَمَام بحيث لا يستطيع أحد أن يضع قدمه على أرضيته وماء الحَمَام لا يبرد قط وهو حار على الدوام ليل نهار، وذلك لوجود أربعة أو خمسة خزانات للماء فوق كل حَمَام وماء هذه الخزانات يفيض ويتدفق إلى الحَمَام ولذا فالماء حار على الدوام. وخزان تسخين الماء فى بلاد الترك وخزان الماء البارد بخلاف ذلك فالخزانات فى مصر من الرصاص وليست من النحاس كما فى بلاد الترك، وهذا ما لا وجود له إلا فى مصر، إنها صناعة عجيبة محيرة للعقل جديرة بالمشاهدة.

وفى القاهرة لا يشعلون الحطب فى الحمامات قط وإنما يحرقون فضلات الماشية التى تسمى عندهم «بالجلّة»، وللحَمَامِيَّة أربعة أو خمسة كناسين بالأجرة وهؤلاء الكناسون يتجولون فى الشوارع الرئيسية ويكنسونها بحيث لا يبقوا ذرة من تراب أو قش ويحضرون هذا القش إلى أتون الحمامات ويكومونه أكواماً أكواماً كالجبال، ويضرمون فيه النار. والزنبيل هو رأس مال الحَمَامى، والحَمَامِيَّة يحملون ما فى الزنابيل

ويحرقونها. ولجميع حمامات القاهرة من يديرونها وهم يخضعون لمن يسمى «جادر مهتر باشى» لوالى مصر. وإذا ما تشاجر الحماميون والدلاكون وصبيانهم وأذى بعضهم البعض الآخر فإن من يصلح ذات بينهم هو المهتر باشى، وريع هذه الحمامات يذهب إلى الأوقاف.

* * *

الفصل الرابع والثلاثون

ذكر وكالات (أى خانات) سلاطين السلف ووزرائهم ووكلائهم

فى القاهرة (١) وكالة أعظمها «خان الخليل» وهو خان عظيم مساحته مائة قدم فى مثلها وفى أركانه الأربعة مائتا دكان، وجامعه من الخشب، وليس مبنياً بالأحجار وجميع من يؤمون هذا الجامع من تجار الترك. وفى هذا الخان من أثرياء التجار من يملكون عدة آلاف من الأكياس، ومثلهم فى بولاق. إن كل أموال مصر فى خان الخليل هذا. وله أبواب حديدية من طبقتين وكأنها أبواب القلاع. وعلى الجوانب الأربعة الخارجية للخان دكاكين مبنية بالحجارة. إنه سوق مصر ولذلك يكثر فيه ما فى الأقاليم السبعة من نفائس لا تقوم بمال ويتصل بهذا الخان:

خان الحناء

وتصدر الحنة من هذا الخان إلى بلاد الترك والعجم وبلاد العرب، وقد تراكت حوله مئات التلال من الحناء. إنه خان واسع كذلك، وفيه ثلاثمائة حجرة بعضها فوق بعض. وجميع الأسرى والرقيق يباعون فيه. وبالقرب منه:

«خان دويدار الكبير»

وهو حقاً خان كبير.

وخان «دويدار الصغير»

وهو خان معمور.

وخان (٢)

فى سوق حافظ.

وخان (٣)

وهما خانان عظيمان.

ثم خان «قاسم كتنخدا وخان جوالى، وخان البندقانى، وخان أحمد أغا القبرصى، وخان آق قاش، وخان مرتضى، وخان محمد أغا، وخان أبى طاقية، وخان جعفر، وخان الأسير، وخان جلابه، وخان حسين، وخان رجب أغا.

(١ : ٣) بياض فى الأصل.

وخان «ذى الفقار كتخدا»

وهو مبنى جديد كانه القلعة وعلى جوانبه الأربعة دكاكين ومخازن وفوقه بيوت من ثلاثة طوابق وقد بنيت ليسكنها عليّة القوم، ويبلغ طول هذا الخان مائة وخمسين قدماً وعرضه ثمانون قدماً. ويتوسط هذا الخان راوية. ولما وصلت إليها وجدت أن تاريخها سنة (١٠٨٣).

وبالقرب من هذا الخان:

خان «الكتخدا محمد الحبشى»

وهو كذلك خان جديد جميل.

وخان «الناصرية»

داخل باب الناصر. وقبالة «وكالة الزيت»، ويأتى إليها الزيتون وزيته من دمشق والقدسو غزة. إنه خان لتجارة الزيت. وملابس من يسكنونها رثة ملطخة بالزيت. وبالقرب منها: «خان البكارية»، وبالقرب منه خان «الصابونية»، وإلى جواره «خان الكردية»، وعلى مقربة منه «خان جعفر» ووكالة «البهار» وسميت وكالة البهار لأن الباشا يحصل المكوس من المدينة على التوابل الآتية من الهند واليمن والحبشة وعدن. والباشا ملتزم بتسديد ()^(١) من هذه المكوس. والربح والخسارة تحسب له أو عليه.

وخان «الكتخدا الحبشى» بالقرب من جامع الحبشى، وبالقرب من جامع الشاهمردانية «خان الحبشى» الجديد وهو من طوابق.

وخان «مسعود أغا» بالقرب من جامع الداودية، وبعد باب الوزير «خان حافظ باشا»، ووكالة ()^(٢).

(١ ، ٢) يياض فى الاصل.

وفضلاً عن هذه الوكالات وكالات أخرى كثيرة ولكن كل منها فى عطفة وليست من الخانات المتعددة، أما الخانات سالفة الذكر فكلها تتألف من ثلاثمائة حجرة أو أكثر وكأنها القلاع. وعلى كل باب من أبوابها خمسة أو عشرة بوابين يقومون بالحراسة، وعلاوة على هذه الوكالات فى مصر ثمانمائة وخمسون ربّعة، أى خانات المتزوجين فليس فيها رجل غير متزوج، والنساء والرجال والأطفال فى موضع واحد ولا وجود فيها لمحرم ولا غير محرم. ويسكنها الفلاحون الحضر ولا يسكنها غيرهم.

الفصل الخامس والثلاثون

ذكر ما فى فسطاط مصر من البيمارستانات والمستشفيات

كان فى مصر قديمًا ١٤٠ بيمارستانًا ومستشفى، وآثارها ظاهرة للعيان إلى يومنا هذا ولأن أوقافها ضمت إلى المال الأميرى لحق بها الخراب. وفى وقت سياحتى كان بها أربعة بيمارستانات، أحدها بالقرب من بين القصرين وهو:

بيمارستان مقام موسى

إنه بيمارستان بلا وقف والخدمة فيه ابتغاء مرضاة الله، ولذا يرسل إليه أهل الخير الطعام لكل من فيه فى كل وقت. كما أن بعض الدراويش يخدمون فيه لوجه الله وكل أحد يتصدق عليه من مال الزكاة.

بيمارستان الجامع الأزهر

الخدمة فيه كذلك مجانية ابتغاء لوجه الله، إلا أن له أوقافًا عظيمة علاوة على ما يأتيه من التذور والصدقات والأطعمة حتى صار خدامه من المترفين إلا أن هذه الأوقاف غير تابعة للجامع الأزهر. ويقع هذا البيمارستان داخل زاوية الشيخ محمد المطويسى.

بيمارستان السلطان المؤيد

يقع بعد باب الوزير عند التكية الأوزبكية. إنه بناء عال فى موضع طيب النسيم وهو بناء سلطانى من الحجر وفيه حجرات وقاعات متعددة، وله باب شاهق داخل التكية الأوزبكية، ولكى يتنسم المرضى فيه طيب النسيم له مقصورات مختلفة، إنه بناء جميل ولكنه بلا أوقاف ولذلك فخدامه من دراويش التكية الأوزبكية.

أوصاف مستشفى السلطان قلاوون العامر

إنه مستشفى عظيم يقع فى ركن حرم جامع قلاوون الذى سبق الحديث عنه وعن ميرته، ولا وجود لبنى يشبهه فى بلاد العرب والترك والمجم. وطراز تصميمه يخلب الالباب، والأطباء يعالجون فيه المختلون عقليًا فيعقلون.

وفى بدايته كان مرصوفًا بالرخام طولًا وعرضًا، وله حرم عظيم، مساحته مائة وخمسون قدمًا، ويتوسط هذا الحرم حوض عظيم، ونافورة تدفع الماء إلى أعلى بقدر قامة

رجلين، وعلى حافة هذا الحوض مصلى، وفوق هذا الحوض قبة سقفها منقوش يحملها اثنا عشر عموداً، وعلى الجوانب الأربعة لهذا الحرم قاعة عظيمة تتسع لآلف إنسان، وعلى جانبي هذه القاعة صُفَّات، ويعلو العقود الحجرية سقف منقوش، وهذه القاعات مرصوفة من أولها إلى آخرها بمختلف أنواع الرخام وكأنها رسول «ارزك» وتمتد أحواض الماء الجارى حتى نهاية هذه القاعات، ويجرى الماء بين هذه الصُفَّات وتصب في الحوض الذى يتوسط الحرم، ولقد أنشأت أربع قاعات أخرى على نفس الطراز.

وعلى هذه الصُفَّات يرقد المرضى فى ثياب النوم وتحت اللحف الحريرية، ويستريح بعض الناقهين من هؤلاء المرضى على حافة تلك الأحواض الجارية، ويخدمهم الخدام وكأنهم فراشات. إلا أن بعض الأخوة المجانين يستقرون فى الأركان المظلمة، وبعضهم فى حجرات واسعة ذات أحواض وشادروانات وهم مقيدو الأعناق بالسلاسل كالأسود وبعضهم يصيحون وكان صوتهم هزيم الرعد، وبعضهم يلزمون الصمت والهدوء.

وبما أن جو مصر جاف فجميع أهلها سودويون، ولكثرة مكر النساء فيها فالكثرة الكاثرة من أهلها مسحورون مكمورون. وإذا أخبر أهل حى من الأحياء الباشا عن حالة أحد ممن اختلت قوتهم العقلية أمر الباشا بإدخاله البيمارستان للعلاج، وإذا لم يأمر الباشا بذلك لا يدخلونه البيمارستان إلا بناء على هذا الأمر.

ولأن له نفقة تصرف له فى كل يوم على الدوام لذلك يوجد فى بيمارستان قلاوون ٣٦٠ مريض ومجنون فى يومنا هذا. وفى الموضع الذى يصرف منه طعام المبرة يصرف للأطباء مع تلاميذهم الأطعمة ومعاجين الأدوية على حسب حالة كل المرضى.

وللأطباء خُدَّام من ذوى الجرأة ولهم طبع الجلادين. وهؤلاء الخدام يطعمون بعض الأخوة المجانين الخوشاف المسمى «قرلجق».

وإذا ما قدم هذه العتبة مريض كان قد لزم القراش ثلاثة أعوام أو مجنون شُفِيَ من مرضه بعد أربعين يوماً بإذن الله وتوردت وجته فى هذا المستشفى من الأطباء أمثال بقراط وسقراط وأفلاطون وفيثاغورث التوحيدى وأبى على ابن سينا، وهم يحيون الموتى كأنهم المسيح. ولكن هؤلاء الآباء ليسوا من أهل المدينة فهم جميعاً من الغريباء، إنهم

كذلك من العرب لأن العرب لقنوا علم الطب، وكان هذا العلم عندهم من الزم اللوازم، فنه ﷺ قال: (العلم علما الأول علم الأبدان والثاني علم الأديان). وبناء على هذا الحديث شاع علم الطب في العرب ولقد وجد علم الطب في عهد آدم الثاني وهو نوح النجى عليه السلام، والإسكندر الأكبر، وفي عهد الفلاسفة فيلقوس وجالينوس، وبعد عهد الرسالة لما كان من كرامات باهرة لكبار أولياء الله اشتهر الحكماء بالطب. وقد وقف اليونان والفرنجية على دقائق علم الطب واشتهروا بها ولكن مست حاجتهم إلى العرب لأن هؤلاء العرب بتقواهم وزهدهم وقوة علمهم إذا نزل بأحدهم مرض وعالجوه شفى بإذن الله.

وفي مستشفى قلاوون إذا ما جس مهرة الأطباء نبض أحد المرضى عالجوه بما يتفق مع حالته وكان له الشفاء بإذن الله، لأن في بلاد مصر في الإقليم الأول بالصعيد والواحات والحبشة وبلاد الفونج وجبل القمر نباتات وأعشاب مختلفة، وقد لا توجد هذه النباتات حتى في بلاد الهند، وتجلب هذه الأدوية إلى القاهرة ويصفها الأطباء للمرضى فيتم شفاؤهم، ولذا كان لمستشفى قلاوون مستفيض الشهرة في بلاد العرب والترك والعجم.

وفي أحد جوانب هذا المستشفى يمارستان النساء، وقد أنفق على إنشائه مال وفير، وكل القائمين على الخدمة فيه من النسوة والأطباء يدخلونه بلا خوف ولا حرجة، ويصفون لكل داء دواء. وقد يتفق لبعض نزيلات هذا اليمارستان من النساء الذاهبات العقول أن يلدن فيه، ففي عهد إبراهيم باشا اتفق أن ولد لامرأة ولد في هذا المستشفى فسموه شفائي.

وخلاصة القول أنى لم أشهد مبنى بهذه العظمة أثناء تطوافي في البلاد.

أوصاف صنع مستحضرات الترياق الفاروقى العظيم

ليعلم الرحالة من أهل العلم بقدر ما على وجه الأرض من أطباء يصنع الترياق الفاروقى ولكن لا يحتمل أن يكون كالترياق الفاروقى الذى يحضر في مصر لأن أقراص الترياق الفاروقى خاصة بمصر ولا وجود لها إلا فيها. وكلمة قرص تدل على عدة أشياء

وهى: أن هذا القرص يستخلص من جسم الثعبان. وهناك أربعون شخصاً تجرى عليهم رواتب من أوقاف قلاوون، وهم يعملون مرة فى العام وهم يسكنون فى قرى ابن خبير فى الجيزة وهم طائفة يصيدون ثعبان الترياق الفاروقى مرة فى شهر يوليو من كل عام.

وهم عندما يحلون فى موضع صيده يجتمعون فى موضع واحد ويكسون جسمهم من أعلاه إلى أسفله باللباد الغليظ بحيث يستره ولا يبدو منهم إلا عينهم التى ترى وهم يسترّون كذلك وجوههم، وعلى عمائمهم الطويلة قطع من اللباد الأبيض ويمضون صوب نواحي بهنسيا والفيوم والجبل الأخضر، ويصلون إلى الموضع الذى فيه ثعابين الفاروقى فى برد الصباح لأن الثعابين تخمل دون شدة الحر، ومع ذلك فإن الثعابين الفاروقى تهاجمهم بضراوة ويصطادون منها آلافاً فيضعونها فى الزنايل فتثور فيخطون أفواه الزنايل ويتفق فى بعض الأحيان أثناء صيدهم للثعابين أن تنب إلى وجوههم، فإذا ما أصابت عينهم فلا نجاة للصياد من الموت لأن سم هذه الثعابين سم زعاف، والقطرة من سمها تقتل فى التو، إنها ثعابين فتاكة، وهؤلاء الرجال المذكورين يختصون بصيدها. ولا طاقة لغيرهم من الناس بعملهم هذا، ولهم موكب خاص بفرقتهم وهم من أهل التقوى والصلاح وهم على الطريقة السعدية.

واتفق أن اصطادت هذه الطائفة كثير من الثعابين وضعوها فى زنايل وحملوها على الحُمُر وفى طريقهم إلى القاهرة عندما وصلوا إلى حديقة جميلة وكأنها حديقة إرم انطلق ثعبان من الزنايل ولدغ الحمار الذى يحمل الزنايل فسقطت عن الحمار وفى طرفة العين تورم جسم الحمار إلى أن أصبح كجسم الفيل وتبيست قوائمه وكأنها أعمدة من حجر وأبعد الصيادون الناس عنه محذرين إياهم من الرائحة المنبعثة من جثة الحمار التى تؤذيهم، وأخذوا الزنايل الممتلئة بالثعابين التى كانت محملة على الحمار ووضعوها على حمار آخر، وقد تفتت جثة الحمار المسموم وذابت كل عظامه، وحمداً لله أن أحداً لم يصب بأذى، وأهل من كانوا فى هذا الموضع التراب على جثة الحمار وستروها ودفنوها، أما الحُمُر الأخرى فمضوا بها إلى مستشفى قلاوون وسلموها لرئيس الأطباء ورئيس المستشفى.

وكننت قد استأذنت كبير الأطباء لمشاهدة المستشفى فأخبرونى بأنه أذن لى، وفى التو ركبت جوادى وعندما بلغت مستشفى قلاوون فتحوا باب الفاروق وأدخلونى ثم أوصدوا الباب، وحتى لا تنكشف أسرار علمهم ولأن المكان مفعم بآلاف الثعابين الفتاكة لا يدخلون شخصاً غريباً.

وبيت الفاروق هذا مدرسة عظيمة، وكل جدرانها وأرضيتها مكسوة بالرخام، وهى مدرسة قاصرة على علم الطب فقط، ولهذه المدرسة حرم تحيط به صُفَّات وفى ذلك اليوم انهارت هذه الصُفَّات وكنا ثلاثين شخصاً من كبير الأطباء والناظر أغا وكاتب الأوقاف ومرشد الأوقاف وعشرة من نواب كبير الأطباء وداع واثنى عشر صياداً وطهاة وقصايين، وكان عدد من دقوا الباب وأرادوا الدخول من خارج الباب لا يدخل تحت حصر، وكان الباب محكم السد فقالوا لى لا تخف وأشعلوا قنديلاً، واعتليت مرتفعاً وتهيأت لمشاهدة المستشفى.

وقام هؤلاء الثلاثين وتوضأوا وصلوا ركعتين قضاء وأحضروا مائة عصى طول كل منها ثلاثة أشبار ومائة من سواطير القصايين وهى سواطير حادة مصنوعة من الصلب الإفرنجى ومائة ماجور من الفخار المبطن بالزجاج وكل منها يتسع لإنسان وهى مملوءة بالماء الصافى وبعضها فارغ، وعدة صينيّات من القصدير التى تعود إلى عهد قلاوون، وأردب من الملح المسحوق المنخول، وخمسون وعاء كبيراً مثل أوعية الماء مبطنة بالزجاج من الداخل والخارج، وهذه الأوعية واسعة القاع وفوهتها تتسع لرأس إنسان، وجهازوا كل الأوعية النحاسية والفضارية. ولما همّ الداعى بالقيام نهض الحضور جميعاً، وبعد البسملة وحمد الله والطريزة والتصلية قرأ الداعى الفاتحة على أرواح آل عثمان والسلطان قلاوون صاحب هذه الخيرات والحسنات، ولقمان الحكيم وفيثاغورث التوحيدى وسلطان الأطباء ابن سينا وسائر الحكماء والأطباء، ودعا الله بالخير للطبيب الرئيس والناظر أغا وكاتب رئيس الطهاة ومساعديه وسائر الخدم، ثم كبر وقرأ الفاتحة الشريفة وبعد أن مسح وجهه بيده فتح كبير الصيادين وثلاثة من قصايى الثعابين فوهة أحد الزناييل فى وسط حرم المستشفى فانطلقت آلاف الثعابين السامة الفتاكة فطاش صوابى واعتليت موضعاً

مرتفعاً واندفعت الثعابين يميناً ويساراً وهاجت وفحت واصطدمت بالجدران وانتشرت حول الحاضرين فجمعها خدام كبير الأطباء والصيادون فى مكان واحد وكانت لهم زنايل من الصوف الأصفر، وعندما وضعوا الثعابين فيها هدأت ولم تعد تحرك ساكناً، وجلس كبير الصيادين مع ثلاثة من رجاله إلى جانب أورمة وحملوا سواطيرهم وأخرجوا الثعابين من الزنايل الواحد تلو الآخر وضموا نوعاً من الثعابين البيض إلى غنمهم وقد انتشيت من شذا مسك هذه الثعابين، فسألت كبير الأباء عنها فردّ على قائلاً: إنها ثعابين المسك وليست ثعابين الفاروق ونحن نصنع منها أدوية أخرى وسوف ترى الآن.

ورأيت أنهم جمعوا ثعابين بيض كثيرة فى مكان واحد وصفقوا أفواه الثعابين بخيوط حريرية حمراء طويلة فى ركن ظليل وامتد هذا الخيط من جدار إلى جدار وقد علقوا فيه ثعابين المسك هذه ثم استخدموا قطعة من القطن فى وضع قطرات من زيت زيتون صوصه فى أفواه الثعابين فنفتت جميعاً، وبدأ كل منها فى الانتفاخ وبقيت هذه الثعابين معلقة على هذا الوضع أربعين يوماً وليلة، وبذلك تتكون داخل جلد هذه الثعابين حبات من المسك وقوة رائحة هذا المسك تدمى أنف من يشمها، إنها رائحة حادة إلى هذا الحد البعيد.

وثمة ثعابين قصيرة منقوشة الجلد ورءوسها مستديرة كالجورة وعندما وضعوها سألت عنها فقيل لى إنها «حيات الصفى» وهى من نسل الأفاعى التى أخرجت من الجنة مع آدم عليه السلام، وهى كذلك ليست من نوع أفاعى الفاروق وثنابين الصفى لا تخرج صفارها من البيض مثل ثعابين الفاروق، وإنما تولد كسائر الحيوانات وهى تختلف عن خلق الحية وتلك حكمة الله - سبحانه وتعالى -.

وجملة أفاعى الفاروق التى صادوها ٨٣٠٠ سلمها الصيادون للمتولى وقيد الكتبة والمرشدون فى الدفاتر أن سعر كل ثعبان ٨٠٠ قرش، وبعد ذلك جلس كبير الصيادين وقصابو الثعابين الثلاثة إلى جانب أورمة وقالوا: «بسم الله الرحمن الرحيم بسم الله بنية الشفاء وأخرجوا ثعباناً كبيراً من الزنايل ووضعوا وسط الثعبان على الأورمة وأمسك أحد

القصابين رأس الثعبان وذيله بيده اليسرى وهوى بالساطور عليه مرة واحدة بيده اليمنى، فتلوى الثعبان على الرخام بلا رأس ولا ذيل ويبقى رأس الثعبان وذيله في يد كبير الصيادين وبظهر الساطور أخذ يسحق رأس الثعبان وتركها على الرخام وردد الحضور في المجلس «لا إله إلا الله» وقبض كبير القصابين على الثعبان الذبيح ونحى ذيله ورأسه جانباً بثلاثة أصابع وقطعه ثم جاء قصاب آخر وحمل الثعبان المقطع وشق بطنه بسكين من ذهب وأخرج أحشاءه وبيضه وألقى به إلى قصاب آخر فقام بنزع جلد الثعبان بأظفاره وسلخه من رأسه إلى ذيله فأخرج قطعة من لحم أبيض، وظل الثعبان يتلوى وبعد ذلك أمسك به أحد الأطباء وتتهى مهمة القصابين عند هذا الحد، ويأخذ مساعدو كبير الأطباء الثعابين المسلوخة ويغسلونها جيداً في ماء تلك المواجير سالفة الذكر ويعلمونها ويضعونها في الأواني المبطنة بالزجاج حتى تمتلئ ثم يضعونها على النار وعندئذ أمسك كبير الأطباء الساعة وأحرق خشب السنت تحت الأواني والجميع يوحدون الله وهم خاشعون، وعندما أخرجوا بعض الثعابين من الزناويل بصقوا في أفواهها ووضعوها على الأورمة فتلوت الثعابين حتى ذبحوها.

والحاصل أن اثني عشر صياداً وقصاباً ذبحوا ثعابين الزناويل العشرة جميعاً واحتفظوا بأذيالها ورءوسها ليصنعوا منها دواء آخر ولهم زجاجات كبيرة للقطرة يملأونها بها. ولكنني ألححت في السؤال إلا أنهم لم يجيبوني إجابة شافية ولست أدري إن كنت على صواب في قولى إنهم يستخرجون ما في رءوس الثعابين من سم لتصفيره إلى بلاد الفرنجة، فقد أرسلوا إلى ملك «دونقايز» ما يقرب من ألف رأس ثعبان مسلكت في خيط على سبيل الهدية، فسّر الملك بذلك وأرسلها لأحد ولاته.

عبرة عظيمة عند تحضير الترياق الفاروقى

عندما كان القصابون يذبحون هذه الثعابين ولم تكن ضربة الساطور في موضعها وأصابت جزءاً من الرأس أو الجذع أو الذيل سرعان ما يثب إليهم كبير الأطباء قائلاً لهم: «ارموا الحية ارموا الحية!» ولم يرموها مع أحشاء وبيض الثعابين الأخرى وتركوها في مكان آخر، وفي هذه الحالة أصبح الثعبان في غلظ الذراع وانتفخ وكان من قبل

الرأس فى غلظ الأصبع ، ولعدم ذبحه على الطريقة الصحيحة أثر ما فى رأسه من سم فى جسمه فانتفخ . ولذلك صاح كبير الأطباء وأمرهم أن يلقوه من يدهم وألقوا كذلك الأورمة والساطور وجاءوا بأورمة أخرى وساطور آخر .

واقترضت حكمة الله أن خمسة وستين ثعبانا مما كان فى العشر سلال لم تذبح جيدا فى ذلك اليوم ورميت مع آلاتها ، ولكن هذه الثعابين التى ألقيت لا تحسب على الوقف ولكنها تحسب على الصيادين والقصابين وتحسب تحت حساب وظيفتهم وتلك ظاهرة عمة .

عبرة أخرى

كروم القصابون بيض وجلد وأحشاء تلك الثعابين كالجبال وذروا عليها الملح الناعم لتمليحها وعندئذ صرخ أحد القصابين وجذب يده وجعل يتأوه ويصيح قائلا : وا ولداه وفى التو أحضر كبير الصيادين ثلاثة ثعابين من التى غسلت فى المواجير وربطها على أصبع الرجل وفى الحال تورمت الثعابين الثلاثة وأصبحت فى غلظ الذراع ، ثم رفعها وجاء بثلاثة ثعابين أخرى وربطها على جرح الرجل إلا أنها لم تتورم وتغير لونها فرفعها كذلك ثم وضع أصبع الرجل فى فمه وامتنص موضع الجرح وبصق بصاقا أصفر على الأرض ومسح يد الرجل بمصل الفاروق الأعظم المخفف ، وبذلك سكن ألم الرجل ونجى من التسمم ونفخت فيه روح جديدة ، ولعلمهم كانوا قد تركوا سهوا رأس وذيل أحد الثعابين التى لم تذبح على الطريقة الصحيحة بين أحشاء وبيض الثعابين الأخرى ، بعد ذلك بينما كان القصابون يملحون أحشاء وبيض الثعابين بالملح ، أصاب السم الذى فى الثعبان الذى لم يذبح بطريقة سليمة أصبع الرجل وعولج الرجل على نحو ما سلف ذكره وكتبت له النجاة .

وخلاصة القول أننى لم أصادف أحدا فى شجاعة وعنف وقسوة هؤلاء الصيادين والقصابين حاشا أن يكون هؤلاء من البشر . ولو أنى رأيت ما تستفاد منه العبرة ولكنى لم أكن فى وعى فى أى دقيقة ولقد قدمت على مشاهدتى ذلك .

وسألت كبير الأطباء ثانية: ماذا أنتم صانعون بجلود وأحشاء وأكباد وبيض هذه الشعابين بعد تمليحها ووضعها في أوعية بها ماء الملح!.

فقال كبير الأطباء: ماذا تقصد بسؤالك هذا؟ فكررت سؤالى.

فأجاب قائلاً: إن سفراء الفرنجة هنا يشترونها منا ويبعثون بها إلى أطبائهم في بلاد الفرنجة، وهم يستخدمونها في علاج جميع الأمراض كل عضو على حده، ومفعول هذه الأدوية يسرى في الحال.

وبعد أن طهروا الشعابين المملحة وضعوا كل اثنتى عشرة قطعة منها في وعاء مبطن بالزجاج ثم وضعوا هذه الأوعية فوق مواقد المطبخ في أحد أركان حرم المستشفى وأشعلوا تحتها حطب شجر السنط وأمسك كبير الأطباء في إحدى يديه عصا وفي يده الأخرى ساعة ومعه الطهارة من معاونيه وكل منهم ممن تبحروا في الطب من تلاميذه الكمل، ومهمة كبير الأطباء هى مجرد مراقبة الوقت. وغليت الشعابين داخل الأوعية ثلاث ساعات حتى ظهرت زيوت صفراء فوق هذه الأوعية فحمل كبير الأطباء ملعقة كبيرة في يده وأخذ بعضاً من هذا الزيت ثم ملأوا زجاجات للقطرة كانت لديهم بهذه الزيوت، وبعد أن أفرغوا كل ما في هذه الأوعية داخل الزجاجات أوقدوا النار تحت أوعية الشعابين للمرة الثانية. وليكن في معلومك أن الأوعية التى تطبخ فيها الأفاعى ليست من النحاس، إنها - كما سبق أن أشرنا - أوعية فخارية مبطنة من الداخل والخارج بالزجاج ثم حمل كبير الأطباء الزيت الناتج من الشعابين بملعقة كبيرة ومزج هذا الزيت بأجود أنواع زيت صوصة في بلاد المغرب وهذا الزيت يشبه ماء الحياة وملأ زجاجة من خمس أوقيات من زيت الشعابين مع خمس أوقيات من الزيت الخالص لمدينة صوصة ووضع هذه الزجاجات على نار هادئة ثم زاد النار اشتعالاً وبعد ثلاث ساعات رفعها فأصبح لهذا الزيت قوام السمن المصفى ورائحة ذكية وهى رائحة يتنسّمها الحضور على لذة.

وبعد أن عيل صبرى سألت كبير الأطباء فقال: والله فى الهند تكثر أمراض الجذام والبهق والبرص وهذا الزيت مناسب جداً لجو الهند، وإذا دهنت أجسام المصابين بهذه الأمراض بهذا الزيت لم يبق فى أجسامهم أثر لهذه الأمراض وابتضت بشرتهم، إلا أن

هذا الزيت عديم النفع فى مصر ولو دهنوا أجسامهم به ألف مرة، أما المبتلون فى مصر بالجرب والخفقان إذا طعموا كل يوم بدرهم طيلة أربعين يوما تم لهم الشفاء بإذن الله . وبعد أن تطهى الشعابين على النار فى الأوانى لمدة ثلاث ساعات أخرى حتى ينقص ماؤها بقدر شبر ترفع جميع الأوانى عن النار، ثم توضع الشعابين المطبوخة فى صينيات نحاسية ثم تبرد .

وعندما جاء أعيان مصر برسائل الشفاعة منذ شهر ومعهم الكاسات والأباريق والدلاء أخرجوا ما تبقى من الشعابين المطبوخة المحفوظة فى أوعية رجاجية من داخل الصواريين وكان يكتب اسم ومرضى ووصف كل أحد على ورقة توضع فى إناء من نحاس، وملأت هذه الكاسات والأوانى بحساء الأفاعى وأضيف إليه بعض الأدوية حسب ما تقتضيه حالة المريض وسلمت الكاسات والأباريق لكل واحد وبذلك وزع حساء الأفاعى على مئات المناطق .

ثم ملأ الخدام الصحن بحساء الأفاعى وقطعوا الخبز ووضعوه فيها فطاش صوابى . وبدأ كبير الأطباء والناظر أغا والكاتب ومائتر الخدم فى احتساء فناجين حساء الأفاعى وأحفسروا لى فنجانا فلم أقبله، فقال لى كبير الأطباء: إنه يا مولاي يقوى البصر ويقطع ريح الباسور . ونزولا على رغبتهم وإلحاحهم تجرأت على شرب فنجان معهم وأنا مغمض العينين وضغطت على أسناني وقلت: بسم الله وبسنة الشفاء ولكنى شممت منه رائحة المسك، فأتونى بفنجان آخر وقد وضعوا فيه بطرف السكين مقداراً من زيت الأفعى مع مقدار من الزيت فشربته كذلك وأشهد الله أن رائحة المسك لم تفارق أنفى طيلة أسبوع .

هوالد مسلوبق الأفاعى

عندما غادرنا مكة وقدمنا بدرا وحنينا بحمد الله، هاجمنا بعض البدو فى تلك الليلة ونشب القتال بيتنا وبينهم، وفى تلك المناطق أصابتنى الحمى وظهر طفح على جلدى فاحتسيت فناجين من حساء الأفاعى، وبعد أسبوع لم يبق فى جسمى أثر للمرض وابتضت بشرنى وأصبحت كالفضة الخالصة وامتلأت عافية ولمست فوائد عدة لهذا الحساء .

حادثة

وأعظم فوائده كذلك أنه في عام ١٠٥٦ حاصر: تكللي مصطفى باشا قلعة «مشاشيه» إحدى قلاع البندقية على حدود البوسنة وأمطر القلعة بوابل من طلقات المدافع أربعين يوما وليلة، إلا أنه ما استطاع إلى فتحها سيلا وعاد دون أن يحقق بغيته ومضى إلى موضع يسمى «دانيال اوو» أي سهل دانيال، وعسكر فيه، وعندئذ حاصرنا مائتا ألف من نصارى الأوسقو والدوشقة والفرنجية والكروات من جميع الجهات، وبعد قتال ضار دام سبع ساعات انهزمت القوات العثمانية وبدأ النصارى يسخنون القتل في المسلمين وكنت في ذلك الوقت منخرطا في سلك الانكشارية ووكيلا للخارج، وشاهدت بعيني هؤلاء النصارى وهم يعملون السيف في سبعة من عبيدي وثلاثمائة من رفاقي فتركت كل أموالي وأرزاقى وكان لى جواد وهبنى إياه الصدر الأعظم قره مصطفى باشا فتركته جانبا، وفي هذا السهل الوسيح جعل النصارى الضالون يقتفون أثرى إلا أنهم لم يعثروا على فقد أخفاني الله عن أبصارهم، وفي آخر الأمر عندما مال ميزان النهار ضاقت الدنيا في عيني فتركت جوادى ودخلت غابة ومعى سيفى وكنانتى وعاشت الطيور والوحوش فيها سبعة أيام وست ليال كنت أتقوت فيها بجذور بعض النباتات والثمار.

ولانى كنت أمضى سيرا على الأقدام كان سيفى وجعبتى ومنطقتى وما فيها من نقود قد أنهكتنى بثقلها وما عدت أطيق لها حملا، فأخرجت السهام من كنانتى وأمسكت بالقوس ووضعت كنانتى ومسدسين وبندقيتى وسيفى وما معى من نقود فى قراب ورفعت أحجارا تحت صخرة ودفنت فيها السيف والبندقية ومنطقتى واستودعت كل هذه الأشياء الله أمانة فطابت نفسى بذلك، ومضيت بعد ذلك إلى غدير وتوضأت وصليت ركعتين واستمددت العون من أرواح الأنبياء والأولياء قاطبة، وبينما كنت مندهشا حائرا سمعت صوتا باللغة البوسنوية هو صوت شيخ مجود وسمعت صوتا من الجهة المقابلة يقول: أين أنت؟ فرد الآخر باللغة البوسنوية: تعال يا ولدى العزيز ولما استمعت إلى هذا الكلام ارتدت إلى روحى وتنفس الصعداء ولكن الشيطان وسوس فى صدرى وتساءلت هل كل من يسكنون هذه الجبال من الكروات والاصقو وهم يتبعون النصارى

وقد أعملوا سيفهم فى العثمانيين فهل هذا الصوت آت من قبلهم . وبينما كنت أفكر فى ذلك قدم صاحب الصوت الذى سمعته فإذا به رجل مع ابنه قدما إلى الجبل يحطبان إلى أن حل وقت الظهر ورفُع الأذان فعرفت أنهما من أمة محمد فتقدمت نحوهما وتعرفت بهما بعد أن ألقىت السلام . فقال لى هذا الرجل باللغة البوسنوية : أهلا بك ، هل أنت من سكان هذه الجبال؟

قللت : كلا إن لى بعض الرفاق خرجت معهم متصيدا فى تلك الجبال التى نعرفها . وسألته : هل أنت من انكشارية قلعة هلونه؟

فقال : أو ليس عندك خبر عن هؤلاء الجند الذين لحقت بهم الهزيمة ؟ قلت : لقد انهزم هؤلاء الجند منذ أسبوع ومضوا إلى قلعة هلونه وقلعة كنين . فقال : لما استولى النصارى على قلعة «كلس»؟

أما أنا فمهمتى كانت المحافظة على نفسى وأنا أحتضر .

وجملة القول أن الصداقة انعقدت بيننا ، وبينما كنا نغضى إلى قلعة «غلاموج» التقينا بحاكمها فى الطريق وبعد حديث طويل أنزل أحد خدامه عن حصانه وأركبني فحمدت الله حمدا كثيرا وانخرطت فى البكاء . وبعد ساعتين دخلت قلعة «غلاموج» فى موكب وحللت ضيفا فى تلك الليلة على منزل حاكم القلعة ، ويا لها من حكمة أن يكون حصن الإسلام على بعد ساعة منى إلا أن الخوف تملكنى فبقيت سبعة أيام وليال ولا يؤنسنى إلا الثعالب وبنات آوى والأرانب والظباء . وفى اليوم التالى طلبت من حاكم القلعة عشرة فرسان فقد تركت تحت صخور الجبل خلافا أوفياء وذهبت لأبحث عنهم مع عشرة من الرفاق وعندما وصلنا الموضع الذى دفنت فيه سيفى وكنائسى وقوسى ومنطقتى تركت جوادى لرفاقى وتقدمت وأزحت الأحجار وأخذت أسلحتى ، وكانت الثعالب وبنات آوى أكلت جلد كنائتى وعلقتها فى خصرى على هذه الحالة وأخذت منطقتى كذلك وحملت بندقيتى وحمدت الله حمدا كثيرا ، ومضيت نحو رفاقى وامتطيت صهوة جوادى ووصلنا قلعة «غلاموج» بعد ساعة ، ونزلت ضيفا فيها سبعة أيام .

واتفق لي أنني نمت ذات ليلة وحدث لي ما يشبه الاحتلام واستيقظت على ألم في خصرى، وبينما كنت في ثوب النوم أنزلت وتدفق المنى وكأنه دم أحمر مدة ساعة فمرضت سبعة أيام ثم تم لي الشفاء وأكرمنى محمد أغا حاكم القلعة بإهدائي جوادا وثيابا، كما أكرمنى سائر أعيان الدولة وطبوا خاطرى ووهبوني خادما ووصلت في كثير من الرجال إلى «تكللى باشا» في سهل هلولونه إلا أنني لم أجد أحدا من رفاقي فقد استشهدوا جميعا في قتال النصارى واستولى النصارى على قلعة «كلس» وقضوا على من بها من جند، بيد أن تكللى باشا أعلن النفير العام وبدأ في الدفاع عن الولاية مع أهلها فقدمت والتقيت به فأهداني جوادا وثيابا وصلتي به كانت جد قديمة، فحما أحمد باشا كان قد تزوج والدة الأميرة «رقية».

وبما أن الشيء بالشيء يذكر فإن ما ذكرته من احتلامي في تلك الليلة التي قضيتها في قلعة «غلاموج» لم يكن احتلاما وإنما كان نتيجة انقطاع ذرتي فذب ديب اليأس في نفسى إلا أنه بعد مرور سبعة وعشرين عاما هبطت مصر وشربت فنجانين من حساء الأفاعى في بيمارستان قلاوون وفي تلك الليلة احتلمت مرتين فتوجهت في الصباح إلى هذا المستشفى وقصصت ما وقع لي من أوله إلى آخره على كبير الأطباء فأعطاني عشر أوقيات من مسلقو الثعابين وحقة من زيت الثعابين وتعاطيت مسلقو الثعابين خمسة أو ستة أيام فتمت عافيتى وصح بدنى حتى إنهم كانوا يكسرون البندق على شحم ولحم جسمى وهكذا أصبح جسمى وكأنه حجر ووجدت كذلك كثيرا من الفوائد .

فوائد تعاطى مستحضرات الترياق الفاروقى

جملة القول أن كبير الأطباء وزع مسلقو الثعابين هذا على الناس جميعا ووضعت يخنى الثعابين التى طبخوها في صينيّات وجلس كبير الأطباء وتلاميذه ومعاونوه على رأس الصينيّات وقد غسلوا جميعا أيديهم وشمروا عن سواعدهم وأخذوا يخنى الثعابين وتناولوه بأيديهم وأمسكوا بأيديهم كل ثعبان واستخرجوا نخاعه من ظهره وكأنه حبل شديد الفتل وهذا ما يسمونه (قرس الترياق الفاروقى) والترياق الأعظم هو هذا النخاع الذى يشبه الحبل . ويستخرج من كل ثعبان مقدار مثقال .

وكل هذا العناء والمشقة والخوف من أجل الحصول على مثقال من هذا الدواء، وكل أعضاء الشعبان المطبوخة ليست فاروقا وهم يلقونها أو يمنحونها للفقراء ليأكلونها والبعض يلقون بها في الأراضي الخربة.

لطيفة مرغوبة من أجل طائفة الجماع

اتفق أن وزع يخنى الثعابين على أحد العاجزين جنسيا ولما تناوله هذا الرجل جامع زوجته خمس أو عشر مرات، ولما لم يكتف بذلك تأذت منه زوجته وشكته إلى المحكمة في الصباح قائلة: إني لا أحتمل هذا الألم والعياذ بالله، فقال أكل لحم الثعابين إنه جامعها عشر مرات، فأصلح قاضى العسكر ذات بينهما على عشرين مرة وكان معظم من استمعوا إلى هذه الشكوى يتعاطون حساء الأفاعى فدعوا الله قائلين: اللهم يسر.

وجملة القول أنهم يسحقون لحم ظهر الثعابين فى هواوين من الخشب حتى تصبح على هيئة معجون أبيض ويزنُون هذا المعجون، وعندئذ يسمونه قرص الأفعى، وهو معجون أبيض يصفونه بمناخل ضيقة ويخلط قرص الأفعى والعسل الصافى بأوزان معلومة.

وفى كل عام تطهى ثلاثة قدور كبيرة من الترياق الفاروقى فيهدون وعائتين إلى السلطان ووعاء إلى الباشا وآخر للصدر الأعظم وشيخ الإسلام فى اسطنبول وكبير الأطباء وقاضى عسكر مصر، وما يتبقى يحفظه ناظر قلاوون على أنه وقف خيرى ويصرف منه إلى المرضى طريحي الفراش فى مستشفى قلاوون، وبذلك يصل هذا الترياق الفاروقى إلى بلاد الترك والعرب والعجم والفرنجية وجميع الأقاليم السبعة.

وبهذه الكيفية كان يطبخ هذا الترياق مرة واحدة فى مصر فى العام ولكن عندما زرتها أمر كبير الأطباء فى مستشفى قلاوون وهو أستاذ جهيد بطبخه ثلاث مرات فى العام.

ذكر ميزات حية الصفى

كانت أفاعى الصفى التى سلف الحديث عنها تربو على الألف وللمدرسة التى يصنع فيها الترياق الفاروقى باب يفضى إلى حجرة صغيرة من زجاج وقد مدوا حبالا غليظة من ركن إلى ركن فى هذه الحجرة ثم قام كبير الأطباء بربط ذبول الأفاعى البيض بخيوط من الحرير الأحمر وعلقها فى تلك الحبال فجعلت هذه الأفاعى تتلوى بعنف

وتلدغ بعضها البعض وانتفخت هذه الأفاعى إلى أن أصبحت الواحدة منها فى غلظ الذراع وغُلقت جميع أبواب ونوافذ الحجرة وخرج الأطباء منها، وبعد أربعين يوما أعادوا فتح الحجرة فإذا بالحيات وقد أصبحت كلها مثل حبال شديدة القتل وأصبح ما فى جوفها من عظام مثل البذور السود والرائحة المنبعثة منها أذهبت عقول الحضور.

ميزة أخرى للحية العجيبة

وهذه الأفاعى ذات الرؤوس المستديرة كالجور قطعها القصابون شطرين من نصفها وملحوا جلدها المختلف الألوان وعلقوها من رؤوسها فى جبل ودفنوا أطراف ذيولها فى الأرض وتركوها على تلك الحالة أربعين يوما فاحمر لونها وتربت أجسامها فأخذوها مرة أخرى وحفظوها فى حقاق من رصاص بعيدا عن النمل الذى يتهافت عليها. فلاحم الثعابين ولحم البشر غاية فى لذة طعمه.

لطيفة غريبة

رأيت فى صحراء «هيهات» قوم القالمون آكلة لحوم البشر، إنهم يأكلون لحم موتاهم وقد خنقوا بعض أسراهم من التوغاى وأكلوا لحومهم إلا أنهم لم يذبحونهم حتى لا تتسرب دماؤهم فهم يخنقونهم ويطبخونهم ويأكلونهم. ويقولون إن ألد اللحم لحم البشر والثعابين والخنازير كما يقولون إن إلية الخنزير وإلية البشر أذ ما يكون طعما. وواقع الأمر أن بين الترك من هم على مذهب القالمق ويعرفون ذلك حق المعرفة، أما أنا فقد شاهدت ذات مرة أحدا يقبل حسناء فدبت فيه الحياة وشعر بمزيد من السرور فأدركت من ذلك أن لحم البشر لذيد.

خلاصة القول أننى عندما قدمت مصر لم أجد شيئا يشبه الترياق الفاروقى فى الدنيا بأسرها.

وإذا اتفق أن دخل ثعبان برج الحمام فى بيت أحد وهاجم صاحب الدار فإنه ينطلق إلى أحد صيادى الثعابين، وبالطبع يدفع إليه مبلغا من المال فيدخل البيت ويصيح صيحة وينفخ فى الصفارة المعلقة فى خصره وله صفير خاص فى فمه، وعندما يتردد هذا الصفير تبدأ الثعابين فى الظهور من جميع الأركان وترفع رؤوسها وترتمى على الصياد

وتهاجمه فيجمعها كلها في مخلاته، فتأمن هذه الدار شرها، إلا أن الترياق الفاروقى لا يستخرج من تلك الثعابين بل يستخرج من نوع معين من الثعابين يوجد في البرية.

وبالحديث عن الثعابين يطول كذبنا ولكنى أشهد الله أن هذا ما وقع ففى عام ١٠٨٥ اتفق أن كان أحمد أفندى إماما لجان بولاد زاده حسين باشا وقد اجتمعت الثعابين فى حجرته فأرجعته عنها. وبينما كان جواد الإمام يعتلف دخل ثعبان منخره فنفق وانتفخت جثته وأصبحت كجثة الفيل وتعذر نقله أو تنحيته جانبا فحفروا حفرة فى هذا الموضع ودفنوه فيها، إلا أن الإمام لم يستطع العودة إلى داره وكنت قد التقيت ذات يوم بأحد صيادى الثعابين فمضيت به إلى حجرة الإمام وعندما وصلها أطلق صيحة عالية وشرع يتفخ فى صفارته وعندئذ خرجت خمسة أو عشرة ثعابين طويلة كل ثعبان فى غلظ الذراع وطول الباع ورفعت رهوسها وتجمعت حول الصياد فتعلق الناس أما أنا فهربت إلى مقر أفندى الديوان وأطللت من النافذة، وربما هاجمت الثعابين الصياد ساعة إلا أنه فى النهاية وضع أحد عشر ثعبانا منها فى مخلاة وقال الحمد لله ومضى إلى سبيله وأمن القصر من الثعابين وعاد الإمام إلى حجرته.

حكاية أغرب الغرائب العجيبة

وبعد أيام عدة وصلنا ميدان الروملى ولعل الصياد باع أحد عشر ثعبانا للحواة بمبلغ عشرة قروش للشعبان الواحد والله أعلم، وكل منها ضخيم مخيف ولقد درب الحاوى هذه الثعابين عدة أيام فجعلها ترقص كالقردة فى ميدان الروملى، ويا عجباً لما لهؤلاء الصيادين من سحره وربما كانت لهم كرامات كالأولياء والله أعلم. والعجيب فى ذلك أنها مسخرات يعجز عنها الوصف وبينما كان الحواة يرقصون ثعابين الإمام اندفع أحد هذه الثعابين ولدغ طفلا فى قدمه، واتفق أن كان فى هذا المكان وفى تلك اللحظة درويش سعدى فامتص السم من موضع لدغة الثعبان فى قدم الطفل وبصق السم وفى الحال تخلص قدم الطفل من السم، بيد أن هذا الدرويش لم يقر قراره فقال: يا حى يا قيوم وسلام على نوح فى العالمين وشوى الثعبان الذى لدغ الطفل لأكله وعلى

الجنب الآخر صاح الحاوى قائلا: وا ويلاه إن هذا ثعبان إمام الباشا وقد ابتعته بأحد عشر قرشا.

وفى نهاية الامر جاء قوامى نقيب الحواة ومضى بالدرويش السعدى إلى الباشا وفى حضرة الباشا كان الدرويش لم يزل يأكل ما تبقى من الثعبان وقد أزيد فمه أما الحاوى فجعل يصيح كالنتين قائلا: ضاع ثعبانى واستشاط غضبا، وشهد حضور المجلس أن الدرويش أنقذ الطفل من فتكة الثعبان فسر الباشا لذلك فقدم للدرويش ثعبانين ليأكلهما أمامه وقدم إليه كذلك خمسين دينارا من ذهب، ومنح الحاوى عشرة دنانير والطفل خمسة دنانير، وكان هذا مشهدا عجيبا إلى حد جد بعيد.

ونعود إلى استكمال حديثنا عن أوصاف الترياق الفاروقى ومستشفى قلاوون:

لا وجود فى مصر لمبنى له ما لأبنية مستشفى قلاوون من عظمة ومتانة أوقافه وله صيدلية منقطعة النظر يصرف الدواء منها للمرضى والمجانين وهى لا نظير لها فى الدنيا. إنها مؤسسة خيرية بكل ما تحمله الكلمة من معان.

مستحضرات الترياق الفاروقى المستخرج من قرص الأفعى

إن أطباء المشفى ولو أنهم صنعوا أدوية مختلفة إلا أن أهمها وأعظمها:

• **الترياق الأكبر:** إنه دواء لمائة وستة وسبعين داء وهو يحضر من ستة وسبعين دواء، وهو يطرد الريح من المعدة والأمعاء، كما يشفى أربعين مرضا كذلك.

• **ترياق الطين للمختوم:** إذا تناول أحد السم أو لدغته أفعى أو بعض الحشرات وتناول منه مثقالا شفى ونجى من الهلاك بإذن الله.

• **ترياق الطين:** إنه - على حد قول الجرجانى - نافع من لدغ الثعابين.

• **ترياق الياشوش:** إذا أذيب نصف مثقال منه فى الماء أنقذ من لدغة الأفعى والحية.

• **ترياق الكبير:** أما هذا الترياق فهو نافع لجميع السموم.

• **ترياق الأمير باليوس:** مستحضر عجيب يشفى الجمال على الإنسان ويمنحه صفاء البشرة.

وجميع هذه العقاقير والمستحضرات فى مستشفى قلاوون .

ترياق الحكيم هاليوشى الذى يصنع فى عصرنا الحالى

إنه ترياق يعدل الدنيا بأسرها، ومن ملكه ملك الدنيا وما فيها، إنه شفاء لكل داء . فمن تناول مثقالا منه شفى من الجذام والبرص وما شابههما من أمراض، وهو يخرج العرق من البدن فيخرج معه المرض، أما تركيبه فعلى النحو التالى :

قرص أفعى، والقرنفل، والزنجبيل، وجوز البوا، والجنطيانا، والقاقوليه، والميع اليابس، والقصب المر، وأصل الكبره، والحناء، وعود السقهر، وحب السيلسان، والسليحة، والقرفة والسنبل الهندى، والزراوند، وبذر الكرفس، وبذور الجزر، والفلفل الأسود، وحب القار، وثلاثة دراهم من القرد مانا، وتعجن فى مقدار كاف من العسل الخالص، وتحفظ ثلاثة أيام فى وعاء فخارى مبطن بالزجاج، ثم يسحق هذا الخليط مع ثلاثة دراهم من كل من الأفيون، واللادن والزعفران، ويضاف إلى ذلك الميعة السائلة، ومثقال من ماب الحمار يسحق كذلك مع هذا الخليط، ويضاف ذلك إلى المعجون الموجود فى الأوعية الفخارية المبطنه بالزجاج، ويوضع هذا مثل سائر المعاجين فى الشعير حتى يؤكل منه مثقال، وهو عظيم النفع ومن ملكه ملك الدنيا بأسرها .
وأول من اخترع الترياق الفاروقى، «نوش منافيوش» أحد ملوك القبط .

الفصل السادس والثلاثون

فى ذكرى ما يهب الحياة لأهل القاهرة

من أسبلة وخلصان ويرك واحواض وآبار

بما أنه ليس من شىء أعز ولا ألد من الماء عند جميع مخلوقات الله فقد أنزل فى ذلك آية كريمة على المصطفى ﷺ هى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الانبياء: ٣٠].

ولحاجة مدينة القاهرة بصفة خاصة إلى الماء لم يكن هناك ما هو أعظم ثوبا من توفير الماء لخلق الله فيها. فمنذ أن قدمها عمرو بن العاص فاتحا إلى يومنا هذا حكمها مائة وسبعون ملكا، وأقام كل منهم جامعا يتصل به سبيل، كما أنشأوا آلاف الأسبلة فى جهات أخرى وفى كل من هذه الأسبلة حمل عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف جمل من الماء كما أن سائر الوزراء والوكلاء والأعيان والأشراف أقام كل منهم سبيلا على رأس كل جهة يصعد إليه بسلم حجرى من ثلاث درجات أو أكثر، وهى أسبلة مزخرفة لها نوافذ ذات قضبان من النحاس وقد زينت بالقيشاني الصيني واليشم البيرقاني والرخام والصماقي. علاوة على ما بجانب القصور العالية وأسفل بعض البيوت من أسبلة جميلة ذات زخارف.

وجملة القول أنه كان فى القاهرة - على حد قول الغزالي - ٦٠٠٠ سبيل، أما الآن فهى ()^(١) سبيل، إضافة إلى إلى أسبلة كثيرة على رأس كل جهة وبين بعض الحوائيت.

أشهر أسبلة مدينة القاهرة

• سبيل السلطان الغورى:

أعظم وأشهر أسبلة القاهرة، وبما أنه يقع فى مكان مزدحم من السوق السلطانية يزدحم الناس عليه، وهو يقدم الماء النقى من الصباح إلى المساء، وهو سبيل كأنه البحر الخضم فماؤه يقدر بحمل عشرين ألف جمل، وأوقافه عظيمة، وبنياته متين، وبما يروى عنه أن صهاريجه الأربعة كلها من الرصاص ولذلك كان ماؤها عذب. كتب على شباكه بخط جلى قوله - تعالى -: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الانبياء: ٣٠].

(١) يباىض فى الأصل.

• سبيل محمد اوکور باشا:

فى القلعة الداخلية:

- سبيل «باب القلعة» كذلك فيها من الماء حمل ١٠٠٠٠ جمل.

- سبيل إبراهيم آغا رئيس الانكشارية:

يقع هذا السبيل أسفل مقر رئيس الانكشارية، وعلى نافذته تاريخ مسطور هو:

إبراهيم آغا الذى يتفكر فى عقبه

بذل همته فى مرضاة الله

فأقام مثل هذا السبيل الجميل

فقال كل من شرب من مائه الزلال تاريخه

إن هذا السبيل يمتلئ من ماء العين على الدوام

سنة ١٠٣٧

ويليه فى ازدحام الناس عليه:

- سبيل «السلطان الأشرف».

- سبيل «السلطان حسن».

وجملة القول أن كل أسبلة السوق السلطانية جارية الماء على الدوام، وإذا تعرضنا إلى وصف كل سبيل وتاريخه اقتضى ذلك إخراج مجلد ضخم خاص بها.

وفى عصرنا الحالى أنشأ عباس آغا المعزول من منصب آغا دار السعادة سبيلا جديدا فى مدينة القاهرة وهو سبيل ذو زخارف، وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل، وكأنه متحف الصين، كما أقام فوقه مكتبا للصبيان.

- سبيل على آغا خازن السلطان محمد خان:

إنه سبيل مزخرف يهب الحياة لكل ظمآن وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل، ومقام عليه كذلك مكتبا لصغار الصبيان.

- سبيل مصاحب أحمد آغا:

بالقرب من الداودية، إنه سبيل جميل عليه مكتب لصغار الصبيان وكان فيه نقوش أرزلك وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل.

- سبيل عبد الباقي الجورباجي:

بناه بالقرب من دار القونداقجي، وفوقه مكتب لصبيان المسلمين.

- سبيل الكتخدا الحبشي:

أقام محمد كتخدا الحبشي هذا السبيل ووكالة، بيد أن الزمان تنكر له وبيعت الوكالة والسبيل في المزاد، واشترهما مصطفى أغا كتخدا أغا دار السعادة يوسف أغا في اسطنبول، وأرسل إليه يوسف أغا البنات، الحُجج والإيصالات. وهذا السبيل أكثر إردحاما من كل الأسبلة وماؤه بقدر ما يحمل ٦٠٠٠٠ جمل. وعليه مكتب صبيان ذو زخارف.

- سبيل ذى الفقار كتخدا:

في باب النصر، ومكتبه جديد مزخرف، وبالقرب منه سبيل آخر للكتخدا الحبشي وهو كذلك سبيل عظيم وماؤه حمل ١٠٠٠٠ جمل.

وجملة القول أنه في خلال سبعة أعوام أقيم ٧٠ سبيلا جديدا، أما أسبلة سلاطين السلف فكلها مبطنة من الداخل بالرصاص، وفي شهر يوليو تكون مياهها باردة كالثلج وهذه الأسبلة يطهرها الوقف كل عام ويملاؤها مرة أخرى من النيل فليس في القاهرة نعمة أعظم من نسمة الماء، والنيل يبعد عن مدينة القاهرة بمقدار ساعة.

وفي حى سيدى الشيخ عقبة الجهنى أقام «خاصكى محمد باشا» تكية كانها القلعة وضريحاً ومبرة ومدونة وسبيلا، وماء هذا السبيل حمل ١٥٠٠٠ جمل، وعلى نافذته تاريخ هو:

- لسبيل هذا السبيل هو ماء الكوثر سنة () (١)

وعلاوة على الأسبلة الأربعة آلاف في القاهرة يجلب الماء من النيل عدة مئات الآلاف من الحمر والخيول والجمال إلى الشوارع الرئيسية، وتغص الشوارع بهؤلاء السفائين وهم يسرددون «ظهورك، جنبك، هشك» بحيث يتعذر المرور في هذه الشوارع. ومع ذلك فكل هذه المياه لا تكفى أهل القاهرة وهم في كثرة مياه البحر.

(١) يابض في الأصل.

وطبق ما جاء فى سجلات رئيس السقائين أن عدد السقائين النصارى ٢٦٠٠٠ سقاء وكل صاحب قصر له سقاء يجلب له الماء على ظهر الجمل والحواد.

إحدى عجائب مدينة القاهرة

فى مدينة القاهرة إذا هطل ماء الرحمة يشح الماء، أما إذا هطل فى بلاد أخرى يسر الناس جميعا ويستفرقون فى ماء الرحمة. أما إذا هطل المطر فى القاهرة أكل أهلها بعضهم بعضا من شح الماء لأن تراب القاهرة كأنه ملئ بالزيت فإذا ما هطل المطر ما استطاع أحد الخروج من داره، وتعذر سير الحمر والخياد والجمال فى الطرق لجلب الماء وبذلك يقع قحط الماء ويبع السقاء قربة الماء بخمس بارات، أما الأسيلة فتفتح وتوزع منها المشروبات ويشح الماء، ولذلك يأمر الصوباشى ٥٠٠٠ زبال يحمل التراب اليابس على حمرهم وفرش الطريق العام به، ويبدأ الناس فى السير فى الطريق بسهولة، فليس فى القاهرة أرصفة لذلك توحد شوارعها وتصبح وكأنها شوارع مدينة «سلستره» والعياذ بالله. ولكون مصر بلد ساحلى يهطل المطر فيها مرة أو مرتين فى كل عام.

وإذا ما هطل المطر على الدوام كما هو الشأن فى بلاد الترك لخربت مصر.

ففى عام ٨٣ دام هطول المطر والثلج سبعة أيام بلياليها ولم يستطع الناس المضى إلى المصلى لاداء صلاة الاستسقاء وقد انهدمت بيوت اثنين وعشرين من بيوت الفلاحين والحضر وشح الماء ونزل الثلج على أسطح المنازل بلونه الأبيض الناصع فكان أبناء العرب يقولون: «اش هذا أنزل القطن من السماء» أما الترك حينما شاهدوا ذلك قالوا: «الحمد لله، انظروا إلى رحمة الله» وكانوا ياكلون الثلج المتساقط هذا. وكان أبناء العرب يجتمعون هنا وهناك ويضعون قطع الثلج فى أفواههم وعندئذ كانوا يقولون: «الحاد يا برد النار». أى أنه يحرقهم كالنار. ولكن ذاب الجليد واختفى ودام هطوله فى البحيرة خمس ساعات كاملة، وفى تلك السنة نزل البرد كل حبة فيه فى قدر الدرهم.

ولله الحمد فالنبات فى مصر ليس فى حاجة إلى المطر لأن النيل إذا ما فاضت مياهه غمر أقاليم مصر، وجعلها بحرا قانى الحمرة، ثم ينحسر الماء ويزرعون الأرض، وينضج

المحصول في ستين يوماً، ويجمعونه في مخازنهم، ولذلك لا تمس حاجتهم إلى المطر ويجري هذا مجرى المعتاد بإذن الله . . . يا لها من حكمة عجيبة.

الفصل السابع والثلاثون

ذكر ينابيع مدينة القاهرة

فى القلعة الداخلية واحد وعشرون ينبوعا يأتيها الماء من النيل المبارك عبر ٣٦٠ قنطرة من خيرات السلطان الغورى، وتصل المياه إلى أسفل القلعة فترفعها السواقي ليل نهار، وثمة خزان عظيم للماء له قباب يمتلئ هذا الخزان بالماء وفى الصباح يأتى سقاؤو القلعة وعددهم ٥٠٠ لحمل المياه فى قريهم، فيسقوا البيوت التى فى القلعة، وتباع أربع قرب ييسارة، وأحد هذه الينابيع لها قبة عظيمة أسفل «الضرب خانة» بالقلعة الداخلية، ولها مواسير فى غلظ ذراعين وماؤها يأتى من السواقي المجاورة لقصر الباشا.

وثمة ينبوع آخر بالقرب من الشيخ سارية إلا أن ماءها من بئر يوسف لذلك فهو أميل إلى الملوحة وثمة سواق أخرى لينابيع وأحواض وشادروانات الشيخ سارية وماؤها أميل إلى الملوحة.

وفى شمال قلعة الانكشارية بالقرب من جامع «قان باى سلطان» نبع على صخرة قائمة تأتى مياهها من بئر كأنها حفرت فى جهنم.

وخارج القلعة فى مقر أتباع الباشا ينبوع ذات قبة عظيمة أسفل قاعة ديوان السلطان قلاوون ذات الأربعين عمودا وهى ينبوع لها ماسورتان فى غلظ الذراع وماؤها عذب زلال ويجلب السقاؤون الماء منها لاتباع الباشا، ومياهها كذلك من المياه التى تأتى عبر قناطر الغورى.

وينبوع آخر فى ميدان قصر الباشا تحت النخيل وأشجار الزيتون، ولها قبة عظيمة وماسورتان وماؤها صاف، ويأتيها الماء كذلك من قناطر الغورى.

وينبوع آخر بالقرب من مخبز رئيس الخبازين وله ست مواسير تتصل بصنابير يتوضأ منها المصلون وجميع أتباع الباشا يروون ظمأهم منها إنه شراب طهور، وماؤها يأتى كذلك من سواقي الغورى.

وفى مطبخ الباشا ينبوع كذلك ذات ماسورتين وماؤها صاف تشرب منه الجياد وهو منسوب كذلك للغورى.

وتوسط حجرات العزب ينبوع لها قبة عالية تهب الحياة، ويصعد إلى قبتها بسلم من ست درجات، إنها عين الحياة، ولها ماسورتان متجاورتان فى غلط الذراع، وهى كذلك منسوبة إلى السلطان الغورى.

وفى داخل باب العزب كذلك ينبوع يجرى فى اسطبل طائفة عسكر حجاج المسلمين، وتشرب كل الخيول من هذا الماء العذب وهذا النبع كذلك من خيرات السلطان الغورى. وليس فى القاهرة يتابع سوى هذه وما فى القلعة الداخلية. وإذا ما سئل عما إذا كانت هذه الينابيع تكفى أهل القاهرة وهم بحر من البشر فتذكر ما جاء فى فرمان السلطان مراد الرابع عن الآبار والينابيع والسواقي بيد أن سواقي البساتين والحدائق قليلة وهى خاصة بها وحدها.

بيان عام بما فى القاهرة من آبار وأحواض وأسواق

فى عهد السلطان (مراد الرابع) وعندما كان بيرم باشا واليا على مصر- بناء على فرمان السلطانى - أحصى جميع مبرات ودكاكين الأسواق السلطانية، وما تحتويها، وعرض ذلك على السلطان (مراد)، وجاء فى هذا الإحصاء أن فى القاهرة ٢٧٤٠٠٠ بئر ! ذلك لأن ما سلف ذكره من قصور السلف والوزراء والوكلاء والأعيان والأعراف يضم خمسة أو ستة آبار، أو على الأقل بئر واحدة لكل قصر من هذه القصور.

فضلا عن آلاف الجوامع والمساجد والخانات والمببرات والمدارس لكل منها بئر أو أكثر وعلى رأس كل طريق، وداخل بعض العطفات أحواض طويلة تسقى منها دواب المسافرين من خيل، وجمال، وثيران، وحمير. ولكل حوض منها سواق ذات سقف منقوش ذى زخارف، يقوم على أعمدة من حجر، وتستخرج هذه السواقي الماء من الآبار، ويتدفق الماء من ثلاثة مواضع على هيئة رؤوس أسود أو تنانين أو شياطين، فتملأ الأحواض وتشرب منها كل الدواب.

وفى مدينة القاهرة ٩٢٠٠ ساقية ذات حوض، وكل منها من خيرات سلطان، أو وزير، أو عين من الأعيان.

فى القاهرة ٨٩٠٠ طريق من طرق رئيسية ودروب، وأسواق سلطانية، و ١٧ حارة منها ليس لها أبواب كالطريق الرئيسى، وفى كل ليلة يعس (الصوباشى) فى ٦٠٠ أو أكثر من رجاله مع (الديودار) للحفاظ على الأمن والحراسة.

وفى الصباح يقوم ذبالو الحمامات بكنس الطريق العام، ثم يقوم كل صاحب دار أو دكان برش الماء فى الطريق من الآبار سالفة الذكر، وبذلك تنظف الأسواق السلطانية، وطرق المسلمين، والطرق الرئيسية خاصها وعامها ويطيب هواؤها، إلى حد لا تبقى فيها ذرة من تراب وبذلك يجد جميع أهل السوق الراحة. هذا هو النظام المرعى فى الكثرة الكاثرة من الطرق الرئيسية العظيمة.

وفى بعض العطفات كذلك، يرش سقاؤو ديارها الماء فى الطرق فيلطف هواؤها. وفى القاهرة بعد (كسر النيل) يجرى ماء النيل المبارك داخل القاهرة وخارجها من أربعين جهة، ويحمل السقاءون المياه من الخلجان، ويبيع حمل حمل من الماء بـ (باره)، وتباع قربة الماء بـ (منقرين). ويشرب أهل القاهرة الماء الصافى فترتد إليهم الروح.

ثمة خليج أسفل إحدى سواقي الغورى هو خليج (جسر المنجان)، ويسميه العوام (خليج قطع النيل)، وفى سفح جبل الجوشى بئر تسمى (بئر أفناى)، وأول من حفرها هما (هاروت وماروت) بعد هبوطهما إلى الأرض، وقد عرفا فيه علم الرصد وكانا يرقبان الكواكب، وعلموا أهل القاهرة علم النجوم والسحرة حتى أصبح كل أهلها من السحرة.

وبئر (أفناى) تلك موجودة إلى الآن إلا أنها خربة لعدم وجود ماء فيها. وكان الحاكم بأمر الله قد أمر بتطهيرها فأصبحت كما كانت فى عهد هاروت.

الفصل الثامن والثلاثون

بيان جميع الخلجان التي يسقى منها كل ذى روح فى القاهرة

وجميع الناس فيها

فى شهر يوليو من كل عام تغيض المياه فى كل أنحاء الدنيا، أما فى مصر فى اليوم (١١) من نفس هذا الشهر وهو رأس السنة القبطية الذى يسمونه (توت) يفيض ماء النيل ويموج وكأنه البحر الخضم، وبعد سبعين يوما من (توت) يرتفع منسوب النيل فى (أم القياس) بمقدار عشرين ذراعا وعندئذ يحتشد جميع أعيان القاهرة وأشرافها وعلمائها وصلحاؤها ووزرائها وأمرأه جيشها على رأس الجسر المسمى (أبو المنجا) والواقع أسفل ساقية السلطان الغورى، ويرفعون أصواتهم بالدعاء والثناء، ويرفعون التراب الذى سد به الخليج الذى أنشأه المقوقس أثناء حكم ملوك القبط، وبذلك يفيض ماء النيل فيضانا وكأنه البحر، وينطلق ماؤه فكانه سهم أطلق من قوس شديد.

ويمضون بقارب (الصوياشى) إلى داخل المدينة. وعلى ضفاف هذا الخليج الجارى بسيرة ثلاث ساعات من داخل المدينة وحتى جوسق الغورية قاعات وحجرات متعددة وقصور ذات أحواض وشادروانات، وعلى ساحل هذا الخليج كذلك مقاصير ذات حدائق غناء والناس فيها يمرحون ويتهجون، ويطيرون فى منازلهم ليل نهار، وتصبح مجالسهم أشبه بمجالس السلطان (حسين يقرأ) (١٢).

ويجرى ماء هذا الخليج ثلاثة أشهر بتمامها، تتوفر خلالها المياه لدى أهل القاهرة ولا يعانون أى نقص للمياه. ويمرحون على ضفاف هذا الخليج خمسة أشهر كاملة، وتصبح أيامهم أعيادا كعيد الأضحى، ويجالس كل أحباءه ويسامرهم فى مجالس كثيرة الزينات وهم يصيدون السمك بشباكهم، وتأتى جميع الحسان إلى هذا الخليج ويتزلن فى مائه

(١٦) يياض بالأصل.

(٢٢) أحد علماء السلاطين، غلب على مدينة هراة سنة ٨٧٢ الهجرية، وجعلها حاضرة ملكه وورث له مير على شير نوائى، فالتقى على حب العلم وإكرام العلماء فكان قصره فى هراة مثابة لأهل العلم والفصل بسط رعايته عليهم وغمرهم بنواله، وتوفى رحمه الله عام ٩١١ هـ. انظر: المعجم الفارسى العربى الجامع للدكتور حسين مجيب المصرى ص ١٢٤.

وهن عاريات بلا إزار ويسبحن كأنهن سمك من لجين، وَيَغُصْنَ في الماء ويصدن قلوب العشاق ويصعدن إلى الشاطئ.

وفي مواسم الخليج هذه في القاهرة تلتقى الحسنوات مع عشاقهن بلا خوف ولا مبالاة وينزلون في ماء الخليج ويعانق الحبيب حبيبته.

وتغدو وتروح آلاف القوارب في الخليج، وقد زينها أصحابها بالأعلام المختلفة الألوان ويجلس شباب العرب في مؤخرة القوارب مع محبوباتهم مرددين (مصراع):
«أحمل كأس المدام في يدك وتعال لترشفها»

يرددون هذا وهم يرشفون الشراب في كؤوس من زجاج ويمبرون الخليج على هذه الصورة، وهم يتغنون بمختلف النغمات (مصراع): «بادروا إلى المتعة فما متعة مثلها».

ويتغنون بهذا فيستخف الطرب بمن يسمع صوتهم الرخيم.

ومنهم من يربط زورقا في آخر، ويفرشون عليهما آلات الطرب من صنج ورباب، وناي، وطبل، وقانون، ويعزفون عليها باثنى عشر مقاما وأربعة وعشرين أصلا ويعزفون بلا انقطاع، وكان عزفهم هو عزف الفارابي و غلام الشادى. ويدوم الحال على ذلك ليل نهار وتزين القوارب بالقناديل وتستمر الألحان مع صيحات العشاق، ولا يعد ذلك عيبا في هذه الأيام، وفي هذا الوقت تستر مساوى القاهرة وتبرز محاسنها.

الخليج الثانى: (خليج السلطان أوريك)

أسفل قصر العينى، إنه خليج واسع، يخترق في جريانه الحدائق، وينصب في (بركة الأوربيكية)، ومنها يجرى إلى أسفل حديقة المعجم حتى يصل إلى جسر الليمون، وما أكثر ما يروى هذا الخليج من حقول وبساتين، ويمر أسفل جسر (الظاهر بيبرس) ويروى أراضى (قليوب) ويغيب مأؤه هناك.

أما الخليج الذى يخترق مدينة القاهرة يمر من تحت جسر (إبراهيم باشا) الجديد شمال المدينة ويمر بساحل (جميز العبد)، ويقطع ثلاث مراحل حتى يصل إلى بليس ويروىها إنه خليج عظيم.

أما الخليج الآتئى إلى الأوربية هذه فتجرى مياهه مخترة نفس الحداثق، وفيه كذلك مكان للمتعة والطرب، إلا أنه مكان للرعاى والأراذل، وهو كالخليج الذى يخترق المدينة ليس موضعا لقوم لهم أعراض.

الخليج الثالث: (خليج السلطان برقوق)

أسفل البارود خانة، بالقرب من مدينة بولاق، وهو كذلك يروى حدائق وحقول بولاق، ويمضى ماؤه إلى (قليوب)، وبه أماكن للنزهة والمتعة كذلك.

الخليج الرابع: (خليج السلطان قايتباى)

إنه خليج عظيم بين قصر السبتية وبولاق، يمضى ماؤه إلى قليوب، ويروى أراضى الشرقية.

الخليج الخامس: (خليج السلطان ناصر الدين)

يقع بين بولاق والبلدة الصغيرة المعروفة بشبرا، ويجرى حتى الشرقية ويروى أراضياها.

وقد شق هذه الخلجان مهندسو السلف لرى جميع الولايات فى مصر، ويركب الناس القوارب فى هذه الخلجان ستة أشهر، ويحملون الغلال من إقليم إلى إقليم. أما الملوك الذين جاءوا من بعد فقد شقوا من هذه الخلجان الترع وزرعوا ماؤها على جهات القاهرة الثلاث، وتمضى فى هذه الترع كذلك القوارب خمسة أشهر.

إنها أربعون ترعة، شقت فى خمس وأربعين بقعة فى مدينة القاهرة. وفى موسم ترع هذه الخلجان تصبح القاهرة جنة وتغزر المياه، ويعمد إلى كتخدا والى مصر أن يطهر هذه الترع وكان لزاما على كل صاحب دار - مهما كانت منزلته - أن يطهر ماء ما أمام داره أما فيما عدا ذلك فيحضر حكام ورعايا الجيزة وقليوب والشرقية الثيران والجرافات لتطهيرها، وهذا ما يتكلف فى كل عام سبعة أكياس ويعين لذلك موظف برتبة (رئيس البوابين) وتطهير هذه الترع كل ثلاثة أشهر.

- جسر السبوع:

يقع هذا الجسر أمام (يكي قابو) أى الباب الجديد ، إنه جسر متين من ثلاثة فروع وقد أنشأه السلطان () (١١) عام () (١٢). والسبب فى تسميته باسم جسر السبوع أنه فى مرفأ الخليج فى ناحية بولاق كان أسدان مهيبان من الرخام فى حجم الحصان من شاهدهما ظن أن لهما روحًا وكانت كل القوارب تنهيا للحركة من هذا المرفأ وتحمل الناس إلى أى مكان يريدون الوصول إليه .

- جسر السلطان إيتال:

إنه جسر خشبى من سوارى القوارب ويعبروه سيرا على الأقدام، وقد أقيم هذا الجسر للعبور إلى جامع (الجماعة) فى الناحية المقابلة للخليج، أما الآن فقد أصبح هذا الجسر طريقا عاما .

- جسر العمرى:

إنه جسر متين على الرغم من أنه من فرع واحد .

- جسر الجماميز:

إنه جسر عظيم واسع من فرع واحد، وعلى جانبى هذا الجسر مقاهى، ذات حجرات ومقاعد وفيرة، وعليه كذلك عشرون دكانا، ومن يجلسون فى هذه المقاهى يصيدون السمك بالشص .

- جسر السنقور:

من فرع واحد إلا أنه واسع، وعلى جانبيه أكثر من أربعين دكانا ومقاهى، ذات رخارف تطل جميع نوافذها على الخليج ويتردد على هذه المقاهى علماء مصر، إن هذا الجسر طريق رئيسى عظيم .

- جسر (باب الحرق):

شيده إسكندر باشا وزير السلطان سليمان، وثمة جامع سلطانى معلق فى حارة (صانعى القدور)، وكل من يصلى فى هذا الجامع يشاهد الخليج، إنه جامع طيب

النسيم، وهذا الجسر من فرع واحد إلا أنه أوسع وأمتن من جميع الجسور، ويعلوه دكانا سلطانيا، أما مقهاه ففى رأس الجسر الآخر ناحية بولاق. إنه أكثر جسور القاهرة ازدهاما.

- جسر الأمير الحسين:

إنه جسر واسع عليه مقاه ذات مقاصير مطلة على النيل، ويعلوه ٣٠ دكانا للزياتين والمطارين، وكل كواتها مطلة على الخليج، إنه طريق رئيسى عظيم.

- جسر الموسيقى:

إنه صراط طويل مرتفع من فرع واحد، وعلى جانبيه دكاكين ذات زخارف، ومقاه ذات ثلاث مقاصير ولأن من شيد هذا الجسر هو من يسمى (مثقال شرف زاده) - من مهندسى الحاكم بأمر الله - سمى هذا الجسر (قنطرة الموسيقى)، إنه فى الحقيقة جسر واسع، وكل من يرتاد مقاهيه من العلماء والموسيقيين ولهم لفظ فيها صباح مساء ويتجاذبون أطراف الحديث بينهم.

- جسر البيت:

إنه ليس مجرد طريق عام بل هو بيت قديم يشبه قصرا شامخا مقاما على جسر.

- جسر البيون:

يقع بالقرب من الجسر السابق ذكره، إنه جسر بنى حديثا، وهو كذلك ليس طريقا عاما بل طريق خاص، إنه مقر متعة ونزهة لأهل العشق، ومنه توزع صنوف الاطعمة على من يغدو ويروح.

- جسر باب الشعرية:

إنه جسر عظيم من فرع واحد، وهو أوسع الجسور، وهو طريق عام مزدحم يعبره جميع أرباب الحاجات، وعلى جانبيه دكاكين، أما مقهاه فهو بعيد.

- جسر الخروب:

جسر متين البناء من فرع واحد، وعليه مقهى علوى وآخر سفلى، والسفلى منه على ضفة النيل مكان نزهة جميل، وبعضهم يدلى قدميه فى الماء ويصيد السمك بصغير

الشباك وإذا ما شاءوا نزلوا فى الماء وسبحوا. إنها مقهى جميل، ولا دكاكين فوق هذا الجسر.

- جسر الخشخاش:

جسر من فرع واحد، لا دكاكين عليه، إنه جسر قليل الزحام لأن الناس يركبون القوارب للتنزه ويمرون من تحته.

- جسر أمى الخير لإبراهيم باشا:

إنه جسر متين شيد عام ١٠٨٣ من أجل عبور عتاد اليمن إلى السويس، وهو على مقربة من جامع الظاهر بيبرس خارج المدينة، إنه جسر غاية فى دقة بنائه وجمال صنعه.

- جسر الور:

من فرع واحد، وهو خارج المدينة .

- جسر جميز العبد:

إنه جسر جميل خارج الطرف الشمالى للمدينة، وهو من خيرات الملك الظاهر، ويقال لطرفى هذا الجسر (جميز العبد)، وفى هذين الطرفين أشجار جميز ضخمة لا وجود لمثلها فى مصر، زرعها عبد أسود ولما كان يصلى تحت ظلالها سميت جميز العبد، وإليها يمضى أعيان مدينة القاهرة فى القوارب ويجلسون فى ظلالها طلبا للمتعة والتنزه. إنه مكان نزهة على ضفة الخليج.

وهنا نكون قد انتهينا من الحديث عن جسور الخلدان التى تجرى داخل مدينة القاهرة.

وصفوة القول أن الجسور القائمة على خلدان مدينة القاهرة وترعها ٣٦ جسرا. لأن النيل يجرى بين ما فى جوانب مصر الأربعة من رياض وبساتين تعلوه جسور. وتجرى مياه الخلدان والترع هذه فتصبغ خلدان مصر فى داخلها وخارجها مترعة بالماء.



الفصل الأربعون

ذكر البرك التي تشبه البحار داخل مدينة القاهرة

- بركة الأوريكية:

عما لا ريب فيه أنها أعظم برك مدينة القاهرة، محيطها أرض تُقطع في ساعتين، وعندما يفيض النيل تمتلئ بالماء وتموج كأنها اليمّ. وكم من مئآت القوارب التي تحمل الناس من دار إلى دار ومن قصر إلى قصر ويصيدون منها أنواع السمك، وكم فيها من قوارب تعرف (بقوارب أبي الخير) وهي قوارب كبيرة في جوفها دكاكين بها كل ما يُشتهى من مطعوم ومشروب، وتمضى هذه القوارب من دار إلى دار ومن قصر إلى قصر لبيع المطعوم من البقل إلى الفجل. وحول بركة الأوريكية هذه حدائق ذات مقاصير وقاعات وعمرات ومقاعد ومعروشات، وفي هذه الحدائق قصور كقصر (الخورنق)، ومنازل ذات نقوش وكأنها نقوش الصين.

إنها بركة عظيمة على جوانبها الأربعة جوامع حولها مروج، وكل من هذه الجوامع من خيرات ملك من ملوك السلف، يقصر اللسان والبيان عن مدحه، إنها جوامع تكسب البركة بهاء.

- القصور الواقعة على ضفتي البركة:

وعلى ضفة هذه البركة قصر (رمضان أغا) أمين الأنبار^(١) وهو أعظم القصور العالية، وقصر باقلاجي محمد بك أمير جدة، وقصر مصطفى أغا، وقبائه على الجانب الشرقي قصر قاسم بك قبودان^(٢) السويس، وقصر حاسم زاده ومئآت من القصور الأخرى، أما أعظم هذه القصور قصر سيدى الشيخ البكرى زاده عزيز محمد أفندى، وقد ورثه عن أجداده العظام.

إنه قصر عظيم كائن في الركن الجنوبي للبركة ويتألف من ٣٦٠ حجرة مزدانة بالمقاصير والأحواض والشادروانات والقاعات المختلفة، وفيه بيوت أخرى للضيوف

(١) الأنبار: مخازن الغلال. ومنها أنبار يوسف عليه السلام، وهي مشهورة بجنوب القاهرة.

(٢) قبودان: قائد أسطول بحرى.

والمجاورين، وفيها من سكنها عام أو أكثر يتناولون طعامهم من السماط المحمدى، وتخلع عليهم ثياب طوال أول كل عام، فيدعون بالخير لأهل الخير.

ولسیدی العزیز ولدان عزیزان علیه: أحدهما أبو المواهب وهو صاحب كرم، وخير منه زين العابدين خفيف الظل، مضياف، رحيم، غزير العلم.

وعلاوة على قصور عزيز چلبى هذا له بيوت لكل منها حرم وتكية ذات حمام. ويتسب أجداد العزیز چلبى إلى عمرو بن العاص وأبى بكر الصديق - رضى الله عنهما- فى عهد عمر بن الخطاب، ونار مطابخهم لا تنطفئ، ويقدمون الطعام صباح مساء للغنى والفقير والخاص والعام، وهم يفخرون بدوام اشتعال النار فى مطابخهم، وكم لهم فى مصر من أوقاف وضياع وأقدنة وأوراق.

وشيوخ البكرية من أعيان القاهرة كذلك، وفى كل عام ليلة الاثنين من اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول يحتفل بالمولد بشكل يقصر عنه الوصف.

وفى تلك الأثناء يشتد الحر فيجف ماء البركة ستة أشهر وتصبح مرجا مخضوضراً. وفى أيام الاحتفال بالمولد يأتى شيوخ مائة وأربعين طريقة إلى ساحة هذه البركة ومعهم خيامهم التى يقيمونها مع من يصحبهم، ويقىمون خمسمائة أو ستمائة خيمة، وفيها يقرع الشيوخ والعلماء وعدة آلاف من الدراويش الدفوف ويقىمون حلقات الذكر ثلاثة أيام بلياليها.

ويعلق أصحاب البيوت على حافة البركة القناديل وعلى نوافذهم وجدرانهم حسب مقدرتهم، ويزين نظار الجوامع على حافة البركة منائر وصفات الجوامع وكان الرسول ﷺ ولد فى تلك الليلة، وفى تلك الليلة يعم النور القاهرة. يا لها من بركة عجيبة عظيمة.

- البركة الثانية: (بركة الفيل)

وهذه البركة أصغر فى الطول وأقل فى العمق من بركة الأوزيكية، بيد أن جوانبها الأربعة مزدحمة ولا موضع فيها لأرض خالية قدر ذراع وحولها منازل ذات نافورات وأحواض وحدائق، وجوها لطيف إلى حدٍ جَدُّ بعيد. إنها بركة عظيمة تمتد من الجنوب إلى الشمال، وتجرى فيها القوارب تغدو وتروح، وليس بها منفذ، ويأتيها ماء النيل

مترسبا تحت الأرض من ناحية الباب الجديد. ولأصحاب البيوت المظلة على هذه البركة سفنهم وقواربهم الخاصة بهم، ويتنقلون بهذه القوارب بين قصورهم. إنها موضع عظيم للشرفاء بحكم وقوعها في منطقة مزدحمة في مدينة القاهرة.

ومن أعظم القصور الواقعة على أطراف هذه البركة هو قصر سيد برهان الدين نقيب الأشراف الذي يتصل نسبه بالحسين من أهل هاشم، وهو شيخ علته الكبير والوهن، وكان بيته منذ تسعين عاما ييذل منه الطعام للغاى والرائح.

كما أن على حافة تلك البركة قصر (الخزينة دار المصاحب شاهين أحمد أغا)، وقصر معتق عباس أغا البنات، ودار شعبان أغا رئيس المتفرقة، وأفضل ديار الشيخ السادات، وقصر بكر أفندى كاتب الإنكشارية، وقصر قانصو بك الذى كان قصر السلطان (١) وهو قصر يعجز عنه الوصف، وقصر المصاحب صالح أغا، وقصر البلتاجى محمد خليفة، وقصر الدامى، وقصر سليمان أغا، وقصر مصطفى أفندى الإنكشارية، وقصر المصاحب خليل أغا وقصر قيطاس بك، وقصر نذير أغا، وقصر أمير الحج، وقصر أبى المواهب أفضل أبناء الشيخ السادات، وقصر بوشناق محمد أغا، وقصر مصطفى أغا رئيس التوفنكية (أى حملة البنادق)، وقصر أحمد أغا چاووش رئيس الإنكشارية، وقصر سليمان بك، وقصر سليمان چاووش . . . ، وجملة القول أن على ضفة بركة الفيل سبعون قصرا للملك السلف، ومائتا دار عظيمة.

وفى هذه البركة سفينة واحدة من النوع المعروف بـ (أبى الخير)، وهى تنتقل من قصر إلى قصر لبيع صنوف المأكولات والمشروبات.

سبب تسمية هذه البركة ببركة الفيل

أما سبب تسمية هذه البركة ببركة الفيل: أن أحد سحرة فرعون استعرض سحره فجعل هيته على هيئة فيل، وأكل من عشب هذه البركة وشرب من مائها ولذلك سميت بركة الفيل، وفى رواية أخرى أنه عندما قدم الخليفة المأمون إلى مصر من بغداد، أحضر معه مائتى فيل وجعلها فى هذه البقعة لتبتد، ولذلك سميت بركة الفيل.

(١) يياض فى الاصل.

وبعض أصحاب القصور المظلة على هذه البركة حينما يحتفلون بمولود لهم، أو بمناسبة سعيدة يزينون قصورهم بالقناديل، ويزينون سفنهم وقواربهم بالأعلام، ويطلقون البنادق فتمتلئ السماء بما يشبه الشهب الهابط من السماء، وكم من قذائف (الفشك) تسقط في الماء وتغوص في الماء وتطهى السمك.

وتبقى المياه في هذه البركة عشرة أشهر بتمامها، وتحول الأراضي التي جفت منها إلى بساتين، ويزرعون فيها شماما، وبطيخا غاية في لذة الطعم، إنها بركة وفيرة المحصول.

- البركة الثالثة: (بركة الرطل)

بركة مستديرة الشكل، يطاق حولها في ساعة، ماؤها عذب فرات، وعلى الجانب الشمالى والغربى منها حدائق فقط، فى جانبها الجنوبى شوامخ القصور، منها قصر محمد جلى الضريخانجى، وكأنه حديقة إرم، وله شادروانات عظيمة وسفينة، وقصر سيد أحمد الجيزى، وقصر حسن البكرى، وقصور أخرى، وجو هذه البركة لطيف إلى أبعد حد، وكثير من الناس يغدون ويرحون فيها بالقوارب، وهى على مقربة من بولاق.

البركة الرابعة: (بركة مصنع القرميد)

بركة على هيئة مربع، عذب ماؤها.

- البركة الخامسة: (بركة الغسال)

بركة عذبة الماء، يغسل فيها أمتعة المدينة، ولذلك تسمى بركة (الغسال)، وتمتد حتى الفيوم بمسيرة يوم وليلة، ويصاد السمك منها ويحمل فى زنايل إلى القاهرة، ولا يستطيع إنسان أن يقترب من هذه الزنايل لرائحتها الكريهة، وتحمل هذه الزنايل على ظهور الحمير وتطرح على حافة البركة، وتغسل كل سمكة على حدة فتنبعث من أذننها الدماء وكأنها عادت إلى الحياة.

ورثة سمكة لذة للكلاب، يتهاافت عليها المصريون، ويسمونها سمكة يوسف، ومائدة يوسف، وحوت يوسف، إنها سمكة منقطة، وقد أكلت هذه السمكة فى الفيوم عملا بقولهم: «أكلت السمكة حتى رأسها»، ولكنها كانت قد غسلت فى بركة الغسال

وليس لها سهك (أى رائحة السمك الكريهة)، إنها سمكة لها رائحة السمك، ولأنها تغسل فى هذه البركة فهى كسمكة مائدة القدرة.

ولبركة الغسال هذه ميزة مشهورة فى الآفاق، فإذا نزلها مجذوم لأربعين يوما، وشرب من مائها أصبح جسمه كالدر السمين.

- البركة السادسة: (بركة الدباغين)

بركة مستديرة الشكل فى حى عابدين، يحيط بها منازل من ثلاثة طوابق أو أكثر، وعلى أحد جوانبها مذبغة عظيمة للدباغين، وماؤها عذب فرات ولذا فسمكها غاية فى لذة الطعم.

ويجرى فى هذه البركة قوارب خاصة مصنوعة من القرع، يركبها صيادو السمك لصيد السمك بشباكهم ثم يمنعونوه فى سفافيد.

- ميزة:

ومن ميزات هذه البركة أنه إذا ما أصيب أحد باليرقان (أى الصفراء) وأصبحت عينه ووجهه وجسمه فى صفرة الكهرمان الصافى ونزل فى مياه هذه البركة ثلاثة أسابيع يوميا فى الصباح قبل الإفطار، وغاص فيها ثلاث مرات وخرج وشرب من مائها شفى وأصبح جسمه فى بياض الفضة الخالصة.

- البركة السابعة: (بركة قارون)

شقها قارون، وهى على شكل مخمس، وتحيط بها الحدائق من جميع الجهات.

- ميزتها:

ومن ميزاتها أنه إذا ما نزلها أحد المنحوسين أربعين يوما فإرقه النحس، ودخل يده مال قارون. إنها بركة تجرى مياهها بالطلاسم، إلا أن ماءها أميل إلى الملوحة. وتستمد هذه البركة مياهها من النيل، إلا أنه مع ذلك ماء ملح.

- البركة الثامنة: (بركة الشوارب)

نشأت فى قديم العصور، وتنسب إلى أبى الشوارب وكان أميراً مصرياً شيد قصراً عاليا على ضفة هذه البركة، ولذلك سميت باسمه.

- ميزتها:

وهذه البركة إذا ما نزلها مصروع وقت الظهيرة حين يشتد الحر واغتسل وشرب من مائها برئ من الصرع بإذن الله . إنها بركة ذات طلاسـم .

- البركة التاسعة : (بركة الحبش)

بركة مربعة الشكل على هيئة بحيرة ، ماؤها عذب .

- ميزتها :

إذا ما نزلت هذه البركة امرأة حائض ، برأت من النفاس ، والكثرة الكاثرة من البغايا المقيدات فى سجل الصروباشى ينزلن فيها ، وتلك حكمة عجيبة ، وقد سألت عدة نساء عن ذلك فقلن لى تحقق من ذلك .

- البركة العاشرة : (بركة بيبرس)

بركة صغيرة شمال مدينة القاهرة بالقرب من جامع السلطان بيبرس .

- ميزتها :

وهذه البركة إذا ما غسلوا فيها الخضروات مثل : السبانخ والطماطم والملوخية والبامية والفجل ، نضرت وأصبحت طازجة وكأنما قلعت لثوها من الأرض ، وتبدل بعد يومين أو أكثر . إن تأثيرها لعجيب .

- البركة الحادية عشرة : (بركة الكبش)

بركة مثلثة الشكل ، أسفل قلعة الكبش .

- ميزتها :

فى عصر الكهنة كانت تجرى فى هذه البركة قوارب نحتت من صخر ، وكانت هذه القوارب تتسع لركوب أربعة أشخاص فيها ، وتغدو وتروح هذه القوارب إلى النيل عبر هذه البركة ، وهذه القوارب الآن تحت أحد العقود بجانب قلعة الكبش .

- البركة الثانية عشرة : (بركة عين شمس)

ليس بها ضفدعة ، ولا ثعبان ، ولا حية .

- البركة الثالثة عشرة : (بركة الحج)

إنها بركة مطلّسة إلى الآن .

- ميزتها:

ومن ميزات هذه البركة أنه إذا حملت قربة ماء من هذه البركة إلى الحج لا يتغير طعم مائها حتى ولو احتفظوا به في جرة مدة عام.

وهي من المطلسمات القديمة، وفي موضعها مسلة من حجر، وعلى الجوانب الأربعة لهذه المسلة صور متنوعة غريبة ونقوش عجيبة، إلا أن على هذا العمود من أسفله إلى أعلاه خط إدريسي يقرأه القبط، ولا يقرأه أحد سواهم، ومعنى رموز هذا الخط هو: «انظر إلى وجهي واحفر قاعى، فحيث يكون العقل يكون المال ١»، وقد هلك كثير ممن حاولوا سرقة هذه المسلة، وفي النهاية تفجر الماء من قاع هذه المسلة وتكونت بحيرة تبقى ستة أشهر في العام، وتجف ستة أشهر أخرى، والباحثون عن الكنوز من المغاربة يحضرون إليها ويحفرون أرضها بحثا عن المال إلى الآن.

إجمالى عدد البرك في مدينة القاهرة

إنها جميعا ١٧ بركة لكل منها ميزة تميزها عن الأخرى، وقد حفر كل منها، في الزمان، مهندس بارع، وجعل في كل منها طلسمًا. وتأثير هذه الطلاسم دائم إلى الآن. وهذه البرك التي تقع داخل القاهرة لها عظيم أهميتها، لأن ماءها الطاهر يرد على المصريين أرواحهم، ويلطف من جو المدينة.



الفصل الحادى والأربعون

أوصاف مدينة ميناء بولاق المشهورة فى الآفاق

الوصول إليها بالاتجاه من مدينة القاهرة غربا خلال ساعة عبر الحدائق. إنها مدينة عظيمة على ضفة النيل، وبلاق فى اللغة العربية بمعنى (١).

وهى مدينة يمتد عمرانها طولا من الجنوب إلى الغرب ألفين وخمسمائة قدم، وعرضها فى بعض المواضع سبعمائة قدم والبعض الآخر ثمانمائة قدم وبعض آخر ثلاثمائة قدم، وخمسمائة قدم. إنها مدينة متراحبة الأرجاء، ولوقوعها على ضفة النيل فهى مرفأ معمور، وبينها وبين مدينة القاهرة بسايتين وحقوق وافرة المحصول.

ويحكمها من يعرف بـ (رسالة أغاسى) أى أغا الرسالة من قبل الوالى، ويعاونه مائة من رجاله، ويتعين عليه أن يرسل إلى الباشا سنويا عشرين كيسا، كما أنه يحصل لنفسه عشرين كيسا مصريا.

ومن هذا الميناء وحتى دمياط ورشيد وإسنا وأسوان ١٠٠٠٠ سفينة مختلفة الأحجام مسجلة فى دفتر أغا الرسالة، وجميع رؤساء هذه السفن تحت نفوذه، ويحملون الغلال الأميرية من الصعيد العالى ويخزنونها فى (أبناز يوسف) أى مخزن يوسف، وهذه هى مهمة حاكم مدينة بولاق.

أما معرف البحرين فهو صاحب السيطرة على جميع القوارب، وتمضى السفن إلى ولاية الصعيد بدفاته وتأتى من هناك بالغلل وهو نائب قاضى عسكر مصر يعاونه ثلاثمائة من رجاله، ومن قبل دفتر دار مصر يحصل أمين الجمرك المال السلطانى مع مائتين من رجاله وهو ملتزم بتوريد كيس عن كل يوم. وهو يباشر مهامه من تكية عظيمة للانكشارية مواجهة للجمرك، وفى معيته ضابط من أوجاق الانكشارية

(١) يابض فى الأصل.

هذه هي الخانات الضخمة التي تشبه القلاع، والخانات الأخرى يتألف الواحد منها من مائة حجرة أو مائة وخمسين، وفيها تجار كبار تقدر ثروة كل واحد منهم بخزانة مصرية، ولهم شركاء في الهند، واليمن والسند، وعدن، وأوروبا، وبلاد الترك.

وفضلاً عن هذه الخانات فإنه يوجد مائتا مخزن للغلال على ضفة النيل، اثنا عشر مخزناً منها مخازن أميرية وفيها تحفظ غلال مكة والمدينة، فهناك الشونة الكبرى، والشونة الصغرى، وشونة الديشة الكبرى والصغرى، ومخزن المحمدية، وشونة المرادية، ومخزن الخاصكية، وقد أنشأت محظية السلطان محمد الرابع - فاتح قمانجه وقنديه - مستشفى، ودار ضيافة، ومبرة لتوزيع الطعام، ولحفظ ما فيها من غلال بني أمين الشعير مصطفى أفندي شونة عظيمة كالقلعة في بولاق، وهو مخزن تجلب عشرة مدافع لحصاره شهراً، ومحيطه ستمائة قدم.

وفي مدينة بولاق ٦ حمامات، منها حمام سنان باشا على ضفة النيل، ويصعد إليه بسلم من ست درجات، وهو حمام جميل على الطراز التركي، وحمام (١) الذي بني حديثاً، إنه حمام لطيف إلى أبعد حد ذو ماء حار، وحمام (٢).

وفي بولاق كذلك ٦٠٠ دكان، ولكن ليس فيها سوق للأقمشة، وسوق سنان باشا لها بابان من الحديد، وتضم ٢٠٠ دكان، ويتوسطها طريق رئيسي، وبها من كل شيء ثمين، كما أن فيها ٢٠ مقهى سلطانياً جميلاً، وفيها يستريح جميع التجار، وجميع أسواق بولاق مزدحمة إلى حد جد بعيد، فهي بحر من البشر يتزاحم فيه الناس بالمناسك، لأن تجار الأقاليم السبعة يتوافدون على هذا المرفأ، ويجلبون معهم سلع وبضائع بلادهم. وفي كل عام يأتي إلى هذا المرفأ ١٠٠٠٠ من السفن والقوارب تحمل السلع من بلاد الترك، وبلاد الفونج والنيل. إنه مرفأ جميع الولايات، وكل سكان بولاق من التجار وصناعي السفن. وفي بولاق تتوفر جميع الغلال وصنوف المأكولات والمشروبات، والأخشاب. إنها مرفأ الربح والكسب.

دار صناعة السفن السلطانية

تقع على رأس مرفأ بولاق، ويحيط بها سور كسور القلعة، ويبلغ محيطها ١٠٠٠ قدم، وهى مملوءة بأخشاب البناء، إنها مهمات أرسلها سلطان العثمانيين عتادا لليمن، وبها الامين الذى يخضع لرياسة قبودان السويس وأربعون من الكتبة، وناظر، وعمال المخازن، والحراس، والبوابون. إنها بناء مستطيل الشكل مكشوف، وتضم ما لا يحصى كثرة من الآلات والأدوات والمهمات، كما أن فيها مخازن يقدر ما فيها بما فى خزائن مصر من مال. وتكتظ هذه الدار بآلات من النحاس والرصاص والقصدير والحديد والمسامير ومدافع وقذائف، ولها بابان مرتفعان أحدهما يفتح على الجنوب حيث الياسة، والآخر على ضفة النيل.

وعندما صدرت الأوامر إلى كتخدا إبراهيم باشا بغزو اليمن قدم إلى هذه الدار مرارا ليعاين هذه المهمات والمواد وأقام عند الباب المظل على النيل قصرا عظيما يستريح فيه، لا يشبهه فى بولاق إلا قصر السبتية، وأمر ببناء حجرات متعددة ومطابخ ومخازن للطعام فى ذلك القصر وكان له متعة الملوك، وأعد العدة للحرب.

قصر السبتية

يقع نهاية الطرف الشمالى من مدينة بولاق، إنه قصر عال يشبه قصر الخورنق، وفيه قاعات ذات أحواض وشادروانات، وهو قصر فخيم له مظل على النيل، ويأتى إليه جميع الوزراء مرة فى كل أسبوع لتسليم النسيم العليل، لأن جو بولاق لطيف إلى حد بعيد، لذا فوجه أهل بولاق وردية اللون، وذريتهم كثيرة، وهم يلدون التوائم بأمر الله. إنهم أهل شوق وذوق وتوحيد. وتنتشر الحدائق هنا وهناك، وسوف نذكر أولياء الله فيها وأضرحتهم.

الفصل الثانى والأربعون

أوصاف مصيف مدينة السلطان قايتباى

كان إنسانا ذواقة، ميالا للترف، ولوعا بالصيد والسقنص والفروسية، ولذلك كان يطيب له جو هذه المدينة فعمرها. ففى مصر ما يعرف بأيام الخماسين وهى أيام تدوم خمسين يوما وتصيب الناس فى جنوب مصر. والعياذ بالله - بالنحس والقذارة والأمراض المختلفة.

ويقضى الناس خمسين يوما فى خمول وإعياء وعناء ويتفشى فيهم الطاعون وتسوء أحوالهم أيما سوء، وينفجر مخ الأجنة فى بطون أمهاتهم فى شهرهم الخامس ويتوفون، وتسقط أسنان الشيوخ وحواجيبهم، ومنهم من يموت ومن تكتب له النجاة.

لقد دعا سيدنا موسى على قوم فرعون فنزل بهم البلاء خمسين يوما. إنها أيام خوفهم التى يعبرون عنها قائلين: «آه خناق هنم خماسين».

وفى هذه الأيام يسعد باشا مصر لأن كثيرا من القرى تصبح قرى محلولة^(١) ويتحصل له منها مال كثير.

ولكن من حكمة الله أن هذه الاوقات العصية فى مصر وهى أيام الخماسين تصادف موسم الربيع فى بلاد الترك ويا لها من حكمة عجيبة.

وكان السلطان قايتباى يقيم فى ذلك المكان ستة أشهر لتلافى قذارة أيام الخماسين، ولذلك صرف همه فى تعمير هذا المصيف. ومصيف قايتباى الآن مكان نزّه طيب النسيم وتشكل كل من القاهرة وبولاق ومصيف قايتباى مثلث، وبين كل منها مسيرة ساعة، وكلها حدائق عامرة ومن خارج باب الناصر- فى الجهة الشرقية للقاهرة- وحتى العادلية طريق اسطنبول وطريق الحج، ويقع مصيف قايتباى على هذا الطريق الرئيسى، وعلى جانبى هذا الطريق كان يوجد ١٠٠٠٠ قصر فخم، ومنذ أن دخلت مصر فى حوزة العثمانيين انقرض قوم الشراكسة وتخرت قصورهم فى قايتباى هذه، ولم يبق منها

(١) محلولة: بمعنى شاغرة حُلّت إدارتها وخرجت من التزام ملتزمها.

إلا أحد عشر قصرا، وما يقرب من ١٠٠٠ دار من ديار الفقراء و ٧٠ دكانا وحمام واحد، و ٧٠ محرابا، و ١٧ جامعا سلطانيا عظيم البناء، ونتحدث عنها الآن.

جامع السلطان قايتباي

أكثر الجوامع عمراننا وزينة، وهو جامع علوى يصدر إليه بسلم حجرى من ثمانى درجات، ولا أعمدة فيه، وله سقف منقوش مزخرف يقوم على سرادقات، ونوافذه من رجاج، وجدرانه الأربعة من أسفلها إلى أعلاها مكسوة بأحجار البشم الحرقانى والرخام المتنوع، ومنبر هذا الجامع محلى بالصدف لم يصنع مثله صانع بارع قط، ومحرابه جميل هندى الطراز، ومقصورة المؤذن غاية فى مهارة صنعها، وأرضيته مرصوفة بأحجار عين الطير، كما يزدان الجامع بصنوف الثريات والقناديل الثمينة. ويتصل بهذا الجامع ضريح قبة عالية من الحجر وهو مئوى السلطان قايتباي وهو ضريح منور بسطت فيه بسط ثمانية متنوعة.

مناقب أثر قدم النبى (صلى الله عليه وسلم)

وفى هذه التكية حجر عليه أثر قدم النبى ﷺ حتى إنه عندما بنى السلطان أحمد^(١) من سلاطين آل عثمان جامع الجديده، وشى واش قائلا له: إن فى ضريح قايتباي أثر قدم النبى ﷺ، وقد وجد عند العرب قبل ذلك، ويليق بجامع مولاي السلطان. وكان لهذا من قوله وقعه فى نفس السلطان، فأرسل فى التو أمرا مع من يسمى (مراد الرئيس) إلى وزير مصر، وعندما حاولوا اقتلاع الأثر من ضريح قايتباي عصفت ريح عاتية وقصف الرعد ولمع البرق، فأنصرفوا عنه دون أن يقتلعوه، وعرضوا ما حدث على السلطان، فأصدر أمرا خاصا أرسله مع أحد رؤساء بوابى الباب العالى، وتلوا سورة الأنعام ألف مرة فى ضريح قايتباي وحمل (مراد الرئيس) القدم الشريفة إلى الإسكندرية فى سفينة وكابد فى ذلك ألوانا من المشقة والعناء، وبعد سبعة أشهر بلغ الخبر السلطان أحمد بوصول القدم الشريفة فأرسلها إلى جامع أبى أيوب الانصارى فى موكب عظيم من الجنده.

(١) يقصد السلطان العثمانى أحمد الاول ١٦٠٣ : ١٦١٧ م = ١٠١٢ : ١٠٢٧ هـ

وفى الصباح خرج جميع أهل اسطنبول رجالا ونساء شيوخا وشبابا متظرين وصول القدم الشريفة، وانطلق السلطان أحمد، بناء على القانون السلطاني، فى موكب عظيم إلى جامع أبى أيوب الأنصارى، ومسح بوجهه القدم الشريفة، ووضعها على رأسه وأنشد على البديهة هذه الأبيات وكأنها الدر:

ما ضر لو جعلت على رأسى كالتاج على الدوام
أثر قدم النبى خير الأنام
وردة روضة الأنبياء صاحب هذه القدم
أحمد قدم المصطفى لمسح وجهك بها تقدم

وتغنى السلطان أحمد بهذا الشعر، وقد لحن هذا الشعر الدرويش (عمر الكلشنى) فى مقام البنجكاه فى دار أستاذنا (باباى عالم سلطان)، وأضافها إلى التسيح فى ليالى رمضان، لقد كانت شيئاً بديعاً، ثم قام السلطان أحمد فى موكب كأنه البحر يحمل حجر قدم النبى فى حضنه وسلمه إلى نقيب الأشراف، ولما دخل به اسطنبول رفع الناس أصواتهم قائلين: شفاعة يارسول الله. وتجمع الناس مزدحمين حول نقيب الأشراف حتى ضاق بهم فأمر الجند فمنعهم من الاقتراب من القدم الشريفة، ووصلت القدم الشريفة من مسجد أبى أيوب الأنصارى إلى اسطنبول والناس على تلك الحال.

فى بيان الرؤيا التى رآها السلطان أحمد

بخصوص قدم النبى (صلى الله عليه وسلم)

وفى ليلة وصول أثر قدم النبى ﷺ من أبى أيوب الأنصارى إلى اسطنبول رأى السلطان أحمد فيما يرى النائم أن ملوك الإسلام قاطبة اجتمعوا فى ديوان، وكان النبى ﷺ يرأس الديوان فوقف السلطان قايتباى وقال: يارسول الله استنادا إلى شرعك المبين أشكوا إليك السلطان أحمد من سلاطين آل عثمان، أقم عليه الدعوى استنادا إلى شرعك الشريف.

فقال رسول الله ﷺ فى الحال: إن أحمد من أمتى وقد خدمنى كما خدم البيت الشريف. ونادى عليه قائلا: تعال يا أحمد. فجاء السلطان أحمد قائلا: ليك يا رسول

الله، ومثل بين يدي سيد الكونين وقال: السلام عليك يا رسول الله. فرد عليه ﷺ قائلاً: وعليك السلام يا أحمد إن ثمة من يشكون منك، لتكن مرافعة شرعية مع خصمك، ووقف السلطان أحمد إلى جانب قايتباي الأسفل وقال ﷺ: أنت حي يا أحمد فقف إلى جانبه الأعلى، فوقف السلطان أحمد فوقه فقال ﷺ: أقم دعواك يا قايتباي، فقال قايتباي: يا رسول الله لقد كنت مجاهدا في سبيل الله وبسنت بمال الغزو ثمانمائة جامع كما تعلم، كما بنيت جامعا آخر ليكون مثوى لى واشترت رسم قدمك الشريفة من سيد على الأبطحي من العرق الطاهر بأربعين ألف دينار، وهياته في صندوق من الذهب ليوضع في ضريحى حتى إذا جاء من يزوره زارنى، وبذلك أنال مثوبة الفاتحة آلاف المرات، فتغمرنى الرحمات، لكن منذ أن سرق هذا الظالم القدم الشريفة لم أر رحمة لى، والأمر أمرك يا رسول الله، وعندئذ قال ﷺ رداً عليه: يا أحمد ماذا تقول؟ فقال السلطان أحمد: نعم يا رسول الله أنا اليوم موكل بالحرمين الشريفين، ولقد أقام عبدك وأخى قايتباي عدة جوامع له، تخرب جامع على مر الأيام، وقد تنامى إلى علمى أن أثر القدم الشريفة بين الفلاحين الفسقة غير الإطهار، وقد تراكت عليه الرمال، فبحكم توليتى ومحبتى لك أمرت بإرساله إلى بلاد الترك وسط مظاهر التعظيم والتكريم، ووضعت فى جامعى. والأمر الآن لك يا سيد الكونين ثم لزم السلطان أحمد الصمت. فقال قايتباي فى الترو واللحظة: بما أنك كنت متولياً نزيهاً لماذا لم تعمر أوقافى حين عايتها، لقد أودعت ريعها فى الخزانة، ولم يبق من أوقافى إلا عشر عامرة.

فقال جميع ملوك السلف: يا رسول الله منذ أن دخلت مصر فى حوزة آل عثمان، خربوا جميع أوقافنا وضموا أموالنا إلى المال الأميرى. وبسطوا إليه الرجاء أن يأخذ مصر من حوزة العثمانيين ويدخلها فى حوزة دولة أخرى.

فقال ﷺ: كلا إن هؤلاء - بعون الله - إلى أن يظهر المهدي ويقدّر ما فى آية الكرسي من حروف «الله لا إله إلا هو...» حتى إلى يادته - سيكون للعثمانيين سلاطين يملكون مصر وجميع بلاد الكفر، ولن يبق على وجه الأرض كافر، وسوف يعضون إلى أرض الدنيا الجديدة، وبعد ذلك تظهر أشراط الساعة.

ولكن يا أحمد إن في ذلك حكمة، وإن لى عشاقا مساكين يعفرون وجوههم على الحجر الذى يحمل أثر قدمى، فينالون مرادهم، ولقد نلت أنت الثواب لأن الدال على الخير كفاعله، فبادر بإرسال أثر قدمى الذى اشتراه قايتباى بمال الغزو إلى ضريحه فى مصر، وإلا فانت وما تشاء.

وانفض المجلس، فهب السلطان أحمد من نومه، فدعى إلى مجلسه شيخ الإسلام زكريا أفندى ونقيب الأشراف قدسى أفندى وقره سنبل أفندى وأستاذنا أوليا أفندى وأسكودارى محمد أفندى ووالدى الدرويش محمد ظللى، والدرويش عمر الكلشنى وقص عليهم جميعا رؤياه. فقالوا له: أرسل وقف الله إلى موضعه. وعندئذ أخرج السلطان قطارا من الفضة الخالصة، وكان والدى فى ذلك الوقت رئيس صاغة الباب العالى، فقام بصنع صندوق هو تحفة فنية ووشاه بالينا والذهب والفضة ليوضع فيه الأثر، وكتب عليه بخط ذهبي أبياتا من الشعر، وبعد أن فرغ من ذلك سلمه ثانية إلى (مراد الرئيس)، وكان ذلك فى وقت مناسب، إن أثر قدم النبى الذى لم يصل اسطنبول إلا بعد سبعة أشهر بعد مكابدة ألوان المشقة والعناء بلغ الإسكندرية فى سبعة أيام، وأحضر إلى القاهرة فى يوم واحد، وعندئذ حمله أعيان القاهرة فى موكب عظيم إلى ضريح قايتباى، ولله الحمد فقد مسحت أنا الضعيف وجهى بأثر قدم النبى ﷺ، ورأيت التحفة التى صنعها والدى وعلى هذا الصندوق خط أبى وهو تاريخ مسطور بالذهب والفضة وهو:

وهذه الايات كتبها أبى بالفضة الخالصة.

ريارة موطنى القدم المكرم	بشوق حضرة سلطان أحمد
على أقدام أقدام فقدم	فحركه بجاذبة اشتياق
فقال له تقدم خير مقدم	وسيره إلى قسطنطينية
وتعظيما لصاحبه المعظم	وادخل داره باليمن حبا
عليه ربنا صلى وسلم	حبيب الله سيدنا محمد
إلى تلقاء موضعه المقدم	وراجعه بإعزاز عظيم
وقدمه على من تقدم	إلهى عمر سلطان أحمد
له الدرجات العلا فى الأفلاك سلم	بحرمة صاحب القدم العلا

وتجاه أثر قدم النسي صندوق بداخله أثر قدم النسي وهو كذلك قدما وداخل الصندوق يمتلئ بالكافور والمسك والعنبر الخالص، وفي هذا الضريح سجادة مبسوطة على الجدار، نقش عليها فنان بارع أبياتا من الشعر، كل من شاهدها قال إنها كرامة، ويمسح جميع الزوار وجوههم وعيونهم على المسك والعنبر وماء الورد الموجود في ذلك الصندوق ويترحمون على السلطان قايتباي.

إنه ضريح بديع وجامع عظيم منور، بيد أن ليس لهذا الجامع حرم، وله منارة عالية من ثلاث طبقات، كما أن له سبيلا، ومكتب صبيان، ومدرسة، ودار قراء، ومبرة لإطعام السعوم والخواص، وخان لاستضافة الضيوف، وخان للمجاورين وهو خان كالقلعة، يضم ٢٠٠ حجرة، إلا أن أحدا من الأغنياء لم يستطع البقاء في هذا الخان خوفا من جماعات اللصوص، ويسكنه الفقراء، وفيه ١٠ دكانا. إنه وقف معمور، وكان السلطان قايتباي سلطانا عظيم الشأن، ولقد حاسبت ناظر أوقافه ذات مرة، ولهذا الجامع ميزانية قدرها عشرة أكياس تحصل من القرى الموقوفة عليه، وله ٣٠٠ يقومون على خدمته.

وفي كل ولاية فتحتها السلطان قايتباي أقام جامعا أو أكثر، وإلى الآن تتلى فيها الخطبة له، لقد أقام هذا السلطان ٧٠٠ جامع، وكم له من آلاف المؤسسات الخيرية، كما أن له ٣٠٠ مؤسسة خيرية في مكة المكرمة. رحمة الله عليه. وعلى مقربة من هذا الجامع:

جامع السلطان هرج بن جرقوق

يلغ طوله ١٨٠ قدما، وعرضه ١٢٠، له سقف مذهب أرزق يقوم على ٣٨ عمودا، ويتوسط حرمه حديقة جميلة تزدان بالنخيل، وأشجار النبق، كما أن في حرمه مiazza. إنه جامع عظيم غاية في الجمال، ولوقوعه في صحراء لا يؤمه كثير من المصلين، وله منارتان عاليتان، لا يستطيع أى نحاح في يومنا هذا أن يضرب بالفأس رخاهما، وكلتاهما في شكل القلم، وتتكون من ثلاث طبقات.

وفى جنب هذا الجامع الأيسر باب عليه كتابة هي قوله - عز من قائل -: بسم الله الله الرحمن الرحيم ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، وتاريخ مرقوم هو: «أمر بإنشاء هذه التربة بفضل الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر أبو السعادة فرج بن السلطان برقوق الشهيد تغمده الله برحمته وأسكنه الجنة يا رب العالمين، وكان الفراغ من هذا المكان المبارك في سنة ست مائة».

وعلى جانبي هذا الجامع قبتان متشابهتان منقوشتان من حجر، دفن تحتهما السلطان برقوق وأولاده، ولا وجود لجامع كتب فيه آيات قرآنية بخط بدیع كما في هذا الجامع، بل إن فيه أجزاء كبيرة من كتاب الله المبين، ويسمون هذه الكتابات (كتابات الفتاة)، فقد سطرته فتاة في الثانية عشرة من عمرها، وخطها بدیع إلى حد جد بعيد، ولأنها كانت ابنة سلطان دفنت في هذا الضريح. إنه جامع منور طاهر.

جامع السلطان الأشرف

جامع علوی يقع على مقربة من جامع السلطان فرج بن برقوق، وهذا الجامع بنى بأكمله بالحجر، وعلى بابه منارة صغيرة، إنه جامع منور صنعت جميع نوافذه من النحاس الأصفر وله سبيل وسواقٍ وتكية ومكتب صبيان، وما يقرب من مائة بيت، وعلى مقربة منه:

جامع الأمير الكبير

وهو كذلك جامع علوی، لا حرم له، وله منارة من ثلاث طبقات، وهذا الجامع يماثل في تصميمه تصميم جامع السلطان قايتباي، وعلى أحد أبوابه تاريخه وهو: سنة ٩٢٠. ويتصل بهذا الجامع ضريح ذو قبة عالية دفن فيها الأمير الكبير، والله أعلم. وقد بنى هذا الجامع بالحجارة، وله قبة ذات زخارف في داخلها وخارجها وهي مرتفعة ضاربة في السماء لا تشبهها في القاهرة قبة أخرى، وجدران الجامع مكسوة بأحجار جميلة ذات ألوان، وإلى جانبه سبيل يعلوه مكتب صبيان، وقبالة عشرون دكانا، وخان فيه ما يقرب من مائة حجرة، وكل المقيمين في هذا الخان من المتزوجين، ولصق هذا الجامع:

جامع السلطان إينال

جامع علوى لا حرم له، ولا وجود فى داخله لاعمدة، له سقف مذهب ذو زخارف يقوم على عقود، ومحرايه من قطع صغيرة من الرخام، ومنبره من خشب، كما أن أرضيته مرصوفة بالرخام، وعلى نوافذه بلور صاف. ولما رعمه وأصلحه المرحوم قوائدا قجى كتحدا بك أصبح وكأنه قصر من قصور الجنة، وجدرانته من الداخل والخارج مزخرفة من أولها إلى آخرها وعلى بابيه منارة رشيقة ذات زخارف، كأنها شجرة سرو فى بستان. إلا أن هذا الجامع ليس كبيرا كسائر الجوامع، بيد أنه يبلغ غاية الغايات فى الروعة والجمال.

وعلى بابيه الأيسر الواقع على الطريق العام لوح من رخام، حفرت فيه آية قرآنية كريمة هى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

كتب بعدها: «أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الأشرف أبو النصر إينال عز نصره تاريخ: ربيع الأول عام ثمانمائة وستين».

وقبالة هذا الجامع طريق رئيسى يقع عليه

جامع السلطان الغورى

كان مبنى عظيما، إلا أن الغورى دخل فى حرب مع السلطان سليم، وهلك واختفى أثره فى هذه الحرب، ولذلك لم يكتمل بناء هذا الجامع، ولو كان قد قدر لبناؤه أن يكتمل لما كان فى أرض الإسلام جامعا يشبهه.

جامع السلطان جقماق

إنه كذلك جامع غاية فى الجمال والروعة بنى بتمامه من الحجر، ومنارته منخفضة من طبقتين، لكن المصلين فيه قليل.

جامع السلطان فرج

جامع سلطانى علوى يقع على الطريق الرئيسى، ليس كبيرا إلا أنه غاية فى الجمال والروعة وكأنه قصر فى إرم ذات العماد، وهو مزخرف فى داخله وخارجه، ومحرايه من الرخام المنحوت ومنبره من الخشب، إنه كذلك روعة، وقضبان جميع نوافذه من

النحاس الأصفر وهي مظلة على الطريق العام، كما أن له منارتان رشيقتان متشابهتان، ولهذا الجامع باب يتجه إلى الشرق، وهو باب مزخرف ذو عقود وبجواره (تابخانه) أى حجره يوقد فيها تنور أو مدفأة، يستريح فيها بعض أعيان القاهرة.

وقبالة هذا الجامع طريق قصور عالية وقاعات متعددة يأتى إليها أعيان مصر مرتين فى الأسبوع لينعموا بالراحة والمتعة، وهناك يمارسون الرماية بالسهام والبنادق، ويلعبون بالجرید وإضافة إلى حوض عظيم مساحته عشرة أقدام فى مثلها.

ويتصل بهذه المصطبة وكالة البهار أى التوابل، وكان يحصل فيها رسوم جمرك التوابل الواردة من الهند واليمن. وذلك فى عهد مقصود باشا. وهذه الوكالة تتألف من ٢٠٠ حجرة، ومن شاهدها من بعيد خالها قلعة.

جامع السلطان طومان باى (أى العادلية)

جامع معلق، يصعد إليه بسلم من عشرة درجات، ولا أعمدة فى داخله ولا خارجه، وله سقف ذو زخارف يقوم على أربعة عقود، وجميع جدران هذا الجامع مكسوة بأحجار مختلفة الألوان، ومحرابه من الرخام، ومنبره من الخشب الصنوبر، وللمؤذن مقصورة تقوم على عودين، وهي متقنة الصنع، وأرضية الجامع مرصوفة برخام مختلف الأنواع، وكل نوافذه من النحاس الأصفر، وله بابان مقرنصان: أحدهما فى جدار المحراب، والآخر باب القبلة.

ولا حرم لهذا الجامع، ومنارته جميلة من ثلاث طبقات. ولقد رآه ناظره فأصبح وكأنه قصر فى جنة الخلد.

وعلى يمينه هذا الجامع ضريح ذو قبة عالية، دفن تحتها السلطان طومان باى فى تابوت يحمل تاريخا هو: (سنة ست وتسعمائة).

وبعد الحرب التى نشبت بين السلطان سليم والغورى آلت السلطنة إلى طومانباى هذا، ونشب القتال بينه وبين سليم تسعة أشهر، وفى النهاية قبض عليه سليم، وصلبه على (باب زويلة)، وصلى عليه سليم صلاة الجنائز، ودفنه فى هذا الضريح.

ويعلو هذا الضريح قبة منقوشة داخلها وخارجها، وطول الحجر فيها ذراع، والقبة ليست مكسوة بالرصاص ولا الجص، ولهذا الضريح فناء يحيط به جدران كجدران القلعة، وتضم ما يربو على مائة حجرة، وقاعة ودار للضيافة، وزوايا، وقصور عالية لاستراحة الباشوات، ومخازن للأطعمة ومطبخ، ومقهى، وساقية، وحوض، وأسبلة ثلاثة، وخارج هذه الأسوار قصر عال لطومان باى يسمى قصر العادلية، وكان طومان باى يمشى إلى هذا القصر مرة فى الأسبوع، يعقد فيه ديوانا لإقامة العدل بين الناس، إنه مكان للعدالة، ومبرة.

جامع السلطان الطويل

جامع ذو منارة، ولكنى لم أدخله ولم أشاهد ما فيه، إلا أنى فيما بعد دخلته وصليت فيه ودونت معلومات عنه تيقنتها.

وكم فى مصيف قايتباى هذا من جوامع ومنارات ومساجد ومدارس وتكايا وخانات وحمامات وأسبلة وسواقٍ ومؤسسات خيرية كلها تخرب، وكانت قديما مدينة عظيمة تعادل مدينة القاهرة لي عمرها الله.

ومصيف قايتباى هذا وإن كان خربا، إلا أن جوه لطيف إلى حد جد بعيد، والآن يسكنه الذواق من الناس مع أبنائهم فى أيام الخماسين المشتومة، وتدوم لهم الإقامة فيه شهر أو أكثر، ويولد لهم التوائم، ويأتون بالمرضعات لأبنائهم فتصبح عيونهم كعيون الغزلان من تنسم نسيم هذا المصيف، أما من يولد لهم فى مدينة القاهرة فتصبح عيونهم مثل عيون أبناء العبيد وهذا الكلام فى مصر مثل يضرب أى أن أعينهم تصبح (جمروز).

وفى مصر أيام الخماسين إذا ما وقع الرجل على زوجته أولدها طفلا مصابا بصنوف الأمراض، والاجنة فى شهرهم الخامس أو السادس يتقترح أعلى أمخاخهم، ويخرج ما بداخلها مثل (البورة)، وتفوح منها رائحة تشبه رائحة الخل، ويهلك الجنين.

أما الاطفال الذين يربون فى مصيف قايتباى هذا فبمناى عن هذه الآفات.

إنه مصيف لطيف طيب الجو، ولذلك يشد إليه الرحال.

الفصل الثالث والأربعون

أوصاف مدينة (الفسطاط القديمة)

أى: مصر القديمة أم الدنيا العظيمة

كم من آلاف المجلدات، والكتب القيمة تتضمن أوصاف مصر القديمة، ووصف فيها استبحار عمرانها ولكنى أذكر ما شهدته بعين رأسى من مظاهر عمرانها. فبعد الطوفان عمر مدينة الفسطاط (البود بن قفط بن بيطار بن حام ابن سيدنا نوح النبى (عليه السلام) وكان أبو البود هذا أول من أجرى النيل أمام تلك المدينة، وفى تلك الحقبة من الزمن كان النيل يسمى (بلون)، وفى أيامنا هذه يسمى أهل النوبة النيل (جربلون)، وكانت الفسطاط مدينة عظيمة يمتد عمرانها من الغرب إلى الجنوب بقدر ثلاثة منازل، بيد أن (بخت نصر) خرب دمشق والقدس وبلبيس فى أرض حاسان وكذلك الفسطاط، ثم عمرت مرة أخرى، وفى عصر الرسول ﷺ تحالف (هرقل) قيصر الروم مع الأسبان والفرنجية، وفى فيضان النيل دخلوا مصر من دمياط ورشيد بألف سفينة، وانتزع اليونان مصر عنوة من يد الموقوس، وأوقفوها على كنيسة (آيا صوفيا) بالقسطنطينية.

أما أول من بنى مصر القديمة (نقراوش مصرايم) أحد أبناء سيدنا آدم عليه السلام.

وبعد طوفان نوح تزوج بيطار بن حام بن نوح عليه السلام بابنة (قليمون الكاهن)، وقدم العريش بإذن من نوح (عليه السلام)، ثم قدم بعد ذلك إلى بلبيس ومصر، وما عمروه المذكور آنفاً، لكنى سوف أذكر ما هى عليه الآن.

إنها مدينة قديمة على بعد ساعة من القاهرة فى اتجاه الجنوب على ساحل النيل تمتد من ساقية الغورى إلى نقطة تحصيل الجمارك، وهى تمتد من الجنوب إلى الشمال بمقدار ألف وثمانمائة قدم، وفيها قصور عالية من خمسة طوابق أو أكثر.

وعرض هذه المدينة يبلغ ثلاثمائة أو أربعمائة أو خمسمائة قدم، ويبلغ فى بعض الجهات ستمائة قدم، وتطل أماكن جميلة فيها على النيل.

ومن أجل أن يشاهد أعيان مصر (كسر النيل) أقاموا قصورا متعددة الطوابق والقاعات والمظلات، وحدائق، ونافورات وأحواضا، فكان هذه القصور قصور فى إرم ذات العماد يعجز عنها الوصف. ومنازل الأثرياء والفقراء كبيرها وصغيرها ٤٦٠٠ منزل، ولوقوعها على النيل لها مرائى، وتأتى إليها ١٠٠٠٠ سفينة كبيرة وصغيرة من بلاد الفونج، ولايات صاى والنوبة والواحات وترسو هذه السفن على ساحل مصر القديمة، وتسلم إلى الحكام.

وفى عام ٢٥ كان بمصر القديمة هذه ٣٦٠٠٠ مسجد، و ٨٠٠٠ شارع مزدحم، و ١١٧٠ حماما خاصا وعاما، و ١٠٠٠٠٠٠ حانوت.

وفى عام ٤٢٨ نشب القتال بين عبيد المستنصر بالله الفاطمى فى مصر، وهلك الجند قاطبة وفى هذا العام أصاب مصر قحط عظيم، وغلت الأسعار وتفشى الطاعون، فاقبل جميع أهل الفسطاط على المستنصر بالله أبى تميم سعد بن الظاهر الأعز لدين الله أبى الحسن على، وهو أحد صفوة الفاطميين، وتقدموا إليه بالشكوى. فوجه المستنصر بعشرة رجال من أهل الفسطاط إلى القسطنطينية لطلب المدد (أى الغلال) من الأمير أرتوغرول أمير أحد الثغور التابعة للسلاجقة، فمضوا إلى مدينة (أبا صولون)، بيد أن المستنصر توفى وسفن الغلال فى طريقها إلى مصر، فارتدت هذه السفن إلى بلاد الترك، وتخربت مصر وأصبحت خاوية على عروشها. ولكن وجه ببعض الرجال إلى أرتوغول ليطلب من القيصر الغلال لمصر، كما بسط أرتوغرول رجاءه إلى القيصر بأن يسمح له بأداء صلاة الجمعة فى دير آيا صوفيا مع الرسول الذى قدم من مصر، والتقى هذا الرسول فى ثلاثمائة من رجاله بقسطنطين، وأجيب إلى رجائه، وأدى صلاة الجمعة هو ورجاله فى كنيسة آيا صوفيا، وقرأوا الخطبة باسم القائم بأمر الله الفاطمى.

إلا أنه قبل أن تصل الغلال إلى مصر، تحت وطأة المجاعة، فتح القائم بأمر الله (كنيسة القيامة) فى بيت المقدس، وتنامى إلى سمع الملوك والقيصرة أنه غنم ما يعادل مائة خزانة مصرية، فأبحرت ألف سفينة من سفن الصليبيين من سلفاك وأغارت على قلاع الإسلام فى طرابلس الشام وبيروت وصيدا وعكا والرملة وأحكموا سيطرتهم عليها

واستعادوا ما اغتنمه القائم بأمر الله من كنيسة قمامة بيت المقدس وكانت فضيحة بكل ما تحمله الكلمة من معان.

وفي عام ٤٥٤ استولى الروم والفرنجية على مصر، وتفشى فيها الطاعون أعواما عشرة بتمامها، وشهدت الفسطاط هذا الخطب، وكى لا يستولى الصليبيين على الفسطاط ثانية قدم (جوهـر القائد) وزير المعز لدين الله الفاطمي من المغرب إلى سفح جبل المقطم الذي يبعد عن النيل مسيرة ساعة عام ٣٥٧، وجوهـر القائد هذا هو أول من بنى مصر الجديدة، وكان جوهـر القائد مملوكا لأبي المعز ولقبه بأبي الحسن وأصله غلام رومي، ثم رباه الطواشي (١).

وفي عام ٢٧ أصبح جوهـر القائد وزيرا للمعز، وفتح مدينة فاس في المغرب، وتلمسان ومراكش وطنجة والسودان وأسوان والحبشة واستولى على ممالك عشرين ملكا في اليمن والعراق وفارس والهند والصين، وذلك في ستة أعوام ثم قفل إلى المغرب، وبعد ذلك هبط مصر عام ٣٥٨ وبنى فيها مدينة القاهرة.

أما سبب تسمية مصر بالقاهرة فجاء فيه عدة روايات والصحيح أنه بينما كان جوهـر القائد يرأس أساس مدينة القاهرة علق المنجمون ناقوسا في جبل وذلك لرصد ساعة السعد حتى إذا رصدوها أرسى العمال ما في أيديهم من أحجار في أساسها، إلا أن «العبد يدبر والله يقدر» فجري قضاء الله بأن يحط غراب على ناقوس المنجمين وحينما نَقَرَ الناقوس ألقى البناؤون أساس مدينة مصر وكان الوقت وقت نحس من أوقات النجم المعروف بالقاهرة أي ما يعرف في اصطلاح المنجمين بكونك المريخ، وهو جلال الفلك، وبذلك لم ينقطع جريان الدماء والحروب والفتن في القاهرة، وبما أن وضع الأساس لهذه المدينة كان في طالع القاهرة سميت مدينة مصر بالقاهرة المعزية.

(١) بياض في الأصل.

حكام مصر العتيقة

يحكم مصر القديمة سبعة حكام:

أولهم: بك عظيم من بكوات مصر

وله من الأتباع ثلاثمائة جندي مدججون بالسلاح، ويقيم هذا البك فى قصر عظيم يباشر منه مهام الحكم وله فرقة موسيقى عسكرية (مهر) تعزف طيلة شهر بتمامه، ويقيم الولايم، وبعد شهر يتولى بك آخر منصبه، وهذا ما نص عليه القانون. وإذا ما سرق شىء من غاد أو رائج فى عهد محافظة بك من هؤلاء البكوات فالمسئولية واقعة عليه وكان لزاما عليه أن يقبض على اللص السارق على أى نحو كان، أو يدفع الغرامة ليعوض بها صاحب المال المسروق.

- و الثانى:

حاكم ينوب عن مولا مصر من قبل حاكم الشرع المبين، وراتبه ١٥٠ أقبه.

- و الثالث:

رئيس البوابين الذى يعين من قبل الباشا ويعاونه ١٠٠ رجل، ولأنه يشغل منصب الناظر أغا لانباز يوسف يرهب جانبه جميع الكتبة والأمناء والحمالين وحاملى التروس إنه منصب رفيع يشغله من له علم بالكتاب ويعرف بالاستقامة، وإذا ما خامر الشك أحد فى نزاهته صودر ماله.

- و الرابع:

إنه أمين الأنبار وهو مركز مرموق لماليك مصر، ويعاونه مائة من الأتباع، له الحكم على ألف من خدامه وجميع الفلاحين.

- و الخامس:

وهو جورجى من فرقة الانكشارية، ويحكم بمعاونة أربعين أو أكثر من الأتباع.

- و السادس:

إنه أمين الجمرك، ومهمته تحصيل الرسوم الجمركية على كل ما يطير فى الجو أو يدب على الأرض أو يسبح فى الماء.

وهو صوباشى مصر القديمة، ويقوم بمهام المحافظة على الأمن ليل نهار، ويصحبه ستون من القواسين.

- و الثامن:

وهو جوريجى من طائفة الانكشارية، يقوم بمهمة حفظ الأمن بمعاونة مائتى جندى مدجج بالسلاح. ولهذا الحاكم تكية جميلة على النيل يعجز الوصف عنها، والشمس لا تؤثر فيها فهي تكية فى ظلال أشجار عالية، ويجلب إليها السقاءون الماء من النيل ليل نهار، مما يجعل أرضها رطبة تحمى النفوس.

- و التاسع:

إنه أمين ساقية السلطان الغورى، وهو كذلك من جوريجى الانكشارية، ويقوم على صيانة الساقية مع سبعين أو ثمانين من رجاله، ويروى أرض مصر.

وصف قلعة مصر العتيقة

ذكر فتح المسلمين مصر من أيدي الكفار، وما حدث فيها بعد ذلك من المدن والأمصار. إن كل ما سجله جميع المؤرخين عن مصر مقصود به مصر القديمة، وبما أنها عمرت ثمانى مرات فإن لها ثمانية أسماء. كان اسمها فى البداية الفسطاط، والاسم الثانى (اموس)، واسمها الثالث (قصر الشمع) حيث كان لها برج مرتفع به مصباح مطلق، ومن عهد طوفان نوح عليه السلام إلى عهد سيدنا موسى والشمع متقد على الدوام، لذا سميت مدينة (قصر الشمع) ولا يزال أساس برجها هذا ظاهر للعيان.

ثم أقيمت مدينة عظيمة خارج مدينة الفسطاط سميت (مقر العسكر)، ولقد عمر هذه المدينة السلطان أبو العون عام ١٣٢، وأبو العون هذا هو ابن عبد الملك. ثم قدم أحمد بن طولون من بغداد عام ()^(١) فزاد فى عمران مصر، وسكن القصر الذى شيده أبو العون، وبنى ابن طولون مدينة جميلة سماها (القطائع)، وكانت تضم مائة ألف دار عظيمة. وكانت هذه المدينة حاضرة ملك أحمد بن طولون، ثم دالت دولة أحمد بن طولون، وتخربت مدينة القطائع وعندئذ قدم جوهر القائد فى جيش عظيم من بلاد

(١) بياض فى الأصل.

المغرب، وعندما بنى مدينة القاهرة كان قد تعاقب على حكم مصر ستة عشر ملكا من مغاربة وعجم، ومنهم من كان يسكن مدينة (مقر العسكر)، ومنهم من كان يسكن أطلال (مدينة القطائع).

وكان أول خلفائهم (محمد بن سليمان)، وكان كاتباً لأحمد بن طولون وعبدًا في ذات الوقت. وكان يلقب بالورد لأنه كان كاتباً للورد. وله في القاهرة الآن جامع. وقد انتزع (جوهر القائد) الذى قدم من بلاد المغرب، الملك من محمد بن سليمان هذا والسلطان أحمد آخر سلاطين الإخشيديين، وعندما أحكم قبضته على مصر كان قد مضى على قيام الدولة العباسية مائتان وخمسة وعشرون عاما، تلى ذلك أربعة وثلاثون عاما وعشرة أشهر وأربعة وعشرون يوما هى فترة حكم الإخشيديين التى انتهت بحكم أحمد بن على بن (١) الإخشيدى، وكان ذلك عام ٣٥٨.

ويزعم البعض أن ملكا يسمى (إبنى ارسلاوش) كان قد أقام قصرا عظيما فى موضع مدينة الفسطاط وكانت الشمس إذا ما انتقلت من برج إلى برج فى غرة كل شهر، أوقدوا النار تلك الليلة فوق هذا القصر، وبذلك كانوا يعرفون انتقال الشمس من برج إلى برج، ولذلك سميت هذه المدينة (أرسلاوش)، ومعناها فى العبرية بيت الشمس. ثم خرب (بخت النصر) هذه المدينة وظلت خمسمائة عام بتمامها خرابا يبابا، حتى ألحقت بمدينة أخرى سميت (مدينة يشكرقود) وهى سوق.

كما بنيت مدينة عظيمة على مقربة منها سموها (حماى قصوى)، ثم قدم (جوهر القائد) مصر من بلاد المغرب عام ٣٥٨ وهو مملوك للمعز لدين الله الفاطمى وشيد جوهر القائد هذا مصر الجديدة التى سمت (القاهرة المعزية)، وكان أحمد بن طولون قد شيد مدينة جميلة على مقربة من مدينة (٢).

وعندما كانت الغلبة للملوك الروم على ملوك القبط حكم مصر (أرجالس بن مقراطيس)، وبنى مدينة فى موضع مدينة الفسطاط (فسطه أرجاليس).

وعلى حد قول بعض المؤرخين أن من يدعى (حصنى كسرى جوش)، كان من ملوك الفرس المجوس، تولى على مصر بعد (بخت النصر)، بنى مدينة ضمها إلى مصر سميت (قبة الدخان) لأنه أقام فيها معبدا عظيما للنار، وآثار قباب معبد النار هذا ظاهرة خارج مدينة مصر القديمة إلى يومنا هذا، ويسكن حاكم مصر القديمة بالقرب من هذه القبة.

وبنى (اشمون بن قبطيم) مدينة فى سفح جبل المقطم سماها (أوطى طيس)، وفى نواحي الجزيرة مدينة تسمى (أترىب) نسبة إلى الملك (أترىب) الذى شيدها.

وبالقرب من مدينة مصر بنى الوزير (جيرون) مدينة (قندومه) للملكة (خروبا)، غير أن حاكما من هؤلاء لم يستطع بسط سيطرته على قلعة مصر القديمة، لأنه منذ عهد عمر بن الخطاب للقبط الذين يسكنون هذه القلعة عهد أمان، لا يستطيع أحد أن يتعرض لها أو يدخلها، إذ إن جميع رهبان القبط يسكنونها وكانت لهم فيها أديرة قديمة ويسكنها ما يقرب من ألف قبطى يقولون إنها مسكننا القديم. ودخل أديرتها دفن قبطيم، وقلبطين، وميخائيل، وميكائيل وطوطيس. وقلعتهم قلعة عتيقة خربة إلا أنهم رموها وأصلحوها خوفا من عادية اللصوص، صنعوا لها بابا صغيرا منخفضا يفتح على الجهة الغربية لا يدخل منه الفرس، إنما يدخل منه الحمار والماشى. ومحيط هذه القلعة يبلغ ١٠٠٠ قدم، وهذا الدير ديسر مرتفع يشبه برجاً عظيماً ويحيط بهذه القلعة خندق عميق، وهم يطهرونه فى كل عام.

أما البوابون فهم من الرهبان، وليس بينهم أحد سواهم، وكانت هذه القلعة قلعة عظيمة فى الزمان الخالى، وجدرانها وأسوارها ومزاغل برجها ظاهرة إلى يومنا هذا. إلا أن ما يسكنه القبط الآن فهو القلعة الداخلية وتقع فى الناحية القبلية من المدينة، وجوانبها الأربعة رملة وخرائب لكن ضواحيها فهى مدينة مصر القديمة المعمومة، وكان بها ٢٧٠ محرابا، و١٢ جامعا سلطانيا معمورا، وأعظم هذه الجوامع جامع عظيم كالقلعة يستجاب فيه الدعاء.

جامع عمرو بن العاص

سبق وصفه تفصيلا عند وصفنا للجوامع، وليس في مصر جامع يكبره له أربع منارات فالجوامع الأخرى منها ما له منارة، وما له اثنتان.

جامع السلطان محمد بن قلاوون

يقع بالقرب من ساقية الغورى، إنه جامع عجيب بالقرب من ضفة النيل، ومساحته ١١٠ قدم في مثلها، بيد أن جانبه القبلى منهدم، وأعمدته ساقطة على الأرض. وفى الجوانب الأربعة للحرم ٦٨ عمودا، تحمل سقفا عتيقا. وللجامع ثلاثة أبواب، ومنارتان وعلى جانبيه باب القبلة تاريخ مسطور بخط تبلغ مساحته قامة إنسان وهو: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر للدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون أعز الله أنصاره بمحمد وآله، وذلك فى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة).

جامع الأمير عابدين

يقع هذا الجامع على مقربة من الجمرك، قبالة (أم القياس)، إنه جامع لطيف على ضفة النيل، له قبة حجرية مستديرة تقوم على أربعة أعمدة. وهو مكشوف الوسط وعليه شبكة. وجدران الجامع من الداخل مكسوة من أولها إلى آخرها بالقيشاني، ومحرا به كذلك يحمل رخارفا من القاشاني، ومنبره من الخشب المزخرف، وعلى باب منبره تاريخ مسطور هو: (سنة ١٠٧٠). ولهذا الجامع منارة عالية تركية الطراز من طبقة واحدة. ونوافذه حديدية القضبان تطل على الطريق العام، إنها نوافذ لا نظير لها فيما جلب من نوافذ اسطنبول.

جامع محمد بن حسين الكوفى (ذو المنارة المائلة)

يقع داخل السوق، تخرب أحد جوانبه، وله منارة عالية مائلة، وقد بنيت هذه المنارة مائلة والله أعلم، إنها منارة غريبة وعجيبة، فهى لا تنهدم قط. وقد كتب على أبواب

جانبه الأيسر آية من آيات الذكر الحكيم هي: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾ [سورة التوبة ١٨]. وكتب بعد هذه الآية (محمد بن
حسين الكوفي سنة ستين وسبعمئة).

جامع السلطان جقمق

يقع هذا الجامع داخل سوق أوزون الطويل، ويسمى جامع الحسنات، إنه جامع
صغير له ثمانية وثلاثون عموداً منخفضة، تحمل سقفاً ذا زخارف.
وعلى جانبيه باب، وداخله على لوح في منبره تاريخ مسطور هو: (أمر بإنشاء هذا
الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الطاهر محمد بن أبي سعيد جقمق عز نصره بمحمد
وآله وصحبه أجمعين). ويعلو بابه منارة منخفضة.

جامع الملك الطاهر

يقع على مقربة من جامع السلطان جقمق، وله منارة، وبما أن المصلين فيه قليل بابه
مغلق على الدوام، ولذلك لم أدخله.
وعلاوة على هذه الجوامع المذكورة توجد الزوايا.

جامع الشيخ حسن السويدي

حينما كان زاوية تردد عليه كثير من المصلين ولذلك تحول إلى جامع، إنه جامع
جميل منور يقع داخل السوق.

وفي مدينة (مصر القديمة) ثلاث مدارس، و ٢٠ مكتباً للصبيان، وخمس تكايا، بيد
أنه لا وجود لتكية عظيمة مثل تكية الشيخ (على ياحى) بالقرب من الجمرك، لها أشجار
جميز ضخمة، ويزورها العوام والخواص، ولكن لا أوقاف لها.

وفي خمسة مواضع على ضفة النيل تكايا، إلا أنه ليس لهذه التكايا أبنية ولا
أوقاف، يؤمها عابرو السبيل والمجاورين للصلاة في ظلال الشجر، وكأنها رياض من
رياض الجنة. وقد أقام بعض فاعلي الخير محارِبَ وصفات لهذه التكايا، ولها من يقوم
على الخدمة فيها.

وفى إحدى هذه التكايا يجمع جورباجية الانكشارية الإتاوات من الغادى والرائح ممن يحملون السلع، إنها دار للمظالم، ليصرف الله شرها فلا نجاة لفقير دون أن يدفع نصف ما يحمله من سلع. وكان هذا المكان هو المكان الذى يحصل فيه فرعون الضرائب لتأمين التجارة فى مصر القديمة. وطالما كان الاقباط يخرجون عن حدود الأدب عند عبورهم من هذا المكان يمضون. إنه مكان له الشهرة فى الآفاق، وهو سيئة من سيئات فرعون التى أغرقت الدنيا بالظلم.

وكان قديما فى هذه المدينة ٧٠٠ حمام، والآن لا يوجد إلا حمام واحد فى السوق، وبها الآن كذلك ١١ وكالة، و ١٠ مقاه، أما فى مواسم (قطع النيل) فهم يزينون المقاهى المعطلة، ويعقدون فيها مجالس الأتس والغناء، كما أن بها ٣٨٠ حانوتا واسعا وكثير منها مغلق. ولا وجود فيها لسوق الأقمشة.

مخازن الغلال التى بناها يوسف الصديق - عليه السلام -

(أنبار يوسف)

تقع عند منتصف المدينة على ضفة النيل، وقد بناها يوسف الصديق عليه السلام. وقصة يوسف الصديق واردة فى كل كتب التاريخ، إلا أننا فى هذا المقام نجملها إجمالا لأن ذلك من ألزم اللوام:

لما كان الملك (الريان) ملكا لمصر، وقع يوسف الصديق فى الأسر وبيع فى مصر، فاشتره عزيز مصر، ولفرط عشق (زليخة) زوجة العزيز له افترت عليه كذبا، فزج به فى غياهب السجن، وطرح فى السجن معه كذلك فتان، يقول عز من قائل: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأَ بَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]، ففسر يوسف رؤيا أحدهم قائلا: سوف يصلبونك وفى تلك اللحظة جاء السجانون وأخرجوا هذا الفتى من السجن وصلبوه.

وخلاصة القول أنه عندما كان يوسف الصديق حبيسا فى سجنه اشتهر بحسن تأويله للرؤى.

بعد ذلك اتفق أن رأى الملك الريان رؤيا، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]. فآخرجوا يوسف من السجن، وفسر رؤيا الملك الريان قائلا: أيها الملك سيقع في البلاد قحط عظيم يدوم سبعة أعوام فأطلق الملك سراح يوسف الصديق من سجنه. وبدأ الملك يبنى مخازن الغلال بناء على رأى يوسف إلا أن الملك وافاه الأجل، وجرى قضاء الله بأن تزول الخلافة إلى يوسف على مر الأيام، فأنشأ هذه المخازن.

وقحطت مصر سبعة أعوام، وقحط مصر على عهد يوسف أمر مشهور، وكان ذلك هو السبب في بناء مخازن يوسف. وقد تغيرت معالم هذه المخازن لأنها دخلت في حورة آلاف الملوك وخرجت منها أما أساس بنائها في الأصل فكان الأرض، أما الآن فهي قلعتان مربعتان متقابلتان.

إنها مكان غريب وعجيب حقيق بالمشاهد وبتعبير العوام إنه أسطورة. وبلغ ارتفاع جدرانها أربعين ذراعا، إنها بناء من الآجر الأحمر كأنه سد الاسكندر، وغطيت بشبكة من الغاب، وإذا ما دخلها أحد أخذه شديد العجب. وبما أنها مكشوفة السطح فإن أسرابا من الحمام واليمام لا حد لها تحط عليها لتلتقط ما فيها من حب ثم تطير أسرابا، ومن عجب أن هذه الطير التي تبلغ مئات الآلاف تلتقط الحب منها ليل نهار إلا أن حبة منها لا تنقص، وذلك بفضل من الله.

حتى إنه قيل ذات مرة إن الغلال تنقص من أجل التقاط الطير تلك حباتها فأقاموا سقوفا لهذه المخازن لستر ما فيها، وفي تلك السنة أصاب مصر قحط شديد أشد كثيرا من القحط الذي أصاب مصر على عهد يوسف ففتحوا المخازن فما بقيت فيها حبة واحدة مما خزنوه، وأصبحت رمادا حالك السواد، وماتت على سقوفها مئات الآلاف من الطير، وكاد أهل مصر يأكل بعضهم بعضا من شدة الجوع فاجتمع العلماء والعارفون بالله وتشاوروا في الأمر واستقر رأيهم على هدم الأسقف التي أقيمت فوق المخازن، وإلى يومنا هذا وهذه المخازن مكشوفة.

وفى أول العام مضى وزير مصر وفى معيته جميع الامناء وأغوات الفرق السبع والدفتردار إلى أنبار يوسف (أى مخازن يوسف)، وذلك لمخاسبة أمين المخازن وعندئذ ظهر عجز قدره اثنا عشر ألف أردب كانت قد غرقت فى الماء والتقطتها الطيور فحسبت على المال السلطانى.

وداخل هذه المخازن (١) مائة ألف أردب من القمح، و (٢) مائة ألف أردب من البقول و (٣) مائة ألف أردب من الشعير، وهذه الغلال ترد من صعيد مصر العالى (أى جرجا)، ولا ترد مصر حبة قمح واحدة من رشيد ودمياط لأن إنتاجها من القمح لا يكفيها لأن محاصيلهم هى القصب والحناء والقطن والكتان والأرز أما الغلال فهى قليلة.

وجملة القول أن مصر أم الدنيا هى ولاية الصعيد العالى، فهى أم مصر التى تطعمها. وهذه الغلال المذكورة محسوبة إلى خزانتين مصريتين لصالح السلطان.

ومخزن يوسف هو أحد مخازن مصر البالغ عددها (٤)، وجميع مخازن غلال مكة والمدينة، الدشيشة والمحمدية والمرادية، والخاصكية فى مدينة بولاق، وكتبها ونظارها وأمنائها وكيالوها لهم إدارات خاصة بهم. وفى بادئ الأمر كانت إدارات الدشيشة فى يد الأغوات السود، وكانوا نظارها، وقد أخطر الكتخدا إبراهيم باشا السلطان أن أوقافهم تخربت، فصدر فرمان من السلطان بإسناد إدارتها إلى فرقة الانكشارية، وتولى رئيس الانكشارية نظارة هذه المخازن.

وغلال الحرمين اثنان وأربعون ألف أردب، ترد من قرى صعيد مصر العالى بعد أن يحصلها نظار الأوقاف من تلك القرى، ثم تخزن فى مخازن بولاق. ثم يقوم عرب الدشيشة بحملها على عشرة آلاف جمل إلى ميناء السويس حيث توجد سفن المحمدية والمرادية والخاصكية، ويسلمونها بدفتر إلى القباطنة الذين يحملونها إلى جدة وينبع حيث تسلم لمكة والمدينة، ولا تخزن أى حبة من غلال مكة والمدينة فى أنبار يوسف، فقد كانت فى عصر الشراكسة تخزن فى أنبار يوسف حتى فتح السلطان سليم مصر

وعندئذ قال جميع الممالك للسلطان سليم: يا مولانا السلطان لقد امتزجت جرايتنا وأعلفنا بغلال مكة والمدينة، وأصبحنا جزءاً من الوقف، فعدمت البركة أموالنا وأرزاقنا وطعامنا، فنرجو يا مولانا السلطان أن تمنح ذلك . فاستجاب السلطان لرجائهم وأنشأ المخازن سالفة الذكر فى بولاق، وكان هذا منه خيراً عظيماً، وهذه المخازن كذلك مكشوفة بلا سقف.

وفى مصر القديمة هذه عدة مئات من مخازن الغلال، وهى شونات خاصة بأعيان وأشراف مصر، وكلها مسقوفة، بيد أنها عديمة البركة. وإذا ما وقع القحط فى مصر لحق الضرر - ولا شك بأصحاب هذه المخازن، وهذا الضرر يصيب أموالهم وأرواحهم وعيالهم.

ولكن الله وهب (أنبار يوسف) بركة الخليل، ففى مصر سبعون طائفة عسكرية، وهى: الانكشارية، والعزب، والمتفرقة، والجاويفية، والمطوعة، والسيابية، والتوفتجيان، والجه جيان، والمدفعية، وطائفة المتقاعدين، والجواليه، والأيتام، والطواشية، والنساء، وطائفة الأئمة والخطباء، والمشايخ، والسادات، والحاصل أن هذه الطوائف السبعين سالفة الذكر تضم سبعة وأربعين ألف وثلاثمائة وسبعين من عبيد السلطان يصرف لهم الجراية والعلف كل عام وكل شهر صباح مساء من أنبار يوسف.

وعلاوة على هؤلاء ففى القاهرة مليون وستمائة ألف نسمة طبق ما سجل بمرام باشا، وهؤلاء كذلك تمس حاجتهم إلى مخازن يوسف، لأن حبة القمح هذه مبدولة للسفن والفقر والشاب والهرم والناس جميعاً على اختلاف أجناسهم، وكل من له عقل أرسطو يعجز تمام العجز عن فهم تلك الأسرار وحراروا فيها إلى أن ماتوا. إن نعمة الله مبدولة للخلق، فمخازن يوسف هذه معجزته وهى ممتلئة من خزائن الغيب، يقول عز من قائل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. إن هذا هو كلام رب العزة القديم، وورق العالمين عليه عز شأنه، وهذا شاهد على أن الله يورق جميع مخلوقاته.

يا من كرمك وهو من خزائن الغيب	طعم منه المجوسى والمسيحى
كيف تحرم الأحباء	وأنت من ترعى جانب الأعداء

وكم فى مصر من عجائب تستحق المشاهدة، ومخازن يوسف إحدى هذه العجائب .
ولقد طال تطوافى فى دولة آل عثمان، إلا أن أربعة أشياء كانت فوق مستوى تفكيرى: أولها الترسانة العامرة فى اسطنبول، ومطبخ آل عثمان، ومصروفات مكة والمدينة والحجيج، ومخازن يوسف الصديق فى مصر، تلك هى الأربعة التى حارت فيها عقول العقلاء.

ذكر سواهى مصر العتيقة

ومما يستحق المشاهدة فى مصر العتيقة ساقية السلطان الغورى الواقعة فى نهاية الجانب الشمالى من تلك المدينة، إنها قلعة حصينة مشمئة الشكل، يبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعاً مكياً وتصعد الخيل والثيران حتى ذروتها فى ارتفاع وإنخفاض وهى ساقية تدور بدواليب فى ثمانى مواضع، وهى تسحب الماء من النيل، ويمضى الماء فى مجار إلى القلعة الداخلية لمصر، ولها أمين قائم على أمرها، وتحت إدارته ٣٦ دولا با ويتبعها ٣٠٠ ثور، و ٢٠٠ خادم.

وينفق على هذه الساقية فى العام ١٥٠ كىسا من المال السلطانى. إنه خير عظيم وخدمة جلييلة ويجرى ماء النيل إلى القلعة الداخلية من خلال ٣٦٠ قنطرة من هذه السواقى، وبذلك يروى عباد الله فى القلعة ظمأهم ويزحمون على السلطان الغورى ويدعون له بالخير.

ولقد شربت طيلة ثمانى أعوام من الماء العذب الفرات لهذه الساقية، الفاتحة لروحه .
وأتحدث الآن عن الخليج الذى شقه الملك المقوقس أى النيل المبارك الذى يخترق مدينة القاهرة عند قطع النيل أسفل جسر أبى المنجأ.

الفصل الرابع والأربعين

ذكر قطع النيل الذي يهب مصر الحياة والثراء

إن ما يعرف بقطع النيل هو أنه لما كان ماء المطر لا يكفى أقاليم مصر حسبما جرى قضاء الله، ولذلك شق كهنة مصر قديما - بفضل من معجزة إدريس وسعة علمه بالهندسة - من النيل ترعا وخلجانا من المناطق المرتفعة من النيل المبارك، وبذلك أجروا ماءه من ولاية إلى ولاية، وبعد أن يروى أراضي مصر بتمامها يزرع الناس على الطمى الذى جلبه ماء النيل، ويحصلون المحاصيل بعد سبعين يوما من الزراعة ويقتاتون بها.

وتلك حكمة الله التى تجرى مجرى العادة، فالمياه تفيض فى كل أنحاء الدنيا فى شهر يوليو من كل عام أما هذا النيل المبارك فى يوم ()^(١) من شهر أغسطس الموافق يوم ()^(٢) بالتقويم القبطى، ويسمونه غرة شهر توت، وهى أيام مراسم تقليدية سيئة حيث يتمنقون بالزنائير ويلبسون ثيابهم الممثلة، ويضرمون النار فيها، ويبتهجون باشتعالها.

وفى تلك الأيام يشاء الله أن ترتفع مياه فيضان النيل، وتسقط النقطة أى يحمر النيل حمرة قانية ويصبح وكأنه بحر من الحمأ، إلا أنه لا يفيض دفعة واحدة وإنما خلال سبعين يوما بتمامها، وبعد ذلك قطع النيل، ويسمون فيضانه قبل سبعين يوما (النقطة).

أوصاف نقطة النيل المبارك

قبل شهر توت القبطى بسبعين يوما ينوب كبير جاوشية الانكشارية عن المحضر أغا فى رعاية أمور الانكشارية، وعندما تقترب أيام النقطة المذكورة يأذن الباشا للجاوش المذكور فيمضون لتطهير حوض أم القياس، لأنهم مكلفون بتطهير هذا الحوض منذ صدور قانون السلطان سليم. وهم إن لم يطهروا حوض أم القياس لن يعلم مقدار ارتفاع النيل، وكل من فى القاهرة من السقائين الذين يحملون القرب على ظهورهم يجتمعون فى أم القياس ذلك اليوم لكسح حوض أم القياس. وإذا لم تبق فيه قطرة ماء يدعوا جاوشية الانكشارية كل يوم فرقة عسكرية من الفرق السبع بكل من فيها من شيوخ وشباب، وتبسط الولائم

(١، ٢) يياض فى الأصل.

العظيمة طوال سبعة أيام وسبع ليال، كما يولون للباشا ولائم عظيمة، وبعد الفراغ من تناول الطعام يخلع الباشا على أغوات الفرق السبع وكبير جاوشية الانكشارية صاحب الوليمة اثنتى عشرة خلعة فاخرة، كما يمنح الباشا خدام كبير الجاوشية مائة قرش، إلا أن جان بولاد زاده لم يكن يخلع على أحد خلعا سوى كبير الجاوشية، ويمنح رئيس الجاوشية كيسا من القروش، وهؤلاء لا يمنحون الباشا فرسا ولا غير ذلك.

ثم يركب الباشا سفينة العقبة، ويمضى بها فى النيل وهو يشاهد ما على ضفتيه إلى أن يصل إلى (القصر العينى)، ثم يأتى بعده جميع الاشراف والاعيان من الانكشارية وجاوشيتهم، ويولم الباشا وليمة عظيمة فى أم القياس، وتقام الولائم كذلك فى أربعين موضعا، وعلى كل وليمة مائتا صحن، وبعد الطعام والدعاء والثناء وإحراق البخور يشربون الأشرية وينصرفون.

وبعد العصر يقدم جميع علماء مصر وصلحاتها وأئمتها وخطبائها ومشايخها العظام، وتقام لهم وليمة خاصة يعجز عنها الوصف، لأنه عندما يقدم العلماء يتلقى جامع أم القياس بالعوام والانكشارية ويطلق عند مجيء كل منهم عيارا ناريا تحية للعلماء، وينال الانكشارية كيسين صدقة من كبير جاوشيتهم، ويمضى قرابة ألفين من الوداباشية والبكوات إلى حال سبيلهم.

ولكن بما أنها ليلة الجمعة فالعلماء لا ينصرفون قط ويحيون الليلة حتى مطلع الفجر فى قراءة المولد. وأثناء قراءة المولد يقوم كبير الجاوشية بتوزيع الحلوى وإحراق العود، وفى الصباح، وهو صباح يوم الجمعة يسطون سماطا خفيفا لتناول الفطور، وبعد تناول طعام الفطور يمضى جميع العلماء إلى حافة حوض أم القياس، وهناك يرفع الدعاء الشيخ ابن الرداد شيخ أم القياس، ولأنهم جميعا من المسلمين فليس لأحد ما يشغله فى ذلك اليوم، وتقدم الولائم فى أم القياس وكسح حوضها ثمانية أيام بلياليها، أما كل من يكون فى منصب رئيس الجاوشية فإنه يفلس لأن له ميزانية قدرها عشرة أكياس مصرية، ويكون ذلك مصيبة عليه لأنه فى هذه الولائم طوال ثمانية أيام وثمانى ليال يقوم مائتا طاه بإعداد الطعام، ويقدم ألف خروف وخمسون ألف دجاجة، وخمسون ألف حمامة، وألف ألف رغيف، ومائة ألف كمكة، وهذه النفقات لا يعلم مقدارها إلا الله.

وعندما كان (سليم كتخدا) رئيسا للجاوشية أنفق مثل كل هذه النفقات، لأنه كان يقدم الطعام كل يوم في مائتي صحن في حدائق الروضة ومصر العتيقة وأم القياس إلى جماعة الأوداباشية.

وبعد الفراغ من هذه الولايم يرفع الدعاء والثناء، فيتدفق ماء النيل المبارك من جوانب الحوض الأربعة، وحيشما يجري النيل فإن ماءه يأتي إلى حوض أم القياس. وبعد عشرين يوما من تطهير هذا الحوض بما كان فيه من مياه، يخطرون الباشا بأن النقطة سوف تسقط في هذه الليلة فيتهج ابتهاجا لا مزيد عليه فيأمر وكيل الخرج بأن يقيم ولائم عظيمة في أم القياس يومين وليستين، ولا يحضر هذه الولايم العلماء والصلحاء والسادات والمشايخ العظام ولا غيرهم من طوائف الجند، بل تقتصر هذه الولايم على ناظر أم القياس، وكتخدا الجاوشية، ورئيس المتفرقة وأغوات الفرق السبع، والترجمان باشي. وبعد الفراغ من تناول الطعام يمضي الجميع، ولا يبقى إلا أغوات الباشا والترجمان باشي لأن الباشا هو صاحب الوليمة إلا أنه لا يحضر، وضيافة ما بعد العصر والصبح يقيمها الترجمان باشي، وفي تلك الليلة يتلى المولد النبوي الشريف وتزين أم القياس بما لا يحصى كثرة من القناديل، والشمع الكافوري، ويحيى العلماء هذه الليلة حتى مطلع الفجر، وفي تلك الليلة يشاء الله أن تسقط النقطة في النيل، وسقوط النقطة هو أنه بعد تطهير حوض أم القياس يبقى فيه ماء قليل، ثم يظهر ماء كظمي في حمرة الدم ويسقط، وتتعالى أصوات جميع العلماء بحمد الله، وتتلّى آيات الذكر الحكيم طيلة يومين وليستين ويتلى الختم الشريف مائتي مرة، وعندما تسقط النقطة يجلسون على الجوانب الأربعة للحوض ويفرغون من تلاوة الختم الشريف، ويدعو الشيخ السادات الله ويثنى عليه، ويصبح كمن أخذت منه الدهشة كل مأخذ، ويقوم وكيل خرج الباشا بنحر مائة أضحية، يوزعها على العلماء، كما يخلع على بعض المشايخ والسادات وشيوخ البكرية ثيابا من الصوف، ويسجل القاضي لحظة سقوط النقطة ويقيدها في سجل شريف، ويزف البشري إلى الباشا أحد شيوخ منادى النيل فينال منه قباء من صوف أبيض، وسبعين أو ثمانين دينارا من ذهب.

وتعالى أصوات جميع العلماء بحمد الله وشكر نعمته ويمضون جميعا إلى بيوتهم.

مناقب الشيخ السادات

هبط الشيخ السادات مصر قادما من بلاد المغرب عام (١١)^(١)، وبينما كان منزويا فى خلوته اتفق أن النيل لم يفيض فى عام من الأعوام، فعم القحط والغلاء وانزعج أهل مصر أيما انزعاج وبسطوا رجاءهم إلى الشيخ السادات أن يدعو الله لهم، وما أن بسط الشيخ أكف الدعاء حتى فاض النيل الذى لم يفيض منذ عام، وكان وفاء النيل ومنذ ذلك الحين يفيض النيل فى هذه الأيام وفى النيل.

وفى ذلك الوقت دعى السلطان (٢)^(٢) الشيخ السادات إلى وليمة، وملكه نصف مصر، ولذلك يأتى أبناء السادات إلى هذا المكان للدعاء وإقامة الولائم، حقا إنها ذرية عريقة.

ويسكن أم القياس شيوخها، وثلاثمائة من أبناء منادياها. وفى كل ليلة يفيض فيها النيل بأى مقدار يجتمع خدام أم القياس، وشيوخها ويسجلون على طبق من ورق بالزعفران مقدار ما ارتفع من مائه وما يسجلونه هو:

(بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أدام الله نعمته على سيدنا ومولانا المقام العالى الاعظمى مولانا الوزير كفيل الممالك الشريفة الإسلامية، بالديار المصرية والاقطار الحجازية وما مع ذلك الملك المظفر أعز الله تعالى أنصاره بجاء محمد عليه السلام الفقير إلى الله تعالى أولاد أبى سادات الامناء على قياس النيل المبارك، يتهلون إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة، فى صحائف سيدنا ومولانا من يجيب الدعاء سرا وينهون أن الله تعالى زاد فى النيل المبارك يوم الأحد المبارك خامس جمادى الأول سنة سبع وثمانين وألف الموافق الثالث عشر من مسره أربعة أصابع صار ثمانية عشر ذراعا وتسع أصابع أنهى ذلك كذلك اللهم أنعم لنا خيرا).

(١، ٢) بياض فى الأصل.

وهذا التقرير يذيل بخاتم شيخ أم القياس وتوقيعه ويرسل إلى الباشا ويدفع عنه القائم بخزانة الباشا دينارا من ذهب عن كل يوم.

وعلى هذا النحو عندما يفيض النيل يوما بعد يوم عقب سقوط النقطة يعم السرور والبهجة مصر، ويورع وزير مصر وجميع الأمراء والمترمين والكاشفين الصدقات والنذور.

ولأن الكثرة الكثيرة من أهل القاهرة أمناء وملتزمون فهم ينتظرون فيضان النيل المبارك، وإذا لم يفيض اللهم عافنا وقع القحط والغلاء.

وإذا ما سمع عن ارتفاع منسوب النيل، فلشيخ أم القياس في الحوض عمود ارتفاعه ثلاثون ذراعا عليها علامات مدرجة بين كل منها نحو أصبع فينظر إليها الشيخ، ويكتب سندا في كل صباح فيمضي به شيخ طاعن في السن إلى الباشا، ويدخل حتى حرم الباشا ويدخل عليه في أى مكان كان فيه قائلا: السلام عليك يا وكيل السلطان الوالى حفظك الله وسلمك راد النيل المبارك هذه الليلة - بأمر الله بمقدار (١) ذراع، و(٢) أصبعا، فينال دينارا من ذهب.

ويحاط الباشا علما على هذا النحو طيلة أربعة وثمانين يوما بالتمام.

وتحت إدارة المنادى الذى يأتى إلى الباشا ثلاثمائة وستون شخصا، وكل منهم يمضى إلى كل حى أو كل حارة وينتشر هؤلاء المنادون فى أرجاء مدينة القاهرة، ولكل منهم منطقة خاصة به لا يتجاوزها لأن لكل واحد منهم من كل منزل عوائد يحصل عليها ولذلك لا يتجاوز أى من هؤلاء المنادين وإذا جاء مناد آخر وقع صاحب المنزل فى الحيرة، ولا يعرف لمن يسدد العوائد أو الفوائد، ولستافى وقوع مثل ذلك يلتزم كل مناد بالمنطقة المحددة له.

وعلى الرغم من أن هؤلاء المنادين من صباح الوجوه مكحولى العيون يحملون عصيا، وإن لم يكونوا طاعنين فى السن إلا أنه يتعين عليهم حتما أن يحملوا عصيا. ويعاود كل مناد ثلاثة أو أربعة من أبناء العرب صباح الوجوه يلفون الشال متعدد الألوان كالاصفر والاحمر والأخضر حول رقابهم، وعندما يمررون بأى باب يقولون:

(١، ٢) يياض فى الأصل.

(السلام عليك يا أمير محمود، يا شريف أحمد، يا سيدى على، أو يا أمير الأمراء الكرام) وهكذا ينادون أصحاب البيوت بأسمائهم. وعلى هذا النحو يبلغون الناس بأن ماء النيل المبارك زاد بمقدار ذراع وستة أصابع أو بمقدار ذراعين وثلاثة أصابع أو بأى زيادة أيا كان مقدارها، ويجود عليهم كل شخص قدر قدرته، وعلى الرغم من أن هؤلاء المسادين يتقاضون دينارا ذهبيا عن كل يوم لكل واحد منهم، يحصلون كذلك الأموال من الناس.

ولشيخ أم القياس ومناديها الثلاثمائة وستين كشوفية مقدارها (١) باره من المال الأميرى ويسددون الضرائب.

وفى إقليم مصر ٢٧٦ بلدة وميناء، وعندما يتوجه المنادون إلى جميع المدن فى مصر، يستأذن منادى مصر من الباشا ويسد عوائد الكشوفية ويحمل أوراقه ويمضى من ولاية إلى أخرى، فلا يستطيع أن يخبر الناس بمقدار ما ارتفع من ماء النيل.

وفى مدينة القاهرة ٢٠٦٠ حديقة يسيط هؤلاء المنادون سيطرتهم عليها لأنهم يزفون البشرى كذلك إلى بستانى النيل، لأن كل البساتين فى حاجة إلى النيل، ولذلك فإن جميع الحدائق والحقول تخضع لنفوذهم. وإذا ما احتاج الباشا وأعيان مصر إلى البنفسج والورد والسنبيل والعنب، وما إلى ذلك من الثمار فذلك متوفر لديهم.

وعلى مدار أربعة وثمانين يوما ينادى المنادون عن منسوب النيل. وإذا ما بلغ منسوب النيل عشرين ذراعا يقولون: (استوى الماء والخشب): أى أن ماء النيل أصبح مستواه فى مستوى جسر الخشب الذى يعلو العمود المدرج الموجود فى حوض أم القياس.

وإذا ما بلغ أربعة وعشرين ذراعا نادوا قائلين: (من الجبل إلى الجبل)، والمقصود بذلك أن النيل زاد وأصبح فى مستوى سفح جبال الأهرام فى مدينة الجيزة بغرب القاهرة، وهما جبلان كبيران وجبل صغير من صنع بنى الإنسان، ويسميا الناس الأهرام أما العوام فيسمونها جبل فرعون، وإذا ما ارتفع ماء النيل إلى سفحها قالوا (من الجبل إلى الجبل). أما المصريون فيقولون الحمد لله يكفى يارب لأنه إذا ما ارتفع ماء النيل بمقدار أربعة وعشرين ذراعا إلى هذه الجبال وراد عن ذلك بمقدار خمسة وعشرين ذراعا

(١) يياض فى الأصل.

(والعياذ بالله) بلغ ماء النيل إلى عتبة الباب الحديد، وهو باب القلعة، ففرقت القاهرة. وخوفا من ذلك حينما ينادى المتأدون قائلين: (من الجبل إلى الجبل) يقول المصريون (يكفى يارب) أى أنهم يخافون الغرق. لأن الملك (سوريد) بنى هذه الأهرام بفضل معجزة إدريس عليه السلام، لأن إدريس عليه السلام عرف بوحى من الله أن النيل المبارك سوف يغرق مصر، ولذلك أشار على الملك سوريد ببناء هذه الأهرام، وجعل لها طلاسماً، ولذا يبلغ ماء النيل سفح هذه الجبال فى بعض الأعوام.

أما إذا ما اقتربت أشراط الساعة يأتى ملك بنسف هذه الجبال بالبارود الأسود وعندما تهدم يكون خراب التاسع أى خراب بخت نصر التاسع أما الخراب العاشر فهو حتماً إذا زال أثر هذه الطلاسمة وزوال الأهرام وبذلك يخرب النيل مصر لا مفر من ذلك، ويخرب نهرنا بالشام ونهر شط العرب ببغداد.

وإذا ما بلغ النيل ستة عشر ذراعاً فإنه يتعين تحصيل الخراج السلطانى. إلا أن الأمناء والمليزمين والكاشفين يفلسون وإذا ما ارتفع عن ثمانية عشرة ذراعاً اغتنى كل المليزمين والكاشفين.

أما إذا ارتفع إلى عشرين ذراعاً لا تبقى فى مصر أرض بور وتروى جميع الأراضي أى لا يبقى فى مصر أرض قاحلة.

أما إذا غمر النيل أرضها بأكثر من هذا المنسوب لحق بمصر الضرر.

أما إذا بلغ النيل خمسة عشر ذراعاً والعياذ بالله وقع الضرر كذلك، فلا يمكن تحصيل خراج السلطان ولا مال الأمناء والكاشفين. وتتعالى الأصوات مطالبة بعزل الباشا بدعوى أنه مشنوم ويحبس فى جوسق يوسف ويعرض جميع الجند مسألة عزله على الاستانة ويظل الباشا حبيساً إلى أن يأتى وزير آخر ويتولى مهامه أحد البكرات بصفة مؤقتة. ويلقى بالمليزمين والأمناء والكاشفين قيماً يسمى بالآرق خانه أى - السجن ويعذبون ويعلقون فى البكرات وتصادر أموالهم وتباع ويحصل المال السلطانى بتمامه غير منقوص ثم يطلق سراحهم.

وإذا ما فاض النيل بادر جميع المحتكرين والأثرياء بإخراج ما فى مخازنهم من غلال عن طيب خاطر، لذا يعم الرخاء مصر ويصبح سعر أربعة أوقيات من الخبز العثمانى باره واحدة.

قصة فيضان النيل

إن فيضان النيل لحكمة عجيبة، لأنه قد يفيض سنة ولا يفيض أخرى. ولكن المشاهد أنه يفيض فى غرة شهر توت القبطى، غير أن قلة مائه أو وفرة فليس لها ثبات، إذ إن ذلك فى يد البارى عز شأنه. وهذه الكرامات العلية بقيت من سيدنا عمر رضى الله عنه كما يقال .

ففى خلافة الفاروق عمر رضى الله تعالى عنه وأرضاه فى العام الحادى والعشرين للهجرة النبوية الشريفة فى العام الذى فتحت فيه مصر على يد عمرو بن العاص لم يفيض النيل على ما هو معهود. فقال له أهل مصر:

كان لنا دأبا جرينا عليه منذ القدم أنه قبل فيضان النيل بسبوع واحد فى كل عام نزين فتاة حسناء كأنها الشمس فى حسننها ونحليها من ياقوت أحمر ونفيس الجواهر، ونعد مشات القناطير من رؤوس السكر، وعدة آلاف أردب من الغلال وآلاف الزعفران والكعك ونطرح هذا كله فى النيل مع الفتاة، فكانت النقطة تسقط صباح اليوم التالى ويبدأ النيل يفيض.

فرد عليهم عمرو بن العاص قائلا:

حاشا لله هذا من طقوس الكفرة، وليس فى ديننا أن نسفك الدماء بغير حق ونبدد نعمة الله على هذا النحو من أجل فيضان النيل.

ومضى على ذلك أربعون يوما ولم يفيض النيل وانتشر القيل والقال فى البلاد التى فتحت لتوها، وتردد على ألسنة الناس أن مقدم العرب كان شؤما عظيما عليهم، واحتجز المحتكرون الغلال فى مخازنهم وأفضى ذلك إلى تفشى القحط والغلاء فى مصر.

وفى النهاية أرسل عمرو بن العاص رسولا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخبره بأمر الفتاة التى تطرح فى النيل على وجه التفصيل. ولما بلغ هذا الرسول مكة بعد

عشرة أيام أبلغ عمر بما جاء في رسالة عمرو بن العاص. وأدرك عمر ما جاء في تلك الرسالة، وعندئذ كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بأن يبطل هذه العادة من عادات الكفرة. ويقول له إذا ما استطعت أن تمنع طرح الفتاة في النيل فاطرح رسالتى تلك فيه وكان نص هذه الرسالة هو:

(من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر، يا نيل إن كنت تجرى بحولك وقوتك فلا حاجة لنا بك. وإن كنت تجرى بأمر الله وبقدرته فاجر صاعدا).

وأعقب عمر كلامه هذا بقوله عز من قائل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ {هود: ٤١}.

وبلغت هذه الرقعة عمرو بن العاص بعد عشرة أيام. بيد أن الناس كان قد دب فيهم ديبب اليأس وحمل كثرة منهم عصاهم على كاهلهم ورحلوا عن مصر. وما أن وصلت رسالة عمر بن الخطاب حتى تلاها عمرو بن العاص ومضى في نفر من أعيان مصر إلى الموضع المسمى الآن بأم القياس، ونقلوا إلى النيل تحية عمر والقوا رسالته في مائه. وعندما سقطت الرسالة في النيل المبارك جاش ماؤه كأنه البحر الطامى. وقاض النيل الذى لم يفيض منذ ستين يوما وزادت مياهه بمقدار الزيادة في أربعين يوما وذلك ببركة رسالة عمر وما فيها من آيات الذكر الحكيم فابتهج أهل مصر واستبشروا. ولله الحمد منذ ذلك اليوم لم يخلف النيل ميعادا وتسقط نقطته ما فى ذلك شك. ونذكر الآن حوض سقوط النقطة وأم القياس وبانيها وأشكال مبانيها:

أوصاف جزيرة روضة أم القياس

تلك البقعة المواجهة لمصر العتيقة تسمى «الروضة». وفى الجهة الجنوبية لهذه الجزيرة قصور عالية وعدة قاعات وحجرات متنوعة ومخزن للأطعمة ومطبخ وماتنا منزل لمندى شيخ أم القياس.

وفى أحد أركان هذه الجزيرة جامع السلطان قايتباى العلوى، القائم على أربعين عمودا من الرخام، وهو جامع له منارة منخفضة من طبقة واحدة وحرمة شديد الإتساع.

إنه قصر عال تجمرى عليه الأوصاف السالف ذكرها وحرمة الخارجى ساحة وسبعة تحيط بها أشجار الجميز وافرة الظل: وهو موضع نزه.

أول من بنى أم القياس:

وأول من ابنتى أم القياس كاهن فى عهد القبط يسمى «قليمون الحكيم» وكان ذلك بعد طوفان نوح عليه السلام. وجاء بعد ذلك كاهن آخر يسمى «حصيلم» وكان فريد دهره فى علم الهندسة وقد اخترع آلات مختلفة للمقياس، وهو الذى جعل أم القياس على شكلها الحالى، وكان له فضل التجديد. كما أنه شق جميع خلجان مصر وترعها بعلمه وحكمته. وبذلك أجرى ماء النيل من ولاية إلى ولاية.

وبمرور الأيام لحق الخراب بأم القياس. وفى عام ١٩٨ قدم مصر الخليفة المأمون من بغداد وأخرج ما أخرجه من كنوز وكتب من جبال الأهرام، وبهذا المال الذى استخرجه رسم أم القياس وجدها.

وفى عام ٧٨٥ فى خلافة المتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله أبو بكر العباسى أمر نائبه السلطان برقوق بأن يضم إلى أم القياس بعض الأبنية.

ولم يدم البقاء للخليفة المأمون فى مصر، وتوجه لمحاربة قياصرة أنطاكية- بما أخرجه من جبال الأهرام من مال - وغلب على ديارهم، فهجر المدينة كل من فيها من كفار، وتبدلوا من القرار بالقرار، وضرب حصاره على قلعة طرسوس فملكها ولما بلغ المأمون الثامنة والأربعين من عمره قتله أخوه، ودفن عام ١٩٩ فى ركن مظلم فى نعش من الرخام بالقرب من جامع النور فى طرسوس وقد تأتى لى زيارته والتأكد من تاريخه. وللأمون فى مصر علاوة على أم القياس الكثير من المؤسسات الخيرية.

أوصاف حوض أم القياس

إن «أم القياس» خطأ صحته فى اللغة العربية «المقياس» أى مقياس الماء. والحوض هو التعبير الأصح. إلا أنهم يقولون «أم القياس» وهذا خطأ شائع.

وحوض المقياس يقع فى أحد أركان الحرم الموجود أسفل قصر الخليفة المأمون فى طرف جزيرة الروضة. وهو عبارة عن قبة ذات رخارف تقوم على ثمانية أعمدة من الرخام وتحت هذه القبة حوض عظيم مربع الشكل من الرخام الأبيض الخالص، وعلى جوانبه الأربعة سلم من ثمانين درجة، ويبلغ عمق هذا الحوض ثلاثين ذراعاً بالتمام. ويظهره الإنكشارية مرة فى العام ويستغرق ذلك منهم أسبوعاً على نحو ما سبق ذكره. ويتوسط هذا الحوض «شيتخانه» تقع فى نهاية عمود من الرخام يبلغ ارتفاعه خمسة وعشرين ذراعاً، ولكى يبقى هذا العمود ثابتاً لا يميل يميناً ولا يساراً ثبت على جسر من الخشب، وهذا الجسر الخشبي مقام بين طرفى الحوض وهذا الجسر الخشبي هو ما يقال عنه «استوى الماء والخشبة».

وبارتفاع خمسة وعشرين ذراعاً من هذا العمود حتى «الشيتخانه» فى ذروته علامات عشرية بحساب الأصابع. وهذا الحساب مضرب مثل فى مصر، فهم يقولون «حاسبنى بحساب الأصابع». وقد قرض بعد الشعراء أبا ناس فى هذا الحساب فقال:

انتظر الأطفال الهلال انتظر جبريل فما أكثر ما تحب أم القياس بالأصابع
ويعلم من حساب الأصابع هذا مقدار ما يفيض من ماء النيل فى اليوم، فكل علامة تساوى أصبعاً، هكذا صنعها المهندس (١).

وكى ما تحب هذه العلامات أنشئ سلم من الرخام داخل الحوض وهذا السلم يهبط إلى قاعه بطول ثمانية وأربعين قدماً. وكل صباح يهبط شيخ المقياس هذا السلم ويتبين من العلامات الموجودة على العمود الرخامى مقدار الماء الذى جاء به النيل البارحة. ويقوم بتسجيل مقدار ما بلغ النيل من زيادة بالزعفران على رقعة فى حجم الكف ويخطر الباشا بذلك.

وعلى حافة الحوض تاريخ بخط كوفى ذهبى على لوح من الرخام، وشاهد هذا التاريخ كثرة من الرحالة العرب إلا أن أحداً منهم لم يستطع قراءته، إنه تاريخ المأمون والله أعلم، فعلى حافة الجسر الخشبي الذى يثبت عليه العمود كتب آية الكرسي بخط

(١) بياض فى الأصل.

مذهب وفى نهاية هذه الآية تاريخ هو: (وذلك فى جمادى الآخر سنة سبع وأربعين ومائتين)

وفى رأس عمود الرخام خلية مغطاة بالذهب، والتاريخ المنقوش بالذهب على الرخام عند حافة الحوض هو:

(لمولانا الملك عز نصره سلطان محمد خان بن إبراهيم خان دام منصورا وعاش وللعمقاس قد أرخت أحيا بتجديد الوالى إبراهيم باشا يسر الله ما يشاء شهر صفر المظفر سنة ١٠٨٠).

وعلى حافة حوض أم القياس ثمانية أعمدة من الرخام تعلوها قبة مُقرنصة مختلفة الألوان غاية فى الجمال والروعة، وعلى إطارات هذه الأعمدة المذكورة على خلفية لاروردية كتب بخط جلى آيات قرآنية من سورة الروم وهى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّبُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠]. إلى آخر الآية وبعد ذلك كتب:

(بتجديد ملوك سلاطين المصرية الملك الأشرف الظاهر بيبرس الصالحى).

ويعلم هذا النص على حافة القبة قوله عز من قائل:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾ [الزمو: ٢١]. إلى آخر الآيات الكريمة وكتب بعد ذلك:

(ماتلك عمالك وقاب الامم مولانا ملك ملوك العرب والعجم، سلطان سلاطين العرب والعجم صاحب العراقين وديار التديلم واليمن السلطان مراد خان خلد الله ملكه وآله وصحبه وسلم بتاريخ شهر رمضان العظيم سنة سبع وخمسين وسبعمئة).

وفوقه وسط القبة كتب بخط جلى قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]. إلى آخر الآية.

ووسط القبة كتب آية من سورة الإسراء وهى:

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤].

ويحيط بهذا الحوض زاوية تقام فيها صلاة الجمعة، وفي أحد أركانها محراب، كتب عليه بخط جليلى مذهب قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾ [الحج: ٦٣] إلى آخر الآية. وبعد ذلك كتب: (إنشاء هذا الجامع المبارك في زمان سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان سليمان خان بن سليم خان أدام الله دولته إلى يوم الدين، وهو بناء أمير الأمراء المصرية داود باشا جعل اللهم من الفائزين مسجدا سنة أربعة وخمسين وتسعمائة).

وعلى جدار قبلة هذا المحراب كتب على يسرة وجهة الداخل على لوح مربع من الرخام بخط كوفي دقيق قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَغْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]. وبعد هذه الآية كتب قوله: ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾، وبعد هذه الآية كتب: (بإنشاء هذا الجامع قبلة المسلمين).

إنه موضع يستجاب فيه الدعاء. ولأن هذه القبة من الخشب المزخرف حولها شبكة من نحاس، وحول الحوض درابيزين من الخشب، ولا يجرؤ أى إنسان على النظر إلى قاعه. والسلام.

وخارج هذا الحوض قاعة واسعة، وفي جوانبها الأربعة كسوات مطلة على النيل، ويصعد إلى قمة هذه القاعة بسلم حجري من أربعين درجة.

وثمة قصر كأنه الخورنق، وكان موضع نزله لسلطين مصر قاطبة، ويأتى إليه الآن وزراء مصر من وقت إلى آخر طلبا للراحة والاستجمام.

حادثة السلطان سليم الأول في قصر ام القياس

اتفق فأت ليلة أن كان السلطان سليم فاتح مصر نائما في ذلك القصر، وقدم فدائى من قبل الشراكسة بيت النية على اغتياله، فاقترب من المقياس وتسلق سارية القارب إلى قبة القصر، ثم هبط إلى مخدع السلطان سليم، وفيما كان يسلم هذا الفدائى سيفه أيقظ النى عليه السلام سليما من نومه، فطرح هذا الفدائى نفسه من أعلى القصر الشامخ وكان

المنارة فى الماء ونجى بنفسه. فألقى سليم باللائمة على الخواص من خدمه إلا أنه تجاوز عن خطاهم ونصبهم جميعا بكوات فى مصر، وأمر بإحضار هذا الفدائى وله منه الأمان واصطحبه معه إلى اسطنبول وأكرمه وأعزه كما سلف أن ذكرنا.

وقصر أم القياس قصر شامخ، وكواته فى جهاته الأربع، وقبة سوره مكسوة بالجص.

وصف جزيرة الروضة

أو جزيرة أم القياس

جزيرة تقع فى النيل، وهو يتبع من جهة الجزيرة ويضيق من جهة مصر العتيقة حول هذه الجزيرة، وكان النيل يجف فى بعض الأحيان فيعبر الناس إلى هذه الجزيرة مشيا بينما لا تستطيع أن تنفذ إليها السفن المحملة بالغلل.

وفى عام ١٠٨٦ أنفق جان بولاد زاده حسين باشا مائتى ألف كيس مصرى، وفى أشهر ثلاثة جمع خمسين ألف رجل، وعدة آلاف من ثيران الجرف، وطهروا الطريق أمام أنبار يوسف وأجرى ماء النيل إلى تلك الجهة فأصبحت جزيرة الروضة جزيرة عظيمة.

وقد شيد الملك الصالح نجم الدين قلعة شامخة على طول جوانب هذه الجزيرة الأربعة والآن يبدو بروجها بمزاغلها فى الجهة المطلة على الجزيرة. إنها قلعة محكمة وسد ركين، وحصن حصين، وقد بقيت هذه القلعة مئات السنين فما نال منها الخراب.

والمسافة من ركن أم القياس إلى بولاق والتى تبلغ مسيرة ساعة ونصف كأنها الجنة وهى خاصة بالسلاطين وجوها بمزاغلها فى الجهة المطلة على الجزيرة. إنها قلعة محكمة وسد ركين، وحصن حصين، وقد بقيت هذه القلعة مئات السنين فما نال منها الخراب.

وفى هذه الجزيرة مائة وستون بستانا وحقلا خاصة بأعيان مصر، ولهم فى هذه البساتين عدة قصور عالية وعرائش وقاعات وأحواض وشادروانات وحمامات. ومن لم

يجد له مسكنا وجد له في هذه الجزيرة مسكنا. وبها الآن سبعة قصور، وثلاثة جوامع أحداها من أوقاف السلطان المؤيد.

ويجدر بها أن تسمى «روضة من رياض الجنة» وبساتينها ورياضها عامرة إلى الآن. ولم يرد في كتب التاريخ أنها كانت عامرة.

وجملة القول أنها حديقة «إرم ذات العماد» في مصر، وإذا قيل إنها روضة من رياض الجنة فحق يجدر بالذكر.

وإذا نزل بها عليل ضيفا ليلة واحدة برأ من علته وامتلا عافية.

الفصل الخامس والأربعون

وصف الموكب الثانى لقطع النيل

عندما تسقط النقطة فى يوم ()^(١) توت من شهر يوليو يُذكرُ الباشا كتحدا جاريشيه ورئيس فرقة المتفرقة والترجمان أغا، وأغوات الفرق السبع وسائر رجال الاعمال قائلا: إننا بإذن الله سوف نقطع النيل بعد أربعة وثمانين يوما فلتعدوا العدة لذلك يا أعيان مصر حسب القانون القديم، وليكن احتفالا عظيما بهيجا.

وكان ذلك جديرا بأن يدخل السرور فى نفوس أهل مصر جميعا. وجرت العادة بأن يستأجروا المنازل فى مصر العتيقة بمائة قرش أو مائتين أو خمسمائة. كما يستأجرون مقدما عدة آلاف من السفن الضخمة من بولاق ورشيد وجرجا بمائة أو مائتى قرش.

ويشرع الناس جميعا يزينون سفنهم ويوتهم بالقناديل، ويزخرفون مجالسهم وكواتهم، ويطلون جدرانهم وأبوابهم بالجص الأبيض، وبذلك يجعلون من مصر العتيقة أم الدنيا عروسا فى ليلة عرسها.

ويجهز الأمناء والمترزمون والكاشفون وأمراء اللواء وبكوات مصر وجميع الأعيان - طبق ما جرى من عادات - هداياهم التى سيقدمونها إلى الباشا.

ويمهد إلى أحد أغوات الباشا بتطهير موضع قطع النيل ويتسلم عشرة أكياس للإنفاق على خمسة أو عشرة آلاف أجير وثيرانهم طيلة خمسين يوما حتى يتم تطهير الخليج، ويدفنون للأغا الذى يقوم بهذه المهمة عشرة آلاف باره، كما يتحصل له كيسان من القرى وأصحاب البيوت جميعا، ويتحصل لكتخدا الباشا كيسان، وللباشا .

وفى عهد الملك «خصليم» أحد ملوك القبط كانت مياه هذا الخليج تجري صيفا وشتاء، وكان المصريون جميعا يروون ظمأهم منها، وكانت أرضية هذا الخليج مرصوفة من أولها إلى آخرها بالرخام، وعلى مر الأيام غطاها الطين والغبار، وأصبحت تجف ستة أشهر، ثم تجري فيها المياه ستة أشهر أخرى بعد قطع النيل.

(١) يياض فى الأصل.

ويمنح الأغا القائم على تطهير هذا الخليج عشرة آلاف بارة، وعند إنجاز مهمته يقيد ذلك في سجلات محكمة باب النصر، ويتسلم الأغا المذكور الحجة الشرعية فيحملها إلى الباشا.

ثم يلتفت إلى إعداد وتنظيم مواكب «قطع النيل». وفي تلك الأثناء يبلغ منسوب النيل ستة عشر ذراعاً أو سبعة عشر ذراعاً.

وفي الموضع الذي يقطع النيل فيه يقع جسر يسمى «جسر أبي المنجا»، ولكي لا يجرى النيل من تحت هذا الجسر يعهد إلى الأغا القائم على تطهير الخليج بإقامة سد من التراب أسفل هذا الجسر، ويجهز فوق هذا السد الترابي قارب عظيم مزين لموباشي المدينة، ويكون الأغا المحتسب في هذا المكان ألقى رأس من السكر، وألقى قطعة من الحلوى، وعدة آلاف الأبطال من الفاكهة، وسبعين أو ثمانين حمل جعل من الخبز الأبيض الفاخر وصنوف من المأكولات والمشروبات علمها عند ربي. ويجهز الأغا المحتسب كل ذلك من صلب مال الباشا.

ويقوم الصوباشي في ستمائة أو أكثر من رجاله بحراسة هذه المأكولات والمشروبات. ومن موضع قطع النيل إلى بولاق مسيرة ساعة وتجاه هذه المسافة جزيرة الروضة تقطع في ساعة كذلك، وعلى هذين الجانبين على ساحل النيل لا وجود لمكان متروك. وتفص هاتان الضفتان بالحيام والسرادقات والمظلات والمطابخ ومخازن الطعام، وهاتان الضفتان كأنهما خضم من البشر، وهم يحجزون أماكنهم قبل قطع النيل بخمسة أو ستة أيام.

وفي سبتية مدينة بولاق تزين سفن كتخدا الباشا وسفن رئيس الديوان (شهر حواله) وكتخدا البوابين وأغا الرسالة وأمين الجمر، وأمين الأنبار ونظارها، وقوارب عشرين من أمراء مصر وقوارب أغوات الأوجاقات السبع، وقوارب أمراء الجراكسة، وقوارب قاضي العسكر ونقيب الأشراف والروزنامجي والدفتردار والقبودان. والحاصل أن آلافاً مؤلفة من سفن وقوارب أعيان مصر وأشرافها تزين بأجمل زينة من ذهب وحرير كما تزين بالأعلام المزركشة ذوات الألوان بحيث لا يخلو قارب من زينة في هذه المناسبة،

كما تزين جميع هذه القوارب فى داخلها وخارجها بأنواع الأسلحة وكأنها هيات للحرب، وتزدحم هذه السفن المزينة على صفحة ماء النيل من قصر السبتة حتى أثر قدم النبى مرورا ببوراق وقصر العينى ومصر القديمة بمسيرة ثلاث ساعات فتصبح صفحة ماء النيل وكأنها بستان سفن من حمر الأزهار، وتتقارب هذه السفن بحيث يمكن لاي شخص أن يستقل من قاربه إلى القارب المواجه له، فالقوارب تزدحم إلى هذا الحد البعيد.

ويعلم الباشا أن أهل مصر جميعا على أهبة الاستعداد لقطع النيل، وتبدأ المراكب فى التحرك.

وصف موكب قطع النيل

ويدخل هذا الموكب مصر كدخول موكب الباشا الذى سبق الحديث عنه، غير أن هذا الموكب يضم العلماء والصلحاء والأشراف والطواشي.

وقبل تحرك الموكب ييومين تغلق الخوانيت ويصطف أصحابها من أعيان مصر وأشرافها ورجالها ونساؤها وشيوخها وشبابها على الطريق من القطعة الداخلية إلى بوراق بمسيرة ساعتين وكانهم بحر من البشر فى انتظار مقدم الباشا.

ويتقدم الصوباشى الموكب فى مائتين من رجاله يحملون العصى، وعشرة من الجلادين لتمهيد الطريق، ويتجاوزون المزدحمين ويمر خلفهم أفواج وأفواج من الأئمة والخطباء يتلوهم شيوخ ثلاثمائة وستين طريقة، وهم يقرعون الطبول ويتنهلون. وبعدهم يمر عدة آلاف من المشايخ الكرام ثم أفواج وأفواج من علماء المذاهب الأربعة وهم فى أبهى حلة.

ثم يعبر بعدهم رجال الدين الذين يعرف الواحد منهم «بالمولا» والبالغ عددهم مائتين وستين وهم يتقاضون خمسمائة أقجة لكل منهم إعانة من المولوية. وهم يمرون وعليهم ثياب من حرير مستحازين، ثم يمر شيوخ الإفتاء من الشافعية والمالكية والحنبلية وشيوخ الإسلام الإمام الأعظم «مصطفى أفندى البولوى» مع قاضى العسكر وبعدهم السادات الكرام وعددهم فى مصر ستة وأربعون ألفا، وهم على خيولهم المظهمة، وفى نهاية

صفوفهم يجئ نقيب الأشراف برهان الدين أفندي حاملا علم النبي ﷺ وهو يلوح بالسلام في أدب ووقار.

ثم موكب الشاويشية وعلى رؤوسهم المجوزات يمرون على جياد بيض متوازية وعليهم حمر السراويل، وعلى أيديهم شهب الصقور. وبعدهم موكب الكوكليان أى المطوعة يحملون أعلام فرقتهم بجيادهم المتحازية يقرعون الطبول، وعليهم حمر السراويل.

ثم موكب التوفنكجيان أى حملة البنادق، وهم كذلك يحملون أعلامهم وعليهم حمر السراويل، ويركبون خيولهم متحازين ويقرع رؤسأهم الطبول وقد بسطوا أعلامهم ولبسوا قلائسهم.

وتتلهم موكب مشاة المتفرقة، وقد لبسوا فرو السمرور ويمضون فى صحبة رؤسائهم فى جماعات تتألف من خمسة أو عشرة قارعين الطبول.

ثم موكب الجراكسة وهم كذلك يحملون أعلامهم الحمر وفى أثرهم صبيانهم مثنى مثنى يمرون من رؤسائهم قارعين الطبول. ثم يمر موكب بكوات الجراكسة وهم أربعون أو خمسون فى عظمة وأبهة وكأنهم أمراء مصر، ولا يحملون طبولا.

ثم موكب العزب، وهم خمسة آلاف من الجند المشاة أما فى موكب قطع النيل هذا يمر منهم عشرة آلاف من فتيان طائفة، «الداليان» مثنى مثنى وفى خصورهم السيوف. ثم يأتى بعدهم موكب الإنكشارية وهم ثمانية آلاف أما فى ذلك اليوم فيمر منهم عشرون ألفا يحملون البنادق، وعلى رؤوسهم قلائس من جلد النمر، ثم موكب أغوات الباشا ويتقدم موكبهم مائتا شاب مثنى مثنى يمتطون صهوة جيادهم حاملين أسلحتهم ويتلوهم موكب جند الكوكليان أى المطوعة وهم أربعمائة على رؤوسهم القلائس من جلد النمر والتيجان، وخلفهم موكب الدلاة وهم يلبسون جلد النمر وعلى رؤوسهم القلائس وتيجان فرو النمر المزودة بـبريش الصقور، وبعد ذلك يمر موكب المتهرخانة وفى أيديهم الخراب، ثم موكب الجاشنكيران وهم يمرون على صهوة جيادهم حاملين أعلام السباهية، ثم موكب «طشره كلارجيان» أى القائمين على المخازن الخارجية للطعام

وهؤلاء كذلك يملكون رافعين أعلامهم، ثم موكب غلمان صراحي القصر، وهم كذلك مدججون بالسلاح يركبون جيادهم المطهمة وفي أيديهم الأعلام المرفوعة، وبعد ذلك موكب مشاة المستفرقة وهم كذلك على جيادهم رافعين حمر الأعلام، وبعدهم موكب أغوات واجب الرعايا وهم يملكون وعلى رؤوسهم القلانس رافعين صفر الأعلام، إنهم أغوات كامل، ثم موكب رئيس البوابين وعليهم كذلك قباء السمور، وفي أثرهم عشرون أو ثلاثون يحملون الحراب ورؤوس النمر.

موكب أمراء مصر

وهؤلاء جميعا يلبسون قباء من فرو السمور وعلى رؤوسهم العمامات المسماة «بالبريشاني» وأمامهم، ويستقدمهم أربعة من شطارهم وعليهم بيض العمامات وحرير الخلع، وفي أيديهم الطير، وبجانب البكوات أربعون أو خمسون من قواسيهم، وخلفهم مائة أو مائة وخمسون من أغوات القصور في ثيابهم المزركشة وكل منهم مدجج بالسلاح.

وصف قطع النيل

وفي هذا الموضع احتشد السادات والشيوخ وأصحاب الحاجات ويطبوا أكف الزراعة ودعوا الله ومسحوا وجوههم بأيديهم. وفي (١) من شهر يوليو أول توت ركب الصوباشى قاربه الذى أعد فوق السد التراي الواقع أمام فم الخليج، وفي التوقام عدة آلاف من المصريين - وقد تجردوا من ثيابهم - بهدم السد التراي، فانساب النيل الدفين كالبحر الخضم بعد أن وجد له طريقا، وعند مرور مائه من داخل الخليج صدر منه صوت كهزيم الرعد وعندئذ ارتفعت أصوات المشايخ بقرأة الفاتحة، ثم أعقب ذلك إطلاق البنادق والمدافع من جميع القوارب فارتفعت الضوضاء والضجيج، ومضى الصوباشى بقاربه، ودخل مصر وكأنه السهم المنطلق من قوسه، ونحر مائتى خروف وخمسين جملا هي التي أعدها المحتسب من قبل على ضفة النيل، فتخاطفها المصريون صائحين، وقام المحتسب ووكيل خرج الباشا بطرح ما سبق ذكره من ألفى رأس سكر

(١) يياض في الاصل.

وآلف صندوق من الحلوى وآلاف الأبطال من الفاكهة، وثمانين جمل بغير من الخبز وخمسين قنطارا من البقسماط فى مياه النيل.

إن هذا والعظمة لله مشهد من مشاهد يوم الحشر. وقام عدة آلاف من المصريين بطرح أنفسهم فى النيل وراء هذه المأكولات فارتطموا ببعضهم البعض بفعل أمواج النيل، ولم يضع شئ مما طرح فى النيل وأخرجوه كله ناحية ساحل النيل، ولله الحمد لم يلحق الأذى بأحد منهم.

وفى ذلك اليوم رأيت الكثير من العراة وخيل إلى أن إسرائيل قد نفخ فى الصور، وخرجوا من قبورهم.

وإن إلقاء مثل هذه النعم والاطعمة فى النيل فى يوم قطع النيل هذا يذكرنا بطرح فتاة فى النيل فى عهد الجاهلية.

وقطع النيل وجرت مياهه من هذا الخليج حتى وصلت وسط القاهرة، وروت ولايات قلوب والمنصورة والشرقية، وزرع الرعايا والبرايا وعم الخير والسلام.

وما يسمى قطع النيل فى مصر يجرى على هذا النحو، وهذا ما لا وجود له فى أى بلد على وجه الأرض. إنه مشهد يشاق إلى رؤيته الملوك إنه مذكور فى جميع التواريخ.

وفى هذا الاحتفال شاهد الباشا هذه العجائب والغرائب، وخلع خلعاً فاخرة على الأغا الذى قام بتطهير الخليج، وأمين الساقية والصوباشى والمحاسب أغا، ووكيل خروجه وأمر برفع مرساة قاربه، وعبر عن امتنانه، وألقى السلم على جانبيه حتى رست سفينة عند قصر أم القياس، وخرج مع جميع الجند والاعيان وأمرأ مصر خارج السفينة وأدوا صلاة الظهر وسجدوا سجدة الشكر لقطع النيل. وأكثر الجميع من الحمد والثناء، ثم ضيف الباشا جميع أعيان مصر ومد سماًطاً عظيماً يعجز عنه الوصف وهنا دعى أغا الإنكشارية الباشا إلى وليمة عند أثر قدم للنبي ﷺ، ولبى الباشا الدعوة ثم أذن الباشا بالإنصراف لجميع أعضاء الديوان والعلماء والأشراف بعد أن فرغوا من تناول الطعام وعاد كل إلى إدارته.

وفى تلك الليلة نعم الباشا بالراحة والاستجمام فى قصر أم القياس .
 وازدانت ألف سفينة فى النيل عند مصر القديمة بما لا يحصى كثرة من القناديل التى
 بددت ظلمة الليل وأصبح نورا قائما فى الظهيرة ، وقام وكيل خرج الباشا بتزيين قصر أم
 القياس بالقناديل فأصبح وكأنه كمصباح قصر الجنان .

ونفخ فى المزامير وقرعت الطبول فى كل الأرجاء إلى مطلع الفجر وامت الضوضاء
 والضجيج جميع مناحى القاهرة . وفى كل ساعة كانت تطلق مئات الآلاف من طلقات
 المدافع والبنادق وغنت الأرض والسما وتحولت جميع البيوت فى القاهرة وجميع
 القوارب والسرادات والحيايم إلى مجالس أنس يغنى فيها المطربون ويعزف فيها العازفون
 وكأنها مجالس السلطان حسين يقرأ . وامت بهجة والمتعة والصفاء كل الأرجاء .

وصف القائمين بالألعاب النارية المهمة

وصلت طائفة اللاعبين بالقذائف النارية (الفشك) أى أتباع ابن سينا بالقوارب إلى
 قصر أم القياس حيث مجلس الباشا ، وقدموا فصلا من الألعاب النارية ووصلت
 قذائفهم إلى عنان السماء ، وأثناء هبوط هذه القذائف من السماء كانت تنبثق منها عدة
 مئات القناديل وكأنها الشهب فتتير الأرض .

وثمة نوع من القذائف يسمى «صراخي» وهذا النوع يتكون من ثلاث أنابيب وينطلق
 إلى السماء على ثلاث دفعات ، ففي البداية تنطلق قذيفة تحمل أوقيتين من البارود فتبدوا
 وكأنها نجم صغير ويتصل بهذه القذيفة قذيفة أخرى فتشتعل من نار القذيفة الأولى
 وتسقط القذيفة الأولى على الأرض بينما تتابع القذيفة الثانية انطلاقها إلى عنان السماء .
 وعندما توشك على الانتهاء تشتعل القذيفة الثالثة وتسقط القذيفة الثانية على الأرض
 وتظل القذيفة الثالثة مشتعلة وكأنها شجرة بلوط تتمزق قطعاً قطعاً ، فتقول الملائكة
 جميعاً اللهم اكفنا شر الإنس ويستعيذون بالله .

إنها صناعة عجيبية وغريبة . وثمة نوع آخر من القذائف النارية يصعد إلى عنان
 السماء وينبثق منها فى الجو أربعون قذيفة أو أكثر ، وقد انطلقت قذائف من هذا النوع
 فى الجو وهبطت إلى الأرض منها أربعون أو خمسون كأنها غضب من الله ، وأحرقت
 ما صادفته وشتت حشود الناس .

وأطلقت القذائف النارية من أنواع وألوان شتى فى حضور الباشا وبمراى ومسمع من المزدحمين من الناس وكأنهم الخضم، واستمر ذلك حتى مطلع الفجر، وكانت بعض القذائف التى أطلقت تغوص فى جوف النيل سبع أو ثمان مرات ثم تخرج من موضع آخر، وتسبح فى ماء النيل كالغواصين ثم تظهر ثم تغوص ثانية، وأطلقوا قذائفا من قلاع من ورق وكان حرب دائرة الرحى، وأظهروا صورا للقساوسة واليهود والفرنجية والقرباش وكانهم يتقاتلون، كما أظهروا أمشكالا للخيل والحمر والخنازير والجن والشياطين، ثم جاءوا بحمر وكلاب وعلقوا فيها القذائف وأضرموا فى تلك القذائف النار فانطلقت هذه الحيوانات بين الناس الذين قدموا لمشاهدة العروض فاختلط حابلهم بنابلهم وأصبح مشهدا مثيرا للضحك.

وجميع أنواع الألعاب النارية الخاصة بالفرنجية صنعها مهرة الصناع المصريين وعرضوا عجائبها بمناسبة الاحتفال بقطع النيل.

وبإطلاق هذه القذائف أصبح الليل المظلم نهارا منيرا، وتحولت الليالى أيام عيد وابتهج أهل مصر كبارا وصغارا سبعة أيام بلياليها فى مصر القديمة، واستأجر بعض الناس جواسقا على ساحل النيل نظير مئآت القروش فى اليوم الواحد وأطلق بعضهم القذائف عمدا على المنازل فشتوا أهلها.

وجملة القول أن الفرنجية وإن كانوا اخترعوا الألعاب النارية فإن المصريين قد أتقنوها إتقاناً يبعث على الإعجاب وهم لا نظير لهم فى هذا المجال فى أرجاء الأرض. ولم أشاهد فى بلد آخر غير مصر هذه الألعاب النارية وفى مصر يعرضونها ليل نهار، ونارها مثل نار النمرود وأطلقت قذائف بمائة ألف قرش.

وأطلقت آلاف القذائف من مئآت السفن والقوارب الموجودة فى النيل، ويبلغ ثمن كل قذيفة خمسمائة قرش أو أكثر، ومن المؤكد أنه ينفق على هذه الألعاب النارية مئآت الآلاف من القروش.

ومرت جميع السفن أمام الباشا وكان حربا ضروما بينها، وقد زين البكوات جوانب قواربهم بكل ما هو نفيس وأطلقوا المدافع والبنادق وعزفت موسيقاهم العسكرية وأدوا

التحية للبasha أثناء مرورهم أمامه، وكانت السفن تمضى فى إتجاه الجيزة وكان البasha يتأملها ليتبين أيهم أكثر رينة. وحتى مطلع الفجر كانت تطلق القذائف فى ضجيج وصخب فعمت البهجة كهجة الحجاج.

وفى صباح اليوم التالى أرسل البasha عتتين من أغواته يمضى كل واحد منهم إلى بك من البكوات وأغوات الأوجاقات السبعة وكبار رجال الدولة لدعوتهم إلى وليمة يقيمها البasha وكان يورع على كل أغا قادم عليه قماشا من صوف. وقدم أم القياس القاضى عسكر ونقيب الأشراف وشيوخ الإفتاء على المذاهب الأربعة والحاصل أن جميع كبار العلماء والصلحاء والمشايخ والأئمة والخطباء وأغوات الأوجاقات السبعة وجميع أعضاء الديوان والمشاهير، أقيمت لهم مأدبة عظيمة يقال إنها تكلفت مائة كيس، ودامت هذه المأدبة ثلاث ساعات بالتمام.

وبعد الفراغ من تناول الطعام قدم الشراب وماء الورد والبخور، وخلع البasha خلعا على أصحاب المناصب حسب رتبهم وكان يتم لهم التثبيت فى وظائفهم، وغيرهم كان يسند إليه الكشوفيات.

ولأن قطع النيل هو رأس السنة منح البasha جند الأوجاقات السبعة المشتركين فى موكبه خمسة أكياس مصرية. وقضى البasha تلك الليلة فى قصر أم القياس كذلك. وبمناسبة رأس السنة أنعم البasha بمنصب «بشر أغا» على جميع الأغوات وخلع عليهم كذلك فاخر الخلع.

وفى هذا اليوم أقام ككتخدا البasha المأدبة ودعى إليها رؤساء كتاب السجلات، وما أن فرغوا من تناول الطعام حتى خلع البasha على الكتخدا خلعة من فرو السمور وقام الكتخدا بتحصيل مال الكشوفية للبasha، وفى تلك الليلة من ليلالى أم القياس زينت جميع القوارب والمنازل بالقناديل وهزت أصوات المدافع والبنادق الأرض والسماء هزا.

وفى صباح اليوم التالى أقام الدفتردار مأدبة إكراما لوزير مصر فى حديقة كنعان بك بجزيرة الروضة وكانت هذه المأدبة مأدبة عظيمة. وبعد الفراغ من تناول الطعام أهدى الدفتردار البasha عشرة أكياس وعشرة من الطواعية وجوادا مطهما مزينا بالجواهر كما أهدى جوادا وبعض الهدايا لكل من أصحاب المناصب الرفيعة. وبعد أن خلع البasha

خلعة السمر على الدتردار ركب الباشا جواده السريع وفى الطريق انضم إلى ركابه أمير الحج ودعى أمير الحج الباشا إلى مأدبة فى قصر على بك بحدائق الروضة، وكان بها كثرة من المغنيين والعازفين والحواة والمصارعين واللاعبين بالألعاب النارية واللاعبين بالعرانس واللاعبين بالطيور واللاعبين بالعمد، وجملة القول أن مائة وسبعين من هؤلاء اللاعبين قدموا عروضهم فى تلك الضيافة ونال كل منهم نصيبه من منحة الوزير.

ثم خلع الباشا خلعة من فرو السمر على أمير الحج وامتطى الباشا صهوة جواده. وقبل وقت الغروب كان كل بك ينوب الباشا قد أقام وليمة للباشا كريمة أمير الحج وأعطى كل واحد منهم الباشا مثلما منحه أمير الحج من هدايا، وهى خمسة أكياس وخمسة من الطواشية وجواد مطهم مزين بالجواهر وبعض التحف، كما منح كل بك منهم أحد عشر من أصحاب المراتب جوادا لكل منهم ثم تلقى هؤلاء البكوات النواب خلعة من فرو السمر لكل منهم من الباشا، ثم عاد الباشا إلى أم القياس ليلا.

وفى تلك الليلة أقيم حفل ساهر استمر حتى مطلع الفجر. وفى الصباح قدم البك قائد الأمراء الكرام ورئيس تجارهم، وأقام مأدبة عظيمة للباشا فى إحدى حدائق الروضة، وأهدى الباشا خمسة أكياس وخمسة من الطواشية وجوادا مطهما سرجه مرصع بالجواهر وما شابه ذلك من نفائس، وخلع عليه الباشا خلعة فاخرة.

وطيلة هذه الأيام الثلاثة وليلاتها أقام البكوات المآدب للباشا وقدموا إليه هداياهم ونالوا منه خلع السمر.

وفى ذلك اليوم غفر رئيس فرقة الانكشارية وجهه على حافر جواد الباشا ودعاه إلى مأدبة فى «أثر قدم النبى» ﷺ لانه عند إدارتهم، ثم ركب الباشا سفيته وركب جميع الأمراء والاعيان وأعضاء الديوان وأصحاب الألقاب سفنهم تغمرهم البهجة والسرور وسبقوا سفينة الباشا وأطلقوا بنادقهم ومدافعهم ابتهاجا وأمر جميع البكوات موسيقيهم بالعزف وقرع الطبول حتى وصلوا بسفنهم إلى القياس فى ساعتين. وتناول الباشا الطعام فى مأدبة أغا الانكشارية وقدم إليه كيسا من الذهب وخمسة من الطواشية وخمس بنادق

مرصعة بالجواهر وجوادا مطهما فخلع عليه الباشا كذلك خلعة من فرو السمور. كما أهدى أغا الانكشارية لكل من كتخدا الباشا ومن فى معيته ورئيس الديوان والخزينة دار والمهردار جوادا مطهما ثم ركب الباشا سفينة وبسط شراعها وأطلقت المدافع والبنادق تعبيراً عن البهجة والسرور.

ثم تناول الباشا طعامه فى مأدبة «الشهر حواله» وتلقى الباشا منه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية، كما منح كتخدا الباشا جوادا ونال خلعة من الباشا وتم له التثبيت فى منصبه. وجملة القول أنه فى اليوم السابع لكى لا يقعد الناس عن العمل ويرهقون بالإنفاق ركن بعض الوزراء إلى الراحة والمتعة كالمملوك ثلاثة أيام بلياليها.

وفى اليوم الثالث ركب الوزراء سفنهم ومضت بهم بين التهليل والهتافات، ونزل أغا العزب بقاربه إلى قصر أم القياس ودعى الباشا والكتخدا إلى مأدبة عظيمة يعجز عنها الوصف، وبعد الفراغ من الطعام قدم إليه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية وثلاثة جياد، كما أهدى جوادا إلى كتخدا الباشا. وخلع عليه الباشا خلعة فاخرة وثبته فى منصبه.

بعد ذلك ركب الباشا وموكبه السفن وتم إعلان مظاهر البهجة والسرور، كما أقام كتخدا الشاوشية مأدبة للباشا فى حديقة رمضان بك وقدم إليه ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية وثلاثة جياد، فخلع عليه الباشا خلعة مزركشة وثبته فى منصبه.

وأقام رئيس فرقة المتفرقة خياما وسرادقات فى جزيرة الروضة وأقام مأدبة للباشا فى ظلة فاخرة، وبعد الفراغ من الطعام قدم إلى الباشا ثلاثة أكياس وثلاثة من الطواشية وثلاثة من الجياد المظهمة. فطيب الباشا خاطره بخلعة فاخرة وثبته فى منصبه.

ثم ركب الباشا زورقه وسط قرع الطبول وطلقات المدافع حتى بلغ قصر السبتية وعندما رسى زورقه أطلق جند الإسلام مدافعهم وبنادقهم من السفن ومن الخيام والسرادقات التى نصبت على جانبى النيل، وصدحت الموسيقى وعمهم البشر والبهجة وكانهم شاهدوا خيال الظل. ثم تفرق الناس ومضى بعضهم مع موكب الباشا إلى قصر السبتية. وهناك حضر الباشا وليمة أعدها الروزنامجى أفندى، الذى أهدى الباشا ثلاثة من الطواشية

وثلاثة جياد ومحبرة من الفضة الخالصة وبعض الكتب القيمة. فخلع عليه فروا فاخرا وثبه في منصبه. وبعد الفراغ من هذه الوليمة خرج الباشا في المركب على صهوة فرسه وفي معيته جند الإسلام جريا على العادة القديمة ومضى الجند زرافات زرافات موجة بعد موجة مثنى مثنى منحازين جريا على عادتهم في مظاهر الأبهة والعظمة.

ومر الباشا وعليه قلنسوته السليمة المزينة وعليه قباء من فرو السمور حاملا كنانته المرصعة واصطف الناس جميعا كبارا وصغارا رجالا ونساء شيوخا وشبابا على جانبي الطريق العام في مدينة القاهرة لاستقباله، وعندما لوح الباشا لهم بالسلام ارتفعت أصوات النساء بالزغاريد ودعا له الكبار والصغار والشيوخ والشباب قائلين: «حفظك الله وسلمك يا عزيز مصر يا والي مصر يا وكيل السلطان»، وما إلى ذلك من شتى الألقاب. ثم جاء رئيس سفرائي قافلة الباشا ومساعدوه يحمل كل منهم كيسا من المال ونشروا ما بها من مال على الفقراء الذين اصطفوا يدعون للباشا بكل خير ونال كل منهم نصيبه. آية: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧، الأنعام: ٩١]. واصطف كذلك صبيان المدارس الابتدائية على الطريق العام أثناء مرور الباشا وهتفوا بقولهم: «الله ينصر السلطان» ونال كل منهم كذلك من عطاء الباشا.

وعلى هذا النحو السابق عندما دخل الباشا من باب العزب وزرع عطاياه على البوابين وعندما وصل من القلعة إلى قصره أطلقت سبعون أو ثمانون طلقة من القلعة وأقيم سماع في قاعة ديوان الغوري دعى إليه جند الإسلام جميعا.

ويبلغ عدد المآدب التي تقام طوال سبعة أيام وليال بمناسبة الاحتفال بقطع النيل سبعين مأدبة.

هذا هو قطع النيل بمآدبه ومواكبه واحتفالاته ذكرتها على حد وقوفى على أمرها. وتكثر الهدايا المقدمة للباشا بمناسبة قطع النيل، وهذا ما سأذكره في حديثي عن قوانين التشرifiات في مصر.

غير أنه في عهد «جان بولاد زاده حسين باشا» تدهورت أوضاع مصر وساءت أحوالها إلى حد جد بعيد، ولم يحتفل بقطع النيل ومع ذلك قدموا له الهدايا وإن

قلت ذلك لأن مصر قد أفلست في عهد الكتخدا إبراهيم باشا؛ ولذلك لم يحتفلوا بقطع النيل.

ومنذ القوانين القديمة لسلطين السلف كان يحتفل باثنى عشر عيداً منها عيد «قطع النيل» وقد اشتهر هذا الاحتفال على لسان مؤرخى العالم من الترك والعرب والمعجم. وكم من آلاف الشعراء والبلغاء قرضوا فيه الشعر. فما كان لهذا الاحتفال من نظير على وجه الأرض.

الفصل السادس والأربعون

أوصاف نهر النيل المبارك وهو ماء الرحمة

ليكن معلوما لدى الأخوة من السياح والرحالة أن الأقوال تضاربت كثيرا فيما يختص بالأنهار الجارية على وجه الأرض.

يقول عوفى عن ابن عباس رضى الله عنه: «إن على وجه الأرض عيون وجداول بقدر ما فى بدن الإنسان من شرايين».

وعلى حد قول بطليموس الحكيم على وجه الأرض مائتا نهر عظيم وأربع وأربعون ألف عين جارية. وهذه الأنهار لا يزيد الواحد منها على ألف فرسخ ولا يقل عن خمسين. ومن بين مائتى نهر عظيم أربعة عظيمة يمدحها الله والناس. أما أعظمها فالنيل المبارك وقد ذكره الله فى كتابه العزيز ست عشر مرة تصرىحا وتزريها. يقول تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيُْونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]. وقد فسر المفسرون هذه الآية أن المقصود بها أرض مصر ونهر النيل.

وفى آية شريفة أخرى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]. وقيل إن المراد بذلك أرض مصر ونهر النيل. وكمن من آيات جاءت بشأن النيل.

كما وردت أحاديث نبوية كثيرة خاصة بالنيل. يقول المصطفى ﷺ: «سيحون وجيحون والنيل والفرات كلها من أنهار الجنة» أخرجه مسلم منفردا بذلك^(١). وهناك أحاديث أخرى كثيرة إلا أننى اكتفيت بهذا القدر.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب صفة الجنة والنار (١١) باب ما فى الدنيا من أنهار الجنة حديث رقم (٧٠٢)، ولفظه: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة». قال شارحه: سيجان وجيجان نهران بالعواصم عند المصيصة وطرسوس، وهما غير سيجون وجيجون. وخطا من قال من الشراح أنهما سيجون وجيجون اللذان ببلاد خراسان. وذكر مسلم فى كتاب الإيمان فى حديث الإسراء أن الفرات والنيل يخرجان من الجنة. وفى البخارى من أصل سدره المنتهى.

أما نهر النيل فبتقدير العلى القدير وعلى حد قول بطليموس الحكيم فينج من جبل القمر فى جنوب مصر من مسافة تقطع فى سبعة أشهر. ومنبعه اثنتا عشرة عيناً عظيمة، وهذه العيون الاثنتى عشرة تقع جنوب خط الاستواء، وتصب فى بحيرة عظيمة كأنها البحر الخضم، ويتفرع النيل من هذه البحيرة ويمر هذا الفرع فى شمال الإقليم الاول والإقليم الثانى حيث ولايات قرمانقه، وققان، وبلاد الفونج، وبلاد البربر، والنوبة، وصاى فى أقصى حدود مصر الجنوبية حيث السقعة العظيمة التى يحرسها جند من الأوجاقات السبعة فى مصر وذلك بمسيرة شهرين يعبرها النيل ويخترق مدينة جرجا، وولاية إسنا وأسوان ثم يمر من مدن المنشية طهطا وأبى تيج وأسيوط ومنفلوط، وصنبو، والمنيا، والفشن، وبني سويف، ويستغرق ذلك شهراً إلى أن يبلغ مصر أم الدنيا، وعلى بعد خمسة أميال من مدينة القاهرة وفى الموضع الذى يسمى «بطن البقر».

اهم المدن الواقعة على فرع دمياط

أولا مدينة ميت غمر فى كشوفية المنصورة، وقبالتها قصبة زفته فى أرض الغربية، ومدينة المنصورة شرق النيل، وقصبة سمنود فى الغربية، ومدينة فراسكور شرق مدينة المنصورة، ثم مدينة دمياط وهى ميناء عظيم فى الجهة الشرقية من ضفة النيل. ثم يبلغ النيل موضعا يسمى «مرج البحرين» حيث يصب فى البحر الأبيض وتختلط مياههما.

المدن التى يمر بها فرع دمياط بعد تفرعه من «بطن البقر»

أولها محلة طنوب، ومحلة بشير، ومحلة أبى على، وتقع هذه القرى فى أرض الغربية وكذلك محلة مالك، ومحلة مطوبس، ومحلة الأمير على، ومدينة رشيد التى تقع فى أرض البحيرة. ويعبر النيل رشيد وتختلط مياهه بالبحر الأبيض فى الموضع الذى يسمى «مرج البحرين».

وهذه المدن السالف ذكرها تقع على جانبى نهر النيل وعددها مائة وستون مدينة. وحتى قلعة صاى وبمسيرة ثلاثة أشهر تقع ألف وثلاثمائة قرية معمورة جميلة، أما عدد القرى الواقعة على ضفتى النيل فالله أعلم بعددها الحقيقى.

وبحساب الفرسخ فإن طول النيل من منبعه حتى مصبه فى البحر الأبيض يبلغ ثلاثة آلاف فرسخ.

ويتفرع النيل تسعة أفرع، وكل فرع منه يتجه غربا حيث ممالك السودان وفاس ومراكش، بيد أنني لم أبلغ تلك الجهات. إلا أنني بلغت الأماكن الواقعة في المنطقة الاستوائية جنوب النيل عند خط عرض ٢ درجة وخط طول ١، وسوف أكتب عنها تفصيلا عند الحديث عن سياحتي في بلاد الفونج. ومن عجب أن تكون سياحتي هي سيرتي.

والأفرع التسعة للنيل التي تجري غربا في ممالك فاس ومراكش طولها جميعا ألف فرسخ وتصب في المحيط، وسألت عن ذلك بعض الأشخاص الذين بلغوا بلاد الفونج، فقالوا إن التماسح لا يوجد في تلك الجهات من نهر النيل.

وفي عهد خلافة السلطان المؤيد مضى بعض التجار إلى منبع النيل مرارا، وكانوا يصلون إلى هناك في ثمانية أشهر واشتروا سلعا من هناك وعادوا. وأهل بلاد الفونج (فونجستان) يبلغونه في أربعة أو خمسة أشهر، ويبيعون سلعهم للبرتغاليين والفرنجية ثم يعودون إلى فونجستان كذلك في أربعة أو خمسة أشهر.

ولأن ملك فونجستان هذه على مذهب الإمام مالك، فهو راسخ الاعتقاد في الشيخ البكري في مصر، ويزوره رجاله على الدوام.

وبناء على هذه الأصره يرسل ملك فونجستان إلى الباشا في مصر سفراء حاملين الهدايا من تروس من جلد الفيل ومن الفيل وقرون وحيد القرن وجلد الضب وخشب الالبانوس والزباد. وشعب الفونج يستوطن ساحل النيل، غير أن ساحل النيل في تلك البلاد قليل العمران. لأنهم قوم كثير الترحال.

أما المناطق المستبحرة العمران فتمتد من قلعة الصاي ومدينة در وقلعة إبريم وولاية الشلال، وأسوان، وإسنا، ومدينة قوص، ومدينة قنا، وتوره، وجرجا وبقية المدن سالفة الذكر حتى مدينة القاهرة ومدن دمياط ورشيد. وهذه المدن جميعا واقعة على ضفتي نهر النيل.

وقد وردت أماكن العمران في مصر وتضاريسها برا وبحرا في كتب الهيئة لبابا مونظه وأطلس ومينور وفي تواريخ الخطط.

ذكر الميزات الحسنة لمصر

لقد قمت بسياحتى ولم أذكر إلا ما تأكدت منه اعتقاداً جازماً.

وفيفض النيل المبارك وتجرى مياهه فى ٧٠٠٠ خليج، و ١١٠٠٠ ترعة فى مصر وسوف أذكر كلا منها فى حينه بمشيئة الله تعالى، وتجرى مياه النيل فى تلك الترع وتروى أراضي مصر الزراعية. والمطر لا يهطل فى إقليم مصر إلا مرة أو مرتين فى العام. وما لم يفيض النيل والعياذ بالله وقع القحط وغلت الأسعار، ومن هنا كان سر الاحتفاء بقطع النيل وفرط السرور به. ولولا النيل لكانت مصر جزيرة قاحلة.

وإذا ما جاء النيل على ما يرام أصبحت جميع ولايات مصر بحراً. والقرى فى مصر سواء كانت أوقافاً لمكة والمدينة أو كشوفية أو تابعة للنتزم أو أمين والقصبات والمجالات والكفور فعددها (١١) وجميعها تقع على أرض مرتفعة وكان كلا منها جزيرة داخل النيل الذى يشبه البحر وتبقى النخلات مرتفعة الرأس فى ماء النيل.

وقد أقيمت مملكة مصر وفق علم الهندسة لأن بين كل قرية وأخرى مسافة يسمونها «ملاقى»، وحيثما يطغى النيل على تلك الوديان أقاموا جسوراً من التراب للمضى من قرية إلى قرية. والسد منها يرتفع بمقدار خمس أو عشرة قامات، وحينما يفيض النيل يعبر الناس على هذه الجسور بخيلهم وحمهم، وإذا ما بلغ النيل هذه السدود وامتلأت به روى الأرض عشرة أيام، بعد ذلك تفتح هذه السدود ويجرى النيل إلى واد آخر وتصبح مياهه وكأنها البحر ويروى أرض بلد آخر، وتلافياً لوقوع النزاع بين الناس على ماء النيل يرسل الحاكم طائفة من جنوده مدججين بالسلاح لإجراء ماء النيل من قرية إلى أخرى لريها، وما لم يوجد أحد من قبيل الحاكم نشب القتال بين البدو والفلاحين.

وفى بعض الجهات قناطر أو جسور يعبر النيل من تحتها. ويسمون النيل إذا دخل قرية ترعة كذلك، ويعبر ماء النيل فى هذه الترع ويروى أراضي الولايات.

وأرض مصر كلها فروع من النيل وخلجان وترع وبسرك شقها مهندسو الكهنة بفضيل تعاليم النبى إدريس عليه السلام. وهذا كله ما يستحق المشاهدة.

(١) يياض فى الاصل.

وعند قطع النيل في رأس العام الحالى وفي السنة الماضية تسلم جميع الكاشفين والأمناء والملتزمين المحاصيل من القرى بتمامها، وعندما سلموها زالت عنهم سلطتهم وصلاحتهم وعين مكانهم نائب، ثم عين لكل كاشف أغا لدى الباشا. وعندما دعى جميع الكاشفين للحضور في ديوان مصر أهدى كل أغا قدم على الكاشفين أربع آلاف پاره وجواداً مُطَهَّمًا وإذا كانوا قد أعطوا أكثر من ذلك فهو كرم من الكاشفين.

وعزل الكاشفين في رأس السنة القبطية، وبذلك اليوم يبدأ الاحتفال بمولد السيد البدوى الذى يدوم خمسة عشر يوما بلياها وسط جو من الصخب والضجيج. إنه مولد جد عظيم، بالمشاهدة حقيق.

وإذا ما أفلس أحد الكاشفين أو الأمناء أو الملتزمين فر من الأغا الذى جاء لاستدعائه بأمر الباشا ولجأ إلى تكية أحمد البدوى معتصما بها. ولو قدم الملك بنفسه للقبض عليه لما استطاع إلى ذلك سبيلا. وإذا ما حاول أحد إخراج هذا الرجل من التكية بالقوة شلَّ ساعده. ومن في هذه التكية من علماء وشيوخ ومتصوفة، لا يسلمون لصاً ولا مفلساً ولا قاتلاً، إلا أنهم يطيعون أولى الأمر من الحكام. أما الكاشف الشريف فيذهب إلى الديوان، ويحاسب ويدفع ما فى ذمته من مال السلطان ويحظى بخلة.

ذكر الأفعال الشائنة في مصر

أما من أفلس من الكاشفين طُرح فى سجن ديوان الغورى، وتعرض لعذاب مهين يندى له جبين من غلب على طبعهم الحياء، ويهلكون خجلا من قبح ما يتعرض له الكاشف المفلس من عذاب. ويبيع كل ما يملكه فى المزاد ويخلو وفاضه. وإذا ما أدركت الوزير الرحمة له، خلع عليه خلة فى العام المقبل وأعادته إلى منصبه، فيطيب خاطره.

وتصبح الولاية كأنها بحر طيلة ستة أشهر بتمامها بسبب قطع النيل، ولا يستطيع الكاشفون مباشرة أعمالهم طيلة ستة أشهر بتمامها، ويرسلون من ينوب عنهم يعاونهم خمسمائة أو ستمائة رجل بسفنتهم.

وفى ذلك الوقت يكون الفلاحون وكانهم تسنين ذو سبعة رهوس ويقعدون عن العمل ولا مال لهم من الأرض التى زرعت. فيركب مجرموهم سفنتهم ويتقلون من ولاية إلى

أخرى مُغيرين سالبين ناهيين.

وبما أن الكاشف ليس له جند من الأوجاقات السبعة، لا يخشى الفلاحون من نائب وتثور ثائرتهم ويثار بعضهم من بعض لعدم وجود من يخضعهم من الحكام. وهؤلاء الفلاحون والبدو، منذ عهد قابيل وهابيل ابني آدم - عليه السلام - طائفتان؛ طائفة «بنى الحرام» وهم شجعمان وهم ذرية قابيل. وطائفة أخرى تسمى «بنى جذام» وهم ذرية هابيل وهذه الطائفة غاية في الخبث ولصوص أشرار، وهم إذا تسلطوا على مكان أصابه منهم بلاء كأنه بلاء الجذام، ولكن منهم من لهم في الحرب ضراوة ورسالة وهم ذرية هابيل.

وهناك قرية أهلها جميعا من بنى الحرام وأخرى أهلها من بنى جذام، وبين الفريقين اللدد في السعداء والخصومة. ومنهم من يجمع حوله عصاية يغير بها على القرى إما عبورا على الجسور أو بقواربهم. ويتقاتلون ولا بد أن تكون القلبة لأحدهم. أما المغلوبون فيعمل السيف فيهم شيوخا وشبابا، وتبقر بطون نسائهم ويخرجون منها الأجنة ويحرقونها ويقطعون ثدى النساء ويسألنهن عن مالهم المدفون ويعثرون عليه حتما ويستولون على كل أنعامهم ويضرمون النيران في بلدة المنكرين ويجعلون ملكهم خرابا يبابا.

وبعد أن يغتنموا ما يغتنمون من أموال يتغنون بالمواويل ويمرحون في صخب وضجيج ثم يعودون إلى بلادهم.

أما أصحاب البلدة التي نهبت فيفلسون ويخلو وقاضهم بعد أن أضرمت النيران فيها اللهم عافنا.

إن فلاحى مصر طائفة من قوم فرعون، فهم جبابرة فيهم عنف وفساق وحساد وهذا ما ينبغي أن يُعرف من طباعهم.

ولكن بعد ثلاثة أشهر من قطع النيل ينحسر ماؤه ويثر الفلاحون بذورهم فى الأرض غليظة الطين، ويدأون فى زراعتها وينشغلون بذلك. وفى ذلك الوقت يطيب الكاشفون

والأمناء والملتزمون نفسا ويهدأون بالا .

وفى شهر بابه وهاتور من السنة القبطية يمضى الكاشفون فى جنودهم لتخضير الولاية أى بذر البذور وبعد شهرين يعودون إلى القاهرة .

ثم يصطحب كل كاشف فرقة من جند الأوجاقات السبعة طبق ما جاء فى قانون السلطان سليم ، ويمضى كل كاشف إلى ولايات حاكم جرجا وفى معيته ألف أو ألف وخمسمائة فارس لياشر مهام منصبه . وكل ملتزم يستعين بأربعين أو خمسين أو مائة من فتيان الترك الأشداء لإحكام سيطرتهم على القرى ومباشرة مهامهم ، وعندئذ تبطل سلطات النواب والمسلمين المعينين من قبل الأوجاقات السبعة ، ويؤول الأمر والنهى إلى الكاشفين .

وفى أيام فيضان النيل يقبضون على العصاة والمجرمين عن يغيرون على القرى والقصبات ، حتى إذا اختفوا فى حمرهم أو فى قرون ثيرانهم ، ويأخذونهم بأشد العقوبة ، وباستجوابهم يرشدون عن سواهم فيتم القبض عليهم ويسلخون جلودهم أحياء ويقطعون أرجلهم وأيديهم ويستردون منهم كل ما سلبوه من أموال ، ثم يقتلونهم جميعا وذلك لصالح حال العالمين .

فى وصف جراحة جبابرة مصر

ومن عجب أن قبض ذات مرة على أحد اللصوص من فلاحى مصر بكيفية ما ، وعندما حان وقت إعدامه أعطى الكاشف كيسين أو ثلاثة ووسط إليه الرجاء أن يُخرجه فى موكب وكأنه بك ويمضى به إلى ديوان مصر . وفى التو تسلم الكاشف الأكياس وقبّل منه رجاءه ، وساق الجلادون هذا اللص إلى ميدان توقيع العقوبة وصلبوه وسلخوا جلده من الظهر إلى الصدر ومن الصدر إلى الظهر ، وهو حى يدخن التبغ ويتغنى بالموال ويمدح من قبض عليه ومن صلبه ومن قطع يده . وقطع الجلادون أرجله ويديه دون أن يتأوه متألما ، وبعد ذلك ألقوا سلخ جلده وحشوه تبنا وأركبوا جثته على حمار مغطاة بملابسه ومضوا بها فى موكب إلى ديوان مصر قائلين إنها جثة لص وهذا منظر عجب .

وعلى هذا النحو يُحَصَّلُ المال السلطاني من كل ما يطير في الجو ويدب على الأرض ويسبح في الماء ويسلمونه إلى الباشا ليضيفه إلى الخزانة السلطانية. وهكذا يحصل المال السلطاني من الرعايا الفلاحين.

وهؤلاء الفلاحين قوم حاسروا الرأس حفاة يلبسون القباء واللقاع^(١)، غير أنهم ثراة وهم يكدون في العمل كفرهاد^(٢).

ولقد نظر الله عز وجل إلى مصر بعين الرحمة ولذا يسمونها أرض الذهب وهم على الحق والصواب في تسميتها بذلك الاسم، ولقد تكلم العظماء عن مصر فقالوا: «إن نيلها عجب وأرضها ذهب وهي لمن غلب».

وحقا إن من غلب عليها كان له الحكم فيها. وقد حكمت غلايا منذ عهد الصليق يوسف. ولم يكن سلاطينها من أهل الحب والنسب. وأهلها ليسوا أهل المسكنة وجميع جنودها من العصاة الطغاة وهم يحكمون بقوتهم وجبروتهم.

وأصل مقولة أنها تُنبت ذبا، هو أنهم إذا بذروا في الأرض كيلة من البذور نبت محصولا يقدر بعشرين كيلة، ويبيع بدينار من ذهب.

وثمة ميزة لماء نيلها وفولها هي:

أنه إذا شرب منه أحد ولو كان تركيا ثلاثة أعوام أصبح جبارا عتيا، أما نساؤهم فيصبحن غاية فسى حسنهن ويذهب حياؤهن. وإذا شربت الخيل من ماء النيل أصبحت جامحة وخرجت إلى صحراء قطية وأم الحسن ولا تبلغ بلدا آخر. أما حُمُرها فهي

(١) القَبَاءُ: ثوب يُلبس فوق الثياب أو القميص، ويتمنطق عليه. ويقال له أَيْضًا: القفطان.

وَاللَّقَاعُ: ما يغطى به الجسد كله كساءً كان أو غيره. وَالْمِفْعَةُ اللَّقَاعُ.

(٢) فرهاد هو اسم حفار ونقاش مشهور في الأدب الفارسي، له قصة حب مأساوية مع من تدعى «شيرين» جارية أرمينية كانت للملك خسرو برويز أحد ملوك الفرس الساسانيين. انظر: حين مجيب المصري، فارسيات وتركيات ص ٣٩.

سلسلة القيادة تهملج^(١). وثيرانهم التى تطهر الترع والخلجان تشبه جاموس «أدنه»^(٢) وهى غاية فى شراستها. وكان الكهنة فى ماضى الزمان يحفرون الخنادق والجداول بمئات الآلاف من هذه الثيران، كما استخدموها كذلك فى حفر الخلجان التى مست الحاجة إلى حفرها.

أسماء الشهور باللغة القبطية

طبق علم الهندسة، قَسَمَ حكماء الكهنة فى مالف الزمان النيل إلى أقسام . ففى العام تكتسى أرضه أربعة أثواب.. وهذه الأقسام الأربعة انقسمت بدورها إلى اثنى عشر شهرا وانقسم كل قسم إلى ثلاثة أشهر، وبذلك يصبح عدد الشهور اثنى عشر.

الفصل الأول:

وأسماء هذا الفصل فى اللغة القبطية هى: أبيب ومسرى وتوت وهذه الأشهر تسمى فى اللغة العربية شهر ذى القعدة وذى الحجة والمحرم، واقتضت حكمة الله أن يوافق شهر توت شهر يوليو على الدوام فى بلاد مصر. ولا تدور هذه الشهور كالشهور العربية. وفى شهر توت يصبح النيل المبارك كأنه البحر طيلة ثلاثة أشهر وتفرق مياهه أراضى مصر وتكتسى حلة حمراء لأنه فى ذلك الوقت يجرى الطين الأحمر القانى فى ماء النيل، وهذه الأشهر الثلاثة هى أشهر الكساد فى مصر.

الفصل الثانى:

أما هذا الفصل فهو الشهور المسماة «بابه وهاتور وكهيك». وتسمى فى اللغة العربية صفر وربيع الأول وربيع الآخر، وفيها ينحسر ماء النيل عن كل الأراضى فى مصر وتصبح هذه الأراضى طينة فى سواد المسك والعنبر الخالص، ويصبح ماء النيل كما ورد المصفى. ويشرع الفلاحون يزرعون هذا الطين المتخمر بيد القدرة. وفى هذا

(١) هملجت الدابة: سارت سيرا حسنا فى سرعة.

(٢) أدنه أو أطنه، مدينة فى الأناضول.

الوقت تكتسى أراضي مصر حلة عباسية سوداء. وما أن يذر الفلاحون بذور البرسيم إلا ونمت فى ليلة واحدة فى طول شبر فترعى الأنعام فيه وتضمن أجسامها. ثم تخلع مصر بزروعها الحلة العباسية السوداء وتكتسى قباء أخضر من زمرد ويعود إليها شبابها وترتد إلى الناس أرواحهم.

وفى هذا الوقت يشتد الشتاء فى بلاد الترك، أما فى مصر فيكون الربيع فى أوله وتخرج الجياد إلى المراعى.

الفصل الثالث:

وهو «طوبة وامشير وبرمهات» وهذه الأشهر تسمى فى العربية جمادى الأولى وجمادى الآخر ورجب، وتخلع أراضي مصر حلتها المخملية الخضراء وتلبس خلعة فاخرة كالزعفران الأصفر وتصبح وكأنها ذهب إيزيز، وتصبح جميع الزروع وكأنها تثر الجواهر وهذا الوقت وقت البيدر، ووقت تحصيل المال السلطاني وقدره اثنتى عشرة خزانة وتحصل كذلك خزائن الأوقاف. إنه موسم الحصاد.

الفصل الرابع:

وهو أشهر برمودة وبشنس بؤونه أى أشهر شعبان ورمضان وشوال وفى هذه الأشهر الثلاثة يكون موسم الحصاد وتصبح الأرض صفراء كأنها الذهب، ويصدق القول بأن نيلها عجب وأرضها ذهب. وتسبق جميع الماشية والدواب إلى البيادر وتاكل الماشية كل الأعشاب، ثم تكتسى أرض مصر حلتها العباسية السوداء ثانية ويجرى النيل كما قدر الله له أن يجرى، وهو على تلك الحال إلى أبد الأبدین، وبإلها من حكمة إلهية عجيبة والدهر يدور ويدور على هذا من حاله. وشهورنا هى التى تدور أما الشهور القبطية فلها الثبات. تلك أحوال الدنيا ولا وجود لجو مثل جو مصر.

ذكر مضار ماء النيل

كثر القيل والقال فيما يتعلق بالنيل، غير أن هناك حديث نبوى شريف مؤداه أن النيل نهر من أنهار الجنة.

حقاً إنه ماء الجنة وله لذة جعلها الله لماء قلعة بلاد الترك أو لماء أربعين عيناً في اسطنبول. والنيل وإن لم يمتزج ماؤه من منبعه إلى مصبه بماء نهر آخر فإنه يتشعب إلى شعب، وهذا وارد في جميع كتب التواريخ وكتب علم الهيئة، ولكن له طبيعة الامتصاص. وعندما تسقط النقطة ويبدأ النيل الفيضان تجرى مياهه مخضوضرة طيلة شهر بتمامه، وعندئذ ينبغى على الذواقة التحرز من شرب مائه وإذا ما لزم شربه فينبغى أن يقطر ويغلى مع العلك^(١) وبذلك يمكن شربه أو يمضى شرق مدينة القاهرة على مقربة من مدينة عين شمس، حيث البئر التي حفرتها السيدة مريم أم المسيح عيسى عليه السلام، ليشرب من مائها الطيب الذى يشبه ماء الحياة وذلك بفضل معجزة عيسى عليه السلام.

وسبب جريان مياه النيل مخضوضرة طيلة شهر بتمامه، والسبب فى كونه مضراً كذلك، هو: أن هذه المياه ركبت فى الخلجان والترع منذ العام التصرم وقد اختلطت بحشرات وحيوانات سامة مثل العقارب والأفاعى والحيات وذلك من شدة الحر، وعندما تدخل مياه الفيضان آلاف البحيرات تكتسح أمامها المياه المسمومة وتخرجها وبذلك يجرى ماء النيل فى القاهرة أخضر اللون. ومن شرب منه تورمت قلعته أو سائر جسده أو تورمت خصيته، وإذا ما حملت زوجته ولدت طفله مصاباً بالجذام.

وينبغى شدة الاحتراز ويشرب الماء من الأسيلة طيلة شهر بتمامه.

وماء النيل عظيم النفع للحصان والمرأة. ولكن بما أن مصر مملكة الفراشة فإن جوها يجعل الناس جبابرة عتاة متكبرين، وهم سريعو الغضب والمثلل، ولا يدوم لهم السرور لأن أرزاقهم تعتمد على أوقاف الله.

وكم من خواص وميزات للنيل إلا أننا اكتفينا بهذا القدر الذى ذكرناه.

(١) العلك : اللبان. وهو كل صمغ يملك - معنى يمضغ - فلا يسيل من لبان وغيره.

الفصل السابع والأربعون

حيوانات النيل وصفاتها وميزاتها

كم من آلاف الأنواع من الحيوانات المائية تعيش فى مياه النيل، ولعل أهم هذه الحيوانات هو التمساح.

إنه حيوان مخيف مؤذ. وهو موجود كذلك فى بلاد الترك، ويسمونه الضب والوزغة وهو من ثلاثة أنواع متشابهة، له أربعة قوائم وذيل.

ويسمى فى بلاد النوبة. «وولى»، وفى الولاية العلوية «شونشار».

إنه ملعون، يبلغ طوله خمسة عشر ذراعاً، وظهره أزرار أزرار، ولا تؤثر فيه الأعيرة النارية. إلا أنه يطعن تحت إبطه حيث إن جلده فى هذا الموضع من جسمه غاية فى الرقة والتأثر وكأنما هو شحمة أذن. وإذا أطلقت البندقية على رأسه أوردته مورد الهلاك ونفق.

ميزاته

وإذا أخذ الصيادون ريته ومسحوا به جسم شخص أصابته شدة الحر بالآلام فى جلده زال عنه الألم بإذن الله.

وجميع الحيوانات تحرك فكها السفلى أما التمساح فإن فكها العلوى هو الذى يتحرك فينتفتح وينغلق، وفكه السفلى لا يتحرك قط.

وفكه العلوى يحتوى على ستين سناً، أما فكها السفلى فيحتوى على أربعين سناً. وفى فكها السفلى سنان طويلان يبرزان من ثقبين بجانب منخريه فى فكها العلوى.

ولكنى أمعنت النظر فى صغار التماسيح فلم أر أن لهم هاتين السنين الطويلين. أما كبارها فلها سنان طويلان كأنهما سيفان فى طرف الفك السفلى.

وإذا ما توقف إنسان أو حيوان على ضفة النيل يروى ظمأه اقترب منه التمساح خلسة وعاجله بضربة من ذيله ثم سحب فريسته إلى النيل وأجهز عليها وابتلعها.

وليس للتمساح دبر، فإذا أراد أن يقضى حاجته خرج إلى اليابسة.

وثمة نوع من الطيور فى مصر يشبه البط، قصير الرجلين له منقار ومخالب، وهذا الطائر إذا ما شاهد التمساح اقترب منه وتحرك حركة أو حركتين بجانبه. وإذا ما شاهد

التمساح هذا الطائر سُر. وإذا ما كان هذا الطائر جائعا ولم يكن التمساح قد قضى حاجته بعد. يرفع التمساح منخريه ويفتح فاه ليدخله هذا الطائر حتى يبلغ بطنه، ثم يشرع فى التقاط ما فى أحشائه من فضلات، ويرتاح التمساح بذلك راحة ما بعدها راحة، ويبحث هذا الطائر عما فى أحشاء التمساح من ديدان ويأكلها وبذلك يشبع من جوع. كما أن التمساح يتخفف من ثقل ما فى جوفه من فضلات. يا لها من حكمة عجيبة.

وهكذا يؤدى الطائر خدمة لهذا التمساح.

ومن الطيور من لا تجد ما تريده من بطن التمساح فتدخله ثانية وتخرج كثيرا من فضلاته. إلا أن التمساح حينما يستلج يتلج الطائر كذلك، وحينما يدخل الطائر فم التمساح يضربه بعظمة مديبة فى ظهره عدة ضربات فى منخريه فيفتح فاه من شدة أله وكأنه تنين ويخرج الطائر. ويا لها من حكمة غريبة عجيبة، فكل تمساح لا دبر له قيد الله له طائرا يخدمه، يفعل الله ما يشاء بقدرته.

ومن عجب أن هذا التمساح هو تنين النيل، وكل مخلوق يهابه. إنه يفرسها جميعا وليس فى النيل أسرع وأقوى منه. بيد أنه شديد البطء على اليابسة لأنه قصير الأطراف فهو يزحف كذلك على بطنه ولا قدرة له على تحريك جسمه فى سرعة، ولا يتجول كثيرا وليس فى مقدوره البقاء خارج الماء أكثر من ثلاثة أيام وإلا نفق.

العدو اللدود للتمساح

لقد خلق الله للتمساح من يسبب نفوقه، إنه ابن عرس وهو حيوان ذو أربع قوائم عدو الفأر إلا أنه يشبهه، وهو حيوان كثيف الشعر يعيش فى النيل، وهو كالتمساح يستوطن اليابسة ويخرج إليها يزحف فى الرمال على الجزر ويبحث عن التمساح لأنه عدو لدود للتمساح ويقتنص كذلك الطائر الذى يستخرج فضلات التمساح.

ويخرج هذا الحيوان عندما يخرج التمساح لقضاء حاجته ويقترّب منه والتمساح لا يراه لأن عينى التمساح فوق رأسه وليس له عتق فهو جسم من قطعة واحدة لا يلتفت يمينه ويساره على اليابسة. وحينما يأتى الطائر المذكور إلى التمساح ليشبع جوعته يفتح

التمساح فاه وعندما يدخل السطائر ينقض ابن عرس على التمساح ويدخل فاه كذلك فيختبط التمساح ويضرب متاوها ثم يطرح نفسه فى النيل .

واتفق ذات مرة أن جئنا من مدينة أسوان فى سفينة فرأيت تمساحا عظيما فى النيل يتموج كأنه البحر الهادر ويميل يمينه ويسرة فى سرعة البرق الخاطف ويتحرك كأنه سهم منطلق من قوس . ويرتفع ماء النيل من فيه إلى ارتفاع منارة، فسألت ملاح سفيتى قائلا: يا حاج رشيد لماذا يصنع التمساح هكذا؟ فأجاب قائلا: يا سيدى ربما كان فى عراك مع تمساح أكبر منه أو أنه يبحث عن أنثاه .

وعندئذ اقترب التمساح من سفيتنا فأمرت خدمنى أن يطلقوا عليه النار، فأطلقوا عليه رصاصتين إلا أنهما لم تحدثا فيه أثرا . وفى النهاية خرج التمساح إلى الضفة الغربية للنيل وجعل يتململ متألما، ثم بلغنا الضفة بسفيتنا ونزلنا إلى الشاطئ وبينما كنا ننظر حولنا رأينا ابن عرس يخرج من فم التمساح ويهرب إلى النيل ثم نفق التمساح وكان طوله اثنتين وثلاثين قدما .

ومن التماسيح ما يبلغ طول الواحد منها أربعين أو خمسين قدما . ومثل هذه التماسيح العملاقة لا وجود لها إلا فى ولايات إسنا وأسوان .

وثمة قلعة تسمى «الحفير الكبير» وكانت لـ «كور حسين بك» الذى كان بمثابة ملك فونجستان، ولهذه القلعة باب حديدى سُمِّرَ على مصراعيه جلد تمساح عظيم، وهذا الجلد بلا رأس ولا ذيل، وقد قست طول الجلد جذعه بالذراع فوجدت أن طوله أربعة عشر ذراعا، وعرضه سبعة أذرع، فأخذنى شديد العجب، فأخبرنى شيوخ فونجستان عن وجود تماسيح أضخم من هذا التمساح .

عدو لدود آخر للتمساح

وثمة عدو لدود آخر للتمساح هو «فرس النهر» ولكثرة وجود هذا الحيوان على حدود مدينة دنقلة وبلاد النوبة تنذر التماسيح هنالك .

ويسمى التمساح فى بلاد النوبة (وولى)، وفى الولايات العلوية (شوشار) .

عجيبة من العجائب

ومن عجب أن هذا التماسح يخرج إلى الجزيرة مع أناء وعند الجماع تترقد الأنثى فوق ظهرها، وبعض البدو ممن أصيبوا بالسلان وأرادوا البرء منه أو استجابوا لأنفسهم الأمانة بالسوء، يختبئ الواحد منهم في الرمل، وقبل أن يجامع التماسح أناء وهي على ظهرها يخرج الرجل من كمينه ويطلق صيحة عالية، فيجفل التماسح الذكر ويطرح نفسه في النيل، إلا أن أناء تظل على ظهرها لا تحرك ساكنا فهي لا تستطيع أن تتحرك لأن أطرافها قصيرة وهي تسيح في الماء بغمها وذيلها، وحتى يتم الجماع يغطي الملعون الذي يريد الإتصال بأنثى التماسح قدميها الخلفيتين بالرمال ويغمر كذلك ذيلها بالرمل، ثم يشرع في فعله الشنيع دون خوف ولا حياء.

ويقسم من يفعل هذا أنه وجد لذة عظيمة من ذلك، ويقول إن جماع أنثى التماسح الذ من جماع الفتاة البكر، وبه حرارة شديدة ويقول إن الدم الأحمر يسيل في كل جماع بكر وإذا ما جامع أنثى التماسح أسبوعا بدلا من الزوجة وجد رائحة المسك في أنفه، ودام شذا هذا المسك أكثر من أسبوع.

وفرج أنثى التماسح أبيض مثل فروج جوارى الحبشة وهذا حق. فلقد أرسل حاكم جرجا أنثى تمساح إلى أوزبك بك وكان ظهرها جميلا منقوشا.

حكاية غريبة عن تمساح النيل

أثناء سياحتي في بلاد التلال، اتفق أن تطرق حديثنا إلى التماسح، وكان صاحب منزلنا «أبا جاد الله» وكان شيخا بلغ من الكبر عتيا، كريما من أهل التقوى والصلاح وقص علينا قصته فقال:

حينما كنت شابا كان لي تمساح في النيل، وكان أنثى، وكنت أصطاد السمك بالشبكة وأقتات به، وكنت أصيد أنواعا خاصة من السمك. واتفق أن مر أمامي تمساح يسبح في الماء إلا أنه كان غاية في الجمال فقطعت رؤوس بعض الأسماك التي صدها وألقيتها لأنثى التماسح وداومت على المجئ عدة أيام وكنت ألقى إليها السمك. وذات يوم خرجت أنثى التماسح إلى الشط ومشت ورفعت ذيلها واستلقت على ظهرها،

فتذكرت أن بعض البدو يجامعون التماسيح فطاش عقلى فأخذت عصا، ودستها بين الرمل وبين ظهر أنثى التمساح وقلبها إلى جانبها ولاعبتها ومضت إلى النيل وهى تنظر إلى، وكان هذا حماقة منى، وداومت على فعل ذلك ثلاثة أعوام، وقد عرف عنى أهل عشيرتى فى الشلال ذلك، وكنت إذا تخلفت يوما جاءت أنثى التمساح تبحث عنى، إلا أننى كنت أخشى التماسيح الأخرى فما اقتربت من شاطئ النيل.

وفى كل مرة كانت تأتى أنثى التمساح إلى شاطئ النيل كانت تمح رائحة طيبة فكنت أملاً إصبصاً بهذا الزيت وأبيعه بعشرة قروش طيلة ثلاث سنوات.

واتفق ذات يوما أن وصلت إلى جزيرة من جزر النيل، فتبعتنى أنثى التمساح وخرجت إلى الجزيرة وتدرجت ونفقت، ورأيتها وهبط الليل فرأيت تمساحى وله وجه فتاة تشبه الشمس حسنا إلا أن جسده وذيله جسد وذيل تمساح إلا أن فرجها وأطرافها فرج وأطراف تمساح فطاش صوابى، وربما كانت ابنة شيخ من شيوخ البدو فسحرت تمساحا ولكن لما نفقت بطل السحر، لأن كل مخلوق يموت على صورته الأولى التى ولد عليها. ودفتها فى تلك الجزيرة.

وكان بعض أهالى تلك الولاية حاضرين وشهدوا على ما قصه الحاج أبو جاد الله ففى تلك البلاد لم يكن جماع التماسيح وقتلها وتسمير جلودها على الأبواب أعمالا شائنة بل يعد ذلك شجاعة ما بعدها شجاعة، ولا يعد شجاعا من لم يتعارك مع التمساح، وجعل الحاضرون يتكلمون فى شئون أخرى وقالوا إنهم يزوجون بناتهم من يستطيع قتل التمساح والفقيل، فالتمساح تتين هذه البلاد، وهو يلحق الأذى بأهلها فهو يختطف الناس والدواب عندما يشربون من النيل، ويختطف كذلك الصبيان وهم يسبحون فيه.

سبب جماع الناس للتماسيح

وسبب انتشار جماع الناس للتماسيح فى تلك البلاد هو أن أغلب رجالها مصابون بالسلان لقصر خصورهم، ولكى يبرأوا منه يجامعون التماسيح، وإذا ما جامعوها تحقق لهم الشفاء من هذا الداء، والبعض ممن لا يجامعون التماسيح يجامعون الجوارى

الحشيات السود، وبذلك يشفون، ولهن حرارة شديدة تجذب ما في جسم الإنسان من منى وغيره.

حكمة الله في ميزة التمساح

إذا ما وقع السفاد ^(١) بين التمساح وأثاء على اليابسة، باضت أثاء بيضة في حجم بيضة النعامة، إلا أن هذه البيضة ليست مستديرة وهي منقوشة، وتدفن أثى التمساح بيضتها في الرمال، ثم تغطى إلى النيل ثانية، وتأتى كل يوم لتشاهدها وبعض الإناث تبقى إلى جانب بيضتها. ومن شدة الحر ينضح بياض البيضة وفي اليوم الأربعين يخرج «الصقنقور» من المحة ^(٢).

أما البيضة المدفونة في الرمال فيخرج منها تمساح، ويصبح له غشاء في أنفه فيستطيع أن يسبح في النيل، أما الصقنقور فليس له هذا الغشاء فيبقى على اليابسة. وتبيض أثى التمساح اثنتي عشرة بيضة بعضها تماسيح وبعضها صقنقور إلا أن الصقنقور ينزل الماء ويخرج منه ثانية وليس في مقدوره البقاء في النيل. ويسميه العلماء «سمكة الصقنقور»، وما يتولد من هذا الصقنقور يسمى «الصقنقور البرى» وهو لا ينزل الماء ولا يشربه قط، وإنما يبقى في الرملة والصحراء. وقال عنه العلماء إنه عظيم النفع.

صفات الصقنقور

وللذكر منه ذكران وللإناث فرجان، ويولد الصقنقور من فرجها الأيمن، ويولد الضب من فرجها الأيسر، ﴿رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]. وبعض الناس يصطاده لأن أكله مقو للباه ^(٣) ويقطعون رأسه وذيله مثل ثعبان الترياق الفاروقى، ويرمون الرأس، والذيل في الصحراء، أما جذعه فيجففونه في الظل ويسحقون مثقالا من لحمه مع مثقالين من العنب الأسود في هاوون، وإذا ما أكل على معدة خاوية

(١) السفاد : الجماع للحيوانات.

(٢) المحة : والمالح : المادة الصفراء في البيضة. وأجزاء البيضة على الترتيب : القيص (القشرة)، والغرقى، والآح، والمالح.

(٣) الباه : الجماع.

استطاع أكله أن يظهر رجولته مع عشر جوار في ليلة واحدة واستطاع إرضاءهن جميعا وهو مقو إلى هذا الحد البعيد.

إذا ما عض الصقنقور إنسانا ونزل هذا الإنسان توا إلى الماء نجى ونفق الصقنقور، وإذا ما نزل الصقنقور ذلك الماء هلك الرجل الذى عضه الصقنقور ونجى الصقنقور. ولذا يستلزم على من عضه الصقنقور أن يبادر بالنزول إلى الماء.

طلاسم المقياس من أجل التمساح

تردد على السنة الناس عدة أقوال خاصة فى تسمية أم القياس بهذا الاسم. ففى قول أنه كان لأحد الملوك فى سالف الدهر ابنة رائعة الحسن، واتفق ذات مرة أن كانت هذه الفتاة تسبح فى النيل فاخطفها تمساح. ولما بلغ الخبر أباه الملك أخذه شديد الأسى لما حدث، وفى ذلك الزمان اتفق أن كان سيدى الشيخ أبو بكر البطرانى وهو من كبار أولياء الله الأعظم، فدعا هذا الولى الله أن ينجى الفتاة، فاستجاب الله ورد التمساح الفتاة إلى ذلك المكان الذى اختطفها منه ولم يصبها أى أذى، فابتهج لذلك الملك ابتهاجا لا مزيد عليه، وأقام قصرا فى ذلك الموضع. وسماه باسم ابنته وهو «أم القياس» وكان هذا سببا للتسمية، ثم أمر الشيخ البطرانى بصنع تمثال من الرخام للتمساح ودفن هذا التمثال فى قاع حوض أم القياس، ومنذ ذلك الزمان إذا ما مر تمساح أسفل أم القياس انقلب على ظهره أو خرج إلى الشاطئ هاربا.

ولذلك لا وجود للتماسيح فى الوجه البحرى من مصر. والسلام.

فهرس النيل

يستوطن ولاية النوبة وما وراء الشلالات. أنه حيوان غاية فى الضخامة وكأنه حصان. إلا أن مَعْرَقَتَهُ^(١) وذيله غزيرتا الشعر، وهو كثير التجوال على اليابسة، وإذا ما رأى أحدا هرب إلى النيل وهو يقتات من اليابسة، ويأكل بقدر ما تأكله عشرة جياد ويخرب الحقول، وبعضه يسفد الحجر فيولد منها الجحش ويبقى على اليابسة، وهذا

(١) الْمَعْرَقَةُ: موضعُ العُرْفِ من الطير والخيل.

الجحش جميل الشكل، إلا أنه لا يستطيع أن يحتمل المشقة مثل سائر الخيول، وهو مع ذلك يركب. حتى إن حاكم قوص على الكاشف كان له جحش فرس النيل، وعندما بلغ العام الثانى كنا نلعب الجريد مع الأغوات فى مصطبة على شاطئ النيل وكان هذا الجحش معنا، وعندئذ ظهر على ساحل النيل حصان «سهلى» فالتفت إليه جميع خيولنا وانتصبت آذانها، وفى عينه قصف الرعد، وعندما سمع الجحش ذلك جذب لجامه من يد القواس ووثب بإكافه فى الماء فتبعه جميع الفرسان الموجودين فى ساحة لعب الجريد، إلا أنهم فقدوا أثره فى الماء. وبعد مدة خرج الجحش ثانية منه وقد سال الدم من منخريه وخرج إلى الضفة المقابلة للنيل وخرج ورائه دابة الماء التى تشبه دابة الأرض وطاردت الجحش وهى تعضه حتى قفز الجحش فى الماء وتبعته إلى أن غاب الإثنان فى ماء النيل. ثم برد الجحش على صفحة الماء وجعل يسبح وعبر النيل إلى الشاطئ المقابل فطرح عدة قواسين أنفسهم فى النيل وهم عراة وتعقبوا الجحش وأخرجوه إلى الضفة التى نحن عليها وهو يختلج، ثم خرج فرس النهر من الماء فأطلقوا عليه النار حتى عاد وغاص فى النيل.

وفى اليوم الثالث رأوا جثته عند شاطئ النيل فى قنا، وما رأيت مثل هذا المشهد قط فى حياتى .

وفى تلك البلاد تكثر أفراس النهر.

بقية أوصاف فرس النيل

إنه غاية فى الجراءة ولذا فهو دائم العراك مع التماسح فى النيل ويتغلب عليه، وحيثما وجد فرس النيل لا يستطيع التماسح العيش. وعلى الرغم من أنه يشبه الخيول العادية فإنه رقيق الذيل طويل كذيل الثور. ولأن حافر رجليه الأماميتين متشعب يحل أكل لحمه. وفى جسده وبر متنوع. وفكه الأعلى يتحرك كالتمساح ويصهل كالخيل. ويصنعون من جلده تروسا لا تنفذ السهام ولا السيوف ولا المناخس ولكن ينفذ منها الرصاص، كما يصنعون من ذكره السياط، والجلادون فى مصر يجلدون الناس بذكره.

سمكة الرعاد

وفى نهر النيل فى مصر نوع من السمك يسمى الرعاد، وكل من أمسك بسمكة منه ليأكلها شلت يده فى تلك اللحظة، وإذا ما أطلقها من يده عادت يده سليمة كما كانت من قبل. ولذلك يطلقها جميع الصيادين إذا خرجت فى شباكهم. تزن السمكة الواحدة منه أوقيتين. وهى سمكة صفراء، ولكن كان يوجد منها الأسود فيما مضى. والبعض يصيدها ويحضرون رأسها لمريض اليرقان أو من يشكو من ألم شديد فإذا شفاها حيناً بعد حين شفى من اليرقان.

ميزة هذه السمكة

إذا ما حنط رأس هذه السمكة واحتفظ بنصف منه رجل وبالنصف الآخر امرأة لم يفترقا أبداً، وهذا مجرب.

أما إذا أكل فقد يموت آكله، ويبلغ وزن هذه السمكة أوقيتين وهى مستديرة الرأس، سمينة لينة كالقربة، وإذا ما صيدت سمكة منها ونفقت نفق ألفها. يا لها من حكمة عجيبة.

ميزة أخرى

وإذا ما علق المحموم هذه السمكة فى عنقه شفى بإذن الله. وإذا ما أصيب أحد بالصداع وضعت هذه السمكة على رأسه شفى من صداعه بإذن الله.

ميزة أخرى

وإذا ما احتفظ رجل وامرأة كل منهما بنصفها تحابا ولم يفترقا إلى أن يدركهما الموت. ولما لهذه السمكة من أثر فإن عدة آلاف من الرجال فى صعيد مصر العالى يظلون أوفياء لزوجاتهم الماكرات.

ويسمون هذه السمكة كذلك «حوت إدريس». إنها سمكة منقوشة كالسمكة التى تسمى «سمكة الله»، وهى دواء لما لا يحصى كثرة من أدواء.

وحينما بعث إدريس النبى إلى أهل هذه البلاد أنزل عليه البارى عز شأنه مائدة من السماء، وكانت سمكا مطبوخا وجرجيرا فأكلها، وبعد أن أشبع جوعته رمى شوكةا فى

النيل فخلقت منه هذه السمكة، ثم حرم إدريس على أمته أكل هذه السمكة وأخبرهم بخواصها. وهم منذ ذلك الوقت وإلى الآن يستخدمونها للتداوى. إلا أنهم لا يجترأون على أكلها.

خاصية التمساح

إذا ما أصيب أحد بالصرع - اللهم عافنا - وأحرق كبده تمساح ويخر بها شفى هذا الرجل بإذن الله.

خاصية أخرى

يقضى التمساح حاجته من فمه، فليس له دبر. وإذا كُحِلَّت عينٌ - ابيضت أو غامت - بفضلات التمساح شفيت بأمر الله.

خاصية أخرى

إذا ما نزع عين التمساح وهو حى وعلقت فى عنق مجذوم وجد فى ذلك الشفاء بإذن الله. وكان ابن رئيس الباش بلوك عندما قدم إلى باب اللوق أصيب بالجذام، وتورمت عينه ووجهه وانتشر الجذام فى جسمه من أنفه إلى ركبته. فآكل عدة أوقيات من لحم التمساح ونزعت عين التمساح وعلقت فى عنقه، فأصبح جسد الطفل كالبيض المقشور. وقد شاهدت ذلك بنفسى، وسألت الغلام فقال: والله إن لحم التمساح له رائحة المسك.

صغيرة مضحكة

ثمة حيوان يسمى «كلب النيل» وهو يشبه الضب، له وبر ملون، يعيش فى النيل وعلى ضفافه، وهو عدو لدود للتمساح، إنه يفترس صغار التمساح، ولو لم يأكل صغارها لما كبت له النجاة من كبارها، فهو إذا دخل مرة تحت إبط تمساح لم ينج منه، ويتفق ما فى ذلك شك.

وهذا الحيوان يأكل كبده التمساح. إنه حيوان مأكرو، وشيطان، ومضحك وهو قصير الأطراف. وهو إذا ما ملكه شديد الجوع أكل التمساح بحيلة يندهش لها الإنسان فهذا الحيوان يخرج إلى الأماكن التى يوجد بها التماسيح، ويطلى نفسه بالطين وينام على شط النيل فى الشمس، ويراه التمساح ويظنه فريسة له، فيضربه بذيله ويبتلعه، وفى التو يأكل

كلب النيل كبد التماسح فى بطنه، ويشقها ويخرج منها، وينفق التماسح، لذلك يحتفظ الفلاحون الذين يسكنون شاطئ النيل بأحد أفراد كلب الماء هذا ليأمنوا شر التماسيح.

حكمة عجيبة

ويا لها من حكمة عجيبة إنه حينما يصطاد صيادو السمك كلب النيل هذا يقطعون ذكره ويطرحون الكلب فى الماء ويطلقون سراحه. لأن المصابين بالحمة المحرقة أو الذين يعانون من آلام مبرحة إذا ما حملوه كان لهم نافعا. بعد ذلك يعيش كلب النيل بلا ذكر، فإذا وقع فى شباك الصيادين ثانية رقدوه على ظهره ورفعوا ذيله، فإذا وجدوه بلا ذكر عرفوا أنه قد وقع قبل ذلك فى يد صياد ويتعجبون متضاحكين ويطلقون سراحه. إنه كلب لطيف، مضحك. والسلام.

وإذا ما ذكرنا أوصاف جميع مخلوقات النيل كما شاهدتها لاقتضى ذلك منا تأليف كتاب لأن النيل نهر عظيم كأنه البحر الخضم.

وثمة مملكة تسمى «بلاد علوه» فى جنوب ولاية أسوان، إنها بلاد قليلة العمران وهناك منطقة تسمى «الأبواب» تقع فى الجانب الشرقى لتلك البلاد على ضفة النيل يتشعب النيل فيها سبع شعب، وتجرى مياهه إلى عدة ممالك فى الجهة الغربية ويروى أراضيها، ثم تعود مياهها إلى النيل ثانية وتختلط بها، ولكل فرع منها لون خاص، وتصب جميعها فى النيل. حتى إنه فى عام ١٠٨٣ فى عهد أبى الخير إبراهيم باشا جرى النيل شهرين بتمامهما ومياهه خضراء اللون، فخاف الذواقة من شربها، وكانوا يروون ظماهم من بشر المطرية، وغيرها من السواقي العذبة الماء. وثمة بئر تسمى بئر هامان وزير فرعون فى قلوب على مسيرة ثمانى ساعات من القاهرة، وهى بئر عظيمة وفيها تدور دواليب اثنتى عشرة ساقية، وماؤها رقيق، وبعض العظماء والثراة يأمرؤن خدمهم بإحضار الماء من هذه البئر ويشربون منه، ولا يشرب أحد من ماء النيل وهو أخضر. والسلام. . وهنا نكون قد انتهينا من الحديث عن قطع النيل وأوصافه وخواصه وصفته وحشرات وحيواناته ومواكبه، ولنذكر الآن المواكب الأخرى.

الفصل الثامن والأربعون

وصف الموكب الثالث

وهو موكب رؤية هلال رمضان المبارك (أى موكب المحتسب)

لمدينة القاهرة العظيمة اثنا عشر موكبا للعيد، منها الموكب العظيم لليلة المحتسب ويسميه الصوفية والعارفين بالله. «عيد السنوان» إذ إنه فى تلك الليلة لا يمكن التحكم فى النساء، فهن يخرجن لمشاهدة هذا الموكب، وشرط عقد الزواج هو الخروج فى هذا الموكب فى تلك الليلة. وهذا ما يقضى به قانون مصر.

وقبل هذا الموكب بأسبوع تستأجر الحوانيت فى الأسواق السلطانية بخمسة أو عشرة قروش أو قرش واحد أو يمضين إلى منازل معارفهن.

وخلاصة القول: من الرجال من لا يحق لهم سؤال أزواجهن أين كن فى هذه الليلة، إنها ظاهرة عجيبة.

ولأنها الليلة الشريفة لشهر رمضان المبارك فإن جميع أهل القاهرة يتجهجون ويسعدون وتظل جميع حوانيت الأسواق السلطانية مفتوحة فى تلك الليلة حتى الصباح، وتزدان القاهرة بعدة آلاف من القناديل، وكل أحد يزين واجهة حانوته بِسِلْعِهِ، ويتنظر كل أحد مع أحبابه وأصدقائه موكب المحتسب.

أصل الاحتفال بهذا الموكب:

وأصل الاحتفال بهذا الموكب هو أنه فى عهد ()^(١) وقع الشك فى معرفة غرة شهر رمضان المبارك، وعجز جميع العلماء والاعيان والبكوات وأعضاء الديوان عن معرفة ذلك اليوم. وفى آخر الأمر فى الليلة التاسعة والعشرين من شهر شعبان المعظم أرسل المحتسب بك إلى قاضى عسكر مصر يقول له: إنه ينبغي أن يكون لكم علم بيوم الشك.

وتلقى المحتسب مع موكبه خبرا أكيدا من قاضى العسكر أفندى، ويشر السلطان بذلك والآن ومنذ ذلك الزمان يمضى جميع الناس إلى باب الشريعة تعظيما واحتفاء

(١) بياض فى الاصل.

بحلول شهر رمضان المبارك لمعرفة غرة الشهر الكريم. وهذا فى مصر قانون مرعى منذ عهد ()^(١) وهو الآن من الشعائر، إنه احتفال يعجز عنه الوصف.

والمحتسب بك، على الرغم من أنه مطلق الإرادة فى تلك الليلة وسائر الليالى الأخرى، إلا أنه لا يحق له قتل أحد فيها. وله الحق فى إصدار كافة الأحكام الأخرى، ويطبق القانون والعرف، وله الحق فى توقيع عقوبة الغرامة والسجن.

ليلة رؤية هلال شهر رمضان المبارك

وفى تلك الليلة مضى المحتسب أغا والصوباشى مع خمسمائة من رجالهما فى أبهة وجلال متحاررين قارعين الطبول، ودخلوا من باب العزب، وصعدوا إلى الباشا بعد العصر فى ديوان الغورى وعند لقائهم به قبلوا الأرض تحت قدمه، فأصدر الباشا أوامره بأن تخلع على المحتسب خلعة فاخرة عبارة عن حزام من فرو السمور مخيط بخيوط الذهب والفضة، كما وضع الباشا عمامته السليمية بنفسه على رأس المحتسب، كما وضع على رأسه كذلك ريشتين سلطانيتين مزيتين بالجواهر، وقال له: بلغ سلامى إلى شيوخ الإسلام على المذاهب الأربعة والقاضى عسكر، وتعرف صحة الخبر عما إذا كانت غرة شهر رمضان غدا، وإذا تلقيت الخبر السار أخبرنا إياه.

وما أن قبل المحتسب الأرض حتى قال كتخدا الباشا للباشا: يا مولاي لقد أنعمت على عبدك المحتسب بخلعة سلطانية وفق القانون القديم، ولى الآن رجاء أبسطه إليك وهو أن تجعل على نفقات الموكب من بسط ومنع لفرق التوفنكجيان والسقائين والشطار وفرق الموسيقى العسكرية. وقد بسط هذا الرجاء إلى الباشا وهو يقبل الأرض تحت قدمه، فقبل الباشا، وأمره بأن يذهب لإعداد العدة للموكب، فقبل المحتسب الأرض ثانية وخرج مع الكتخدا، وتولى كتخدا البوابين رئاسة أغوات الباشا نيابة عن المحتسب وكتخدا الباشا، وخلع الباشا عليه خلعة فاخرة، فقبل الأرض تحت قدمه ومضى.

(١) يياض فى الأصل.

بعد ذلك دخل المحتسب مع قادة الجند من الأوجاقات السبعة المكلفين بالإشتراك في الموكب ونالوا خلعا من الباشا الذي شدد في التنبيه عليهم بأن يملكوا زمام جندهم في تلك الليلة، فقال قادة الجند: سمعا وطاعة وقبلوا الأرض، وخرجوا.

ثم قدم بعد ذلك الصوباشي مع الدويدار (أى محافظ القلعة) وخلع على كل منهما خلعة فاخرة، ثم شدد الباشا كذلك عليهما في التنبيه، ثم خرجا.

ثم وقف جميع الجند في ميدان القصر على أهبة الاستعداد، وفي البداية مهد الصوباشي الطريق مع جلاديه، ثم مرت مواكب التتار^(١) والدلاة والكوكلين^(٢)، والجاشنكير^(٣) والكلارجيان^(٤) والموسيقى العسكرية والصرّاجين والمتفرقة وموكب واجب الرعايا وموكب رؤساء البوابين وجنائب الباشا التسع ذات السروج المرصعة بالجواهر، وشطار الباشا وفي يديهم البلطة الحادة، مع المحتسب أغا، وكتخدا البوابين متحاذين، وعزفت فرق الموسيقى العسكرية التسع الخاصة بالباشا ومروا من أمامه، ونزلوا من القلعة. ولم يكن هذا الموكب يضم أطواغا ولا أعلاما ولا علم رسول الله ﷺ وعلى هذا النحو نزلوا من القلعة، ولم يشترك في هذا الموكب من جند الأوجاقات السبعة إلا مائتا جندي من كل أوجاق ولا يشترك أكثر من هذا العدد، لأنهم من طائفة الجند وينالون منحا بعد إنتهاء الموكب، وإذا جاء كثير من العسكر لا يصبح في مقدور المحتسب أن يدفع لهم منحا. وقد اشترك في هذا الموكب ألف وأربعمائة جندي من الأوجقات السبعة، وهم مدججين بالسلاح، وفي كامل زيتهم وقد تقدمهم جند الباشا، وخلف الصوباشي مائة من جاوشية الجند يحملون العمدة، ومضى في أثرهم مائتان من فرقة الكوكليان ثم مر موكب التوفنكجيان وبعدهم موكب الشراكسة ثم

(١) التتار: ناقلو البريد.

(٢) الكوكليان: فرقة من الجيش تعرف باسم المتطوعة.

(٣) الجاشنكير: فرقة عسكرية كانت تتولى مهمة ترتيب الموائد.

(٤) الكلارجيان: الفرقة المكلفة بحفظ الطعام والشراب في مطبخ القصر العثماني.

المتفرقة، ثم فرقة العزب ثم موكب ملازمى الانكشارية وعلى رؤوسهم القلانس المزركشة. ثم شطر الباشا وبجانبيهم المحتسب أغا مشاة وفرسانا متحازين.

ووصل الموكب وقت صلاة العشاء قبالة جامع محمود باشا فى ميدان الروملى وتوقف هناك وظلت فرقة الموسيقى العسكرية صامته، وأدى المحتسب بك وبقية الأعيان صلاة المغرب قضاء فى جامع المحمودية وكانت الليلة قد أظلمت ولنكمل بقية مواكب أهل الحرف التى تحت إدارة المحتسب بك.



الفصل التاسع والأربعون

بيان ما فى القاهرة من دكاكين طوائف الحرف

وأعداد العاملين بها

ولأن أرباب الحرف الآتى ذكرهم يخضعون لإدارة المحتسب فقد أقاموا موكبا عظيما وكأنه مركب السلطان. وبعد أن حَمَدَ المحتسب آغا الله وأثنى عليه ما هو أهله من ثناء فى جامع المحمودية اعتلى صهوة جواده، فأطلق الجند بنادقهم تحية وتعظيما له، وعزفت الموسيقى العسكرية، ودوت أصداء كلمة الله فى جميع أرجاء مدينة القاهرة. وفى بداية الموكب مرَّ الصوباشى فى سبعمائة قواس يحملون العصى وألف فارس من البدو وثلاثمائة من حملة المشاعل، مر كذلك فى معيته مئاة الموسيقيين والمطربين، إذ إنهم تحت إدارته، واشتد الزحام وكأنا ظهر حمار الدجال وازدحم الناس حوله، وارتفعت الضجة كأنما حل يوم الحشر، وارتفعت أصوات جلادى الصوباشى قائلين: «هذا وكيل السلطان والى الولايات حفظه الله، الله ينصر السلطان».

وقد نبهوا الناس، الذين ازدحموا كموج البحر الخضم، بهذا من كلامهم، ثم قدم الصوباشى وعليه مظاهر العظمة والجلال وعلى جانبه من يحملون عدة آلاف من القناديل وأربعون أو خمسون من الغلمان الصباح، ومر فى أثرهم أربع فرق من فرق الموسيقى العسكرية، إلا أنه فى ليلة المحتسب تلك لم يحضر الأعيان ولا الأشراف والعلماء والصلحاء ومشايخ السادات والأئمة والخطباء والقضاة قط، فقد كانوا ينتظرون قدوم الموكب فى السوق السلطانية، وهم لم يكونوا مكلفين بالمشاركة فى الموكب.

وفى تلك الليلة ظلت المدينة مضادة بالزينات حتى مطلع الفجر وكأنها ليلة القدر، ويأمر من الباشا اجتمع الغلمان والشباب والفتيات ويسمى الظرفاء فيما بينهم موكب المحتسب بـ «موكب الأحياء»، ففى تلك الليلة كل من فى مدينة القاهرة من الفتيات الحسان يلبسن حلين الذهبية وثيابهن المزركشة ويشاهدن هذا الموكب بعد الاستئذان من أولياء أمورهم، وينبغى أن يكون لكل ابن من أرباب الحرف ثوب خاص وعلى رأسه

ريشة ويمر هؤلاء بينما الموسيقى العسكرية تعزف.

وبعض الصوفية يسمون هذا الموكب موكب المهرجين المضحكين، وواقع الأمر أن كل من فى مدينة القاهرة من مضحكين ومهرجين قد خرجوا من بيوتهم لتقديم عروضهم الفكاهية فى الأسواق.

وبعد موكب الصوباشى تمر:

- طائفة الفلاحين:

وهم فى الطليعة، إذ إن حرفتهم هى أقدم الحرف، وهم لا يحصون كثرة فى مصر تنتهى سلسلتهم بـ «آدم عليه السلام»، ومنهم طائفة الكيالين الذين يكيلون القمح وعددهم ٢٠٠٠.

وطوائف «المغربلين»: وهم ينخلون الشعير والقمح، فإذا ما اختلط القمح والشعير والعدس والارز والبقول والقمح وحب الخشخاش، ينخلون هذا كله فى طرفة العين.

ويكتبون على الغربال الذى ينخلون به القمح «لا إله إلا الله، وبسم الله، ويا الله، ويا شافى، ويا كافى» وغير ذلك من الأسماء. وهم لا دكاكين لهم وعددهم ١٠٠٠ رجل، خمسمائة منهم يعملون فى أنبار يوسف وخمسمائة يخدمون أعيان مصر. ثم طائفة «صانعى الغرابيل»: وهم يصنعون المنخل والغربال، لهم ١٦٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠ عامل.

- طائفة البستانيين:

فى القاهرة ٣٠٦٠ حديقة وحقلا، تنتهى سلسلة هؤلاء بـ «إسماعيل عليه السلام»، وعددهم ٩٣٠٠ بستانى.

ويمر الزُّرَّاع والكيالون والمغربلون والبستانيون وفى أيديهم الطبر والفأس والمجرفة والمسحاة ويرددون على ألسنتهم قولهم «يا خالق، ويا رزاق، يا منعم، يا مغنى» وقد تزينوا من الرأس إلى القدم بالزهور والبراعم والريحان والسنبل والحناء والنسرين وفى أيديهم الليمون والتارنج، وفى معيتهم رئيس الكيالين ورئيس البستانيين، ويسرون

متحازين، وتمر معهم نساؤهم والموسيقى تعزف ثم:

- طائفة سقائي الجمال:

لا دكاكين لهم، وهم ٣٠٠٠، وطائفة «سقائي الحمر»، وهم كذلك لا دكاكين لهم، وعددهم ٨٠٠٠ سقاء حمار ويتعذر المرور في شوارع القاهرة من شدة إزدحامهم، وطائفة «السقائين المتجولين» وهم ٨٠٠.

- طائفة بائعي الماء:

لهم أربعون دكانا، وهم يبيعون الماء المقطر، ويزينون دكاكينهم بالأكواب والطاسات المتنوعة، ومن يشربون عندهم يدفعون إليهم ما تجود به نفوسهم وأقل ذلك «نقرة». إنهم ١٠٠ شخص، منهم من يحمل القرب المعطرة بالمسك ويملاها من هذه الدكاكين ويوزعها على رجال الدولة. ولهم طاسات نظيفة مصقولة كأنها من الذهب الخالص، كما يقدمون الماء العذب في كاسات وكيزان متنوعة.

- طائفة دكاكين العرقسوس:

أى من يغلون جذور العرقسوس لبيعها، وينمو العرقسوس بكثرة في بلاد الترك في متشة وايدين وصارحان وجزيرة استانكوى وهو جذر حلو المذاق وعصيره عظيم النفع للمصريين. وجاء في تذكرة داود أنه عظيم النفع للبلغم ومدر للبول.

والواقع أن البلغم يكثر بين المصريين وكل أهل مصر يكثر منهم السعال، وفي كل البلاد يتنحج العرب وبعد شرب العرقسوس يسعلون فيصقون البلغم في حجم السمكة فيتخلصون منه. إنه عصير جد نافع، وعدد الدكاكين التى تبيعه ١٥٠، يعمل بها ٣٠٠٠، ويبيعونه فى جرار وينادون عليه قائلين: «يا عرقسوس يا»، ويبيعون الكأس منه بمنقره، وهو شراب مرطب فمن شربه فى يوم شديد الحر أصبح جسمه قطعة من ثلج. وتتسبب هذه الطائفة إلى «عمر».

- طائفة بائى الحشاف:

دكاكينهم ()^(١)، وهم ٧٠ ويبيعون خشاف الفاكهة، فكنت أحب شراب التمر هندی المسك اللذيذ وأشرب منه كل يوم كأسا.

- طائفة بائى الصوية:

لهم ()^(٢) دكانا، يعمل بها ٧٠ بائعا، وما يطلقون عليه فى مصر اسم «الصوية» بوزة كاللبن يصنعونها من أرز دمياط وفراسكور والمتزلة، ويوضع فيها القرفة والقرنفل والجوز وتحلى بالسكر. ومنها نشوة خفيفة ودفى، وتبعث فى الجسم القوة والعافية، وتلطف جرارة الجسم.

- طائفة بائى الشراب الجائلين:

وهم يبيعون عصير المشمش فى أكواب من القصدير، ويبيعون كذلك شراب الزبيب ويضعون فيه الأفاويه، ويشرب مثلجا. وهو مشروب حامض الطعم.

وشراب الثعلب ويسمونه فى العربية «خصية الثعلب»، وهو نبات أبيض مثل فصوص الثوم يجفف ويسحق فى هاون ويحلى بالعسل والسكر ويشرب مع الزنجبيل، ولكن شرط طهوه أن يقلب مثل الفالودج حتى لا يصبح كرة كرة. ومن يشرب منه فنجانا شفى من آلام الصدر، كما أنه مقو للبصر والجسم.

- طائفة بائى الفالودج: لهم ٧ دكاكين، وهم ٦ بائعين.

- طائفة اللبائين:

لهم ٧٠ دكانا، وهم ٣٠٠ بائع ودكاكينهم تباع الماست، وفى الصباح يبيعون اللبن الساخن وفيه الكعك، ويقدمونه للبعض فى فناجين.

- طائفة بائى الشاى واليانسون:

لا دكاكين لهم، وهم ٣٠ بائعا يتجولون حاملين أباريق الشاى واليانسون الساخن.

- طائفة الحلالين:

توجد دكاكينهم فى حارة بأكملها بالقرب من شجرة الدر، وهم ١٠٠٠ بائع.

(١، ٢) يابض فى الاصل.

- طائفة بالعى المخلل: ٤٠ دكانا، و ٦٠ بائعا.

- طائفة بالعى القهوة:

لهم ٦٣ مقهى فى بولاق ومصر العتيقة ومصيف قايتباى والقاهرة، وهى مقاه واسعة تستوعب الواحدة منها ألفا من الرواد، ولها مقاصير وشادروانات وأحواض للماء، وكان يتردد عليها المغنيون والشباب الصباح وبلغاء الشعراء.

ومن أشهر مقاهى القاهرة وأجملها هى مقهى الغورية والمقهى الجديد، ومقهى باب الفتوح ومقهى باب الشعرية ومقهى الكتخدا الحبشى ومقهى ميدان الروملى ومقهى السلطان حسن، ومقاه القلعة الثلاث ومقهى الجماميز ومقهى الصقنقورية وهى مقاه ذات أسبله وفسقيات وأحواض، وفى كل منها مغن رخيى الصوت، وعازف بارع، ولا تخلو من الضوضاء والضجيج ليل نهار.

وعما تمتاز به أنه إذا قدمها رحالة من الترك أو الفرس أو العرب حل ضيفا فى ركن من أركانها، وهى ملتقى أهل العلم والعرفان. ومجموع من يعمل فى هذه المقاهى ويخدم فيها ٣٠٠٠ شخص.

- طائفة بالعى القهوة الجائلين:

لا دكاكين لهؤلاء، إنهم يبيعون القهوة المسكّة فى أباريق، ويطوفون فى الأسواق السلطانية، وبعضهم يربح ربحا عظيما. أما أكثرهم ربحا فهم من يقدمون القهوة فى مقهى الخرابية، ويغلون قنطارا من القهوة يوميا فى مقهى «الحبشى» ويتحصل لهم ربح عظيم، ويؤدون الضرائب لرئيس شطار الباشا وهم تحت حمايته.

- طائفة بالعى لور النى:

لا دكاكين لهم، وهم يبيعون بذور الشام وعبد اللاوى، وعددهم ٣٠٠ بائع.

- طائفة بالعى الدخان:

وهم يقدمون الدخان فى ٦٣ مقهى إضافة إلى ألف وستين دكان تباع التبغ فى القاهرة، وهم مقيدون فى سجلات الصوباشى، ومنادوهم ويائموهم ٢٠٠٠، ويشتركون فى الركب مع أصحاب المقاهى.

- طائفة المداحين:

وعدهم ٧٠٠، وهم يشتركون فى الموكب مع أصحاب المقاهى.

- طائفة المقللين والمهرجين:

عددهم ٣٠٠، ويقدمون عروضهم الفكاهية الضاحكة فى المقاهى والحانات.

- طائفة بائعى البورة: إنهم مسلمون لهم ٧٥ حانة، يعمل بها ٦٠٠.

- طائفة الخمارين:

وهم جميعا من النصارى واليهود، لهم ٢٠٠ دكان، يعمل بها ٦٠٠. وهذه مخالفة للشرع، لذا ليس لها موكب مستقل، ويمرون عقب رئيس أصحاب المقاهى. وهم مذمومون مكروهون.

وقد مر من سلف ذكرهم من الطوائف وهم السقاءون وبائعو الخشاف وكل بائعى المشروبات فى موكب أصحاب المقاهى وهم فى صخب عظيم، يحمل كل منهم فى يده شمعة كافورية، وعدة آلاف من القناديل مع الراقصين وهم يدقون الدفوف، فى معية رئيس الخلالين ورئيس أصحاب المقاهى، وفى أثرهم مرت فرقة الموسيقى العسكرية.

(الفصل الرابع)

طائفة الزيأتين بائعى الزيت الحار

لهم ١٧٠ معملا، يعمل بها ١٨٠٠. إنهم تجار غاية فى الثراء إلا أنهم غاية فى قذارتهم.

- طائفة بائعى زيت السمسم:

لهم ٢٠٠ معمل، يعمل بها ٧٠٠. وهؤلاء يستخرجون زيت العصفور والسمسم واللوز. وهم قوم معروفون بقذارتهم. وقراء مصر جميعا يتناولون الزيت الحار وزيت السمسم والطحينة.

وفى كل ليلة يقدح عدة آلاف الأبطال من الزيت الحار، خصوصا فى ليالى المولد وليالى رمضان وليلة المحتسب هذه. وتصدر مصر زيت البذور إلى جميع الولايات، ولذلك فهذه الطائفة طائفة ذات ثراء، ولا يتبع أحد طائفة هؤلاء فى الموكب، وقد ساروا فى الموكب حاملين المشاعل من زيوت مختلفة وقد لبسوا ملابس خشنة ملوثة

بالزيت وبعضهم مضوا عراة وملأوا قريهم بالزيت وحملوها على أكتافهم ولوثوا ملابس الناس المتراحمين في السوق السلطانية بما يحملون من قرب الزيت وسخر الناس منهم وأفسحوا لهم الطريق، وقد مر هؤلاء الزيتين وهم يدقون دفوفهم وفي معيتهم حصانهم وسط عزف الموسيقى.

وقد أوصد أهل القاهرة دكاكينهم قبل الموكب بخمسة أو عشرة أيام خوفا من أن تتلوث ثيابهم من هذه الطائفة.

(الفصل الخامس)

طائفة كبير المعمارين

ويتبع هذه الطائفة كثير من أهل الحرف، ومنهم:

- حرقه النجارين:

لا دكاكين لهم، وهم ٣٠٠٠، ومنهم المسلم ومن هو على غير الإسلام.

- قاطعو الحجارة:

يقطعون الحجارة، مثل فرهاد، في جبل الجوشى وبالقرب من أثر قدم النبی، فيؤتون على ما في الجبل من أحجار. وعددهم ٢٠٠٠ شخص.

- قاطعوا الرخام:

أى من يرصفون الحمامات وأحواض الماء بالرخام. لهم ٦٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠، وخبرتهم ومهارتهم لا تتوفر لأحد في بلد آخر. وإن عمائر القاهرة لها ذبوع الصيت في الآفاق برخامها.

- حفارو الآبار: عددهم ٣٠٠.

- صناع دواليب السواقى والطواحين التى تديرها الخيول: عددهم ٢٦٠.

- عمال البناء:

الكثرة الكاثرة منهم من السود، والفلاحون فيهم قليل. وعددهم ٣٠٠٠ وأسماءهم مقيدة في الدفاتر، ولا يستطيع كل أحد مزاوله هذه الحرقه. إن مصر بلد العجائب، ولأنهم جميعا عمال حكوميون فهم مسجلون.

- كاسحو المراحض:

وجميع مراحض القاهرة ليست لها مجار بل هى آبار. وفى كل عام يكسحها القائم على كسحها ويسكبونها فى الرمال. وليست لهم دكاكين، وإنما ينتظرون كل صباح فى الصليبة وميدان الروملى أو فى أركان أخرى ومعهم مجارفهم وفؤوسهم وزنابيلهم، وعددهم ١٢٠٠ عامل.

- صانعو اللبن والأجر:

لا دكاكين لهم، بل لهم قمانن فى الأماكن المظلة على شاطئ النيل، وهم ٦٠٠. - الفخاريون:

لهم ١٠٠ دكان عند ساقية الغورى ومصر العتيقة وجهات أخرى، عددهم ١٠٠٠، وهم يصنعون حقايق الأدوية والمعاجين وكأنها من الصينى.

- بناؤو الحمامات: وهم ٣٥٠ من مهرة الصنائع يختصون ببناء الحمامات.

- صانعو الجص:

لهم ٧٠٠ معمل بالقرب من السيدة نفيسة خارج مدينة القاهرة وفى مصر العتيقة وبعض الجهات الأخرى.

- الجصاصون: لهم ٢٠٠ دكان، وهم ١٣٠٠.

- قاطعوا البلاط:

أى من يقطعون بالمنشار حجرا أبيض أملسا يشبه الرخام، ويرصفون به الجوامع والمنازل بدلا من الرخام. وهم ٦٠٠ عامل.

- صانعو الأخشاب: لهم ٢٠٠ دكان، يعمل بها ٥٠٠.

- صانعو النعوش: لهم ١٠ دكاكين يعمل بها ٣٠.

- صانعو المحفلات:

وهم يصنعون المحفلات والتختروانات للحجاج لهم (١) دكانا، يعمل بها ١٦٠.

(١) يباشر فى الأصل.

- صانعو الأسيرة:

وهم يصنعون الأسيرة من جريد النخل، ويصنعون أقفاص السكر. دكاكينهم ٥٠ يعمل بها ٨٠.

- الخراطون: لهم ١٠٠ دكان، يعمل بها ٦٠٠.

- النجارون:

لهم في الدرب الأحمر ٨ دكاكين، يعمل بها ٢٠ نجارا. ويظهرون مهارتهم في الترصيع بالصدف الهندي.

- صانعو قتائل قلائف البنادق:

لهم ٢٠ دكانا، يعمل بها ٣٠.

- الرسامون:

لا دكاكين لهم، يعملون في البيوت والمنازل التي تحت الإنشاء، وعددهم ٧٠٠، منهم نقاشون في براعة «مانى» و«بهزاد»^(١). ويعجز الرسامون في البلاد الأخرى عن بلوغ مستوى مهارتهم.

- صانعو الصناديق: لهم ٢٠ دكانا، يعمل بها ٨٠.

- صانعو الطناير: لهم ٩ دكاكين، يعمل بها ٢٠.

وهؤلاء الذين سلف ذكرهم في الفصل الخامس ٢٤ طائفة، وعددهم ١٥٤٦ من صفوة الجند، وكلهم يتبعون أغا المعمار.

وقد مروا جميعا في مجموعات حسب حرفهم متمارحين، عارضين سلعهم، حاملين مئات الآلاف من الشموع الكافورية، وقد ارتفعت أصواتهم بالغناء كأنهم في حفل عرس، ثم مرّ رئيس المعمارين وكبير الرسامين جنبا إلى جنب وفي معيتهم فتيان يعزفون الموسيقى.

(١) بهزاد: من أهل مدينة هراة عاش في القرن الخامس عشر الميلادي (اعظم وأشهر مصور ورسام في العصر الصفوي)، وقد شبهه المؤرخون بمانى - رسام فارسي - الذي جعل من التصوير معجزة، ومانى أحد أنبياء الفرس المزعومين قبل الإسلام. انظر: المعجم الفارسي العربي الجامع للدكتور حسين مجيب المصري ص ٦٢، ٣٩٠. وكذلك مادة «منو» من شرح القاموس للزبيدي.

(الفصل السادس)

طوائف تجارى السفن

لأن أباهم الروحى نوح عليه السلام لا يتبعون موكب المعماريين، ويشكلون موكبا يترأسه كئخدا^(١) القبطان.

- تجارو المراكب:

لا دكاكين لهم، لهم تكايا تابعة للترسخانة (دار صناعة السفن)، وهم ٨٦٠.

- القائمون على إصلاح السفن: عددهم ٥٠٠.

- صانعو المضخات: لهم دكانان، يعمل بهما ١٠ صناع.

- بائعو القار: لهم ٧ دكاكين، يعمل بها ١٥.

- قتالو الكتان المقطرن: لهم ٧ دكاكين، يعمل بها ٠٠.

- قتالو الحبال:

لا دكاكين لهم، وهم ١٥٠، ويقتلون حبال أربع وسبعين ألف بذر من نبات الحلفا.

- صانعو شراع السفينة: لهم ٣ دكاكين، ويعمل بها ٣٠.

وهذه الطوائف كلها فى مدينة بولاق. وقد مضوا مدججين بالسلاح وزينوا قواربهم الصغيرة بالأعلام ووضعوها فوق مركبات وجروها داخل مدينة القاهرة صائحين «يا مولا يا مولا»، رافعين أعلامهم وعبر كبير صناع المراكب وفى معيته ثمانين فتى فى أبهى حلة وسط عزف الموسيقى العسكرية. وهم الطائفة الوحيدة التى حملت الأعلام.

(الفصل السابع)

طوائف الخبازين وتجار الغلال

فى مصر أم الدنيا ٧٠ دكانا للخبازين، وإذا قيل إنها تكفى أبناء النيل وهم بحر من البشر فذلك لأن فى كل قصر من قصور الأعيان والأثرياء فرن خاص، كما أنه فى كل

(١) الكئخدا: الوكيل أو النائب، كان من كبار رجال الدولة العثمانية، ولهم من ينوب عنهم فى أعمالهم ويعاونهم، ويطلق عليهم «كئخدا». انظر: معجم الدولة العثمانية ص ١١٢.

بيت من بيوت الفقراء تنور صغير. وكل إنسان يخبز خبزه في بيته ويبيع الصبية والفتيان والنساء الخبز على محفات في كل ركن من أركان السوق السلطانية.

لذا فإن هذه الأفران السبعين تكفي أهل القاهرة، وجملة من يعملون بها ٦٠٠ خباز. وهم يستخدمون روث الخيل الجاف وقوداً في جميع هذه الأفران. وهذا في المذهب الشافعي نجس حرام، إلا أنهم يضطرون إلى استخدامه لندرة الحطب.

وثمة طوائف أخرى للخبازين وهم صانعو الفطائر وغيرها من المخبوزات مثل السميطة والقطائف والغرايبة والبقسماط والرقاق والشعرية وخبز البلح أى فطائر البلح. ويبلغ عدد هذه الحرف خمسة عشر حرفة، لهم ٢٥٠ دكاناً. وهم لا يستخدمون روث الخيل فى خبز الفطائر، وإنما يستخدمون أعواد القبول الجافة وقشر الحمص ونشارة الخشب وما شابه. ويعمل فى هذه الأفران ما يقرب من ٢٠٠٠ خباز.

- طائفة صانعى النشاء: لهم ١١ معملاً، يعمل بها ١٥٠.

- صناع الملح: لهم ١٢٠ مخزناً.

- حرفة من يعملون فى ملح النطرون:

لهم مخازن مكتظة بملح النطرون، ولا شئ فى مصر أكثر من الملح والبصل ويعمل بهذه الحرفة ()^(١)، وهم واسعوا الثراء.

- طوائف العاملين فى طواحين الخيل:

لهم ٢١٦٠ طاحونه نصفها يتبع المحتسب وما سواها فى حماية الفرق والأغوات إلا أنهم يشتركون فى الموكب وعددهم ٣١٦٠ عاملاً، ويستغلون فى طواحين الخيل، إنها طواحين عجيبة يديرها جواد أو ثور. وفضلاً عن هذه الطواحين يوجد طاحونة فى كل قصر. ولأنى لم أسأل عنها المحتسب فعلمها ليس عندى.

- طوائف تجار الغلال:

لهم ٣٠٠٠ مخزن فى بولاق ومصر العتيقة والقاهرة، وهم تجار أثرياء، وعددهم ٣٣٠٠ تاجر، وصورهم وأسماءهم مقيدة فى سجلات أمين الأنبار، ونظارتها حتى إذا مست الحاجة إلى الغلال طلبت منهم.

(١) يباشر فى الأصل.

والأب الروحي للخبازين هو «عمر بن عمران البربري»، الذي نال الإجازة من سلمان الفارسي رضى الله عنه في مجلس الرسول ﷺ، ومات في السابعة والثمانين من سنه، ودفن في البقيع إلى جوار العباس رضى الله عنه.

وقد مضى هؤلاء الخبازين مدججين بالسلاح، ووزعوا الحلوى والفطائر المختلفة على الناس، ونثروا عليهم كذلك القطائف وسبح البقسماط والرغفان الكبيرة والمضفورة، وهم يتمارحون ويتضحكون، ومر كبير الخبازين وبجانبه كبير الأعيان، وفي أثرهم غلمان صباح مدججون بالسلاح، وعبروا على نغمات الموسيقى العسكرية.

(الفصل الثامن)

طوائف القصابين

لهم ٦٠٠ دكان، يعمل بها ١٨٠٠ قصاب. أبوهم الروحي «جوه القصاب»، وهذا هو اللقب الذي عرف به نصر القصاب، الذي كان يكنى بأبى عقيل، وهو مدفون في بغداد.

ويذبح في القاهرة يومياً ٢٢٠٠ من الغنم.

- طائفة العاملين «بالسلخانة» أى المذبح:

إنه مذبح حكومي يقع خارج باب الفتوح، تذبح فيه كل ما في القاهرة من خراف وعجول وماعز وجمال وجاموس. ويرأسه أمين وانكشارى جورباجى، وإذا ما ذبحت الاغنام في مكان آخر غرم ذابحها. ويعمل في هذا المذبح ٢٠٠ جزار انعدم النور من وجوههم، وكل ما في هذا المذبح من ذبائح فجلودها للدولة، وهذا ما يلتزم به فلاح يسمى «على الجلاد».

- طائفة قصابى العجل:

لهم ٦٠ دكاناً، يعمل بها ٢٠٠ قصاب، يبيعون كذلك لحم الجمال.

- القصابون اليهود:

لهم عشرون دكاناً، ويعمل بها ٣٠ قصاباً، ولا يشتري منهم أحد. ولحمهم يبيعونه لذويهم من اليهود.

- حرف اللبائين: أى صانعى الماست^(١) لهم ٨٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠.

- حرف لبانى الماعز:

وهم ٣٠٠، يسرون فى الأسواق بقطعان الماعز، ويبيعون لبنها.

وإذا ما أراد أحد شراء أوقية من لبن الماعز حلبوا له الماعزة فى علية، ويبيعون الأوقية بـ «سكة»^(٢)، وإذا ما زاد اللبن المحلوب عن أوقية صبوه مرة أخرى فى فم العتزة وهم يطوفون فى الأسواق والحارات بعنزاتهم وهم ينادون قائلين «يا صباح اللبن».

- صانعو الجبن الحالوم:

لهم ٢٨٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠، وأشهر هذه الدكاكين دكان فى بولاق يسمى «ميت أوغى»، يمتلكه ويديره رجل عربى يبيع صنوفا من الجبن لا وجود لها فى بلد آخر ومذاق جنبه اللذيذ لا وجود له فى «مريشة» دمشق الشريفة.

إنه جبن سريع الهضم. أما صانعو الجبن من اليهود فهم يختلفون، ولا أعرف لهم عددا.

- طائفة بائعى الاكارع:

لهم ()^(٣) دكانا، يعمل بها ١٢٠، وهم زملاء للقصابين.

- بائعو الكبد:

يبيعونها مطبوخة أو نيئة، لا دكاكين لهم، ويبيعونها فى زنايل أو على محفة. وهم ٢٠٠ بائع.

- بائعو الكرش:

لهم ٨٠ دكانا، وهم ١٢٠، وهم كذلك زملاء للقصابين، إلا أنهم لا يتبعون الطهارة.

- طائفة بائعى الشمع: لهم ٤٠ معملا، وهم ٣٠٠.

وهذه الطوائف العشر سألته الذكر حملت كامل أسلحتها، وزين القصابون أغنامهم السمينة بحبل من الديباج المزركش، وعلقوا فى أحزماتهم الخناجر المرصعة بالجواهر وذهبوا قرون خمسة من خرافهم وسحبوها بسلاسل من فضة، ومروا قاصدين المذبح،

(١) الماست: اللبن الزبادى. (٢) السكة: عملة متداولة. (٣) يياض فى الاصل.

ومر كبير القضاة وسط فتيان مدججين بالسلاح وسط عزف الموسيقى العسكرية، وكان موكبهم غاية جمال الزينة.

(الفصل التاسع)

طوائف الطهارة

لهم ٦٠٠ دكان، وهم ١١٠٠، وأبوهم الروحي «إبراهيم عليه السلام»، وهم فى حمى كبير طهارة قصر الباشا وهو حاكمهم، وفى يده تعيينهم وفصلهم وتدريب شئونهم. وليس للمحتسب أغا سلطان عليهم. وفى هذا الموكب مر نائب كبير طهارة قصر الباشا جنبا إلى جنب مع رئيس طهارة المدينة.

- بائعو الكباب: لهم ١٠٠ دكان، يعمل بها ٢٥٠.

- بائعو اليخنى: لهم ١٠٠ دكان وهم ٣٠٠.

- بائعو الأرد باللبن والفالوج: لهم ()^(١) دكانا، وهم ٧٠.

- بائعو الخضر:

وهم يبيعون السبانخ والملوخية والبامية والبقول والقلقاس والقرنبيط والزعر والفعجل والجرجير والعجور والقنا والخيار. لهم ٢٠٠ دكان وهم ٢٥٠.

- بائعو الحلو: لهم ٨٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠.

وصنوف الحلوى والزلايا التى تصنع فى مصر لا وجود لها فى بلد آخر غيرها. والاب الروحي لهذه الطائفة هو «سيدنا عمر» رضى الله عنه.

- بائعو السكر:

لهم ١٥٠ دكانا، وهم ٢٠٠، ولهم ٠ معملا للسكر، يعمل بها ٣٠٠ ويصنعون السكر فى الوقت الذى تعينه لهم الحكومة، ويرسله الباشا إلى الأستانة.

- طهارة السمك: لهم ٨٠ دكانا، وهم ١٠٠.

- طائفة صيادى السمك: وهم ٦٠٠ صياد يتبعون الحكومة.

(١) يباىض فى الأصل.

وقد مر هؤلاء من أصحاب الحرف، وهم يعرضون سلهم، ويتبادلون الفكاهات
ومر رئيس طهارة المدينة جنبا إلى جنب مع نائب كبير طهارة القصر، والموسيقى العسكرية
تعزف.

(الفصل العاشر)

طوائف البقالين ويائى الصابون ويائى الحمص

أبوهم الروحى هو «عزى بن نباش»، الذى نال الاجازة من سلمان الفارسى رضى
الله عنه، وتوفى وله من العمر مائة وعشرون عاما، ودفن فى القدس على مقربة من
«عين السلوان».

ولهؤلاء جميعاً ١٠٦٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠٠.

وقد ارتدوا الملابس الفاخرة ومضوا فى موكبهم يتبادلون الفكاهات، ومر كبير
البقالين جنبا إلى جنب مع وكيل السوق، وفرقة الموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل الحادى عشر)

طائفة الجراحين

لهم ٢٠ دكانا، وهم ٦٠ جراحا، وأبوهم الروحى هو أبو عبيدة القصاب الذى نال
الاجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه، ودفن فى الإحساء.
- طائفة الحكماء (الاطباء):

لهم ١٩ دكانا، وهم ٤٠، وأبوهم الروحى هو «لقمان» عليه السلام، وفى العصر
الإسلامى «ذو النون المصرى» الذى نال الإجازة من على كرم الله وجهه.
- طائفة صائى المعاجين الطيبة:

لهم ٢٠٠ دكان، وهم ٢٢٠ «هاشمى»، وهم يستخدمون معجون الحشيش على نطاق واسع.
- طائفة صائى الادوية:

وهم يستخرجون سائر الزعتر والنعناع ولسان الثور والهندباء وما إلى ذلك من الأعشاب،
وهؤلاء جميعا لا دكاكين لهم، ولكنهم يعملون فى منازلهم، وهم ٧٠ شخصا.

والطوائف السالف ذكرها يبلغ عدد أفرادها ٣٦٠، وهم من العسكر، وقد مروا
مدججين بالسلاح، ومعهم كبير الأطباء وكبير الجراحين، والموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل الثانى عشر)

طائفة صانعى السيوف

لهم ١٢٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠.

- طائفة صانعى نصال الرماح: لهم ٣٠ دكانا، ويعمل بها ٦٥.

- طائفة صانعى السكاكين: لهم ٢٠٠ دكان، يعمل بها ٢٦٠.

- طائفة صانعى أربطة السروج: لهم ٢٠ دكانا، يعمل بها ٣٠٠.

- طائفة صانعى البنادق: لهم ١٠ دكاكين وهم ١٨.

- طائفة صانعى البارود:

دكاكينهم ١٠ تقع عند باب الحديد، يعمل بها ١٨. وأبوهم الروحى «جمشيد»،
وهم يتبعون رئيس الأسلحة.

- طائفة صانعى الفتائل:

لهم ٦ دكاكين، ويعمل بها ١١، علاوة على ٢٠٠٠ من الزنوج يفتلون فتائل
البنادق من الكتان.

وقد مضى هؤلاء كذلك كل منهم يحمل فى يده قنديلا أو أكثر، وعلى أكتافهم
فتائل محترقة، وهم يتبادلون الفكاهات بلغتهم.

وهؤلاء المذكورون آنفا عددهم ٢٣٥٢، وقد مروا وهم يطلقون بنادقهم ويعرضون
سلعهم، ثم مر بعد ذلك كبير صانعى السيوف وكبير صانعى البنادق جنبا إلى جنب
وفرقة الموسيقى العسكرية تصدح.

(الفصل الثالث عشر)

طوائف الحدادين

لهم ٢٠٠ دكان، وهم ٨٠٠، وأبوهم الروحى «داود عليه السلام»، أما أبوهم
الروحى فى العصر الإسلامى فهو «أبو زيد مسلم»، الذى نال الاجازة من سلمان
الفارسى رضى الله عنه، وقبره فى صنعاء.

- طوائف صانعي النعال: لهم (١) دكانا، وعددهم ١٥٠.
- طائفة صانعي المسامير: لهم ٢٠ دكانا، وهم ١٢٠.
- صانعو المبرد: لهم ٦ دكاكين أسفل تكية الكلشنى، ويعمل بها ١٠ من الصناع.
- طائفة صانعي الأرميل: لهم ٢٠ دكانا، يعمل بها ٢٠ صانعا.
- طائفة صانعي المنشار:
- يصنعون نوعا خاصا من المنشار يختلف عن غيره، دكاكينهم ٦، يعمل بها ٢٠.
- طائفة الفحامين:
- دكاكينهم ٥٠ بالقرب من البندقانى والنظامية وبعض الجهات الأخرى، ويعمل بها ٦٠.
- طائفة صانعي الأقفال: دكاكينهم ١٠، يعمل بها ١٥.
- طائفة صانعي الخطاف: دكاكينهم ٥٠، وهم ١٨٠.
- طائفة صانعي الركاب: دكاكينهم ٤٠، وهم ١٥٠.
- طائفة صانعي المقص: لهم ٢٠ دكانا، وهم ٦٠.
- طائفة صانعي حدوة الأحذية: دكاكينهم ١٠، وهم ١٥.
- طائفة بائعي الخليلد: لهم ١٥ مخزنا، وهم ٢٠.
- طائفة بائعي الأشياء القديمة:
- دكاكينهم ٦٠ عند الشيخونية، وميدان الروملى وجهات أخرى، وعددهم ٨٠.
- طوائف صانعي حدوة الخيل: دكاكينهم ٨٠، وهم ٢٠٠.
- طائفة صانعي حدوة الحمُر:
- دكاكينهم ٢٠٠، وهم ٣٠٠، ولكثرة الحمُر فى القاهرة فصناعو حدوتهم كثير.
- وهذه الطوائف الخمس عشرة عدد أفرادها ٢٠٠٣، وقد حملوا كامل أسلحتهم وعرضوا سلعهم على بسط، وسار كبير الحدادين جنبا إلى جنب مع رئيس صناع الحدوة وسط جماعة من الفتيان الضبايح المدججين بالسلاح.

(١) يياض فى الاصل.

(الفصل الرابع عشر)

طوائف صانعى المراجل

أبوهم الروحى هو «أبو حبيب محبى الدين البخارى»، دكاكينهم ٦٥، وعددهم ٦٠٠ إلا أنه ليست لهم مهارة صناع الترك.

- طائفة من يطلون النحاس:

دكاكينهم ٣، وهم ٤٠، يطلون قدور النحاس القديمة والتى علاها الصدا.

- طائفة التجار:

لهم ١١٥ حانوتا فى خان الخليل، والصالحية وبالقرب من قلاوون، وهم ٢١٥ من أثرياء التجار، وفى كل دكان للواحد منهم أوانٍ من النحاس يصل ثمنها خمسة أو عشرة آلاف قرش، ولديهم مراجل المبرات، وقدور الكاشف، وليس لديهم المقدرة على تصنيعها فى مصر، فتأتى من بلاد الترك فى السفن.

- طائفة مبيضى النحاس: لهم ١٥٠ دكانا، وعددهم ٣٠٠.

- طائفة من يصهرون المعادن:

إنهم صناع مهرة من عجائب الزمان، ويصنعون قضبان النوافذ وأبواب جميع الجوامع والمبرات، والأسبلة، ولا وجود لنظرائهم فى أى بلد آخر. دكاكينهم ٧٠، وعددهم ٥٠٠.

وعدد أفراد هذه الطوائف الخمس ١٠٦٥، وقد حملوا كامل أسلحتهم، وحمل كل منهم فى يده شمعة كافورية، ومضى كبير صانعى المراجل وكبير من يصهرون المعادن جنبا إلى جنب مع فرقته الموسيقية.

(الفصل الخامس عشر)

طوائف الصاغة

أبوهم الروحي «نصر بن عبد الله الصائغ»، الذي نال الأجازة من سلمان الفارسي رضى الله عنه. دكاكينهم ٥٠٠، وهم ٢٠٠٠ معظمهم من النصارى. ومنهم صناع بلغت مهارتهم غاية الغايات.

- طائفة الجوهريين: دكاكينهم ١٠، وهم ٢٠.

- طائفة الساعاتية: أبوهم الروحي يوسف الصديق، لهم ٥ دكاكين، وهم ١٢.

- رئيس طائفة ضاربي العملة:

يعمل فى دار الضرب، وتنحصر فيه رئاسة هذه الطائفة، وليس فى الإمكان أن يوجد غيره يشغل هذا المنصب وهو لا يقترب من أحد ولا يختلط بأحد.

- رئاسة صانعى الدمغة: وهى تنحصر فى شخص واحد.

- طائفة كانسى البرادة:

يكنسون دكاكين الصاغة والجوهريين، ويستخرجون دقائق الفضة من كناستها.

- طائفة العاملين فى دار الضرب:

وهم ٣٠٠، ولهم أمين أغا، وناظر أغا، وصاحب عيار أغا، وأغا للوزنيين ورئيس للصيارفة.

- طائفة صيارفة الأسواق:

لهم ٢٠٠ دكان، وعددهم ٣٥٠، نصفهم موظفون فى ديوان مصر، وهم يحصون الاموال الواردة من الملتزمين فى الديوان.

- طائفة صاهرى المعادن: لهم ٣ دكاكين، وهم ٢٠.

- طائفة الرسامين: لهم ٢٠ دكانا، وهم ٣٠.

- طائفة النحاتين: لهم ٤٠ دكانا، وهم ٦٠.

- طائفة صانعى الاختام: دكاكينهم ٣، يعمل بها ٣ أشخاص.

- طائفة نساजी الصرمة:

دكاكينهم ٦، يعمل بها ١٢ نساجا، وهم ينسجون صرمة الكسوة الشريفة.

- طائفة صانعي المحابر النحاسية:

لهم دكان واحد يديره رجل بارع يسمى «أمير جليبي»، لا نظير له في صناعته، وكان قد اشترى عدة أزواج من الغنم من الكعبة الشريفة، فكانت تلد له في كل مرة زوجا من الغنم، لذا تنتشر غنم مكة في القاهرة الآن.

- طائفة صانعي أوعية القصدير:

لهم ٨ دكاكين، يعمل بها ١٨، وهم جميعا من اليهود والنصارى، والمسلمين فيهم قليل.

(الفصل السادس عشر)

طائفة الحلاجين

أبوهم الروحي «منصور زاهد القطان»، الذي نال الاجازة من سلمان الفارسي، ومثواه في مدينة «الري»، وهو غير «منصور الحلاج» الذي صلب في بغداد. وللحلاجين ١٥٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠.

- طائفة صانعي أغطية الرأس: دكاكينهم ٤٠، يعمل بها ٦٠.

- طائفة صانعي أغطية رأس النساء: لهم ٦٠ دكانا، يعمل بها ١٠٠.

- طائفة صانعي الطراوير: لهم ١٠٠ دكان، يعمل بها ٣٠٠.

- طائفة صانعي اللحف: لهم ٥٠ دكانا، يعمل بها ١٦٠.

- طائفة صانعي القمصان: لهم ١٥٠ دكانا، وهم ٢٦٠.

- طائفة الرفائين:

وهم يرفون الثياب التي عابها ثقب فيها فلا يظهر فيها أثر لرقعة، ولهذه الطائفة ١٢ دكانا، يعمل بها ٣٠.

- طائفة مرقعي الثياب:

أبوهم الروحي «عمار بن ياسر»، الذي نال الاجازة من سلمان الفارسي، ودكاكين هذه الطائفة ٤٠، وعدد أفرادها ٣٠٠.

- طائفة صانعي الخيوط: لهم ٥٠ دكانا، وهم ١٥٠.

- طائفة الغزالين:

أبوهم الروحي «عبد الله بن جعفر الطيار»، لهم ٣٠٠ دكان، وهم ١٦٠٠.

- طائفة صانعي الأزرار: لهم ٤٠ دكانا، وهم ١٥٠ أغلبهم من اليهود.

- طائفة صانعي الحرير: لهم ١٠٠ دكان في سوق الغوري، وهم ١٥٠.

وهذه الطوائف الأربعة عشر عدد أفرادها ٦٠٤٦، مر فتيانهم الصباح مدججين بالسلاح، وممر رئيس حاكة قصر الباشا مع «الشهر حواله» وهما يركبان جوادين ويسيران جنبا إلى جنب، وفرقة الموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل السابع عشر)

طوائف الخيامية

أبوهم الروحي ناصر بن عبد الله المكى الحيان، الذي نال الإجازة من سلمان الفارسي رضى الله عنه، وقبره في بغداد إلى جوار الإمام الحسين.

ولهذه الطائفة ١٠٠ دكان، ويعمل بها ٦٠٠ عامل غاية في المهارة. وإن كانت خيامهم لا تبلغ في جودتها وروعتها جودة وروعة خيام حلب واسطنبول. وهم يصنعون خياما ومظلات جيدة لا بأس بها.

- طائفة صانعي الأحزمة: لهم ٥٠ دكانا، وهم ١٥٠.

- طائفة صانعي حبال الخيام: ليست لهم دكاكين، وإنما يعملون في العراء، وهم ٣٠٠.

- طائفة صانعي الحبال الغلاظ:

وهم كذلك يعملون في العراء، وعددهم ١٥٠٠. إنهم فقراء.

- طائفة رفائي حواشي الخيام: لهم ٣ دكاكين، وهم ٦ أشخاص.

- طائفة (مطافان):

وهم مثل صانعي الأرائك الخاصة بالخيام، ولذا فهم زملاء للخيامية مثل صانعي

أحزمة الخيام. ولهذه الطائفة ٢٠٠ دكان، وهم ٦٠٠.

- طائفة الغسالين:

دكاكينهم ٨٠، يعمل بها ٢٠٠ غسال، وهم يغسلون الثياب، ولأنهم يغسلون الخيام يشتركون في موكب الخيامية.

وهذه الطوائف الست عدد أفرادها ٣٢٥٦، وقد مضوا مرتدين ملابس عسكرية، متبادلين الفكاهات، ومر كبير صناعي الخيام والفرقة العسكرية تعزف.

(الفصل الثامن عشر)

طائفة صانعي السهام والقسي

أبوهم الروحي أبو محمد بن عمران القواس، ولأنه - رضى الله عنه - كان يحمل السهم والقسي سمي بالقواس، وكان يصنعهما. أما سعد بن أبي وقاص فكان يرمى بالسهم وهو الأب الروحي للرماة بالسهم. ومن بعد أصبح الأب الروحي لصانعي القسي محمد الأكبر بن أبي بكر الصديق، وهو مدفون في مصر في رملة زين العابدين. ولا بد لصانعي القسي والسهم من دكان يعملون فيه، ولهم ٤٨ دكانا، يعمل بها ١٦٠.

- طائفة الرماة:

لا دكاكين لهم، لأنهم أبطال ليس إلا، وقد نزلت في شأنهم آية شريفة هي: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]. وعددهم ٨٠٠ بطل.

- طائفة صائدي الطيور:

وهم في زمرة صانعي السهام، وعددهم ٦٠٠، يصيدون الطيور ويحضرون أجنحتها وريشها لصانعي السهام، ولذلك فإن عدد الطيور في مصر قليل.

- طائفة صانعي المراجع: دكاكينهم ١٢، وهم ٢٦.

- طائفة مربي الطيور: لهم ٦ دكاكين، وهم ١٢.

- طائفة بائني الدجاج: لهم ٢٠ دكانا، وهم ٣٠.

وهذه الطوائف السبع عدد أفرادها ١٦٢٩، وقد مضى منهم مائة مدججين بالسلاح ومائة آخرون حاملين المطارق ومروا مع كبير صانعي السهام والقسي، وفرقة الموسيقى العسكرية تعزف.

(الفصل التاسع عشر)

طائفة الفرائين

وهؤلاء لا يتبعون أحداً اعتماداً على قوتهم وعلى قوة رئيس فرائي الباشا . وأبوهم الروحى هو شنك شاه . وهو أول من لبس الفرو على أنه درع ، وبقي ذلك عنه فاستحسنه الناس وبدأوا يلبسون الريش ، والآن فى بلاد داغستان وبالوخان وقازان ، وتارستان يلبسون الريش .

وللفرائين فى مصر ٢٠٠ دكان ، ويعمل بها ٨٠٠ ، لأن الفلاحين يكثر من لبس فراء الغنم .

- طائفة صانعى قلائس الفرو: لهم ٦ دكاكين ، وهم ١٦ .

- طائفة صيادى الحيوانات: عددهم ٦٠٠ .

وهذه الطوائف الثلاث يبلغ عدد أفرادها (١) ، ومضوا يحملون كامل أسلحتهم وعليهم فراء الأسد والنمر والببر والذئب ، ومروا مثنى مثنى يجرون السلاسل ، وألقوها على الناس الذين اصطفوا لمشاهدة موكبهم فتفرق الناس ثم مر كبير فرائي قصر الباشا وكبير فرائي المدينة وسط عزف الموسيقى العسكرية .

(الفصل العشرون)

طائفة نساجى كسوة الكعبة الشريفة

وهم يعملون فى جوسق يوسف . عددهم ٣٠٠ ، وعلى الرغم من أن عيونهم غائرة إلا أن صناعتهم فوق قدرة البشر وكأنها سحر إعجاز . ويصنع حريرهم طائفة الصباغين .

- طائفة الصباغين: لهم ١٧ معملاً حكومياً ، ويعمل فيها ٣٠٠ .

- طائفة صباغى القماش: دكاكينهم ٣٠ ، وعددهم ٥٥ .

- طائفة نساجى البز: أى من ينسجون البز الملون . لهم ٤٠ دكاناً ، وهم ١٨٠ .

- طائفة البزائين: لهم ٢٠٠ دكان ، وعددهم ٣٢٠ .

(١) بياض فى الأصل .

- طائفة صانعي القمصان: سبق الحديث عن هذه الطائفة .

- طائفة الجلالة:

أبوهم الروحي شيث بن آدم عليه السلام . لهم ١٨٠٠ دكان، وهم ٣٠٠ .
وكثرة أفراد هذه الطائفة مما تختص به مدينة القاهرة، أما عدد من يعملون في
منزلهم الله أعلم بعددهم .

- طائفة نساجي البسط:

لهم عشرون ٢٠ مصنعا، وهم ٣٠٠ من مهرة الصنائع الذين ينسجون بسطا من
الحرير تبهر عين من يراها وتصيبه بالوله .

- طائفة نساجي الاطلس والمخمل: لهم ١٠٠ مصنع، وهم ٦٠٠ نساج ماهر .

وهذه الطوائف العشر عددها ()^(١)، مضوا وهم يعرضون سلعتهم وفي
معيتهم ناظر الكسوة، وأمين طائفة نساجي الحرير متحازين، وفي أثرهم غلمان صباح
وفرقه الموسيقى العسكرية تعزف .

(الفصل الحادى والعشرون)

طائفة الدباغين

أبوهم الروحي «زيد الهندي»، وهو راوية للحديث، ونال الاجازة من سلمان
الفارسي بين يدي على كرم الله وجهه، وقبره في مكة .

ولهذه الطائفة ٢٠٠ دكان، وهم ٣٠٠ من مهرة الصنائع .

- طائفة صانعي الرقوق: لهم ٦ دكاكين، وهم ٢٠ .

- طائفة صناعي اللباد: لهم ٥٠ دكانا، وهم ١٥٠ .

- طائفة بائعي الجلود: لهم ٦ دكاكين، وهم ٩ .

ويبلغ عدد أفراد طوائف الدباغين ()^(٢)، وقد مضوا يلبسون القلنسوة والقباء
من الفرو قارعين طبولهم .

(١، ٢) بياض في الأصل .

(الفصل الثاني والعشرون)

طوائف الخفافين - أى الإسكافية .

- دكاكينهم قليلة، لكنهم كثيرون فى الوكالات. لهم ٢٠٠ دكان، وهم ٥٥٠٠ .
- طائفة صانعى الخف الشركسى: لهم ٧٠ دكانا، وهم ٢٠٠ .
- طائفة صانعى الجوارب: لهم مائة دكان، وهم ٨٠٠ .
- طائفة صانعى الخفاف التى تلبس فى المنزل: لهم ٥٠ دكانا، وهم ١٥٠ .
- طائفة صانعى الأحذية طويلة الساق:

لهم ()^(١) دكانا، وهم ١٥٠، وهؤلاء يختصون بتصنيع هذا النوع من الأحذية لبيعه لرجال الباشا وضيوفه. فالمصريون لا يلبسون ذلك النوع من الأحذية بل يلبسون الخفاف الشركسية الحمراء.

- طائفة بائعى الأشياء القديمة:

- علاوة على دكاكينهم عند أبواب الحمامات لهم ٦٠٠ دكان، وهم ١٢٠٠ .
- ومن يسرقون الخفاف من المساجد وغيرها يبيعونها لهم.

- طائفة بائعى الخفاف الحاضرة:

- لهم ٣٠٠ دكان نظيف بالقرب من باب الحديد، وفى خان الخليلي، وهم ٦٥٠ .
- والأب الروحى لصانعى الخفاف وتجارها «محمد الأكبر اليمنى»، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى، وعمر مائة وعشرين عاما، وقبره فى البصرة.
- وعدد أفراد هذه الطوائف السبع ()^(٢)، وقد مضى صفوتهم مدججين بالسلاح وفى معيتهم كبير الخفافين، وهم قارعين الطبول متبادلين الفكاهات.

(الفصل الثالث والعشرون)

طوائف السراجين

- أبوهم الروحى أبو النصر حاتم البغدادي، الذى نال الأجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه. لهذه الطائفة ٦٠٠ دكان، وعددهم ١٠٦٠ من الأثرياء الأتقياء.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

- طائفة صانعو السروج: وهم يصنعون السروج من الخشب، لهم ٢٠ دكانا، وهم ٥٥.
- طائفة صانعى سروج الحُمْر: لهم عشرون دكانا، وهم ٦٠.
- طائفة صانعى القرب:
- لهم ١٠٠ دكان وهم ٦٠٠. وجميع الحجاج فى حاجة إليهم، فهم يقومون بأعظم الأعمال، وبعضهم من المتصوفة.
- طائفة صانعى السلال والصناديق: دكاكينهم ٤٠، ويعمل بها ١٥٠.
- طائفة صانعى الإكاف:
- أبوهم الروحى «أبو ذر الغفارى»، لهم ٨٥ دكانا، وهم ٣٠٠.
- وهذه الطوائف الخمس عدد أفرادها ()^(١)، مضوا حاملين كامل أسلحتهم وفى أيديهم شموع الكافور ووجوههم تشع نورا واجتمعوا فى مكان فكانهم الشمس بددت ظلام الليل، ومروا قارعين الطبول.

(الفصل الرابع والعشرون)

طائفة العطارين

- أبوهم الروحى حسام بن عبد الله البصرى، أخذ الإجازة من سلمان الفارسى رضى الله عنه بين يدى الرسول ﷺ، وتبع طائفة العطارين عدة مئات من الطوائف الأخرى لأن كل شئ لدى هؤلاء العطارين، ولهم ١٢٠٠ دكان، يعمل بها ١٨٠٠ شخص.
- طائفة سوق الفحاميين:
 - يبيعون الأعشاب الطبية والأدوية، لهم ١٠٠ دكان، يعمل بها ١٥٠ معلما كلهم أطباء.
 - دكاكين شمع العسل: لهم ()^(٢) دكانا، يعمل بها ٨٢.
 - طائفة بائعى المسك: لهم ١٠ دكاكين، وهم ١٥.
 - طائفة بائعى الصابون المسك: لهم ٧ دكاكين يعمل بها ١٢.
 - طائفة بائعى العود والعنبر: لهم ١٠ دكاكين يعمل بها ٢٠.
 - طائفة بائعى ماء الورد: لهم ٤٠ دكانا يعمل بها ١٠٠.

(٢، ١) بياض فى الأصل.

- طائفة بالمي البخور:

يصنعون البخور لمكة والمدينة. لهم ٢٠ دكانا، وهم كذلك ٢٠ شخصا.

- طائفة بالمي الفناجين: لهم ()^(١) دكانا يعمل بها ٥٠ شخصا.

- طائفة بالمي أوعية الفخار للعطارين:

لهم ٢٠٠ دكان يعمل بها ٢٠٠. يتوفر لديهم أوعية فخارية وأكواب يتسع الواحد منها لرجل، وهم من أهل التقوى والصلاح.

- طائفة بالمي الكبريت:

لا دكاكين لهم يعملون بها لأن رائحة الكبريت كريهة، لذا فهم يعملون في منازلهم وعددهم ٢٠٠.

- طائفة صانعي القذائف النارية:

٨ دكاكين، وهم يصنعون مختلف أنواع القذائف النارية بآلاف الحيل الشيطانية ودكاكينهم عند باب الحديد. وفي عهد إبراهيم باشا في يوم العيد اتفق أنهم باعوا القذائف للصبيان كالمجانين وفي الحال أشعل أحد الغلمان قذيفة انطلقت داخل أحد دكاكينهم ففجرت عدة آلاف من القذائف النارية وعدة قناطر من البارود فتطايرت دكاكينهم في الهواء وسط الطريق العام الذي كان يغص بالمارة، وشوت القذائف أكثر من أربعين شخصا من بينهم كبير هذه الطائفة، وجرح مائتان.

إنها حرفة ملعونة إلى هذا الحد البعيد، ومع ذلك ففي موكب العطارين أطلقوا آلاف القذائف النارية على الأماكن القديمة التي لا يسكنها إلا العناكب ولم يستج عنها أي حريق بإذن الله، ولو كانت هذه النار في اسطنبول^(٢) لضاعت هباء والعياذ بالله. لقد حفظ الله مصر.

- طائفة صانعي النارجيلة:

لهم ٣ مصانع يعمل بها ٣٠٠، وكثير من الناس يدخنون النارجيلة.

(١) يبايض في الأصل.

(٢) كانت اسطنبول في ذلك الوقت معظم مبانيها من الخشب، لذا فهي بلد كثيرة الحرائق.

- طائفة بالعى الحناء: ٣٠٠ تاجر، مخارنهم فى الوكالات.

- صانعو الحصىر:

لهم ٨٠ دكانا، يعمل بها ٢٠٠ ينسجون شتى أنواع الحصىر المنقوش الذى يبلغ غاية الغايات فى جماله وجودته. ومن عجب أن منهم العميان، وأعجب من ذلك أن هؤلاء العميان يصنعون المراوح من سعف النخيل ويشكلون عليها عبارات مثل: «يا شافى، يا كافى، وشفاء القلوب»، وما يجرى هذا المجرى.

- ناسجو الكتان: لهم ٢٠٠ دكان يعمل بها ٢٥٠ ناسجا.

- طائفة تجمار البن:

٦٠٠ من التجار الاثرياء، إلا أنهم أرسلوا خدامهم إلى هذا الموكب ومسروا نائرين البن على حشود الناس.

- طائفة تجمار الارز:

وهم كذلك من ثروة التجار، وقد سلحوا خدامهم وأرسلوهم إلى الموكب، وهم ١٥٠٠ تاجر بالتمام.

- صانعو المصائد أو الشرك: لهم ٣٠٠ دكان يعمل بها ٥٠٠.

- طائفة ناسجى شباك السمك:

لهم ٧ دكاكين يعمل بها ١١ ناسجا.

وموكب العطارين كان يتألف من (١) شخص ولموكبهم مهابة وما فيه من عظمة وأبهة لم يكن لأى موكب آخر. وما فى موكبهم من رينة وفتيان صباح لا وجود له فى طائفة غيرهم، ومر كبير العطارين وفى معيته فرقة الموسيقى العسكرية رباعا رباعا وهم يعزفون وغلمانهم يرفعون أصواتهم بالهتاف والتهليل على نحو يعجز عنه.

(١) بياض فى الاصل.

(الفصل الخامس والعشرون)

طائفة الحمامية

لهم ٥٥ حماما، والحمامية كذلك ٥٥. وأبوهم الروحي «حسن بن عثمان».

- طائفة المتادين: إنهم ١٢٠٠.

- طائفة النواطير: إنهم ١٠٠٠، أبوهم الروحي «المنصور بن القاسم».

- طائفة صانعي العمائم:

لهم دكان فى أعلى القلعة، وهم ٣ من البكم يصنعون العمائم المعروفة بالمجوزة والبريشانى والقلوى لأعضاء الديوان.

وهذه الطوائف السبع عدد أفرادها ()^(١)، وقد ارتدوا الملابس العسكرية وأصبحوا فى كامل زينتهم حاملين كامل أسلحتهم ومضوا على تلك الهيئة ومن خلفهم صبيانهم قارعين الطبول.

(الفصل السادس والعشرون)

طائفة نقاشى القسى

يعملون فى بيوتهم، وكل منهم فى فنه بهزاد ومانى.

- طائفة المذهيين بصحائف الذهب: أى دكاكين صحائف الذهب وهى ٣ يعمل بها ١١.

- طائفة المذهيين: لهم ٧ دكاكين يعمل بها ١١. إلا أنهم ليسوا مهرة فى فنهم.

- طائفة مجلدى الكتب: لهم ٨ دكاكين يعمل بها ١٥٠.

- طائفة الصحفيين:

لهم ٢٠ دكانا يعمل بها ٣٠. أبوهم الروحي «عبد الله اليتيم»، وهو مدفون فى سهل الخرق بالحبشة، وقد تيسرت لى زيارته ثلاث مرات، وضريحه يزوره العوام والخواص.

- طائفة الوراقين: لهم ٥٠ دكانا يعمل بها ٦٨.

- طائفة صانعي أختام الأوراق: لهم ١١ دكانا يعمل بها ٣٠.

(١) يباشر فى الأصل.

- طائفة الرمالين (المنجمون): لهم ()^(١) دكانا يعمل بها ٤٠ شخصا ولكن فيهم الجهادية الكمل.
 - طائفة كاتبي «العرضحال»: ٤٥ دكانا يعمل بها كذلك ٤٥، منهم نصارى سريعو الكتابة.
 - طائفة صانعي المداد: لهم ٣ دكاكين يعمل بها ٦، وهم لا يذبيونه فى هاون مثل الترك، وإنما يغلونه على النار.
 - طائفة المصوريين: إنهم ٢٠، ولا دكاكين لهم، وفى كل مكان يجتمع فيه الناس يرسمون صورا على الجدران تكون غاية فى الروعة والإبداع.
 - طائفة الزجاجين: لهم ٨ دكاكين يعمل بها ٢٠. وعدد أفراد هذه الطوائف المذكورة أعلاه ()^(٢)، مضوا مقيمين الزينات حاملين القناديل وفى معيتهم كبير الرسامين وسط عزف الفرقة العسكرية.
- (الفصل السابع والعشرون)**
- تجار خان الخليلى**
- لهم ١٥٠٠ خزانة متنوعة تقوم طائفة من الحراس على حراستها كل ليلة وهم ستمائة من الزنوج الشجعان يحملون الحراب، وفى كل ليلة تضاء أرجاء الخان بثلاثة آلاف قنديل.
 - طائفة الدالين المعتمدين: عددهم ٣٠٠ دلال.
 - طائفة الدالين الضامنين: وهم ٦٠٠ دلال.
 - طائفة سمسارة الخيول: عددهم ٢٠٠ لهم أمين أغا واحد، وجورباجى واحد، وثلاثة كتاب.
 - طائفة وسطاء سوق الخيول: وهم ٢٠٠ شخص.

(١، ٢) بياض فى الأصل.

- طائفة سماسرة خان الخليلي:

عددهم ٥٠، ومهمة هؤلاء هي أنه إذا شاء أحد شراء شيء ما نادر بحث عنه هؤلاء السماسرة وأخبروا المشتري بمكانه.

- طائفة الصوافين: لهم ١٠ دكاكين يعمل بها ١٨.

- بائعو الحرير والمخمل والخلع والبز والسجاجيد والعباءات والعمائم:

وعدد أفراد هذه الطوائف سائلة الذكر (١)، وهم قد حملوا كامل أسلحتهم وأصبحوا وكأنهم الجيش الجرار، ووصفهم في فكاهاتهم وزيتهم مما يقصر عنه الوصف ومروا. وفي معيشتهم كبير التجار وكبير الرسامين وكبير الوراقين، وطبولهم تفرع.

(الفصل الثامن والعشرون)

طائفة المهرجين

ذكروا تفصيلا فيما سبق، وهم جميعا ٧٠٠٠٠ مهرج يمثلون ٧٠ طائفة وإذا ما تحدثنا عن ماهية كل منهم لطلال بنا الكلام ونكون قد امتدحنا الدجال وما قالوا من فكاهات وأضاحيك في تلك الليلة لم يأتى يمثلها أبوهم الروحي «أبو على». حتى أن جميع المشاهدين وضعوا أصابعهم على أفواههم مندهشين متعجبين وبالغوا في الضحك. وهؤلاء من شياطين الإنس في مصر لا وجود لهم في أوروبا ولا الهند. وبينهم من كان يلعب بالنار في الموكب ويطلق القذائف النارية ولم يكن لهؤلاء فرقة موسيقية لأنهم يجتذبون انتباه الناس إليهم أكثر من الفرقة الموسيقية.

(الفصل التاسع والعشرون)

طائفة الموسيقيين

أبوهم الروحي فيثاغورث التوحيدى وعبد الله الفارابى . عددهم ٧٠٠، وقد مروا وهم يعزفون على سبع وأربعين آلة موسيقية.

(١) يياض في الأصل.

(الفصل الثلاثون)

موكب جند مصر

مروا موكبًا موكبًا يفصل الموكب عن الآخر زينات من القناديل والمشاغل، وممرت كل فرقة وفيها شعراء ومغنون وعازفون. وبعد مرور موكب المصريين على هذا النحو مر أغوات الباشا وهم فى كامل زينتهم وأبهتهم متحازين، وجنائب الباشا وملازموا الانكشارية من ذوى الطوغين، وشطار الباشا وعلى رؤسهم الخوذات، وسقاءوا ركاب الباشا وفى معيتهم المحتسب آغا الذى امتطى جوادا مطهما عليه سرج محلى بالجواهر وكان يلوح بالسلام على جانبيه، وفى أثره مضى كتحدا بوابى الباشا وأربعمائة من غلمان قصر الباشا وسط عزف الفرقة العسكرية ذات التسعة صفوف، وبعد ست ساعات وصل الموكب العظيم إلى قصر القاضى عسكر وأطلقت فرقة المدفعية طلقة واحدة تحية وإبتهاجا وصفق جلاويشيه ديوان مصر. ثم تقدم القاضى عسكر وتبوا مكانه فى المجلس. وبعد تقديم القهوة وماء الورد وإحراق البخور ألقى المحتسب آغا كلمته ترحيبا بالقاضى عسكر أفندى فقال:

«إن مولاي صاحب الدولة يقرأ عليكم السلام. هل هذه الليلة المباركة ليلة رمضان؟ وهل غدا غرة الشهر المبارك أم يوم الشك؟ أنتوى الصيام؟ أفدنا يا مولاي حتى نرسل هذه الجموع من الجند حاملة البشرى لسلطاننا بحلول شهر رمضان المعظم». وعندما انتهى المحتسب آغا من إلقاء كلمته قال قاضى العسكر أفندى: «ليحضر فى التوشيوخ الإسلام على المذاهب الأربعة» وعندئذ تقدم نحو القاضى عسكر جميع العلماء والصلحاء وشيوخ الإسلام.

وإن كان الهلال ظهر فإن ذلك يثبت ويقيد فى سجلات القاضى عسكر، ويسلم المحتسب آغا حجة شرعية فيها أن غداً هو غرة رمضان. فيرسل المحتسب آغا والكتخدا البشرى إلى الباشا ويقرأ الباشا الحجة الشرعية وينوى الصيام بناء على ما ورد فيها. وتضاء القناديل أول ما تضاء فى منارة جامع الدهيشة فى ميدان قصر الباشا ومن بعد فى منارات جامع قلاوون وتطلق المدافع فى القلعة فى منتصف الليل أربعين طلقة أو أكثر

فتهتز السماء والأرض وتزدان الثمائم وستون منارة في مدينة القاهرة فإذا هي نور على نور، ويمضي كل شخص لأداء صلاة التراويح وينوون الصيام.

وإذا سأل المحتسب أغا قاضي العسكر أفندي ولم يشاهد الهلال، فإن القاضي عسكر - طبق القانون- يسط سماطا ليسد جميع الأغوات والأعيان وأرباب الديوان جوعتهم، ويمر جميع أفراد الطوائف الذين في فناء قصر قاضي عسكر أفندي من أمام مجلس المحتسب أغا وقاضي العسكر حاملين ريشاتهم. ثم يطلق اللاعبون بالألعاب النارية سبعين قذيفة كقذائفهم في يوم الإحتفال بقطع النيل، وتستمر عروضهم ثلاث ساعات، وعندما ينتهي موكب المغنيين والموسيقين يبدأ موكب جند الأوجاقات السبعة في التحرك لإخبار الباشا بأن هلال رمضان لم يشاهد من أي جهة إلى تلك اللحظة ولا تضاء القناديل ولا يكون يوم تلك الليلة رمضان وإنما يوم الشك. وبما أن هذا الأمر يحتمل وجهين يخبر المحتسب حتما الباشا بذلك.

وعندما حانت لحظة الوداع خلع المحتسب أغا على القاضي عسكر أفندي خلعة وأرسلها إليه الباشا لأن القاضي عسكر في تلك الليلة أنفق ألف قرش في ضيافته تلك. وعلى هذا النحو مضى المحتسب أغا ثانية إلى الموكب وعاد إلى منزله قبيل الفجر، وعندما نزل عن صهوة جواده تبادل شيوخ الطوائف الفكاهات قائلين «طريق طريق» ويمضون في شوارع القاهرة في ضجة وجلبة كما مضى الشيوخ إلى بيوتهم وعاد الجميع إلى ديارهم. وعندما وصل المحتسب في موكبه إلى داره جلس على كرسيه وبعد أن وزعت القهوة والبخور على أغوات الأوجاقات السبعة منح طائفة العسكر - على نحو ما سبق ذكره في تعريفات الطوائف العسكرية - كيسين ومضى جند مصر جميعا. ثم منح أغوات الباشا كيسين ليوزعوها فيما بينهم وكيسين لتقديمهما إلى الباشا ونصف كيس للكتخدا كما وزع المحتسب أغا العمائم على اثني عشر من أصحاب المراتب من أغوات قصر الباشا تطييباً للخواطر.

وعلى هذا النحو انتهى موكب ليلة المحتسب أغا. والمنح التي قدمها المحتسب أغا للباشا والكتخدا وأغوات الباشا وأفراد الأوجقات السبعة فهي من الأكياس العشرة التي جمعها من تحت إدارته من طوائف الشيوخ الثلاثين أصحاب الطبل خانة ومن

تحت سيطرته كذلك من أفراد مائة وستين طائفة حرفية، وذلك بمعاونة الكتخدا والنقباء والجاوشية.

ولكن بما أن عدة طوائف تحت إدارة خدام الباشا لا يحصل منهم أى شىء. فالطهارة تحت حماية كبير طهارة الباشا، وجميع أصحاب المقاهى تحت حماية رئيس شطار الباشا، وجميع الخبازين تحت حماية كبير خبازى القصر وكل الجوهريين تحت حماية كبير جوهريى الباشا.

وبما أننى كنت أعد فى خدمة الباشا والأمين أغا وصاحب العيار ورئيس ضاربى العملة والناظر أغا والوزان أغا و ١٥ من (وهذه كش)، وعشرة من حراس الخزنة وضاربى العملة العشرون وعشرون من الماهرين وخمسة من الفرائين وعشرة من «يصى جى»، وعشرة من الصيارفة القائمين على الإحصاء وعشرة من الوزانين ورئيس الصيارفة وهو واحد وهؤلاء جميعا يبلغ مجموعهم خمسمائة من العاملين فى الضرب خاتنه لا يدفعون شيئا للمحتسب.

وجميع الحاكة تحت حماية كبير حاكة الباشا لا يدفعون شيئا كذلك. ونفس الشأن بالنسبة للفرائين الذين تحت حماية رئيس فرائى الباشا. إلا أن هؤلاء جميعا يشتركون فى الموكب. وهذه الطوائف لا تدفع أى أموال للمحتسب فى الظاهر ولكن حينما يعزل الباشا فلا يقام أى وزن لرئيس الشطار ولا رئيس الطهارة ويرهبون المحتسب ولذا يقدمون له الأموال سرا وعلانية لأنه حينئذ الحاكم الحر المطلق الإرادة الذى يخشونه. ويساهم أهل الطوائف جميعا فى نفقات موكب ليلة المحتسب حسب ما جاء فى قانون مصر.

وموكب ليلة المحتسب أحد مواعيد الأعياد فى مصر والبالغ عددها () (١)، ولا نظير لهذا الموكب على وجه الأرض. حتى أن أهل مصر يحددون مواعيد زواجهم على ليلة هذا الموكب.

وإذا ما تحدثت عما رأيته تفصيلا لاقتضى ذلك منى تأليف مجلد قائم بذاته. لذا تحدثت عنه بإيجاز.

الفصل التاسع والأربعون

ذكر أهل الصناعات في مصر

ممن لا وجود لهم في غيرها من البلاد

- الترياق الفاروقى:

إن الترياق الفاروقى الذى يجهز فى مستشفى قلاوون التى سلف الحديث عنها لا وجود لمثله فى الدنيا بأسرها. ومن مصر يصدر هذا الترياق ومشتقاته إلى شتى بقاع العالم.

- الترياق الكنعانى:

وفى المستشفى ذاته يصنعون سما زعافا يبلغ من قوته أنه يؤثر على الخيول والبغال حتى من حوافرها. و«الترياق الكنعانى» يبطل مفعول هذا السم. إنه عبارة عن شيء صلب أصفر يشبه الكشتبان. ولله الحمد أننى أملك شيئا من هذا الترياق. وقد اكتشفه من يدعى كنعان رحمه الله بينما كان يبحث فى علم الكاف. وكان متضلعا من شتى العلوم ولم يفته الإحاطة بعلم قط. حتى إنه كان له سبعون من مخترعاته حازت على إعجاب العالم بأسره.

- معجون العقرب:

إنه كذلك شيء عجيب، ومن يجرى عليهم راتب من أوقاف قلاوون من إذا رآهم الشيطان استعاذ بالله يسمون «صيادى العقارب»، وهم عشرة أشخاص. إذا ما أراد كبير الأطباء تحضير «معجون العقرب» هذا أرسلوا هؤلاء الصيادين إلى البرية وهناك يحفرون عدة حفر فى الرمال، ويضعون فى كل حفرة وعاء من الفخار المبطن من الداخل بالزجاج، ويسوون فوهته بالأرض ويضعون بداخله قطعة من الكبد ويضعون قطعا أخرى عند حافته حتى إذا ما انتصف الليل خرجت العقارب متصيدة فتشم رائحة الكبد ويسيل لعابها كالكلب وتسقط فى الوعاء إذا ما بلغت حافته. ويتوالى سقوط العقارب على هذا النحو. وفى الصباح تكون هذه الأوعية قد امتلأت بما لا يحصى كثرة من العقارب وتصبح عاجزة على الخروج منها. فيأتى الصيادون ويملاون مخلاتهم بهذه

العقارب ويسلمونها إلى كبير الأطباء في مستشفى قلاوون. فيقومون بقطع ذيلها وأرجلها بالمقص ويطبخونها في قدور من الفخار ويفصلون زيتها ويصنعون من لحمها معجوناً بالسكر.

وإذا ما أصيب أحد باحتباس البول وأكل منه مقدار نصف حبة حمص تفتحت مثانته فهذا المعجون مدر قوى للبول. ولكن ينبغي عدم الإكثار من استعمال هذا المعجون.

- مصنع السكر: وهو حقا جدير بالمشاهدة.

- معمل النواشدر: وهو جدير كذلك بالمشاهدة وسوف أتحدث عنه في حينه.

- مصنع ملح البارود:

إنه مصنع عظيم في بولاق يستحق المشاهدة، وفي القرى الأخرى مصانع كثيرة للملح البارود وكلها مملوكة للدولة. ويصنعون منه البارود الأسود.

- ملح النظرون:

إنه كذلك يشبه الملح. والكثرة الكاثرة من أهل مصر يستخدمونه بديلاً من الملح في طعامهم فهو ينضج اللحم في طرفة العين. كما أنه إذا أذيب في طعام نبيّ حله لذا لا لذة في طعام أهل مصر. ولندرة الحطب في مصر يضعون هذا الملح في طعامهم كي ينضج سريعاً. بيد أنه يسبب تورم الخصية وسلس البول لمن يستعمله بكثرة.

وصانعو الترجيلة يستخدمونه كذلك. ويصدر من مصر إلى بلاد الترك. ويأضافه إلى الزجاج يذويه ويجعله كالماء عندما يوضع على نار هادئة. ويوجد بكميات هائلة في مخازن بولاق بالقاهرة. ولهذا الملح أمانة مستقلة وهو يدر دخلاً للحكومة.

- طائفة صانعي خزانات ماء الحمامات:

إن خزانات المياه الساخنة لجميع الحمامات مصنوعة من الرصاص، وهذا أمر عجب.

في بيان قبائح مصر وطوائف الصوباشي

وهذه الطائفة ملاعين وزنادقة.

- بغايا باب اللوق:

٨٠٠ بغى، ومن أهل المعصية، ولهن أكواخ بين الرمال وعند باب حصن باب اللوق:

- بغايا الناول:

وهن يعملن سرا في منازلهن، ولكن لهن قوادون. وعددهن ٢١٠٠ بغى، وهن مقيدات في دفتر الصوباشى ويؤدين الضرائب. ولأنهن تحت سيطرة طوائف الجند لا يستطيع الصوباشى تحكما فيهن ولذا لا تقع البغى تحت طائلة العقاب.

- غلمان باب اللوق:

يترددون على المقاهى والحانات وميدان الروملى وكلهم مأفونون ولوطيون. وهم كذلك يؤدون الضرائب للدولة.

- شيوخ القوادين:

إنهم ٣ أحدهم في باب اللوق والآخر في مصر العتيقة والثالث في مصر الجديدة. وجميع البغايا والغلمان مقيدون في سجلاتهم. وعليهم دفع الضريبة للدولة.

- جاوشية باب اللوق:

٤٠ وهؤلاء يعرفون بيت كل بغى ويعرفون كذلك هل باتت البغى في منزلها أم لم تبت.

- دياتو باب اللوق:

يمضون من بيت إلى بيت مقيمين سوقا كسوق الخيول والبغال ويربحون من ذلك.

- قوادات النساء:

إنهن عجائز مهمتهن البحث عن حسان البغايا لمن يقبل عليهن وينلن عن ذلك أجورهن. وهن ٣٠٠ عجوز لعينة.

- المتسوقه:

يذهبون لشراء ما يطلب منهم من حانات باب اللوق أو دكاكين الكباب وينقلون آلات الطرب ويتقاضون على ذلك أجورهم وهذا ما يكفل لهم العيش.

وبعض الفتيان من أسفه السفهاء يتأذنون من سادتهم في الخروج بحجة أنهم ماضون إلى الحمام ويولون وجوههم شطر باب اللوق. وحينما يجالس الواحد منهم

بغيا فى أحد الأكواخ تطلب منه خمرا وكبابا بـ «پاره»^(١) وفى التو يعطى من يذهب إلى السوق ٣ أفجات^(٢) ليهيئ طلبه. ويضعون فى الخمر القرنفل الأبيض والطاطولة وصمغ الأذن ورماد الحصير. وإذا ما تناول هذا الشاب قدحا ثمل ومال كأنه غرارة الحناء.

وسرعان ما يجردوه من كل ملابسه وسكينه وخنجره، وكيس نقوده ويحمله الرعاع دون أن يحقق مرامه ليطرحوه فى الطريق ولا يستطيع أحد أن يكشف سر من جرد من ثيابه وبقي عاريا هكذا. وإن كان لديه كثير من النقود قتلوه وأخفوا جثته دون أن يعلم أحد إلا الله.

وفى عهد «جان بولاد زاده» كثر القيل والقال عن وقوع مثل هذه الحوادث فأصدر الباشا أوامره إلى أحد رؤساء البوابين بهدم بيوت هؤلاء الفسّاق، وعندئذ جمع الاغا المذكور ألفا من الزنوج والفلاحين فسووا بالأرض جميع الحانات ومضارب البوزة وبيوت الدعارة ونفى جميع البغايا وطهر القاهرة من رجسهن.

والغرض من ذكرنا لهؤلاء هو تنبيه الغافلين حتى يتحرزوا منهم فى المناطق التى يجب التحرز فيها.

- شيخ الشحاذين:

له تكايا فى ميدان الروملى يجتمع فيها كل الشحاذين. وله اثنا عشر من الجاوشية يقفون عند باب الباشا وباب القاضى عسكر أفندى حتى يخبروا شيخهم بأى صوب يمضى الباشا فيحتشد الشحاذون على جانبى الطريق العام. ويبلغ عدد الشحاذين فى القاهرة ٩٠٠٠ شحاذ وهم مقيدون فى دفاتر شيخ الشحاذين وهم يتلقون الصدقات من الباشا والأعيان ويدعون الله لهم بالخير.

وإذا ما بسط شحاذ لسانه بالسوء فى حق أحد نبه شيخه بذلك ليقتص منه.

- أضحوكة أخرى:

وفى يوم خروج الكسوة الشريفة يركب شيخ الشحاذين حمارا وإلى جانبه أعور وأقطع وأقرع ومعهم عدة آلاف من الشحاذين. وهذا ما لا وجود له فى بلد آخر غير مصر.

(١) الپاره: العملة العثمانية.

(٢) الأتجه: وحدة النقد العثمانية.

- طائفة صانعي القناديل:

لهم ٤٠ دكانا، تظل مفتوحة حتى الصباح أيام الموالد والمواسم وشهور رجب وشعبان ورمضان. وتزين هذه الدكاكين بالقناديل. ويلزم كل تاجر أن يضع قنديلا على دكانه المعلق. وفي ليالى المواسم تزين المدينة بالقناديل. وإذا ما أردنا إشعال ألف قنديل أو أكثر اتفقنا مع أفراد هذه الطائفة على أن يزينوا المنازل والطرق العامة بالقناديل. وهذا فى مصر وحدها لا فى بلاد غيرها.

- تجار الرقيق:

عددهم ٢٠٠٠، مقرهم فى الوكالات. يمضون فى العام مرة إلى بلاد الفونج وولايات أواسط أفريقيا لصيد الزنوج. وأغلب تجار هذه الطائفة من جنوب مصر.

- جراحو تجار الرقيق:

عددهم ١٠ يعملون فى منازلهم أما مهنتهم اللهم عافنا فهى إجراء عمليات الخصى حيث يقدمون شراب الزعفران المخدر إلى أربعين أو خمسين أو مائة من الاطفال الزنوج ثم يصفقونهم ويقطعون بالموسى ذكورهم بأكملها ويضعون قطعة من القصب فى موضع الذكر ويوقفون نزيف الدم بمسحوق أحد الأعشاب التى تنمو فى السودان ويضعون مسحوق أشجار السنطة مع دهان أسود ثم يلفون الجرح بقماش معين. وبذلك ينقطع نسل جميع هؤلاء الاطفال الأبرياء.

إنهم عشرة رجال سمر البشرة لا يعرفون الرحمة، قساة، انعدم النور من وجوههم الدميعة. وقد خصوا أكثر من مائة من الاطفال الزنوج ليرسلونهم هدايا إلى كتخدا إبراهيم باشا ومضيت لمشاهدتهم فإذا بهم - الله عافنا - كالدجاج المذبوح مقيد، منهم من يخر على الأرض إعياء ومنهم من امتنع عن النطق من عدة أيام. إلى هذا الحد البعيد هؤلاء النحاسون قساة.

- نساجو البسط:

لهم ٢٠ مصنعا، يعمل بها ٣٠٠ نساج ينسجون البسط الحريرية والسجاجيد التى يعجز اللسان عن وصف جمالها وروعها. وعلى الرغم من أن السجاجيد تصنع فى مدينة عشاق وقولا و الاشهر إلا أنها ليست فى جودة ما ينسج فى مصر منها.

- الحمارة:

إنهم ٣٠٠ حمار. وحُمُر القاهرة حُمُر سريعة لا يدركها الخيول السريعة. وفي القاهرة ٤٠٠٠٠ حمار على نحو ما يقال. وجميع أعيان مصر يركبونها ما فى ذلك من عيب. لان ذلك سُنَّة عن الرسول ﷺ. فقد كان له حمار يسمى «اليغفور» يركبه على الدوام. حتى إن أحدا إذا ركب حمارا وسخر منه أحد اتهمه الناس بالكفر والزندقة.

- حلاقو الحمر:

لا دكاكين لهم، إلا أنهم يوجدون فى أماكن معلومة يظلون فيها. وهم يقصون وبر الحُمُر والجِمال مرة كل شهر. وعددهم ٢٠٠ حلاق يقصون وبر الحُمُر والجِمال بالمقص ولا يبقون له من أثر وكأنهم استخدموا فى ذلك موسى.

- النشالون:

إنهم تحت سيطرة الصوباشى، وهم يسرقون أكياس النقود والختاجر والسكاكين من جانب الناس ومن صدورهم، ويقدمون على ذلك دون حياء أو تردد.

إنهم ٣٠٠ نشال. ولا بد من الاحتراس منهم فى الأماكن المزدحمة. إنهم مهرة إلى حد جد بعيد فهم يسرقون العين من الكحل ويبقى الكحل فى موضعه. ولهم كذلك مشيخة مستقلة. وإذا ما سرق أحدهم شيئا وطلبه الصوباشى بحث عنه شيخهم ووجده له فى التو فجميع النشالين مسجلون فى دفتره.

- صانعو الأسرة:

يصنعون الأسرة وأقفاس السكر من سعف النخيل. وعدد أفراد هذه الطائفة () (١) ولا وجود لثلثهم فى بلد آخر غير مصر.

- الزبالون:

عدهم () (٢) يكنسون كذلك الشوك والقش فى الطرق العامة ويحملونه إلى مواقد الحَمَامَات ومصانع الزجاج والمخابيز ومصانع الجص والجير ومصانع الاكواب حيث يستخدم وقودا. وليس فى مصر من يشبه هذه الطائفة فى غرابة هيئتها وسيماها وكأنهم

(١، ٢) بياض فى الاصل.

مخلوقات نسخت. لقد رأيت أن بعض أتقياء الأمة يقبلون أيدي هؤلاء الزباليين المحتقرين المذمومين عندما يشاهدونهم. وكثير من الناس لهم راسخ الاعتقاد في أن هؤلاء الزباليين من أولياء الله مثل المجاذيب وبائعى الأشياء القديمة. لا يعلم الغيب إلا الله. يقول المولى سبحانه وتعالى في حديثه القدسي: «أولياي تحت قبائى لا يعرفهم غيرى».

- بائعو لحم الجمال المطبوخ:

يبيعون كذلك كبـد الجمال. إنهم ١٠ أشخاص ولهم ١٠ دكاكين. إنه طعام الفقراء إلا أنه غاية فى لذة طعمه ولقد أكلت منه مرات ومرات.

- بائعو الفئران المطبوخة:

لا دكاكين لهم، يبيعون ما يبيعون فى أكواخ وخيام فى ميدان الروملى. وهم ٢٠ بائعا. ولكن لهذه الفئران مواسم فعند قطع النيل يخرج الصيادون لصيدها وإحضارها إلى ميدان الروملى ويبيعونها.

والفأر حيوان صغير، يشبه الأرنب إلى حد بعيد وهو يكثر فى الأرض بمشيئة الله ولقد شاهدت ذات مرة دماءها تسيل أثناء مرور حديدة المحراث على جحورها. ولذلك كان أكلها حلال فى المذاهب الأربعة. وعندما تكبر الفئران يجدون عند موضع جحورها أكواما من الرمل فيعلم من ذلك أن ثمة فأرا كبيرا فيحفرون الأرض ويخرجونه. إنه حيوان لطيف يشبه السنجاب فى وبره، يزن خمسين أو ستين درهما. إنه سمين الجسم، لحمه خفيف وشحمه خفيف وهو سريع الهضم ومقو. وعندما ذهبـت إلى الواحات أكلت من لحمه كثيرا. وهو يقتات بجذور النباتات تحت الأرض، ولا يأكل شيئا ذى روح.

- بائعو الحشيش والخمر:

لهم دكانان فى ميدان الروملى، يعمل بهما شخصان، يتعمون الحشيش لليلة ويستخرجون ماءه الذى يضعون فيه العسل المصفى ويبيعونه كذلك فى كؤوس لمن يطلب.

ويقال إن من يشرب منه كأسا وراح ينظر إلى وجه حبيبته وقع نشوة وأنشد ألف بيت من الشعر ويصبح خصب الخيال.

- بائعو السوية:

والسوية بوزة تصنع من الأرز، وقد سبق الحديث عنها وهذا المشروب لا وجود له إلا في مصر.

- بائعو التمر هندي: إنه مشروب راحة للأبدان وهو لا وجود له إلا في مصر.

- بائعو شراب العرقسوس: ذكر أنفا وهم كذلك لا وجود لهم إلا في مصر.

- صانعو العقوة:

يصنعون الخنجر العربى المعروف بالعقوة فى حجم السيف، لا وجود لمثل هؤلاء فى بلاد الترك.

- صانعو الحصير: ينسجون الحصير المنقوش الجميل الذى يباع بأربعين أو خمسين قرشا.

- الطهاة:

يطهون أرز «الكوسكوس»، والملوخية والبامية والقلقاس والقرنيط. وصنوف الطعام هذه لا وجود لها إلا فى مصر.

- دراويش التوابل:

أغلبهم من دراويش اليمن يحملون أنواعا من الرياحين والسنبل والياسمين داخل منشفة ويوزعون الفل وشقائق النعمان على من يصادفونه من الأعيان وينالون منهم الصدقات إنهم سبعون أو ثمانون، وهم كذلك فى مصر وحدها.



الفصل الخمسون

طوائف الحرفيين ممن لا وجود لهم في القاهرة

والموجودين في البلاد الأخرى

ثمة مثل له عظيم الشيوخ والانتشار بين العلماء والعارفين وهو أن في مصر كثيرا من الخيول ولكن لا وجود لبيطار ماهر ولا وجود إلا لبيطار الحُمْر. والمرضى كثير ولا وجود لطبيب، والعميان كثير ولا وجود لكحال. وهذه الأقوال صحيحة لا تتجافى عن الصواب. وإذا اتفق أن مرض رجل من اثنين ورمدت عينه قيل له في المثل: إذا لم ير أحد شيئا جليا قيل له إن عينه تشبه عين ابن العبد المصرى. وحقيقة الحال بأمر الحى المتعال أن من يولدون في مصر لأبَاء من الترك تضعف أبصارهم وتسيل دموعهم. ويقولون لا وجود لحاكم وهم لا يجعلون الحكم للشرع والعرف وكل شئ مصون. إلا أن الوزير كالمترم فقط يحصل مال السلطان.

ولا وجود كذلك لطواحين الماء، ولا وجود للحمّة أى نبع للماء الحار ولكن الآبار كثيرة. ولا وجود لميزان خاص بالدقيق والزيت والعمل ويوجد ميزان للحرير ومصانع الشمع ومصانع الصرمة ودور الوشم ووكالات الرقيق والبزازين. وهذه الطوائف الحرفية موجودة إلا أنها ليست لها الصفة الرسمية.

إن سوق البَزْ كأنها خان الخليلي، ولا وجود لدكان خاص ببائع الدقيق ولا ببائع الغلال، ولا وجود لدكان صانع البوصلة، ولا لمعمل الأوتار. ولا وجود لبائع البضاعة الدقيقة، ولا وجود لصانع السلطة. ولا دكان لصانع الدروع ولا لصانع التروس، ولا وجود لدكان الجبل ولا وجود لدكان صانع الطبنجات ولا لصانع البنادق. فالدروع والحُزْد تأتي من بلاد الشركس وداغستان. أما الترس فيأتى من حلب، والجبل يأتى من كل البلاد والبنادق والطبنجات تأتي من الجزائر.

ولا وجود لدكاكين وَزَّانِي الحديد ولا النحاس ولا دكاكين لصانع المشقاب، ولا لصانع المطرقة ولا المنشار. ولا دكاكين لصانعي الكشتبان والإبر، ولا دكاكين لمدرّبي

الرمى بالسهام ولا للمدربى النفخ فى بوق الفرقة الموسيقية العسكرية، ولا نافخى الزمار. إلا أنهم يصنعون طبولا عجيبة للكاشف.

ولا وجود لدكاكين الأوانى الزجاجية ولا دكاكين لصانمى الصحون النحاسية، ولا لصانمى دولاب السفينة. ولا وجود كذلك لمن يحك الماس ولا لصانع الاسلاك الحديدية وهذه الأشياء تستورد جاهزة من بلاد الفرنجة.

ولا دكاكين لصهر القصدير ولا لصنع ألواح الرصاص. إلا أن ثمة من يسمى الحاج ناصر وهو رجل من رشيد تعلم على يدى صناعة القوالب وصب ما يقرب من ألف لوح من الرصاص وأرسلت إلى مكة لعمل خزانات الماء لمبرة (خاصكى سلطان) ومستشفى، ولا وجود لدكاكين صانمى الريش الذى يوضع على الرأس، ولا دكاكين لصنع رق الغزال ولا للباد الانكشارية، ولا دكان صانع السياط.

ومصنوعات تلك الطوائف الغير موجودة فى مصر تستورد من جميع أرجاء الدنيا وتتوفر جميع الأشياء ذات القيمة النفيسة.

ولا وجود كذلك لطوائف صانمى القيشانى، ومستخرجى الفضة بحامض الكبريت، وطوائف صناع البراميل من الخشب والخزانة وقنوات المياه والجص والقرميد والبلاط، ولا وجود لاحدها فى مصر، فمدينة القاهرة فى غنى عنها وجميع النفائس ترد من الهند واليمن إلى مصر.

الفصل الحادى والخمسون

الموكب الرابع فى مصر وهو موكب العيد ومظاهر البهجة والسرور

والموكب الأول فى مصر هو موكب «دخول وزير مصر إليها» والموكب الثانى هو موكب الاحتفال «بقطع النيل» والثالث «موكب ليلة المحتسب»، أما الموكب الرابع فهو موكب عيد الفطر المبارك، وهى الأيام التى تصبح فيها حسان الدنيا فى أجمل وأبهى زيتهن، ونساء مصر يذهبن لمشاهدة مظاهر الاحتفال بهذا العيد ويعقد زواجهن شريطة ذلك. والشأن فيه لا يختلف عن الشأن فى موكب ليلة المحتسب فلا يمكن فى منازلهن فى ليالى هذا الموكب.

ولعقد ديوان موكب عيد الفطر المبارك ووقفه عرفات، أقام رئيس فرقة الموسيقى العسكرية السرايدات العظيمة فى ساحة قصر الباشا وأقام مظلة لأفراد فرقته وزين هذه الساحة وفى تلك الليلة أحضر مع أربعين من رجاله الطبول العثمانية السلطانية، وعزفوا المقطوعات الموسيقية فى اثنى عشر مقاما حتى مطلع الفجر، وقدمت القهوة الفاخرة والمشروبات والبخور لكل الأغوات الذين حضروا فى السرايدات.

وطلع الفجر عليهم وهم على هذا النحو. وأدى وزير مصر صلاة الفجر فى قصره وفرش ساحة قصره من الخارج بالحصير وصلى جميع الأشراف والأعيان وأرباب الديوان ركعتى سنة الفجر فى تلك الساحة. ثم قام مؤذن الديوان بتصعيد الأذان وتلى الآية الشريفة الخاصة بالعيد وهى: ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ﴾ {المائدة: ١١٤}.

وأقيمت صلاة الصبح ورفعت جميع البسط والحصير، ووقف جميع أعضاء الديوان كل منهم فى مكانه حسب رتبته، وأعد كتخدا الباشا واثنى عشر من الأغوات من ذوى الرتب العالية خلع فرو السمر والعمام، ولبس الباشا عمامته السليمية المزينة بالجواهر وقبائه الأحمر المزين بالفرو وعلى يمينته ويسرته السلحدار والجوقدار^(١) وعندما هم الباشا بالخروج جاء الكتخدا ليقف على يمينته ووقف على يسرته «الشهر حواله»،

(١) الجوقدار: المستول عن الملابس الصوف.

فوقف السلحدار خلف الباشا وعلى رأسه قلنسوة من اللباد الأحمر الحريرى ويرتدى السروال الشركسى الأصفر والسروال الحريرى المحلى بصفر الأزهار وفى يده سيفه المرصع بالجواهر. وكان الجوقدار كذلك فى أبهى حلة له، ووقف جنبا إلى جنب مع السلحدار خلف الباشا. وجاء اثنى عشر من أغوات قصر الباشا من أصحاب الرتب وفى يد كل منهم سيف وعليهم فرو السمور وتبعوا الباشا وتقدم موكبه كتخدا الجاويشيه وبجانبه رئيس فرقة المتفرقة وكذلك رئيس التراجمة وكتخدا البوابين واثنى عشر من أغوات الديوان وفى يد كل منهم عصا من القصب، وأنزلوا الباشا من سلم ديوان قايتباى. وعندما امتطى الباشا صهوة جواده يستقدمه المحتسب وجلادو الصوباشى ماشين، خرج جميع البكوات لاستقباله وأنزلوا الباشا فى ديوان السلطان سليم.

ولكن جان بولاد زاده حسين باشا كان يذهب إلى ديوان السليمية من ديوان قايتباى مشيا تواضعا منه وتبركا وتيمنا كما كان يفعل أسلافه.

حقا كان ذلك منه تواضع الدراويش العارفين بالله.

وما إن جلس الباشا على عرش السلطان سليم حتى قرعت الطبول تحت المظلات كما لو كانت تقرع فى الحرب، ثم صافح الباشا أول من صافحه أمير الحج باشا ثم الكتخدا فأبو الكلام وسائر الأمراء ثم انصرفوا، ثم صافح الباشا بعد ذلك أربعون من بكوات الشراكسة وكتخدا الجاويشيه ورئيس المتفرقة والترجمان أغا وسائر شيوخ الديوان وقبلوا يده جميعا.

ثم امتطى الباشا صهوة جواده يتقدمه جميع الاغوات على خيولهم إلى الجامع وتبعه جميع البكوات مثنى مثنى متحازين.

وعندما وصل الباشا إلى جامع قلاوون وفى معيته المحتسب أغا وجلادى الصوباشى وعلى جانبيه جميع الشطار وعلى رؤوسهم الخوذات المذهبة مع حملة البنادق وسقائى ركاب الباشا كانت الشمس فى كبد السماء. وصعد المؤذنون تسع تكبيرات وصلوا ركعتى صلاة العيد وعندما اعتلى الخطيب المنبر خلع عليه كتخدا البوابين قباء من الصوف الأبيض، وبينما كان يلقي خطبته كان خدام الباشا يعطرون الجامع بمجامر العود والعنبر والبخور.

وأتم الخطيب وعظه وإرشاده وبعد الفراغ من الدعاء صافح الباشا الإمام والخطيب والمشايخ ونالوا آلاف الـ «بارات» منحة منه .

وعندما استوى الباشا على كرسيه في ديوان الغورى مع موكب قليل العدد، صفق جميع جاويشية الديوان له وجلس الباشا على رأس سباط عظيم عليه ثلاثة آلاف صحن مذهب وممسك فيه أطايب الطعام، وجلس على يمينه أمير الحج والقائم مقام بك وغيرهم من البكوات، وجلس على يسره الدفتردار بك وأبو الكلام وأغوات الأوجاقات العسكرية وأغا العزب . أما الجبه جى باشى^(١) ورئيس المدفعية ورئيس مركبات المدفعية والمحاسب أغا والصوياشى وكتخدا الجاوشية ورئيس المتفرقة ورئيس الترجمة هؤلاء كانوا يقومون على خدمة الديوان السلطاني ولم يجلس منهم أحد على السباط مع الباشا .

ثم ألقى الباشا قطعا من الكباب والدجاج والحمام على من بجانبه يتناولون الطعام فمن كان يلبس العمامة المجوزة وقعت عمامته عندما سقطت عليها قطع الدجاج واللحم فكان يكتسم ضحكه، ومنهم من كانوا يبتسمون إذا ما تعلققت أجنحة الحمام بلحيتهم وعلى هذا النحو قسم الباشا الطعام على من حوله وعندما قالوا «بسم الله» بدأوا يتناولون الطعام . وفى ساحة ديوان الغورى العظيمة قدم ألفا صحن من الطعام .

وفى الساحة العظيمة لديوان الغورى قدم ١٢٠٠٠ صحن من الطعام التهمها الانكشارية وأرباب الديوان فى طرفة العين، حتى إنه من صوت الأكلين وصوت الأطباق النحاسية سمعت القاهرة ما يشبه الرعد، ثم قام مائتان من خدام موائد الباشا برفع الصحن فكموا منها تلالا تلالا، ونظفها فراشو الديوان معهم . بعد ذلك دعوا الباشا إلى سباط آخر ودعى إليه كذلك بكوات الشراكسة وشيوخ الأوجقات السبعة ورؤساء السبعة وسبعين إدارة للديوان، وألقى الباشا عليهم كذلك قطعا من اللحم فأسقطت عمامتهم عن رؤوسهم وحرار البعض فى خجله .

وكان إذا ما قال الباشا «فليجلس رئيس المتفرقة وكتخدا الشاوشية والترجمان أغا»، جلسوا ثم وقفوا وتولوا خدمة المدعويين ثانية، ثم دعوا الاختيارية أى القدماء . أما

(١) مئول الأسلحة والذخيرة .

أغوات الباشا الإثنى عشر أصحاب الخَلَع وحاصل خرج الباشا فقد وقفوا للخدمة. وبعد الفراغ من تناول الطعام نهض الباشا من مكانه وجلس على سجادة السلطان سليم ونهض كذلك جميع البكوات وانتظروا غسل أيديهم، وأثناء ذلك أوماً كتخدا البوابين إلى رئيس فرقة الموسيقى العسكرية حتى يقرع الطبول وصنوجها، وأشار رئيس فرقة الانكشارية لرئيس فرقة المدفعية في برج القلعة فأطلقت المدافع أربعين طلقة ترددت أصداؤها في جبل الجوشى.

ومن ناحية أخرى هجم رئيس خدم موائد الباشا مع مائتين من رجاله على ثلاثة آلاف صحن، وبعد الفراغ من ذلك رفعت الصحنون وجاء فراشو الديوان بالآباريق النحاسية التى تشبه الذهب وتعود إلى عهد السلطان فرج وقلاوون وقايتباى وقبلوا ما بين قدم الباشا ووضعوا منشفة على ركبته، وقدم إليه أحدهم الصابون المعطر فغسل الباشا يديه وغسل الجميع أيديهم كذلك على هذا النحو، واستكان كل فى مكانه وتلى الدعاجى أفندى^(١) قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ {المائدة: ١١٤}، وعندما ذكر اسم النبى ﷺ وقف جميع الأعيان والأشراف إجلالا وإعظاما، ولما ذكر سلطان آل عثمان مرتين وقفوا كذلك، ثم أنهى الدعاء وبينما كانوا يمسحون وجوههم بأيديهم وقف جميع البكوات وتقدموا نحو الباشا وهو على السجادة وصافحوه فصفق جاويشية الديوان، ثم صافح الباشا أغوات الفرق السبع، ثم صافحه قدماء الفرق وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة والترجمان أغا، ثم نهض جاويشية الديوان بين جملة أعضائه وسلموا جميعا على الباشا ومضوا إلى بيوتهم.

ودخل الباشا «حجرة العرض»، وجلس على كرسيه فى حجرة قايتباى على رأسه العمامة وبدأ الكتخدا بتقبيل يده فخلع عليه الباشا خلعة من الفرو وجلس ثانية على كرسيه، كما خلع الباشا كذلك ثوبا من صوف وقماش على كل من الشهر حواله وأفندى الديوان والإمام أفندى والمؤذن أفندى والمقابله جى أفندى وكتخدا البوابين وكبير رؤساء البوابين وأغا البريد وأمن بيت المال والحاصل خرج أفندى وأحد عشر من

(١) دعاجى أفندى: القائم بالدعاء.

أصحاب الرتب العالية ورؤساء البوابين بحسب درجاتهم وأغوات واجب الرعايا ورئيس المتفرقة وأتباعه ورئيس فرقة الدلاة وأتباعه، ورئيس فرقة الكونكليان أى المتطوعة وأتباعه ونائب نفقات الباشا ورئيس الطهارة ورئيس فرقة الموسيقى العسكرية مع أتباع، وكاتب الخبازين وكاتب بيت المال والكلارجى باشى أى رئيس مخازن طعام قصر الباشا، وسقائى ركاب الباشا وشطاره ورئيس القائمين على خدمة موائد الباشا وبك اسطبل الباشا مع رجاله وأمين الشعر، وكتخدا الاسطبل ورئيس السراجين ورئيس الجنائب ورئيس الحمالة ورئيس الحمارّة ورئيس سائسى الخيل ورئيس حاملى المشاعل ورئيس العكامين وهؤلاء جميعا قبلوا يد الباشا وحظوا بعطفه ورضائه.

أما رئيس فرقة الموسيقى العسكرية ووكيل نفقات الباشا ورئيس الطهارة ورئيس القائمين على موائد الباشا ورئيس حاملى المشاعل هؤلاء الست شرفوا بنيل خلعة من الباشا.

وفى ليلة العيد استمرت فرقة الموسيقى العسكرية تعزف مقطوعاتها حتى مطلع الفجر وزين رئيس خيامية الباشا ميدان القصر بالسرادات وكان يقوم بالخدمة فيها مائة وخمسون من الخدم، وطهى رئيس الطهارة فى خمسة أيام وخمسة ليال خمسة عشر ألف صحن من الطعام وبذل جهدا حتى شوى كانه كباب.

وحمل كذلك رئيس القائمين على خدمة موائد الباشا مع مائتين من رجاله آلافا من الصحن، كما قام رئيس حاملى المشاعل بإنارة ميدان القصر فى ليلة العيد تلك بمائتى مشعل، كما أضيء ديوان الغورى بآلاف القناديل، وقد منح هؤلاء خلعا فاخرة لقاء خدماتهم تلك، كما منح كل جاويز من جاويزية الموكب عشرة دنانير ذهبية وكذلك جميع الأغوات وانصرفوا.

- أغوات القصر:

وهم خواص الغلمان. وفى البداية قام شيخ الأئمة والمؤذنين بتقبيل يد الباشا ومن

بعده الخزينة دار أغا والسلحدار والجوقدار والنشأغى^(١) والمهر دار^(٢) وكاتب الخزانة والكلارجى باشى ورئيس مقدمى القهوة وغلالم المفتاح ورئيس صانعى عائم الباشا ورئيس غسالى قصر الباشا ورئيس حاكّة قفاطين الباشا ورئيس الحلاقين ورئيس الدلاكين ورئيس الحمامية وكبير حاملى المنشفة والشمعأغى باشى وهؤلاء العشرين من خدام الباشا قبلوا يده وانصرفوا، كما قدم فتیان صباح فى ثيابهم الفاخرة لتقيل يد الباشا، ثم جاء بعدهم سبعون أو ثمانون من طواشية الزوج حاملين الهدايا وقبلوا يد الباشا، ومن بعدهم قام رئيس فرقة الموسيقى العسكرية الخاصة بقصر الباشا مع ثلاثين من رجاله بتقيل يد الباشا. بعد ذلك خلد الباشا إلى الراحة وبعد الظهر أقبل بعض الأعيان والأشراف لمصافحته.

وفى صبيحة اليوم التالى من أيام العيد قدم كتخدا الجاوشية ورئيس المتفرقة وأغوات التراجمة وبدأ أربعون من قدامى المتفرقة بزف التهانى إلى الباشا بالعيد السعيد وقبلوا جميعا يده. وفى أثرهم قدم أغوات قصر الباشا وعليهم أبهى الثياب ووزعوا على الحضور مناشف القهوة وخرجوا، وفى أثرهم دخل من قدموا القهوة فى فناجين غاية فى جمالها وزخرفها وانتظروا لأخذ الفناجين، ثم أحضر الخدم المناشف المنقوشة ووضعوها على ركبتي جميع الضيوف وانصرفوا، وفى عقبهم أحضر الخدم الكاسات المذهبة والمزخرفة وفيها الأشرية المعنبرة وشراب الليمون والتمر هندى وما إلى ذلك من صنوف المشروبات وقدموها فى كاسات إلى الأعيان، وبعد أن شربوا ما فيها أمسكوا مناشفهم ومسحوا أفواههم، ثم دخلت جماعة من الخدم وفى يدهم أوعية العطور وماء الورد ونضحوا هذه العطور على أيدي جميع الأعيان وانصرفوا، وجاءت مجموعة أخرى من الخدم ومعهم مباخر العود والعنبر حتى غمروا بعبيرها جميع الحضور. ولم يكن من الجائز عند تقديم البخور ستر الرؤوس بالشال حيث إنه حدث فى بعض المرات أن طعن من يلبس الشال بعض الحضور، والبعض بمجرد أن شربوا القهوة شكوا فى أن يكونوا قد دسوا لهم السم فيها.

(١) النشأغى: الذى يتولى التوقيع بطغرا السلطان على ما يصدر من أوراق رسمية.

(٢) مهر دار: حامل الخاتم.

ثم انصرف قدامى فرقة المتفرقة وجاء قدامى الجاويشية وهؤلاء جميعا شملهم الباشا بكرمه على نحو ما شمل به من قدموا قبلهم. ثم قدم بعد ذلك قدامى السباهية وحملة البنادق والمطوعة وكرم كل منهم على حسب رتبته وانصرفوا.

ثم قدم رؤساء شاويشية الانكشارية للقاء الباشا ودخلوا عليه قائلين «جئنا لتزف التهنئة بالعيد لمولانا السلطان» وقبلوا يد الباشا ووقف كل منهم فى مكانه وألقوا كلمات التحية والإطراء على الباشا. وهؤلاء كانوا يحظون بمزيد من رعاية الباشا، إذ إن للانكشارية فى مصر مرموق المكانة ومن متقاعدى الانكشارية ممن شغل مناصب كتحدا الانكشارية ورتاسة الشاويشية وقيادة الجيش من يملكون آلاف الاكياس وهم واسعو الثراء إلى حد جد بعيد. وقد انصرفوا بعد أن طيب الباشا خاطرهم، وبعد ذلك قدم رئيس شاويشية العزب واستأذن فى الدخول على الباشا فدخل وفى معيته قدامى فرقة العزب وقبلوا يد الباشا وانصرفوا بعد أن أكرمهم الباشا دون أدنى تقصير.

أما جان بولاد زاده حسين باشا فقد كان يدعو فرق العزب والانكشارية للمثول بين يديه ليهنأهم بالعيد السعيد، وكان ذلك من وقت فى المجاملة. ولشهرة هاتين الفرقتين فإنهما كانتا خليقتين بكل تعظيم.

وقدم بعدهم بعض المشايخ ودخلوا إلى مجلس الباشا قائلين: «عيد شريف مبارك يا مولانا السلطان» ثم انصرفوا. وبعد ذلك طلب الباشا جواده ومضى فى موكب عسكري وسط عزف الموسيقى العسكرية. هذا هو عرف مصر وما ذكرناه خاصا بموكب العيد.

وفى العيد يلبس جميع الاعيان والاشراف فاخر ثيابهم ويتزاورون جماعات جماعات ويتبادلون التهانى بالعيد، وهذا فيهم فطرة إلهية كما أن ذلك بأمر السلطان وفى تلك المناسبة، لا يشرب أى مشروب فى القاهرة إلا بوزة الأرز التى يسمونها «السوية» وقد سبق الحديث عنها آنفا. إلا أنهم فى تلك الايام يجهزونها قبل ثلاثة أو أربعة أيام ويضيفون إليها السكر والقرفة والقرنفل. وهى شراب مقو نافع مرطب لا وجود له إلا فى مصر.

وتدوم مظاهر الاحتفال والبهجة فى العيد الشريف ثلاثة أيام بلياليها .

وفى ميادين الروملى وقره ميدان وميدان حارة أمير اخور وميدان مصر العتيقة وبولاق وخارج باب الناصر وحى عابدين وعدة مئات من ميادين القاهرة تنصب آلاف الأراجيح التى يركبها الصبيان والفتيات .

لنذهب إلى مكان العيد وفيه الأراجيح نشهد وما مرآة الزمان أبدت .

أى يخرج من يخرج لمشاهدة الجمال والترويح عن نفوسهم .

وإذا ما شاهد قريب أو غريب حساء اقترب منها وزف إليها التهاني بالعيد واستطاع أن يقول لها كل ما يريد . وهذا فى عرف أهل مصر ليس عملا شائنا .

وثمة شىء يحمل فى طياته العبرة وهو أن مصر فى أيام العيد تلك يكثر بها الأوباش والرعاع إلا أن النساء والأطفال يسرون زرافات زرافات ولا يتعرض لهن أحد بأذى فالأمن مستتب تماما .

وإذا ما وجد من يسير فى الطريق العام ثملا قبض عليه وانهالوا عليه ضربا بعصيهم وركلوه بأرجلهم . فظهور الشخص وهو ثمل شىء معاب كثيرا . وإذا ما شوهد مضوا به إلى الشرطة فينفوه إلى قبرص* أو إلى قلعة صاى على أطراف بلاد الفونج . إن السير فى الطريق العام فى حالة سكر مما يثير غضب الناس ونفورهم .

وفى العيد الشريف يتزاور الناس ويركب الفتیان على جيادهم وهم فى سراويل حمراء متجولين من قرية إلى أخرى . واللسان يعجز عن وصف هذا العيد الشريف وموكبه .

الموكب الخامس وهو موكب عيد الأضحى

وفى عيد الأضحى من يوم عرفة إلى آخر الأيام الثلاثة التى تتلو يوم عرفة يكبر المشايخ والدراويش إلى وقت العصر ويتزاورون قائلين لبعضهم البعض: «يسر الله تعالى عرفات فى أيام التشريق» ويتصافحون.

ولما كانت الولاية على مصر لكتبخدا إبراهيم باشا نحرت ٥٠٠٠٠ من الغنم والجاموس والجمال وهذا مدون فى دفتر أمين الغنم.

ويزدحم الناس فى المدينة وكأنهم البحر وهكذا تكون الحال فى عيد الأضحى وتعم فيه البهجة أكثر مما تعم فى عيد الفطر. وهذا ما يعجز عنه الوصف.

الفصل الثانى والخمسون

الموكب السادس للأعياد طبق ما جاء فى قانون مصر

وهو موكب دخول الباشا مصر

سبق أن تحدثنا عن موكب الباشا هذا، عند ذكر مواكب جند مصر وطرقاتها ورتبها وعدد أفراد فرقهم العسكرية ومرتباتهم السنوية إلا أننا سوف نذكر هنا ألزم لوازم الباشا فى هذا الموكب وكل أحواله.

يسمون هذا الموكب «موكب الاستقبال». وعندما يكون الباشا فى طريقه إلى مصر يضى الجاويشية من ولاية إلى أخرى لحشد الجند من جميع الأرجاء قبل مقدم الباشا إلى مصر بشهر واحد، فى مدينة القاهرة وذلك لاستعراض عظمتها وضخامتها ويحتشد مائة ألف من الجند يمثلون جيشا جرارا كأنه البحر.

وإذا ما تأخر وصول الباشا فإن الحلل يلحق بتجارة الشهر حواله^(١). وألزم لوازم الباشا هى أنه يرسل السعاة واحد تلو الآخر إلى الشهر حواله ليعرفه بكل موضع يبلغه الباشا وموعد وصوله ويشد ذلك من أزره ومن أزر القائم مقام ويأمنان القيل والقال. كما ينبغى أن يأتى مبعوث الباشا من غزة ليبلغه أن الباشا سوف يصل فى يوم كذا فى شهر كذا إن شاء الله الرحمن. وهذا من ألزم لوازم الباشا. لأنه فى ذلك اليوم يخرج جميع أغوات الأوجاقات العسكرية فى مصر حاملين الهدايا والخيام لاستقباله.

ويحضر كتخدا الجاويشية مع سراق كبير، ومعه على خمسن جملا محمله بماء النيل صندوق من سكر النبات ومائة وعاء تحمل الأشربة المتنوعة وكميات ضخمة من الفاكهة وعشرين جملاً تحمل الخبز الأبيض الخاص والسُوريك^(٢). وما إلى ذلك من صنوف الطعام والشراب. بالإضافة إلى جواد مطهم عليه سرج مرصع بالجواهر وعنان ذهبى وسيف مذهب ذو حدين ودبوس مرصع وقباء مقصب وطواشى وثلاثة أكياس من النقد. ويهين كتخدا الباشا كل ذلك لاستقبال الباشا.

(١) الموظف المسئول عن إدارة الشؤون البلدية بالمدينة.

(٢) السُوريك نوع من الفطائر.

أما التحف والهدايا التي تقدم إليه بعد بلوغه القاهرة، فتكون تبعاً لإسم الباشا وما عُرف عنه وجراته فهم مهرة في أعمال الطرافة والنقش. وما أن يرووا الباشا حتى يدرك إن كان عسلاً أم سمناً. أما سماً وله طبيعة الماء البارد. فإذا ما وُضِعَ على المحك. عرفوا عياره الذي يعاملونه تبعاً له.

ثم يمر كتبخدا الجاوشية ومعه مائتان من لابسى العمام المجرورة، وثلاثة مائة من لابسى الـ «طاس» وهم جاوشيه. أصحاب مكر وسوء طوبه وقد شَبَّعَ كل واحد منهم أربعين أو خمسين باشا (ذوى منطق وعقل أرسطو).

وثم جاء رئيس المتفرقة بهداياه مثل كتبخدا الجاوشية إلا أن جواده لم يكن له سلسلة من ذهب ولكن جميع هداياه فاخرة ومضى وفي معيته مائتان من مشاة المتفرقة حاملين خيامهم.

ثم كان الدور على رئيس التراجمة وهداياه أدنى درجة من سابقه ومضى معه عشرة من الجلادين.

ثم خرج رئيس جاوشية الانكشارية ومعه مائتان من ملازمى الانكشارية وعلى رؤوسهم عمامة اللباد والصوف لاستقبال الباشا. إلا أن هؤلاء لا يقدمون أى هدايا للباشا. ولأن كل ملازمى الانكشارية يسرون على الاقدام يتقاضون من الباشا ألف باره فى اليوم ورئيس الشاوشية يتقدم الباشا مترجلاً ويتقاضى راتباً يومياً قدره ألف باره. ويمنح سقاء الانكشارية ثلاثمائة باره - كما ينال مشاة المتفرقة ثلاثمائة قرش.

وخامس من مضوا لاستقبال الباشا هو مسلمه وقد أعد كذلك من أجل المركب ثلاثة أحمال من حمول الجمال ومضى ومعه الاحذية والخفاف الخاصة بأغوات قصر الباشا وقيامه من فرو للباشا وكنانة وسيفا مرصعين بالجواهر وسراويل مخملية حمراء وعمامة سليمية وریشتان وحذائين شركيين وسرج محلى بالجواهر وسلسلة من ذهب وعمود وجواد مطهم.

وكان كتبخدا القانم مقام سادس من خرجوا لاستقبال الباشا وقد مضى ومعه جواد مطهم سرجه محلى بالجواهر.

وصل هؤلاء من القاهرة إلى مدينة الصاحية فى اليوم الرابع ومكثوا فيها وانتظر جميع الجند مقدم الباشا لأنه إذا ما تجاوز الباشا غزة فإنه يعبر صحارى العريش والقطية وأم الحسن وكلها صحارى مجدبة موحشة والعياذ بالله .

إلا أن مسلم الباشا مضى من الصاحية إلى العريش ومعه الهدايا مع ألف من فرسان كاشف الشرقية والشهر حواله لتقديم هداياهم إلى الباشا .

وفى تلك الليلة أقام كاشف الشرقية وليمة للباشا وغادر الباشا العريش فى تلك الليلة ووصل إلى جسر ()^(١) فى ست ساعات واستراح الباشا فى ذلك المكان وقدم عليه فى هذا الموضع كتخدا الجاوشية ورئيس المتفرقة ورئيس الترجمة وكتخدا القائم مقام ومعهم كل هداياهم والتقوا بالباشا وقدموا له هداياهم وقَبَلَهَا .

إلا أن رئيس الانكشارية ظل فى الصاحية وفى ذلك الوقت تناول الباشا الفطور ثم تابع سيره إلى الصاحية وعندما اقترب منها وقف رئيس شاوشة الانكشارية مع مشاة الملازمين وقبلوا الأرض فالتفت إليهم الباشا وتقدموا نحوه ومضى رئيس شاوشية الانكشارية مترجلا وفى قدمه حذاء أحمر وحول خصره حزام . إلا أن عبدى باشا كبير الملاحين والذى كان بلغ من الكبر عتيا سمح له بركوب الجواد ولم يكن هذا بصفة رسمية وإنما بصفة ودية ولكنه اعتذر قائلا: إننا فى فرقنا فى الاستانة كنا نخاف من ركوب الخيل .

فقال الباشا أنا الوزير المعظم لقد كنت بنفسى ضريح حاجى بكتاش ولى قبل أربعين عاما ولقد أذنت لك فامتط صهوة الجواد .

وعندئذ كان من اللارم أن يقبل ركبة الباشا ولقد أنقذنى فى مصر كونى من مسنى فرقتى ولكى لا يتهمونى بخرق القانون التمس العذر، وركب الشاوش الجواد بمساعدة ستة من الجند وأراد الباشا أنى تفكه فقال له لسقد تقدمت فى السن بحيث لا تستطيع ركوب الخيل إلا بمساعدة سبعة من الرجال . فرد على الوزير قائلا: ولكن ليس بمقدور عشرين من الرجال أن يتزولونى عن جوادى . فضحك الباشا ومنحه أربعة وسبعين دينارا من ذهب وعلى هذا النحو دخل الباشا مدينة الصاحية فى موكب عظيم ونزل فى سراى عظيم وجلس على كرسيه وكان ذلك أول جلسة للديوان يعقدها فى هذا السراى . واستمع الباشا إلى بعض القضايا الهامة وفصل فى بعض المنازعات .

(١) يياض فى الأصل .

وخاف المصريون من أحمد باشا الدفتردار في هذا المكان ولم يقبل حبة قمح من أحد وتصدق كل أحد حسب استعداده ومقدرته وفصل في الدعاوى مثل القاضي عسكر.

وعندما نزل الباشا إلى حجرته نحر مائتين من الغنم وخمسين عجلا وعشرة جمال والتمهما البدو والفقراء المعدمون وغادر الباشا الصالحية وعندما بلغ «أم القرين» وزعت الهدايا على جميع الجند كأنها فيضان النيل، وأقام كاشف الشرقية مأدبة عظيمة للباشا، وبعد الفراغ من الطعام امتطى الباشا صهوة جواده المطهم وبلغ قصبة «أم القرين»، وأقام هناك في سرادق جميل عقد فيه الديوان كذلك ونال الهدايا من أغوات الأوجاقات السبعة. وسوف نصف هذه الهدايا عند حديثنا عن قانون مصر فيما يختص بالتشريفات.

ولقد خرج أهل أم القرين لاستقبال الباشا عندما اقترب منها الباشا، كما استقبله كذلك الروزنامجى وكل أرباب الديوان وبكوات الشراكسة وأغوات الأوجاقات السبعة وقبل الجميع يد الباشا، وانعقد الديوان في مدينة بليس كذلك، وحيث إنها تعد مقرا لكاشف الشرقية أقام وليمة عظيمة للباشا أنفق عليها خمسة عشر كيسا ودامت هذه الوليمة أربعة أيام. وفي هذا الديوان أصبح شيخ العربان عايد (صاحب الدرك)، ولكي يتم عبور عساكر الإسلام في سهولة ويسر ثبت هذا الشيخ في منصبه كرئيس لقبائل عايد ونال خلعة فاخرة. وقد أحضر خمسة جياذ فارهة.

ثم غادر الباشا أم القرين وفي طريقه إلى «الخانكة» أقبل عليه أمير الحج والدفتردار وأرباب الديوان وتوجه إلى «الخانكة» في موكب عظيم وهناك عقد ديوانا عظيما ولأنها أرض كاشف قليوب أقام كاشفها الولائم العظيمة للباشا ومن معه وقدم إليه خمسة برازين يصل ثمن كل واحد منها إلى ألف قرش، وفي هذا الديوان خلعت خلعة فاخرة على شيخ عرب الدشيشة وثبت في مشيخته، وجاءه الكثير من أعيان القاهرة، والتقوا مع الباشا، وعندئذ قدم القائم مقام في موكب عظيم وقبل يد الباشا وقدم إليه الهدايا من الجواهر، وقدم للقائم مقام القهوة والشراب والبخور، ثم عاد ثانية إلى القاهرة وفي معيته الشهر حواله. وقدم الكثير من أعيان القاهرة كذلك لتقبيل يد الباشا.

ذكر موكب العادلية والولائم الريانية

والديوان العثماني وأفراح القاهرة المعزية

وفى اليوم التالى قدم الباشا إلى العادلية فى موكب عظيم استغرق خمس ساعات، ونزل فى سرادق سلطاني غاية فى الفخامة والأبهة، وعفر كبير معدى السباط جبينه على قدم الباشا ودعى الباشا إلى المأدبة قائلاً: نحن عبيد فى خدمة مولانا السلطان، فليفضل مولاي إلى الطعام.

وجلس الباشا على رأس السباط وعلى يمينه أمير الحج وعلى يسره دفتداره، وجلس الأمراء وبكوات الشراكسة وأغوات الأوجاقات السبعة وسائر قدامى الفرق العسكرية يتناولون الطعام، وعقب الفراغ من ذلك دعى شاويشية الموكب جميع الأغوات لحضور الديوان واعتلى الباشا منصة العدل فى العادلية وعزفت الموسيقى العسكرية وأقيمت الدعاوى وفصل فى الخصومات، ثم رفع الديوان على أن يعقد فى اليوم التالى. ونادى شاويشية الموكب فى الحضور ونهوا عليهم إلى أن الإقامة ثلاثة أيام وثلاث ليال.

وقدم أهل القاهرة إلى ساحة العادلية بخيامهم صغيرة كانت أو كبيرة، مستأجرة كانت أو مستعارة وأقاموا خيامهم تلك ومكثوا فيها. وأقيم فى هذه الساحة عدة آلاف من الخيام فأصبح كذلك أشبه شئ بمعسكر عظيم للجيش، وفى تلك الايام لم يبق أحد فى بيته بالقاهرة وازدانت ساحة العادلية والطوبخانة وساحات سبيل علام والغورية بالخيام والسرادقات المزينة وكأنها روضة ورد يغمرها مظاهر السرور والبهجة ليل نهار وازدانت كذلك بالآلاف القناديل فأصبحت تلك الليالى كأنها ليلة القدر، أما نهارها فنهار العيد. وأقيمت الألعاب النارية فى سماء العادلية وأطلقت آلاف المدافع والبنادق من الخيام هز دويها الأرض والسماء، وعلق على أعمدة الخيام والسرادقات ما يقرب من ثلاثة آلاف قنديل، وشكلت هذه القناديل صوراً جميلة كالشمس وخاتم سليمان والقصور وبدت كأنها نجوم.

وأمام سرادق الباشا ربطوا سوارى السفن حتى بلغ ارتفاعها ذروة السماء وعلقوا فيها ما يتراوح بين ٤٠٠٠٠ و ٥٠٠٠٠ قنديل فبددت أنوارها ظلام الليل إلى نهار.

وقدمت الهدايا إلى الباشا فى السعدلية طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليال وكانت الهدايا بالقدر الذى ينوء خدام الموكب عن حمله وقدم كل بك من البكوات جوادا ذا سرج مزين بالجواهر أما دفتردار القائم مقام فقد قدم جوادين زين سرجهما بالجواهر وسلسلتين من ذهب. كما منح الباشا هدايا نفيسة أخرى.

وقدم أغوات الأوجاقات السبعة والأغوات الزنوج المصاحبون للسلطان وبكوات الشراكسة والروزنامجى أفندى وموظفو الإدارات السبعين والأمناء السبعون والكشاف السبعون والمتزعمون الذين لا يحصون كثرة الجياد والطواشية وغير ذلك من الهدايا إلى الباشا. كما وزع كتبخدا الباشا المنح والصدقات على خمسة وعشرين أغا من الأغوات أصحاب المراتب ورئيس من يسوسون الخيل ورئيس العكامين.

وجملة القول أن كلا من خدام الباشا ممن لهم لقب «باشى» أى الرئيس قدم المصريون إلى كل واحد منهم التحف والهدايا.

وكان جملة ما قدم إلى الباشا من هدايا مائتان من الجياد المطهمة ذات السروج المزدانة بالجواهر ومائتان أخرى سروجها عادية.

كما نال كل من الخمسة وعشرين من أصحاب المراتب جوادا هدية. وعندما وصل أمراء الإسطنبول السعدلية قادمين من الصالحية كان الباشا والكتبخدا مشغولين بتلقى الهدايا والنفائس.

وإذا ما تعرضت بالوصف للسعدلية كما رأيتهما لأصبح كتابى ككتاب ابن جرير الطبرى. وكانت جميع الضيافات والولائم فى السعدلية طيلة ثلاثة أيام وثلاث ليال من صلب مال الباشا، وهذا ما نص عليه قانون السلطان سليم. وتكلفت الولائم أربعين كيسا واشترى رئيس العطارين عنبرا بخمسة آلاف باره وعودا بألفى باره وحاسبه الدفتردار على ثمن ذلك. وهذا فى الواقع إسراف فى الإنفاق على الولائم. وكانت كل الأطعمة عبارة عن حلوى وطيلة الثلاثة أيام من أولها إلى آخرها، ولم يشرب أحد ماء وإنما كان يشرب أنواعا من الشراب.

وكم كان ينفق أهل القاهرة فى تلك الأيام على مجالسهم الخاصة وكان كل منهم ورت سبعة من الأثرياء. وبعض الأعيان من أنفقوا ألف ألف قرش على الألعاب النارية. ومنهم من كان يطلق كل قذيفة بأربعين قرشا.

ومن عجب أن كواكب القاهرة منسوبة إلى كوكب الزهرة والناس يتعلمون بذلك طلبا للبهجة والسرور. وأهل القاهرة منعمون ولله الحمد، وأقلمهم راتبه يتراوح بين خمس إلى ست يارات، وحتى للنساء منهم لهن رواتب ومعاشات. إن وفرة المال هى السبب فى سفاهة الرجال، ففى المثل التركمانى: (إذا ما زاد السمن لدى العربى فإنه يبحث عن وسيلة يضيع بها هذا السمن).

ويحرص المصريون على إلحاق لفظ الغنى والمغنى بأسمائهم.

ذكر دخول وزراء مصر إلى القاهرة

قادمين من العادلية لأول مرة

وفى منتصف الثلاثة أيام خلع المصريون وجميع أغوات الباشا خيامهم وعادوا إلى القاهرة بخيامهم وأمتعته وأرسل إلى الشهر حواله إلى أغوات المراحل، وتخفف كل شخص من ثيابه الثقيلة ولبس ثيابا خفيفة لطيفة نظيفة، وبقي فى كل بيت من بيوت الأغوات خادم ومضوا إلى موكب الباشا فى العادلية.

وفى صباح اليوم التالى أدى الباشا صلاة الفجر مع أغا الانكشارية وأغا العزب وأغوات الأوجاقات السبعة، ثم تناولوا طعام الفطور، وجهزت صفوف الموكب على الفور، وأصبح الجند على أهبة الاستعداد للتحرك ودعو بالخير لعزير مصر.

وعندما ركب الباشا جواده هتف جميع الجاوشية بحياته قائلين: أطال الله عمر سلطاننا وأيده وأدام دولته. وأخذوا يصفقون. وفى ساعة السعد بإذن من رئيس المنجمين سبقت الجياد ومر الباشا بجواده من أمام قبر طومانباى فى العادلية وقرأ الفاتحة ترحما عليه، ثم عاد إلى صفوف الموكب وعندئذ عزفت الموسيقى العسكرية وتردد أصداؤه عزفها فى كل الجهات وبدأ الموكب فى التحرك، ومضى الجاوشية فى ثياب مزركشة على جيادهم وقد تحلت أيديهم من فضة وتحلت رؤوس جيادهم بالريش قارعين طبولهم

واصطفت صفوف الموكب ودخل شايشية الموكب بين العسكر ونادوا فيهم بالمحازاة يمينا ويسارا، وتحرك موكبهم، وكان الصوباشي قد تقدم الصفوف لتمهيد الطريق لسير الموكب مع سبعمئة من رجاله. مضت فرقة قوامها مائتان من جند الباشا التار مدججين بالسلاح حاملين الاعلام، وبعدهم موكب رئيس الدلاة ومعه ثلاثمئة ممن لبسوا جلد النمر وعلى رؤوسهم القلانس وتيجان فرو السمر حاملين الاعلام، وفي أثرهم موكب أغا الكوكليان أى المطوعة وهم كذلك فى بزة الدلاة مروا حاملين الاعلام إلا أنهم أكثر رينة من الدلاة، بعد ذلك موكب الـ «دش كلارجيان» أى القائمين على المخازن الخارجية للطعام وهؤلاء كذلك مروا رافعين الاعلام إلا أنهم مضوا حاملين أسلحتهم، ثم موكب موسيقى الخيمة ومر هؤلاء وعلى رؤوسهم بيض العمائم رافعين بيض الاعلام.

ثم موكب غلمان صراجى القصر وكانوا كذلك مدججين بالسلاح راكبين جيادهم المهمة وفى أيديهم الاعلام المرفوعة.

بعد ذلك مضى موكب مشاة المتفرقة وهم كذلك على جيادهم رافعين حمر الاعلام وبعدهم موكب أغوات واجب الرعايا، مضوا وعلى رؤوسهم القلانس رافعين صفر الاعلام. إنهم أغوات كُمل.

ومن بعدهم موكب رؤساء البوابين وهم يرتدون قباء فرو السمر وفى أثرهم عشرون أو أكثر حاملين الحراب ورءوس النمر، ولأنهم أصحاب امتيازات فقد تقدموا الصفوف، وبذلك انتهى موكب أغوات الباشا بهم وبدأ موكب جند مصر فى التحرك يتقدمهم موكب الجاوشية وعليهم قباء السمر الفاخر وعلى رؤوسهم المجوزات راكبين الجياد، ولم يمر صفارهم خلفهم، إذ إن قانون السلطان سليم يقضى بأن يكون خدام هؤلاء من القواسين.

ومن بعد موكب السباهية ول هؤلاء أعلام خضر وسراويل حمر وطوال الرماح وخلفهم مضى صفارهم مثنى مثنى متحازين وفى يدهم الحراب. كما مر مائة من جورباجيتهم مثنى مثنى ولكن لم يكن فى يد هؤلاء عصى وتقدمهم القواسون حاملين

العلم (الكاوياني)، وهؤلاء الجورباجيه معروفون بأنهم يتبعون أغوات السباهية وخلف كل واحد منهم مضي عشرة أو عشرون غلاما مدججين بالسلاح ثم تبعهم مائتان من جاويشيتهم يلبسون العمامة المعروفة بالمجورة وفي أيديهم عمدهم وخلفهم لم يمر صفار لأن هؤلاء فرقة شاويشية السباهية وبعد هؤلاء مر اثنان من وكلاء السباهية وخدامهم ومر هؤلاء وهم مدججين بالسلاح، حاملين عصيهم، ثم مر كتابهم مع صفارهم.

ثم مضي أغا السباهية وأمامه اثنان من حملة السيوف ويحيط به أربعون أو أكثر من مشاة القواسين، وخلفه أربعون أو أكثر مدججون بالسلاح حاملين خضر الاعلام والحراب الطوال ويرتدون أبهى ثيابهم ويقرعون طبولهم السلطانية ومثلهم مضي موكب سباهية حملة البنادق، ثم جند السباهية، ومعهم الكتخدا وكتابهم وأغواتهم قارعين الطبول، إلا أن الفرق بينهم وبين فرقة السباهية هو أن لون اعلامهم أصفر.

ومن بعد هؤلاء مضي موكب سباهية المطوعة وهؤلاء كذلك مثل السالف ذكرهم مروا متحازين مدججين بالسلاح لابسين حمر السراويل وفي معيتهم جاويشيتهم ووكلاؤهم وكتابهم وأغواتهم قارعين طبولهم، وهؤلاء جميعا حملوا حمر الاعلام وهذا ما كان يميزهم عن غيرهم من فرق الجند الأخرى.

ومن بعدهم موكب بكوات الشراكسة ومر هؤلاء مدججين بالسلاح على جياد سروجها محلاة بالجواهر على رؤوسهم العمامة المعروفة بالبريشاني وخلف كل واحد منهم أربعون أو أكثر من غلمانهم الصفار في ثياب من مخمل حاملين عصيهم. إلا أنهم بلا اعلام ولا طبول.

ثم موكب بكوات مصر وهؤلاء جميعاً مضوا لابسين قباء من فرو السمور وعلى رؤوسهم العمامات البريشاني يتقدمهم أربعة من شطارهم عليهم بيض العمامات وحريري الخلع وفي أيديهم الطبر، وبجانب البكوات ما يقرب من أربعين من قواسيهم وخلفهم ما يقرب من مائة وخمسين من أغوات القصر في ثيابهم المزركشة، وكل منهم مدجج بالسلاح وهؤلاء لا اعلام لهم ولا طبول.

ثم موكب رؤساء البوابين من ذوى الرتب وهؤلاء لطول مدة خدمتهم للباشا أصبحوا خاصته وندماءه ولذا وعدوا بدرجة أغا ومروا متحازين عليهم قباء فرو السمر وعلى رؤوسهم العمائم البريشانية مثنى مثنى يتقدمهم رئيس البوابين وجنابهم وأغوات القصر وهؤلاء مروا عشرة عشرة أو عشرين عشرين وفى معيتهم الصراجون والخدام . إنهم سبعة وعشرون من رؤساء البوابين ومناصبهم أعلاها منصب «سردار» (أى أمير الجيش) يرقى إلى مسلم ثم إلى شهر حواله، و «صاغ وزير كتخدا» (أى الوكيل الأول للوزير، و«صول وزير كتخدا» (أى الوكيل الثانى للوزير) وله رتبة الشهر حواله، «أغا الرسالة» و «أمين المخازن» و «أمين بيت المال» و «أمين الشعير» و«الحاصل خرج» و«وكيل الخرج»، و«أغا السويس»، و«أغا دمياط» و«كاتب الحواله» و «أغا رشيد» و«أغا الإسكندرية» و«أغا المنزلة» و«بك الإسطل» و أمين جمرك بلاق» و«أمين دار الضرب» و«ناظرها» و«المقابلة جى» و«الروزنامجى الصغير» و «أمين الدفتر» و«جاویش السلام» و«كبير رؤساء البوابين» و«أغا بنى سويف» و«أغا المنيا» و«أغا منفلووط» و«أغا جرجا» و«رئيس طائفة البوابين» و«كتخدا البوابين».

وهؤلاء الأغوات السبعة وعشرون لبسوا العمائم البريشانية وخلع السمر ومروا مثنى مثنى، أعقبهم من مروا رافعين الطوغات والأعلام لابسين ثيابهم المزركشة ثم مرت تسع جنائب عليها سروج مرصعة بالجواهر ولها سلاسل من ذهب.

إنها جنائب يساوى كل منها خراج بلاد الروم ومرت بين الحين والآخر جنائب مثلها عليها من لبسوا العمائم المجوزة والسراويل الحمر وفى أقدامهم الخفاف الشرسية ثم مر أغا بكوات الإسطل مع رئيس طائفة البوابين وعليهما العمامة البريشانى ومر الإثنان سيرا على الأقدام ومر كتخدا البوابين وأغا السلام على جواديهما أما أتباعهما فمروا مشاة وعلى رؤوسهم العمائم البريشانية.

ومن بعد مر موكب جند عزب مصر حاملين الأعلام الحمراء المنسوجة بالذهب يتقدمهم أطفالهم ثم كبارهم ثم فتيانهم ثم رؤساء مشاتهم وخدامهم وهم جميعاً غزاة مدججون بالسلاح لبسوا جلد النمر وحملوا تروساً من ذهب وعلى رؤوسهم ريش الصقور وكانوا يحملون بتادفاً كأنها المدافع.

وعلى بعد مائة قدم يتقدمهم من يصعد الدعاء المحمدي وردد جميع غزاة المسلمين «الله الله» تردد أصداؤها في جميع أرجاء القاهرة. ومروا على هذا النحو ولكن بلا طبول ومر جاويشيتهم رافعين الأعلام.

ثم موكب الإنكشارية يتقدمهم صفارهم وأطفالهم بوجناتهم الوردية ماشين وقد ازدهرت أرواحهم وابتسمت وجوههم، ثم مرت فصائل الدلاة و من بعدهم رؤساؤهم المسنون وعلى رؤوسهم القلائس كلها من الصوف المخيط بالذهب، ثم مر مسنوهم وعليهم جلود النمر وعلى رؤوسهم ريش الرخم.

ومن بعدهم مر متقاعدو الأودة باشية مدججين بالسلاح وعلى أكتافهم التروس المذهبة، مروا حاملين بنادقهم الثقيلة ومن بعدهم مر مسنوهم أفواجا أفواجا رويداً رويداً يتوسطهم جاويشية الموكب والبوابون و السقاؤون يرتدون سود السراويل.

وعلى بعد مائة قدم أمامهم صعد داعي الدعاء الصيحات الإسلامية وردد الجند من أعماق قلوبهم الله الله هز دويها الأرض والسماء حتى استولى العجب والدهشة على جموع المتفرجين. ومضى الأبطال جميعاً كأنهم الغزلان أو طاووس إرم وهؤلاء هم صفوة جيش المسلمين فكل جند المدفعية والجبه جية وجند مركبات المدفعية وفرقة موسيقى القلعة يمرون جميعاً في موكب الإنكشارية ومجموعهم ٧٣٣٨ من الجند الأشداء ولكن هؤلاء لهم قوة وشهرة عشرين ألف جندي.

وهؤلاء كذلك مروا بلا طبول مشاة رافعين أعلامهم الكبيرة وانتهى بذلك موكبهم أما إذا مضى مائتان أو ثلاثمائة مع قائد إلى الحرب فإنهم يقرعون الطبول.

مر كذلك جند مشاة الإنكشارية مشاة ثم تحرك موكب أغا الإنكشارية وأغا العزب يتقدمهم چورباجيه العزب على جيادهم يلبسون فرو السمرور وأمامهم (جدا لرى) وخلفهم غلمان يلبسون حمر السراويل، وعلى يمتهم چورباجية الإنكشارية مضوا على جيادهم عليهم قباء فرو السمرور والصوف أمامهم (جدا لرى) وعبر جاويشيتهم القدامى ورؤسائهم، وعلى يسرتهم العزب وعلى يمتهم الإنكشارية، مروا متحازين ورئيس الجاويشية بجانب الباشا وقد لزم موظفو بيت المال إدارتهم، ومر فقط كتسخدا العزب

وكتخذوا الإنكشارية متحازيين وكذلك أغا الإنكشارية، وأغا العزب تلاهما صغار مدججين بالسلاح، ثم تحرك ملازمو الإنكشارية وهم أربعمائة على رؤوسهم القلائس المزركشة ذات الريش معلقين السيوف فى وسطهم، ومضوا مشاة بلا بنادق، ومن بعدهم شطار الباشا وهم فى ثياب مزركشة وفى يدهم الطبر وعلى رؤوسهم خوذات مذهبة مروا على جانبى الباشا حاملين الطوغات، وعلى رأس رئيس الشطار عمامة بريشانية ذات ريش ملكى، وقام رئيس الشطار هذا بتوزيع ما فى جيوبه من عملات ذهبية وفضية صدقة على الفقراء، ورئيس سقائى ركب الباشا على يمينه بسرواله الأحمر وقلنسوته المزركشة وحملة البنادق كذلك لابسين حمر السراويل والقلائس حاملين ذيل ثوب الباشا الذى ركب جواده مزين السرج بالجواهر، وقد لف حول وسطه جعبة محلاة بالجواهر ولبس سروالاً من المخمل وفى قدمه الخف الشراكسى وعلى رأسه العمامة السليمية التى علق عليها ريشتين سلطانيتين، وعلى يمينه ثمانية من الجلادين وعلى يسرته سار الصوباشى والمحتسب أغا وهما فى أبهى مظاهر العظمة والأبهة وعندئذ لوح الباشا بالسلام على يمينه ويسرته ووزع عطاياه على الفقراء والناس قاطبة الغنى منهم والشحاذ، الشاب منهم والشيخ رفعوا أصواتهم بالدعاء له قائلين:

«حفظك الله يا والى مصر»، «حفظك الله يا عزيز مصر»، «حفظك الله يا متولى مصر»، وفى أثر الباشا مضى خدمه فى ثيابهم المزركشة وفى أيديهم السيوف المرصعة بالجواهر وعلى رؤوسهم القلائس الحمراء المزركشة.

وخلف الباشا كتخدا الباشا وافندى الديوان وهما فى قبايتين من فرو السمرور وعلى رأسهما العمامة البريشانية، ويتلوهم اثنان وعشرون من خدام الباشا من أصحاب المراتب وغيرهم، وهم جميعاً على الجياد لابسين الطيلسان المسمى ومر جاويشية القصر وسط أغوات القصر مصطفىين حسب درجاتهم ثم مر رئيس موسيقى القصر مع أربعين من رجال فرقته، ثم مر الخزينة دار ورئيس مؤذن القصر جنباً إلى جنب، ثم مر العلم واللواء وفرقة الموسيقى العسكرية يدقون الطبول كأنها الرعود، ومن بعدهم مضى صراجو أغوات القصر ثم رئيس السقائين مع أكثر من سبعين من رجاله على جيادهم

المزينة بالورود رافعين خضر الأعلام، ثم مر حملة المشاعل بمشاعلهم المزينة بشتى الألوان يتراقصون ويصفقون صائحين: «الله ينصر السلطان»، وعندما دخل الباشا القاهرة على هذا النحو اصطف لاستقباله فى ميدان الروملى جميع السباهية وفرق حملة البنادق والمطوعة والشراكة ومشاة المتفرقة وهناؤه بسلامة الوصول فحياهم وانصرف جميع الفرسان إلى ديارهم وعندما خطأ الباشا من باب العزب قائلاً: بسم الله، نحر العزب مائة من الكباش وأراقوا دماءها تحت حوافر جواد الباشا وبسطوا أكفهم بالدعاء له بكل خير، وسار العزب والإنكشارية بجانب جواد الباشا حتى دخل قصره وسط مظاهر الجلال والمعظمة وعندئذ ذبحوا مائتين من الخراف وتعالى أصواتهم بالدعاء للباشا وقرأ الباشا الفاتحة وعندما ترجل عن جواده صفق جميع الجاوشية والموضع الذى نزل فيه الباشا عن جواده هو الموضع الذى جلس فيه السلطان سليم فاتح مصر فجلس الباشا فيه قليلاً تبركا وتيمناً.

ثم صعد الباشا سلماً حجرياً من خمس وعشرين درجة يفضى إلى قاعة ديوان قايتباى ناطقاً باسم الله وعلى يمينه الكتخدا وعلى يسره كتخدا الجاوشية والجاوشية يدعون الله للباشا قائلين: «بارك الله ثبت الله قدمكم وأدام دولتكم»، وفى التو أشار رئيس جاوشية الإنكشارية بمنديله إلى القلعة فأطلقت المدفعية أكثر من أربعين طلقة من برج الطوبخانه وعزفت الموسيقى العسكرية مقطوعة صغيرة.

ونادى كتخدا الجاوشية قائلاً: «هل من صاحب مظلمة أو مصلحة»، وعندئذ لزم الصمت كل من فى الديوان ثم تقدم نحوه ستة من مكة والمدينة يتقدمهم من يطلق عليه مصطلح «صاحب المصلحة» وقال: «مرحباً بمقدمك يا وكيل السلطان خادماً الحرمين الشريفين». وسلمه تقريراً يتعلق - ولا بد - بشئون مكة والمدينة فتسلمه الباشا قائلاً: بسم الله، وخط بالقلم مستصوباً وأصدر أوامره وتوصياته فى تلك المسألة بوصفه وزير مصر ووكيل السلطان العثمانى خادماً الحرمين الشريفين، لذا أنشأ فى ديوان مصر إدارة مهمتها النظر فى أمور الحرمين الشريفين وكان ذلك أول أمر بت الباشا فيه فى ديوان مصر. ثم دعا داعى الديوان وتليت الفاتحة، ثم قبل الأعيان والأشراف جميعاً يد الباشا وجددوا له

البيعة وعندئذ عزفت فرقة موسيقى القلعة فى ميدان القصر إحدى المقطوعات الموسيقية ونالوا من الباشا منحة قدرها ألف پاره وانصرفوا. وقبل جميع أرباب الديوان يد الباشا طيلة ساعة.

وبعد ذلك قرأ داعى الديوان الفاتحة وأخذ كَتَّخْدُ الجاوشية ورئيس فرقة المنفرقة بيد الباشا ليرفعاه من جلسته على سجادة قايتباى. ثم صافح الباشا جميع أرباب الديوان وصفق جميع الجاوشية وسلموا على الباشا، ثم دخل الباشا حجرته وتفرق جميع الحضور.

وفى تلك الساعة بالذات تلا أربعون من القراء سورة «الأنعام» فى قاعة ديوان الغورى وقد جرت عادتهم على قرائتها كل صباح هناك. وبعد أن مضى الباشا إلى الحجرة التى جلس فيها على كرسية وتخفف من بعض ملابسه لكى ينعم بالراحة قدم على الفور جاوشية الفرق السبع وطالبوا الباشا بمنحهم.

ولقد أعطى جان بولاد زاده حسين باشا كيسين إلى فرقة الإنكشارية، كما أعطى كيسا إلى كل فرقة من الفرق السبع وبذلك يكون إجمالى ما دفعه لهم تسعة أكياس. وما ذكرنا من أوصاف موكب استقبال الباشا كان خاصاً باستقبال جان بولاد زاده حسين باشا. لأن من ولى بعده من الوزراء أكثروا من اتخاذ الحجاب.

واستراح الباشا فى تلك الليلة. وبمقتضى قانون السلطان سليم كان لايد من تقديم ثلاثة آلاف صحن من الطعام لأرباب الديوان صباحاً مرتين فى الأسبوع. وإذا لم يقم الباشا هذه الولائم وأضاف نفقاتها إلى الخزانة أو إلى ماله الخاص فإنه يطالب بها عند خلعه. ويطلبون من الباشا اثنين وتسعين كيسا فى السنة بواقع كيسين لكل وليمة.

وبعد الفراغ من تناول الثلاثة آلاف صحن من الطعام وبعد إحقاق الحق فى عدة دعاوى دفعت مرتبات الفرق المختلفة فى مجلس الباشا وعلم المستحق من غير المستحق، والديوان فى ذلك اليوم على هذا الحال، وقدم أعيان القاهرة ررافات ررافات للتبريك ودام الحال على هذا ثلاثة أيام والناس يأتون لزف التهانى للباشا كأنهم البحر.

أما ما كانوا يقدمونه من هدايا إلى الباشا فلا يعلم عددها إلا الله، وإذا ما رغب الباشا عن هذه الهدايا فهذا منه تصرف غاية في الحكمة والسداد، لأنه إذا ما قبلها لقاء أداء مصلحة ما ولم يؤد هذه المصلحة طالبوه برد تلك الهدايا عند عزله وجملة القول أننا تحدثنا عن الموكب الخامس لمصر بناء على تلك المراسم.

رسالة تحذير لوزراء مصر بشأن التشريفات

وبعد الموكب سالف الذكر إذا ما أخطأ الباشا التصرف وخلع على أهل المناصب خلعة أكثر من التي أرسلت من قبل السلطان فإن هذه الخلع الزائدة تكون من صلب مال الباشا وهذه نفقات باهظة تكون وبالا على الباشا حين عزله. وينبغي عليه التحرز من ذلك تمام الاحتراز.

فعندما أصبح كتحدا إبراهيم باشا واليا على مصر قسم هذه الخلع ثلاثة أقسام متنوعة الأعلى والأوسط والأدنى. والخلعة من القسم الأعلى كانت تساوى ألفى بادة والخلعة من القسم الثانى تساوى ألف بارة، أما القسم الأدنى فخلعته تساوى خمسمائة بارة، وجعل يهوديًا رئيسًا لصانعى الخلع فصنع له ستة آلاف خلعة فى العام وبمجرد أن قدم الباشا إلى مصر جدد البيعة لجميع أصحاب المناصب والكشاف والأمناء فبلغ عدد الخلع التى وزعها عليهم من قدوم الموكب من الصالحية إلى العادلية إلى القصر ١٠٤٥ خلعة، منها خلع من مال السلطان وأخرى من صلب مال الباشا وكان من اللازم التحكم فى ذلك وبقدر ما منح من خلع أقر فى المناصب، وفى خلال سبعة أيام وسبع ليال كان الباشا قد أنفق ألف ومائتى كيس (قبل الشروع فى المعركة).

وصية إبراهيم باشا لوزراء مصر

ويقول إبراهيم باشا:

الباشا الحكيم ينبغي عليه أن يقيم وليمة لجميع أعيان البلاد وبعد الفراغ من الطعام يشاورهم فى الأمر ويسأل عما إذا كان فى ذمة الباشا الأسبق من مال ويعرف ذلك. وإذا ما ثبت له ذلك استدعى إلى الديوان كل من كتحدا الباشا المخلوع والشهر حواله وافندى الديوان ومستول بيت المال ووكيل مصروفات الباشا وكل أولى الأمر وسألهم

عما تبقى فى ذمة الباشا السابق، بقدر السنوات التى قضاهما فى الحكم، من أموال القرى المحلولة والخزانة طبق سجلات الروزنامة ويسأل كل ما يطير فى السماء ويدب على الأرض ويسبح فى البحر.

ولكى لا (١) الباشا يمضى إلى الباشا المخلوع وفى معيته مسنو الجاويشية وقد ساء أدبهم واستبدوا برأيهم وثاروا نائرتهم، ومسنو جميع الفرق العسكرية، وكنتخدا الجاويشية، وكل وكلاء الفرق العسكرية، ويدخلون على الباشا المخلوع دون مراعاة ما كان له من حقوق عليهم سابقاً، ويسلمونه دفتر الروزنامة قائلين: تبقى عندك قدر مائة كيس من مال السلطان. فإذا ما قال الباشا المخلوع: سوف ألتقى بأخى الباشا غداً وإذا ما كنت مديناً أديت ما على من دين. أمهلوه.

أما إذا أنكر واستكبر فينبغى عليهم أن يحبسونه فى قصره أسفل المدينة أو قصر يوسف يحاصره جورباجى من كل فرقة فى عدد من رجاله وينبغى ألا يتعرض له أحد بأى أذى لأنه حدث ذات مرة أن جزءاً من قصر «قوجه مصطفى باشا» انهدم نتيجة هجمات الجند فالتمس مصطفى باشا عطف السلطان فقرر إبقائه فى مصر ثانية، ودخل القاهرة فى أربعين يوماً فأعمل السيف فى عدة آلاف من جند مصر حتى إنهم لقبوه بقاتل الجند ولهذا السبب يحبسون الباشا ويحرصون على سلامته.

أما إذا رق له الباشا الجديد وقال: إن هذا المال فى ذمتى فإن ذلك يقيد فى السجل المحمدى فى حضور قاضى العسكر وشيوخ الإسلام على المذاهب الأربعة وكبار الأعيان والأشراف، ويحصل الباشا ما تبقى وعندما يخلع الباشا يحاسبونه على ذلك.

أما إذا قال الباشا إنى لا أتحمل ما على الباشا المخلوع أى إذا قال إنه لا يستطيع أن يسدد دينه. يعرض الباشا أمره على الأستانة قائلأ: إن فى ذمة فلان باشا الوزير الأسبق عليه دين (بقايا) للخزانة السلطانية وهذا ما يسبب عجزاً فى الخزانة. والامر لمولاي السلطان.

وعلى هذا النحو يبعث بتقريره إلى الإستانة. وفى خلال أربعين يوماً أو أكثر يصل الامر السلطانى مع أحد رؤساء البوابين أو أحد القواد فيه: «أنت وزير مصر وعليك تحصيل ما فى ذمة الباشا المخلوع من مال السلطان».

(١) بياض فى الأصل.

وإذا ما صدر فرمان السلطانى بذلك، حُبس الباشا المخلوع وكبار أغواته فى برج يوسف وباعوا كل أمواله وممتلكاته فى المزاد، فيخلو وقاض الباشا وأتباعه ويدوم حبسهم ثمانية أو تسعة أشهر وقد يمتد سجنهم إلى عام ويصبح الباشا فى حاجة إلى الدوايق^(١)، ويطلق سراحه بعد سداد ديونه وينقل إلى قصر أو يبقى فى ذلك القصر تحرسه فرقة من الجنود.

يأتى بعد ذلك المدعون وأصحاب المظالم والشكاوى من كل صوب يطلبون ما أخذه الباشا المخلوع من رشوة دون مراعاة لمصالح المسلمين وانحرافا عن جادة الشرع الشريف. فاما أن يعينه وزير مصر ويصونه قاضى العسكر ويدفعان لكل واحد من المدعين جزءاً من الشيء لإصلاح ذات بينهم. أو أن يحرص الباشا والقاضى عسكر والفرق السبع المدعين فتسوء حالة الباشا المخلوع وأغواته إلى أبعد حد فيطوفون بهم من مكان إلى مكان للتشهير بهم.

- خلاصة القول:

إذا كان الباشا عاقلاً ومدبراً - حاسب المصيرين قبل أن يحين عزله بخمسة أو ستة أشهر وألا يعتمد عليهم فى حساب ما عليه من ديون بل يراجعها مع الاستانة وعند خلعها يصدر فرمان سلطانى مع المسلم أو كتخدا الباب يجرى فيه: «انت يا فلان وزيرى على مصر إذا ما وصلتك فرمانى هذا عليك أن ترسل إلى الاستانة الوزير فلان معززاً مكرماً» وعندما يصدر فرمان على هذا النحو فإنه - والعظمة لله - لا يفارقون الباشا المخلوع لشهر أو أكثر حباً فيه ومجاملة له إذ إنه فى طريقه إلى الباب العالى ومن المؤكد أنه سيصبح صدراً أعظم. ولا يجترئ وزير مصر ولا القاضى عسكر ولا جند مصر على الفصل فى ديونه ولا يستطيع أحد القول بأن حبة واحدة بقيت فى ذمة الباشا المخلوع وفى خلال أشهر أو أكثر عندما يهين الباشا أمتعه يأتية مائتان أو ثلاثمائة بغل أو جمل وما يقرب من ألف من الجياد والطواشية ومال لا يحصى كثرة حتى إن الهدايا التى تاتى

(١) الدوايق: وحدة النقد العباسية ومفردها دونق.

الباشا عند عزله تكون بقدر الهدايا التي تقدم إليه حين توليه على مصر فقد تسلم إبراهيم باشا ألف كيس حين عزله، وبينما كان في طريقه معززاً مكرماً إلى الأستانة أُنسدت إليه ولاية الشام.

الموكب السابع لمصر حينما يعزل الباشا ويخرج مكرماً

وهذا الموكب مثل موكب دخوله القاهرة بل إنه من الوزراء من تزد له المواكب. أما - والعياذ بالله - إذا ما عزل الباشا عن مصر منكوباً ولم يظهر له صديق في الأستانة خرج إلى العادلية بلا تعظيم وبلا تكريم مع أتباعه ويمضى إلى الأستانة محزوناً كاسف البال.

وينبغي للعقلاء من وزراء مصر أن يأخذوا العبرة من هؤلاء فعندما يتولى أمور مصر يتوخى الحكمة وسداد الرأي ويلزم جانب الحيطة. وعليه أن يطلع على كافة أحوال من سجنوا من الأمانة والملتزمين والكشاف المفلسين ويسعى في إطلاق سراح كل منهم وعليه أن يفتش عن الأموال المطلوبة ممن سجنوا لدى الفرق السبع ويطلب بذلك المال.

وهذا ألزم ما يلزم الباشا العاقل في البداية حتى إذا سألنا عنه حين عزله لا نُفاجأ بأنه في السجن! يقولون له: كان ينبغي لك التحرز وقت توليك الحكم، ما الذي منعك عن عدم الاحتياط؟

- ومن ألزم لوازم الباشا كذلك أن يسأل من تبقت غلال في ذمته وأن يساعد المظلومين والمقهورين على استرداد حقوقهم من ظالمهم ويرشق أكباد الظالمين بالسهم ويقتص منهم، ويتجاوز عن جرائم بعضهم ويعفو عنهم امتثالاً لقوله ﷺ: «اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عنا»، ويتصدق على كثير منهم ويعمل السيف في بعضهم الآخر وهذا من ألزم لوازمه وهذا ما نص عليه قانون السلطان سليم.

- وعلى الباشا ألا يقبل رشوة من أحد لأنها تسترد منه عند عزله، وعليه ألا يثق بقول أهل الزيف والفساد ويتصرف كيفما شاء دون أن يحيد عن صلاحه فينعم براحة البال.

- وعليه كذلك أن يقوم كل شهر بحاسبة الروزنامة جى وكل أهل الديوان وأن يسجل كل ما يحصلونه . والسلام .

- وعلى الباشا أن يتخذ روزنامجى من أهل الاستقامة والصلاح والثقة ، إذ إنه عند خلع الباشا يصبح فى إمكان الروزنامجى أن يعمل كافة حيله الشيطانية - فلقد جاد إبراهيم باشا على من يدعى عبد الرحمن أفندى الروزنامجى بماتى كيس وعند عزل الباشا حسب عليه ستمانة كيس ، وفى الوقت الذى تبقى فيه لإبراهيم باشا سبعمائة كيس لدى عبد الرحمن الروزنامجى بإيعاز من الأخير ادّعوا أن فى ذمة إبراهيم باشا ستمانة كيس . بيد أن جان بولاد زاده حسين باشا اتهم الروزنامجى بالخيانة ، وقتله خفية بعد الطعام؛ فحمد الله جميع أعضاء الديوان وكان جميع الأمناء والكشاف من ظلمه شاكين باكين .

- وهكذا فمن الحتم أن يكون الروزنامجى من أهل التقوى والصلاح .

وصية أوليا لوزراء مصر

اللهم عافنا فقد انخدع باشوات مصر بمظاهر العظمة فى مواكبهم التى أسلفنا وصفها ، فدخلهم الغرور ، إذ إن من نهل من ماء النيل حكم حكم الجبايرة المستكبرين فمصر هى أرض الفراغة .

ولكن على الباشا أن يألف الناس ويعاملهم باللين والرفق ، وعليه الالتزام بحدود الشرع الشريف . وعليه أن يسند أمر الخزانة السلطانية إلى كتحدا الجاوشية ورئيس المتفرقة والدفتردار ، وأن يلح فى كل ساعة على تحصيلها .

وعليه ألا يبيع القرى المحلولة بل يجب عليه أن يسجلها لأن الأوامر ترد إليه من الاستانة مع بعض أغوات الباب العالى يطلبون «الترقيات» . ويلزم منح «الترقيات» إلى من يخرج إلى الحج ومن يذهب إلى خزينة اسطنبول ومن يأتون من مكة والمدينة والذاهبين إلى القتال وكثير من أمثالهم .

وينبغى حصر القرى المحلولة بحيث يدفع سبعة آلاف أقبه ك «ترقيات» حسب ما جاء فى قانون السلطان سليم . وهذا كله يطالب به الباشا . ومعظم وزراء مصر لهذا السبب لا

يمنحون الكشوفيات إلى الكشاف المفلسين من مخزن يوسف وإدارة الروزنامجى وهذا سبب اتهامهم ومذمتهم. وعند خلع الباشا يطالب بسداد مال السلطان و «الترقيات». وعلى وزراء مصر أن يرفعوا أيديهم عن أوقاف الله، وألا يتعرضوا لها وألا يأخذوا من هذه الأوقاف مالا. وكل ما عليهم هو الإشراف عليها وتعميرها لتحسن العواقب. وعليهم كذلك ألا يثقوا فى كلمة مفسد وألا يقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق. وألا يكونوا عوناً للمجرمين من طائفة جند «القاسمية وذى الفقارية» ومن الأهم وعليه محاسبة الإدارات الاثنى عشرة فى كل عام ويحكم الرقابة عليهم. وجملة القول أنه يجب على السلطان ألا يحاسب وزيره على الوسيلة وإنما على الغاية والنتيجة، ففى المثل التركى: «إذا كنت سوف تعطى فأعط الحاشية لتعطى البك ليعطى الباشا».

وعملًا بهذا المثل فأعط السلطان تسعة ولا تعطيه عشرة من خلال أتباع الوزير. ولا تات إلى مصر فى جند كثير ويكفيك أن تاتى فى ثلاثين آغا وثلاثمائة حارس وإذا عقدت العزم أن تحكم مصر بالحديد والنار وأحضرت عشرة آلاف جندى فإن ذلك قطرة فى محيط، وذرة فى شمس. وإذا جئت بعشرين ألف جندى فلا تسكنهم فى المدينة فلا طاقة لولايتك بتحملهم لأن جميع قراها من مال الحكومة.

وجند مصر جميعاً فى خدمتك ورهن إشارتك فاستخدمهم بسهولة، وعامل الجميع بيسر واعتدال، وإذا كنت من أهل التقوى والاعتدال وعاملت الناس بالحسنى، فسوف يتحصل لك فى العام ألفا كيس وإذا ما زاد عدد القرى المحلولة يتحصل لك ثلاثة آلاف كيس وتأتىك هدايا سنوية تقدر بألف كيس. ولكن شريطة أن تبسط جناح رعايتك على أصحاب الشأن ورجال السيف وأهل الكرم والصادقين وأهل الوقار وتحجز لهم الصدقات، وإلا امتلأت مصر بمن يتسلطون على العباد ويستبدون بهم. وينبغى عليك أن تعقد أواصر الألفة بينك وبين الأمراء وأغوات الاستانة ممن قضوا فترة طويلة فى خدمة أكثر من سلطان وتولوا أكثر من وزارة. وثمة بيت فريد يقول:

لو لم يكن الناس عالم بقلبه . . . ينبغى عليه أن يعيش بقدر المستطاع

وهؤلاء ممن تولوا المناصب ورغد عيشهم، أما حينما عزلوا لعنوا وحرقوا وساءت أحوالهم.

الموكب الثامن وهو موكب وصول مقرر وزير مصر

عندما يصل هذا المقرر إلى مدينة بليس فإنهم يرسلون الخبر حتى يتجهز الجميع للموكب. وفي ذلك اليوم يُخَطَّر كَتخدا الباشا جايوشية الموكب ليكونوا على أهبة الاستعداد، ويرسل وكيل مصروفات الباشا مطبخه إلى العادلية لتهيئة الولائم. وفي ذلك اليوم وفي تلك الليلة يكثر الهَرَج والمَرَج ويستأجر جميع أهل القاهرة الدكاكين حتى باب الناصر لمشاهدة الموكب. وفي صباح اليوم التالي يستأذن الكَتخدا من الباشا للمضى على الموكب وفي معيته فرقة الموسيقى العسكرية وهي تعزف إحدى المقطوعات الموسيقية.

أما في عهد إبراهيم باشا الكَتخدا لأنه كان من اللارم إحضار من جاء بالمقرر السلطاني والخلعة الشريفة والسيف وسط مظاهر الأبهة والعظمة، أمر الكَتخدا بأن يحمل جميع أفراد فرقة الموسيقى العسكرية وأغوات قصر الباشا كامل أسلحتهم وعندما ذهبنا لم يكن معنا إلا فرقة الموسيقى العسكرية.

وعند مَقْدِمَتنا بمرسوم التثبيت (المقرر السلطاني) نبه علينا بأن نقرع الطبول، وفي البداية مر موكب التار، والدلاة، والمطوعة، والقائمون على خدمة موائد الباشا، ثم موكب الصراجين، وموكب مشاة المتفرقة، وموكب رئيس البوابين، وموكب الكَتخدا.

ثم خرج كَتخدا الباشا مع كَتخدا الجايوشية جنباً إلى جنب وفي معيتهم رئيس المتفرقة والشهر حواله أفندى وأفندى الديوان وكَتخدا البوابين وقد لبسوا جميعاً الثياب المزركشة ومعهم صغارهم وقد لبسوا كذلك أفخر ثيابهم وطافوا داخل شوارع القاهرة وخرجوا من باب الناصر، ولا وجود في هذا الموكب لجندى واحد من جند مصر. وانتظر المصريون جميعاً في الدكاكين الصغيرة في السوق السلطانية وعندما بلغ الموكب العادلية وقف من جاء بمرسوم تثبيت الباشا - بقطع النظر عن كونه بك اسطبل السلطان، أو كَتخدا بوابين، أو أغا من أغوات الصدر الأعظم - للكَتخدا وبعد أن صافحه بسط

السماط وتناول الطعام جميع البكوات والأعيان. وبعد القهوة وإحراق البخور ركبوا جيادهم وتحرك الموكب على النحو الذى أسلفنا ذكره، ومضى كتخدا الباشا والأغا الذى جاء بمرسوم تثبيت الباشا جنباً إلى جنب، وعندما مر دفتردار الأغا يحمل الخلعة الفاخرة والكتخدا يحمل السيف المرصع والأوامر السلطانية التى فى جيب الأغا والكيس الحريرى والصرة المخيطة بالذهب وبدخلها الفرمان السلطانى، عزفت الموسيقى العسكرية ودخل الموكب من باب الناصر وإذا ما رضى المصريون عن الباشا ازدحمت الأسواق السلطانية بهم لمجيئ فرمان التثبيت، وعندما صعد عدة (١) على هذا النحو إلى قاعة ديوان الغورى بالقصر السلطانى بقلعة القاهرة قارعين الطبول، وصل الباشا إلى رأس السلم لاستقبال الموكب ثم وقف أسفل عرش السلطان سليم، وفى التخرج الأغا الذى أحضر مرسوم التثبيت مع الصرة وهو يحمله فى يده وأخرج كذلك الفرمان والأمر السلطانى من الصرة المزركشة وقبلها ووضعها على رأسه وسلمها إلى يد الباشا فقبلها هو الآخر ووضعها على رأسه ووضعت الطغراء الشريفة مع البسملة وفض خاتمها. وعند إخراج الفرمان الشريف حفل ديوان الغورى بحشود من الناس قدموا لمتابعة ما يجرى بالديوان. ثم تلى أفندى الديوان الفرمان الشريف فى جرأة وجهارة وفى الأغلب يتضمن خير الدعاء للبرايا والرعايا وأحوال مكة والمدينة والخزانة وقول السلطان: لقد قررت تثبيتك فى هذه الهنة المباركة. فصفق جميع الجاوشية وعمت البهجة والابتسام وجوه جميع أرباب الديوان وفى التو تقدم الأغا الوافد نحو الباشا حاملاً الخلعة الفاخرة فى يده، ثم قبلها وألبسها الباشا وعندما ارتدى الباشا الخلعة صفق كل الجاوشية قائلين: «بارك الله لك فيها»، بعد ذلك علق الأغا الوافد السيف المرصع بالجواهر فى وسط الباشا والأغا تحت إبط الباشا وصعدا به سجادة السلطان الغورى وتليت الأوامر السلطانية بأعلى صوت للمرة الثانية، وبيض الجاوشية والأغوات الأوامر السلطانية وورعوها لتنفيذ ما جاء فيها. وعندما انفض الديوان أطلقت مدافع القلعة سبعين طلقة وعمت البهجة والفرحة الناس جميعاً، وفى تلك الساعة حضر موسيقيو

(١) بياض فى الأصل.

القلعة وعزفوا إحدى المقطوعات العربية ومنحوا منحة قدرها ألف پاره على الفور وأنصرفوا.

وفى صباح اليوم التالى بسط السماط فى الديوان، وحضره جميع أرباب الديوان وأصحاب المناصب العليا ووثتوا فى مناصبهم وطبعت نفوسهم بما خلعت عليهم من خلعت فاخرة، وأنصرف كل إلى داره وعزف رئيس فرقة الموسيقى العسكرية للقصر مقطوعة موسيقية ونال هو ورجاله على الفور منحة قدرها ألف پاره وأقمشة.

وبعد ذلك قدم أربعة وعشرون من أصحاب المراتب لزف التهانى إلى الباشا، ونالوا المنع منه، وفى هذا الديوان عزل بعض الأعضاء وأسندت مناصبهم إلى غيرهم، وحصل مال الكشوفية الخاص بالباشا من جميع أصحاب المناصب وحصل عشرة أكياس من كتخدا الجاوشية وعشرة أكياس من رئيس المتفرقة وخمسة من رئيس المتفرقة وخمسة من رئيس التراجمة وخمسة من الروانامجى وستة من آغا الإنكشارية وأربعة أكياس من رؤساء الفرق العسكرية الخمس الأخرى وخمسة أكياس من كل من الصوباشى والمحاسب آغا نظير تثبيتهم فى مناصبهم وحصل ثلاثمائة وستون كيساً ممن خلعت عليهم الخلع.

ووزعت عشرون أو ثلاثون كيساً على آغا الباب العالى الذى جاء بمرسوم التثبيت وأغوات الصدر الأعظم ودفع ما يقرب من عشرة أكياس كذلك على الخيل والطواشية وسائر الهدايا الأخرى.

وأقام كتخدا الباشا وسائر أصحاب المناصب المآدب، وقدموا هداياهم إلى الباشا وأرسلوا بعض الهدايا إلى الأمستاة. ونلك بذلك الآغا الذى جاء بمرسوم تثبيت الباشا مائة كيس وهكذا ينتهى موكب مرسوم تثبيت الباشا فى منصبه.

الموكب التاسع

موكب إرسال خزانة مصر إلى الأمستاة

بمجرد أن يصل مرسوم التثبيت الخاص بالباشا والذى أسلفنا الحديث عنه وتجدد جميع المناصب يوافق ذلك رأس السنة، ولذا يصبح لزاما على الباشا أن يحصل خزانة

مصر ويحظى ذلك باهتمامه ويبحث دفتر دار الباشا وكتخدا الجاويشية ورئيس فرقة المتفرقة وكتخدا الباشا والشهر حواله وكل أولى الأمر عما تبقى من أموال فى ذمة الأمانة والكشاف والملتزمين والولادة، ولا تنتهى عند تحصيل مال الثلث الأول والثانى والثالث والمال الصفىى والشترى، بل يقومون بتحصيل الأموال المتبقية فى ذمة الأمانة العاجزين عن السداد ويكابدون فى ذلك عناء ومشقة لا مزيد عليها، ويقبض على الكشاف العاجزين عن السداد ويعلقون من أذرعهم فى بكرات فى ديوان الغورى ويصلبون وتجبرى الدماء من عظامهم ويطرحون فى السجن.

ويحصلون المال السلطانى ويطلقون عليه اسم «الخزانة الكبرى» ونوضح الآن من أين تحصل هذه الخزانة.

بيان بجميع قرى مصر وإجمالى أكياس الخزانة وعددها ودراهمها

والدوانق والأوقيات وثقل مثقال القمح والشعير

فى مصر ٧٦٠ مدينة و ٣٠٠٠ قرية و ٦٠ قلعة، وفيها كذلك ٢٤ محكمة على نحو ما سلف ذكره بالإضافة إلى ٣٦ محكمة فى ولاية الصعيد العالى. يحصل سنوياً ٢٤ خزانة من جميع قرى الكشوفيات والأوقاف والأمانة والملتزمين وأوقاف السلاطين وأوقاف الحرميين والأعيان وغير ذلك من القرى. وهذا ما ورد فى سجلات «الغزالى» وسوف أتحدث عن كل منها فى حينه بمشيئة الله. إلا أنه ثمة اثنتى عشرة خزانة خاصة بالمال السلطانى وهذا ما سوف نوضحه.

والخزانة الكبرى هذه تمثل المال السلطانى فى ديوان مصر والأستانة وينبغى أن تصل بأى وجه كان لصرف مرتبات عيد الفطر المبارك وتقدر هذه الخزانة بـ «٢٢٠٠ كيس مصرى» فى كل كيس «٨٤٦ قرشا»، وكل قرش يعادل «٣٠ باره»، وعلى ذلك فإن كل كيس يحتوى على «٢٨٠٠٠ باره»، وكل باره تعادل دانقاً وكل دانق يعادل «١٠ أُنقال من الشعير»، والدرهم يعادل «٤ دوانق» ويعادل كذلك «٤٠ ثقلاً من الشعير»، والمثقال يعادل «١٠٠ ثقلاً من الخنطة» بناء على هذا الحساب يزن الكيس المصرى (١)

أوقية.

(١) يابض فى الأصل.

وفى الديوان يسطون بسطاً من الجلد المدبوغ ويحصيها ثلاثمائة من الصيارفة ويزنها الوزانون كلها وتلف كيساً كيساً ويختتمها الدفتر دار أمام الباشا ثم تسلم إلى «الحاصل خرج»^(١) فى ديوان الغورى يضعها الحاصل خرج فى صناديق من خشب الصنوبر (الأرز) بواقع ثلاثة أكياس فى كل صندوق ويسمر كل منها على حدة، وهذه الصناديق مبطنة من الداخل ومن الخارج باللباد ويغطونها كذلك بجلد العجل الرطب ويلفونها بجبل متين ثم يغطونها بسط حمر. وعلى هذا النحو تجهز الخزانة ويحملها أحد البكوات الثراء المعروفين بشدتهم، ويصرف له نفقات سفره من خزانة السلطان ويؤكد عليه بضرورة التأهب لهذه المهمة.

ويتبعه أحد أغوات الإنكشارية عن فى سيبلهم لنيل درجة كتحدا وقديم ثرى من كل فرقة من الفرق الخمس الأخرى وجاويش وبيرقدار ويصل إجمالى المكلفين بهذه الخزانة إلى اثنين وسبعين شخصاً يطيون نفساً بمايخلع عليهم من خلع سلطانية.

وإذا ما كانت غرة شهر رجب يسط سباط ديوانى عظيم يدعى إليه جميع أرباب الديوان والعلماء والصلحاء والقاضى عسكر ونائب الديوان وشهود وكتاب السجل السلطانى ويحصى كتحدا الباشا الصناديق التى تكومت كالجبال فى الديوان صندوقاً صندوقاً فى حضور الباشا والعلماء وبك الخزانة ويسلمها إلى بك الخزانة وقادة الفرق السبع وعندئذ يوجه الكتحدا كلامه إليه قائلاً: لقد تسلمت منى ألف وماتى (١٢٠٠) كيس من مال السلطان بالتام وأخذت منك صكاً بذلك وهو الآن لدى. فليشهد الباشا بذلك.

ويسجل هذا فى السجل الشرعى ويدعو داعى الديوان وتقرأ الفاتحة. ثم ينزلون الصناديق من ديوان الغورى إلى ميدان القصر يحرسها مائتان من رجال الباشا مدججين بالسلاح راكبين البغال المزينة وقد جلجلت جلاجلها ويحمل الإنكشارية والعزب كل بغل صندوقين بهما ستة أكياس.

(١) الحاصل خرج: محصل الخراج.

ذكر موكب خزانة مصر

وتبدأ المراكب في المسير تتقدمها مراكب الباشا بمقتضى القانون ثم جند الفرق السبع المكلفين بإرسال الخزانة وعددهم سبعمائة، ويمر الموكب بمرأى من الباشا وهم رافعين الأعلام يقرع قادتهم الطبول ومعهم بك الخزانة وعليه قباء فرو السمرور وعلى رأسه العمامة البريشاني ومن ورائه رجاله في كامل زيتهم وسط عزف الموسيقى وقرع الطبول ويلوحون للباشا بالتحية بأعلامهم وطوغاتهم ويقول الباشا لهم: «أمضوا يسر الله لكم أمركم» وعندما ينزل الموكب من القلعة على هذا النحو ينخرط فيه، بمقتضى القانون، عشرة آلاف جندي ممن تجرى عليهم الرواتب (النظاميين) وعندما يطوفون شوارع القاهرة على مهل يصطف الناس على جانبي الطريق العام وقد احتشدت جموعهم لمشاهدة الموكب ويرفع الرجال أصواتهم بالدعاء قائلين: «إن شاء الله بالسلامة»، بينما تطلق نساؤهن الزغاريد ويمشى جند الإسلام يختالون كأنهم الطواويس والبهجة والسرور تملو وجوههم.

وعندما يصل الموكب من باب الناصر إلى الموضع المسمى بالعادية يلزم كل مكانه وتكوم كل صناديق الخزانة داخل خيمة بك الخزانة ثم يأتي على الفور الصيارفة وقدامى الفرق السبع ويتولون جميعاً عد الخزانة، بعد ذلك يمررون السلاسل في حلقات الصناديق ويشبكون طرفى السلسلة بقفل ثم يغطونها بالبط ويحيط بها الناس جميعاً لحراستها ويحتشد كل الجند ويبقى المكلفون بالخزانة، ثم يسترون كل الصناديق بالبط الأحمر. ولفظ «سترك الله» جاء من هنا. وهذا اللفظ شائع على ألسنة المصريين. ويدوم بقاؤهم في العادية ثلاثة أيام وثلاث ليال وفي هذه الفترة تعم البهجة والسرور وتعزف الموسيقى العسكرية وهم يقومون على حراسة الخزانة وعند خروج الخزانة من العادية تصدر الأوامر السلطانية إلى بك سبيل علام وكاشف قليوب وصوباشى المدينة بأن يلحقوا جنودهم بموكب الخزانة في سهل العادية وتضاء مئات المشاعل والقناديل حول الجند لحراسة الخزانة.

ولأن صوباشى المدينة مشغول بمهام الحراسة فى العادلية لا تكفى جنود «الديودار» أى حاكم القلعة لحراسة المدينة فيمضى كتحدا الإنكشارية فى ألف أو ألفين من رجاله مدججين بالسلاح إلى الغورية فيقومون بها حتى مطلع الفجر فى لهو ومرح ويؤنسهم ويطربهم مئات المغنين والموسيقين، ويختصون بحراسة الأشراف. ويتقاضى أفرادهم المكلفين بإرسال الخزانة مرتباً سنوياً يدفع مقدماً.

يصدر بك الخزانة أوامره لكاشف قلوب بأن يمضى بجنوده مع الخزانة إلى كاشف الشرقية ويصبح الموكب فى هذا اليوم غاية فى أبهته وعظمته ويمضى جميع القادة المكلفين بالسفر من كل الفرق العسكرية.

الموكب العاشر

موكب الفرقة العسكرية المختصة بالخزانة

وفى اليوم الثالث لا وجود لرجال الباشا ولا لغيرهم من جنده، يقتصر هذا الموكب على قدامى الفرق العسكرية وأثريائها. إنه موكب غاية فى روعته وزينته، وكل من فيه من المسافرين مدججون بالسلاح أما من لا يسافرون يمشون بسيف فقط ويعود الباقيون أدراجهم. بعد ذلك ينفخ بك الخزانة فى أبواق الرحيل وتقرع الطبول، وبعد أن يسلم كاشف قلوب الخزانة إلى كاشف الشرقية فى حراسة ثلاثة آلاف فارس يتسلم حجة شرعية بذلك يمضى بها إلى الباشا وعندما يسلم كاشف الشرقية الخزانة إلى باشا غزة يتسلم كذلك حجة شرعية يمضى بها إلى الباشا وعندئذ يطمن الباشا ويهدأ بالاً ويقول: «حمداً لله الآن فقط سلمت الخزانة إلى البك ودخل بها حدود الشام». ويأمر الباشا مهامه الأخرى.

ما ينبغى أن نعلمه

ينبغى أن نعلم أن نفقات الخزانة التى تحوى ألفاً ومائتى كيس ومصروفات خلع الجنود المكلفين بها وماكولاتهم ومشروباتهم وعلف خيولهم وخيام القادمين بالبغال وأثمان الصناديق والترقيات التى تدفع إلى بكوات الجند القائمين بهذه المهمة لدى عودتهم إلى القاهرة ومرتبات أغوات الفرق السبع ورؤساء خدم القصر الثلاثة والجاويز والبيرقدار

والطبردار والحاصل ترقية الشمامسة شخص المكلفين بالمهمة والتي تتراوح بين أقجنتين إلى ألف أقجة يومياً إضافة إلى الخلع تصرف لهم جميعاً لدى عودتهم سالمين إلى القاهرة.

وبناء على حساب هذه النفقات فإن كل خزانة تحوى ألفى كيس بتمامها ولأن هذه التريقات تصرف من الضرائب التي يحصلها الباشا فإن ذلك يمثل عبئاً عليه يقدر بـ () (١) مائة كيس.

وإذا ما أراد الباشا أن يدفع التريقات طبق الموجود وغير الموجود ومن أدى خدمة ومن لم يؤد فإن الثورة تقوم عليه، وفي النهاية يتصالح أفراد الفرق السبع مع الباشا على أن يدفع لهم خمسة وعشرين قرشاً على كل أقجة ما لم يكن هناك قرى محولة.

واتفق ذات مرة أن أحصاهم () (٢) بقعة فكان بها ثلاثمائة شخص وجاءت التعليمات إلى إبراهيم باشا بأن يدفع المنح لثلاثمائة رجل.

هذا قانون السلطان سليم الذي سيقى ما شاء الله.

الموكب الحادي عشر

موكب إرسال الباشا «منحة العيد» إلى السلطان

إذا ما وصلت بشرى وصول الخزانة إلى دمشق من بك الخزانة وأغوات الفرق المبعوثين يتتهج الباشا لذلك ابتهاجاً لا مزيد عليه. وإذا ما حلت غرة شهر شعبان يبدأ في إعداد خزانة منحة العيد (العيدية) ولا يشترك في ذلك بكوات مصر ويقيم الباشا لهذا أحد أغواته من ذوى الوقار والمنزلة وأحد قواده الأكفاء ويجود بصدقاته على رجال أشداء أكفاء مدججين بالسلاح من فرق التار والدلاة والمطوعة والمتفرقة وغيرهم من الفرق الأخرى إضافة إلى ثلاثمائة رجل آخرون من الشباب الأشداء المتفردين من الفرق السبع لهم القدرة على استعمال السلاح وركوب الخيل ويقرر لكل منهم ترقية قدرها أقجة لأن هؤلاء يمضون كأنهم ذاهبين للقتال ويتخطون الخزانة الكبرى ويصلون قبلها بخمسة عشر أو عشرين يوماً إلى الأستانة وهذا عليهم من الختم.

(١، ٢) يياض في الأصل.

وتضرب عملة ذهبية خاصة بالسلطان فى دار الضرب من أجل إرسال منحة العيد إليه ويتوسط هذه العملة حلقة من الفضة الخالصة ولا تدخل هذه العملة ضمن ميزانية الخزانة بل هى من صلب مال الباشا وتقدر به (١) كىسا من العملة المصرية، وترفق بهذه الخزانة بما يقدر بثلاثمائة كىس من السلع النفيسة الواردة من بلاد اليمن والهند والحبشة وتحزم هذه الامتعة فى صرر.

ترسل عشر صرر منها إلى والده السلطان وخمس صرر لمحظيات السلطان وخمس لأبنائه وخمس لوالدة كتخدا السلطان وثلاث صرر لأغا السعادة واثنا عشر لخدام الباب العالى واثنا عشر للخزينة دار الرئيس، واثنا عشر لى كبير خدام قصر السلطان واثنا عشر لى سلاحدار وجوقدار وركابدار وأغا القصر القديم ورئيس حاملى الطبر، ورئيس مقدمى القهوة فى بلاط السلطان وهؤلاء جميعاً ممن لهم صلة بالقصر السلطانى.

كما يمنح الصدر الأعظم عشر صرر وعشرة آلاف دينار من ذهب ويمنح كتخدا الصدر الأعظم خمس صرر ويرسل إلى رئيس الكتّاب ألف دينار وكل كاتب من كتاب التذكرة صرة وثلاثمائة دينار ذهبى، وصرة وثلاثمائة دينار ذهبى لكل من كاتم السر فى الديوان والروزنامجى أفندى وكتخدا بوابى الصدر الأعظم والخزينة دار ورئيس طائفة البوابين ورئيس الجاوشية كما يعطون صرة واحدة لكل من الدفتردار باشا وشيخ الإسلام وقاضى عسكر اسطنبول، إلا أنهم يمنحون لكل من شيخ الإسلام والدفتردار باشا خمس صرر وألف دينار من ذهب أخرى.

ويمنحون كذلك صرة لكل وزير من وزراء القبة السبعة (٢).

وبناء على ما سبق ذكره يكون عدد الصرر التى توزع مائة وسبعين صرة.

إلا أن هذه الصرر لا تكفى فيرسل كتخدا الباب صورة من دفتره بأنه استلم مائة صرة وعلاوة على هذه الصرر وعيدية الصدر الأعظم التى تقدر به اثني عشر ألفاً من الدنانير الذهبية يرسل عشرة آلاف دينار أخرى كعدييات. ويصبح هذا وبالا عظيماً على وزراء مصر.

(١) يياض فى الأصل.

(٢) اصطلاح يعنى: الوزراء الذين يجتمعون فى قصر طوب قابو فى المكان المعروف باسم تحت القبة للنظر فى أمور الدولة، لذا سموهم وزراء القبة. محمد زكى باك آكين، معجم مصطلح التاريخ العثمانى ١/٣٠٧.

وبعد أن أرسل إبراهيم باشا خزانة منحة العيد إلى السلطان أرسل مع أحد أغواته وعشرين من رجاله خمسة جياذ مطهمة إلى السلطان إضافة إلى مائة جواد أخرى لأعيان الدولة في اسطنبول.

ومن عجب أنه علاوة على صرر منحة العيد المذكورة أعلاه وما أرسل من هدايا إلى أعيان اسطنبول أرسل إبراهيم باشا مع أحد رؤساء البوابين ثمانين ألف كيلة أرز ومائة ألف كيلة من العدس ومائة ألف كيلة من الحمص والفول وستمائة فردة من البن وألف قطار من السكر وألف زجاجة من مختلف الأشربة المعطرة وخمسمائة زوج من الحصير الملون ومائة وخمسين من الطواشي إضافة إلى سائر التحف والهدايا من أجل أعيان الدولة ومائة كيش وغزال وعجل وحشى ومائة قفص من البيغاوات والنعام وشحنت كل هذه الهدايا في السفن في رشيد والإسكندرية لإرسالها إلى الأستانة.

ويسلم الباشا كل هذه الأموال إلى أغا الخزانة وعندما يمضى جند الباشا في موكب غاية في الزينة وهم مدججون بالسلاح يمضى كذلك كتخدا الباشا وأغا الخزانة جنباً إلى جنب ويقيمون جميعاً في سهل العادلية ويحتشدون في خيمة أغا الخزانة وفيها يمنع كتخدا الباشا أغا الخزانة أربعة أكياس نفقة الرحلة وأربعة آلاف أفجة لكل من رجال الباشا ويقوم جند مصر وجند الباشا بحراسة الخزانة. وبما أنهم في مقر إدارة بك سبيل علام وكاشف قلوب يحيط الخزانة ألفى فارس طيلة ثلاث ليال لحراستها ثم يودع أغا الخزانة الكتخدا ويدخل الأخير إلى القاهرة ثانية، ثم تمضى الخزانة إلى الخانكة ومنها إلى بليس فيسلمها كاشف الشرقية، وفي غضون عشرة أيام يسلمها إلى باشا غزة وتصبح في حمايته.

وبعد قطع المنازل وطى المراحل تصل هذه الخزانة إلى الدفتردار باشا في الأستانة قبل العيد، ثم تعرض بعد ذلك على السلطان وتسلم إلى الخزانة السلطانية ويقوم كتخدا الباب العالي بتوزيعها في وجوهها بموجب الدفتر، وبعد ذلك مباشرة في منتصف شهر

رمضان يأتى المبشرون من جند مصر ويحظون بالخلع والترقيات. وفى الخامس والعشرين من شهر رمضان يسلم بك القاهرة الخزانة فى موكب عظيم ويسعد القادة بالخلع السلطانية ويقيمون فى قصر مخصص للوزراء، وتخصى الخزانة ويعد محتواها ويبدو أن هناك خمسة أكياس أو أكثر ناقصة حسب على كنتخذا الباب.

تصرف رواتب الجند بمناسبة حلول العيد، ثم يحصون عدد الجند القادمين مع البك المصرى وتصل الفرمانات إلى الباشا متضمنة عدد الجند القائمين بمهمة إرسال الخزانة وأنهم سلموها ويستحقون أن ينالوا «الترقيات»، وما عدا ذلك من الاسماء لاحق لهم فى أى منح. ولقاء وصول الخزانة الكبرى وخزانة منحة العيد إلى السلطان يصل الباشا مع أحد رؤساء الباب العالى السيف والقباء، فيمنح الباشا من يحمل إليه هذا القباء وهذا السيف خمسة عشر كاتبًا.

الموكب الثانى عشر

موكب وصول السيف والقباء

إنه موكب كبقية المراكب السابقة المفروضة، لا فرق بينه وبينها فى شىء. ولا يشارك فيه جند مصر، وكل ما فى الأمر أن جند الباشا يمضون إلى السعادية ويرسلون المطبخ إلى هناك قبل ذلك بيوم واحد، وتبسط الأسطة ويطعم الطاعمون ويمضى كنتخدا الباشا مع الاغا الوافد ويدخلان من باب الناصر فى موكب عظيم وسط جموع الناس ويصل إلى قصر الباشا فى القلعة، وفى الديوان تتلى الأوامر السلطانية ويحىء فيها:

«وصلتنى خزانتك أيها الوزير بالتمام ولقد أرسلت إليك سيفًا وحلة فاخرة، فلتكن فى خدمة الرعايا والبرايا ولترعى أمور مكة والمدينة».

ويلبس الباشا الخلعة الفاخرة ويعلق السيف البراق فى وسطه فيزيده ذلك هبة ووقارًا.

الموكب الثالث عشر

موكب الصرة المحمدية من مصر القاهرة إلى الشام

لم يكن لتلك الخزنة وجود في قانون السلطان سليم ولكن صدر الأمر السلطاني بها في عام ١٠٨٢ هـ بمشورة الكتخدا إبراهيم باشا، ولأن السفر من إستانبول إلى المدينة مع أمين الصرة كان أمراً عسيراً فقد تقرر تسليم الصرة إلى أمينها في موضع (١) على مسافة عشرين منزلاً بين مصر والشام وقد استحسن أن يسافر بها أمين الصرة وإلى الشام (٢) بخفة إلى إستانبول لتسليم الصرة إلى الشخص المكلف، وفي الخامس عشر من شهر رمضان المبارك تخلع خلعة فاخرة للأغا المدير الذي سيكون مع الصرة سرداراً لها، وتمنح ألف پارة كل من أغوات الباشا الثلاثمائة الشجعان الأبطال الذين يؤلفون عشرة طوابير، وألف پارة لكل بطل من المائة المصريين المدججين بالسلاح. ولكن ليست لهم ترقية ميرية، لأن هذا السفر خدمة سخرة يكلفونها من أوجاقاتهم.

يمنح أغا الباشا كيساً لنفقات الطريق وفي حضور كل العلماء والصلحاء والأعيان يتسلم الباشا بيديه اثنتين وستين ألف سكة تزن مثقالاً كاملاً من الذهب البندقى - والمثقال يزن مائة حبة حنطة -، فقد قطعت هذه القطع الذهبية على أن تزن كل مائة قطعة منها مائة وستة وعشر درهماً كامل العيار تام الميزان. إن وجد في قطعة منها نقص مقدار حبة قمح، وعرض شريف مكة وشيخ الحرم بالمدينة بأن صرتهم جاءت ناقصة في هذا العام، فإن هذا يحدث اضطراباً في أحوال وزير مصر. فلذا تحضر هذه الخزنة من الذهب الخالص النظيف الطاهر. وتحمل هذه الخزنة على بغال الباشا من ميدان السراى، ثم يمر رجال الباشا والمعينون لمرافقتها من المصريين أمام الباشا دون أن ترافقهم الفرقة الموسيقية. فقط تفرع طبول أغا الباشا وسردار الخزنة دار، ويجتازون القاهرة شاقين طريقهم في بحر متلاطم من البشر، ثم يتوقفون في العادلية، وهناك تسلم إلى أمين الصرة، ويأخذ أغا الباشا الحجة الشرعية، وفي اليوم الخمسين يدخلون مصر مرة ثانية.

الموكب الرابع عشر للخزانة (موكب الكسوة السوداء للكعبة)

سلف وصف الكسوة الشريفة غير مرة، وهى كذلك إحدى الخزانات السلطانية. إلا أنها ليست من أوقاف آل عثمان. إنها أوقاف شجرة الدر فى عهد سلاطين الأكراد، ولم تكن من قبل لأحد الملوك بل استأثرت بها شجرة الدر.

والآن هناك عشرة قرى معمورة بالقرب من القاهرة، يحصل منها سنوياً مائة وسبعون كيساً، يشتري بها ناظر الكسوة سبعين قنطاراً من الحرير وثلاثة قناطير من الفضة الخالصة. وفى شهر المولد يبدأ مهرة الصانع فى صنع الكسوة وفى شهر رجب يقوم ناظر الكسوة بعرض نماذج للكسوة الشريفة على الباشا، وإذا كانت غاية فى دقة الصنع خلع الباشا الخلع الفاخرة على ناظر الكسوة وصناعها المهرة. وإذا كانت على العكس من ذلك أغلظ عليهم اللائمة وأخذهم بشديد العقاب.

ومن غرة شهر شوال تبلغ الباشا البشرى بالانتهاء من صنع الكسوة الشريفة، فيأمر بإعداد الموكب. وعدد الجند فى هذا الموكب قليل ويقتصر على كتخدا الجاوشية ورئيس المتفرقة والترجمان أغا وناظر الكسوة وأمينها ودرأويش مائة وسبعين طريقة صوفية. وقبل الموكب يوم يحضرون الكسوة الشريفة إلى الباشا فيزينها ويفحص ما فيها من أشغال الصرمة والحرير ويحاسب ناظر الكسوة على ذلك. وإذا وجدها الباشا على خير ما يرام اللبس ناظرها خلعة، أما إذا نقص من خيوطها الذهبية شئ أخذ من ناظر الكسوة عدة أكياس ليعفو عنه.

وفى صبيحة اليوم التالى تخرج الكسوة الشريفة من جوسق يوسف حيث إنها تصنع هناك و يثبتونها على إطار من خشب فى حجم الباب الشريف للكعبة خارج باب الوزير لقياسها وهذا الإطار الخشبي يقام على أوتاد يصنعه أهل المغرب. وستار الباب الشريف غاية فى ارتفاعه وبما أن باب القلعة لا يتسع له يفتحون هذا الستار خارج باب القلعة.

ويحملون مع الكسوة عشرين لفافة سوداء لكسوة الكعبة وعشرين لفافة أخرى من الحبال الغليظة وردية اللون لتعليق الكسوة الشريفة على الكعبة، وثمانية صناديق تشبه النعوش تحمل عليها الأجزاء الثمانية الخاصة بأحزمة الكعبة والتي يبلغ طول الواحدة منها عشرين ذراعاً وكذلك تبسط سترة مقام إبراهيم - عليه السلام - على إطار خشبي ويزينون كل ذلك.

يتلقى جميع المشايخ الخبر بذلك ويبدأ الموكب في التحرك من باب الوزير إلى مشهد الإمام الحسين، وتمضى حبال الكعبة في المقدمة ويتصدق بعض الناس على حاملي الكسوة من المغاربة، ويقتربون منهم ويمسحون بوجوههم الكسوة تبركاً وتيمناً. وكل لفافة من هذه اللفائف يحملها مغربي على رأسه وذلك اليوم يوم المغاربة.

يحضر هؤلاء المغاربة الكسوة وهم يرددون (لا إله إلا الله محمد رسول الله). والكسوة بتمامها سوداء لذلك تسمى الكسوة السوداء لبيت الله. وبعد الكسوة تمر الصناديق التي تشبه النعوش والبالغ طول الواحد منها عشرة أذرع وبها أحزمة الكعبة وهي مزانة بالذهب حتى إن من يشاهدها تبهر نظره.

وفي هذه الكتابة الذهبية لهذه الأحزمة آية كريمة هي: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]، وكلها مذهبية وليس فيها ألوان. وعرض الحزام من هذه الأحزمة ذراعان، أما طوله فعشرون ذراعاً. ويحمل المغاربة كذلك هذه الأحزمة الثمانية، ويمضى خلفهم الجند حتى لا يصيبهم أحد بسوء ويمضون إلى ميدان القصر لعرضها على الباشا. وعندما يراها الباشا يمسح وجهه عليها ويدعو لهم بالخير ويشئ عليهم ويأمرهم بالمرور أمامه تباعاً ثم يتهلل شيوخ مائة وسبعين طريقة صوفية وما يربو على أربعين ألف درويش ذاكرين الله، ويقرعون الطبول وينفخون في الأبواق، ويغيب الصوفية في نشوة، ويمر الموكب والجميع يوحدون الله ويذكرون ويشكرون بصوت رخيم، وهؤلاء المشايخ العشرة آلاف يحملون أعلامهم موحدين الله ويستغرق مرورهم أربع ساعات.

ثم تمر بعد ذلك كسوة مقام إبراهيم - عليه السلام - وهى كذلك مزدانة بالذهب ويحملها رجل على رأسه فى صندوق مغطى وتكون هذه الكسوة غاية فى دقة الصنع ولا يخفى على الصوفية أن يشاهدونها.

ثم يأذن الباشا لنساجى الكسوة الشريفة الأربعين ويمرون مثنى مثنى أمامه ويخرج وراء هؤلاء بالتبعية كل من فى مصر القاهرة من صناع الحرير والمخمل وفى هذا الموكب يخرج كثير من الناس لشدة الازدحام. لأن الناس يجتمعون مزدحمين على جانبي الطريق لمشاهدة الكسوة الشريفة وكسوة مقام إبراهيم - عليه السلام - ويمسحون وجوههم على الكسوة الشريفة تبركاً. ويتفق أن أحداً كان يمس بطرف عمامته الكسوة فسرق منه أحد الرعاع عمامته.

وبعد مرور مهرة صناع الكسوة يبدأ مرور جند أمير الحج وهم كذلك يحملون أسلحتهم ويمرون مثنى مثنى. ويخرج المغاربة حاملي كسوة باب الكعبة الشريفة مهللين مكبرين.

إنها كسوة باب رائعة مزركشة مختلفة الألوان والزخارف، طولها عشرة أذرع تنسج فيها بخيوط الذهب عبارة (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وبعد مرورها يمر المحمل الشريف على جميل جميع مخضب بالحناء.

ولما كان جان بولاد زاده عزيزاً لمصر جدد كسوة الكعبة بالذهب فأصبحت كأنها النور الإلهي.

وجملة القول أن اللسان يعجز عن وصفها. وفى هذا العام يمر المحمل فى هذا الموكب العظيم وفى وقت آخر يمر مع أمير الحج، وبجانب هذا المحمل يمشى عدة آلاف من العكامين وحاملى المشاعل وهم يقرعون الدفوف والطبول صائحين بقولهم (الله ينصر السلطان) ويمضى رؤساء الحرفيين ثم ناظر الكسوة وكتخدا أمير الحج وأمين الكسوة وقد لبسوا ما خلع عليهم الباشا من خلع، ويتبعهم أغوات القصر حاملين سلاحهم وهم كاملى الزينة وخلفهم كذلك فرقة موسيقى أمير الحج وهم يقرعون الطبول ويصطف الناس لمشاهدة هذا الموكب فى حشود وحشود.

تصل الكسوة الشريفة إلى مقام الحسين وهنا توضع الكسوة الشريفة وغيرها من الأمتعة ويحتشد العلماء هناك سبع ليال محتفلين بذلك وقيسون أستار وحبال الكسوة الشريفة. ولأن محيط مشهد الإمام الحسين رضى الله عنه يماثل محيط الكعبة الشريفة يحيطون أعمدة مشهد الجامع بالكسوة الشريفة وقيسونها بناء على ذلك ثم يرسلونها إلى الكعبة فتكون مناسبة لحجم الكعبة تمامًا.

إن أوقاف هذه الكسوة أوقاف عظيمة عجيبة. وفي الزمان الخالي كان تبابعة اليمن يكسون الكعبة المعظمة كل عام بحصير منقوش والتبابعة هم ملوك اليمن. ومن بعد كساها هارون الرشيد العباسى بالحرير، ثم كساها الخليفة المأمون بالحرير الأحمر. وفي المرة الرابعة لما ملك ملوك الترك مكة كان لأحد ملوكهم وهو أيبك زوجة تسمى شجر الدر كست الكعبة بالحرير الأسود وخصصت لذلك أوقافا وهذه الأوقاف قرى مُسَلَّمة معفاة من الضرائب ومن يعين ناظرًا للكسوة ملتزم بماتى كيس من العملة المصرية. إنها قرى غاية فى كثرة خيراتها. إلا أنه عندما فتح السلطان سليم مصر أضاف إليها أوقافا أخرى.

وذلك الحزام المذهب للسلطان سليم، أما كسوة الباب الشريف فمن أوقاف السلطان سليمان، أما الميزاب الذهبى فمن أوقاف السلطان أحمد وتجديد مقام إبراهيم فى كل عام هو وقف السلطان إبراهيم. رحمة الله عليهم أجمعين. حقًا إنها أوقاف تليق بعظمة السلاطين وهذا الموكب موكب لا يكون للملك عظيم وهو يستحق المشاهدة.

الموكب الخامس عشر

موكب أمير الحج وخزانة نفقات مكة والمدينة والحجاج

هذا الموكب كذلك موكب عيد لاهل القاهرة وفى اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال يشكل موكب أمير الحج وقبلة بخمسة أو عشرة أيام يستأجر المصريون الدكاكين بخمسة أو عشرة قروش ويسكنونها مع أطفالهم وذويهم ومعهم أطعمتهم وأشربتهم لأن مرور هذا الموكب والمحمل الشريف من الصباح إلى العصر. لذا يقيم جميع الناس فى الدكاكين ومعهم أطعمتهم وأشربتهم.

يزين المحمل الشريف فى حارة مشهورة، ويخرج فى عظمة وجلال، وقد بقيت هذه العادة منذ عهد السلطان بيبرس، والمحمل الشريف فى أول الأمر لم يكن يخرج على هذا النحو من المراسم فجعل له السلطان بيبرس هذه الصفة رحمه الله.

وفى ليلة الموكب بعد العصر يحضر كتخدا أمير الحج وجميع مشاهير المشايخ والعلماء وجند أمير الحج وعدة آلاف من المتصوفة قارعين طبولهم مع مائة من الجمال ومئات البغال وجمال السيل التى تسمى جمال الصحابة وهى تحمل آلاف القرب المملوءة بالماء العذب والمحمل الشريف إلى قره ميدان فى موكب عظيم، وفى صُفَّة سبيل الظاهر بيبرس ينزلون المحمل الشريف ويضعونه هناك وبجانبه، يقيم كتخدا أمير الحج خيمته ويقيم فيها، كما يقيم جند أمير الحج وسائر الشيوخ الخيام والسراقات ويمكثون فيها. ويعقلون الآلاف من الجمال صفا صفا فى قره ميدان ويخطرون الباشا بوصول المحمل الشريف إلى قره ميدان، وفى التو يقيمون ظلة للباشا على مصطبة بك الإصطبل (أمير أخور) وفى هذه الليلة يكون الجميع تحت إمرة كتخدا أمير الحج وناظر الكسوة، ويصعد آذان المغرب ويعد أداء الصلاة تزين كل الخيام والسراقات التى فى الميدان بآلاف المصابيح والمشاغل فيصبح الميدان مغموراً بالنور.

يأتى عدة آلاف من الشيوخ والفقراء من أهل المدينة ويحتشدون حول المحمل الشريف ويتهلون إلى الله حتى مطلع الفجر ويبسط الباشا عشر موائد لهؤلاء المشايخ لأنهم ضيوفه وعليه إكرامهم، ويرسل رئيس خدام سرادات الباشا نصف أوقية من البخور وتشعل النار فى المباخر ويحرق فيها البخور ويثر ماء الورد على جميع الشيوخ والمتصوفة ويتلون المولد النبوى حتى مطلع الفجر، ويختمون القرآن فى كل مكان ويتهلون إلى الله، وفى الصباح تفرع طبول كتخدا أمير الحج وناظر الكسوة وترفع جميع الخيام والقناديل ويحملون الجمال بامتعتهم ويقفون على أهبة الاستعداد.

وفى وقت السحر يقدم جميع أبواب الديوان والبكوات الشراكسة ويجلسون على الكراسى فى سرادق الباشا المزين. وكل من يلحقون بخدمة الحجاج من الجورابجية

والقواد والجاوشية وحاملى الأعلام وحاملى الطبر والقلجدار والأعيان والأشراف رؤساء سقائى قافلة الحج يزبون رؤوس الجمال وتصبح وكأنها التناين ذات الرؤوس السبعة وتزدحم ساحة قره ميدان براكى الهجين من الحجازيين والناس يطوفون بجمالهم.

ويزين كل جمل بما يزيد على خمسين علماً منقوشاً والمحفات المزخرفة والهواذج وتطوف فى الميدان وينفخ فى الأبواق وتقرع الطبول فى أرجاء الميدان وتخرج الكسوة السوداء المزينة فى قره ميدان، ثم يقدم القاضى عسكر أفندى ونوابه الأربعة والعشرون وكل أتباعه وعلى رأس كل منهم العمامة المعروفة بـ «عرفى» ويجلس قاضى العسكر بجانب الباشا فى صدر سرادق الباشا المزين ويستتظرون كلمة أمير الحج ثم يأتى عدة آلاف من أتباع سيدي (١) الساداتى فى موكب حاملين اللواء النبوى الشريف وتأتى مواكب قاضى العسكر والشيخ والأئمة والخطباء وشيوخ البكرية والساداتية ويتزلون فى سرادق الباشا ويجلسون خلف القاضى عسكر ويكتظ قره ميدان بجند الأوجاقات السبعة. ثم:

موكب أمير الحج باشا

على الرغم من أنه من أمراء مصر القاهرة إلا أن له طوغان وبدو الصحراء يسمونه «سلطان البر» ويصرف له من قبل السلطان ستة وثلاثون كيساً نفقة السفر. ولاير الحج قرى عظيمة الخيرات خاصة به، ويتحصل له كذلك منها أربعون كيساً، وله علوفة سنوية من ديوان مصر قدرها اثني عشر كيساً.

وحقيقة الحال أن أمير الحج له مرموق المكانة فى مصر حتى إن وكيله (الكتخدا) يضع فوق عمامته المجوزة ريشة كوزير مصر، لأنه وكيل السلطان.

يمنح أمير الحج مائتا جمل من المال الحكومى ويشتري كذلك ألف جمل من ماله الخاص ولا يكفى ذلك فيمده أصدقاؤه بالعون فيتحصل له كذلك خمسمائة جمل حتى يبلغ عدد الجمال التى يملكها ألفى جمل لأن كل حجاج مصر فى حاجة إلى معوته ويمنح كذلك خمسمائة جندى من الأوجاقات السبعة دفعت أجورهم ونصفهم يحملون

(١) يياض فى الأصل.

العونات إلى جدة فى بحر السويس ويذهب النصف الآخر فى مَعِيَّة أمير الحج ويقومون على حراسة قواده ويقون فى مكة. وثمة خمسمائة جندى آخرون يسمونهم بالسبعين (يتمشلى) وهؤلاء كذلك يذهبون ويعودون مع أمير الحج وعندما لا يكون أمير الحج حاضراً ثم يظهر أثناء عزف الموسيقى فالجند الذين فى قره ميدان ينقسمون طائفتين ويصنّف العزب فى جانب والإنكشارية فى جانب آخر لأداء التحية، وفى جانب سباهية الأوجاقات السبعة وهم فى ثيابهم المزركشة وعلى خيولهم الفاراهة مدججين بالسلاح ينتظرون تحية أمير الحج.

أما أمير الحج فيمضى بين الصفين فى موكب ويلوح بالسلام إلى الجانبين وتعزف الموسيقى العسكرية فينزل الباشا إلى السرادق ويتقدم جميع البكوات ويجلس أمامهم، ثم تطلق المدافع تحية ويطوفون بعلم رسول الله ﷺ والمحمل الشريف على الجمال فى ذلك الميدان ثم يتقدم أمير الحج إلى الباشا وعندما يقولون للباشا إن أمير الحج جاء وكل الجند والموكب فى انتظار تشريفه، ينضم الباشا إلى الموكب ويمضى أغوات واجب الرعايا فى المقدمة مشياً، أما رؤساء البوابين فعلى الجياد مع خدامهم وعلى رؤسهم العمامة البريشانى مع جاويشية السلام وكتخدا البوابين ورئيس التراجمة ورئيس المتفرقة وكتخدا الجاوشية وهم جميعاً على جيادهم، ثم يمضى الباشا يرتدى قباء فرو السمرور وعمامته المعروفة بـ «سليمى» وخلفه السلحدار والجوقدار وهم بسرراويلهم وخفافهم الخاصة بهم مع أربعة وعشرين من أغوات الداخل أصحاب المراتب وهم على جيادهم ويحملون سيوفهم.

ينزل الباشا فى سرادقه المزين فى قره ميدان وعندئذ يصطف له عامة الجاوشية وعندما يجلس فى مكانه يبدأ أمير الحج بتقبيل يده ويجلس هو الآخر فى مكانه، وبعد أن يتجاذب معه أطراف الحديث يدعو الباشا بقية الأعيان لمجلسه، وعندما يسأل الباشا أمير الحج عما إذا كان قد أخذ كُلَّ نفقاته ونفقات صرر شرفاء مكة المكرمة وغير ذلك من نفقات يجيب أمير الحج قائلاً: تسلمتها كاملة غير منقوصة، وعندئذ يأمر الباشا المولا افندى قائلاً اكتب ذلك فى السجلات ويطرح الباشا السؤال ثلاثة على القواد المكلفين برعاية الحج عن أخذهم المهمات والمأكولات والمشروبات والجمال والبغال

ومرتبات عام مسبقاً فيجيبونه كذلك قائلين: تسلمنا ذلك وسجلناه، وعندئذ يقول الباشا: اشهدوا بذلك ودونوه في السجلات، ثم يخلع على أمير الحج خلعة مذهبة، وإذا كان مقرباً إليه مختصاً به يلبسه فرو السمور، كما يخلع على الكتبخدا ومحافظ القلعة وقواد الاوجاقات السبعة وحاملي اللواء وجاوشية المحمل وقاضي المحمل وإمامه والمؤذنين وأغا بيت المال من أغوات الباشا، وكاتبه، فيكون عدد من يخلع عليهم مائتين وعشرة ممن اشتركوا في هذا الموكب.

ثم ينهض الباشا من مجلسه قائلاً: (بسم الله الرحمن الرحيم) ويترك فرسه ويمضي على التعلين حتى يصل إلى الجمل الذي يحمل المحمل ويمسح بوجهه وعينه المحمل الشريف ويقول: (بسم الله) ويمسك بالزمام الفضي للجمل ويطوف هذا الجمل في الميدان غير مرة وبذلك يكون جمال رسول الله ﷺ يقوم بخدمته ويأمر جميع البكوات بالسير معه حفاة ويصعد العسكر صيحة عالية قائلين: (شفاعة يا رسول الله) ويرتفع دعاؤهم إلى عنان السماء ومن يرى الباشا على تلك الحالة وهو على صورة الجمال يبكي فلا يبقى في الروح بقية.

ثم يوجه الباشا حديثه إلى أمير الحج قائلاً: إن مكة والمدينة لسلطان آل عثمان وهو خادم الحرمين الشريفين وأنا في يومى هذا وكيله وعبد المملوك وبمقتضى وكالتى سلمتك المحمل الشريف وأنا أستودع الله الحجاج السالين الغائمين وقد عهدت إليك بهذا. هل تسلمت المحمل الشريف؟ فيجيبه أمير الحج قائلاً: نعم تسلمته وبمجرد أن يتسلم منه الزمام الفضى للجمل فى يده يقول الباشا: اشهدوا بذلك ودونوه فى السجلات. ثم يجلس الباشا تحت ظلته. وبينما يسير أمير الحج المحمل الشريف تبدأ المواكب فى التحرك والحاضرون فى هذه الساعة يقيدون فى دفاترهم ما شاهدوه ويرفعون أصواتهم بالدعاء والحمد والثناء وتبدأ المواكب فى الانسحاب، ويودع أمير الحج الباشا ويمتطى صهوة جواده ويولى وجهه شطر الحجاز.

عبور ما تحمله القافلة من أمتعة مع أمير الحج

يمضى آلاف الجمالة والعكامين وحاملى المشاعل بجمالهم، ثم تمضى الجمال التى تحمل قرب الماء، ثم تمر فرق الجبه جيه والعزب مع ستة مدافع ضخمة على المركبات وهم ثلاثمائة جندى، ثم يمر بعد ذلك جميع أمتعة وخيام أمير الحج.

ذكر سبب المحمل الشريف وذكر كبار المشايخ

وإذا سئل عن أصل إحضار المشايخ المحمل الشريف قلنا: إن الظاهر يبسر من سلاطين الشراكسة هو أول من سن قانونا بخروج المحمل الشريف إلى العادلية في موكب عظيم، وفي ذلك العهد كان سيدى الشيخ مرزوق كفاى قطبا عظيما من أقطاب التصوف، وكان آنئذ على قيد الحياة، وأخذ المحمل من يد الظاهر يبسر، وبينما كان يطوف به صاح قائلًا: «أنا لويس وأنا لويس وكيسى»، وذهب بالمحمل الشريف إلى الكعبة على التعلين ودخل المدينة المنورة وزار الروضة المطهرة ودخل الشبكة النبوية الشريفة وعندما خرج رأوا على رأسه عمامة جمال مزينة بالجواهر ثم عاد بالمحمل إلى مصر على التعلين كذلك وكان طوال حياته يمضى إلى مكة فى صحبة الدراويش وكان أول من ذهب بالمحمل الشريف وأصبح ذلك قانونًا مرعيًا.

أخذ مصطفى أفندى المحمل من يد الشيخ كفاى وأحضره إلى العادلية حتى وقت الغروب وهذا أقدم من القانون وفى يومنا هذا المحمل الشريف لمشايخ الصوفية. والسبب فى قيادة الصوفية للمحمل هو أنه ليس فيهم أحد من طائفة الجند، إنهم جميعًا من المتصوفة ولو كان فيهم أحد من طائفة الجند يبايعهم ويسير فى أثرهم، فقد قال النبى (صلى الله عليه وسلم): «الفقر فخرى». (بيت):

والله إنا لنفخر بفقرنا فى كبرياء . . . لذلك نسير فى صفة الفقراء

وفى مصر ١١١٧ طريقة صوفية ولكن أكبرها مائة وأربعون وهذا ما سبق ذكره فى حديثنا عن التكايا والدراويش ولا حاجة إلى مزيد من القول فى هذا الصدد. ولكن هؤلاء المائة والأربعون طريقة لهم ثلاثمائة وستون (٣٦٠) تكية. وأعظم هذه الطرق عددا هى الطريقة الأحمدية. فصوفية سيد أحمد البدوى لا يدخلون تحت حصر، فقد انتشرت هذه الطريقة فى مصر كما انتشر المذهب الشافعى فى مصر وكردستان، أما عبد القادر الجيلانى فقد انتشرت طريقته فى الهند وبغداد، أما طرق الخلوتية والمولوية والجلوتية والبكتاشية فانتشرت فى الأناضول. كما انتشرت طرق الواحدية والحيدرية والشمسية والبكتاشية والقلندرية فى إيران.

ويلى الطريقة الاحمدية فى كثرتهم بمصر أصحاب الطريقة البرهانية ولا يعلم عددهم إلا الله والصوفية إذا ما التقوا يعرف كل منهم طريقة الآخر .

وفى بداية موكب المحمل الشريف يمضى متصوفة الطريقة المطاوعة وهم فى نشوة وفى أيديهم الرماح والسيوف والتروس وهم ألفا متصوف فى موكبهم يقرعون الدفوف والطبول وينفخون فى الأبواق رافعين ما يزيد على خمسمائة علم وهم يهللون ويكبرون ويهجم بعضهم على بعضهم الآخر، وكأنهم فى حرب ويمزق بعضهم ثياب البعض ويمرون وهم يوحدون الله .

ثم يمضى بعدهم دراويش الواحدية والحمزوية والبيرامية والصعودية والعشاقية والمولوية والشمسية والولدية والعبائية والعلوية والويسية والساداتية والبكرية والادهمية والعباسية واليسوية والبرهانية والدسوقية، وهؤلاء آلاف من الدراويش يرفعون أعلامهم ويمضون طريقة طريقة وشيوخهم على جيادهم ويزينون جوانبهم الأربعة بالأعلام وهم يوحدون الله ويتهللون قارعين طبولهم ودفوفهم وتغلا أصواتهم جنات القاهرة وفى هذا الموكب عدد دراويش الدسوقية والبرهانية ليس بالكثير ولهم رايات بيضاء وسوداء، ويمضى بعدهم صوفية طريقة حسن الراعى والطريقة الرفاعية والسعدية والاحمدية وهم يربون على العشرين ألف درويش، وهم من مختلف الطرق الصوفية، ويعجز كتاب الدنيا حصر أوصافهم .

أما ألوية الاحمدية فحمر ومشايخهم يمضون فى وسطهم على جيادهم وأمامهم آلاف من الدراويش مشغلون بالابتهاال ويمضون وهم يقرعون آلاف الطبول والدفوف ويدقون الاجراس، ويتلوهم دراويش طريقة عبد القادر الجيلانى ومنهم عدة آلاف من المجاذيب يمضون حفاة الأقدام حاسرى الرؤوس .

ثم يأتى الدور على متصوفة طريقة مرزوق كفافى الكلشنية، والطريقة الإسماعيلية والشناوية والكميلية، والطريقة النقشبندية والروشنية، وطريقة نعمة الله، والطريقة النوربخشية والطريقة السعودية والليثية والفارضية والزينية والفنائية واليمنية والجنيدية والإدرسية والعبائية والشاهينية والجوشية والجهينة . وهؤلاء من أتباع الطرق الصوفية

كل منهم يوحد الله حسب مراسم طريقتهم القديمة ، وهم كذلك يقرعون الطبول والدفوف ويدقون الأجراس وينفخون فى الأبواق وهم فى حالة من النشوة والجذب .
بعدهم يمشى دراويش الطريقة السيمنية وهم مجاذيب يمشون حفاة عراة حاملين السيوف والطبر والعمد والترس وسيوفاً من خشب ، ولهم أعلام مختلفة ولكنى لم أسمع توحيدهم .

ويمضى بعدهم أصحاب الطريقة الفناية ومعظمهم ممزق القميص حافى القدم حاسر الرأس وبعضهم يلبس خرقة من صوف تزن الواحدة منها أربعين أوقية أو أكثر وبها جيوب متنوعة فماكولاتهم ومشروباتهم وأباريق قهوتهم وبنهم وتبغهم وكل ما يحتاجون إليه يحملونه فى هذه الجيوب وكأن الواحد منهم حجرة متقلة . ومعظمهم دراويش معدمون ينامون حيثما شاءوا ولا يملكون الدانق ، وفيهم من لهم ألف رقعة فى خرقتهم .

وبعضهم يمشون وعلى رؤوسهم آنية مائلة ويحملون الطبر والرمح المذهب والعصى المزينة ووضعوا على رؤوسهم عمامات الفناية ذات الذوائب كأنها حمل بعير وقد ازدانت بالخرز وعلى أوساطهم جلد منقوش عليه حزام مزين بأحجار ذات ألوان .

وقد أعجبت بنفخ صوفية العجم فى أبواقهم ومن الحق قولنا إن الاستمتاع إلى نافخى الأبواق من اليمن ينفخ الروح الأبدية فيمن يلقى السمع إليه .

ويمضى دراويش الفارضية والشاهينية والجوشية والجهينية واليسوية وهم ينشدون قصائد (١) والأشعار العربية .

وهذه الطرق سالفة الذكر خاصة بمصر ، ولم تكن لها الشهرة فى بلاد أخرى .

وبعد ذلك يمر دراويش الطريقة الخلوتية وهم يذكرون الله فى رعاية للتقاليد والمراسم الخلوتية ، وبعدهم دراويش الطريقة الخواجه كانية أى الطريقة النقشبندية التى ينتهى نسبها إلى سيدنا أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - ومعظم دراويشها من الأوزبك وهم ينطقون بالتوحيد فى تضرع وخشوع رافعين راياتهم ، ولكن ليس لهم طبول ولا دفوف

(١) بياض فى الأصل .

ولا أجراس ولا أبواق، وعندما يمرون لكل منهم أسلوبه في التوحيد تنشق مرائر الناس ويبلغ منهم العجب مبلغه وفي هذا اليوم يغمر النور طرقات مدينة القاهرة وأسواقها. ثم يأتي الدور على دراويش طريقة عمر الروشنى وطريقة الشيخ إبراهيم اليلشنى وهم كذلك بلا طبول ولا دفوف ولا يرفعون أصواتهم، وعليهم خرقتهم وقد لفوا على رؤوسهم الشيلان الكشميرية واللاهورية والبهارية ويمرون يذكرون الله ومعهم شيخهم جليبي أفندى على صهوة جواده رافعين الأعلام.

وعندما يقترب دراويش الطريقة البكتاشية من معسكر الإنكشارية الذى يتولى مهمة رعاية المحمل الشريف يمضى مائتان من الصوفية وعليهم خرقتهم البيضاء النظيفة وهم حفاة الأقدام حاسرو الرؤوس وعليهم اثنتا عشرة علامة رمزاً للأئمة الإثنى عشر والأئمة الراشدين وهم على وعمر وعثمان وأبو بكر العتيق وعليهم ندوب جراح عشقهم لشهداء كربلاء وعلى أذرعهم وصدورهم جراح لمقتل الحسين، وأجسامهم قوية وعيونهم مكتحلة، وصدورهم عارية ويمضون موكباً من الدراويش مرددين اسم الله، وبعدهم تمر أطفالهم يحملون العمود وعندما يمرون خلال السوق ينشدون أبياتاً وقصائد فى مدح النبى ﷺ والخلفاء الأربعة - رضوان الله عليهم - فينشدون:

أصبح قبلة أهل الصفا وجه محمد

أصبح محراب أرباب القلوب حاجب محمد

حلقة سلسلة الجنون فى رقبتي

من حب ذؤابة محمد ذات العبق

ويرددون ذلك الشعر فى عشق المصطفى ﷺ وهم مارون.

الموكب السادس عشر

وصول حملة المشاعل والعكامين

من القاهرة إلى بلبس في ثمانى ساعات

وادعاؤهم - فى ديوان مصر القاهرة -

أن المحمل الشريف لهم يحملونه مع علماء مصر

وبعد مرور هؤلاء يسمع صوت مرتفع صادر عن عدد عظيم من الجند من سمعة ركع على رُكْبَتَيْهِ وقد استولت عليه الدهشة فينبع من كبده النجيع وتنهمر الدموع من عينه مثل «جبحون»، ويرتفع صوت الطبول والدفوف والأبواق إلى عنان السماء، أما أصحاب هذا الصوت فيأتون رويداً رويداً بينهم عكامون وخيامون لخدمة سبعين ألف حاج ويقول جمع غفير بينهم (الله ينصر السلطان، إن شاء الله بالسلامة) ويمضون وهم يوحدون الله.

إن الإنسان لتأخذه الدهشة والعجب للصوت الحزين لهذه الطائفة. ويمرون حاملين المشاعل على أكتافهم وهم مبتهجون وبينهم اثني عشر من رؤساء حملة المشاعل لقادة الأوجاقات السبعة وأمير الحج ومحافظ القلعة ورؤساء السقائين وهم يحكمون مصر القاهرة وهم قادة عدة آلاف من حملة المشاعل ولهم السيطرة على جميع من يحملون المشاعل ويقولون إن سلسلتهم تنتهى إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وهم أصحاب امتيازات عظيمة وهؤلاء الرؤساء الإثنا عشر يخرجون من باب الناصر بالقاهرة، ويبلغون بلبس فى أربع وعشرين ساعة ويمرون بالحكمة ويطلبون الحجة الشرعية، ولا يتوقفون قط، ويغادر بلبس ألف رجل ويعودون فيجدوا الحجة قد كتبت، وبعد الوداع يمضون إلى القاهرة، وعندما يبلغونها تكون بعض جيادهم قد نَفَقَتْ.

وعندما يدخل حملة المشاعل هؤلاء القاهرة وقت العصر فالיום يوم للغبطة والفرحة فيدقون الدفوف قائلين: «الحمد لله بالسلامة» ويدخلون من باب الناصر فى صخب وضجيج حتى يصلوا إلى رئيس شطار قصر الباشا فيخلع الباشا عليه خلعة فاخرة ويمقتضى الفرمان الشريف يصبح رئيساً للمشعلجية، ويؤليه رئاسة المحمل الشريف ويصبح مبعوث رسول الله ﷺ، ويرقى الجميع إلى قادة وضباط.

وإذا ما أراد أحد أن يكون من حملة المشاعل طلب الإجازة نظير قرش واحد ولكن منهم من يموت من فرط ما يبذل من جهد في عمله، وكثير منهم لا يستطيع العودة إلى مصر ويقيمون في الطريق وهم يستوفون شهراً بتمامه، ثم يعودون ويلبسهم الباشا الخلع ويمضون إلى أقصى المدينة ولا يتوقفون قط ويطوفون بالقاهرة وبعد الغروب يعودون إلى بيوتهم، وفي تلك الليلة يقوم خدامهم بتدليك أجسامهم بالزيت فيشعرون بالراحة ثم ينهضون ويضعون فوق رؤوسهم طرة مزدانة بالجوهر ويرقصون، وهذا من عمل المهرجين، ويتأهبون لأن يكونوا رؤساء حملة المشاعل.

وفي يوم الموكب هذا يخلع عليهم الباشا خلعة أخرى ويمضي أمام المحمل الشريف كبار المشايخ وعلى وجوههم مظاهر البهجة والسرور.

ولحملة المشاعل هؤلاء مع الشيوخ مشاحنات كثيرة في عهد إبراهيم باشا؛ فقد قال المشايخ: منذ صدور قانون السلطان ييبرس ونحن نتولى مهمة إرسال المحمل الشريف.

فقال حاملو المشاعل: إذا ما حملتم المحمل الشريف إلى الكعبة على هذا النحو لاستحال عليكم ذلك؛ بارك الله لكم أما إذا ما بلغتم به باب الناصر فحينما تجتازونه سلمونا المحمل ولنعم كل منكم بالبقاء في القاهرة، أما نحن فسوف نذهب به إلى مكة والمدينة ونعود به. إن سلطان مصر جعل المحمل لأمر الحج وهو يختار من بيننا، وقد خلع علينا وكيل السلطان ونحن نتقدم موكب المحمل.

وفي آخر الأمر حكم بعض الرجال المتزهين عن الأغراض بأن يبقى جميع المشايخ والصوفية في القاهرة. ومنحوا حملة المشاعل الجواب الشافى، وقيد ذلك في السجلات، وأصبح ذلك حجة أكيدة في يد حملة المشاعل وتسلموا المحمل الشريف، ومضوا به وهم يرددون قولهم هاتفين «الله ينصر السلطان» وهذا ما تنشق له مرارة الإنسان تأثراً به.

وتقع خلفهم ضجة عالية ويسمع صوت مخيف كأنه صوت هاتف ربانى، وبينهم من يتسببون إلى مائة وأربعين طريقة قد رفعوا آلاف الأعلام والرايات ويجتمع جميع مشايخ الصوفية وجانبيهم خلفاؤهم ونقباءهم وجاويشيتهم، ويعبرون موحدين الله، ويحيطون المحمل الشريف بآلاف من أعلامهم وهم في جلبة وضجة كأنما الثورة قامت في القاهرة.

أما جمل المحمل فيكون فى كسوة مزركشة يمشى متبخترا كأنه طاووس روضة الجنان ويمسح آلاف من الناس المحمل الشريف بوجوههم ومن لا يستطيع الوصول إليه يلقى عليه عمامته أو منديله يلمس بها المحمل ثم يجذبونها مرة أخرى يمسحون بها وجوههم وأعينهم تبركا وتيمنا.

أوصاف المحمل الشريف

المحمل الشريف هو هودج النبى ﷺ وفيه خرقته الشريفة ومساكه وخفه وإبريق وضوئه وهذا الإبريق من الحصر المطلقى بالقار من داخله ومصحف وغير ذلك من الضروريات. وكانت تركبه السيدة عائشة زوج رسول الله ﷺ.

والآن هذا الهودج يشبه الهودج الذى كانت تركبه السيدة عائشة - رضى الله عنها - إلا أن سلاطين السلف وآل عثمان جعلوه مربعا عليه قبة من الحرير وذلك تبركا وتيمنا. وأعلى هذه القبة كرة ذهبية مثقوبة تحمل علما مذهبا. وفى أركانه الأربعة كرات ذهبية كذلك وهو بتمامه مكسو بالحرير عليه أزارار مذهبة ذات زخارف وقد كتب عليه عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ويمضى خلف المحمل الشريف جوقة موسيقية بطولها وأبواقها وأجراسها على الجمال، وإذا ما كان هناك من على القوم من يشاهد المحمل فى بعض الدكاكين مر كل المشايخ بالمحمل أمام الدكان الذى فيه هذا الشريف، وأبطأوا فى سيرهم حتى إذا ما واجه المشايخ هؤلاء الأشراف يتلو جميع المشايخ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ إلى قوله: تَسْلِيمًا... ﴿الاحزاب: ٥٦﴾، ويمضون ويكررون ذلك أمام دكان أى شريف يشاهدونه فيه؛ ولذلك فالمحمل الشريف منذ خروجه فى الصباح من (قره ميدان) وحتى وصوله إلى باب الناصر فى وقت العصر، ومن باب الناصر حتى العادلية وهم يوحدون الله فتصبح القاهرة نورا على نور من توحيدهم. وقبل الغروب يسلم جميع الدراويش المحمل لأمير الحج، ويودع جميع المشايخ أمير

الحج ويعود كل إلى منزله . وبأمر أمير الحج ينادى المنادون بأن المحمل سيقى فى العادلية ثلاثة أيام لتجهيز الأمتعة .

وبهذا يبلغ الحديث عن موكب أمير الحج متناه .

الموكب السادس عشر

موكب وصول الخزانة من مصر إلى مكة والمدينة

وخزائن وصرر شيوخ البدو على طريق الحج

منذ صدور قانون السلطان سليم وهذه الخزانة عبارة عن الصرر والعطايا والكسا والنفقات لمشايخ البدو من أهل التقوى على جانبى الطريق من القاهرة إلى مكة .

وأول هؤلاء المشايخ على الطريق من القاهرة على السويس مشايخ آل صفر وآل بنى عابد وآل بنى صالح فى جهات العقبة ، وآل بنى شاهين عند بلوغ مدينة «مدين» التى بناها شعيب - عليه السلام - ، وآل بنى زيد عند ينبعُ البرة .

كما أن لكثير من الأعراب صررا وفى كل عام يوزعها أمير الحج بنفسه على هؤلاء المشايخ شريطة أن يحضروا المأكولات والمشروبات والجمال القوية على طريق الحجاج المسلمين الذين يتزودون منها ويقدمون لهم المدد من منزل إلى منزل ويكونوا أدلاء لهم فى الطريق فى مقابل أن يمنحهم أمير الحج الصرر والمنح .

وعلى الرغم من أنهم يقصرون فى خدمة الحجاج فى هذه الأيام إلا أنهم يتسلمون رواتبهم بالتمام . وإذا ما أنقصوهم شيئاً قطعوا الماء عن طريق الحجاج وألقوا جثث الحيوانات فى آبارهم وسدودها بإلقاء الحجارة فيها وأغاروا عليهم من جميع النواحي وخرج عليهم اللصوص من كل صوب ناهيين وسالين أمتعة الحجاج فلا يمرون بسلام . ولهذا السبب يخصص لهؤلاء خزانة فى ديوان مصر لصررهم ومنحهم وكسوتهم ، ويسلمها كتخدا الباشا أمير الحج فى موكب عظيم من جند الباشا فى العادلية ويتسلم منه الحجة بذلك . وفى اليوم التالى :

الموكب السابع عشر

موكب خزانة الصرة ونفقات تعمير الحرمين الشريفين

وهذا كذلك قانون منذ عهد العباسيين والسلطان قايتباى، إلا أنه عندما فتح سليم خان مصر زاد من إحسانه لشريف مكة فى «صك الأمان» واعتبر صرر ومنح وكسوات ونفقات تعمير الحرمين خزانة مصرية. والواقع أن أمير الحج يقسم هذه الخزانة بنفسه على جميع الأشراف.

وإذا ما نقص منها دينار واحد - اللهم عافنا - رفع جميع الأشراف الأمر إلى السلطان قاتلين: «إن صدقة السلطان سليم وأجداده العظام لم تصلنا كاملة». وعندئذ تنهد الدنيا فوق رأس وزير مصر.

وبعض ظرفاء الأشراف يقولون: «وصلنا خراج الترك وهو حقنا على آل عثمان» ولا يقولون إنه صدقة السلطان، بل يقولون: «نحن نلتقى خراجهم». إن فيهم أسفه السفهاء.

جملة القول أن لهؤلاء صررا ومنحا مقيدة لهم فى ديوان مصر، ويسلم كتخدا الباشا أمير الحج هذه الخزانة فى العادلية فى موكب عظيم من رجال الباشا ويأخذ منه حجة بذلك ويسجلها فى سجلات شرع رسول الله (صلى الله عليه وسلم).

الموكب الثامن عشر

خزانة النفقات اليومية للجند المعينين مع أمير الحج

ووصولهم الأراضى المقدسة وعودتهم فى مائة يوم وعشرة أيام

ومصروفات هذه الرحلة

فى قانون مصر أن بين القاهرة ومكة المكرمة ستاً وثلاثين مرحلة ويقسم الحجيج عشرين يوماً فى مكة ويمضون إلى المدينة المنورة فى عشرة أيام ويمكنون بها يومين ويعودون إلى القاهرة فى ستة وثلاثين يوماً وجملة ذلك مائة يوم وأربعة أيام، مع أيام استراحتهم فالمدة مائة يوم وعشرة. أما من يشاء المجيء إلى السويس ويدخل القاهرة فى يومين يكون ذهابه إلى الأراضى المقدسة من مصر وعودته إليها فى مدة مائة يوم.

جملة القول يخصص مائة وعشرون ألف دينار من ذهب لتغطية النفقات اليومية في كل مرحلة والتي تصل اليومية منها إلى ألف دينار حتى لا يشغل أمير الحج على الحجيج بمشقة السفر وهي خزانة كبيرة أخرى.

يبد أنه في عهد إبراهيم باشا خفضت هذه الخزانة عشرة آلاف دينار ذهبي بحجة أنها نفقات باهظة غير معقولة، ولأنهم لم يراعوا قانون السلطان سليم، أقام حجاج مصر يومين في المدينة ولم يستطيعوا البقاء فيها اثني عشر يوماً مثل حجاج الشام وزاروا قبر المصطفى (صلى الله عليه وسلم) في عجالة وعادوا إلى مصر.

وثمة خزانة أخرى تجهز لأمير الحج لجنده ومأكولاتهم ومشروباتهم تحمل على ألف جمل وإذا ما منح ألف وخمسمائة أصبح الحجاج المعسرون في راحة. لأن طريق الكعبة هذا يسمى «طريق ذبيح الجمال» لأن أهل البصرة يركبونها في^(١) بمكة وهم يتوبون من الذهاب إلى مكة. ومن له القدرة والقوة مضى على صهوة جواده أو على النعلين.

جملة القول أن كتخدا الباشا يسلم أمير الحج^(٢) ألف دينار من ذهب كنفقات يومية للحجيج، وذلك بموكب عظيم من جند الباشا، ويطلب كتخدا الباشا أمير الحج بالحجة لإبرازها عند الضرورة، ثم يعود إلى القاهرة.

الموكب التاسع عشر

وهو موكب خزانة الأوقاف والتي تسلم لأمير الحج

يتحصل من أوقاف جميع السلاطين والوزراء والوكلاء وكبار الأعيان والخيرين من العوام والخواص عدة مئات الآلاف من الدنانير الذهبية وآلاف من قطع الثياب كالسراويل والقمصان، وهذا ما لا يعلم حصره إلا الله - سبحانه وتعالى - وهذه هي إحدى خزانتين ترسلان من القاهرة إلى مكة. إلا أن هذه الخزانة لا ترسل في موكب ويقتصر الأمر على أن يسلمها ناظر الأوقاف إلى أمير الحج ويتلقى منه الحجة بذلك.

وإذا ما كتبنا عن أحوال أمير الحج على حد علمنا لاقتضى ذلك منا أن نكتب مجلداً ضخماً.

الفصل التاسع عشر

مواكب الجند المكلفين بالذهاب إلى الأراضى المقدسة من الأوجاقات

ومظاهر عظمتهم

وفى هذا الموكب لا وجود لجند الخزانة أو لجند من أتباع الباشا. إنهم الجند المنوطون بالحج وعلى هذا يثبت الجند المنوطون بهذه المهمة من الأوجاقات السبعة ويمرون أمام الباشا.

وفى صباح اليوم الثالث لمواكب الخزانة - والتي سلف الحديث عن أوصافها - فإن هؤلاء الرجال السبعين المتمين إلى الأوجاقات السبعة يخصص لهم مائتا رجل بأبناعهم لأن طريق الكعبة طريق مبارك فيصبح مجموعهم ألف رجل فى أتم زينة وسلاح . وهؤلاء الجند مكلفون بالذهاب بالحجيج والعودة بهم. ويحكم هؤلاء وهم ألف من صفوة الجند سبعة قادة من الأوجاقات السبعة وسبعة من لهم رتبة الكتخدا وسبعة من الجاوشية وسبعة من حاملى الرايات وسبعة من حاملى الطبر وسبعة من رؤساء خدم قصر الباشا وسبعة من الجورباجية. وهؤلاء يقيمون سنة فى مكة للمحافظة على الأمن فيها.

يمر هؤلاء الألف وهم من صفوة الجند كل منهم مع فرقته وأغواته وجورباجيته على مرأى من الباشا وهم مدججون بالسلاح ويتدفقون كاللوج من أحد أبواب القصر ويخرجون من باب آخر زرافات ويقرّع كل أغا منهم طبله ولكن ليست لهم جوقة موسيقية عسكرية خاصة بهم ويهرع جميع القادة والجورباجية والجاوشية ومن لهم رتبة الكتخدا إلى قاعة ديوان الغورى حيث يشرفون بتلقى الخلع السلطانية ويوزع عليهم سبعون خلعة، وبعد الدعاء والثناء يلقنهم الباشا أوامره ويودعونه داعين له، ثم يلتحقون ثانية بالمواكب وخارج باب الوزير يصطف مئات الآلاف من الناس لتشيع الجند الذاهبين إلى الأراضى المقدسة ويصبح موكبًا خاصًا يجلب عن الوصف.

وفى هذا الموكب يأتى اثنا عشر جاويشًا من جاوشية وزير مصر بدروعهم الفضية لتجهيز هذا الموكب وهم كذلك من صفوة الجند. وهذا الموكب كغيره من المواكب لا يمضى فيه الاثرياء من الأعيان إلا باختيارهم.

ولكن رعاية للحجاج يركب السادة والفقراء جميعاً ويكون موكباً مزيناً يجلب عن الوصف. وفي هذا الموكب يعبر الجنود أفواجاً أفواجاً بالخيول العربية الأصلية والإبل والنوق المزينة بالقطع التي لها ألوان طاووسية.

ويعرف من هذا أن هؤلاء هم جنود الحج. ويكون أمير الحج قد ذهب مقدماً ومعه ستة قطع من المدافع، وذلك لعدم وجود مدافع في هذا الموكب، وتغر هذه الطائفة من الجنود من مصر وهم يطلقون الأعيرة النارية ويهللون ويكبرون ابتهاجاً وسروراً ومن شدة ازدحام الجند لا يستطيع أى رجل أن يخطو خطوة في طريق موكب الحج. ويصل هؤلاء الجند على هذا النسق إلى العادلية ويضعون خزينة الصرة ويضربون خيامهم، ويودعون الباقين في مصر ثم يبقى منهم من يبقى ويسير من يسير، وحينئذ يقوم أمير الحج بإرسال الصرة إلى بركة (الحج) ثم يرتحل هو في اليوم التالي، حيث يصل هو وجملة حجاج المسلمين إلى البركة بعد أربع ساعات ويمكثون هناك.

الفصل العشرون

في بيان الموكب البهيج لجند أزلم وخزائنهم ومصاريفهم

عندما ينتجه الحجاج المسلمون من مكة إلى مصر، يتم تعيين سبع فرق من جنود المسلمين لإمداد حجاج مصر في تلك الناحية، وتعد قلعة أزلم بمثابة نصف الطريق بين مكة المكرمة ومصر (القاهرة). وهو عبارة عن ثمانية عشر منزلاً، ويذهب جملة جنودها إلى أزلم، والقلعة من خيرات السلطان الظاهر بيبرس رحمه الله، لها خيرات عظيمة يعجز اللسان عن وصفها. ويكلف الباشا أحد الأمراء الشراكسة في مصر بالسفر إلى أزلم ويخلع عليه خلعة ويختار ثلاثمائة من الجنود المنتخبين من كل فرقة من فرق مصر السبع، وليس لهؤلاء الجند درجات للترقي، حيث إنهم يُسَخَّرُونَ لاداء هذه الرحلة. ويتم صرف أربعين كيساً من المال السلطاني لطعامهم وشرابهم وحمايتهم وخيامهم ومعسكرهم. ويُعطى للمائتي ألف جندي ألف رأس من الإبل لنقل متاعهم وأغراضهم الثقيلة. ويقوم آغا الحسبة بتجهيز الإبل بالمؤنة اللازمة وتحسب كافة مصاريفها على نفقته. ومؤنتهم هي البقسماط والجبن الحلوم والعسل والزيت والقهوة والأرز والفول والشعير وغيرها من المؤن.

ويعين معهم ستة مدافع سلطانية، وفرقة من المدفعية ورئيس فرقة الذخيرة وفرقة من سائقى عربات المدافع، وبذلك يكون جملة المكلفين بتلك الرحلة خمسة آلاف رجل مسلح مع خدامهم، وخمسة آلاف تاجر وهؤلاء يذهبون مسلحين لأنه يوجد مضيق ضيق ومخيف غاية فى الخطورة يُطلقون عليه مضيق العقبة.

وذات مرة قام العربان بحصار جند أزلم هناك وقُتل منهم بأسنة الرماح عدة مئات ويذهب هؤلاء الجنود فى تمام التسليح والانضباط حيث يجلبون الأموال الزائدة، وفى حالة عدم وصول هؤلاء الجند إلى الحجاج. فمن المؤكد أن الحجاج لن يصلوا إلى مصر بأمن وسلام. هذا بالإضافة إلى أن التجار يجلبون ألفين أو ثلاثة آلاف حمل بعير من الفول والشعير والبقسماط والزيت والعسل والأرز والدقيق، بل حتى لبن العصفور يأتون به معهم، كما يجلبون معهم مائة جمل محمل بمياه النيل كهدايا.

ويرسل كل شخص إلى أصدقائه عدة آلاف علبة من سكر النبات والخلوياوات والزلاية والزبادى. لذلك يعتبر لقاء الحجاج بجنود «أزلم» كعودة الروح إلى الجسد الهامد نظراً لأن جملتهم يكونوا منهكين وضعفاء، وفيهم المرضى والعجزة من عناء السفر، وإبلهم وخدمهم منهكين أيضاً.

وعندما يقوم الأشخاص بإعلام الباشا الوالى بفائدة الجند فى الرحلة للحجاج. يتم التنبيه على كافة التجار والجمالين وكان يُهتم غاية الاهتمام بزيادة عدد الجند.

وعندما صدر فرمان بخروج هؤلاء الجنود المكلفين بالخروج للرحلة، خرج الموكب فى اليوم الخامس والعشرين من شهر ذى الحجة إلى القصر وهو موكب يتكون من خمسة آلاف جندى من الجند المتفقا. ويخرجون فى حضرة الباشا الوالى فرقة فرقة وهم يعزفون ويتهللون، ثم يحضر سبعون سرداراً وكتخدا وجملة أصحاب المناصب العليا فى حضرة الباشا الوالى، الذى ينعم عليهم بالخلع السلطانية ويوصيهم باحترام الحجاج المسلمين، ثم يخرج الموكب من القصر على دقات الطبول، ثم تجتمع كل فرقة مع كافة الجنود ويُطلق عليهم حينئذ «موكب الفرح».

ويخرج الموكب العظيم جماعات جماعات من مصر بين مئات الألوف من الرجال يشاهدونهم ويدعون لهم بالخير قائلين: «ينصركم الله يا عساكر الفرح» وعندما يصل الموكب إلى الحجاج يطلقون عليه «موكب الفرح» لأنه به أفراح وتُعزف الموسيقى أثناء مشاهدة الأهالي له، وتُطلق البنادق، وتنتقل الادعية المحمدية للموكب، ثم يخرج الموكب من باب النصر، ويمكث في العادلية ثلاثة أيام، ويأتي آلاف التجار بأمتعة كثيرة ويظلون هناك، وفي اليوم الثالث في وقت الشفق تُطلق قذائف المدفعية ويُنفخ في البوق، وتُعزف الموسيقى، ويصل الموكب في الساعة الرابعة إلى منزل البركة. ويمكن أن هناك ثلاثة أيام، وبعظمة الله يأتي سبعة آلاف أو ثمانية آلاف حمل بعير محملة بالماكولات والمشروبات من الشرقية والقلوبية والبحيرة ودمياط ورشيد، وحينئذ يقوم «حاكم أزم» بإطلاق قذائف المدفعية، ثم يقطعون المنازل ويطوون المراحل حتى يصلوا في اليوم العاشر إلى قلعة العقبة ويمكثون هناك لمدة يوم، ويقومون بتحميل كافة الإبل بالمياه، وعندما يدخلون إلى صحراء قلعة «أزم» في اليوم الثامن تنطلق قذائف المدافع وتطلق البنادق المتتالية، ويقوم التجار والجنود بنصب خيامهم في مكان يبعد ساعة عن القلعة ويقوم كل شخص بإخراج ما معه من متاع وينشره على جانبي طريق الحجاج.

وفي صباح اليوم التالي يخرج أمير أزم مع ثلاثة آلاف جندي وأغا أزم مع ثلاثمائة جندي لاستقبال الحجاج، وفي وقت المساء يفد حجاج البحر أيضاً ويسلمون على أمير الحج. وبمجرد وصول الموكب العظيم إلى قلعة أزم تنطلق طلقات المدافع، وبعد ذلك يمكث كافة الحجاج في صحراء أزم يجددون نشاطهم، حيث يمكثون هناك ثلاثة أيام ويتركون إبلهم المنهكة المتعبة ويؤجرون رواحل جديدة بدلا منها.

ويشتري كل شخص كافة الامتعة وقطعان الإبل الصغيرة، ولكن يتعرض الحجاج والجنود المنهكين المتعبين لقطاع الطرق واللصوص والنشالين الماهرين في السرقة مما يجعل هؤلاء الحجاج هؤلاء الجنود يتعرضون لمشقة في هذا الطريق. حيث يقوم هؤلاء

للصوص بنهب أموالهم والإغارة عليهم ليلاً ونهاراً مثلما قام هؤلاء الملاعين بقتل جان بولاد أوغلو وقره يازيچى وسعيد عرب، فيكون هؤلاء اللصوص بمثابة من ألقى الذئب الجائع إلى القطيع، ولم يقم ابن رشيد بقتل الحجاج فى طريق الشام فى عهد قره على باشا، ويحتاج الحجاج الغافلون فى أزلهم إلى النقود الحمراء، أما العقلاء منهم فهم على بصيرة، ولما كانوا أصحاب حوائج، لذا يجب أن يتنبه الحجاج غاية الانتباه فى أزلهم.

وفى السنة الماضية قام هؤلاء اللصوص بسرقة سرج أمير الحج من على جواده، ووجد خدام الأمير السرج فى منزل شخص يسمى نواطر واكتشفوا أنه ليس سرج الأمير المسروق بل يشبهه تماماً فقاموا بأخذه ووضعوه مكان سرج الأمير من خوفهم، وتستروا على الموضوع، ويوجد لصوص بهذه المهارة كثيرين جداً، لذا يلزم الاحتياط جداً، ويذهب رجال من الفرقة السابعة مع الهجانة للإخبار ببشارة الحجاج القادمين إلى مصر ويخبرون بمن مات ومن هو على قيد الحياة، وبعد ثلاثة أيام من الإقامة فى أزلهم يقطع الحجاج المنازل فى طريقهم إلى مصر.

الفصل الواحد والعشرون

فى بيان موكب العقبة ومصاريف الجنود والخزينة

يتم تعيين ألف جندى من الفرقة السابقة، ويُعين أيضاً أحد الضباط الكشافين والمتفرقة المعزولين مع ثلاثمائة جندى كقائد عام على العقبة، ويكون عددهم جميعاً ألفى جندى ولكن ليس لهم درجات ترقى، ويؤدى القائد العام خدمته فى مقابل منحه عند عودته درجة كاشف أو أغا وذلك عند وصول الحجاج بسلام، ويعطى للحجاج ألف بعير للإمداد وألف بعير أخرى للمؤن لزوم الطعام والشراب، ويُعطى أيضاً ستة مدافع وغرفة من الذخيرة والمدفعية وغرفة من سائقى عربات المدافع، وكافة المؤن اللازمة. كما يُعطى لهم عشرة قناطير من البارود الأسود، وأربعين كيساً من النقود المصرية، ويخرج جنود العقبة من مصر فى نفس الوقت الذى يصل فيه الحجاج المسلمون إلى قلعة أزلهم، ويتقابل الحجاج معهم فى قلعة العقبة.

وبعد ذلك أى فى اليوم العشرين من شهر محرم الحرام يدخل ألفا جندي بلا سلاح من إحدى أبواب قصر الباشا الوالى فى القلعة، وعند سير الموكب من أمام الباشا الوالى يقوم سبعون رجلاً من الأغوات والأمناء والجاوشية بارتداء الخلع الفاخرة، ويحصلون على الدعاء من الوالى ويخرج الموكب من القلعة ويخرج مع الموكب من جاءوا للمشاهدة من المصريين ويخرجون جميعاً من باب مصر، ويمكثون ثلاثة أيام فى العادلية، ويأتى إلى هناك أيضاً من البلدان المجاورة خمسة أو ستة آلاف ناقة وبغل وحمار، وستة آلاف أو سبعة آلاف تاجر بلا سلاح يجلبون معهم الطعام والشراب، وعلى الفور يرسل أعيان مصر مع مماليكهم ثلاثة آلاف حمل بعير من مياه النيل، وذلك لعدم وجود مياه فى صحراء العقبة بدءاً من العقبة وحتى منازل ثنيات عجرود، وتكون جملة أحمال التجار من غلال الشعير والفول والسكر والعسل والزيت، كما يجلبون إبلًا زائدة عن العدد ليست محملة بشيء، ومهما كان فى مصر من حمالين وإبل فإنها تخرج كلها عن بكرة أبيها فى تلك الرحلة، ثم بعد ذلك يقوم أمير العقبة بإطلاق المدافع من العادلية، والحكمة من الذهاب إلى العقبة أنه فى شهر المحرم عام ١٠٨٩هـ، عندما كان عبد الرحمن باشا والياً على مصر، وصل أمير العقبة بكم هائل من الخزائن إلى مضيق العقبة، فجاء من ناحية الشام حثالة مقاتلى بنى زهد وبنى رشيد وآل عمور، وتحاربوا مع جند القلعة وكانت حرباً عظيمة، وأطلقت المدفعية قذائف متتالية وقتل من العربان العرايا مائة شخص واحتل العربان مضيق العقبة ومكثوا فيه فما كان من أمير العقبة إلا أن تصرف بحكمة، حيث عاد من العقبة ومكث فى واد منبت مياهه وفيرة وأقام المخافر على الطرق البرية للجهات الأربعة للمكان وبعد ثلاث أيام لباليها وصل الخبر إلى حضرة عبد الرحمن باشا بأنه قد حل العقاب الأليم براء وسنا فى العقبة، فقام بجمع الديوان السلطانى، وتخير أعضاء الديوان من حكمة الخالق فى هذا، وقال الوزير صاحب الدولة إن حال الحجاج دائماً ما سيكون مضطرباً فى العقبة إذا لم يأت لهم أمير العقبة بمدد.

وعلى الفور استدعى الوالى عامل الخزينة وأمره بأن يصرف لهم أربعين كيس من النقود المصرية على سبيل المحبة، وأخبر بذلك جاويشية الموكب وسائر العربان والفرقة السابعة، وعلى الفور يقام اللواء الأبيض المسمى فى فناء قصر الباشا الوالى، وفى اليوم التالى فى وقت العصر يمر الموكب من أمام قصر الباشا وهو موكب مكمل مزين يتكون من خمسمائة جندي متخفين، فيقوم الباشا الوالى بإلباسهم الخلع الفاخرة لابتهاجه وصفائه من الموكب ويُعلّق على رؤوسهم الطرة السلطانية، ويعبر الموكب من مصر ثم يمشون فى العادلية حتى الصباح، ثم يخرج إلى العادلية ألف ومائة أو مائتين شاب ممن يقولون نحن لها، ويصل بعدهم ثلاثة مدافع شاهانية وتضرب طلقات المدافع إعلاناً بوصولهم، ثم يصل ألفا رجل من الجنود المهاجمين إلى العقبة فى خلال أربعة أيام وليال، ويأتى جملة من مكان ما، ثم ينتشر الجنود المشاة على الجبال والأحجار، وعندما يرى العربان الأمر على هذا النحو يلوذون بالفرار بناء على المقولة التى تقول «فراراً على توالى الكثرة» لا سيما بعد وصول الجنود البحرية أيضاً، وبذلك يستطيع جملة جند المسلمين أن يتخطوا العقبة ويتقابلوا مع الحجاج المسلمين فى الناحية الأخرى، غير أنهم يكونون فى غاية التعب.

وعندما يرى الحجاج الجنود فى العقبة فإن هذا يكون بمثابة تجديد الروح لهم، ثم بعد ذلك تُرسل البشارة مع مبشرى الجبل إلى الباشا الوالى بسلامة وصول الحجاج، حيث يصل حاملوا البشرى إلى الباشا فى اليوم الرابع من خروجهم، وعندما يعلم الوالى بهذا يتهيج ويمسح حاملوا البشرى كل واحد منهم خمس أقجعات ويهبهم الخلعة والصرّة.

ثم يقوم الحجاج المسلمون بتبديل الإبل التى بقيت فى العقبة، وبذلك يغتنمون أقوات الدواب والأموال المصرية، ويتجه الحجاج بعد ذلك إلى مصر فى تأن وتؤدة وبينما هم فى الطريق يطلب أعضاء الديوان صدور فرمان الذى يبيح لهم الخروج لاستقبال موكب الحج، وفى تلك الأوقات تبقى ستة أكياس من الأموال المصروفة إلى الباشا.

فصل فى المواكب المتفرقة

يخرج كل أغا من أغوات الفرق السبع بخيامه ومؤنته فى موكب يدقون الطبول، وينصبون الخيام فى الأودية والأراضى الفضاء الواقعة من باب النصر وحتى البركة ويمكثون هناك فى بادئ الأمر يمكثون فى قصر شاد بك لتحصيل الجمرك، ثم يمكث بعدهم كتخدا (أمين) الجنود العزب فى الطوبخانه ويمكث أغا التوفكجية (حاملى البنادق) فى سبيل علام ويمكث أغا المتطوعين فى مصطبة أبو جاموس ويمكث أغا صانعى البنادق فى سبيل محمد أغا ويمكث أغا الشركس فى مصطبة (١)

ويمكث رئيس المتفرقة وكتخدا الوالى وكتخدا الجاوشية ورئيس الديوان فى البركة ينتظرون جميعاً قدوم موكب الحجاج، إلا أن لواء الإنكشارية يمكث فى الأرض الصحراء البعيدة عن البركة فى خمسمائة أو ستمائة خيمة.

* * *

(١) بياض فى الأصل.

الفصل الثانى والعشرون

فى بيان قدوم موكب أمير الحج من الكعبة

إلى منزل البركة وقضائه تلك الليلة هناك

فى الخامس والسادس والسابع من شهر صفر تبدأ مسيرة طليعة الحجاج ولما يصل أمير الحج بالمحمل إلى موضع يسمى دار الحمراء، ينقل الخبر إلى كتبخدا الباشا فى بركة الحج.

فصل فى بيان محلة الأكواب الشهيرة عظيمة الخيرات

يكث أغا تحصيل الحجاج فى مكان يسمى الأكواب بسبعين أو ثمانين خيمة من الجنود المتطوعة، وذلك قبل ورود موكب الحج بثلاثة أيام، وبالرغم من أن مصر يوجد بها ألف سقاء ماء ممن يشتغلون بالسقى على الإبل والحمر، إلا أنهم جميعاً يأتون مع أغا تحصيل الحجاج، ويقومون بنقل هؤلاء الحجاج الضعفاء المنهكين من عناء السفر على تلك الإبل والجياد من البركة ويقف جند الوالى من الستار والشباب المتطوع وجنود المتفرقة على طريق الحجاج، ويقدمون ماء النيل لهؤلاء الحجاج العطشى، ويجتمع الحجاج الجوعى على مائة حمل حمل من الخبز وألف حمل حمل من الالبسة وألف قميص ومائة شاه، ويدفعون عطشهم بشربهم ماء الرحمة. ويسقدمون الالبسة لكافة الحجاج العرايا، ويدعون لهم بالخير.

ويوجد لأعيان مصر ألف حمل محملة بالمياه، وإذا حدث ولم تُرسل تلك المياه فى هذا اليوم مع أغا تحصيل الحجاج، فإن معظم الحجاج سيصاب بمرض الحكمة، وتلك الايام تعتبر فى حكم مسئولية ومهمة كاشف قلوب، حيث أنه مكلف بحفظ وحراسة الحجاج لمدة ثلاثة أيام بلياليها فى دار الحمراء على طريق الحج، حيث تقوم فرقان من العربان كل فرقة قوامها مائتى جندى بحماية الحجاج من أولهم لآخرهم، أما بقية الحجاج الآخرين الضعفاء الذين بقوا فى الطريق فقد يتعرضون لنهب أشقياء العربان. هذا بالإضافة إلى أن أى ضرر يصيب الحجاج فى تلك الايام يكون مسئولية كاشف قلوب، وذلك لأن تلك النواحي تعد حدود المنطقة.

ويقوم الكاشف بانتظار النوبة كل ليلة في خيمة أغا تحصيل الخراج، وعلى هذا يطعم العامة من مال الباشا لمدة ثلاثة أيام، ويعطى لهم الثياب والسراويل والقمصان، ويتم حفظ الأماكن التي يستقر بها كل الأمراء وكل أغوات الأوجاقات ويسير الحجاج على ذلك في موكب بهيج، والبعض يدعو الحجاج إلى خيامهم ويضيفونهم، وينشر كل أغا سبعة أو ثمانية أكواب من المياه أمام خيمته ويقومون كل ليلة بإضاءة ألف خيمة بمائة ألف قنديل، ويصل صدى طلقات المدافع والبنادق إلى صحراء سبيل العلام، ويقوم أمير العبيد الموجود في سبيل العلام بصرف مصاريف كثيرة، حيث يقوم بحراسة الحجاج لمدة ثلاث ليال، ويُعد استقبال الحجاج ثلاثة أيام ولياليها بمثابة الثواب، لما فيه من العيش والعشرة والمتعة والصفاء، وهذا هو ما يتردد على ألسنة الناس.

كما أنه عالم مختلف ويقول أهل مصر عن هذا الاستقبال العربي «جند حجاج الصفا» وفي المكان الذي سيصل فيه أمير الحج في البركة، ينتظر أمين الديوان بعد استئذانه من الباشا الوالى، ثم يقوم أمين الديوان باستدعاء أغا العزب في المطبخ السلطاني ليتناول ضيافته، ثم يستدعى بعده أغا السباهية أى (الفرسان) ثم أغا المتطوعين ثم أغا التفوكجية، ويأكل الجميع من هذا الطعام، ويحصل كل واحد منهم على جواد عربى أصيل، ويصلون إلى خيامهم في البركة، وعند منتصف الليل يمتطى جميعهم الجياد ويسيرون مع ألف من أعيان مصر بألف شعلة، ويمتطى أمين الوالى وأمين الديوان ورئيس المتفرقة وأمين الجاوشية وسائر الأغوات والباشوات الجياد وتصبح ظلمة الليل ضياء منيراً بفضل مشاعلهم، وعلى هذا الحال يسير الباشاوات حتى ظهور راية أمير الحج وظهور المحمل الشريف عند مصطبة الأغا وتدنق الطبول لقدهم ويحياهم ويتقابل كافة الأعيان مع الأشراف فيتبادلون التهتة ويتعانقون ويقبل بعضهم بعضاً ويرفع الأذان المحمدي، وبعد أداء صلاة الفجر يتناولون القهوة ثم يمتطون الجياد.

ويتقابلون مع جملة المشتاقين الذين خرجوا لاستقبالهم، ويظلون هكذا حتى يصلوا إلى البركة في موكب عظيم، ويتناولون مائدة عظيمة، ويقوم أمين الباشا الوالى بإهداء أمير الحج جواداً مزيناً مكملأً ويمتطى أمير الحج الفرس ويذهب إلى خيمته، ويأخذ على أغا كتخدا عبد الرحمن باشا بجواده المزين إلى مصطبة الأغا حيث يمتطى أمير الحج هذا الجواد وعندما يصل إلى البركة ينزل في خيمته، ولا يقوم كتخدا الباشا الوالى بضيافته،

بل يضيّفه «نيشلى» على فى ضيافة عظيمة، ويذهبون بعد ذلك إلى مصر مع موكب الباشا الوالى، ويظل الباشا أمير الحج فى البركة تلك الليلة، وتنطلق المدافع والبنادق العظيمة ابتهاجاً وسروراً، حتى حجاج القصبات الأخرى يظلمون فى البركة فى تلك الليلة.

وفى اليوم الخامس والسادس والسابع من شهر صفر يدخل حجاج مصر وسائر حجاج الديار الأخرى إلى مصر. وبذلك تكون جملة رحلاتهم مائة وعشرة يوم، ويقوم أحد أمناء إبراهيم باشا بالذهاب إلى مكة فى أربعة عشر يوم ويلحق بالحجاج وهم على جبل عرفات ويحج معهم، ويأخذ الرسائل من شريف مكة ويقوم بالسمى والطواف فى مكة، وفى اليوم التالى أى فى اليوم الخامس عشر من رحلته يعزم الخروج إلى مصر ويصلها بعد أربعة عشر يوماً وبذلك يكون الإياب والذهاب مع الحج فى مقدار شهر. وهذا يعنى أن الحج من مصر قريب وآمن، ويقضى أمير الحج ليلته فى البركة، وتنصب الموائد العظيمة للأعيان والأغوات وأغوات البلوك وكتخذوا الجاويشية الذين خرجوا لاستقبال الحجاج، وتنطلق فى تلك الليلة طلقات المدافع والبنادق ابتهاجاً وفرحاً، وفى صباح اليوم التالى يأخذ أمير الحج المحمل الشريف ويتقدمه أعيان مصر الخارجون لاستقباله ويمرون على خيام أغوات الفرقة السابقة المقامة على الطريق، ويسلم الحجاج على كافة الأغوات ويعبرون وعندما يكونون بالقرب من باب النصر يظهر موكب عبد الرحمن باشا، فيتركون الموكب ويمتنطون الجياد، وعندما يصلون إلى المحمل الشريف يتزلون من على الجياد، ويسيرون مسافة أربعين أو خمسين خطوة حتى يصلوا إليه ويقولون الشفاعة يا رسول الله، وتُعزف الموسيقى العسكرية ثم يقوم عبد الرحمن باشا بإهداء الباشا أمير الحج الخلعة الفاخرة من فرو السمور. فيقوم أمير الحج بتقبيل الأرض، ويستقر الباشا فى العادلية، ويصلون جميعاً إلى باب النصر، ويقضى أمير الحج ليلته ضيقاً فى جامع جان بولاد، ويسهرون الليل حتى الصباح، وهم يتلون المولد الشريف، وهذا المولد الشريف الذى يتلونه هو أول مولد يُتلى فى مصر، ثم مولد الشيخ البكرى والشيخ الكلشنى ومولد السادات، وستحرر تلك الموالد فى موضعها،

ولكن فى مولد جان بولاد هذا يقوم أمير الحج بإعطاء ألف قرش للعلماء فى نظير تلاوتهم للمولد، وفى صباح اليوم التالى وهو اليوم السابع من شهر صفر تمتلئ أسواق مصر بالأهالى، حيث ينتظرون قدوم أمير الحج من الحج الشريف.

(تابع) الفصل الثانى والعشرون

فى بيان قدوم أمير الحج من الحج

هذا الموكب أحد مواكب العيدين فى مصر، ويُذكر هذا الموكب عندما تذهب النساء لمشاهدة الموكب، وتُجر الحوانيت الواقعة على الطريق العام الذى سيسير فيه الموكب قبلها بشهر، حيث يقوم كافة الأهالى حتى الفقراء منهم للخروج لاستقبال الحجاج نظراً لأن العلماء والمشايع والصلحاء والأئمة والخطباء الذين يُعدون بمئات الآلاف فى أقاليم مصر السبعة يعتبرون الخروج لاستقبال الحجاج فرضاً، من هنا يخرج كل الأهالى ويتشرون فى الحوانيت والأسواق والطرق، ويخرج المشايخ والفقراء براياتهم وسناجقهم لاستقبال الحجاج، ولا يخرج جنود الإنكشارية وجنود العزب فى هذا الموكب، وير فى بداية هذا الموكب أمير الحج ثم لواء التفكجية وبعدهم المتطوعة ثم الشراكسة ثم الجاوشية. ثم جنود المتفرقة. ثم يمر بعدهم أغوات خمس فرق عسكرية على دقات الطبول، ثم يمر بعدهم أمير الحج بالجنود الذين احترقت وجوههم وعيونهم من شدة الحر، ثم يمر بعدهم مائتين وخمسين جندياً إنكشارياً، يعلقون السيوف على صدورهم والدلايات على رؤوسهم، ومعهم الجند المعروفون بالجند الملازمين لجنود الإنكشارية، ثم يمر من بعدهم كافة أمراء مصر من الشراكسة على الموسيقى العسكرية، ويكون الأغوات حيتض بلا سلاح ومزينين، ثم يأتى من بعدهم إحتياطيو الباشا أمير الحج. وبعدهم طائفة الشطار ويكون المحمل الشريف أمام أمير الحج. ويدخل أمير الحج من باب النصر بالموكب العظيم على دقات الطبول وصيحات التهليل، ويعبرون فى حضور كافة أهل مصر. ويقوم أمير الحج بسحب الجواد فى الميدان فى حضور جملة الأمراء والكرام وأعيان الديوان ذوى الاحترام، وينزل الباشا الوالى بالجنود من القصر، وعندما يصل الباشا إلى باب القصر يقوم أمير الحج بتقبيل الأرض، ثم يسلم المحمل إلى يد الباشا الوالى، حيث يقوم الباشا الوالى بالدوران والسير ثلاث مرات بالمحمل ويدون فى

السجل الرسمى أن المحمل الشريف تم تسليمه إلى الباشا الوالى ثم يقوم الوالى بتسليم المحمل إلى الكتخدا، ويقوم الكتخدا مع جنود الوالى بنقل المحمل فى موكب مزين من باب العزب إلى باب الوزير.

وتبرك ناقة المحمل أمام باب القلعة ويتم تسليمه إلى ناظر الكسوة حيث يقوم النساجون بحفظه حتى السنة التالية، أما جمل المحمل فيُنقل إلى بلاد الريف على يد الأميراخور^(١) ليرعى هناك مع بقية الإبل الأميرية حتى السنة المقبلة. ثم يذهب كتخدا الباشا بعد ذلك إلى خيمة الوالى فى قره ميدان ويقوم الأهالى بالدعاء بالخير للأمير الحج، ويُعطى أمير الحج خلعتين فاخرتين فيقوم أمير الحج بتقبيلهم ويجلس فى المركز، ثم يُمنح قادة الفرقة السابقة والجاوشية، والحاصل أنه تُقدّم الخلع إلى سبعين آغا من أغوات الأوجاقات ويذهبون كلهم إلى منازلهم ما عدا أمير الحج، ثم يقوم أمير الحج بإطلاع الباشا الوالى على رسائل أهالى مكة والمدينة واليمن وشيخ الحرم المدنى وشيخ الحرم المكى وإشراف مكة، ويتم قراءة تلك الرسائل فى ديوان الأوطاق فى قره ميدان، ثم يقوم الدفردار والروزنامجى بكتابتها فى السجل الرسمى.

ويصدر الفرمان بأن يقوم أمير الحج بعرض الحساب على الوالى الباشا ويكون ذلك فى حضور جملة أرباب الديوان، ويوفى أمير الحج حقه فلماذا كان له شئ يأخذه، وإذا كان عليه شئ يدفعه، وبعدها يستأذن أمير الحج فى الذهاب إلى بيته، ويذهب معه لتوصيله جملة أغوات الباشا الوالى حيث يكون كتخدا البوابين قائداً عليهم، فيكون موكباً عظيماً مع أمير الحج ويعطى أمير الحج للجنود الذين أتوا معه إلى بيته كيساً من النقود ويعطى الجنود الملازمين لهم مائة قرش، وبذلك يخلو باله ويستريح، وفى صباح اليوم التالى يقوم أمير الحج كما هو معهود فى قانون التشريفات بتقديم الهدايا للكتخدا وإلى أصحاب المراتب الإثنى عشر وهى عبارة عن عشرة أكياس من الهدايا الهندية القيمة، وعشرين شمعة من العنبر وصرة مسك وعنبر وعشرين أوقية من العود التوتى، والبنزهر وعشرة قرون زبادى حلبى وعشرة طواشى حبشية وعشرة حسان حجازية وكيس

(١) الأميراخور: أمير الإصطبل.

من الهدايا، وسنحرر ذلك في فصل التشريفات بمشيئة الله، وتأتى هدايا أخرى من أغوات البلوك السابع، والحاصل أن الهدايا التى تأتى من الحجاج تصل فى جملتها إلى عشرين ألف قرش، وتأتى هدايا أخرى تقدر بعشرة آلاف قرش من أشراف وأعيان مكة والمدينة ومن أمير جدة وتقدر كلها بعشرة أكياس، هذا ويحتاج وزراء مصر إلى كل تلك الهدايا، وتكون جملة الصرر والهدايا فى يد وزير مصر، لذا يلزم أن يكون وزير مصر من المشاهير، ومن هنا يكون الموكب قد بلغ تمامه بدخول أمير الحج مصر.

الفصل الثالث والعشرون

فى بيان موكب خزينة الصقر

يذكر قانون السلطان سليم فى مصر بأنه على الباشا الوالى أن يقوم بإهداء الخلعة الفاخرة لأحد الامراء الشراكسة أو أحد الكشافين، وذلك مقابل أن يجعله موظفًا ومستولا عن خزينة الصقور التابعة لخزينة مصر العمومية، ويكون تحت إمرته سبعمائة رجل من مربى الصقور، وجملة هؤلاء معافون من الضرائب، وذلك لأن اصطيادهم تلك الصقور والنسور إنما يكون فى الأماكن الوعرة الخطيرة، وبعد اصطيادهم يقوموا بتسليمها إلى رئيس خزينة الصقور، ولا يخفى علينا أن صيد الصقور إنما يكون فى الجبال الشاهقة الارتفاع، ويمكننا القول بأنهم فى تلك المهمة يكونون قد التحموا بالسماء، ولا يوجد بمصر غابات وجبال شاهقة لذا لا توجد تلك المهنة فى مصر. ولو جُلِبَت الصقور إلى مصر فإنها لن تعيش فيها لأنها طيور تعيش على التحليق والرعى ولا يكون هذا إلا فى الغابات لأن مصر بلدًا ساحلية لا تقف الصقور المهاجرة بها.

كما أن الإنسان يعيش بلا كدر .∴ فإن الصقر لن يقف فى ضرر ومضمون البيت أن مصر لا توجد بها صقور، وأن موسم الربيع الذى يأتى منه صيادى الطيور للتدريب عند قناطر الغورى، يكون هذا الوقت هو وقت موسم الصيف بالنسبة للصقور المهاجرة، وتتم ترقية هؤلاء المدربين من البلوك السابع، حيث يتم تدريب كل مائة على حده ويكون منهم مائة شخص فقط تابعين لرئيس صيادى

الصقور، أما السبعمائة الآخرين فيكونوا رؤساء على صيادى الصقور العرب. وجملتهم ألفى رجل، وتغر مواكبهم فى حضرة الباشا الوالى ويكون عبورهم بلا منلاح. حيث يعبر صائد الصقور العربى راكباً على حمار وفوق رأسه صقر وعلى ذراعه صقر وعلى يده صقر ويخرج منهم على هذا المنوال سبعة عشر شخص، وفى هذا الموكب يُمنح رئيس صيادى الصقور والكتخدا وعشرة أغوات الخلع الفاخرة. ويلاحظ أن الموسيقى العسكرية لا تعزف فى هذا الموكب نظراً لأن رئيس صيادى الصقور ليس بأمرير، ولكن تُدق الطبول فقط أثناء عبوره، ويمكث هذا الموكب فى العادلية ولا يوجد به جنود لذا لا يعد موكباً عظيماً، إلا أن كافة مصاريفه تعرض على الخزينة. وذلك لأن ماكل ومشرب وملبس ودواب هذا الموكب وكافة مصاريفهم تُعد خزينة بنفسها، ويقوم هذا الموكب بقطع المراحل وطى المنازل من هناك حتى يصلوا إلى دار السعادة، ويُعرضون على الصدر الأعظم والسلطان صاحب السعادة، ويمر الموكب فى حضور الأمير ويتم تسليم كافة الصقور إلى رئيس مربى الصقور، ويُمنح الخلعة السلطانية، ويقوم بتسليم الأمراء بعض الصقور كهدايا لهم، وعندما تحوز خزينة صيادى الصقور رضا السلطان يأمر أحد الخاصكية أو أحد القابجى باشى بتصفيتها، ثم يأخذ السلطان الخبر بأنه لا يوجد بها شيء، ويعود جملتهم إلى مصر، وينالون الترقيات والستى يستحقونها من الباشا الوالى.

الفصل الرابع والعشرون

فى بيان موكب قدوم البنطال والسيف والقفطان إلى وزير مصر

يقوم الجنود بتفتيش خزينة الصقور بناءً على الأمر السلطانى الذى يأخذه وما يجدوه بها يقوموا بتصفيته، إلا السيف والقفطان والبنطال، فيسمح السلطان بإرسالهم إلى وزيره فى مصر. حيث يقوم خمسة عشر رجل بقطع المسافات وطى المراحل فى طريقهم إلى مصر وعندما يصلون إلى بلبس يقوم رجل منهم بالتوجه إلى كتخدا الوالى، حيث يأمر الوالى بتجهيز المطبخ خانه فى العادلية، وفى صباح اليوم التالى يغادرون كلهم ويعبرون من مصر مع كتخدا الوالى الباشا ولا يوجد فى هذا الموكب سوى جاويشية الديوان وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة وأغا الترجمة وبالرغم من ذلك يكون موكبًا فخماً، ويسهرون على هذا النحو حتى يصلوا إلى العادلية ويتناولون طعامهم ثم يمتطون جيادهم ويسهرون فى موكب ويدخلوا من باب النصر برفقة الأغا وكتخدا الوالى. ويكون عبورهم على موسيقى المهر والموسيقى العسكرية البسيطة وهم يرددون «الله ينصر السلطان» ويتسلم الباشا الوالى الرسالة الموجودة مع الأغا ويقبلها ويضعها فوق رأسه ثم يعطيها لرئيس الديوان ليقرأها، وبعد معرفة ما فيها يقوم الأغا بإهداء الباشا الوالى الخلع السلطانية والبنطال القטיפى الخاص بصائد الصقر الأحمر ويتمنطق بالسيف، وتخلع الخلع الفاخرة على سبعين شخص من أغوات الفرق السبع وجاويشية الديوان كما هو متبع فى قانون مصر، ويدعون للباشا بطول العمر وبهذا يتهج الجميع وتأتى الموسيقى العسكرية إلى القلعة وتعزف بشكل جميل، ثم بعد ذلك يحصلون الأموال ويُعطى عشرة أكياس للأغا القادم مع الموكب ثم يعودون بالغنائم إلى دار السعادة.

الفصل الخامس والعشرون

فى بيان دخول قاضى مصر وموكب العلماء

من المؤكد أن قضاة مصر يُعزلون عند وظائفهم وهم فى الستين من عمرهم ويخرج لهم موكب أيضاً، حيث أنهم عندما يصلوا إلى المكان القريب من مصر والمسمى الخانكة

يقوم وكيل الخراج بإرسال المطبخ إلى العادلية، وفي اليوم التالي يخرج إلى العادلية كتخدا الوالى وكتخدا الجاويشية ورئيس المتفرقة ورئيس المترجمين وكافة جنود الوالى والعلماء والصلحاء والأشراف والأئمة والخطباء والمشايع لاستقبالهم ويكون فى هذا الموكب مائتين من ملازمى جنود الإنكشارية، ويتنظر الجميع عند باب القاضى، ولا يوجد فى هذا الموكب أى جنود سوى المائتين جندى إنكشارى المذكورين، وذلك لأن كافة من فى الموكب علماء.

ويقوم كتخدا الوالى بضيافة حضرة القاضى، ويمتنى الجميع الجياد، ويعبر الموكب أفواجاً أفواجاً كل على حسب طبقته، حيث يعبر كتخدا الباشا مع كتخدا الجاويشية ثم يعبر جملة العلماء، ويركب القضاة الخيل المزينة وهم هنا ليسوا فرسان الخيل بل فرسان البلاغة والفصاحة، فصحاء اللسان بديعى البيان حفاظ الكتاب الكريم قال فيهم رسول الله ﷺ: **علماء أمتى** كأنبياء بنى إسرائيل^(١)، فمنهم الأئمة والخطباء والمشايع والسادات والبكرية ثم مفتيو المذاهب الثلاثة، ثم يأتى بعدهم أغا ملازمى جنود الإنكشارية المشاة، ثم جنود إنكشارية باب القاضى عسكر، ثم المدرسين ثم المحدثين ثم القضاة ثم قسّام الجند ثم نائب الديوان ثم جملة السادات الكرام، ثم نقيب الأشراف ثم جملة علماء الجامع الأزهر وكبير محضرى المحاكم وكتخدا قاضى مصر ثم شيخ الإسلام الحنفى مصطفى افندى البلوى، ويسير هذا الموكب العظيم على دقات الطبول الأربع والعشرين، والنفير حتى منزل كتخدا الباشا الوالى ويأتى الكتخدا إلى القصر ويبلغ الوالى سلام القاضى مولا مصر، وفى نفس اليوم يخرج المولا لمقابلة الباشا الوالى.

(١) الحديث ليس بلفظه هذا، إنما أخرج ابن ماجه فى سننه من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قوله: **... إن العلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظّ وافراً**. سنن ابن ماجه المقدمة (كتاب السنة) (١٧)، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ص ٨١. حديث رقم ٢٢٣.

فى بيان موكب مولا مصر

فى اليوم الذى يذهب فيه حضرة المولا إلى قصر الباشا الوالى مع طائفته الخاصة يمر محضرو المحاكم الأربعة وعشرين سيرا على الأقدام مثنى مثنى فى أيديهم العصى، ثم يسير من بعدهم جاويفية الديوان مثنى مثنى على الخيول العربية الأصيلة المزينة، ثم يسير من بعدهم نواب المحاكم الأربعة وعشرين على جيادهم العربية الأصيلة المزينة ومعهم خدامهم مترجلين ثم من بعدهم المحضرين المحليين مترجلين، ثم من بعدهم جنود الإنكشارية أصحاب الخيام يرتدون على رؤوسهم العمامات السوداء، ثم ضباط الإنكشارية الذين يُطلق عليهم (جوريجى) ومن بعدهم كتخدا المولا وبجانبهم رئيس محضرى القابجى أصحاب الطربوش من لواء القابجى بإستانبول، ثم يمر من بعدهم نائب الباب ونائب الديوان على جيادهم جنبًا إلى جنب، ثم القضاة الأربعة، ثم القاضى عسكر على الفرس العربى الأصيل وعلى رأسه الطرة وبجانبه الموظف المختص بمسابقات الوالى، يرتدى على رأسه الطربوش وعشرة من مختصى مسابقات الوالى ويكونوا مترجلين، وعندما يصل الموكب إلى القصر يخرج الباشا الوالى إلى القصر ويتقابل معهم ويقدم لهم مائدة عظيمة، بعدها يدور الحديث فيما بينهم وبعد ذلك يمنح الباشا أفندى الخلع من فرو السمر ويتصافحان ويمنح الكتخدا أيضًا الخلعة الفاخرة ويمنح نائب الباب والباشا المحضر الخلع الفاخرة، وبعد القهوة والبخور يتجولون حتى يصلون إلى القصر مع توابعهم، وهذا هو موكب القاضى عسكر وليس لهم أى مواكب أخرى حين عزلهم.

الفصل السادس والعشرون

فى بيان موكب أمير جرجا

يأتى كافة الأمراء والبكوات والكشافون إلى ديوان مصر لمناقشة حساباتهم، بعد قطع النيل، من هؤلاء الأمراء أمير جرجا الذى يأتى فى موكب عظيم لا يمكن التعبير عنه أو وصفه، ويقول العربان عن حاكم جرجا إنه سلطان الصعيد العالى وحاكم البر الوالى، ويمكننا القول أن غنيمة مصر كلها تأتى من الصعيد، حيث يحتاج إليها كافة أهالى

مصر. وفي يوم الموكب يتزل الباشا الوالى إلى قره ميدان، ويستطلع الوالى من قصره عن مجىء حاكم جرجا، ولحب أهل مصر لهذا الموكب فإنهم يخرجون لاستقباله وهو موكب عظيم لا يمكن التعبير عنه، وحاصل الكلام أن هذا الموكب كغيره من المراكب الأخرى المذكورة فيما سبق إلا أن هذا الموكب يختلف عن غيره من المراكب بوجود ثلاثة آلاف جندى من التوفنكجية السود المشاة وألفى فارس عربى بالعمامات وألفاً من صبيان الواحات الذين يحاربون فى بلدتهم وفى بلاد الفونج ويجلبون البنات والصبيان السود الذين يقفوا غنيمة لهم.

وعند قدوم أمير جرجا تدق الطبول الحبشية وتُعزف الموسيقى ويُنفخ فى النفير إيذاناً بقدومه، ومن المعلوم أن جرجا لا يتم بها الضبط أو الربط إلا فى وجود عشرة آلاف جندى وألف مقاتل رومى، ولأمير جرجا حصّة فى الإقليم وحكومته نافذة وملكه فى مملكة كبيرة، وتُعد جرجا هى منبع مياه مصر، وبعد مرور موكب أمير جرجا يمر من بعده المهترخانة (الموسيقى العسكرية) ويأتى أمير جرجا إلى حضرة الباشا الوالى فى معية مائتين من خواص غلمانه غير المسلمين.

وتعزف الموسيقى العسكرية وعندما يصل حاكم جرجا إلى حضرة الباشا الوالى يتزل من على جواده ويتحدث معه الوالى بكلمات ثم يُنعم عليه بالخلعة، ويتم الإنعام على أربعة وعشرين كاشفٍ والسدفتردار والكتخدا وعددهم سبعة وسبعين بالخلع الفاخرة ثم يقوم الباشا الوالى بمخاطبة الدفتردار والروزنامجى ويصدر الوالى أمره بالإطلاع على حساب أمير جرجا، ويتم تعيين أغا لتحصيل الاموال.

وبعد ذلك يخرج أمير جرجا، حيث يذهب الموكب مع أغا الباشا إلى قصر الأمير، وفى اليوم التالى يقوم الأمير بإرسال الهدايا إلى الباشا وبيانها كالتالى: أربعون فرساً عربياً أصيلاً وعشرة نبال وعشرة طواشى وعشرة أكياس وخمسة آلاف أردب من الشعير وثلاثة آلاف أردب حنطة وهدايا أخرى قيمة ماثلة لها، ويُعطى لكتخدا الباشا ثلاثة أكياس من المال وثلاثة طواشى وخمسة جياذ عربية أصيلة وتُعطى هدايا أخرى

إلى أصحاب اثني عشر مرتبة كل على حسب مرتبته لا يقبل الزيادة أو النقصان، وبعد توزيع الهدايا يقوم أمير جرجا بإظهار حسابه ثم يحصل ما تبقى في رتمه من الأموال الأميرية.

الفصل السابع والعشرون

في بيان موكب الأسطول الهمايوني

يكون هذا الموكب في حالة فتح إحدى القلاع في إحدى الإيالات أو في حالة مولد أو ختان أو زفاف أحد الأمراء أبناء السلطان أو في حالة جلوس السلطان على العرش، حيث يفد من الأستانة أحد أغوات السلاح أو أغا أو أحد أغوات الخاصكية أو رئيس البوابين، وعند وصول الأغا القادم من الأستانة إلى بليس يرسل أحد الأشخاص إلى كتخدا الوالي بإرسال الخبر إلى مطبخ العادلية وإلى جنود الفرق السبع، وكما هو معتاد أيضاً يذهب كتخدا الوالي مع الجنود بصحبة المهترخانة إلى العادلية ويخرج الموكب من باب النصر، وتُنصب الموائد ويتم تناول الطعام ثم يمر الموكب ويضم الأغا القادم وكتخدا الوالي، داخل مصر على دقات الموسيقى العسكرية ويخرج الباشا الوالي لمقابلتهم عند ديوان الغوري، وتقرأ الفاتحة في الديوان ثم يُقرأ فرمان الشريف، ويقوم كل جاوشية الديوان بالدعاء ثم يصدر الوالي فرماتاً إلى الصوباشي بأن يأمر الدلائن بأن ينادوا في الناس لتنصب الأفراح أربعين يوماً وليلة بمناسبة الخط الشريف. ويُمنح الأشراف الخلع الديوانية وتُطلق المدافع من القلعة وتعزف الفرقة العسكرية الموسيقية بجوار القلعة، بعدها تُزين مصر أربعين يوماً وليلة أو عشرين يوماً وليلة على حسب ما يرد في الخط الشريف وتكون زينتها غاية في الجمال لا يستطيع اللسان أو القلم وصفها، ويظهر في تلك الأيام ويكون ظاهراً للعيان من في مصر من أصحاب رؤوس الأموال والأعيان والمنعمين ورجال الدولة حيث يقوم كل شخص بإظهار ما عنده من زينة وجواهر وتزيين القلعة والحوانيت ويُقال عن مصر حينئذ أم الدنيا وعروس الدنيا، حتى أن الفقير إلى الله^(١) كان في مصر في هذه السنة في عهد الكتخدا إبراهيم باشا ورأيت الاحتفالات

(١) يقصد المؤلف نفسه.

المبهجة التى تمت بمناسبة فتح قلعة قمانجه فى عهد السلطان محمد خان وتحيرت كثيراً لتلك الأوصاف، وكانت لياليهم تحل عن الوصف، فى نفس الوقت تكون هناك مشكلة بالنسبة للجنود القائمين على الضبط والربط فى مصر حينئذ، ودائمًا ما يُقال ما لى أبالى لأن مصر فى تلك الايام تكون أم الدنيا وهى هبة النيل إنها جلجلة مصر وطنطنة مصر.

حقيقية إن إستانبول مدينة كبيرة إلا أن أهلها على ضبط وربط، أما طائفة الجند فى مصر يرفعون القيد عن الغنى والفقر والشاب والشيخ، وسرعان ما يتشاجرون كالخيل الشرس، فكلهم مجبولون على الشقاوة، ولا يستطيع أحد أن يسيطر على خدامه ومعاليكه وأهله وعياله. حيث يقومون بامتطاء الجياد غير المروضة يكون كل شخص فى عالمه الخاص يلهو ويلعب، الكل فى حالة فرح وابتهاج، ولكن فى حالة فتح إحدى القلاع على يد الوزير الأعظم تكون الزينة والاحتفالات اثنتى عشرة ليلة فقط.

وإذا ما فتح القائد العام قلعة عظيمة تكون الإحتفالات عشرة أيام وعشر ليال أو سبعة أيام وسبع ليال، ويكون الناس فى مصر سعداء بهذا القدر والإقليم الاصلى المشهور فى ذلك الإقليم الآخر وجزيرة القاهرة، حيث يميل أهالى مصر إلى اللهو واللعب والموسيقى والغناء وأهلها كثيرون جدًا، ولأنهم يملكون أموال فرعون فإنهم يصرفونها فى اللهو واللعب والموسيقى والغناء. وبالرغم من أن عزيز مصر غلب زليخة إلا أن أهل مصر ما زالوا منذ ذلك الوقت وحتى الآن مغلوبين لمخدوميهم فهم دائماً يميلون للشقاوة والظرف. وإذا ما لاحت لهم الفرصة يتتهجون إستهاجًا عظيم حتى الاحتفالات التى قام بها الكتخدا إبراهيم باشا فى قره ميدان بسبب فتح قلعة قمانجه أنفق على من يقومون بالألعاب النارية فى تلك الإحتفالات عشرون كيسًا من النقود المصرية فى مصر بلد المعرفة ويضاء فى قره ميدان مائة ألف قنديل تجعله بمشابة ميدان النور - حفظك الله تعالى ..

الفصل الثامن والعشرين

فى بيان خزينة مصاريف شموع وبخور وعود العنبر الخاص بموكب مكة والمدينة

يتم ترتيب هذا الموكب بعد موكب الخزينة المارّ ذكره، ولا يوجد فى هذا الموكب جنود من الأساس، إلا أنه يوجد بهذا الموكب رئيس عمال المسك ومحصل خراج الباشا الوالى وهؤلاء يقومون بجمع الشمع الكافورى والشمع الدهن الملمّع، وبالرغم من وجود هذا الكم الهائل من الحماليين فى بولاق إلا أنهم جميعاً يشتغلون بجمع الشمع، ويحضر الحرفيون قنطاراً من الشمع الأبيض الكافورى من الشمع خاتنه على الأوانى الخاصة به فوق رؤوسهم، حيث يوجد فى تلك الأوانى البخور والمسك والعنبر وخمسين وعاء ضخماً من ماء الورد المعطر وخمسين شمعة من العنبر وإثنى عشر ألف قنديل وهذا كله خاص بمصر، ويوجد بكل قنديل زيت يحترق، ويتم جلب ألف قنطار من الزيت المعطر كل عام من أرض المغرب يشبه كثيراً ماء الحياة وتُحمل هذه الأشياء إلى الديوان بواسطة الحماليين، ويخرجون فى هذا الموكب العظيم فى حضرة الباشا الوالى فى ديوان الغورى داعين، «الله ينصر السلطان» حيث يحمل كل الحرفيين الأوانى الخاصة فوق رؤوسهم بخلاف الخمسمائة صينية المحملة بالشمع والعنبر وما ذكر، ويقوم الباشا الوالى بكسر عدة شمعات ثم يخلع الخلع الفاخرة على رأس كل من حامل المسك ومحصل الخراج والشماع، ويأتى ناصبو الفخاخ ويمرون جميعاً، ويتم تسجيلهم فى دفتر الأحوال اليومية، ويظهر رئيس عمال المسك فى مكان على يمين الباشا الدفتردار، ويتم تحصيل تلك الصناديق وحفظها حتى يتم تسليمها إلى قبطان السويس فى حضرة الباشا، وتؤدى أجرتها من الجانب الميرى، وهذا أيضاً من الخزينة.

الفصل الثانى والعشرون

فى بيان أحوال الطعام والشراب

الذاهبة إلى المطبخ السلطانى

ومخزن الطعام والشراب الخاص

عند تحصيل هذا المال السلطانى لا يسير موكب للجنود المصريين إلا أن وزير الأمراء المصريين يقوم بالباس أمير مخزن الطعام والشراب السلطانى خِلعة.

ولا يؤمر أى شخص بهذا سوى أمين مخزن الطعام والشراب السلطانى ومعه خمسمائة رجل يقومون بتحصيل المأكولات من قضاء فرسكور ومدينة المنزلة وبندر دمياط وقضاء برميجال وبندر رشيد، حيث يقومون بإحضار مائة ألف أردب أرز خمس مرات من الأماكن التى يُجمع فيها الأرز والشعير، وألفى قفص سكرى وعمادى، وثلاثمائة فرد من القهوة ومائتى ألف أردب عدس ومائتى ألف أردب حمص ومائة حفة من الحنة وخمسمائة زنبيل تمر ناضج وسائر المأكولات.

وتوجد بمدينة رشيد مخازن أميرية، وتتجمع كلها وتُدخَّر مع العمل، وفى ناحية الأستاذة يأتى خليفة من خواص الحلوى خبانه وبالرغم من وجود شجر الخيار والحمص والليمون فى مدينة الفيوم وفى كل حدائق وبساتين مصر إلا أنه يتم جمعها بمعرفة الميرية، ثم يقوم دفتردار الخزينة بجمع تلك المحاصيل من مدينة الفيوم مع الماء المعطر وماء القاضى وماء الورد من العطريات والدهنيات ومائة قنطار من الورد المسك وبعض الزهور التى تثبت فى مصر مثل النيلوفر والليمون والبنفسج ويجلبون من المعاجين سبعين نوع من المعاجين المسكة المبهجة مثل الترياق الفاروقى وفاروق الأربعة ومعجون العقرب ومعجون السقنرى البى ومعجون التمساح الأبيض الذى إذا وضع فى العين يجلو البصر.

الفصل الثالث والعشرون

فى بيان السبعة آلاف قنطار من البارود الأسود

الماخوذة من خزينة مصر بناء على القانون السلطانى

لا توجد فى مصر مواكب عسكرية سوى مواكب عمال الذخيرة وعمال البارود وصنّاع الطلقات النارية، وفى زاوية من قصر الباشا الوالى يوجد مقرين لصنع الذخيرة المعروف بالبارود خانه، يوجد بكل مقر منها أربعين شاب يتجولون به ليل نهار ويطلقون الاعيرة النارية، يا له من مشهد عجيب، ولكنه ملعون فى نفس الوقت مثل البارود، وعندهم البارود مكتمل، ويقومون بإظهار كفاءة البارود للباشا الوالى فى الديوان، حقيقة إن البارود المصرى أعلى فى الدرجة من البارود البغدادي لا سيما وأن مادته المعدنية لطيفة فهى بيضاء مثل حجر الطاحونة.

وتوجد سبعون كرة بارودية أميرية ويكون المستزمون مكلفين بهذا العمل، ففى كل أسبوع يتم جلب مقدار حمولتين يعبر من مادة البارود السما (الكهرجله) وتندق الطبول وتُعد الطبول لذلك، حيث يتم تسليمها لرئيس دار الذخيرة، ويقوم العمال المكلفون بإحضار مادة البارود بعرضها على الباشا الوالى ليعاينها فإذا أعجبه يقوم الوالى بإهداء رئيس دار الذخيرة ورئيس الفرق العسكرية والأمناء الخلع الفاخرة، وتوضع السبعة آلاف قنطار من البارود فى الأجولة الخاصة بها والمصنوعة من الصوف فى البارود خانه بالقلعة حيث يُشد عليها بجلود الإبل وتُحمل على ثلاثة آلاف دابة وثلاثة آلاف ناقة ويسير فى موكب ويتم التنبيه على الحدادين ونافخى الكبر والمدخين بأن موكب الذخيرة سوف يمر ويُنبه عليهم بعدم إشعال النيران فى طريق الموكب وتنطفئ نيران حوانيت الحدادين وغيرهم. كما لا تشتغل النيران فى الخانات الموجودة على الطريق الرئيسى فى ذلك اليوم، بل إن الأشخاص يخرجون من بيوتهم فى ذلك اليوم فالخطر محقق، فبضعة آلاف دابة تسير محملة بالبارود، وتبدأ الأحمال فى السير أفواجاً أفواجاً ويسير بجانب كل فوج شخص يمسك بيده عصا إذا ما وجد أى نيران يطفئها على الفور، ويمر أيضاً موكب آخر به ستة آلاف قنطار من فتيل القطان ويتم تخزين تلك الحمولة أيضاً وتحمل

على الدواب والإبل ويسير بجانب هذا الموكب ثلاثة آلاف من البربر فى أيديهم العصى ينهون الفلاحين بعدم إشعال النيران فى ذلك اليوم. حتى أن مفلسى أغوات الباشا الوالى كانوا يحلفون قائلين: «لقد خرجت بثلاثة إحتياطى وأحدهم يقول لقد خرجت بستة إحتياطى» ثم يسير بعدهم موكب البارود، وبينما هم سائرون ينهون الأهالى بخطورة البارود الأسود وأنه مثل البلاء الأسود إذا انفجر، ثم يعبر رئيس عمال الذخيرة بخلسة فاخرة وحوله خمسين غلام من خواصه، وتندق الطبول أثناء سير الموكب، وعندما يصل الموكب إلى بولاق تملا السفن ومن هناك إلى رشيد ومن رشيد إلى الإسكندرية ثم يُحمل البارود على السفن المسماة قاذرجه، ويأخذ القبطان الحجة لسييره بالبارود وبذلك يكون الخلاص، وهذا أيضاً أحد خزائن مصر والسلام.

الفصل الرابع والعشرون

فى متحصلات شيخ مصر

والستة والأربعين قاض فى ولاية مصر

فى زماننا هذا يتم تحصيل أموال رائدة، حيث يحصل لمولا مصر سنوياً ثلاثمائة كيس وهذا مقام القضاة، ثم يأتى بعده قاضى مكة ثم قاضى إستانبول وهذا طبقاً لما جاء فى قانون السلطان محمد خان.

الفصل الخامس والعشرون

فى بيان خزينة مصر من أوقاف السلاطين الماضية

وأوقاف الوزراء وأعيان وإشراف القضاة

عندما فتح السلطان سليم مصر كان خيره بك وزيراً عليها، وكمال باشا زاده أحمد افندى قاضى العسكر بها. وتحمر بقلم الغزالى فى سجل مصر الخاقانى أن مصر كان بها سبعة وسبعين ألف وقف لله تعالى، يعمل على إدارتها إثنى عشر ألف موظف ويؤمر كل قاض يأتى إلى مصر بأمر السلطان بالفتيش وعمل فحص لتلك الأوقاف ويبلغ أدنى حد للأوقاف فى السنة الواحدة ما بين مائة وألف قطعة ذهبية، ولتلك الأوقاف قرى وأرزاق وأفدنة مرتبة يعمل عليها مديرون، كما يوجد لها أموال أميرية، وعلى ما سجله الغزالى فإن تلك القرى تحصل لمصر ثلاث خزائن وهذا مسطور فى دفتر خانه مصر.

الفصل التاسع والعشرون

فى بيان الذى يُتَّحَصَّل من الأموال المصرية

أقر قانون السلطان سليم فى مصر أنه فى مكاملة السلطان مع الولاة المصريين يُحصل أربعمئة وسبعين كيس من الأموال المصرية، ويُخرج معه عند السلطان كل يوم ألف عملة للتصدق على الفقراء، ويكون مجموعته السنوى تسعون كيس وبخلاف ذلك يأتى إلى مصر كل سنة على سبيل الهدايا مقدار خزينة من المجوهرات والهدايا القيمة التى توزع على الفقراء، كما يحصل أيضاً خزنتين من الأموال سنوياً، وعندما كان الفقير إلى الله^(١) فى مصر أيام وزارة الكتخدا إبراهيم باشا أمر بتحصيل ثلاث خزائن لمصر، وكان الوزير الأعظم كوبرلى دده أحمد فاضل باشا هو حامى تلك الخزائن القادمة من الأستانة، وعندما ظهر الطاعون فى مصر أعطيت التطعيمات تسع مرات فى ثلاثة شهور فى إحدى القرى، وفى النهاية لم يُعَمَّر هذا الرجل ولكنه كان مثال الكرم مثل حاتم الطائي - رحمه الله -، وتصرف أحد الخزائن الثلاث على الطعام، والإثنان الباقيتان ببقيان له.

الفصل الثالث والثلاثون

فى بيان الخزينة التى يحصلها وزير مصر

للأغوات أصحاب المراتب الثلاث والعشرين

إذا ما كان الكتخدا رجلاً بصيراً بالأمور مدبراً فإنه يُحصل ألف كيس من المال، أما إذا كان غير أهل لذلك فإنه يفتح فمه للهواء ويُحَصَّل من المدينة وما حولها خمسمئة كيس فقط، وعندما كان الفقير إلى الله^(٢) فى مصر كان الوزير الأعظم بها درويش محمد باشا وأخبرنى بأنه أثناء وزارته لمصر جمع منها خمسمئة كيس من المال. وتحصيل خزنتين من المال لكل من أمين الديوان والكتاب والكتخدا والخزينة دار وأغا الرسائل وأغا دمياط وأغا السويس وأغا رشيد وأغا الإسكندرية وأغا بنى سويف وأغوات النيا ومنفلوط وجرجا يُحصل لهم جميعاً خزنتان كما يُحصل خزنتان أخريان لغير الأغوات، والخمس أغوات من العبيد السود.

(١، ٢) يقصد المؤلف نفسه.

الفصل التاسع والثلاثون

فى بيان الخزائن المحصلة من الأمراء الخمسة وعشرين فى مصر

وأمرء الشراكسة الأربعين وسائر الأعيان

بعد أداء كافة الأموال الاميرية فى إيالة مصر وتسجيلها فى سجل الروزنامه ويُحصل الفائض منها وهو خمس الخزائن لجملة أعيان مصر على أن يحرر هذا فى دفتر الأحوال اليومية، والحق أنه يُحصل أزيد من هذا، حتى أن الكتخدا إبراهيم باشا عندما كان فى منصب عزيز مصر حُصلت ثلاث خزائن من قرى مصر للإشراف فضلاً عن الأعيان ومجاورى السلطان القاطنين فى إستانبول فلما عرض عبد الرحمن افندى الروزنامجى هذا الأمر على إبراهيم باشا، واستدعى عبد الرحمن افندى الروزنامجى وسأله لمن هذا المال بعد أداء حق السلطان فقال عبد الرحمن افندى «والله يا سلطانى تبقى خمس خزائن تُحصل للأعيان والإشراف والأمراء».

ثم قام إبراهيم باشا بتحرير ثلاثة آلاف عبد لمكة وفى حج عام ٨٢-١هـ عُزل الشريف سعد وأصبح الشريف بركات شريكاً على مكة بدلاً منه، وبهذا الترتيب تم تحصيل ثمان خزائن من مصر فى تلك السنة. ولما كشف عبد الرحمن افندى الروزنامجى هذا السر للسلطان، أمر جان بولاد زاده بقتله.

الفصل الرابع والأربعون

فى بيان تحصيل ثلاث خزائن أخرى

للمحرفيين من خزينة مصر

وجملة قرى إيالة مصر وإيالة الصعيد ألف قرية تنقسم إلى أربعة أقسام: القسم الأول منها يُعطى جملته للأموال الأميرية السلطانية، وهى ما يعرف بالبدل، القسم الثانى القرى الكشوفية، القسم الثالث القرى الموقوفة، والقسم الرابع القسم الخاص بالكشاف والأمراء والمُلتزمين، إلا أنه يتم تحرير فائض تلك الخزائن لأصحاب هذه القرى، ولستك القرى شيخ بلد وكتاب وشهود وأقباط ويتم تحصيل خزينة لهم تحرر فى السجل.

الفصل الثامن والأربعون

خزينة مصر

بالرغم من وجود رعايا وبرايا من الرجال بلا حد ولا حساب فى قرى الإيالات المذكورة فيما سبق، إلا أنهم يقومون بزراعة أرض مصر ويحصدونها سبع مرات فى السنة الواحدة ويُجنى منها سبعون نوع. وأرض منبئة كهذه ورجال مجتهدون، ولا يوجد فى الدنيا فلاحين وقوم جبارين ومردة مثلهم، ويحصلون المال لأنفسهم بأى وجه كان سواء كان طائرًا فى السماء أو سباحًا فى البحر أو سائرًا على الأرض، ويعطون العُشر (المال الميرى) لأغواتهم ونظارهم وملتزميهم وكشافيهم ويبقى لهؤلاء الرعايا خمس الخزائن بعد تصفية كل الديون ويحرر هذا فى سجلات مصر، وبذلك يكون متحصل هؤلاء الرعايا ثلاث وخمسين خزينة.

الفصل الخامس والخمسون

فى بيان الخزينة المحصلة من طائفة التجار

فى بنادر مصر السبعة

فرض الكتخدا إبراهيم باشا لكل من رشيد والإسكندرية كيسًا من المال كالتزام يومى لهم، وفرض لبندر دمياط التزام سنوى مائة وأربعون كيس وفرض لبولاق وباب النصر ومصر القديمة والبساتين والمعادى مائة وخمسين كيس كالتزام سنوى عنها، وفرض بندر السويس ثلاثمائة كيس يقولون عنها أمانة الربيع، وبعضهم كان يُحصل خمسمائة كيس، وعلى هذا الحساب يتم تحصيل خزيتين لمصر من البنادر السبعة الموجودة بها وجملة حسابهم سبع وخمسين خزينة.

الفصل الستون

فى بيان الأموال التى تحصلها خزينة مصر

من التجار القادمين إلى البنادر السبعة

يأتى جميع التجار من كافة أقاليم الدنيا السبعة من العرب والعجم والهند واليمن ويجلبون الأمتعة والبضائع ويبيعونها ويحصلون من ذلك ثلاث خزائن لمصر.

الفصل الخامس والستون

فى بيان تحصيل خزينتين لمصر من الحرف

البالغ عددها مائة وسبعين حرفة

ويقولون إن الحجاج المسلمون القادمون من الديار الإسلامية للأقاليم السبعة يصرفون ثلاثة خزائن مصرية وقد حرّر هذا العافون الواقفون...

الفصل الثالث والسبعون

فى بيان خزينة الحبوب الواردة

إلى أنبار يوسف . عليه السلام . فى مصر

هذه المخازن موصوفة فى أوصاف مصر القديمة وهى من بناء سيدنا يوسف ، وقد ورد ذكر لسبب بناء تلك المخازن فى آيات سورة يوسف ، وإذا دخل معه السجن فتيان ، وللرؤية التى رآها الملك الريان الواردة فى قوله - تعالى - : ﴿ سَبِّعَ بِقَرَاتِ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعَ عَجَافٍ وَسَبِّعَ سُبُلَاتِ خُضْرٍ وَأُخْرَىٰ يَأْسَآتِ ﴾ [يوسف : ٤٦] ، نزلت تلك الآية عن سيدنا يوسف على طريق القياس ومصرح بذلك فى جميع التفاسير ولكننا حررناه هنا على سبيل الاختصار حيث رأى الملك الريان رؤية قصها على سيدنا يوسف ، ففسرها سيدنا يوسف بأنه سوف تكون سبع سنوات قحط ، وأمر ببناء تلك المخازن . وبينما العمل جارٍ فى بنائها ، توفى الملك وعمرور الأيام أوتى سيدنا يوسف الخلافة والنوبة ، ومسطور أن سيدنا يوسف هو من قام ببناء تلك المخازن وهى أربعة وما تزال

تعمل حتى الآن، وفي كل سنة يقوم جملة الأهالي وأغوات الفرق السبع والباشا والقاضى بزيارتها والدعاء عند أبوابها، ويقوم أمين تلك المخازن بنصب الرايات عند بابها وينصب مائدة عظيمة للوالى الباشا ويعطى لأمين المخزن جواداً عربياً أصيلاً له جراب مجوهر وثلاثة أكياس من المال وثلاثة طواشى وألف أردب من الغلال ويحسن عليه بالخلعة الفاخرة.

وينبه عليه بالاستقامة، وبعد العصر تنتهى المادبة ويُعين آغا الباشا الوالى ناظرًا على تلك المخازن ويُمنح أيضاً جواداً عربياً أصيلاً مزيئاً وخلعة فاخرة.

ويُمنح جورباجى الانبار وكيالها وكاتبها وجملتهم ثلاثة وعشرين شخص خلعة الخاصة بمزيز مصر، ثم يذهبون إلى منازلهم بعد أن يتبادلون التحية وتُنصب الراية ويعم السرور جملة أهالى مصر، ويقوم كافة تجار مصر ومحتكرو السلع بإخراج الغلال من المخازن ويوزعونها ويكون لانهم يبيعونها بسعر زهيد، ويمكثنا القول بأنه فى حالة عدم امتلاء تلك المخازن سيحدث القحط فى مصر أم الدنيا حيث يحتاج لهذا المخزن ٤٧٧٠٠ شخص من جملة طائفة جنود مصر والأيتام والمستقاعدون، وطائفة النساء والطواشية والجوالى وطبقاً لتسجيلات بيرام باشا يحتاج إلى أنبار يوسف هذه مائة ألف شخص لسته عشر مرة^(١)، ويوجد للجنود عليق وجرايات بها، إذا لم يحصل الجنود عليها فى خلال شهرين تضيق الدنيا على رأس والى مصر أم الدنيا.

وتتملى مخازن يوسف المذكورة من بركات وخيرات إيالة جرجا وإيالة أعالى الصعيد، وكتاب تلك المخازن يعدون أقلام مختلفة، فى أيديهم سبعون خليفة وسبعون ترأساً وسبعون كحالا وسبعون مُغربلاً، حيث يقومون بغرلة غلال الجنود بها وينظفونها، وكل هؤلاء هم جملة خدام المخزن، ولكن كتابهم يحسبون حسابات المخازن قيراطاً قيراطاً، ويأتى كل عام إلى مخزن يوسف من غلة الحنطة ثلاثة آلاف أردب ومن غلال الشعير

(١) يعنى ستة عشر ضعفاً.

(١) ومن غلال الفول (٢) أردب، ولو اقتضى الأمر بيع تلك الغلال بالمزايدة فى السوق السلطاني فإن هذا يحصل لمصر ثمان خزائن، وفى حالة عدم فيضان النيل - اللهم عافنا - فإن كافة العباد يطلبون هذه الخزائن الثمانية من الباشا الوالى وبهذا تحقق أنهم ثمان خزائن بالضبط، ويُطعم من مخازن يوسف غير بنى آدم الطيور التى تطير فى السماء، حيث تأكل الطيور غلال الفول الموجودة فى المخازن فى حالة عدم وجود سقف للمخازن.

ودائمًا ما تمتلئ تلك المخازن وتفرغ، ثم تمتلئ مرة أخرى، إنها دورة الدهر، وجملة أهل مصر يتكفون منها، وعندما كان الفقير إلى الله (٣) فى مصر لمدة ثمان سنوات كان له نصيب من أنبار يوسف، ويقومون بتولية منصب ناظر أنبار يوسف لأشخاص غير مؤهلين لذلك ونظرًا لعدم النظر فى حساب هؤلاء الأشخاص شهر بعد شهر فإنه يتكسر وينحبس، والوراء الذين يحترزون من هذه الأشياء الثلاثة يخرجون من مصر بسلام. ولم يأتى مصر حتى وقت قريب وزير مدبر ذو بصيرة مثل الكتخدا إبراهيم باشا. وعصره كان العصر المنفرد فى علم الحساب، وكانت الإيرادات والمصروفات مع بعضها فى تلك المرتبة وجمع على هذا القدر ألف أفجه يوميًا، ووضعت كافة السجلات فى صندوق ذو سياج فضى وربطت إلى خزينة مصر، ثم عُرِل الكتخدا بعد ذلك ووصل إلى العادلية بسلام، ولكن بعد شهرين دخل حضرة حسين باشا جان بولاد راده إلى مصر ودعا الكتخدا إبراهيم باشا للمحاسبة، وظل فى ذمته من بقايا خزائن يوسف مائتين وسبعين كيس فلما طالبوه بسدادها أداها فى طرفة عين. لقد كان رجلاً منعماً، وبقي فى ذمة الأمانة والكشافين والملتزمين ثلاثمائة كيس لإبراهيم باشا، ولم يستلم حسين باشا مهمته على دين إبراهيم باشا، وقال إنه قادر على تحصيل ماله فقط وقال ينبغي أن يكون مكانه رجلاً يقدر على تحصيل تلك الأموال.

ووضع إبراهيم باشا على بقايا الكتخدا وعين إبراهيم باشا متصرفًا على الشام، وأصبح مخزن يوسف على الأرض لا سيما وأن اللصوص كثيرون والمستقيمون قليلون وأصبح المخزن فى ذمة الله ليستره الله، وخلاصة الكلام أن هناك من يقولون أن مصر أم

(١، ٢) يياض فى الأصل.

(٣) يقصد المؤلف نفسه.

الدنيا، حقًا إنها تطعم جميع الأمم، ويقولون أيضًا أن لو خرب العالم تُعمره مصر، ولا يعجز اللسان عن وصف جمال مصر وأحوالها وأطوارها، إلا أن الفقير إلى الله قليل البضاعة كثير السياحة حضر إلى القلعة، واجتهد أن حرر كل ما رآه في مصر ولا يترك شيئًا، ولم يترك شيئًا إلا وذكره، فحرر أوصاف مصر، ولم يترك مقدار القطرة بالنسبة للبحر أو الذرة بالنسبة للشمس إلا وذكره.

وذكرنا أن جملة الخزائن المصرية المشروحة على المنوال المذكور ثمانين خزينة هي جملة خزائن مصر منها ما هو بموكب ومنها ما هو بدون موكب، في كل خزينة منها ألف ومائتي كيس، وكما أن مصر هي أم الدنيا فإن كل تلك الاموال تكون ملكًا للسلطان - أيد الله خلافته إلى انقراض الدوران، على رتبة آل عثمان - وتكون جملة مواكب مصر ومنها موكب دخول وخروج وزير مصر وفيضان النيل ومواكب الخزينة وهي خمسة وثلاثون خزينة ويوجد أيضًا موكب يستمر عشرة أيام في السنة حين ذهاب السلطان إلى أنبار يوسف وموكب ذهابه لأداء الجمعة الأخيرة من رمضان في جامع عمرو بن العاص بمصر العتيقة، ومن المواكب التي لا تدخل في هذا الحساب أيضًا موكب ذهاب وزير مصر مرتين أسبوعيًا إلى قدم النبي والبساتين وأم القياس وقصر الغورى وقصر العينى والسبتية وقايتباى والشيخ الجيوشى والعادلية والمطبخ خانه وقد تحرر هذا في تشريفات السلطان سليم خان وكتبت كلها في مواضعها.

الفصل الثانى والخمسون

فى تشرىفات قوائين عوائد وزراء مصر

يُطلق على الخاصة الهمايونية للبasha اسم الكشوفية الرئيسية، وهي أربعمائة وثمانون كيس، كما يتم تعيين ثلاثة آلاف پاره يوميًا أى تسعون كيس سنويًا من نفقة السلطان للتصدق بها على الفقراء ويقوم أمين بيت المال بإدارة بيت مال البasha بخلاف بيت مال الانكشارية. أما البasha فيدير جملة بنادر مصر السبعة وكذا أموال من توفوا ولا وارث لهم فى القرى وكذا معاشات الجند الذين لا وارث لهم، ويعطى أغا إنكشارية مصر للبasha السوالى ستة أكياس من المال، يأخذ الاغا من بيت مال الإنكشارية عشر أكياس

وتوجد سبع نظارات تحت إدارة أغا الإنكشارية، كما أن نظارة السليمانية والدشيشة الكبرى، حيث يصل إلى مكة والمدينة كل سنة أردب (١) من الغلال من أغا الإنكشارية.

ويأخذ أغا الإنكشارية اثنين وعشرين كيساً من الوالى الباشا لتقديمها إلى عربان الدشيشة الكبرى ويعطيها لشيخ العرب صقر، فيقوم شيخ العرب صقر مقابل هذا بإعطاء الوالى الباشا ثلاثة أكياس وثلاثة خيول عربية أصيلة وخمسين جملًا، ويُعطى كيساً لكتخدا الباشا الوالى وكيساً للأغا لكونه فى حكم أغا الإنكشارية.

وتُنقل الغلال إلى السويس من عنابر بولاق بمائة ألف جمل ثم تنقل من هناك إلى مكة والمدينة، وعندما يأتى الباشا الوالى يقوم كتخدا الجاوشية بتقديم عشرة أكياس له وجواد عربى أصيل مرصع ومزين بسرج فضى وذلك فى الصالحية، كما يقدم له هدايا أخرى قيمة ويقوم رئيس الجنود المتفرقة بتقديم ثمانية أكياس سنوية للوالى، ويعطى كتخدا الباشا كيسين ورئيس الديوان عشرين ألف پاره، كما يقوم رئيس الجنود المتفرقة بإعطاء سبعة آلاف پاره لآى محافظ قلعة يُعزل أو يتقاعد وذلك لكونه من لواء الجند المتفرقة وذلك على حسب قانون السلطان سليم، وتُسند نظارة خان الباشا الوالى الموجودة فى رشيد لرؤساء الجنود المتفرقة، ويأتى من تلك النظارة ثلاثة أكياس، ويقدم رئيس عمال المسك للباشا الوالى جواد مزين وذلك عندما يأتى إلى مصر، ولأن رئيس عمال المسك لم يقم بتقديم هذا الجواد لإبراهيم باشا، بل قدمه إلى قاضى مصر لدى وصوله ويقدمه له رئيس المسكية وبحسب من كشوفته ويلزم بتقديم ثمانية آلاف پاره ويسلمها للباشا الوالى ثم يعطى لخازن الوالى الباشا عشرة آلاف، وخازن الكتخدا أربعة آلاف، وكيساً واحداً لكتخدا.

ويؤخذ من رئيس عمال المسك زيت الشمع حيث يُقدم للباشا والكتخدا وسائر نواحي المدينة كما تؤخذ منه كمية من قناطر شمع العسل والبخور والعنبر إلى مكة والمدينة، وعندما يأتى الباشا إلى مصر يقيم فى العادلية ثلاث ليال وثلاثة أيام، وتُسلم كمية البخور والعنبر والمسك إلى أمير السماط، ويأخذ أجرته من الاموال الاميرية ويأخذ الباشا كيساً من المال كلما جدد مقام رئاسته عمال المسك «مسكجى باشى»، ويُعطى (١) يياض فى الاصل.

الباشا هدايا من أمين العنبر عندما يصل إلى مصر عبارة عن سبعة عشر كيساً وسبعة طواشي وثلاثة جياذ غير مزينة. وذلك محسوب على الجواد الذي يُعطى لقاضى مصر عند قدومه إليها، ويُعطى كتخدا الباشا الوالى كسين وفرس وطواشى وتكون جملة ما يدفعه تسعة عشر كيساً.

ولكن أمين الانبار يأخذ ثلاثة آلاف پاره، ويأخذ رؤساء الغلال عشرين أو ثلاثين أو أربعين أو خمسين قرشاً لكل واحد منهم، ويُعبّرون عنها بلفظ الكرتين أى فى الذهاب الثانى لهم يأخذون خمسة أو عشرة قروش ويكون جملة ذلك خمسون كيساً. ولو أخذ المال منهم جميعاً تكون جملته مائة كيس ولكن طائفة العبيد لا يرتضون ذلك وتحدث بينهم ضجة، هذا بالإضافة إلى أن هذا المال يحصل من غلال العبيد وهم لا يوافقون على ذلك، ويكون أحد أغوات الباشا ناظرًا للمخزن ويقوم هذا الاغا بتقديم ثلاثة أكياس كشوفية وطواشى للباشا الوالى، ويأخذ الاغا الناظر أيضاً من أمين المخزن كسين إما على سبيل الهدايا أو على سبيل العييدة.

ويلزم فى الرجل الذى سيكون أمين الانبار أن يكون متعلّلاً فى عقلية أرسطو فى علم الكتابة، فهو مسئول عن جملة حساب الغلال حين عزله، ويؤخذ من كل شخص أقة أو أقتين كحساب عن الخاتم ويجلبون هدايا عديدة، أما أغا الرسائل فيعطى للباشا الوالى خمسة وعشرين كيساً ويحصل هو من أربعين إلى خمسين كيساً، ويُعطى لكتخدا الباشا ثلاثة أكياس ويعطى لأمين الديوان والخازندار كل واحد منهم عشرة آلاف پاره، ويأتى إلى كتخدا الباشا كيس من الاموال من أغوات دمياط ورشيد والإسكندرية والمنيا وجرجا كل على حده، وقد حررنا الهدايا الكشوفية التى يجلبها أغا جرجا فى موكب أغا جرجا، وتوجد كشوفية أخرى لرئيس الديوان تبلغ خمسة عشر كيساً على حسب القانون، يأخذ منها كافة الامناء، والمتزمون والكشافون، ويأخذ رئيس المراتب والمناصب فى القصر أربعين پاره، ويأتى سنوياً أربعين جواداً كهدايا، ويأتى عشرون عُدّة حصان، ويحصل سنوياً لكتخدا الباشا الوالى من الامانات السبعة ومن كافة الكشاف والمتزمين والبكوات ومن القرى المباعة أربعمائة كيس من المال، وعند قطع

النيل توجد كشوفية أخرى عبارة عن أربعين عُدّة حصان وخمسين فرساً وجملة المحصول السنوى الذى يُحصل من البنادر السبعة المجاورة للمدينة ومن جملة الأمانات ومن أمين الصرة ومن أمين الخردة ومن الضرب خانه (دار سك العملة) ماتى كيس .

ويقوم أمين الخردة بتعيين الخبز واللحم، وتأمين كافة ما يلزمهم ويلزم دوابهم، ويأخذ الأغوات الداخلين للمدينة ثمانية عشر ألف پاره من ناظر الضرب خانه أما الصرّاجون فيأخذون عشرين قرش على مدار ثلاثة شهور من رئيس الصرافين .

ولكل من وزارتى جمرک الربيع والكتاب السماسرة اليهود والصرافين وخازن المدينة وصراجى المدينة حوالات خاصة بهم . وقد تحررت حوالاتهم فى مواضعها .

وجملة خدام الديوان والكيه دار وكيه دار رئيس الديوان اثنين وثلاثين شخص، ولكل منهم يومياً أقسجتين من المال الميرى إلا أن إبراهيم باشا ألغى هذا . كما توجد حوالات من البرسيم والحشائش فى حدود الملتزمين والأمناء والكشافين بمقتضى قانون الاغوات أصحاب المراتب الأربعين لكتخدا الباشا، ويوجد أيضاً أربعين كيس لجملة أمناء وكشافى وملتزمى خزينة دار الباشا .

ويتحصل سنوياً أربعمائة كيس لأمير آخور الواح الباشا . ويقوم بإحدى الضيافات بإهداء الباشا ثلاثة أكياس وثلاثة طواشى وجواد مُزّين وكافة التبن وأعلاف الخيل والإبل هى مسئولية أمير الآخور . ويقدم للباشا سنوياً مائتى جواد عليهم القماش والصوف .

وبذلك تتم كافة الخزائن والمواكب بناء على قانون مواكب الخزينة ويكون تمامها فى شهر يوليو الموافق شهر توت بالحساب القبطى ولا يبقى فى السنة من الخزائن والمواكب إلا موكب مولد السيد أحمد البدوى .

محتوى المجلد الأول

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
٦٥	ذكر من دخل مصر من قدماء الحكماء الفصل السابع:	٣	الاهداء
٦٨	ذكر فتح مصر على يد عمرو بن العاص الفصل الثامن:	٥	المقدمة
٧٢	بيان بالآيات الكريمة التى ذكرت فيها مصر صراحة وكناية وتنبهاً ذكر الأحاديث الشريفة التى ورد فيها ذكر مصر الفصل التاسع:	٤١	ذكر أوصاف مصر المحروسة الفصل الأول:
٧٨	ذكر فتح مصر على يد عمرو بن العاص وصف حصار عمرو بن العاص لمدينة القاهرة الفصل العاشر:	٤٣	فى وصف فسطاط مصر الفصل الثانى:
	بيان من حكم مصر من أمة محمد ﷺ إلى عهد السلطان محمد الرابع بنو أمية أوصاف دولة بنى العباس الدولة الطاهرية الدولة الصفارية الدولة السامانية دولة بنى آل زياد الدولة البويهية	٥٤	بيان من ملكوا مصر بعد الطوفان حكاية الفصل الثالث:
		٥٥	فى ذكر أحوال أهل العمالة الفصل الرابع:
		٥٦	بيان تشييد يوسف الصديق لمدينة الفيوم وحفره لبحيرة يوسف بإذن الله ذكر وفاة يوسف عليه السلام الفصل الخامس:
		٥٨	فى بيان آل الريان وذكرهم الفصل السادس:
		٦٠	ذكر من دخل مصر من الأنبياء عليهم السلام حكاية شرف نامه ذكر من دخل مصر من أهل بيت رسول

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
	دولة الدانشمنديين		الدولة السبكتكية
	دولة آل قره يوسفين، أى (دولة الشيء السوداء)		دولة آل غوره
	دولة آل آق قيونليين، أى (دولة الشيء البيضاء)		الدولة الخوارزمية
	دولة شاه شاهان إيران توران		الدولة السلجوقية
	دولة الدرينديين		دولة سلاجقة الروم
	دولة الشام خاليين		دولة تاج الدولة
	دولة الاوزبكه		دولة الاتابكة
	دولة الجنكيزيين		دولة آل عمرية
	دولة أبناء جنكيز		دولة الاتابكة الكبرى
	دولة الجنكيزيين فى بلاد ما وراء النهر		الصلاحيون
	دولة الطبقة الثالثة للجنكيزيين		دولة آل أيوب بن شاد الكردي
	دولة الطبقة الرابعة للجنكيزيين آل تيمور		دولة الجراكسة
	الكوركاني (صاحب خروج جهان)		دولة التركمانيين (آل كمانيان)
	دولة الطبقة الخامسة لآل جنكيز، أى أولاد تيمور		دولة الاكراد
	دولة الطبقة السادسة للجنكيزيين، أى أبناء تيمور كوركاني ملك الهند والسند		الدولة القره خايطية
	دولة ملوك السند		دولة الأيوبيين
	دولة ملوك مونتاني		دولة آل ملاح
	ذكر أحوال دولة خاقان الصين		دولة بنى آرتق
	دولة سلطان فغفور		دولة آل مروان
	ذكر أحوال دولة الديالة		دولة بنى مرداس الكلابى
			دولة آل بنى أسد
			دولة آل بنى حمدان
			دولة آل بنى عقيل بن أبى طالب
			دولة التركمانيين

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
١١١	دولة بنى البحرية		ذكر أحوال ملك بلخ
	دولة الجراكسة		دولة الانجوليين
	أول من ملك مصر من آل عثمان		دولة آل المظفر
	لطيقة صوفية		دولة آل الجوبانيين
	حكاية غربية		دولة الإبلكانيين
	الفصل الحادى عشر:		دولة آل كرتباى
	ذكر ثمانية وأربعين ملكًا وسلطانًا فى		دولة السرايديرين
	جزيرة مصر		ذكر دولة العباسيين
	مدح الجزيرة العظيمة أم الدنيا القديمة		دولة آل ساسان
	مصر القاهرة المعزية		دولة الديالة
	سلاطين أشراف الادارسة		دولة السلقريين
	سلاطين آل حمود		أكراد دول آل عباس
	سلاطين آل الموحدين		دولة الكيانيين
	سلاطين آل بنى طاش		دولة الاشكانيين
	سلاطين آل ملثمين		دولة آل قروانيين
	سلاطين آل بنى حرين		دولة آل مانيانيين
	سلاطين أشراف آل الكاملين		دولة آل ساسان
	دولة بنى الاغلب		دولة آل الماهانيين
	دولة بنى كلب		دولة آل بنى رسول
	دولة آل باديس		دولة أشراف مكة، أى دولة
	دولة آل بنى حفص		الهاشميين
	دولة سلاطين فاس		دولة أشراف مكة، أى دولة بنى قتادة
	دولة سلاطين مرانكش العظام		ذكر أحوال سلاطين مصر القاهرة المعزية
	دولة سلاطين السودان		ديار مصر والإخشيديون

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
	الطبقة الخامسة آل مكرل		وصف دولة سلاطين فونجستان
	الطبقة السادسة آل تاجدار - يعنى		دولة ملك بربرستان
	قوم المجر		دولة آل فرمانقة
	الطبقة السابعة ملك موسكو		دولة آل بنه ونسكى
	دولة بولندا		دولة ملوك ذى اليزن
	دولة جه		دولة بنى آل هلال
	دولة مجار أردل		دولة آل أفاريقة
	دولة أورتامجار - بمعنى المجر الوسطى		دولة ماى بورنو
	دولة إسفاح		دولة آفتو
	دولة فلمنك العتيقة بمعنى دولة		دولة ولاية الجزائر
	هولندا العتيقة		دولة ولاية تونس
	دولة الدانيمارك		دولة ولاية طرابلس المغرب
	دولة دونقارقيز		دولة ملوك الدُّمبييه
	دولة النمسا		دولة آل حاوية
	دولة الإنجليز		أوصاف دولة ملوك الحبشة
	دولة المجر الصغرى	١٢٣	الفصل الثانى عشر
	دولة البندقية وهى البلاء الاكبر		فى ذكر الملوك المشركين والضالين
	دولة دوبره ونديك		الذين سامت أحوالهم وأفعالهم
	ولاية التفاحه الحمراء أو دولة البابا		دولة كسرى
	دولة فرنسا		آل داديان
	دولة جنور		الطبقة الاولى من آل الجورجيين
	دولة إغراندوقه		الطبقة الثانية آل آجق باش
	دولة البرتغال		الطبقة الثالثة آل كوريل
	مملكة الافلاق		الطبقة الرابعة آل شوشاد

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
دولة بوغدان		ذكر أحوال الروس المنحوسين أى	
دولة بلاد الجركس		القزاق العققة	
ذكر الحكام الذين سكنوا صحراء		دولة آل قيصر الروم	
القبجاق وغيرها - دولة طيسى شاه		دولة القبط	
دولة مونجاق شاه ابن طيسى شاه		دولة اليونان	
دولة قويا قلمق		دولة البطالسة	
دولة جاقار قالمق		الفصل الثالث عشر:	١٣٨
دولة كوك دلى قالمق		ظهور دولة آل عثمان	
دولة أوروومبت قالمق		سبب غزو سليم لمصر	
دولة صفار قالمق		سيرة السلطان سليم خان	
ذكر أحوال الأبخاز الضالين		ذكر مجىء الأمير سليم من بغداد	
أولا ولاية أبخاز الجاج المشاعة مع		إلى الكعبة فى أول سياحة له	
مكرلستان ايله مشا اولان ولاية		استقلال الأمير سليم بالسلطنة	
ابخاز جاجلر		عام ٩١٨ هـ	
ولاية أبخاز ارلان		ذكر حرب السلطان سليم مع الشاه	
ولاية أبخاز جندالر		إسماعيل الصفوى فى جالديران	
ولاية أبخاز جندالر الكبار		قتل السلطان سليم الاول لإخوته	
ولاية أبخاز كجلر		وأبناء إخوته	
ولاية أبخاز ارتلر		ذكر حرب السلطان سليم الاول مع	
ولاية أبخاز صدنه		السلطان النورى فى طريقه لفتح مصر	
ولاية أبخاز قامش		أول هزيمة لحقت بالنورى على يد	
ولاية أبخاز سوجه لر		السلطان سليم الاول	
ولاية جراكسة البوزدوق		فتح قلعة دمشق	
ولاية عشيرة قوتاس الأبخاز		فى بيان قبر محيى الدين بن عربى	

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
١٩٠	الفصل السابع عشر: قوانين ديوان مصر فى عهد السلطان سليم فاتح مصر نادرة العصر دار سك العملة فى مصر أوصاف حكام مصر وسادة ديوانها ذكر الموظفين الذين يسقون فى الديوان بلا خلعة وأتباع الباشا ووظائف المتقاعدين منهم ذكر الإدارات المضحكة لأمين البحرين وعدد خزائن مصر نادرة العصر ذكر مقياس النيل المبارك وكثرة الناس وأنواع الحيوانات ووفرة الحمارين	١٧٦	فتح قلعة عزت الهاشم صلحاً حرب سليم مع الغورى وعاقبة أمر الغورى فتح قلعة القاهرة عام ٩٢٢ بعد معركة طاحنة الحصار الذى دار بين طومان باى والسلطان سليم وقتل طومان باى خير السلطان سليم الأول مع الفدائى كرتبائى فى قصر (أم القياس) الفصل الرابع عشر: ذهاب السلطان سليم إلى دمياط ورشيد والإسكندرية ذكر خزائن السلطان الغورى فى قلعة الإسكندرية
١٩٩	الفصل الثامن عشر: بيان قوانين السلطان سليم فيما يتعلق بجند الفرق السبع ورواتبهم	١٧٩	الفصل الخامس عشر: قوانين مصر فى دولة السلطان سليم بن با يزيد
٢٠١	الفصل التاسع عشر: ذكر موكب عسكر مصر بيان بجملته رواتب ما سلف ذكرهم من طوائف الجند	١٨٥	الفصل السادس عشر: ذكر كل من فى إيالة مصر من خليفة وأمر لواء وأمير سنجق وكاشف ومرتباتهم طبق قانون السلطان سليم فى ذكر من هم على منصب أمير الأمراء فى مصر
٢٠٨	الفصل العشرون: ذكر مولا مصر حكم حكومته وعوائد الفوائد وجميع محاكمه والقضاة فى أقاليم مصر ذكر الاقضية التابعة للقاضى فى مصر		

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
٢٥١	أوصاف سواقي بئر يوسف وغيرها من الآبار الأخرى قناطر السلطان الغورى فى مصر القديمة وأعدادها عدد دواليب ساقية قلعة قصر الباشا بيان بجميع الآبار فى مصر السفلى الفصل الثالث والعشرون:	٢٢٤	ذكر ما يدرس فى مدينة مصر من علوم فى بيان لهجة المصريين الخاصة أوصاف العلماء السادات الكرام نقباء الاشراف الفصل الحادى والعشرون: ذكر أول من بنى قلعة مصر المحروسة حكاية مناسبة إقامة الملك الناصر صلاح الدين قلعة مصر وصف قلعة مصر الداخلية أوصاف قلعة نارن والقلاع الأخرى ذكر قصر قره ميدان وطوله وعرضه ذكر طلاس القلعة الداخلية طلسم العقرب طلسم الثعبان طلسم الحية طلسم الحمى طلسم القولنج طلسم الطاعون طلسم الكلبتين الكلبين أوصاف قصر وزراء مصر أوصاف قصر وزير مصر أوصاف قاعة ديوان السلطان الغورى مدح قاعة ديوان السلطان قايتباى
٢٥٥	بيان بمحيط قلعة مصر السفلى وجميع أبوابها وأبراجها بيان البوابات فى مدينة مصر السفلى الفصل الرابع والعشرون: أوصاف الحارات والقصور العالية وغير ذلك من البيوت باب زويله		
٢٥٧	الفصل الخامس والعشرون: جوامع مصر المحروسة التى شيدها السلطين جامع عمرو بن العاص عجائب جامع عمرو بن العاص جامع أرمر القائد - أى الجامع الأزهر - جامع السلطان أحمد بن طولون كيف يكون السماع كالمشاهدة جامع الحاكم بأمر الله جامع الظاهر بيبرس		

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
جامع خاى آتابك		جامع السلطان المؤيد	
جامع السلطان عبد العزيز		جامع السلطان حسن بن محمد بن قلاوون	
جامع بيك خانه		جامع محمود باشا	
جامع عصام الدين		جامع ميرا خور الكبير	
جامع محمود بك		جامع السلطان الغورى	
جامع جانم بهلوان		ضريح السلطان الغورى	
جامع جان بكبه		جامع السلطان برقوق	
جامع امير الماس حاجب سلطاني		جامع الملك الكامل محمد	
جامع الشيخوخية		جامع السلطان ناصر الدين	
جامع المحمدى		جامع السلطان الطاهر	
جامع آلى برماق افندى		جامع السلطان قلاوون الصالحى	
جامع المرزبانبة		جامع السلطان الصالح	
جامع الداودية		جامع السلطان الاشرف	
جامع اسكندر باشا		جامع جان بولاد زاده	
جامع منجك اليوسفى		جامع السلطان بيبرس	
جامع الشيخ نظامى الأصفهانى		جامع السلطان صالح حاجى	
جامع العزب		جامع السلطان قان باى الشركسى	
جامع السلطان المؤيد		جامع أرسلان قاى	
جامع سليمان باشا		جامع السلطان قلاوون	
أوصاف جامع البرمشى		جامع السلطان الملك الناصر فرج	
أوصاف جامع القاشماس		جامع السلطان أوزبك	
أوصاف مسجد المهماندارية		جامع أم السلطان حسن	
جامع إبراهيم أغا		جامع السلطان مردان	
جامع خيريه بك المحمدى			

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
	جامع الشيخ الحلوتى		جامع مرزوق كفافى
	جامع بشك		جامع جمال الدين
	جامع نقيب الجيش		جامع السلطان سونقور
	جامع قره فوجه		جامع الخانقاه
	جامع كتكوت		جامع ولد عبادة
	جامع الامير لاجين		جامع الاصمعى
	جامع السلطان الجولى		جامع ميراخور
	جامع الامير يوسف اوزبك		جامع الايىض
٣٠٠	الفصل السادس والعشرون:		جامع خان باى
	المساجد الكبرى المشهورة فى مصر		جامع عبد القادر الطشطورى
	المحروسة		جامع المغارب
٣٠١	الفصل السابع والعشرون:		جامع العمرى
	المدارس فى مدينة القاهرة		جامع عابدين بك
٣٠٣	الفصل الثامن والعشرون:		جامع مرده بك اينالى
	دور الحديث التى بناها سلاطين		جامع الجندى
	السلف فى القاهرة		جامع الداودية الكبير
٣٠٤	الفصل التاسع والعشرون:		جامع المطهر
	دور القراء فى القاهرة		جامع البندقانى
٣٠٦	الفصل الثلاثون:		جامع حبشلى محمد كتخدا
	ذكر ما فى مصر أم الدنيا من مكاتب		جامع القيسونى
	أم الصبيان لتعليم القراءة		جامع الدبوشرى وجامع الهندى
٣٠٨	الفصل الحادى والثلاثون:		جامع كاتب السر الشيخ إبراهيم
	ذكر ما فى قاهرة المزم من تكايا الدراويش		جامع الحباينة
	تكايا سيد أحمد البدوى		جامع الشيخ الشعراوى

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
	تكية الإمام الحسين		تكايا الشيخ مرزوق كفافى
	تكية الشيخ إبراهيم الكلشنى		تكية الشيخ الرفاعى
	تكية القصر العينى		تكية الإمام الشافعى
	تكية حسن بابا البكتاشية		تكية الإمام أبى الليث
	تكية قيغيسر بابا البكتاشية		تكية أبى السعود الجارحى
	تكية عبد الله الانصارى		تكية السادات
	تكية سيدى عبد القادر الجيلانى		تكية عمر بن الفارض
	تكية قره قيا باشا فى قره ميدان		تكية الشيخ شاهين
	تكية مصلى سبيل المؤمنين فى ميدان الروملى		تكية الشيخ الجوشى
	تكية الكلشنى		تكية الشيخ عقبة بن عامر الجهنى
	تكية الشيخ فرج الله		تكية البساتين
	تكية الملك الأشرف		تكية زماة السهام
	تكية السلطان قايتباى		تكية السيدة نفيسة
	تكية السلطان طومانباى		تكية الشيخ نور الله البدوى
	تكية مولوى خانة		تكية سيدى زين العابدين
	تكية الطوبىخانه		تكية الشيخ الخلوئى
	تكية تيمور طاش		تكية الشيخ الشعراوى
	تكية السلطان الغورى		تكية شمس الدين الحنفى
	تكية قدم النبى - عليه السلام -		تكية الشيخونية
٣٣٠	الفصل الثانى والثلاثون:		تكية الشيخ العبارى
	ذكر ما فى القاهرة من مبرآت		تكية خوجكان
	مبرة السلطان قلاوون		تكية الأوريك
			التكية النظامية
			تكية الواحدى

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
٣٣٧	حَمَام السقا	٣٣١	الفصل الثالث والثلاثون:
	حَمَام قاضى العسكر		ذكر الحمامات فى مصر نادرة العصر
	حَمَام مرزوق		حَمَام سليمان باشا الطواشى
	حَمَام النساء		حَمَام مصطفى باشا
	حَمَام طيلون		حَمَام قنطرة الموسكى
	حَمَام الصلية		حَمَام جى جى على بك
	حَمَام الدود وحَمَام القيسونية		حَمَام الكلب
	حَمَام باب الوزير		حَمَام الخرونفيس
	حَمَام محكمة الصالحية		حَمَام البندقانى
	حَمَام قنطرة الليمون		حَمَام مهدية سلطان
	الفصل الرابع والثلاثون:		حَمَام باب الحرق
	ذكر وكالات سلاطين السلف		حَمَام الشيخ البكرى
	وزرائهم ووكلائهم		حَمَام القبودان
	خان الحناء		حَمَام تحت الربع
	خان دويدار الكبير		حَمَام عابدين بك
	خان دويدار الصغير		حَمَام قنطرة السنقر
٣٤٠	خان ذى الفقار كتخدا		حَمَام سوق الدلال
	خان كتخدا محمد الحبشى		حَمَام بشتك
	خان الناصرية		حَمَام قيسريه لى إبراهيم كتخدا
	الفصل الخامس والثلاثون:		حَمَام الدرب الاحمر
	ذكر ما فى فسطاط مصر من		حَمَام الصوباشى
	البيمارستانات والمستشفيات		حَمَام بائعى السكر
	بيمارستان مقام موسى		حَمَام الخرابة
	بيمارستان الجامع الازهر		حَمَام بقرجى باشا

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
بيمارستان السلطان المؤيد		بيان عام بما فى القاهرة من آبار وأحواض وأسواق	
أوصاف مستشفى السلطان قلاوون العام		الفصل الثامن والثلاثون:	٣٦٦
أوصاف صنع مستحضرات الترياق		بيان جميع الخلجان التى يبقى منها كل ذى روح فى القاهرة وجميع الناس فيها	
الفاروقى العظيم		الفصل الأربعون:	٣٧٢
عبرة عظيمة عند تخضير الترياق الفاروقى		ذكر البرك التى تشبه البحار داخل مدينة القاهرة	
عبرة أخرى		سبب تسمية بركة الفيل	
فوائد مسلولق الأفاعى		إجمالى عدد البرك فى مدينة القاهرة	
حادثة		الفصل الحادى والأربعون:	٣٧٩
فوائد تعاطى مستحضرات الترياق الفاروقى		أوصاف مدينة ميناء بولاق المشهورة فى الآفاق	
لطيفة مرغوبة من أجل طائفة الجماع		جامع السلطان بيبرس	
ذكر ميزات حية الصفى		جامع سنان باشا	
ميزة أخرى للحية العجيبة		جامع زرقداس	
لطيفة غريبة		دار صناعة السفن السلطانية	
حكاية أغرب الغرائب العجيبة		قصر السبتية	
مستحضرات الترياق الفاروقى		الفصل الثانى والأربعون:	٣٨٤
المستخرج من قرص الأفعى		أوصاف مصيف مدينة السلطان قايتباى	
ترياق الحكيم هاليوشى		جامع السلطان قايتباى	
الفصل السادس والثلاثون:	٣٥٨	مناقب أثر قدم النبى ﷺ	
فى ذكرى ما بهب الحياة لأهل القاهرة		فى بيان الرؤيا التى رآها السلطان أحمد بخصوص قدم النبى ﷺ	
من أسئلة وخلجان وبرك وأحواض وآبار			
أشهر أسئلة مدينة القاهرة			
إحدى عجائب مدينة القاهرة			
الفصل السابع والثلاثون:	٣٦٣		
ذكر ينابيع مدينة القاهرة			

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
٤٠٨	ذكر سواقى مصر العتيقة الفصل الرابع والأربعون: ذكر قطع النيل الذى يهب مصر الحياة والثراء أوصاف نقطة النيل المبارك مناقب الشيخ السادات قصة فيضان النيل أوصاف جزيرة روضة أم القياس أوصاف حوض أم القياس حادثة السلطان سليم الأول فى قصر أم القياس وصف جزيرة الروضة أو جزيرة أم القياس	٣٩٤	جامع السلطان فرج بن برقوق جامع السلطان الأشرف جامع الأمير الكبير جامع السلطان إينال جامع السلطان الغورى جامع السلطان جقماق جامع السلطان فرج جامع السلطان طومان باى (أى العادلية) جامع السلطان الطويل الفصل الثالث والأربعون: أوصاف مدينة الفسطاط القديمة، أى مصر القديمة أم الدنيا العظيمة حكام مصر العتيقة وصف قلعة مصر العتيقة جامع عمرو بن العاص جامع السلطان محمد بن قلاوون جامع الأمير عابدين جامع محمد بن حسين الكوفى (ذو النارة المائلة) جامع السلطان جقمق جامع الملك الطاهر جامع الشيخ حسن السويدي مخازن الغلال التى بناها يوسف الصديق عليه السلام، (أتبار يوسف)
٤٢٣	الفصل الخامس والأربعون: وصف الموكب الثانى لقطع النيل وصف موكب قطع النيل موكب أمراء مصر وصف قطع النيل وصف القائمين بالألعاب النارية المهرة		
٤٣٦	الفصل السادس والأربعون: أوصاف نهر النيل المبارك وهو ماء الرحمة أهم المدن الواقعة على فرع دمياط المدن التى يمر بها فرع دمياط بعد تفرعه من (بطن البقر) ذكر الميزات الحسنة لمصر		

الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة
ذكر الأفعال الشائعة فى مصر وصف جرة جابرة مصر أسماء الشهور باللغة القبطية ذكر مضار ماء النيل الفصل السابع والأربعون: حيوانات النيل وصفاتها وميزاتها العدو للدود للتمساح عدو لدود آخر للتمساح عجبية من العجائب حكاية غريبة عن تمساح النيل سبب جماع الناس للتمساح حكمة الله فى ميزة التمساح صفات الصقثفور طلاسم المقياس من أجل التمساح فرس النيل سمكة الرعاد ميزة هذه السمكة خاصية التمساح عجبية مضحكة حكمة عجبية الفصل الثامن والأربعون: وصف الموكب الثالث، وهو موكب رؤية هلال رمضان المبارك (أى موكب المحتسب)	٤٤٧	ليلة رؤية هلال شهر رمضان المبارك الفصل التاسع والأربعون: بيان ما فى القاهرة من دكاكين طوائف الحرف وأعداد العاملين بها طائفة الزياتين بانعى الزيت الحار طائفة كبير المعارين طوائف نجارى السفن طوائف الخبازين وتجار الغلال طوائف القصابين طوائف الطهاة طوائف البقالين وبائعى الصابون وبائعى الحمص طائفة الجراحين طائفة صانعى السيوف طوائف الحدادين طوائف صانعى المراحل طوائف الصاغة طوائف الحلاجين طوائف الخيامية طائفة صانعى السهام والقسى طائفة الفرائين طائفة نساغى كسوة الكعبة الشريفة طائفة الدباغين طوائف الخفافين - أى الإسكافية -	٤٤٦ ٤٥٨

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
	والديوان العثماني وأفراح القاهرة ذكر دخول وزراء مصر إلى القاهرة قادمين من العادلية لأول مرة رسالة تحذير لوزراء مصر بشأن التشريفات وصية إبراهيم باشا لوزراء مصر الموكب السابع لمصر حينما يعزل الباشا ويخرج مكرماً وصية أوليا لوزراء مصر الموكب الثامن وهو موكب وصول مقرر وزير مصر الموكب التاسع موكب إرسال خزانة مصر إلى الأستانة بيان بجميع قرى مصر وإجمالى أكياس الخزانة وعددها ودرهمها ذكر موكب خزانة مصر الموكب العاشر موكب الفرقة العسكرية المختصة بالخزانة الموكب الحادى عشر موكب إرسال الباشا «منحة العيد» إلى السلطان الموكب الثانى عشر موكب وصول السيف والقباء الموكب الثالث عشر موكب الصرة المحمدية من مصر القاهرة إلى الشام الموكب الرابع عشر موكب الكسوة		طوائف السراجين طائفة العطارين طائفة الحمامية طائفة نقاشى القسى تجار خان الخليلي طائفة المهرجين طائفة الموسيقيين موكب جند مصر الفصل التاسع والأربعون: ذكر أهل الصناعات فى مصر ممن لا وجود لهم فى غيرها من البلاد فى بيان قبائع مصر وطوائف الصوباشى الفصل الخمسون: طوائف الحرفيين ممن لا وجود لهم فى القاهرة والموجودين فى البلاد الأخرى الفصل الحادى الخمسون: الموكب الرابع فى مصر وهو موكب العيد ومظاهر البهجة والسرور الموكب الخامس وهو موكب عيد الأضحى الفصل الثانى والخمسون: الموكب السادس للأعياد وطبق ما جاء فى قانون مصر وهو موكب دخول الباشا مصر ذكر موكب العادلية والولائم الربانية

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
	الفصل الواحد والعشرون فى بيان موكب العقبة ومصاريف الجنود والخزينة فصل فى المواكب المتفرقة الفصل الثانى والعشرون فى بيان قدوم موكب أمير الحج من الكعبة إلى منزل البركة وقضائه تلك الليلة هناك فصل فى بيان محلة الاكواب الشهيرة عظيمة الخيرات تابع الفصل الثانى والعشرون فى بيان قدوم أمير الحج من الحج الفصل الثالث والعشرون فى بيان موكب خزينة الصقر الفصل الرابع والعشرون فى بيان موكب قدوم البنطال والسيف والقفطان إلى وزير مصر الفصل الخامس والعشرون فى بيان دخول قاضى مصر وموكب العلماء فى بيان موكب مولا مصر الفصل السادس والعشرون فى بيان موكب أمير جزجا الفصل السابع والعشرون فى بيان موكب الأسطول الهمايونى الفصل الثامن والعشرون فى بيان خزينة مصاريف شموع وبخور وعود		السوداء للكعبة الموكب الخامس عشر موكب أمير الحج وخزاة نفقات مكة والمدينة والحجاج موكب أمير الحج باشا عبور ما تحمله القافلة من أمتعة مع أمير الحج ذكر سبب المحمل الشريف وذكر كبار المشايخ الموكب السادس عشر وصول حملة الشاغل والعكامين من القاهرة إلى بليس أوصاف المحمل الشريف الموكب السادس عشر موكب وصول الخزاة من مصر إلى مكة والمدينة الموكب السابع عشر موكب خزاة الصرة ونفقات تعمير الحرمين الشريفين الموكب الثامن عشر خزاة النفقات اليومية للجند المعينين مع أمير الحج الموكب التاسع عشر وهو موكب خزاة الأوقاف والثى تسلم لأمير الحج الفصل التاسع عشر مواكب الجند المكلفين بالذهاب إلى الأراضى المقدسة من الأوجاقات ومظاهر عظيمهم الفصل العشرون فى بيان الموكب البهيج لجند أزم وخزائهم ومصاريفهم

رقم الصفحة	الموضوع	رقم الصفحة	الموضوع
	الفصل الثامن والأربعون خزينة مصر		العنبر الخاص بموكب مكة والمدينة
	الفصل الخامس والخمسون فى بيان		الفصل الثانى والعشرون فى بيان
	الخبزينة المحصلة من طائفة التجار فى		أحوال الطعام والشراب
	بنادر مصر السبعة		الفصل الثالث والعشرون فى بيان
	الفصل الستون فى بيان الأموال التى		السبعة آلاف قنطار من البارود الأسود
	تحصلها خزينة مصر من التجار		الفصل الرابع والعشرون فى
	القادمين إلى البنادر السبعة		متحصلات شيخ مصر والستة
	الفصل الخامس والستون فى بيان		والأربعين قاض فى ولاية مصر
	تحصيل خزينتين لمصر من الحرف		الفصل الخامس والعشرون فى بيان
	البالغ عددها مائة وسبعين حرفة		خبزينة مصر من أوقاف السلاطين
	الفصل الثالث والسبعون فى بيان		الماضية وأوقاف الوزراء وأعيان
	خبزينة الحبوب الواردة إلى أنبار		وأشراف القضاة
	يوسف - عليه السلام - فى مصر		الفصل التاسع والعشرون فى بيان
	الفصل الثانى والخمسون فى		الذى يتحصل من الأموال المصرية
	تشرىفات قوانين عوائد وزراء مصر		الفصل الثالث والثلاثون فى بيان الخزينة
٦٠٠	المحتوى		التى يحصلها وزير مصر للأغوات
			أصحاب المراتب الثلاث والعشرين
			الفصل التاسع والثلاثون فى بيان
			الخزائن المحصلة من الأمراء الخمسة
			وعشرين فى مصر وأمراء الشراكسة
			الأربعين وسائر الأعيان
			الفصل الرابع والأربعون فى بيان
			تحصيل ثلاثة خزائن أخرى للحرفيين
			من خزينة مصر